

مجلة المناهل

مجلة فصلية تصدر عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة -قطاع الثقافة-

ملف العدد

مدن وحواضر مغربية

يناير - فبراير - مارس 2020
جمادى الأولى - جمادى الثانية - رجب 1441

العدد : 98



مجلة فصلية تصدر عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة - قطاع الثقافة-

ملف العـــدد

مدن وحواضر مغربية



مجلة فصلية تصدر عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة - قطاع الثقافة-

السلسلة الجديدة ـ العدد: 98

جمادى الأولى ـ جمادى الثانية ـ رجب 1441 (يناير ـ فبراير ـ مارس 2020)

الإيداع القانوني: 1974/6

الرقم التسلسلي الدولي القياسي: 0851/0253

التصميم والطباعة: مطبعة دار المناهل: Tél: 05 37 77 15 16

Email: contact.idam@minculture.gov.ma

العنوان البريدي للمجلة: 1 زنقة غاندي ـ الرباط

العنوان الالكتروني للمجلة: r.manahil 2019@gmail.com

الهاتـــف: 0537274090/0537274091

الفاكـــس: 0537274093

الفهرس

افتتاحية العدد: محمد مصطفى القباج ـ مدير المجلة 7

ملف العدد: مدن وحواضر مغربية

تنسيق وإعداد خالد بن الصغير وحسن الصادقي

حسن رامو
تراث المدينة العتيقة المغربية وتحديات التهيئة والتعمير
نموذج تجربة مدينة الصويرة (المغرب) 13

محمد اللبار
مسألة تأسيس مدينة فاس: التاريخ والإشكالية 41

محمد الملوكي
قصبة الخميس المرينية بمدينة فاس: دراسة تاريخية ومعمارية 71

ناصرة كزناي
مدينة الرباط العتيقة، خصوصيات التصميم والطراز 89

فاطمة بوشمال
شـفـشـاون: حاضرة شريفة بملامح أندلسية و قسمات جبلية 121

سمير أيت أومغار ولوبنى زبير
النسيج الحضري بمدينة أسفي خلال العصر الوسيط 149

نور الدين صادق
الخصائص العمرانية والمعمارية للمدينة العتيقة بتارودانت:ملاحظات أولية 183

محمد البوزيدي
قصور واحات الجنوب الشرقي بين الماضي والحاضر 215

عبد الواحد مهداوي
التنظيم العمراني والمعماري بقصور المغرب الشرقي: قصر الزاوية الصادقية نموذجا 231

عبد السلام الجعماطي
تيكِسَاس حاضرة بلاد غمارة 249

لحسن تاوشيخت
من حاضرة سجلماسة إلى قصور تافيلالت 263

صباح علاش
ملاحظات وتحريات مصدرية وأركيولوجية حول قلعة حجر النسر 299

ترجمــات

جان هانسينس-ترجمة عبد العالي المراني
بحث وطني حول الإسكان القروي التقليدي في المغرب سنة 1970 321

مقــالات

عبد الإلاه بلقزيز
في الإصلاح وراهنيته 345

محمد الدريج
ما بين اللسانيات التطبيقية وديداكتيك اللغات 369

قـــراءات

محمد مصطفى القباج
مساءلة البداهات: منهج ضروري لإنجاز عملية التنوير المجتمعي 411

نص تراثي محقق

عبد العزيز بنعبد الجليل
الكشف عن رسالتين في الموسيقى لأحمد بن خالد الناصري السلاوي 419

شروط النشر 471
مواضيع ملفات الأعداد القادمة 472

افتتاحية العـــدد

افتتاحيّـة

من خلال اسْتِقراء السيرورات التّاريخيّة والجغرافيّة يظهر أنّ نشأة المدن والحواضر تخضع لعوامل ومعايير تتصدّرها ما يُؤمن موارد العيش، وما يُلبي الحاجة إلى الاستقرار السّكّاني، بالإضافة إلى ما يجود به النّضج المعرفي وعطاءات المخيال من أساليب وعناصر التجميل المتوافقة مع الهويّة الذّاتيّة والموضوعيّة المتجَلّيّة في المنشآت المادّيّة والرّوحيّة، وما إلى ذلك من المُركّبات التي تُسعِف في التّخطيط المديني والهنْدسة المعماريّة، باستعمال ما هو مُتاح من موادّ البناء والمهارات البشريّة الموروثة أو المُكتسبة.

هذا الانْهِجَاس العمراني هو الذي أسسه وعمقه العلامة المغاربي عبدالرّحمن ابن خلدون في مشروعه العلمي وإبداعه لِصنفٍ معرفيٍّ يصف ويُحلل ويُعلل به النقلة من البداوة إلى التّحضّر، أي التّحوّل من التّجمّع البدوي إلى التّجمّع الحضري.

اعتماداً على الاجتهادات الخلدونيّة ومن مكاسب التّراث العربي الإسلامي عَكَف باحثون مختصّون، على إنجاز دراسات نظريّة ومَيْدانيّة للمدن من أجل فهمٍ دقيقٍ للأسباب التي أدّت إلى نُشوء الحواضر، وتخطيطِ الأمصار، وحَرَكيّةِ المدن، ومراحلِ ازدهارها، وفنونها، وثقافتها، وصناعاتها المستحدثة، وحرفها التّقليديّة، ومعالمها الأثريّة. كلّ ذلك بتوافق مع النظرة الجهويّة المتطورة والمنفتحة، وبما يعكس التطلّعات التي تَتَغيا الانخراط في منطق العصر، تأمينا للتوازن بين الأصالة والمعاصرة، بين مكاسب القَدامة ومستجدات الحداثة.

لقد أصبح هذا الانشغال المعماري يقع على كاهل الدّولة والمجتمع في آن، سواء على مستوى القِطاعات الحكوميّة أو على مستوى الهيآت والمؤسّسات المنتخبة وطنيّا وجهويّا ومحليا، من خلال ما أصبح متعارفا عليه راهنا تحت مُسمى الجهويّة المتقدمة المؤسسة

على لا مركزيّة المدن والجهات. طبعاً لا نَغفَلُ البتةَ أهمّية الدّور الذي يقوم به المجتمع المدنيّ بسائر تخصّصاته، وكذا أهمية ما يقوم به الأكاديميون من مباحث تُعاين ماضي وحاضر التّجمّعات السّكّانيّة، وتبيّن معالم تطوّرها.

مجمل هذه المعالجات، حكوميّة أو مدنيّة أو أكاديميّة، تُفضي مؤكّداً إلى وضع السّياسة التّعميريّة بمتطلّباتها الاستراتيجيّة، كمرجعيّة عامّة لمواجهة أيّ مشكلٍ طارِئٍ يعوق استقرار المدن، وتُسهم في تَحقِيق المنجزات التي تُلبي الحاجيات المُستجدّة للسّاكِنة. ومن البديهيّ أنْ تُستخلص من المتابعة العلميّة لماضي وحاضر المدن، التّدابير المثلى التي تجعل التّجمعات السّكّانيّة منفتحة على بعضها في نَهج تكاملي للحفاظ على الهويّة الوطنيّة كما يُحددها منطوق الدّستور المغربيّ لسنة 2011.

وبالفعل لا أحد يمكنه أن يتنكّر للدّور الفعّال والإيجابي الذي يقوم به الباحثون المغاربة، على مستوى البحث النّظري أو على مستوى البحث الميداني، في مقاربة الإشكاليّة العامّة للعمران والتّعمير، توصيفا وتحليلا وتَعْليلا لأحوال مدننا وحواضرنا الكبيرة والمتوسّطة والصّغيرة من منظور عدّة تخصّصات علميّة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: السّوسيولوجيا والانثروبولوجيا والاثنوغرافيا، وعلوم الاقتصاد والقانون والتّخصصات الهنْدسيّة والإدارية ...

هذا الزخم من المعطيات ذات الصلة بالمدن والحواضر المغربية، هو ما لاحَظَتْه المجلّة مُتوفّراً في مضامين مِلفٍّ كانت قد أعدّته الهيئة المشرفة عليها قبل أن تتوقّف عن الصدور أواخر سنة 2013، مما جعل المجلّة في سلسلتها الجديدة أواخر سنة 2019 تقرر نشر هذا الملفّ، وفاءً للجهود السّابقة، وتَعْميما للفائدة منه.

يضمّ هذا الملفّ جملة من النّصوص المتنوِّعة بأقلام باحثين لهم اهتمام بهذا المجال بحكم تجربتهم العلميّة، أو بحكم انتمائهم للمدن والحواضر التي يقيمون بها، بحيث تتراوح هذه النّصوص بين المهتمّ بالمدن العتيقة، وبين المهتمّ بالحصون والقصبات والقلاع، وبين المهتمّ بـ «القصور»* في جهات المملكة، وخاصّة في الجنوب الشّرقــي

* فضاءات عامة مخصصة للسكان القرويين «الكَصور»

كشكل مُصغّر للمدينة. كما لا تخلو نصوص الملفّ من طُروحات تعالج إشكاليّات التّأسيس والمؤسّسين وتاريخ التأسيس، والتّسمية والتطوّر العمراني والمعماري... الخ

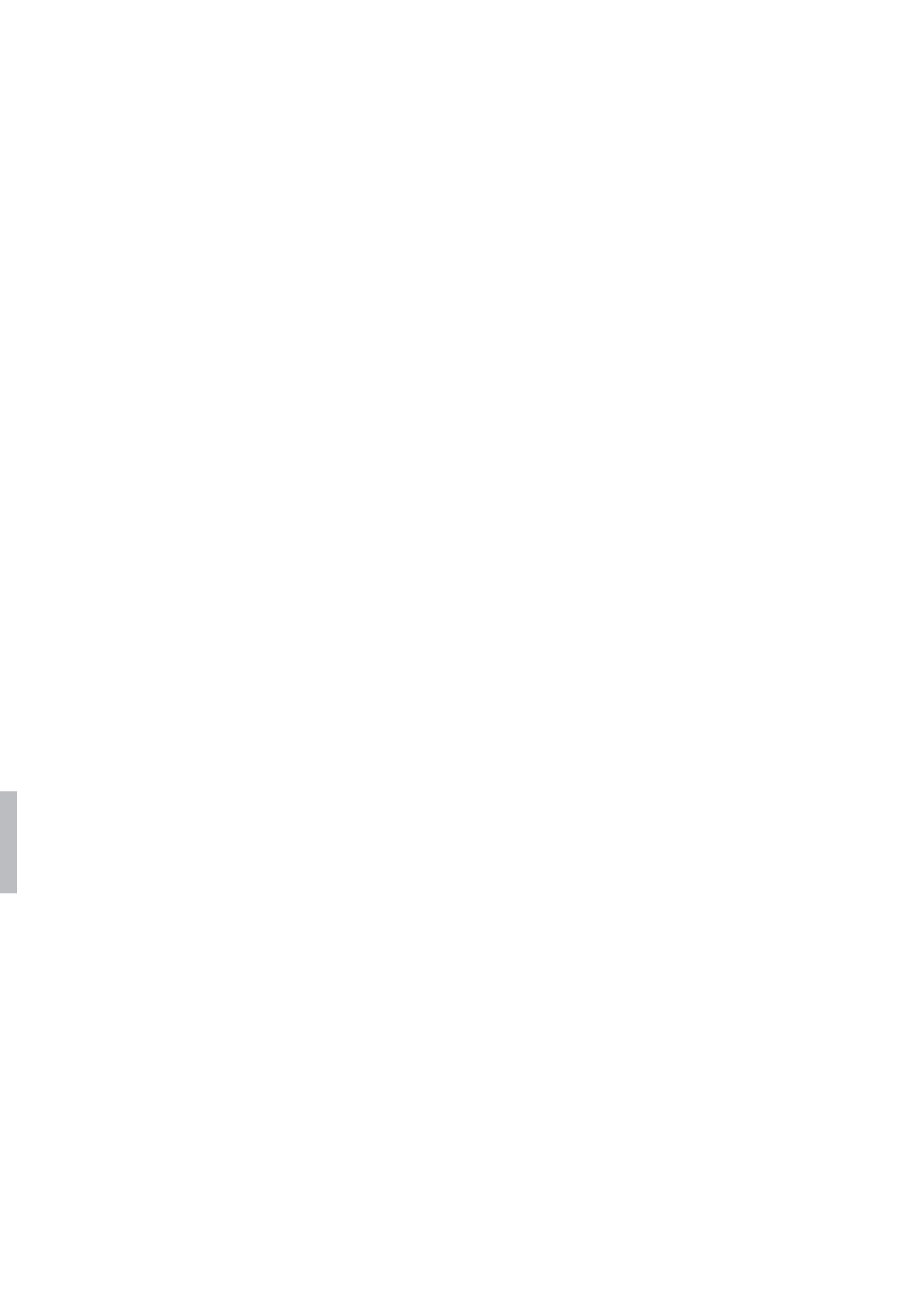
إضافة إلى هذا وذاك لا يغفل الملفّ طرح المعالم الكُبْرى لبعض المدن والقصبات والقصور مثل الأسوار والأبواب والأبراج وموادّ البناء، وخصوصيّاتها المعماريّة وأحياناً السكنيّة وذكر السّكّان والحِرَف التّقليديّة وعلاقتها بمحيطها، وإكراهات تَأْهِيلها، وسُبل إنقاذها، ووسائل ترميمها وصيانتها، وطرح عوامل التَّحول من مدينة عريقة إلى مجموعة من القصور والقصبات بعد خراب الحاضرة الأمّ، كما هو حال مدينة سجلماسة كمثال فريد لضعفٍ بعد قوّة، وانقسامٍ بعد وحدة، نتيجة عوامل سيّاسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة ومُناخيّة، وانتقال إشعاعها الحضاري إلى مجموعة من القصور. ومن المعلوم أنّ المغرب غنيٌّ بالقِلاع والقصبات والحصون والقصور، صُنف بعضها تُراثا عالميّا، وبعضها طواه الزّمان كقصبة ݣناوة بسلا.

ومما يُسبِغ أهمّية بالغة على مضمون الملفّ، الحديث عن التّجمعات السّكانية في الجنوب الشّرقي المعروفة بالقُصور، وهي تراث معماري غنيّ ومُتنوِّع له خصوصيّاته من حيث الموقع، وموادّ وطرق البناء، مثل الطّابية والحجارة والآجُر والجِبس والخشب والخَزف والزّخرفة وتصميم البناء وهندسته؛ بعض هذه «الكَصور» ساهم في تأسيسها شيوخُ زوايا وطرقٍ صوفيّة، فهي زوايا صوفيّة وقصور، أو قصر – زاوية مثل قصر الزّاوية الجديدة بالرتَب بتافيلالت.

ولمجلّة (**المناهل**)، في سلسلتها الجديدة، اليقين بأنّ نشر هذا الملف سيُحفز الباحثين المغاربة المُختصّين في هذا المجال على مواصلة موافاتِها بما يُستجدُّ من مباحث ومعارف تَرصُد أحوال مدننا وحواضرنا.

محمد مصطفى القباج

مدير المجلة



ملف العدد

مدن وحواضر مغربية

تنسيق وإعداد خالد بن الصغير وحسن الصادقي
جامعة محمد الخامس بالرباط

تراث المدينة العتيقة المغربية وتحديات التهيئة والتعمير
نموذج تجربة مدينة الصويرة (المغرب)

حسن رامو
أستاذ باحث بمعهد الدراسات الإفريقية
جامعة محمد الخامس - الرباط

تقديـــم

تعتبر المدينة العتيقة نموذجا متفردا للتجمعات البشرية على مستوى حوض المتوسط، إن على مستوى عمرانها أو تهيئتها أو قيمها المعمارية والهندسية. وبالنظر لظرفية إنشائها ومميزاتها العمرانية ومسار تطورها التاريخي، فإن المدن العتيقة المغربية تتقاطع فيما بينها في عدد من الخصائص وحتى على مستوى التحديات الكبرى التي تواجه تأهيلها. فقد صمدت لأكثر من ألف قرن محافظة على تركيبتها العمرانية وتهيئتها الأصيلة وقيَمِها العمرانية والمعمارية؛ الأمر الذي مكن من تصنيف عدد منها كتراث لليونسكو (فاس، مراكش، تطوان، مكناس، الصويرة الخ). غير أنها، ومنذ بداية القرن الماضي، عرفت وبدون استثناء عدة تحولات مجالية وعمرانية وديموغرافية، مما هدد الموروث العمراني الأصيل لها ولقيمها المعمارية؛ الأمر الذي يقتضي تبني تدخلات خاصة بها قصد تأهيلها وتجديدها.

على المستوى الدولي، فإن عددا من التجارب والسياسات قد طبِّقت لحلحلة مشاكل هذه الأنسجة العمرانية العتيقة: فمنها ما يسمى بالإنقاذ (حالة فاس أو بجاية) أو منها ما يقتصر على الترميم أو إعادة التثمين. كما أن هناك تجارب لإعادة الهيكلة أو للتأهيل

الحضري أو إعادة التأهيل. كما نجد نماذج مدن عتيقة تبنت سياسات عميقة من قبيل التجديد الحضري (صفاقس، A. Donzel 2013) أو سياسات الارتقاء الحضري أو مقاربة التدبير المندمج او تبني سياسة المشروع الحضري (برشلونة H.Guy 1992).

وتتباين هذه السياسات بحسب طبيعة المشاكل والتحديات التي تواجه المدينة العتيقة وبحسب إرادة الفاعليين والمسؤولين عن التدبير الحضري. ففي حالة الصويرة المصنفة من طرف اليونسكو، همت التدخلات عدة عمليات التهيئة والتعمير والتدبير الحضري وفق مقاربات قطاعية ذات طبيعة إستعجالية بقيت حبيسة التجديد الحضري أو التأهيل الحضري، دون أن تنخرط في إطار مقاربة شمولية للتدبير الحضري المندمج أو لتبني مشروع حضري للمدينة.

يروم هذا المقال عرض أهم تحديات المدن العتيقة بالمغرب من وجهة نظر التهيئة والتعمير للتراث الحضري مع الوقوف على تجربة مدينة الصويرة باعتبارها حالة فريدة انتقلت من مظاهر مختلفة للتدهور العمراني والتراثي والاختناق الحضري إلى مدينة مصنفة تراثا عالميا تبنت عدة آليات التأهيل الحضري.

الكلمات المفاتيح: المدينة العتيقة، التهيئة الحضرية، تدبير التراث الحضري، التعمير، الصويرة.

I- المدينة العتيقة وآليات التهيئة والتعمير

تواجه المدن العتيقة بالمغرب عدة تحديات على مستوى التهيئة والتعمير وتثمين التراث. فإكراهات المدن العتيقة وحجم التحولات التي عرفتها وما تزال تعرفها تحتم على صاحب القرار اختيار سياسة إرادية لحل المشاكل العالقة سواء وفق مقاربة عملياتية (الإنقاذ، التأهيل، الترميم، ...) أو مقاربة مشروعاتية (التدبير الحضري المندمج أو المشروع الحضري،). لكن وقبل بدء تحليل الإشكالية، نود التفصيل في بعض المفاهيم الأساسية وتعريف مختلف السياسات الحضرية والتي تبقى كمصطلحات مهيكلة للمقال:

1. المدينـة العتيقـة:

يعتبر مصطلح médina من المصطلحات الجغرافية المقتبسة من أصلها العربي والذي يقابله مصطلح المدينة العتيقة. وتعود البدايات الأولى لإدراج المصطلح في المعاجم الأوروبية الى القرن الثامن عشر الميلادي والذي صنف عدة مدن عتيقة اسبانية في خانة médina وعممت فيما بعد على المدن العتيقة لشمال إفريقيا والشرق الأوسط. وقد ظهر هذا المصطلح مع الفترة الاستعمارية التي أنتجت «المدينة الجديدة والأوروبية» والتي تختلف عن المدينة «التاريخية» أو «العتيقة» أو «مدينة الأهالي».

وبالنظر لتاريخ المملكة العريق، فإن المجتمع المغربي عرف الظاهرة الحضرية منذ القدم، سواء خلال التاريخ القديم (مدن أمازيغية، رومانية، الخ) أوفي العصر الوسيط، حيت تطورت شبكة من المدن من قبيل سجلماسة وتمدولت وتارودانت ووجدة وفاس ومراكش وغيرها.

ومن خلال استقراء عدد من المصادر والمراجع المختصة، يمكن تعريف هذه المدن «العتيقة» médina بكونها تجمعات بشرية لمجتمعات حضرية غير قروية، تتركز اساسا بحوض المتوسط والشرق الأوسط والتي نشأت في ظرفية تاريخية لفترات ما قبل الاستعمار ارتباطا بالثقافة العربية الإسلامية. على مستوى المعمار، تتميز هذه المدن بكونها مغلقة داخل أسوارها ومنفتحة على محيطها من خلال عدد من الأبواب التي تحمل أسماء وأماكينية لها دلالتها الاجتماعية أو القبلية أو الجغرافية وتؤدي وظائف معينة. ووفق منظور التهيئة، غالبا ما نميز في المدينة العتيقة المغربية بين مجموعة من المجالات لكل منها وظائف خاصة:

- مجال مركزي يحتله في الغالب المسجد الجامع أو الجامع الكبير أو الساحة؛
- المجال السكني والذي يخضع بدوره الى توزيع مجالي تتحكم فيه الأبعاد الاجتماعية (الحي الراقي، أحياء الحرفيين الخ)[1] أو القبلية[2]؛

---

1 . من نماذج ذلك حي المواسين بمراكش الذي احتضن كبار العائلات المراكشية مقابل حي باب الدباغ المحتضن لعائلات الحرفيين أو حي الملاح المحتضن لليهود.

2 . حالة الصويرة التي تحتضن تجمعات ذات صبغة قبلية من قبيل حي الشبانات وحي أهل أوكادير أو حالة فاس المحتضنة لعدوة القرويين وعدوة الأندلسيين.

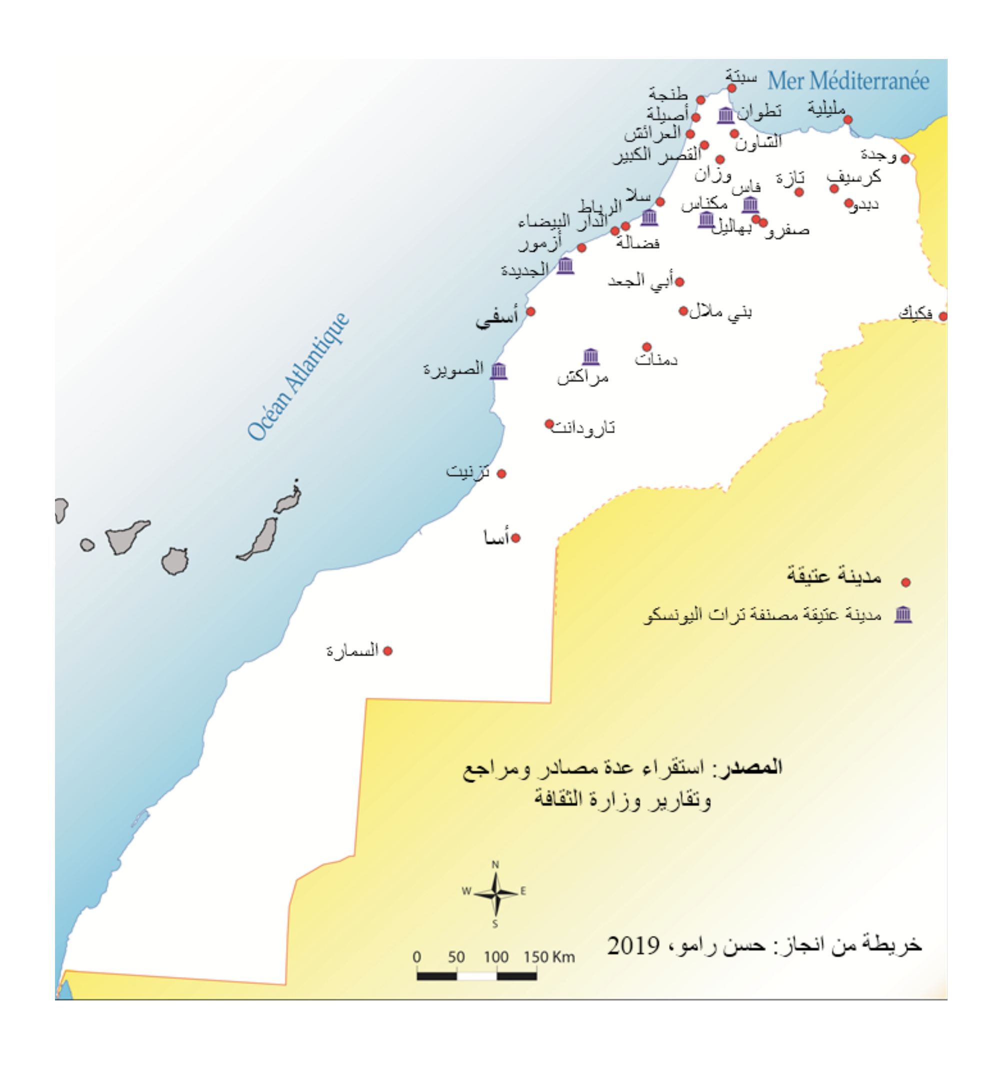
· المجالات المخزنية (القصبة، أكدال، المشور، دار القاضي، دار المخزن، الخ)؛
· المجال التجاري الذي تحتله الأسواق المنظّمة وفق تجميع التجار بحسب طبيعة المنتوجات (سوق الجلد، سوق العطارين، الرحبة، الخ)؛
· المجال الحرفي الذي قد ينفصل مجاليا عن المجال التجاري كما هو الحال بالنسبة لدار الدباغ؛
· مجالات التنقل والتي تهم أساسا الأزقة والممرات العمومية والتي تتميز بالضيق وبالإلتوائية (انعدام تخطيط حدود الطرق العامة l'alignement) والتي تغطيها في عدة حالات البنايات والمنازل الخاصة؛
· إضافة إلى ذلك، تحتضن المدينة مجالات خضراء خاصة بالعراصي أو السواني أو الحدائق والتي تتواجد داخل المدينة.

2ـ مفاهيم سياسات التهيئة الحضرية:

تندرج ضمن هذه الخانة سلسلة من التدخلات التي يتداولها الباحثون وصاحب القرار والاعلاميون لكن دون أن يتم التحديد الدقيق لمضمونها ووظائفها؛ بل يحدث في كثير من الأحيان تكرار استخدام المصطلح نفسه للدلالة على عمليات ووضعيات متباينة (عبد المجيد هلال، 2016). ومن بين هذه التدخلات والعمليات الإجرائية التي تهم المدن العتيقة:

ـ **الإنقاذ Sauvegarde والترميم Restauration:** عمليات تقنية يحاول من خلالها صاحب القرار الحفاظ على التراث العمراني للمدينة العتيقة كما هو الحال في مدينة فاس أو برامج قصور الجنوب المغربي. غير أنها تتباين على مستوى الأجرأة؛ فالترميم يحاول، وفق عمليات تقنية، استرجاع القيم المعمارية والعمرانية لبناية أو مجموعة بنايات داخل المدينة العتيقة وفق خبرات المختصين؛ بينما الإنقاذ يحاول المحافظة على خصوصيات التهيئة القديمة واحترام القيم العمرانية والمعمارية للمدينة العتيقة من خلال مقاربة قانونية وإدارية من قبيل فرض احترام الخصوصيات التاريخية والمورفولوجية والمعمارية والعمرانية للمدينة العتيقة

على البنيات الجديدة المستحدثة (تقنين على مستوى التصاميم ورخص البناء وأشكال التهيئة). كل ذلك بغرض إنقاذ المعمار والتهيئة الأصيلة للمدينة العتيقة.



خريطة رقم 1: التجمعات الحضرية المصنفة كمدن عتيقة وتوزيعها بالمغرب

ـ التأهيل الحضري:Mise à niveau urbaine، وإعادة التأهيل réhabilitation urbaine: تهدف السياستين معا إلى تجويد ظروف العيش بالمدينة العتيقة سواء من خلال استدراك الاختلالات المجالية، خاصة توفير المرافق الأساسية ودعم البنيات التحتية (طرق، شبكات الماء والكهرباء والتطهير) والإنارة العمومية ومرافق القرب والحدائق وهنا نتحدث عن التأهيل الحضري؛ أو من خلال استعادة قيم الاستعمال الأصلية لعدد من الأحياء (حي الملاح، الأحياء الحرفية، الخ) واستعادة الخصوصيات المعمارية والحضرية الأصلية للمباني والأحياء التي بدأت تفقد أو فقدت استعمالاتها الأصلية، وفي هذا الصدد نتحدث عن إعادة التأهيل.

ـ التثمين الحضري أو بالأحرى إعادة التثمين الحضري revalorisation urbaine

في الغالب ما يستعمل إعلاميا مصطلح التثمين الحضري valorisation بينما المقصود فعليا إعادة التثمين والذي يقتضي القيام بتدخلات الغرض منها إعطاء قيمة إضافية للمدينة العتيقة سواء كانت اقتصادية أو معمارية أو جمالية أو تراثية. وتعتبر هذه السياسة أداة أساسية لتهيئة القيم التراثية والثقافية للمدن العتيقة وتحسين جاذبيتها والرفع من قيمها الجمالية خاصة على مستوى واجهات المباني أو على مستوى الرزمانة الثقافية للمدينة. لذلك، تكتسي أنشطة التنمية السياحية والتنشيط الفني والثقافي أحد أهم ركائز هذه السياسة.

ـ إعادة الهيكلة Restructuration: تقتضي العملية هيكلة الأحياء الناقصة التجهيز بالمدينة العتيقة ومدها بالبنيات الأساسية من ماء شروب وشبكة التطهير وكهرباء وفتح الطرق ومواكبة السكان لإعادة هيكلة المباني المهددة بالانهيار وفق التصاميم والقوانين المحددة من طرف المؤسسات المدبّرة للمجال والتراث الحضري (البلدية، الوكالة الحضرية، مندوبية الثقافة).

كما يمكن أن يتبنى صاحب القرار سياسات أكثر شمولية تعتمد على مقاربة مشروعاتية والتي نجد منها:

ـ **التحديث الحضري Renouvellement urbain** والذي غالبا ما يتم الخلط مع التجديد الحضري rénovation urbaine فالتحديث الحضري هو تصور متكامل لتطور المجال الحضري وتحديثه مع ما يرافق ذلك من إعادة بناء المدينة وفق الحاجيات الجديدة بهدف الحد من التوسع الأفقي والتقليل من المجالات الشبه حضرية لصالح تثمين مركز المدينة العتيقة. وهي السياسة التي تتبنى التقنيات الحديثة في العمارة الايكولوجية. وقد تطورت هذه المقاربة منذ الثمانينات من القرن الماضي وهمت أساسا تقوية مركز المدينة على حساب المناطق الصناعية التي نشأت في القرن الماضي بجوار المركز العتيق[3]. في حين أن التجديد الحضري يهم أساسا العمليات الموجهة نحو الأحياء الفقيرة بغرض تنويع طبيعة السكن وإعادة تهيئتها لتيسير الولوجية والتنقل من وإلى مركز المدينة العتيقة (فرض قرارات تخطيط حدود الطرق العامة arrêté d'alignement، مخططات تحسين التنقل... كما هو حال مشروع محج الحسن الثاني بالدار لبيضاء).

ـ المشروع الحضري Projet urbain: على عكس المقاربات الكلاسيكية للتدبير الحضري (التصميم المديري للتهيئة الحضرية، مشروع التنمية الجماعاتية، الخ) يعتبر المشروع الحضري مقاربة مرنة ومفتوحة وقابلة للإغناء. فهو تخطيط يعتمد على تشخيص الحالة الراهنة وتحديد الاتجاهات والأهداف على المدى المتوسط والبعيد، والتي تتم أجرأتها من خلال رزمانة مشاريع حضرية تصب في تحقيق التصور المنشود والمحدد سلفا. وتعد هذه المقاربة أكثر شيوعا وتتبناها حاليا غالبية المدن الأوروبية، فهو سياسة عمومية تسمح بتحديد إطار واستراتيجيات العمل في أفق مسايرة التحولات أو التغيرات الحضرية؛ مع الأخذ بعين الاعتبار توجهات وانتظارات الساكنة والفاعلين في المجال الحضري (Alain Avitabile, 2005).

3. كما هو حال الحي الصناعي دوار العسكر بجانب حدائق المنارة بمراكش أو الحي الصناعي الجريفات بالصويرة.

أنشأ لأغراض عسكرية للحد من تحركات القبائل أو أغراض اقتصادية (أساسا تجارة القوافل الصحراوية) أو سياسية أو غيرها. وبالتالي فإن ظروف النشأة في فترات ما قبل الاستعمار [illegible] عليها عدة عوامل أهمها العامل الأمني وهو ما تفسره مواقع ومواضع المدن العتيقة (موضع حافة، موضع منيع بحاشية الجبل، موضع بالساحل) وتصاميمها كتجمعات سكانية حبيسة الأسوار. وبطبيعة الحال، فإن ذلك حدّ فيما بعد من توسع المدينة خاصة بالنسبة للمدن المتواجدة بمواقع جغرافية محصنة (مواضع الجبل كحالة الشاون وتطوان، مواضع مصبات الأنهار كأزمور أو بالمجال الساحلي كأسفي والجديدة أو في الممرات الجبلية كتازة ودمنات).

ويتضح ذلك أكثر من خلال نموذج مدينة الصويرة المحصورة بين المحيط الأطلسي شمالا وغربا والكثبان الرملية شرقا، ويحدها جنوبا واد القصب. وساهم هذا الموقع إلى حد كبير في تحديد مستقبل المدينة من حيث توسعها ومن حيث نوعية المشاكل التي تعترض نموها العمراني والحضري.

في حالات أخرى، وبالنظر للتهيئة القديمة وحاجيات السكان المحدودة في فترة ما قبل الاستعمار، فإن المدينة القديمة ورثت هيكلة عمرانية ومعمارية متسمة بضيق الممرات وتراص البنايات مما يحول في وضع الشبكات الحضرية (ماء، كهرباء وإنارة عمومية، صرف صحي، طرق) وبالتالي، لم تستطع مواكبة التحولات والحاجيات الجديدة للسكان؛ الأمر الذي أنتج عددا من الأحياء الناقصة التجهيز. فالتحدي الكبير هو مدى مسايرة البلديات للاستجابة للحاجيات المتزايدة للسكان من التجهيزات لكن مع الحفاظ على التهيئة القديمة والقيم العمرانية والمعمارية للمدينة العتيقة. ففي مدينة الصويرة تشكو ساكنة حي الملاح من الخصاص في التجهيزات الأساسية؛ إذ أن أكثر من نصف ساكنة الحي تعاني من عدم التزود بالماء الشروب (56 %)، وعدم الربط بشبكة الكهرباء

(18%) كما أن المدينة لم تعد تعرف أصلا حركية للسيارات والشاحنات بالنظر لضعف ولوجيتها وضيق أزقتها.

1. تناسل كوارث انهيارات المنازل والمعالم الثقافية التراثية

أضحى من المعلوم أن المدن العتيقة تجابه ظاهرة البنايات الآيلة للانهيار. وهي ظاهرة لا تكاد تستثني أي مدينة عتيقة. ففي الدار البيضاء، سجلت كوارث انهيار البنايات المؤدية الى مقتل المواطنين سنوات 2009 (مقتل شخص واحد وجرح 14 شخص)، وفي سنة 2012 (مقتل سبعة أشخاص في حادثين منفصلين) وفي دجنبر 2014 (انهيار ثلاثة منازل في وفاة شخصين وجرح خمسة أشخاص). بينما شهدت فاس أحداث مميتة كان أهمها سنوات 1985 (53 ضحية) وغشت 1999 (47 ضحية). وهي نفس الوضعية في كل من مكناس ومراكش وأسفي. ووفق تقارير هيئات التعمير (مندوبيات السكنى، الوكالات الحضرية، الخ) فإن الظاهرة تمس 31 مدينة عتيقة و740 ألف مسكن أي ما يمثل 5,4 % من البنايات.

على مستوى نموذج الدراسة، عرفت الصويرة عدة انهيارات للمنازل كان أهمها سنة 1985 بكل من حي الملاح والحي الصناعي الجريفات. ويكمن مشكل الملاح، الملاصق للسور المحاذي للبحر، في تعرض هذا الحي للانهيار نتيجة حركية الأمواج التي أضحت تضرب مباشرة في السور وهو ما خلق عدة فجوات بقاعدة الأسوار وأتى على أساسات البنايات بالحي. فالمدينة كما هو معروف شيدت في موضع هش طبيعيا لا يتعدى علوه 7 أمتار ومحصور بين الغور شرقا والبحر غربا وشمالا.

إضافة إلى انهيار البنايات الخاصة، تشكو المدن العتيقة عموما من تدهور متقدم للقيم التراثية والثقافية والتاريخية المرتبطة بالشق العمراني والمعماري. فتآكل الأسوار التاريخية وتناسل البنايات الجديدة الإسمنتية وفق التصاميم العصرية أثرت على النسيج العمراني الأصلي. وهو ما يهدد عدد من المعالم التاريخية سواء المرتبطة بالتراث الأندلسي أو المعمار الكولونيالي[4] أو غيرها من عناصر التراث الثقافي.

4. لعل أبرز نموذج هي حالة البنايات الموروثة عن الفترة الاستعمارية بالدار البيضاء والرباط والجديدة.

حالة المساكن/ الحي	القصبة	بني عنتر	الشبانات	درب اكادير	الملاح القديم	الملاح	المجموع
متوسطة%	83.2	78	64.5	80.4	75.7	50.3	**72**
متدهورة%	9.7	15.4	23.2	14.1	18.2	29.3	**18.3**
مهددة% بالهدم	5.4	4.3	1.04	4.3	3.6	15	**7.2**
هدمت%	**1.6**	**2**	**1.7**	**1**	**2.4**	**5.4**	**2.5**

جـدول رقم 1: وضعية المساكن بالمدينـة العتيقـة

المصدر: Plan d'aménagement de la Medina d'Essaouira juin 2003

على مستوى مدينة الصويرة، وإضافة إلى إشكالية تدهور التراث المعماري اليهودي، تتعرض المعالم التاريخية للتدهور خاصة الأسوار والأبواب والصقالات والحصون والميناء التاريخي. فالسور الشمالي المواجه للمحيط تعرض منذ بداية الثمانينات إلى تهدم أجزائه السفلية بسبب التعرية البحرية. كما تعتري حالة التدهور كذلك الصقالات والحصن الغربي المقابل للميناء وحصن باب مراكش والذي أعيد ترميمه مؤخرا.

كما أن الأحياء اليهودية (الملاح والحارات) تعتبر الحلقة الأضعف في مسار التدهور الثقافي والتراثي بالنظر للإفراغ الكبير والخروج الجماعي لليهود خلال الستينات والسبعينات. وهو ما أحدث فراغا سكانيا بالمدن العتيقة، لكن سرعان ما تمّ تعويضه بأفواج من المهاجرين من أصل قروي. وهذا ما أثر على التراث التاريخي وشكل أكبر تحدي للمحافظة على التراث اليهودي بالمدن العتيقة وخاصة بمدن صفرو والصويرة ومراكش ودبدو ودمنات والرباط وغيرها.

1ـ ضغط الهجرة القروية على المدينة العتيقة

بالنظر إلى المدينة العتيقة كتجمع حضري، فإنها شكلت منذ الاستقلال مركز استقطاب الساكنة القروية وخاصة في أحياء معينة. فالمدينة العتيقة في فترة ما بعد الاستقلال كانت تعرف تركز الأنشطة الخدماتية والإدارية والصناعية؛ كما كان بعضها

نواة ومركز الإقليم (حالة الرباط، فاس، مكناس، تطوان، الخ). إذ أنه ومن خلال تتبع نسب النمو الديموغرافي للمدن العتيقة، فإنها عرفت طفرة كبيرة خاصة مع جفاف الثمانينات ونزوح عدد كبير من القرويين للمدن. ويتضح ذلك من خلال إحصاء 1971 و1984 ثم 1994 وبخاصة المدن العتيقة لكبريات الحواضر كفاس ومكناس والمدن الساحلية خاصة الرباط وسلا والدار البيضاء والجديدة والتي عرفت انفجارا ديموغرافيا ووتيرة نمو تفوق 7 %.

وهي نفس الحال بمدينة الصويرة التي تضاعف عدد السكان بها 3,8 مرة خلال 78 سنة الأخيرة[5]، ويمكن تأريخ طفرة الهجرة القروية بالمدينة مع الفراغ الذي أحدثته هجرة اليهود وإفراغ حي الملاح الذي وفّر ملاذا سكنيا للفئات الهشة اجتماعيا. وقد عرفت المدينة في الفترة ما بين 1982 و1994، معدل هجرة بلغ 0.5 % وهو ما شكّل 21 % من معدل النمو الديموغرافي، لكون أكثر من 33 % من ساكنة الصويرة مزدادون خارج المدينة، ويبقى نموها رهين هجرة قروية من نفس الإقليم؛ باعتبار أن 74,4 % من المهاجرين بالصويرة هم من أصل قروي.[6]

2ـ التحدي الاجتماعي المصاحب لارتفاع الكثافة السكانية

أدى ارتفاع الهجرة القروية والنمو الديموغرافي المضطرد إلى ارتفاع الكثافة السكانية بالمدينة العتيقة. ولذلك نجد أن مدنا كفاس أو مكناس أو سلا تسجل كثافات سكانية جد مرتفعة. وباعتبار الأصول القروية للساكنة وظروف السكن فإن المدن العتيقة اتسمت بوضع اجتماعي هش. وبحسب المندوبية السامية للتخطيط، تسجل نسب الفقر مستويات عالية بجماعة المدينة العتيقة، تفوق المعدل الحضري للمدينة (حالة مراكش، سلا، آسفي وغيرها).

من خلال نموذج الصويرة يتضح أن الكثافة السكانية تصل الى 1167 نسمة في الهكتار بالمدينة العتيقة، غير أن بعض الأحياء التي تستقطب المهاجرين كالملاح مثلا

5. Ministère de l'Aménagement du territoire, de l'urbanisme de l'environnement de l'habitat, «Etude architecturale de la Médina d'Essaouira», Rapport d'analyse et de diagnostic, avril 1998.

6. Etude de la base socio-économique de l'aire urbaine d'Essaouira; Schéma Directeur d'Aménagement Urbain; Mai 1999.

يسجل كثافة قياسية بلغت 2500 نسمة في الهكتار. ومع ذلك نسجل اتجاها تنازليا لهذا الوزن الديموغرافي ما بين السنوات إذ أنه سنة 1971 عرفت المدينة العتيقة تكدسا للسكان بنسبة 85 % من أصل مجموع الساكنة، في حين لم تتجاوز هذه النسبة سنة 1982 سقف 67 %، بينما وصلت سنة 1994 الى حدود 46 % وتقدر بأقل من 40 % في سنة 2017.

وتتضح أهمية الكثافة السكانية بالمدينة من خلال مؤشر عدد الأسر القاطنة بالمدينة أو عدد الغرف التي تشغلها: فمن خلال الإحصائيات المتوفرة عبر الإحصاءات العامة للسكان والسكنى، ففي المتوسط 47 % من الأسر تقطن بمنازل مكونة من غرفة إلى غرفتين، و43 % تقطن ثلاثة غرف و6.7 % فقط من يملكون مسكنا من أكثر من 4 غرف.

في حين نسجل أن معدل السكن داخل المدينة العتيقة يقل مع ازدياد عدد الغرف داخل المسكن الواحد، فمثلا حي الملاح يضم 24 % من أسر مدينة الصويرة على مساحة 4 هكتار، ويسجل بذلك أعلى الكثافات بالإقليم، و58.6 % من الأسر القاطنة بحي الملاح تقتسم مسكنها مع أكثر من أسرة واحدة، و3/2 من السكان يقتسم كل 3 أفراد منهم غرفة واحدة. ويقطن بالملاح ما قدره 30 % من الأسر التي تسكن في إطار نظام تساكني بالمدينة، كما أن 90 % من سكان الملاح ليسوا مالكين لمنازلهم.

تلك هي أهم التحديات التي تجابه المدينة العتيقة (بنية عمرانية وتهيئة قديمة ناتجة عن ظروف النشأة، الكثافة السكانية العالية، تدهور التراث المعماري والعمراني). غير أن آليات التدخل المؤسساتي (البلدية، السلطات المحلية) غالبا ما تصطدم بالوضع الاجتماعي الهش للأسر وبالتعقيدات العقارية. ينضاف إلى ذلك أحيانا، إنعدام رؤية شمولية لآليات التدخل لدى الفاعل العمومي أو ضعف الموارد المالية والخبرات التقنية. وهذا ما حدث بالصويرة حيث أن فترة الثمانينات شكلت نقطة تحول بالمدينة بسبب انهيار البنايات والتي عرّت عن المشاكل الحضرية الكثيرة ودفعت بالفعاليات العمومية والجمعوية الوطنية والدولية إلى تبني جملة تدابير لحماية التراث المعماري والثقافي للمدينة وحلحلة مشاكلها.

III. آليات ومسلسل التدخل بالصويرة لحلحلة مشاكل المدينة العتيقة: دراسة حالة الصويرة

نبّهت الكارثة المميتة المشار إليها سلفا إلى ضرورة تبني سياسة حضرية جديدة. وقد انخرط في هذا التوجه كل من السلطات العمومية والمنتخَبة على المستوى المحلي. كما اتسمت تجربة الصويرة بخصوصيات كان من أهمها انخراط النسيج الجمعوي المحلي والوطني[7] والذي وظف شبكة علاقاته لتنشيط واستقطاب عدة أطراف من التعاون الدولي. كما تسجل هذه التجربة حضورا بارزا للوسط الأكاديمي بانخراط عدة جامعات أوروبية في المشاريع المنجزة. وتجدر الإشارة إلى أن تأخر إنشاء الوكالة الحضرية بمدينة الصويرة والتي لم تحدث إلا في سنة 2007 ساهم في تغييب التخطيط الحضري بالمدينة.

1.3ـ إطلاق مذكرة 21 والحضور المتزايد للفاعل الأجنبي: انطلاق مسار الاصلاح

تعتبر تجربة مذكرة 21 التابعة لصندوق الأمم المتحدة للمستوطنات الحضرية أحد أهم آليات التعاون الدولي ورافعة أساسية لإصلاح المدينة العتيقة. فالتجربة انطلقت بالمغرب من مدينة الصويرة والتي انخرطت كتجربة نموذج[8]، وتم تعميميهما فيما بعد على عدد من المدن المغربية. وساهمت مشاريع هذه الخلية إلى حد كبير في بناء تصور عام للمدينة وتحديد الأولويات على مستوى المشاريع بمدينة الصويرة. وقد مثلت المشاكل المعروضة أعلاه أهم التحديات والأولويات لتجديد المدينة وتأهيلها. فمع انطلاق تجربة مذكرة 21 سنة 1996 كانت المحاور الأولى للتدخل تنحصر في:

- تدبير التراث الثقافي للمدينة؛
- إيجاد حلول لمشكل حي الملاح المتداعي للانهيار؛
- خلق حزام اخضر حول المدينة ومساحات خضراء بها لضبط التوسع العمراني الغير معقلن.

7. لا بد من الإشادة في هذا السياق بالدور الهام لجمعية الصويرة موگادور وأساسا الدور المحوري للعضو المؤسس لها السيد أندري أزولاي مستشار صاحب الجلالة.

8. بدأ عمل الوكالة الحضرية بالصويرة سنة 2007.

إلى حدود 2007 وفي غياب وكالة حضرية خاصة بالمدينة، اتخذت مذكرة 21 شكل خلية محلية تابعة للسلطات المحلية. إذ عملت على التنسيق بين مختلف الفاعلين الوطنيين والشركاء الدوليين بغرض ترسيم سياسة انقاذ المدينة وضمان تجديدها وحل مشاكلها العمرانية. وقد انطلق التعاون الدولي في هذا المشروع في البداية مع التعاون البلجيكي (مع إحدى الجامعات البلجيكية، Université Catholique de Leuwen) وبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية وبلدية الصويرة. وتكمن مساهمة التعاون البلجيكي على توفير جزء من التمويل مع تقديم الاستشارة والخبرة من طرف أكاديمي جامعة لوفان. كما ساهمت البلدية كذلك جزئيا في تمويل المشروع وتنفيذه. لكن التجربة اصطدمت بمشاكل مالية مباشرة بعد انتخابات 2003، سرعان ما تم تجاوزها مع توافد فاعلين دوليين آخرين.

عمدت التجربة إلى وضع خطة انقاذ المدينة العتيقة وتنفيذها. وكيفما كانت الحصيلة على مستوى هذه الأهداف، وبالرغم من مشاكل الحكامة بين الفاعلين المحليين، إلا أن التجربة عرفت نجاحا نوعيا وخاصة مع تدويل مشاكل المدينة بانخراط وإشراك عدد من الفاعلين الدوليين؛ إذ أن خلية مذكرة 21 قوّت آليات التعاون الدولي وتمّ بالتالي استقطاب فاعلين دوليين كبار من قبيل اليونسكو أو الاتحاد الأوروبي أو التعاون الثنائي الدولي (الألماني، الفرنسي، الخ)، إضافة إلى انخراط عدد من المراكز والمعاهد والجامعات الأوربية. وهذا ما سمح بتراكم التمويلات من جهة وإنتاج كم كبير من الخبرات والتي كانت البلدية في حاجة ماسّة إليها وبالتالي حل جزء من المشاكل الحضرية. كما كان لتناسل الفاعلين الدوليين دور كبير سواء على مستوى تنظير المشاريع وفق مقاربات علمية رصينة متجاوزا المقاربات الضيقة للفاعلين المحليين (السلطات المنتخبة أو المحلية) أو على مستوى التمويل المالي للمشاريع المسطرة. على مستوى تدبير التراث الثقافي، توجت هذه المجهودات بتصنيف مدينة الصويرة من طرف اليونسكو كتراث عالمي.

2ـ 3ـ المحافظة على التراث المعماري للمدينة العتيقة وتأهيله كمحور للتجديد الحضري

تعتبر الصويرة المدينة العتيقة متفردة بالمغرب باعتبار بنائها وفق مخطط عمراني أوروبي. وقد احتضنت على مدى قرون من التأسيس عدة معالم تاريخية وثقافية وعمرانية (الأسوار، الميناء التاريخي، الصقالات، الأبراج، القصبة، المساجد العتيقة، الملاح، الخ). واتسمت بالغنى المعماري والثقافي وهو ما أهلها لتُصنف كتراث عالمي. لكن وبناءا على تقارير خبراء اليونسكو خاصة تقرير فبراير 1996 وتقرير أبريل 1997 فالتراث المعماري للصويرة معرض للتدهور مع تسجيل التقريرين انعدام أي مشروع للترميم والمحافظة على التراث التاريخي والمعماري وأساسا للأسوار التاريخية. كما أن كارثة نهاية الثمانينات خربت عدة أجزاء من السور الخارجي ومن حي الملاح.

وبالنظر للتهديدات والتدهور المتسارع لعمرانها، مقابل احتضانها لترات ثقافي ومعماري ذائع الصيت فإن التدخلات اكتست طابعا استعجاليا ودوليا. فمع خلية مذكرة 21 وبمساهمة اليونسكو استطاع الفاعلون المحليون (أساسا البلدية ووزارة الثقافة والسلطات المحلية) انجاز عدة أنشطة تهم المحافظة على التراث المعماري، منها ما هو مرتبط بعمليات الترميم على غرار مشروع ترميم الأسوار التاريخية بناءا على شراكة بين البلدية مع كتابة الدولة للشؤون الثقافية ومنها ما هو مرتبط بالدراسات والخبرات من قبيل:

- دراسة ميدانية تهم الجانب المعماري والجانب السوسيو اقتصادي بحي الملاح في إطار مذكرة 21 الصويرة سنة 2001؛
- خمس دراسات خبرة لإيجاد حل لمشكل التعرية البحرية التي تهم السور الشمالي وباقي مكونات السور التاريخي للمدينة؛
- دراسة حول التعرية البحرية وأثرها على السور التاريخي من طرف مهندس خاص شتنبر1996؛

- تنظيم ورشات للهندسة المعمارية 1997 و1998 من معاهد رين وباريس فرنسا بغرض إصدار خطاطات معمارية عن المدينة العتيقة وإصدار دليل الترميم والبناء للمدينة العتيقة للصويرة من طرف مهندسين معماريين ومهندسين من معاهد فرنسية.

كما أن تدخل مذكرة 21 همّ أساسا تدبير التراث الثقافي والمعماري للصويرة وترميم حي الملاح المهدد بالانهيار. وتهم مشاريع المحافظة على التراث الثقافي بالصويرة أساسا:

- إجراء دراسات وأعمال الترميم لمجموعة من البنايات التاريخية خاصة قنصلية الدانمارك والكنيسة البرتغالية والحصن الغربي إضافة إلى صقالة المرسى ومجموعة من الأبواب التاريخية؛
- إغلاق فجوات السور الخارجي الملاصق للملاح والذي تهدم جزئيا بفعل التعرية البحرية. وكذا ترميم جزء من الأسوار المحاذية للبحر وذلك بتمويل من اليونسكو مع البلدية. لكن بالنظر للصعوبات التقنية للمشروع فقد تم تمويل عدة دراسات وخبرات تقنية كما تمت الإشارة إليها أعلاه؛
- ترميم الأسوار التاريخية للمدينة من جهة البر والذي انطلق سنة 1998 بشراكة مع وزارة الثقافة وتمويلات أجنبية؛
- ترميم الحصن الغربي المتآكل بفعل التعرية البحرية وذلك بتمويل من مذكرة 21 والتعاون الفرنسي والسلطات المحلية؛
- بخصوص المشاريع الاستعجالية لحماية سور الملاح والحي من آليات التعرية البحرية، فقد عمدت سلطات المدينة إلى تبني عدة مقاربات لم تكن في جلها موفقة. فللحد من ضربات الأمواج في قاعدة السور التاريخي وحي الملاح الملاصق له تمّ إعادة بناء القاعدة والأساسات بمواد الاسمنت المسلح مع ردم المجالات المقابلة له بأكياس من الرمل والرصيص ومخلفات البناء. وهذا ما ساهم في تفاقم الوضعية وسرّع من وثيرة التدهور لكون الأمواج تستغل المواد الإسمنتية والحجرية لقصف قاعدة السور الخارجي. كما أن السور المبني أساسا من الجير

عرف تصدعات على مستوى اتصاله بالقاعدة الإسمنتية. وهو ما دفع بالبرنامج إلى طلب خبرات دولية من طرف متخصصين في المجال بغرض إيجاد حل جذري للمشكل.

بعد تفعيل هذه المشاريع وترميم أهم الأسوار والأبراج والأبواب التاريخية جاء التقرير الثالث لليونسكو يونيو 2000 إيجابيا مما سمح للمدينة بتصنيفها كتراث عالمي للإنسانية من طرف اليونسكو. وعمل هذا التصنيف على تحسيس الفاعلين بالمدينة على ضرورة تبني سياسة لتأهيل وتحسين المدينة. كما رسخت التجربة السابقة ثقافة معينة لدى المسئولين المحليين كان أهم معالمها حتمية بناء تصور شمولي للتدخلات عوض المشاريع الظرفية الترقيعية وكذا ضرورة طرق أبواب التعاون الدولي لضمان التمويل والخبرات التقنية؛ مما جعل من المدينة ورشا مفتوحا بطريقة شبه دائمة.

3ـ 3ـ حل مشاكل حي الملاح وإنقاذ التراث المعماري اليهودي

أظهر تهدم جزء من حي الملاح عمق مشاكل المدينة العتيقة. فالحي «المهمش»، استقطب منذ سنوات الخمسينات والستينات تيارات الهجرة القروية. كما احتضن ساكنة تدخل ضمن خانة «الفقيرة جدا» إذ إن 42 % من أرباب الأسر لهم دخل أقل من 1000درهم. كما أن الكثافة السكانية عالية جدا تفوق 2000 شخص/هكتار. فالحي يعرف اكتظاظا مهولا بينما لا يمكن للحي توفير السكن إلا لـ 900 أسرة فقط لضمان توفرها على ظروف العيش اللائقة.[9]

بالتنسيق مع خلية مذكرة 21، تم إقرار إعادة إسكان الأسرة من الحي إلى تجزئات خارج أسوار المدينة. وأظهرت عملية الترحيل مدى الاكتظاظ الكبير، فعلى سبيل المثال، تم ترحيل 44 أسرة من منزل واحد (منزل رقم 64 بحي الملاح)، وإعادة إسكانها من طرف السلطات المحلية عبر عدة عمليات سكنية «تجزئة تافوكت»، كما ساهمت المذكرة في وضع تصور لتجزئات خاصة بالسكن الاجتماعي من خلال إعادة إسكان 180 أسرة

9. Schéma directeur d'aménagement urbain de l'aire urbaine d'Essaouira, variantes d'aménagement 1996, Essaouira, rapport inédit..

بحي أزلف خارج المدينة العتيقة، وتم تخصيص 200 مسكن من أجل إعادة إسكان 600 أسرة (أي ما يمثل 3 أسر لكل مسكن) على مساحة 10 هكتارات. كما ستتبنى المدينة سلسلة قرارات نوعية اخرى من أجل تخفيف الضغط الديموغرافي على المدينة العتيقة.

كما عرفت عدة أجزاء من الحي اليهودي عمليات الترميم وتدخلات التأهيل الحضري (تحسين الصرف الصحي، الإنارة، الترصيص، الخ) وشملت عمليات الترميم المعبد اليهودي. غير أن حل مشاكل الملاح ما تزال مطروحة بحدة لعدة اعتبارات ترتبط أساسا بالجانب العقاري باعتبار ان عددا من البنايات في ملكية خاصة لليهود الذين هجروا المغرب أواسط القرن الماضي. أضف الى ذلك الصعوبات التقنية والمالية. كما أن الإطار الاجتماعي يفرض نفسه بقوة مع ما يقتضيه ذلك من تمويلات ضخمة؛ للإشارة فقط، فإن عدد الأسر التي تم إحصاؤها بغرض إعادة الإيواء قد وصل سنة 2000 إلى 1680 أسرة ولم يتم إعادة إيواء سوى 180 أسرة فقط؛ وشكل عددها سنة 2003 324 أسرة و288 أسرة سنة 2009، أي ما مجموعه 792 أسرة لكن ما تزال أكثر من 900 أسرة تسكن في منازل آيلة للانهيار في انعدام للتجهيزات الضرورية (ماء شروب، صرف صحي).

3-4- ظاهرة التحسين العمراني la gentrification urbaine

تعتبر بالنظر لعولمة الأنماط المعيشية والتيارات السياحية الكبيرة، عرفت عدد من المدن العتيقة بالمغرب كمراكش والرباط وفاس ظاهرة التحسين العمراني. فمدينة الصويرة لم تبق بمعزل عن هذه الظاهرة خاصة بعد تصنيفها تراثا للإنسانية. فالمدينة استقطبت عدة زوار قدموا كسائحين وفضلوا الاستقرار بها نهائيا وهو الأمر الذي ساهم في إقحامهم المدينة لمسلسل عمليات من التحسين العمراني. فالنواة القديمة للمدينة استقطبت عدة أجانب عملوا على اقتناء دور وبنايات عتيقة. وتلا ذك أنشطة التجديد العمراني وإعادة البناء وفق التصاميم العتيقة والخصوصيات العمرانية والهندسية المحلية.

وقد عرفت المدينة منذ بداية سنوات 2000 أهم عمليات اقتناء العقارات من طرف الأوروبيين خاصة الفرنسيين والايطاليين. وبخلاف حالة مراكش أو فاس واللتان تميزتا

بغلبة اقتناء الرياضات (الدور التي تتوسطها حدائق)، فإن حالة الصويرة تفردت باقتناء الدور ذات التصميم المغربي والتي تتوسطها غالبا باحة متوسطة وتتكون من طابقين إلى ثلاث طوابق. من خلال سلسلة مقابلات مع عدد من الفاعلين العقاريين والسياحيين يتضح أن التقاسيم الكبرى لظاهرة التحسين العقاري والسياحي لمدينة الصويرة تتسم بالخصوصيات التالية:

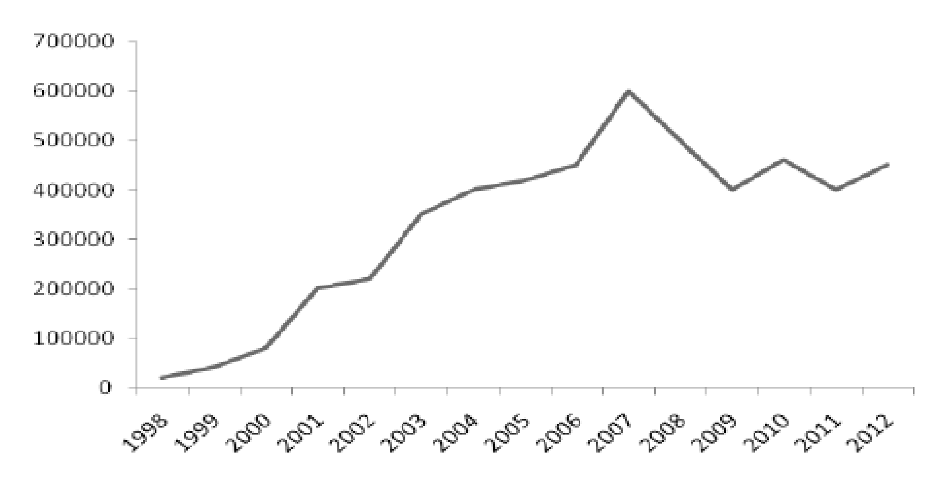
أ. الصورة المعمارية والثقافية أحد أهم مفسرات ظاهرة التحسين العمراني والسياحي بالصويرة

تعكس مدينة الصويرة من حيت التعمير تصميما أوروبيا من حيث هندسة الشوارع والأزقة. كما أن الغنى التراثي لمعمار المدينة من أبراج وصقالات وبوابات وحصون علاوة على المعبد اليهودي والكنيسة البرتغالية كرس لدى الزائرين مشهد الصويرة كمدينة مستوحاة من العمق الأوروبي ومحافظة على غناها المعماري. إضافة إلى ذلك، فالمعمار اليهودي على مستوى حي الملاح القديم والجديد والذي يعتبر من أهم الملاحات بالمغرب أضفى على المدينة صبغة التنوع الثقافي المعماري وثقافة التسامح.

إضافة إلى ما سبق، فالصويرة عُرفت بخصوصيتها الثقافية وعكست منذ الستينات صورة تجمع كبير للهبيين وللثقافة العالمية. وقد تكرست هذه الصورة الثقافية والموسيقية مع التنشيط الثقافي الذي أطلقته عدد من الجمعيات المحلية منذ 1998 سواء مع مهرجان موسيقى الأندلسيات الأطلسية أو مهرجان الجاز وخاصة مهرجان كناوة الذي تزايد عدد زواره باضطراد منذ 1998.

علاوة على الصورة الثقافية فظاهرة التحسين العمراني والسياحي يمكن تفسيرها بالمؤهلات السياحية الكبيرة التي تحتضنها المدينة. فالصويرة مدينة الرياح بامتياز وهو ما ينشّط الرياضات البحرية سواء بالقوارب الشرعية أو مع رياضة التزلج على الأمواج بالألواح. وبالتالي فنمط المعمار وتراث المدينة الثقافي والصورة الثقافية الموسيقية

والدينامية السياحية كلها عوامل جلبت عددا كبيرا من الأجانب، استهواهم الاستقرار بالمدينة واقتناء منازل بها.



مبيان رقم 2: تطور حركية زوار موسم گناوة بالصويرة.

المصدر رمرام شيماء وآخرون، 2012.

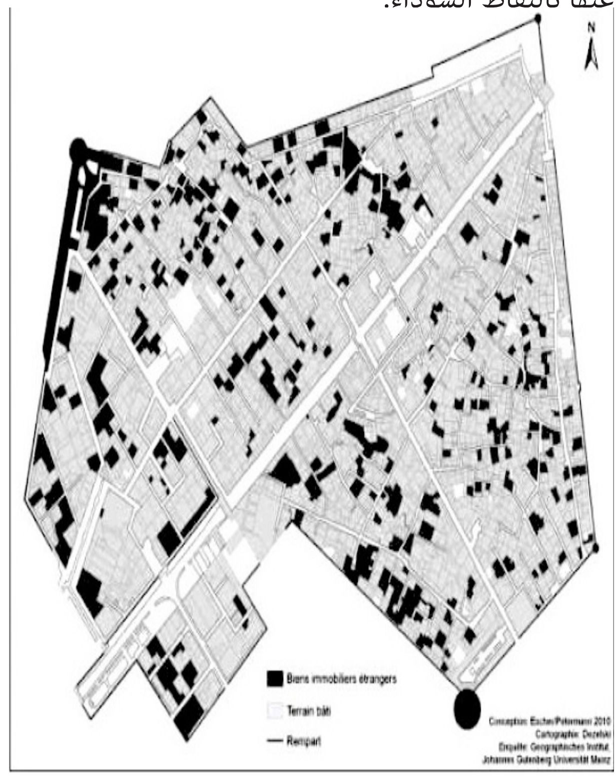
ب ـ شراء العقارات من طرف الأجانب وبدايات التحسين العمراني والسياحي

تعود البدايات الأولى لظاهرة اقتناء الأجانب للعقارات بالصويرة إلى بداية السبعينات لكن استقرار الأجانب في هذه الفترة لم يتبعه مسلسل تحسين عمراني أو سياحي لكون المنازل لم تعرف تجديدا أو عصرنة للمعمار. مع أواسط التسعينات من القرن الماضي، عرفت المدينة تطورا ملحوظا لعمليات الشراء العقاري من طرف الأجانب وبلغت المعاملات العقارية ذروتها في أواسط سنة 2000؛ إذ تم إحصاء أكثر من 300 مالك أجنبي يمتلكون ما يفوق 320 عقار.

على مستوى الأصل الجغرافي للمالكين الأجانب، فإن الأوروبيين يشكلون الغالبية العظمى مع أهمية كبيرة للفرنسيين الذين مثلوا أكثر من 52 % من المالكين الأجانب بالمدينة، بينما الألمان مثلوا 15 % ويتشكل الباقي من جنسيات ايطالية وسويسرية وبريطانية. واستمرت حمى اقتناء العقارات بالمدينة العتيقة من طرف الأجانب إلى

بداية الأزمة المالية العالمية سنة 2008؛ حيث تم إحصاء 382 مالك أجنبي منهم 63 % فرنسيون و10 % بريطانيون و7 % منهم ألمان[10].

بعد 2008، استمرت ظاهرة اقتناء المنازل بالصويرة، لكن بحدة أقل وهمت أساسا الدواوير القروية خارج النسيج الحضري للمدينة وأساس دوار العرب، أوناغة وأربعاء إدا أوگرض. وتتركز غالبية الدور والبنايات المملوكة من قبل الأجانب في حي القصبة وبني عنتر والملاح الجديد، وتبرز الخريطة الموالية توزيع الدور المملوكة من طرف الأجانب والتي معبر عنها بالنقاط السوداء.



خريطة رقم 1: توزيع المساكن والبنايات المملوكة للأجانب بالصويرة

المصدر: Escher et Petermann, 2013, p. 129

10 . Escher Anton et Petermann, Sandra «Facteurs et acteurs de la gentrification touristique à Marrakech, Essaouira et Fès», chapitre 3, in: *Médinas immuables? Gentrification et changement dans les villes historiques marocaines (1996*-2010*)*, Rabat: Centre Jacques Berque, 2013, pp. 101.130.

من خلال المقابلات مع الرواد الأوائل بالمدينة خاصة بعض المكوّنين الأجانب في رياضة الألواح الشراعية أو ركوب الأمواج وبعض المتقاعدين، فان ظاهرة التحسين العمراني بالمدينة اتخذت منعرجا كبيرا منذ 2010؛ فبعد أن كانت ظاهرة التحسين العمراني تقتصر على تجديد الأجانب لمنازلهم بغرض السكن) -إقامات ثانوية (فإن اقتناء المنازل بالصويرة اتجه إلى الاستثمار السياحي مع تحويل المنازل إلى دور الضيافة والتي فاق عددها بحسب مديرية السياحة إلى أكثر من 200 دار أو فندق سياحي.

السنوات	عدد دور الضيافة	عدد غرف دور الضيافة
2004	0	0
2005	26	303
2006	35	432
2007	38	484
2008	38	484
2012	44	532
2014	47	579

جدول رقم 6: تطور إنشاء دور الضيافة ارتباطا بالتحسين العمراني والسياحي بالمدينة العتيقة

المصدر: المندوبية الإقليمية لوزارة السياحة بالصويرة ووزارة السياحة

وقد أسفر هذا المسلسل عن ارتفاع كبير للسومة العقارية للمنازل بالمدينة القديمة بشكل يفوق إمكانيات الساكنة الصويرية. لكن أهم النتائج تمثلت في التجديد العمراني للمنازل. فحضور العنصر الأجنبي بالمدينة ساهم في جعل المدينة ورشا للإصلاح العقاري وإعادة ترميم منازل المدينة العتيقة. حسب أبحاث Elsa Coslado، Justin McGuinness، وCatherine Miller فإن نسبة المنازل الخاضعة للتحسين وإعادة البناء تمثل ما يقارب 20 % من المنازل المقتناة حديثا من طرف الأجانب. وعرفت بعض المنازل الراقية كمنازل القياد الكبار أو كبار التجار الصويريين إصلاحات جوهرية وتجديدا بالكامل وفق الخصوصيات المعمارية المحلية كما هو الحال بالنسبة لرياض فاس والدي

تم تجديده لأغراض سياحية على مدى 14 شهرا وتوظيف أكثر من 300 عامل بناء. كما أن المنازل المعروضة للبيع لفائدة الأجانب شهدت، بحسب مصالح البلدية، عمليات الإصلاح والترميم خاصة على مستوى الواجهات والسطوح. كما ساهمت ظاهرة التحسين العمراني في تنشيط الحرف القديمة من قبيل تدلاكت والزخرفة التقليدية على الحجر أو ما يسمى بالمنجور وكدا الزليج البلدي وساهمت الظاهرة في بعث حرف قديمة خاصة البناء والترصيص بالجير.

في بعدها الثقافي، ساهمت ظاهرة التحسين المعماري في ظهور استثمارات ثقافية كبيرة من خلال افتتاح عدد من المقاهي والمطاعم الراقية، أو المقاهي الأدبية أو قاعات العروض أو المراكز الثقافية (الاتحاد الفرنسي المغربي للصويرة) ومعارض الفنون التشكيلية المملوكة للأجانب. ولعل ما يشهده درب العلوج بحي القصبة لأكبر شاهد على عمق التحولات التي أنتجتها ظاهرة التحسين المعماري؛ فالدرب والذي كان إلى ماض قريب ذا وظيفة سكنية بامتياز، عرف تناسلا للمؤسسات الثقافية والمحلات التجارية والسياحية مع بروز دارين للضيافة وفندق وأربعة مطاعم، كلها مملوكة للأجانب. ورافق ذلك، انتشار محلات بيع الصناعة التقليدية المملوكة للمغاربة. وانعكس ذلك كله إيجابا على مستوى تشغيل اليد العاملة المحلية وتنشيط الصناعة التقليدية والسياحة وكان للظاهرة تحولات مجالية كبيرة تؤشر على عمق التغيرات الثقافية التي نتجت عن دخول عناصر جديدة للمجتمع الصويري.

1ـ مظاهر التجديد الحضري مع انشاء الوكالة الحضري

مع إقرار وكالة حضرية بمدينة الصويرة سنة 2007، تم إطلاق عدة دراسات ومشاريع التأهيل الحضري وتجديد الأنسجة العمرانية للمدينة العتيقة. وقد تم اعتماد دراستين مهمتين في هذا المجال:

- دراسة ميثاق الهندسة المعمارية والتي انطلقت في فبراير 2009 وانتهت سنة 2012؛

- دراسة لتأهيل المدينة العتيقة مند أكتوبر 2010 وانتهت سنة 2012 وتهم هده الدراسة أساسا دراسة رد الاعتبار لحي الملاح والتي انطلقت في نفس الفترة؛
- دراسة تأهيل المدينة العتيقة بغرض إعادة الاعتبار للنواة التاريخية للمدينة على المستوى الحضري والاجتماعي والاقتصادي باعتبارها رافعة التنمية لمجمل أجزاء مدينة الصويرة؛
- إطلاق تدخلات قطاعية أخرى تروم انجاز دراسات تقنية ومخططات التأهيل الحضري والتي يمكن تلخيصها في الجدول الموالي:

المشروع	صاحب المشروع	تاريخ انطلاق الدراسة	تاريخ انتهاء الدراسة
دراسة لتجديد شبكة السائل والماء الصالح للشرب	المكتب الوطني للماء الصالح للشرب	مارس 2011	2013
أشغال تجديد شبكة التطهير السائل للمدينة العتيقة	المكتب الوطني للماء الصالح للشرب وبلدية الصويرة	مارس 2011	2012
دراسة من طرف المختبر الوطني للدراسات والتجارب حول حالة المجال المبني بحي الملاح	مجموعة العمران	ماي 2010	2011

جدول رقم 7: أهم مشاريع التجديد الحضري المنجزة مؤخرا بالصويرة

ومن خلال مجمل الدراسات، اتضح أن تأهيل المدينة العتيقة يقتضي تبني برنامج كبير مندمج بغلاف مالي يقارب 300 مليون درهم وذلك بغرض:

- تحسين ربط المدينة العتيقة بمختلف أجزاء المدينة وتأهيل البنية التحتية وأساسا التطهير السائل؛
- تنمية المؤهلات السياحية للمدينة القديمة وتثمين التراث الثقافي والمعماري ؛
- وتحقيق توازن على مستوى التنشيط الثقافي الأمر الذي سيساهم في إدماج مختلف أجزاء المدينة العتيقة في لائحة المهرجانات والتظاهرات الثقافية؛

وساهمت الدراسات في تبني مشروع التهيئة الحضرية 2018-2010 والذي يهم في جزء كبير منه المدينة العتيقة وخاصة على مستوى:

- تأهيل الواجهات الحضرية وأساسا الأسوار والأبراج والصقالات؛
- معالجة الاختلالات المجالات المبنية، مع ضرورة خلق نواة حضرية جديدة؛
- ترميم وصيانة المنشآت الثقافية وترميم المنشآت الدينية؛
- تهيئة المجالات العامة والساحات والمناطق الخضراء؛
- تبني عمليات الترميم وتثمين التراث الثقافي والمعماري؛
- إقرار برنامج التوزيع المجالي للحرف والأنشطة الاقتصادية داخل النواة التاريخية؛
- تحسين ظروف العيش للساكنة وتقوية مسار التنمية السوسيواقتصادية؛

وقد تمت ترجمة هذه التوجهات على مستوى عدة مشاريع تهم أساسا التراث المعماري وخاصة:

- ترميم الساعة الحائطية من طرف الجماعة الحضرية للصويرة سنة 2011؛
- ترميم برج باب مراكش والذي يحتضن الحصن الغربي ومعالم هندسية عسكرية بغرض استغلال الحصن كفضاء للعروض الثقافية وكمعرض للفنون التشكيلية؛
- ترميم صقالة القصبة والأسوار المحيطة بالمدينة العتيقة على مدى سنتين 2013-2014؛
- ترميم المعبد اليهودي سيمون اتياس المتواجد بالمدينة العتيقة (القصبة) بتمويل من مؤسسة العمران؛
- ترميم مسجد البواخر وكدا القنصلية الدنماركية والكنيسة البرتغالية؛
- ترميم برج بلفدير المبني 1760 المتواجد في الجهة الجنوبية والذي يعتبر امتدادا لصقالة الميناء بغرض تحويل المعلمة إلى مركز للإعلام والتوثيق (Centre d'Information et de Documentation).

من خلال ما سبق، يتضح من دراسة التدخلات بالصويرة أن هناك مشكلا على مستوى تصور المشاريع في انعدام مشروع حضري يحدد الأولويات ويعمل على تناسق

التدخلات المبرمجة. كما يبرز تعثر عدد من المشاريع إشكالية الحكامة بين مختلف الفاعلين المحليين. لكن اجمالا يمكن تقييم التجربة إيجابا باعتبار النتائج المحصل عليها خاصة على مستوى التأهيل الحضري وظاهرة التحسين الحضري (التنشيط الثقافي) والدينامية الاقتصادية السياحية التي تشهدها المدينة؛ وإن كانت النتائج ضعيفة على المستوى الاجتماعي وعلى مستوى الحفاظ على التراث الثقافي والمعماري للصويرة.

خاتمــة

تبرز الدراسة أن مشاكل المدن العتيقة على غرار الصويرة متعددة الأبعاد؛ فمنها ما هو مرتبط بالجانب التاريخي والديموغرافي والاجتماعي والمعماري والقانوني والعقاري. من خلال التجارب والمشاريع المطلقة يتضح أن المقاربة تعتمد على حلحلة المشاكل ذات الطبيعة الاستعجالية (ظاهرة انهيار المنازل) أكثر من إيجاب تصور شمولي لمستقبل المدينة العتيقة. مؤخرا أُطلقت عدة مشاريع وبرامج لتأهيل المدن العتيقة على رأسها المشروع الملكي لتأهيل المدن العتيقة بكل من مراكش ومكناس والصويرة وتطوان وسلا والرباط وهو ما قد يمكّن من تجاوز مشاكل الكبرى لهذه المنظمات المعمارية. لكن آليات التدخل على المستوى الإجرائي من طرف عدد من الفاعليين ما تزال حبيسة الجانب التقني المحض وتعتريها مشاكل الحكامة. كل ذلك في غياب مشروع حضري للمدينة العتيقة بالمغرب. ويبقى السؤال الكبير ماذا نريد من التراث الحضري الذي تمثله المدينة العتيقة؟ وماهي الوظائف المستقبلية التي يجب أن يضطلع بها؟

بيبليـوغرافيــا

Agence urbaine d'Essaouira, 2011, étude de la mise à niveau de la médina d'Essaouira, diagnostic et analyse, AUE, Essaouira.

Agence urbaine d'Essaouira, 2011, étude de réhabilitation du quartier Mellah de la Médina d'Essaouira, AUE, Essaouira.

Alain Avitabile, *La mise en scène du projet urbain* Contribution à une structuration des démarches, Editions L'Harmattan, Villes et Entreprises, Paris, 2005.

Cellule Agenda 21 (1999)– Essaouira, Localising Agenda 21: Planification des actions pour un développement urbain durable » compte rendu atelier de consultation, Essaouira, 1996.

Coslado, Elsa (dir.); Mcguinness, Justin (dir.) ; et Miller, Catherine (dir.). Médinas immuables? Gentrification et changement dans les villes historiques marocaines (1996 -2010). Nouvelle édition [en ligne]. Rabat: Centre Jacques-Berque, 2013 (généré le 17 mars 2016). Disponible sur Internet: <http://books.openedition.org /cjb/275>. ISBN: 9791092046014.

El Mouatez, A. (2003). Essaouira: l'expérience du programme Agenda 21. Patrimoine et développement durable dans les villes historiques du Maghreb contemporain. Guide d'orientation et de formation, Unesco, Rabat, p. 169- 175.

Hilal Abdelmadjid, (2014) «La ville d'Essaouira et sa périphérie entre extension, efficience des documents d'urbanisme et gouvernance urbaine», in Revue AFN Maroc N°1516- Décembre 2014, lien: http://revue-afnm.org/b2e/numero -15 -16/ la-ville-d'essaouira-et, consulté le 07 mars 2016.

ICOMOS (2001). Essaouira (Maroc), p. 20- 22.

Ministère de l'environnement – DOEC et province d'Essaouira, Monographie de la province d'Essaouira, Rabat, juin 2006.

Ministère de l'Aménagement du territoire, de l'urbanisme de l'environnement de l'habitat, (1998), Etude architecturale de la Médina d'Essaouira, 1998, Rapport d'analyse et de diagnostic, Délégation d'Essaouira, rapport inédit.

Province d'Essaouira, 2013, synthèse de l'opération de recensement de l'habitat menaçant ruine en 2012, Essaouira.

Schéma directeur d'aménagement urbain de l'aire urbain d'Essaouira variantes d'aménagement 1996, Essaouira, rapport inédit.

UNESCO, 2010. Morocco-Information related to Intangible Cultural Heritage, juin 2010 http://www.unesco.org/culture /ich/index.php?topic=mp&cp=MA#TOC1

بلدية الصويرة، مخطط توجيه التهيئة العمرانية للمجال الحضري للصويرة، الدبي فتح الله وفنجرو عبد الغني، ابريل 1998.

مجلس إدارة برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية التوسع الحضري المستدام: «الإجراءات المحلية للحد من الفقر الحضري مع التركيز على التمويل والتخطيط.» الدورة الحادية والعشرون.2007.

حسن رامو، **أثر التعرية البحرية على المنشآت الساحلية، نموذج مدينة الصويرة**، بحث الإجازة في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة القاضي عياض-مراكش 1999.

حسن رامو، مصطفي الندراوي ورشيدة رامو، 2016، التجديد الحضري للمدن العتيقة بالمغرب: تجربة الصويرة، اعمال الندوة الدولية «التجديد الحضري بالأنسجة العمرانية القديمة» المنعقدة بصفرو أبريل 2016 تنسيق محمد الزرهوني، Maroc impression Sefrou صفرو، ص. 102-130، 54-99 978 ISBN.

رشيدة رامو، التوسع الحضري وانعكاساته البيئية بمدينة الصويرة، بحث لنيل شهادة الماستر كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة القاضي عياض 2010

محمد الزرهوني (تنسيق)، «التجديد الحضري بالأنسجة العمرانية القديمة» أعمال الندوة لدولية المنعقدة بصفرو أبريل 2016، Maroc impression Sefrou صفرو 186 صفحة، 9-6-ISBN 978-4599-2639.

هلال عبد المجيد ووادريم مصطفى (2014): «الأحياء العتيقة بمدينة الصويرة: التحولات الحالية وإشكاليات التدبير». **بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** ظهر المهراز بفاس، سلسلة الأعداد الخاصة «التراث الحضري والحداثة»، العدد 13.

Henry Guy, *Barcelone, dix années d'urbanisme, la renaissance d'une ville*. Paris, Editions du Moniteur, 1992, 175 p. photo. ill., cartes, bibliogr.

مسألة تأسيس مدينة فاس: التاريخ والإشكالية

محمد اللبار
أستاذ باحث كلية الآداب والعلوم الإنسانية
سايس ـ فاس

من أهم القضايا التي لا زالت تثير النقاش بين الدارسين والمهتمين بتاريخ الدولة الإدريسية مسألة تأسيس مدينة فاس على اعتبار اختلاف المصادر حول تاريخ هذا التأسيس وأسبابه وظروفه، وحول المؤسس نفسه، وحول التسمية ذاتها. إذ يورد بعض المؤرخين أن تأسيس هذه المدينة كان سنة 192هـ/808م على يد إدريس الثاني (الأزهر)، ومنهم من يورد أن أباه إدريس الأول[1] (الأكبر) هو الذي أقام نواتها الأولى قبل ذلك بسنين عديدة، وضرب فيها السكة.

وجاء الباحثون المحدثون، كل بمنهجه واقتناعاته واجتهاداته، ليؤيد بعضهم هؤلاء ويساند البعض الآخر أولئك، دون التمكن من الفصل البين في هذه المسألة. هذه المسألة التي، وإن كنا نرى الفصل فيها صعب المنال، نعود إليها بقراءة متأنية للمصادر وإنصات جيد للاجتهادات على أمل. فهل يمكن الفصل في هذه المسألة؟

1. إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. أمه هي عاتكة بنت عبد الملك المخزومي.

I - المصادر التاريخية وروايات التأسيس:

أ- المصادر التاريخية:

حظيت مدينة فاس بعناية العديد من الكتابات التاريخية والجغرافية المشرقية والأندلسية والمغربية على حد سواء، وذلك منذ أواسط القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي على اعتبار أنها عاصمة الدولة الإدريسية. فأورد ذكرها في مؤلفاتهم أحمد بن واضح اليعقوبي (ت.284هـ/897م)[2]، وأبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت.367هـ/978م)[3]، وأبو عبد الله شمس الدين المقدسي (ت.390هـ/1000م)[4]، وأبو عبيد عبد الله البكري (ت.487هـ/1095م)[5]، وأبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي (ت.560هـ/1165م)[6]، وشهاب الدين ياقوت الحموي (ت.626هـ/122م)[7].

وقد أكد هؤلاء جميعا في وصفهم لهذه المدينة أنها كانت منذ نشأتها مدينة جليلة القدر، كثيرة العمارة، متميزة الحضارة. وأنها في حقيقة أمرها عُدْوتان أصيلتان توأمتان لكل منهما سور يحيط بها وأبواب تختص بها، وفي كل منهما جامع للخطبة وقيسرية وأسواق ودار للسكـة، وبينهمـا نهر فاصل طارد لأثفالهــما وأقذارهما.

كما نالت مدينة فاس عند الكثير من المؤرخين والجغرافيين والعلماء بعد القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي اهتماما ملحوظا متزايدا على قدر ما تعاظمت مكانتها الحضارية وكبر دورها التاريخي، بفضل اتخاذ المرينيين لها من جديد عاصمة لدولتهم. وهكذا حظيت بعناية أكبر وحظ أوفر على يد ثلة من المؤلفين نذكر منهم على سبيل المثال أبا العباس أحمد بن عذاري المراكشي (ت.683هـ/1295م)[8]، وأبا الحسن

2 . اليعقوبي، **كتاب البلدان**، طبعة ليدن 1892.
3 . ابن حوقل، **صورة الأرض**، طبعة بيروت، 1962.
4 . المقدسي، **أحسن التقاسيم** في معرفة الأقاليم، نشر دي غويه، ليدن، ط.2، 1906.
5 . البكري، **المسالك والممالك**، بيت الحكمة قرطاج، 1992 .
6 . الإدريسي، **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق مجموعة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
7 . الحموي، **معجم البلدان**، 5 ج، دار صادر ، بيروت، 1979-1986.
8 . ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق كولان وبروفنصال، ط.5، دار الثقافة، بيروت، 1998.

علي بن أبي زرع الفاسي (ق.8هـ/14م)[9]، وأبا الحسن علي الجزنائي (ق.8هـ/14م)[10]، والحسن الوزان (ت.957هـ/1550م)[11]، وأبا العباس أحمد بن القاضي المكناسي (ت.1025هـ/1616م)[12].

يضاف إلى كل ذلك تلك الإشارات المفيدة التي وردت حول هذه المدينة وبعض من تاريخها عند أبي عبد الله محمد بن الآبار البلنسي (ت.657هـ/1259م)[13]، وأبي الحسن علي بن سعيد المغربي (685هـ/1286 م)[14]، ولسان الدين بن الخطيب (ت.776هـ/1374م)[15]، وغيرهم.

واعتمادا على كل هؤلاء المؤرخين والجغرافيين والعلماء، نهلت الحوليات التاريخية وكتب التراجم والمناقب والأنساب المتأخرة حول مدينة فاس وحول مسألة تأسيسها الكثير من المعلومات والأخبار من جهة؛ كما نهلت الكتابات الأجنبية بدورها من جهة ثانية ما لا يُعد ولا يُحصى من الأحداث والوقائع والمظاهر الحضارية والأفكار معلقة عليها في غالب الأحيان، تارة بالسلب وتارة أخرى بالإيجاب. ونستحضر من كل ذلك في هذا المقام وعلى سبيل المثال لا الحصر مؤلفات أبي العباس أحمد بن خالد الناصري[16]، ومحمد بن جعفر الكتاني[17]، وهنري كَايار[18] وروجي لوتورنو[19] وليڤي بروڤنصال[20]... وآخرون كُثر.

9 . ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، المطبعة الملكية، ط.2، الرباط، 1999.

10 . الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط.2، الرباط، 1991.

11 . الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط.2، بيروت، 1983.

12 . ابن القاضي ، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

13 . ابن الأبار، **الحلة السيراء**، تحقيق حسين مؤنس، ط.2، القاهرة، 1985

14 . ابن سعيد ، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط.1، بيروت، 1970.

15 . ابن الخطيب، **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق ليڤي بروڤنصال، ط.2، بيروت، 1956.

16 . الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، 9ج، تحقيق ج. الناصري وم. الناصري، الدارالبيضاء، 1954 – 1956.

17 . الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، 4 ج، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2004.

18. Gaillard,Henri, *Une ville d'Islam: Fez,* Paris, 1905.

19 . لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، 1992.

20 . Lévi –Provençal, E, «La fondation de Fès», in *Annales de l'Institut d'Etudes orientales*, IV, 1938, pp.23–52.

. ليڤي بروڤنصال، «تأسيس مدينة فاس»، تعريب سعيد النجار وأحمد اليابوري، **مجلة البحث العلمي**، العدد 31، أكتوبر 1980، ص. 157–185.

ب ـ روايات التأسيس:

إن كل غربلة علمية دقيقة لما أوردته المصادر في شأن تأسيس مدينة فاس تُفيد التمييز بين جانبين، جانب أسطوري وآخر تاريخي. ولعل أهم ما اشتهر من هذه الأساطير في حق هذه المدينة أسطورة تشبه إلى حد بعيد بعض تلك التي وردت حول تأسيس بعض المدن الإسلامية في المشرق أو المغرب، وخاصة منها بغداد العباسية في أرض الرافدين وتونس والمهدية في إفريقية. كما تُذَكر هذه الأسطورة كذلك بما كان يتداوله الناس في الأندلس خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بخصوص مدينة الزهراء الأموية ومدينة الزاهرة العامرية بضواحي قرطبة.

ومجمل هذه الأسطورة أن الإمام إدريس بنَ إدريس لما وقف بموضع مدينة فاس، عازما على اختطاطها وبنائها، صادفه هناك راهب ناسك متعبد جمع بين العلم بتاريخ المنطقة والتنبؤ بمستقبلها؛ فكان بينهما من المحادثة والحوار ما استبشر به المولى إدريس خيرا وقوى عزيمته على البناء وسارع به إلى الشروع في حفر الأساس[21].

وبخصوص روايات التأسيس تجمع المصادر التاريخية المغربية التي اهتمت بهذه المسألة، كروض القرطاس وجنى زهرة الآس وجذوة الاقتباس، أن مؤسس هذه المدينة بعُدوتيها هو الإمام إدريس بن إدريس[22].

أما المصادر الأندلسية، وهي ذات طابع جغرافي في مجملها، فإنها تتفق أن مدينة فاس مدينتان، وأن إحداهما بناها إدريس بن عبد الله، سنة 172هـ/789م، وتعرف بعدوة الأندلس؛ وأن الثانية بناها إدريس بن إدريس سنة 193هـ/809م، وتعرف بعدوة القَرْويين. وذلك حسب ما أورده بالخصوص أبو بكر الرازي (ت.سنة 344هـ/956م)[23] وابن سعيد المغربي (ت. سنة 685هـ/1286م)[24]، وحسب ما يفهم ضمنيا من المؤرخ الغرناطي المجهول[25] الذي عاش في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

21 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.46؛ الجزنائي، **م.س.**، ص 23.

22 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.47.46؛ الجزنائي، **م.س.**، ص 25.24./ . ابن القاضي، **م.س.**، ص.31–32..

23 . ابن الأبار، **م.س.**، ج 1، ص.55.

24 . أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الفكر، بيروت، 1987، ج 5، ص.148.

25 . مجهول، **الزهرات المنثورة في الأخبار المأثورة**، نقلا عن ليقي بروفنصال،**م.س**، ص. 169.

والجدير بالملاحظة في هذا المقام أن هذه المصادر المغربية والأندلسية تتفق جميعُها أن إدريس بنَ إدريس هو مؤسس عُدوة القرويين «العالية» سنة 193هـ/809م؛ وتختلف حول مؤسس عدوة الأندلس. إذ تؤكد المصادر المغربية أن تأسيس عدوة الأندلس فاس» كان قبل ذلك بسنة واحدة عام 192هـ/808م، على يد إدريس بن إدريس كذلك؛ وتؤكد المصادر الأندلسية أن تأسيس هذه العدوة كان قبل أختها بنحو واحد وعشرين سنة عام 172هـ/789م على يد إدريس بن عبد الله.

ج- الروايــة المأثــورة[26]:

تحمل الرواية المغربية المأثورة عن حدث إنشاء مدينة فاس تفاصيل تنفرد بها دون غيرها. وهي تفاصيل يمكن أن تساعد على حل لغز المؤسس الحقيقي لهذه لمدينة بصفة عامة ولعدوة الأندلس بالذات بصفة خاصة. علما أن هذه العدوة هي التي أشارت إليها كل المصادر على اختلاف مشاربها باسم «فاس» عند تأسيسها، قبل تعميم هذا الاسم على العُدوتين معا بعد حين من الزمن. وملخص هذه الرواية أن نجاح مشروع تأسيس المدينة سبقته محاولتان فاشلتان عقيمتان.

كانت المحاولة الأولى سنة 190هـ/806م على صيغتين، جاء في الأولى التي يذكرها ابن أبي زرع الفاسي[27] أن إدريس الثاني لما استقام له الأمر وعظم ملكه، وكثر حشمه وجيشه، وضاقت بهم مدينة وليلي، عزم على بناء مدينة لنفسه يسكنها وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته وخرج من وليلي يتجول في جملة من النواحي ويتخير البقاع، إلى أن وصل إلى جبل زلاغ فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه وكثرة محارثه. فاختط مدينة بسنده من جهة الشمال وشرع في بناء المسجد والسور، وبنى قياده ووجوه دولته الديار وحفروا الآبار وغرسوا الزيتون والكروم والأشجار. ولما بلغ إدريس في بناء الأسوار ثلثها جاء السيل من أعلى الجبل في يوم عاصف ممطر وكانت الكارثة، وتهدم ما كان مبنيا

26 . انظر الجدول المرافق: **مجمل الرواية المأثورة حول تأسيس مدينة فاس.**

27 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.35-36.

وفسدت الأغراس وحمل السيل كل ذلك ورمى به في نهر سبو، فكان هذا الحدث كافيا لرفع اليد من البناء هناك.

وأورد الجزنائي[28] في الصيغة الثانية أن إدريس بن إدريس جال جملة من النواحي إلى أن بلغ جبل زلاغ وعزم أن يبني به ما كان يريد، فظهر له أن الهوام تكثر فيه زمن القيظ فانتقل لوادي سبو.

وكانت المحاولة الثانية[29] بخروج إدريس الثاني في شهر المحرم عام 191هـ/أكتوبر 806م من مدينة وليلي يتصيد ويرتاد لنفسه موضعا يبني فيه ما قد عزم عليه، فوصل إلى وادي سبو، وأُعجب بالموضع لقربه من الماء ومن حمة خولان (سيدي حرازم اليوم). فاستحسن الموقع وشرع في حفر الأساس وعمل الجير وقطع الخشب، وابتدأ بالبناء. ثم نظر إلى وادي سبو وكثرة مُدوده العظيمة في فصل الشتاء، وخاف على الناس الهلكة، ورفع يده عن البناء ورجع إلى مدينة وليلي.

هذا ومما لا يزال عالقا في أذهان أهل مدينة صفرو إلى اليوم، عوامها وخاصتها من المثقفين على حد سواء، اعتقادهم المتوارث شفويا عبر الأجيال أن المولى إدريس بن إدريس، وهو يرتاد النواحي بحثا عن موضع يقيم فيه مدينته، قد أقام عندهم حولين كاملين معجبا بخضرة مدينتهم وكثرة مياهها. ويستدلون على ذلك بالحي المعروف عندهم باسم» حبونا» المستلهم اسمه مما أفضى به المولى إدريس لبعض حاشيته، وقد نزل في صفرو وطاب مقامه بها، قائلا: «هؤلاء الناس أحبونا»[30].

وجاءت المحاولة الناجحة[31] في الأشهر الأخيرة من نفس السنة 191هـ/خريف 807م، وتميزت بتفويض إدريس الثاني مهمة اختيار موضع إقامة المدينة إلى وزيره عُمير بن

28 . الجزنائي، **م.س.**،ص.18.

29 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص37؛ الجزنائي، **م.س.**، ص.18.

30 . Ben Embarek Lahbib,Si Bekkai, «Sefrou», in *Bulletin Economique et Social du Maroc*, Volume XV, n° 52, 1er trim. 1952, p.6.

31 . ابن أبي زرع، م.س.، ص. 37 – 39؛ الجزنائي، **م.س.**، ص.18–19.

مُصعب الأزدي الذي خرج من وليلي من جديد ليرتاد الموضع المناسب. فجال في المناطق واخترق النواحي إلى أن وصل إلى فحص سايس، حيث أُعجب بفسحة الأرض واعتدالها وانبساطها وكثرة عيونها ومياهها، ونزل بجوار عين ماء غزيرة، غير بعيدة عن قصبة دار الدبيبغ الحالية، حملت اسمه منذئذ كما تؤكد ذلك المصادر التاريخية، «عين عُمَيِّر»، واحتفظت بهذا الاسم إلى أيامنا هذه.

ومن هناك تتبع الوزير عمير الأزدي مجرى النهر الذي سيعرف فيما بعد باسم «واد فاس»، فقاده إلى موضع متميز بين جبلين، يخترقه النهر عدوتين، وهو غيضة ملتفة بالأشجار، مطردة العيون والأنهار، يسكنها قوم من قبائل زناتة. وهما فرعان؛ بنو يَزْغَتِن الذين تعرب اسمهم مع الزمن في صيغة بني يازغة، والقائمون اليوم في مواطن لهم إلى الجنوب الشرقي من مدينة فاس؛ وزواغة المعروفون ببني الخير، والذين لا زال اسمهم يطلق بصيغته الواردة في المصادر على امتداد سهل يقع في الجنوب الغربي من المدينة الحالية. وكان هؤلاء الزناتيون على خلاف دائم فيما بينهم، لاختلاف أهوائهم ونزعاتهم، وتباين دياناتهم، إذ كان بعضهم على الإسلام، وبعضهم على النصرانية، وبعضهم على اليهودية، وبعضهم مجوسا عبدة للنار. فوقع اختياره على هذا الموضع مستحسنا كثرة وعذوبة مياهه، وطيب تربته، وصحة واعتدال هوائه.

استحسن الإمام إدريس الأزهر اختيار وزيره عمير بن مصعب ونزل بنفسه إلى أهل المنطقة، ووقف على تربتها الخصبة وتنسم هواءها المعتدل وشرب ماءها العذب وتحقق بُعدها من الصحراء والبحار والجبال الشامخة والسباخ العفنة[32]. ويفهم من سياق سرد ابن أبي زرع لتفاصيل الأحداث أن بني يزغتن كانوا سباقين إلى بيع عدوتهم الشرقية إلى الإمام إدريس، مقابل ألفين وخمسمائة درهم؛ وأنه أشهد عليهم بيعهم له بعقد تولى ضبطه كاتبه أبو الحسين عبد الله بن مالك الأنصاري الخزرجي، وذلك في الأشهر الأخيرة من سنة 191هـ/ خريف807 م. ونزل بهذه العدوة بالموضع المعروف إلى

32 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 38؛ الجزنائي، **م.س.**، ص.22.

اليوم باسم «جَرْواوة»، وشرع في البناء يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة 192هـ/4 يناير 808م. فكانت مدينة «فاس»[33].

ورغم سكوت المصادر عن مشاعر الإمام إدريس، فكل القرائن التاريخية المتوفرة توحي ببقاء شيء في نفسه بسبب عدم فوزه بصفقة العدوة الغربية، التي كانت أكثر ماء[34]، والتي كان قد استبشر كل الخير من لقب أصحابها بني الخير الزواغيين.

وضع الإمام إدريس حجر الأساس لمدينته، حسب الراجح، في حفل متميز حضره إلى جانبه خاصته وحاشيته ووجهاء دولته وأشياخ القبائل وأتباعه. وإيذانا بانطلاق أشغال البناء رفع يديه إلى السماء ودعا الله قائلا: «اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك، وتقام بها سُنَّتك وحدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسُّنَّة والجماعة ما أبقيتها» ثم قال: «باسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»[35].

هذا ويستشف من القراءة المتأنية للمصادر التاريخية، زيادة على ما سبق، أن الإمام إدريس الثاني رجع بعد ذلك إلى مدينة وليلي، لاستدراك ما كان يخططه ضده وضد دولته إسحاق بن عبد الحميد الأوربي، موالاة منه لبني الأغلب، فقتله يوم 7 ذي الحجة سنة 192هـ/ 3 أكتوبر 808 م، ثم قصد من جديد مدينة فاس- في العدوة الشرقية - وأقام هناك شهرا[36] يتفقد أشغال البناء والتشييد.

وأثناء مقامه هناك، أرسل إليه بنو الخير الزواغيون، جيرانه في العدوة الغربية التي كانت لا تزال غياضا على حالها، يدعونه لزيارتهم[37] إكراما له. فلبى رغبتهم[38] عناية بهم

33 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.39 و 46. عرفت مدينة الضفة الشرقية بكل حاراتها باسم «عدوة الأندلس» منذ نزول نازحين أندلسيين فيها سنة 202 هـ/818 م.

34 . ليڤي بروڤنصال،**م.س**، ص. 176.

35 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 45؛ الجزنائي، **م.س.**، ص.22.

36 . البكري، **م.س.**، ج 2، ص.805.

37 . البكري، **م.س.**، ج 2، ص.805؛ ابن عذاري،**م.س.**، ج 1، ص.211.

38 . البكري، **م.س.**، ج 2، ص.805.

ودخل عندهم على أمل. ولما أعجبه ما رأى هنالك من جمال الطبيعة وخصبها وكثرة العيون والأنهار وتدفق مياهها، استرضاهم، وابتاع منهم بقعتهم بثلاثة آلاف وخمسمائة درهم، وتخلى عن الإقامة في «فاس»، وانتقل إلى العدوة المقابلة لها ونزل بموضع يعرف باسم «المُقَرْمَدة» حيث ضرب قيطونه وشرع في البناء في غرة ربيع الثاني سنة 193هـ/22 يناير 809 م[39]. فكانت مدينة «العالية»، التي سُميت كذلك إما اعتبارا لعلوها الطبيعي وارتفاعها عن العدوة الشرقية، أو نسبة إلى علي بن أبي طالب جد الأدارسة، أو صفة لقيمة حضرتها التي شملت دار الإمام ومقامه[40]. إلا أن سبق تداول اسم «فاس» بين العامة والخاصة من الناس، كان ولا ريب من أسباب تغلب هذا الاسم ومن وراء إطلاقه على كل المدينة القائمة بعدوتيها.

د- تسمية المدينة:

1 - فاس: اسم واحد وروايات متعددة:

أوردت المصادر التاريخية خمس روايات حول تسمية «فاس»:

الرواية الأولى هي للراهب المسيحي الذي كان إدريس الثاني قد استبشر بالحديث معه قبل التأسيس. ومجملها أن موضع مدينة «فاس» كانت تحتله في الأيام الخوالي مدينة تسمى «ساف» اندرست مع الزمن، وأن الإمام إدريس أخذ هذا الاسم وأمر الناس بقلبه فقلبوه وسُميت منذئذ مدينة «فاس». ويعلق ابن أبي زرع على هذه الرواية بقوله: «وهذا أصح ما يكون في تسميتها «فاس» والله أعلم»[41]. ويستشف القارئ الفطن أن الجزنائي- وهو ينقل هذه الرواية بالذات عن ابن أبي زرع- يستحسنها من

39 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 39 و 47؛ الجزنائي، **م.س.**، ص 19 و 25. واشتهرت هذه العدوة بكل حاراتها كذلك باسم «عدوة القرويين» عقب وصول مهاجرين قيروانيين إليها سنة 210هـ/826م.

40- Georges Colin, Séraphin, «Monnaies de la période idrisside trouvées à Volubilis», *Héspéris*, T.XXII, fascicule unique, 1936, pp.113–127; Daniel Eustache, *Corpus des dirhams idrissides et contemporains,* éd. Banque du Maroc, Rabat, 1970–1971; Evarist, Lévi–Provençal, «La fondation de Fès», in *Annales de l'Institut d'Etudes orientales*, IV, 1938, p.33.

41 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 46 و 54.

بين الروايات الثلاثة التي نقل[42]. ويستطرد المؤلفان معا بعد هذه الرواية ويستدلان على صحتها عندهما بأن رجلا من اليهود لما احتفر أساس داره وجد فيه «دمية» من رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالقلم المسند:«هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خُرب فأُقيم موضعه بيعة للعبادة»[43].

أما الرواية الثانية فتقول إن الإمام إدريس الثاني لما سُئل عن الاسم الذي اختار لمدينته قال سموها باسم أول وافد عليكم فيها، فوفد عليهم رجل اسمه «فارس» في لسانه لثغة سألوه عن اسمه فأجابهم مسقطا حرف الراء، فسمعه الإمام وقال لهم سموها بما نطق الرجل فسُميت مدينة « فاس» [44].

وتقول الرواية الثالثة إن قوما من الفرس الذين وفدوا على إدريس بن إدريس من بلاد العراق آنذاك حضروا معه تأسيس المدينة، فسقط عليهم جرف فأهلكهم ولم ينج منهم إلا القليل، فسُميت مدينة «الفرس»، وخفف الناس الاسم فقالوا مدينة «فارس»، ثم اختصروه بإسقاط الراء فقالوا مدينة «فاس» [45].

أما الرواية الرابعة، وهي من أكثر الروايات شهرة، فتقول باقتباس اسم المدينة من «الفأس» الذي صنع لمؤسسها من ذهب وفضة وهو يشارك بيده تواضعا منه لله تعالى ورجاء الأجر والثواب في بنائها مع الصناع والفعلة والبنائين، فسُميت مدينة «فاس»[46].

إلا أن بعض المصادر في تعليق على هذه الرواية استبعدتها على أساس أن الإمام إدريس ما كان ليغيب عنه أن استعمال الرجال للذهب محرم في الإسلام[47]، وكأن هذه المصادر تـنزهه أن يكون قد اقترف حراما علنا.

وتقول الرواية الخامسة، وهي رواية مشهورة كذلك، ولعلها الأكثر شهرة، باقتباس اسم هذه المدينة من «الفأس» الذي عُثر عليه لما شُرع رسميا في حفر أساساتها في مرحلة

42 . الجزنائي، **م.س.**، ص 24 .

43 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.46؛ الجزنائي، **م.س.**، ص.23.

44 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.54.

45 . **المرجع السابق.**

46 . **المرجع السابق**؛ الجزنائي ، **م.س.**، ص. 23.

47 . الجزنائي ، **م.س.**، ص. 24.

الـتأسيس والبناء. وهو فأس سكتت المصادر عن المعدن الذي صُنع منه، طوله أربعة أشبار وسعته شبر واحد ووزنه ستون رطلا[48].

اعتمادا على كل ما سبق بخصوص روايات تأسيس مدينة «فاس»، وروايات تسميتها، يستنتج الباحث وكأن المصادر بهذه الروايات المختلفة قد تكاملت فيما بينها لتستحضر إبان تأسيس المدينة كل العناصر البشرية التي كانت فاعلة في مجتمعها الأول وتاريخها المبكر. وهكذا استحضرت هذه المصادر الإدريسين الأكبر والأزهر بصفتهما عربا وأشرافا من سلالة بيت النبوة. كما استحضرت كذلك بعضا من بطانة إدريس الثاني العربية: وزيره عمير بن مصعب الأزدي، وكاتبه أبا الحسين عبد الله بن مالك الأنصاري الخزرجي، وذلك إشارة منها للعناصر العربية التي وفدت على إدريس الثاني من إفريقية والأندلس سنة 189هـ/805م[49]. كما استحضرت هذه المصادر كذلك العنصر الأمازيغي عبر حضور القبيلتين الزناتيتين، بني يزغتن وزواغة، أصحاب الأرض الأصليين. واستحضرت أيضا الفرس الوافدين على الإمام إدريس إذاك، والزنوج السود من خلال قصة العبد «علّون» قاطع الطريق الذي قتله الإمام إدريس بن إدريس وصلبه على رأس العين التي سُميت باسمه[50] إلى يومنا هذا. ولعل من أهم ما استحضرته هذه المصادر كذلك تلك الإشارات الواضحة حول الأهواء المختلفة لكل هذه العناصر المذكورة، إذ أكدت أن بعضهم كان على الإسلام وبعضهم على غير ذلك من المسيحية واليهودية والمجوسية. وكأن هذه المصادر بكل ذلك تشير صراحة إلى ما سيطبع مدينة فاس عبر مشوارها التاريخي الحافل من الانفتاح والتفتح، وما ستسير عليه من الاعتدال والتسامح، وما سيميز أهلها وقطانها من شمائل التعايش مع الآخر واحترامه دينا ولونا وفكرا.

يُضاف إلى ذلك أن ما أوردته المصادر بخصوص اللقى الأثرية العتيقة التي اكتُشفت في موضع مدينة فاس إبان فترة الـتأسيس، إشارة صريحة إلى عراقة الموضع وأصالته، وإلى حسن اختيار الإمام إدريس لعمارته.

48 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.54؛ الجزنائي، **م.س.**، ص. 24.

49 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.35؛ الجزنائي، **م.س.**، ص. 17-18؛ الناصري، **م.س.**،ج 1، ص. 163.

50 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص.47-48.

2- فاس: التسمية والاجتهادات الحديثة:

في مقابل التسمية العربية للمدينة «فأس/فاس»، كما وردت في المصادر، مالت بعض الاجتهادات في السنين الأخيرة إلى فرضية الأصل الأمازيغي لاسم هذه المدينة. نسجل من بين هذه الاجتهادات أكثرها تداولا بين الباحثين: أن يكون اسم المدينة المندرسة «ساف»من أصل أمازيغي، على اعتبار أنه مجرد تحريف للفظة «أسيف/إسافن» التي تعني واد/ وديان. ويستدلون على ذلك بما اشتهر به موقع مدينة فاس من كثرة الوديان والجداول السطحية والباطنية [51].

كما مالت بعض الاجتهادات إلى فرضية الأصل اللاتاني للتسمية، وهي آخر ما استجد في هذا الموضوع. إذ يقترح أصحابها أن يكون اسم مدينة «فاس» مشتقا من لفظة لاتانية «Fas» التي تعني القدرة والإرادة الإلهية. ويستدلون على ذلك بأن مدينة وليلي التي انطلق منها إدريس الثاني كانت مدينة رومانية تشمل مجتمعا كان لا يزال على معرفة باللغة اللاتانية؛ وبأن لفظة «فاس» اللاتانية في حد ذاتها تعكس معنى العبارة الإسلامية «باسم الله».

كما يقترحون كذلك أن تكون المدينة قد أُسست في يوم حسن الطالع، يوم سعيد، تصنفه الثقافة الرومانية التي كانت سائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط آنذاك، ضمن «الأيام السعيدة» (Fastis Dies) (Jours Fastes). ويستدلون على ذلك بما عرفته مدينة فاس من الأبهة والترف Le Faste على امتداد تاريخها ما دام أن لفظة Faste الفرنسية نفسها مشتقة من الأصل اللاتاني Fas [52].

II- دوافع التأسيس ومؤهلات الاختيار:

تجمع كافة المصادر التاريخية التي تعرضت لقيام الدولة الإدريسية أن مدينة وليلي كانت عاصمة لهذه الدولة قبل تأسيس مدينة فاس؛ إذ أن بيعة الإمام إدريس بن عبد الله العلوي، الوافد على المغرب فرارا من بطش العباسيين بآل البيت، كانت بمدينة

51 . Simon Lévy, «Hypothèses pour des étymologies berbères de Sefrou et Fès», *Revue al Misbahia*, publication de la F.L.S.H. Saïs Fès, Série Sciences Humaines, N° 6, 2003, p.4

52 . Mohamed Jelloul, «Réflexions sur l'appellation de la cité de Fès», *Revue Al Assas*, n° 118, 1994, pp. 16–17.

وليلي؛ وأن كل التحركات التي قام بها إدريس الأكبر هذا في المغرب الأقصى أو في اتجاه تلمسان على أبواب المغرب الأوسط قد انطلقت من هذه المدينة وانتهت إليها دون استثناء؛ وأن بيعة ابنه وخلفه إدريس بن إدريس كانت بجامع هذه المدينة. مما يفرض طرح عدة تساؤلات حول ظروف ترك إدريس الثاني لهذه العاصمة وعزمه على إنشاء غيرها؟ وحول مؤهلات الموقع المقترح لإقامة هذه المدينة البديلة؟

أ- مدينة وليلي ظروف طارئة ووضعية صعبة:

1- التعريف بمدينة وليلي[53]:

مدينة وليلي، مدينة من بناء الأوائل في المغرب. أكدت الأبحاث الأركيولوجية، وما وقف عليه الباحثون من آثار البناء هناك، وما عثروا عليه من لقى الصناعات الحجرية، أن الإنسان راوح موضعها منذ العصر الحجري الحديث على الأقل، منجذبا إلى موقعها المتميز في منطقة معتدلة المناخ، خصيبة غنية بالينابيع والجداول وانتشار شجيرات الدفلة الوردية المعروفة في الأمازيغية باسم « أليلي»، وذلك فوق هضبة مصونة منيعة تسهل حمايتها والدفاع عنها، ومتحكمة في مجال حيوي كثير الأغراس والزيتون يمتد من مقدمة جبال الريف شمالا إلى أطراف سهل سايس جنوبا. عرفت منذ القرن الرابع ق.م عدة تأثيرات بونيقية في عمرانها ونظام حكمها وتدبير شؤونها. اتخذها بعض الأمراء والملوك الموريين قاعدة من قواعد المملكة الموريطانية في الرتبة الثانية بعد عاصمتهم إيول قيصرية، على غرار ما فعل الملك يوبا الثاني (25 ق.م- 23 م). تطورت وليلي في ظل الاحتلال الروماني وبصفتها عاصمة لولاية موريطانيا الطنجية، من مدينة صغيرة بأزقة ضيقة إلى مدينة أوسع وأرحب، بحي ذي طابع روماني صرف، وزينتها العديد من المنشآت التي لا زالت أطلالها تدل على هندستها البديعة، منها: الكابتول والبازيليك والفوروم وقوس النصر والمخابز والمعاصر والمطاحن والحمامات والسقايات والعديد من

53 . Raymond Thouvenot, «La maison au cavalier», *P.S.A.M.*, 7, 1945, pp.151–155; J, Carcopino, *Le Maroc Antique*, Gallimard, 10ème éd., 1948, pp. 167–190; Ricard, Prosper, *Le Maroc,* coll. Les Guides Bleus, 6ème éd., Hachette, 1948, pp. 300–303; Etienne, Robert, *Le quartier nord-est de Volubilis,* éd. Boccard, Paris, 1960..

الدور المفروشة بالفسيفساء، وما إلى ذلك من الشوارع المرصوفة والدكاكين المصطفة، والأسوار الدائرة والأبراج والأبواب القائمة، وقنوات توزيع المياه العذبة وتصريف المياه العادمة.

هذا وطلعت العديد من الحفريات هناك بأواني خزفية وأدوات نحاسية وبرونزية وعاجية وزجاجية، محلية ومستوردة من إيطاليا وإسبانيا وغاليا، مما يؤكد مدى العلاقات التجارية التي كانت تربط هذه المدينة مع هذه الجهات مساهمة في التواصل بين ضفاف البحر الأبيض المتوسط. ومع نهاية القرن الثالث للميلاد، وأمام تصاعد صمود ومقاومة قبائل الباكواط ومن والاهم، اضطرت روما إلى التخلي عن هذه المدينة التي تُرجح كل القرائن التاريخية أنها لم تخضع مباشرة للوندال (429-534م)، وأنها وكل باقي المغرب الأقصى، باستثناء مدينة سبتة، ظلت خارج النفوذ البيزنطي[54]، وأنها عاشت مستقلة إلى أن قصدها القائد العربي عقبة بن نافع الفهري خلال ولايته الثانية على المغرب سنة 62 هـ/681 م وهي إذاك واحدة من أعظم وأشهر مدن المنطقة، فافتتحها وغنم ما فيها من الخيرات، وحمل أهلها على الإسلام والطاعة[55]. وفي نهاية القرن الأول للهجرة/السابع الميلادي، وعلى إثر الهزائم الشنعاء المتوالية التي منيت بها قبيلة أَوْرَبَة بزعامة كُسَيلة في مواجهتها للقائد العربي زهير بن قيس البلوي في كل من المغربين الأدنى والأوسط، اضطرت هذه القبيلة إلى ترك معاقلها الأصلية بجبال الأوراس وهجرها واللجوء قسرا إلى الاستقرار بالمغرب الأقصى حيث تملكت مدينة وليلي[56]. وأصبح لها في هذه المدينة شأن حافظت عليه إلى أن قدم عليها هناك إدريس بن عبد الله العلوي في غرة ربيع الأول سنة 172 هـ/9 غشت 788 م[57].

54 . محمد اللبار، **إفريقيا الوندالية بين الحملات البيزنطية والثورات المورية 429-534م**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 4، فاس، 2002، ص. 82-86.

55 . محمد اللبار، «الباكواط وتاريخ موريطانيا الطنجية»، ضمن أعمال **ندوة المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة الندوات والمناظرات رقم 8، الرباط، 2005، ص.63-95؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 71-72.

56 . الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 91.

57 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص .22؛ الجزنائي، **م.س.**، ص. 12؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 153.

2- وليلي العاصمة الإدريسية ووضعيتها الصعبة:

إدريس هذا الداخل إلى المغرب، والوافد على قبيلة أَوْرَبة، هو إدريس ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، أحد سادة آل البيت الناجين من موقعة «فخ» التي كانت سنة 169هـ/786م بضواحي مدينة مكة بالحجاز من أشد وأفجع مصائب العلويين على يد العباسيين الذين حاولوا استئصالهم[58]. استضافه أمير وليلي إسحاق بن عبد الحميد الأوربي وأكرمه غاية الإكرام وأنزله منازل الإجلال والإعظام، منتبها لنسبه الشريف، وشمائله الحميدة، وتفقهه في الإسلام، ومعارضته للخلافة العباسية المشرقية[59].

دامت هذه الضيافة حوالي ستة أشهر يظهر أنها كانت كافية لاقتناع قبيلة أَوْرَبة وأميرها بخلع طاعة العباسيين والمبادرة إلى مبايعة إدريس بالإمامة. فكانت هذه البيعة بمدينة وليلي، يوم رابع رمضان عام 172هـ/6 فبراير سنة 789م[60]، منعطف تحول في مسار هذه المدينة لتصبح عاصمة سياسية لأهم دولة إسلامية في المغرب الأقصى المستقل عن المشرق آنذاك. واستقبلت بصفتها الجديدة الطارئة العديد من الوفود المبايعة لإدريس بن عبد الله من مختلف قبائل المغرب الأقصى ونواحيه، كما أصبحت منطلقا لكل غزواته الجهادية نشرا للإسلام واستئصالا لما كان سائدا هناك، حسب منطوق المصادر التاريخية، من النصرانية واليهودية والمجوسية. فامتد بذلك نفوذ وليلي إلى جهات تامسنا وتادلة وماسة وتحكمت في حصون فندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وفازاز وما إلى ذلك شرقا إلى مدينة تلمسان وأحوازها[61].

هذا ورغم الرجة الكبرى التي أصابت الدولة الإدريسية الناشئة من جراء اغتيال المولى إدريس الأول (الأكبر) في شهر ربيع الثاني عام 177هـ/يوليوز سنة 793م، بإيعاز من الخليفة العباسي هارون الرشيد؛ فقد حافظت مدينة وليلي على مكانتها السياسية

58 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص 19؛ الجزنائي، **م.س.**، ص. 11.10؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 151-152.

59. ابن أبي زرع، **م.س.**، ص 19.18؛ الجزنائي، **م.س.**، ص. 12؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 65 و 153.

60 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص 23؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 155.

61 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص 25.24؛ الجزنائي، م.س.، ص. 13.12؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 155-156

المكتسبة بفضل حنكة وتبصر وإخلاص أحد مواليه، رفيقه في الهجرة إلى المغرب، راشد بن منصة الأوْرَبي[62]. فكانت مهدا للمولى إدريس الثاني (الأزهر) ومرتعا له في صباه وسني شبابه، إذ فيها وُلد وتربى وتأدب، وفيها تعلم القرآن والحديث والعربية والفقه وسِيَر الملوك وأمثال العرب وأيامهم والبلاغة والفصاحة، وفي أحوازها تدرب على ركوب الخيل وفنون الحرب ومراوغات القتال[63]. وفي جامعها بايعته جموع البربر وسنه إحدى عشرة سنة، وذلك يوم الجمعة 7 ربيع الأول عام 188هـ /23 فبراير سنة 804 م[64].

واستقبلت مدينة وليلي، طيلة السنة، وفود القبائل البربرية المبايعة والمهنئة لإدريس الثاني[65]، وفتحت أبوابها في السنة الموالية 189هـ /805 م مستقبلة وفودا عربية من إفريقية والأندلس، في نحو خمسمائة فارس[66] سرَّهم ما بلغهم عنه من تجديد تعاليم الدين ونشر العدل وإقامة السُّنة، وما سمعوا عن دولته من الرسوخ والاستقرار. وتوالت الوفود المؤيدة له بعد ذلك من البربر والعرب من جميع الآفاق، فكان ذلك مما وطد ملكه وسلطانه»وقوى جنده وأتباعه وكثر جيشه وأشياعه»[67]. فضاقت بالجميع مدينة وليلي التي كانت مساحتها العامة داخل أسوارها لا تتعدى الأربعين هكتارا، لم يكن صالحا للسكنى منها إذاك أكثر من ثلثها على أكبر تقدير، حسب شهادة الحفريات الأركيولوجية التي عرفتها أطلالها على امتداد القرن العشرين، وهو الثلث الغربي من المدينة الذي يشكل منحدرها نحو واد الرمان[68].

62 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 28-2؛ ابن القاضي، **م.س.**، ص.23.

63 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 30؛ ابن القاضي، **م.س.**، ص.24.

64 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 34؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 161.

65 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 35؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 163.

66 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 35؛ الجزنائي، م.س.، ص.17 . 18؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 163.

67 . ابن أبي زرع، م.س.، ص. 35؛ الجزنائي، **م.س.**، ص.17 . 18؛ الناصري، **م.س.**، ج 1، ص. 163.

68 . Aomar Akerraz, «Notes sur l’enceinte tardive de Volubilis», *B.C.T.H.*, pp.429–436. n.s., 19B, 1985,

ب- إدريس الثاني ودواعي تأسيس مدينة فاس:

تؤكد كل الكتابات أن إدريس الثاني وحاشيته أدركوا أن مدينة وليلي بمساحتها المحدودة لم تعد قادرة على استيعاب الوافدين عليها من كل أصقاع المغرب وإفريقية والأندلس المؤيدين والمساندين لدولة الأدارسة، وعلى مسايرة متطلبات مرافق هذه الدولة الفتية إداريا وعمرانيا. كما أدركوا أن مصادرها المائية المعتمدة على عين فرطاسة بالدرجة الأولى هي بدورها لم تعد قادرة على سد الحاجيات المتزايدة من المياه الضرورية للحياة هناك.

وعلى الرغم مما كانت تسمح به هضبة وليلي من توسع عمراني للمدينة خارج أسوارها في عدة اتجاهات، تطلع إدريس الثاني إلى إقامة مدينة «يُعبد فيها الله، ويُتلى بها كتابه وتقام بها حدوده وشرائع دينه وسُنَّة نبيه»[69]. مدينة تكون، مقارنة مع وليلي، أرحب فضاء، وأكثر ماء، وأنسب موقعا، ينقل إليها سلطانه وينتقل إليها بجنده وأشياعه وخاصته ورؤساء دولته[70]. مدينة يؤكد بإقامتها شخصيته واستقلاله ويبرهن بإنشائها أمام أعداء دولته على قوة هذه الدولة وقدرتها. مدينة تكون على قدر تطلعاته وطموحاته، تحرره من نفوذ قبيلة أوْرَبة وتأثيرها وعصبيتها وخطرها[71]، وتستوعبه وحاشيته وجنده، وتكفيه حاجته سياسيا وعسكريا واقتصاديا واجتماعيا وحضاريا. مدينة تضاهي عواصم جيرانه، سجلماسة المدراريين بتافيلالت، وتاهرت الرستميين بالمغرب الأوسط، وقيروان الأغالبة بإفريقية، وقرطبة الأمويين بالأندلس، وتنافس بغداد عاصمة الخلافة العباسية بالمشرق.

ج- مؤهلات الموقع المقترح كما تؤكد عليها الروايات:

وقع الاختيار النهائي لبناء مدينة إدريس الثاني على موقع متميز يتوسط شمال المغرب الأقصى، على بعد تسعين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من مدينة وليلي، بين جبال الأطلس المتوسط جنوبا وتلال مقدمة جبال الريف شمالا، عند المدخل الشرقي

69 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 59؛ الجزنائي، **م.س.**، ص.26.

70 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص. 35؛ الجزنائي، **م.س.**، ص.18.

71 . إسماعيل العربي، **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص.77؛ لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، **م.س.**، ص.61.

لهضبة سايس، ملتقى محورين طرقيين. أولهما محور إجباري غربي شرقي يربط السهول الأطلنتيكية الغربية مع المغرب الشرقي وأبعاده المغاربية عبر ممر تازة. وثانيهما محور جنوبي شمالي يوصل سجلماسة وتافيلالت وما وراءهما من الصحراء الكبرى مع الساحل المتوسطي وآفاقه الأندلسية والأوروبية عبر فجاج ومضايق سلسلة الأطلس وأودية سبو وورغة.

وبخصوص موضعها بالذات، حيث أقامها إدريس الأزهر، والذي أطنبت المصادر في وصفه، فهو موضع وسط بين كديتين متقابلتين متوسطتي الارتفاع ، جبل الزعفران شمالا ومرتفعات اللويزات جنوبا، على ضفاف واد «فاس» المعروف كذلك عبر تاريخ المدينة باسم واد الجواهر، والذي ينبع من عيون «رأس الماء» على بعد حوالي اثني عشر كيلومترا غرب المدينة. وهو واد وصفته الجغرافيا الحديثة بتميزه بنظام مستقر ومنسوب مستمر وصبيب منهمر تزوده ينابيع جوفية عديدة تندفع من جبال الأطلس المتوسط الكلسية.

وقد أقيمت المدينة، حسب ما هو متداول في المصادر، في شِعب جميلة بهية غنية بعيونها وآبارها وأنهارها، متميزة بعذوبة وخفة مياهها، ورطوبة واعتدال هوائها، وطيب تربتها، وسعة محرثها بعلا وسقيا، وقرب محطبها من جبال البهاليل بضواحي مدينة صفرو، وامتداد بساتينها والتفاف أشجارها وتنوع ثمارها وأزهارها، وحلاوة ولذة فواكهها من الرمان والتين والعنب والخوخ والجوز والعُنَّاب والسفرجل والأترج (الرنج) والتفاح والكمثري والمشمش والبرقوق والتوت وغير ذلك حسب ما ذكرته المصادر[72].

مياه هذه الشِّعب على صنفين، ماء العيون وماء الأنهار، ولكل منهما صفاته ومزاياه. فمياه العيون هناك باردة في الصيف دافئة في الشتاء، وكأن الخالق يسرها مُعينا على النظافة والطهارة والدين والصلاح. ومياه الأنهار على عكس ذلك دافئة في الصيف باردة في الشتاء. وكلها مياه خفيفة عذبة المذاق وذات فضائل طبية وتطهيرية كثيرة ومتنوعة

72 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص40–41 و 53.

محمودة عند الأطباء أشار إليها بتفصيل ابن أبي زرع والجزنائي، إذ تداوي عددا من الأمراض الظاهرة والباطنة وتقوي الجسم وتنبه شهوته وتطهر الأثواب وتُطَيِّبها[73].

III - ليڤي بروڤنصال وإشكالية التأسيس:

1-قراءة ليڤي بروڤنصال[74] للمصادر التاريخية:

تعرضت الرواية المأثورة عن حدث تأسيس مدينة فاس لرجة جريئة، سنة 1938، على يد المستشرق ليڤي بروڤنصال الذي اجتهد في نظرية مجملها أن إدريس الأول هو المؤسس الحقيقي لمدينة فاس سنة 172هـ/789م في الموضع الذي تقوم عليه عدوة الأندلس، وأن إدريس بن إدريس أسس عدوة القرويين في سنة 193هـ/809 م. وقد بنى ليڤي بروڤنصال هذه النظرية على ما ورد من الاختلاف بين المصادر المغربية ونظيرتها الأندلسية، مستعينا في مساندة نظريته ببعض النقود المسكوكة في الفترة الإدرسية.

بخصوص النصوص التي اعتمدها هذا المستشرق، لإثبات نظريته هذه، نُوثِر تقديمها على المنوال التالي:

1- أولا، نص للمؤرخ القرطبي أبي بكر الرازي من مؤلف له يعد في حساب المفقود، نقله عنه ابن الأبار في حلته السيراء[75]. يقول النص:

«وذكر الرازي أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب سنة اثنتين وسبعين (ومائة) في شهر رمضان هاربا بنفسه من أبي جعفر(المنصور)؛ فنزل موضعا يقال له وليلي بوادي الزيتون، فاجتمعت إليه قبائل من البربر فقدموه على أنفسهم وبنوا مدينة فاس؛ وكانت أجمة شعراء، ولما احتفرت أساساتها، ألفي في بعضها فأس، فسميت بمدينة فاس وسكنها البربر، فلم تطل أيامه وهلك سنة أربع وسبعين ومائة...»

---

73 . ابن أبي زرع، **م.س.**، ص 43؛ الجزنائي، **م.س.**، ص. 35.34.

74. E, Lévi –Provençal, «La fondation de Fès», in *Annales de l'Institut d'Etudes orientales*, IV, 1938, pp.23–52.

. ليڤي بروڤنصال، «تأسيس مدينة فاس»، تعريب سعيد النجار وأحمد اليبوري، **مجلة البحث العلمي**، العدد31، أكتوبر 1980، ص. 157–185.

75 . ابن الأبار، **م.س.**، ج 1، ص.55؛ العربي، **م.س.**، ص. 93.

2- ثانيا، نص لابن سعيد المغربي من جزء مفقود من مؤلفه» المُغرب في حلي المَغرب»، نقله عنه ابن فضل الله العمري والقلقشندي[76]. يقول النص: «وهي (فاس) مدينتان إحداهما بناها إدريس بن عبد الله أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب وتعرف بعُدوة الأندلس، والأخرى بنيت بعدها وتعرف بعدوة القرويين».

3- ثالثا، نص أورده البكري[77] يقول: «وقتل (إدريس بن إدريس) أبا ليلى إسحاق، وهو القائم به وبأبيه، يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين ومائة، وبعث رأسه إلى المشرق مع أحمد وسليمان ابني عبد الرحمان، ثم نزل مدينة فاس في عدوة الأندلسيين، وأقام بها شهرا، وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة، وكانت عدوة القرويين غياضا في أطرافها أبيات من زواغة، فأرسلوا إلى إدريس، فدخل عندهم، فأسس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين ومائة».

هذا وقد أورد ابن عذاري المراكشي[78] المقطع الأخير من هذا النص على الصيغة التالية: «وكانت عدوة القرويين غياضا، في أطرافها بيوت من زواغة، فأرسلوا إليه، ودبر في البناء عندهم. فكان ابتداء بناء مدينة فاس سنة ثلاث وتسعين ومائة، وذلك عدوة القرويين».

4- رابعا، نص للمؤرخ النوفلي نقله عنه ابن الأبار بشيء من الإيجاز[79] يقول: «أسس (إدريس بن إدريس) مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين ومائة».

5- خامسا، نص لمؤرخ غرناطي مجهول يظهر أنه نُقل عن الرازي[80]. يقول النص: «والطائفة الثانية (من الثوار القرطبيين الذين طردهم الأمير الحكم الأول الأموي من الأندلس) توجهت إلى العدوة لبلاد البرابر ونزلوا بعدوة الأندلسيين من مدينة فاس. ومن حين نزولهم بها نسبت إليهم، فقيل «عدوة الأندلسيين». وبهم عمرت تلك العدوة وكثر

76. القلقشندي ، **م.س.**، ج 5، ص 148؛ العربي، **م.س.**، ص.96.

77 . البكري، **م.س.**، ج 2، ص. 805.

78 . ابن عذاري، **م.س.**، ج 1، ص. 211.

79 . ابن الأبار، **م.س.**، ج 1، ص. 53.

80 . مجهول، **الزهرات المنثورة في الأخبار المأثورة**، نقلا عن ليڤي بروڤنصال،**م.س**، ص 169.

أهلها وتمدنت، وكان ذلك سنة اثنين ومائتين. وأميرها إذ ذاك القاسم ابن الأمير إدريس ابن إدريس الواصل إلى المغرب، وهو ابن عبد الله... وكان بين بنيانها وبين بنيان مدينة فاس القديمة ثلاثون سنة. فإن مدينة فاس بنيت سنة اثنين وسبعين ومائة لما دخل إلى بلاد المغرب جده إدريس ابن عبد الله المذكور هاربا بنفسه من أبي جعفر المنصور...».

والواقف عند هذه النصوص الخمسة يلاحظ أن النصين الأول (للرازي) والأخير (للمؤرخ المجهول) وإن كانا لا يتعديان بضعة أسطر، ففيهما من الأخطاء التاريخية ما لا يستهان به عند مقارنتهما مع غيرهما من المصادر مما يجعل الاعتماد عليهما مجازفة في غير محلها. خاصة وأن مجمل النصوص التي تناقلتها المصادر عن الرازي حول تاريخ الأدارسة بصفة عامة يشوبها الكثير من الخلط والاضطراب، فلا تفي بالحاجة ولا تشفي الغليل. مثال ذلك قوله حسب ما أورده ابن الأبار[81] كذلك: «فأما محمد بن إدريس فولي مدينة فاس بعد أبيه، وقسم عمل أبيه على إخوته وأخرجهم عمالا، ثم أخلد إلى اللهو واشتهر بالشرب والخلوة بالنساء، فخلعه إخوته وملك كل واحد منهم ما تحت يده. ثم لم يلبث أن هلك محمد ولم يعقب، فولي أمر فاس بعده القاسم أخوه، وملكها ملك سيادة، وتجمع الناس إليه من كل ناحية، ولحق المنفيون عن ربض قرطبة بها، وتمدنت وكثر أهلها».

هذا وتجاهل ليڤي بروڤنصال، وهو يناقش النصين الثاني (لإبن سعيد) والثالث (للبكري)، ما ورد عند ابن سعيد المغربي والقلقشندي والبكري في نصوص أخرى بخصوص تأسيس إدريس الثاني لمدينة فاس بعدوتيها بصريح العبارة.

يقول ابن سعيد[82]: «إن بناء مدينة فاس قد بدأ في أول ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة وانتهى في ربيع الثاني سنة ثلاث وتسعين ومائة».

81 . ابن الأبار، **م.س.**، ص 133-134.

82 . ابن سعيد المغربي، كتاب البديع، مخطوط محفوظ في مكتبة أكسفورد تحت رقم 874، ورقة 34، نقلا عن العربي، **م.س.**، ص. 96 هـ 2.

ويقول القلقشندي[83] نقلا عن الحميري «وكان بناء عدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة وبناء عدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة». ويورد في نص آخر[84]: «وضاقت عليهم وليلي فاختط لهم (إدريس الأصغر) مدينة فاس سنة اثنتين وتسعين ومائة على ما تقدم وانتقل إليها...».

ويقول البكري[85]: «وأسست عدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة، وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة في ولاية إدريس بن إدريس».

بل أكثر من ذلك حمل ليڤي بروڤنصال النص الرابع (للنوفلي) ما لا يمكن أن يطيقه، إذ اعتبر سكوته عن تأسيس عدوة الأندلس اعترافا ضمنيا أنها كانت قائمة قبل عهد إدريس الثاني[86].

وهكذا ومن خلال مراجعة أصول هذه النصوص الخمسة تتأكد بعض التأويلات المتعسفة التي مارسها ليڤي بروڤنصال على هذه المصادر، جملة وتفصيلا، شكلا ومضمونا، قراءة وتأويلا، بهدف إضفاء الأحقية لنظريته وإثبات صحتها.

هذا والجدير بالملاحظة في هذا المقام الإشارة إلى إهمال ليڤي بروڤنصال لشهادة أقدم نص حول تأسيس مدينة فاس أورده أبو القاسم محمد ابن حوقل (ت.367هـ/978م)[87] صاحب **صورة الأرض**، يقول: «مدينة جليلة يشقها نهر... ونهرها كبير غزير الماء، عليه أرحية كثيرة، وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة، أحدثها إدريس بن إدريس». كما أهمل شهادة نص لمحمد بن عبد المنعم الحميري (ق9هـ/15م)[88] صاحب **الروض المعطار في خبر الأقطار**، يقول: «ومدينة فاس محدثة، أسست عدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة، وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة، في ولاية إدريس بن إدريس». والشهادتان تؤكدان أن مدينة فاس بعدوتيها قد أسست في عهد إدريس بن إدريس.

83 . القلقشندي ، **م.س.**، ج 5 ، ص. 148

84 . **المرجع السابق**، ص. 176.

85 . البكري، **م.س.**، ج 2، ص. 795

86 . ليڤي بروڤنصال، **م.س.**، ص. 168.

87 . ابن حوقل، **م.س.**، ص. 90.

88 . عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط 2، 1984، ص. 434–435.

ب - ليڤي بروڤنصال والمسكوكات الإدريسية:

إن الجديد الذي أضافه ليڤي بروڤنصال في دراسة مسألة تأسيس مدينة فاس هو اعتماده، في مساندة نظريته ودحض الرواية المأثورة، على الأدلة الأركيولوجية التي لا يرقى إليها الشك مبدئيا، والتي لا يستهين بها وبقيمتها الباحثون. وقد تمثلت هذه الأدلة في درهمين مؤرخين قدم ليڤي بروڤنصال أولهما المعروض في الخزانة الوطنية الفرنسية بباريس على أنه ضُرب في مدينة فاس سنة 189هـ/805م؛ وقدم ثانيهما المعروض في متحف مدينة خاركوف الروسية على أنه ضُرب كذلك في مدينة فاس وذلك سنة 185هـ/801م. واستنتج اعتمادا عليهما أن مدينة فاس كانت قائمة قبل سنة 192هـ/808م، تاريخ تأسيسها حسب الرواية المأثورة، وأنها كانت تحتضن إذاك دارا لسك العملة الإدريسية[89]. وبذلك خول لنفسه الجزم أن إدريس الأول هو الذي أسس مدينة فاس، وأن ذلك حقيقة مؤكدة لم تعد قابلة للنقاش والجدال.

إلا أن ما جازف به ليڤي بروڤنصال في اعتماده على هذين الدرهمين هو عدم التحري عن حقيقتهما واكتفاؤه بما نقله بخصوصهما عن غيره من مُؤلف تم تدوينه سنة 1891 [90]. وهكذا وبالرجوع إلى الدراسة القيمة التي أنجزها دانيال أوسطاش، أحد خبراء المسكوكات المغربية، سنة 1971، تحت عنوان «جامع الدراهم الإدريسية والمعاصرة لها»، يتبين أن درهم باريس يحمل سنة 184هـ وليس 189هـ، وأنه لم يُضرب بمدينة فاس أصلا[91]. كما يتبين أن درهم خاركوف لم يُضرب بدوره في مدينة فاس، وأن هناك احتمالا أنه قد سُك في مدينة تدغة، إذ أن اسم دار الضرب غير واضح في هذا الدرهم؛ وأكثر من ذلك يحمل هذا الدرهم اسم شخصية «قيس بن يوسف»[92]. وهي شخصية لم يقدم حولها ليڤي بروڤنصال أي بيان أو توضيح، وتجاهلها كل الباحثين في تاريخ الدولة الإدريسية .

89 . ليڤي بروڤنصال، **م.س.**، ص. 165.

90. H, Lavoix, *Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Espagne et Afrique,* Paris, 1891, p.XLIV, n° 899, pp. 377–378

91. Eustache, *op.cit*, p.26, n 4.

92. Idem, Ibid, p.146, n 8.

خاتمـــــة

وهكذا وبناء على هذه الانتقادات الموضوعية التي وجهناها لنظرية المستشرق ليڤي بروڤنصال، على غرار العديد من الباحثين الذين لم ينساقوا معها، نكون قد رجحنا دون أدنى تحفظ الرواية المأثورة عن تأسيس مدينة فاس بعدوتيها في عهد إدريس الثاني. هذه الرواية التي أوردتها المصادر التاريخية منذ القرن الرابع للهجرة/العاشر الميلادي، وتناقلتها عنها جل المؤلفات والدراسات والأبحاث، واحتفظت بها الذاكرة الشعبية الجماعية في عموم المغرب وذاكرة أهل فاس خاصة بمثقفيهم وعوامهم إلى اليوم. اللهم إلا أن تطلع علينا الأيام بنصوص جديدة، أو تأتينا بعض الاستبارات والحفريات الأركيولوجية بما يدحض هذه الرواية.

مجمل الرواية المأثورة حول تأسيس مدينة فاس.

التاريخ	الحدث
170هـ/786م	وفد إدريس بن عبد الله العلوي على المغرب الأقصى.
ربيع الأول 172هـ/غشت 788م	نزل إدريس الأكبر بوليلي ضيفا على إسحاق بن عبد الحميد الأوربي.
الجمعة 4 رمضان 172هـ/6 فبراير 789م	بويع إدريس الأكبر بمسجد مدينة وليلي.
الثلاثاء غرة ربيع الثاني 177هـ/16 يوليوز 793 م	توفي إدريس الأكبر بمدينة وليلي، ودفن خارجها بجبل زرهون. وقد دامت إمارته أربعة أعوام وسبعة أشهر.
3 رجب 177هـ/14 أكتوبر 793 م	ولد إدريس بن إدريس بمدينة وليلي.
الجمعة 7 ربيع الأول 188هـ/22 فبراير 804 م	بويع إدريس الأزهر بمسجد مدينة وليلي.
190هـ/806 م	المحاولة الأولى: إدريس الأزهر يشرع في بناء مدينة على السفح الشمالي لجبل زلاغ، إلا أن السيول هدمت بناءه فرفع يده عن العمل.

محرم 191هـ/نونبر–دجنبر 806 م	المحاولة الثانية: إدريس الأزهر يشرع في بناء مدينة على واد سبو، إلا أن خوفه على الناس من فيضانات النهر جعله يرفع يده عن البناء.
الأشهر الأخيرة 191هـ/خريف 807 م	- فوض إدريس الأزهر لوزيره عمير بن مصعب الأزدي اختيار موقع المدينة. واستحسن اختياره. - اشترى إدريس الأزهر بقعة العدوة الشرقية لواد فاس من بني يزغتن الزناتيين بثمن 2500 درهم.
الخميس غرة ربيع الأول 192هـ/4 يناير 808 م	أسس إدريس الأزهر مدينة «فاس» في العدوة الشرقية، وشرع في بنائها.
محرم 193 هـ/نونبر 808 م	لبى إدريس الأزهر دعوة جيرانه في العدوة الغربية، بني الخير الزواغيين، ونزل ضيفا عندهم. واشترى منهم بقعتهم بثمن 3500 درهم.
غرة ربيع الثاني 193 هـ/22 يناير 809 م	أسس إدريس الأزهر مدينة «العالية» في هذه العدوة الغربية، وشرع في بنائها. وكان سبق تداول اسم «فاس» بين الخاصة والعامة دون ريب، من أسباب تغلب هذا الإسم ومن وراء إطلاقه على كل المدينة بعدوتيها.
202 هـ/817-818 م	إدريس الأزهر يستقبل ثمانية آلاف أسرة أندلسية، وينزلهم بالعدوة الشرقية التي عرفت من حينها باسم «عدوة الأندلس».
210 هـ/826 م	إدريس الأزهر يستقبل ثلاثمائة أسرة قيروانية، وينزلهم بالعدوة الغربية التي عرفت من حينها باسم «عدوة القرويين».
ليلة 12 جمادى الثانية 213 هـ/29 غشت 828 م	توفي إدريس الأزهر بمدينة فاس، وسنه يومئذ 36 سنة، ودفن بها.

جدول تاريخي للأئمة الأدارسة

الذين اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم:

الأئمة	فترات الحكم(هـ)	فترات الحكم(م)
إدريس بن إدريس بن عبد الله (إدريس الثاني/الأزهر)	213-188	828-803
محمد بن إدريس الأزهر	221-213	836-828
علي بن محمد (علي الأول)	234-221	863-849
يحيى بن محمد (يحيى الأول)	249-234	863-849
يحيى بن يحيى الأول (يحيى الثاني)	249	863
علي بن عمر بن إدريس الأزهر (علي الثاني)	252-249	866-863
داود بن إدريس الأزهر	267-252	880-866
يحيى بن القاسم بن إدريس الأزهر (يحيى الثالث)	292-267	905-880
يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الأزهر(يحيى الرابع)	307-292	920-905
الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن إدريس الأزهر	313-310	925-923

* * *

المصادر والمراجع

ابن الأبار، **الحلة السيراء**، تحقيق حسين مؤنس، ط.2، القاهرة، 1985.

ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، المطبعة الملكية، ط.2، الرباط، 1999.

ابن حوقل، **صورة الأرض**، طبعة بيروت، 1962.

ابن الخطيب، **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق ليڤي بروڤنصال، ط.2، بيروت، 1956.

ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط.1، بيروت، 1970.

ابن سعيد المغربي، **كتاب البديع**، مخطوط محفوظ في مكتبة أكسفورد تحت رقم 874، ورقة 34، نقلا عن العربي، **م.س.**،ص.96 هـ 2 .

ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق كولان بروڤنصال، ط.5، دار الثقافة، بيروت، 1998.

ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

الإدريسي، **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق مجموعة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

البكري، **المسالك والممالك**، بيت الحكمة قرطاج، 1992 .

الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط.2، الرباط، 1991.

الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، 5 ج، دار صادر، بيروت، 1979 – 1986.

الحميري، عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط 2، 1984.

عباس نصر الله، سعدون، **دولة الأدارسة في المغرب، العصر الذهبي** 223-172هـ/788 835م، دار النهضة العربية، بيروت، 1987.

عبد العزيز سالم، السيد، **المغرب الكبير**، ج 2 العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 19 81.

16- العربي، إسماعيل، **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

العمري، ابن فضل الله، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد،ط.1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988.

القلقشندي، أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الفكر، بيروت، 1987، ج 5.

الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، 4 ج، دار الثقافة، الدارالبيضاء، 2004.

اللبار، محمد، «الباكواط وتاريخ موريطانيا الطنجية»، ضمن أعمال **ندوة المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة الندوات والمناظرات رقم 8، الرباط، 2005، ص.63-95.

اللبار، «فاس الإدريسية، مدينة العدوتين: من تأسيس الدولة إلى تأسيس المدينة»، المبحث الأول ضمن كتاب **تارخ مدينة فاس من التأسيس إلى أواخر القرن العشرين: الثوابت والمتغيرات**، تأليف جماعة من الأساتذة تحت إشراف محمد مزين، فاس، 2010.

لوتورنو، روجي، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، 1992.

ليڤي بروڤنصال، «تأسيس مدينة فاس»، تعريب سعيد النجار وأحمد اليابوري، **مجلة البحث العلمي**، العدد 31، أكتوبر 1980، ص. 157-185.

مجهول، **الزهرات المنثورة في الأخبار المأثورة**، نقلا عن ليڤي بروڤنصال.

المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، نشر دي غويه، ليدن، ط.2، 1906.

26الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، 9ج، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدارالبيضاء، 1954-1956.

الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط.2، بيروت، 1983.

اليعقوبي، **كتاب البلدان**، طبعة ليدن، 1892.

Akerraz, Aomar, «Notes sur l'enceinte tardive de Volubilis», *B.C.T.H.*, n.s., 19B, 1985, pp. 429–436.

Ben Embarek Lahbib, Si Bekkai, «Sefrou», in *Bulletin Economique et Social du Maroc*, Volume XV, n° 52, 1er trim. 1952.

Carcopino, J, *Le Maroc Antique*, Gallimard, 10ème éd., 1948.

Colin, Georges Séraphin, «Monnaies de la période idrisside trouvées à Volubilis», *Hespéris*, T.XXII, fascicule unique, 1936, pp.113–127.

Eustache, Daniel, *Corpus des dirhams idrissides et contemporains*, éd. Banque Maroc, Rabat, 1970–1971.

Gaillard, Henri, *Une ville d'Islam: Fez*, Paris, 1905.

Jelloul, Mohamed, «Réflexions sur l'appelation de la cité de Fès», *Revue Al Assas*, n° 118, 1994, pp. 16-17.

Lavoix, H, «*Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale*», *Espagne et Afrique,* Paris, 1891, p. XLIV, n° 899, pp. 377–378.

Lévi–Provençal, E, «La fondation de Fès, in *Annales de l'Institut d'Etudes orientales*», IV, 1938, pp. 23–52.

Lévy, Simon, «Hypothèses pour des étymologies berbères de Sefrou et Fès», *Revue al Misbahia*, publication de la F.L.S.H. Saïs Fès, Série Sciences Humaines, N° 6, 2003, p.4

قصبة الخميس المرينية بمدينة فاس:
دراسة تاريخية ومعمارية

د. محمد لملوكي
أستاذ باحث ـ أگادير

تقديـــم:

عادة ما يقترن ذكر الدولة المرينية بالحديث عن المنشئات المدنية والدينية من مدارس وفنادق ومساجد..ونادرا ما نجد دراسة تتناول المنشئات العسكرية المرينية من قصبات وقلاع. فهل تعكس هذه الصورة حياد هذه الدولة عن كل ماهو حربي وعسكري أم أن الامر مجرد مادة مصدرية وتوجه في البحوث والدراسات لا تمثل واقع الحال المريني؟

فقد اهتم المرينيون بالمنشئات العسكرية عبر المجال المغربي وتحديدا الجزء الشمالي منه. حيث بنوا القصبات بكل من العرائش سنة657هـ/1258م وتطوان سنة 685هـ/1287م وبمليلة، كما جددوا دار الصناعة بسلا وزودوها بتقنيات حديثة بإشراف خبير اندلسي مشهور سنة 658 هـ/1259م[1] ثم اهتموا بإنشاء المحارس والمناظر وأبراج المراقبة على طول السواحل الشمالية[2]. أما الداخل، فقد أولوه عناية خاصة من خلال تحصين مدنه وتدعيمها بقصبات خصوصا تازة وفاس ومكناس وسلا وآسفي...

1. هذا الخبير هو محمد بن علي ابن الحاج الإشبيلي: «من مدجني مدينة اشبيلية، من العارفين بالحيل الهندسية والمهرة في نقل الأجرام ورفع الأثقال، بصيرا باتخاذ الالآت الحربية الجافية، وانتقل إلى مدينة فاس على عهد يعقوب المنصور بن عبد الحق المريني، وبنا دار الصنعة بسلا، توفي بفاس الجديد في العشرة الأولى من شعبان عام أربعة عشر وسبعمئة (714/ 1314م)»، ينظر ترجمته في: أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، نشر عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1979، ص. 288.

2. «بلغ عدد المحارس بسبتة على العهد المريني ثمانية عشر محرسا من المدينة الى اثني عشر ميلا من خارجها من ناحيتي البحرين وما وراء ذلك الى بلاد الريف والى بلاد طنجة» ينظر: محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، (ق 9هـ/15م) **اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار**، نشر عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، 1923، ص. 32.

واستعمل المرينيون الى جانب كل ذلك أسلحة متطورة ضربوا بها أسوار المدن وتحصيناتها كالمنجنيقات[3] والعرادات[4] وبرعوا في فن الحصار كما تؤرخ لذلك المصادر التاريخية بالنسبة لتلمسان وسجلماسة[5].

وشكلت مدينة فاس قاعدة حكم بني مرين ومنطلق حملاتهم نحو الشرق والشمال. فأقاموا بها مدينة جديدة بمواصفات دفاع منيعة تدعى فاس الجديد. تحاط بمجموعة من المعسكرات والقصبات اختفت معالم بعضها، وبقيت أسماء أماكنها وبعض الإشارات المصدرية شاهدة عليها. وتكاد تنفرد قصبة الخميس باحتفاظها ببعض الشواهد المادية الدالة على الطابع المريني لها متحدية التغييرات المتتالية التي لحقت بالقصبة مع الدول اللاحقة كالسعديين والعلويين.

I. مسألة التسمية:

اختلف الدارسون حول نسبة هذه القصبة التي تدعى الآن قصبة الشراردة[6] إلى المرينيين. فقد ذهب المنوني إلى أن قصبة الخميس[7] المنسوبة إلى المولى الرشيد كانت

3. المجانيق (Mangonneaux): وهي مدافع ترمي بالحجارة على المحصورين، ولهذا يسمى أيضا بالمدافع الحجارة. ينظر:

. ابن ارنبغا الزردكاش (867هـ)، الأنيق في المناجيق، دراسة وتحقيق إحسان هندي، منشورات جامعة حلب وآخرون، 1405هـ/1985م، ص23، وانظر أيضا:

Sciences et Techniques en Islam, TV, Institut Fur Geschichte der Arabisch Islamschen wissenschaften, Frankfurt aur main, 2004, p. 110.

5. أسهبت المصادر في عرض تفاصيل حصار كل من مدينتي سجلماسة وتلمسان. وهكذا نجد ابن خلدون يصف حصار تلمسان بقوله: «وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها وضرب يوسف بن يعقوب سياجا من الأسوار محيطا بها وفتح فيه أبوابا مداخل لحربها واختط إلى جانب الأسوار مدينة سماها المنصورة، وأقام على ذلك سنين يغاديها القتال ويراوحها»؛ **تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر**..، مج 7، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1399هـ/1979م، ص 95. ويضيف المصدر نفسه أن المرينيين استعملوا في حصارها آلات متطورة حيث نصبوا « عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار..» **المصدر نفسه**، ص 220. وفي رواية للناصري أن السلطان يوسف بن عبد الحق حاصر تلمسان «نصب عليها المجانيق..»؛ الناصري، الاستقصا ، ج3، دار الكتاب، البيضاء، 1954، ص.69.

6 . الشراردة: أخذت هذه القصبة هذا الإسم بعد أن أقام بها في القرن 19م جيش الشراردة الذي أتى به السلطان العلوي المولى عبد الرحمن. ينظر:

(E.), Michaux_Bellaire, “Description de Fes”, *Archives Marrocaines* V. XI, 1907, Publication de la mission scientifique du Maroc, p. 260.

7 . وتسمى ًقصبة الخميس ً نسبة إلى اليوم الذي يعقد فيه أحد أسواق فاس على طول الأسوار الشمالية والشرقية للقصبة. ينظر

ضمن معسكرات الجيش السعدي فسقط جزء من سورها جهة باب الساكمة، فأعاد بناءه الرشيد بن الشريف العلوي؛ مستدلا على ذاك بما جاء في مخطوطة لعبد السلام القادري[8] لدى الحديث عن السلطان الرشيد بقوله: «وأمر اشراكة[9] ببناء الدور في قصبة لهم، وأدار هو السور عليهم بموضع كرواوة من جيش السعديين»[10] غير أنه لا يرجعها- القصبة- إلى السعديين، بل يقول إنها هي التي عناها الحسن الوزان، بمناسبة الحديث عن مؤسسات يعقوب المريني بفاس الجديد[11]، ويدل على هذا قطعة كبيرة من سورها لا تختلف عن هيئة السور المحيط بالقصر المريني بما في ذلك الشرفات والأبراج المدعمة. كما أن النقش الذي يتوج باب مستشفى ابن الخطيب[12] موسوم بالطابع المريني الواضح. ويضيف أن هذا الباب كان هو المدخل الرئيسي للقصبة[13]. وإذا كانت مصداقية كلام المؤرخ المنوني تأتي من النص التاريخي المدعوم بالتحقيق الميداني، فإنه يعتبر في نظرنا الأقرب إلى الصواب. ويزداد تشبثنا باستنتاجات هذا الأخير، ما ساقته نصوص أخرى تاريخية أقرب زمنيا من عهد الرشيد والتي تشير إلى ما ذهب إليه المنوني مثل حديث الزياني، عند ترجمته للسلطان إسماعيل العلوي عام 1091هـ/1680م: «ولما بلغ لفاس أنزل بقصبة الخميس، التي بنى سورها الرشيد، خمسمائة من الخيل»[14]. وبهذا يكون

أيضا: (E.), Michaux_Bellaire, “Description de Fes..”, *op.cit*, p 260

8 . لعبد السلام القادري مخطوطتان حول مدينة فاس، أولها: الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني، فاس، المطبعة الحجرية، 73 صفحة. والثانية: العرف العاطر في نسب من بفاس من أبناء الشيخ عبد القادر، يقع في سفر وسط مصور 1385 22535. ينظر: **فاس، كشاف المراجع البيبليوغرافية للتراث الثقافي**، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، قسم احصاء الممتلكات الثقافية، المغرب، (بدون سنة طبع)، ص 56.

9. أخذت أيضا تسمية «اشراكة» نسبة إلى الجيش الذي أسكنه السلطان العلوي المولى رشيد بها. ينظر: الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج7، ص 42.

10. المنوني محمد، «فاس الجديد مقر الحكم المريني»، مجلة البحث العلمي، عدد مثنى 11/125 السنة الرابعة، 1967، ص.179.

11. يقول الوزان في هذا: «وبنى بجوار الباب الغربي عند السور الثاني رواقا كبيرا جدا وحجرات صغيرة عديدة تكون مقرا دائما لحارس المدينة مع جنوده ومستخدميه..»؛ الوزان، **وصف افريقيا**، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر، دار الغرب الاسلامي، ط2، بيروت، 1983، ص.282.

12. هذا المستشفى يشغل الآن قسما من القصبة إلى جانب ثانوية القرويين التي تشغل الجزء الغربي منها ومؤسسات أخرى تعليمية ابتدائية و إعدادية ...حسب معايننتا الميدانية.

13. محمد المنوني، «فاس الجديد..»، **م.س**، ص 179.

14. أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في ذكر دولة مولانا علي الشريف**، ج 2، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1992، ص138.

السلطان الرشيد العلوي إنما بنى سور قصبة الخميس (الشراردة حاليا). أما القصبة الجديدة التي قصد بها المؤرخ ابن زيدان قصبة النوار (قصبة فيلالة حاليا) إنما بناها الناصر الموحدي على مقربة من باب الشريعة عام 600هـ/1203م[15]. وفي هذه القصبة كانت وفاة أبي يحيى سنة 656هـ[16]، ثم صارت مركزا لأخيه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، ومنها كان خروجه لتأسيس مدينة فاس الجديد[17].

II . الوصف المعماري للقصبة:

تتخذ هذه القصبة شكل مضلع رباعي، يكاد يكون مستقيما؛ طوله أربعمائة متر وعرضه خمسمائة وخمسون مترا[18]. مكونة من أسوار مسننة نصبت فيها أبراج مربعة منيعة. ولها بابان فخمان يؤديان إلى داخلها؛ أحدهما مقابل باب المحروق والآخر ينفتح من جهة سهل السايس, وقد سد الأول بسور في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.[19] وتتميز عن بعض القصبات الأخرى بكون داخلها لايتناسب مع ارتفاع أسوارها وحجم بابها المزين بفسيفساء الزليج والمنفتح بين برجين مربعين[20]. تتخلل سورها أبراج في منتصفها أشرطة مزخرفة، يبلغ عرض واجهة الواحد منها حوالي خمسة أمتار ونصف، وعرض الجانبين حوالي أربعة أمتار. تفصل بينهم) الأبراج (سجوف تصل إلى ثمان وأربعين مترا، خصوصا في الواجهة الغربية. وهي في علوها دون الأسوار، مبنية بالطابية كما هو الشأن بالنسبة للأسوار.

أما بالداخل، فتخترقها أسوار بعرض متر وعشر سنتمترات. وهي صلبة ومتشعبة داخل القصبة. مما يوحي بكثرة مرافقها وأيضا تقسيماتها إلى قصبات صغيرة، وبعض أساساتها ما تزال ماثلة للعيان داخل المؤسسات المقامة بها حديثا، أما مسجدها فما يزال

15. محمد المنوني، «فاس الجديد..»، **م.س**، ص. 179.

16. هو الأمير أبو بكر بن عبد الحق المكنى بأبي يحيى، بويع يوم الخميس 9 جمادى الأخرى سنة 642هـ وتوفي بقصره من قصبة مدينة فاس يوم الخميس منسلخ جمادى الأخرى سنة 656هـ وعمره 52 سنة. ينظر ترجمته في: اسماعيل ابن الاحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، ط2، 1999م، ص 26.

17 . محمد المنوني، «فاس الجديد..»، **م.س**، ص. 179.

18. (H.) Bressolette et (J.) Delarosiere, "Fes jdid, de sa fondation en 1276 au milieu de XXème siècles.", *Hespéris_Tamuda*, Vol XX.XXI (1982_1983), p 270.

19.روجي لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ج1، ص 236.

20. Michaux.bellaire, "Description…", *op.cit*, p. 261.

حاضرا بشكله المستطيل، تعلوه صومعة توحي زخرفتها ونمط بنائها بالطابع المريني وخصوصا طابع صومعة المدرسة البوعنانية بفاس.

تشكل الأبواب أبرز ملامحها المرينية بحكم التشابه الكبير مع أبواب فاس الجديد، ويمكن تلخيصها في النقط الآتية:

- الأبواب البارزة ذات الأبراج المستطيلة والمداخل المرفقية؛
- لوحة الباب تشابه في تكويناتها المعمارية والفنية مع لوحات الأبواب المرينية من حيث الزخارف و فتحة القوس والدعامات..

ومن ثم فالأبواب تبقى شاهدا كبيرا على انتماء هذه القصبة لسلسلة المعالم العسكرية للدولة المرينية بمدينة فاس.

III . مواد البناء وتقنياته:

تقدم لنا المصادر إشارات مهمة عن مواد البناء المستعملة في تحصينات فاس الجديد والبالي أيضا، كما هو الشأن عند العمري: «وجميع أبنيتها من الحجر والآجر والكلس موثقة البناء مشيدة الأركان، وتزيد فاس الجديدة على فاس العتيقة في الحصانة ..، (أما) العتيقة (ف) بسور واحد من الحجارة، والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل والكلس المضروب»[21]. وبالمعاينة الميدانية تظهر تحصينات فاس الجديد مبنية بالطابية المركبة من خليط من الطين والرمل والكلس مدكوك بشكل جيد، وهذه المواد مما توفره بيئة فاس ومحيطها كما سيتبين لاحقا.

أ . الطين:

وهو المادة الأساسية في البناء المحلي، تدعى «تدكة» تجلب من ثلاثة محاجر (Carrière) تقع على بعد ثلاثة كيلومترات من الطريق الرابطة بين سيدي حرازم

---

21 . العمري، شهاب الدين أحمد بن يحي المعروف بابن فضل الله (ت 749هـ/1348م): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، ط1، 1988، ص. 116.

والمدينة الجديدة، وتتميز بجودتها العالية وبلونها المائل إلى الحمرة وأحيانا الرمادي[22]. يميز أصحاب مهن البناء بفاس بين ثلاثة أنواع من هذه المادة: الطين الأحرش؛ ويستخرج من أعماق المحاجر ويستعمل في صناعة الزليج والآجر ويميل في لونه إلى الأزرق البني، وهناك الطين الأملس؛ ويتميز بوجوده في الطبقات الأقل عمقا بالمحاجر، وتستعمل في صناعة البجماط والقرمود. وأخيرا الطين الأصفر؛ ويستخرج من الطبقة السطحية من المحاجر، ويتميز بجودته الرديئة، ويستغل في صناعة قنوات المياه والفخار.[23]

وتتميز الصخور الطينية المتوفرة بمحاجر وادي الزيتون والتي تدخل في تكوين المواد التي يبنى بها السور بقابليتها الكبيرة للانتفاخ والتقلص حسب كمية المياه المتوفرة بها[24].

ب . الكدان:

مادة الكدان أو حجارة الكدان من أكثر المواد استعمالا في عمليات البناء. وهو حجر وسط بين الطوب والحجر يسميه الصخاريون في وقتنا الحالي بالحث.[25] ويعتبر هذا النوع من أكثر أنواع الحجارة صلاحية للبناء ويعود استخدامه بالمغرب إلى عهد قديم[26]. وهي صخور كلسية تستخرج من محاجر المرينيين في الشمال الشرقي من المدينة. ويتميز هذا النوع من الصخور بكثافة جافة تصل إلى 2.06 طن/متر مكعب، كما أن مقاومتها للضغط المسلط عليها تصل إلى 65 كلغ/سنتم، وبمعنى آخر فإن خصائصها الجيوتقنية كأساس لإقامة الأسوار جد ملائمة[27]. إلا أن استغلال نفس هذه الصخور في عملية البناء إما على شكل آجر، أو خليط بعد دقها، يفقدها خاصياتها الجيوتقنية الصلبة وتصبح ذات

22. Techniques de construction Traditionnelle, *op.cit*, p 17.

23. **نفسه**، ص. 18.

24. عبد القادر فنان، «أسوار مدينة فاس أصالة أم حاجز؟» ضمن **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية.** فاس، ع 1، سنة 1985، ص.87–103.

25. **المعمار المبني بالتراب في حوض البحر الأبيض المتوسط**، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 80، ط1، 1999، ص.61.

26. حسن حافظي علوي، «مواد البناء ببلاد المغرب من خلال كتاب «الإعلان بأحكام البنيان»، ضمن ندوة **المعمار المبني بالتراب**، منشورات ك.آ.ع.إ بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 80، ط1، 1999، ص 61،62.

27. فنان، «أسوار مدينة فاس..»، م.س، ص 79.

مقاومة ضعيفة للتعرية. بالإضافة إلى هذا تتميز هذه الصخور بقابليتها الكبيرة لاختزان الماء والمحافظة على الرطوبة وذلك بالنظر إلى طبيعتها الكلسية وبنيتها التجويفية. كل هذه العناصر توفر إطارا ملائما لاستقرار طويل للماء وقيامه بعملية التفسخ سواء كان ذلك عن طريق التميؤ أو التحلل الكيماوي[28].

ج . الكلس:

تتعدد مصادر الصخور الكلسية المستعملة في بناء الأسوار فهي إما راجعة إلى إمداد الفليس والكدان بالكلس الحر أو نتيجة للصخور الكلسية التي يوفرها المجال المحلي بمنطقة واد بوخرارب وواد الزحون أو الكلس الجيري المستخرج من محاجر بن سودة.

د . الجـــير:

يعد من المواد التي تدخل في تركيب الطابية المشكلة لأسوار المدينة، وهو من المواد الأساسية في التمييز بين صلابة وحدات الطابية ولها أيضا تأثير في مظهر الأسوار الخارجي. يتم جلب الحجر الذي تستخرج منه مادة الجير في ظاهر المدينة حيث تنتشر أفران الجير. سجل الوزان ملاحظاته بشأن ذلك بقوله: « ويوجد خارج فاس على بعد ميل تقريبا نحو عشرين فرنا للجير، ومثل هذا العدد لأفران الآجر لسد حاجيات بناء الجامع والأملاك التابعة له»[29]، ووصف هذا الجغرافي محاجر الجير وحجم إنتاجها منه كالآتي: «وبظاهر المدينة صخور عالية محيطة بخندق طوله ميلان ويستخرج منه الحجر الذي يصنع منه الجير. وفي الخندق أفران كبيرة يسع بعضها ستة آلاف مد من الجير ويضطلع بهذا العمل أعيان متواضعون»[30]. أما ابن خلدون فيصطلح على هذه المادة بكلمة الكلس، لأنه الأصل في المادة ويشير إلى ذلك بقوله: «ومن صنائع البناء أيضا أن يجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن

28. **المرجع نفسه**، ص 87–103.

29. الوزان، **وصف إفريقيا**.، ج1، **م.س**، ص.225.

30. **المصدر نفسه**، ص.279.

إفراط النارية المفسدة للإلحام. فإذا تم ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك إلى أن يلتحم»[31]. لقد استعملت هذه المادة منذ القديم؛ حيث وجد خليط الجير بكثرة في أبنية الرومان[32] التي لا تزال شاهدة على براعتهم في ذلك إلى اليوم.

وعموما يمكن استعمال الجير على ثلاثة أوجه: أولها في الطابية؛ وذلك بخلطه بالرمل والتراب، والثاني في طلاء الواجهات وملاطها، وذلك بإضافته إلى كمية هامة من الرمل الدقيق، أما ثالث الوجوه الممكنة الإستعمال؛ فهو عندما يستخدم وحده منحلا في الماء فيكون هو الغشاء الوحيد للجدران.[33]

3 . الطابية: تقنية للبناء في أسوار فاس الجديد:

وتسمى أيضا هذه التقنية بـ «التراب المدكوك» وتشير المصادر إلى أنها تقنية قديمة ورثتها الدولة المرينية حيث يقول عنها ابن خلدون مثلا بأنها «تعود لعهود ضاربة في القدم»[34]، ويؤكد الباحثون[35] هذا الرأي فيقرون بصعوبة تحديد زمن ظهور هذه التقنية. لكن المعلوم أنه جرى العمل بها خلال العصر الوسيط، وهي التقنية الأساسية في أسوار مدينة فاس ؛ وصفتها مقدمة ابن خلدون بشكل مفصل ودقيق كما يلي: «.. ويستخدم في الطابية لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا. يختلف مقاسهما باختلاف المناطق؛ لكن أوسطه أربع أذرع في ذراعين. ينصب اللوحان على أساس الحائط، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب، ويربط عليها بالحبال، وتشد الجهتان الباقيتان بلوحين آخرين صغيرين، ثم يتم وضع التراب والحصى والجير بين تلك الألواح الأربع، ويركز بالمراكز الخشبية حتى تختلط أجزاء تلك المواد، وتتابع العملية إلى أن يمتلئ الفراغ بين الألواح ثم يعاد نصبها على الصورة السابقة. وهكذا إلى أن تنظم الألواح سطرا من فوق سطر وينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة ويسمى صانعه الطواب»[36].

31 . سميرة الرباطي، **معجم البناء والعمران في كتاب العبر لابن خلدون**، بحث لنيل دبلوم السلك الثاني من المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، السنة الجامعية 1993_1994، غير منشورة، ص.39.

32 . **المرجع نفسه**، ص.40.

33 . **المرجع نفسه**، ص.41.

34 . ابن خلدون، **المقدمة**، **م.س**، ص.511–512.

35. Mina Elmghari, “Reflexion sur les matériaux de construction des Monuments Almohades de Rabat”, ضمن ندوة **المعمار المبني بالتراب**، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 80، ط1، 1999، ص.167.

36 . ابن خلدون، **المقدمة**، **م.س**، ص.511–512.

لقد استخدمت هذه التقنية في بناء الأسوار بالمغرب منذ العصور القديمة، وهذه الأخيرة يقول عنها «تيراس»[37] أنها موجودة في العديد من المآثر الرومانية، وهي طريقة البناء المتبعة عادة بالأندلس. وتعد هذه التقنية، في اعتقادنا، الأكثر استعمالا في مغرب العصر الوسيط ؛ استعملها المرينيون في أسوارهم وأبراجهم والتي عادة ما كانت تتكئ على دعامات أو قاعدة من الحجر. وتميزت هذه التقنية في أسوار فاس الجديد بالغنى الجيري والحصى وهو ما أعطاها أحيانا صلابة الحجر بشهادة المؤرخين والجغرافيين[38]، وكذلك بقاءها إلى حدود الساعة متحدية نوائب الزمن.

IV. القصبة والوظيفة العسكرية:

تنتمي قصبة الخميس إلى سلسلة القصبات الموجودة بفاس والمخصصة لسكنى جيش القبائل حسب ما تشير إليه دلالة الأسماء التي تنعت بها (اشراكة، اشراردة..). «وتعد من بين المآثر العمرانية التي تنسب إلى السلطان يعقوب المريني تبعا لما ورد لدى الوزان من أن هذا الأخير «بنى بجوار الباب الغربي عند السور الثاني رواقا كبيرا جدا وحجرات صغيرة عددية تكون مقرا دائما لحارس المدينة مع جنوده ومستخدميه.»[39] وهي حسب هذا النص مأوى لفرق الجيش السلطاني. كانت تخضع لتنظيم إداري معين، وتحرس جهة معينة من المدينة وتقوم بمهمة محددة لها وتنسب إلى مقاعد الحرس التي تحدث عنها ابن الخطيب ضمن مفاخر فاس الجديد المرينية[40]..

واستمرت هذه القصبة في أداء هذه المهمة مع الدول اللاحقة. فقد استعملها الجيش السعدي،[41] واستغلها بعض السلاطين العلويين في إحدى صراعاتهم مع المدينة؛ حيث «ركبوا بها أربعة عشر نفطا، وكانوا يرمون بها ليلا ونهارا من كل جهاتها، وأحاطوا

37. Henri Terrasse, *l'Art hispano-mauresque*; des origine aux XIIIe siècle, Institut des Hautes Etudes marocaines XXV, Paris, 1932, p. 156.

38. يقول العمري مثلا «وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه» ينظر: **مسالك الأبصار**.، **م.س**، ص. 116.

39. الوزان، **وصف افريقيا**، ج 1، ص. 222.

40. لسان الدين التلمساني ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ص. 176.

41. المنوني، **ورقات**.، **م.س**، ص. 179.

بها بأشبارات[42] فكان بينهم وبينها (المدينة) أقل من رمية بمكحلة وربما كان رصاصهم يبلغ سطح الدور من بعض جهاتها ...ووقع ضيق عظيم بالمدينة»[43].

ولا يستبعد أن تكون بهذه القصبة المرينية مجموعة من المرافق المرتبطة بالعمل العسكري، بالإضافة إلى السكن، كالمطامير وبيوت المؤن والعتاد والذخيرة. فقد عثر الباحثان ديلاروزيير وبريسوليت[44] داخل القصبة سنة 1357هـ/1938م على مطامير قد تكون هي التي كان يخزن بها القمح الذي تشير إليه بعض الوثائق الرسمية التي ترجع لعهد الحسن الأول [1290هـ-1311هـ/1873-1894م]، وذلك من خلال قوائم حسابية لما بيع من القمح المخزون بمرس قصبة الشراردة[45]. فهل اقتصرت على دور الإيواء فقط؟ أم كانت لها مؤسسات تتلاءم ومجتمع الجيش القبلي؟

V - الوظائـف بالقصبـة المرينيـة:

وجد بفاس الجديد، كمدينة سلطانية وذات طابع عسكري، عدد هام من جيش القبائل سكن بأحيائها كما بقصباتها. وكان من أهم هذه القبائل، وإلى وقت متأخر من تاريخ المدينة، شراكة وشراردة؛ وكونوا مجتمعا قائما بذاته، تمكن من فرض مؤسسات وقضايا تتماشى وطبيعته العسكرية. وتجد على رأس هذه المؤسسات العسكرية نجد:

1- قائد القبائـل العسكريـة:

يروي لوتورنو أن: «قائد شراكة كان يعقد جلساته بفاس الجديد بالذات..وكان نفوذه يمتد على جميع شراكة القاطنين بقصبة البطاطحة. وهناك أيضا قائد اشراردة الذي يرجع إليه أمر سكان قصبة الخميس؛ وكان هذان القائدان مستقلين عن عامل فاس الجديد وتابعين مباشرة للمخزن»[46].

42. أشبار: هو المكان الذي يحتمي به الشخص عند التصدي لعدوه، وغالبا ما يتخذ على هيأة بناء من أحجار ويطلق على الخندق الذي يستعمله المحارب، كما تستعمل الكلمة بمعنى الكيد والمواجهة.

43. عبد الرحمن ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، مطابع إديال، البيضاء، ط2 1410هـ1990م ،ج1، ص.287.

44. (H.) Bressolette et (J.) Delarosiere, "Fès Jdid ...", *op. cit*, p270

45. كنانيش البناء، الخزانة الحسنية، فترة المولى الحسن، رقم 410. ويسمى هذا النوع من الوثائق أيضا «صوائر البناء»، وهو عبارة عن جداول بها عناوين وتواريخ ...تذكر مثلا أسماء الحرفيين والصناع الذين قاموا بالإستغلال، ومجال صرف النفقات وتكلفتها...وهي مصادر جد هامة لدارس العمارة في الفترة العلوية المتأخرة من حيث مصطلحات ومعجم البناء...الخ .

46. لوتورنو، **فاس قبل الحماية، م.س**، ج 1، ص.236.

2- قاضـي العسكـر:

كان بفاس الجديد قاض للعسكر، يحضر مجلس السلطان أبي عنان؛ وله شأن كبير بالنظر إلى بعض المهام الخارجية والديبلوماسية التي كانت توكل إليه؛ فقد عهد إلى قاضي العسكر بفاس الجديد الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي[47] بالسفارة إلى ملوك مصر وكذلك مهمة تأدية رسالة السلطان النبوية إلى الضريح الكريم سنة 756هـ/1355م[48]. وقد استمرت هذه الوظيفة بفاس الجديد إلى ما قبل الحماية. ولا نعلم شيئا عن صلاحياتها وطبيعة القضايا التي تبث فيها سوى ما يستنتج من اسمها الذي لا شك يدل على ارتباطها بشؤون العسكر.

3- الضابط حارس المدينة:

كان يسكن صاحب هذه الوظيفة بالقصبة الموجودة خارج باب السبع. تحدث عنها الوزان بقوله: «وقرب الباب الغربية التي تقع في السور الثاني (يقصد باب السبع) مساكن كبيرة محاطة بأخرى صغيرة يسكنها الضابط حارس المدينة مع جنوده[49].

كان من تقليد المدن الوسيطية كونها تشكل حزاما قبليا يؤمن المدينة من الأخطار الخارجية؛ ومثال ذلك مدينة سلا التي كان «ينزل حواليها قبائل صبرة وتامسنا بقصد حراستها، ومنازلهم متفرقة. فمنهم ذوو الخيام ومنهم ذوو الأخصاص..حتى كان يسوغ لأهل سلا أن يصيفوا بأجنة مطانة لأمن البلاد بأولئك النزل..»[50]. أما بمدينة فاس فبقيت مهمة القصبات غامضة؛ فهل تحرس هذه القصبات المدينة السلطانية من مدينة الساكنة (فاس البالي)؟ أم تحرس المدينة من هجمات القبائل المحيطة؟.

47. أبو القاسم البرجي: ذكره صاحب **الجذوة** ككاتب للسلطان فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني المكنى بأبي عنان (ص508) وكقاضي للسلطان محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني (ص208) وكقاضي للسلطان إبراهيم بن أبي الحسن بن أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني المكنى أبا سليم (ص83). ينظر ترجمته في: ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس**، نشر عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1979، ص.83،208،508.

48. المنوني، **ورقات..**، **م.س**، ص.219.

49. الوزان، **وصف افريقيا**، **م.س**، ص.282.

50. محمد بن علي الدكالي، **الإتحاف الوجيز: تاريخ العدوتين**، تحقيق مصطفى بوشعراء، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، المغرب، 1400هـ/1986م، ص.50.

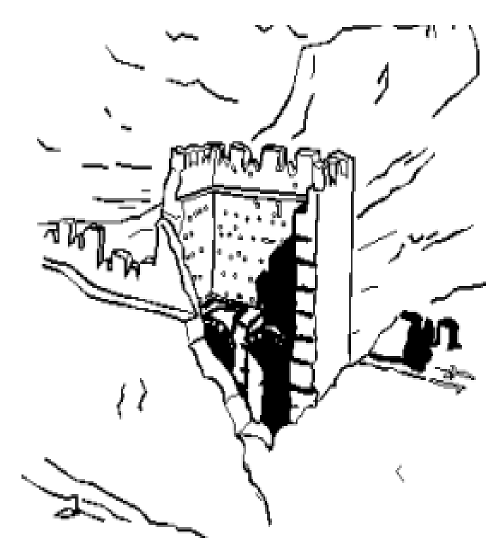


الصورة رقم 1: باب قصبة الشراردة الشرقي من جهة باب محروق

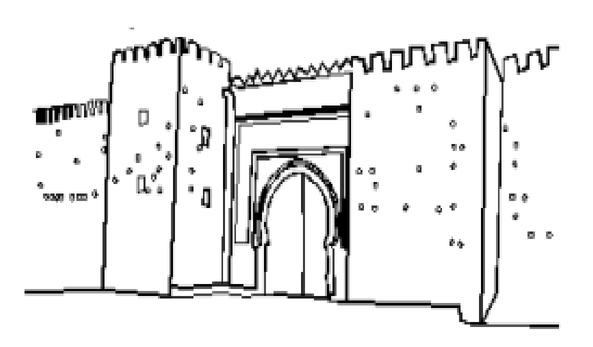


الصورة رقم 2: الباب الغربي لقصبة الشراردة

لقد جسدت الفتاوى الفقهية، كما عند الونشريسي، بعضا من جوانب قضايا مجتمع القصبات؛ من خلال سؤال يتعلق بهوية ساكني الحصون والقصبات، وذلك في قوله: «لا يسكن الحصون إلا من فيه القوة على الحرس والعساس والخروج عند وقوع النفير في الحصن.. وأما حرف التجارة فليس من شأن ساكنة هذه الحصون»[51] ولا يستبعد، قياسا على هذه النازلة، أن يقتصر السكن في قصبات فاس الجديد على هذا النوع من الناس ذوي القدرة على الخدمة العسكرية بمفهومها العام.



شكل رقم 1: مقطع لأحد الأبراج المرينية



شكل رقم 2: الواجهة النموذجية للأبواب المرينية

51. أبي العباس أحمد الونشريسي، **المعيار المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 1401هـ/1981م، مطبعة فضالة، المحمدية، ج 7، ص. 386.

IV. واقع القصبة وخطط إنقاذها:

يختلف القرن العشرون في تاريخ تحصينات مدينة فاس عن باقي المراحل التاريخية بشكل كبير؛ ذلك أن هذا النوع من العمران تم الاستغناء عن وظائفه الحربية مع دخول الاستعمار وأصبح عرضة للاهمال والتهديم اللذان كان من أكبر أسبابها محاولة تطويع هذا النسيج ليتلاءم مع المستجدات التقنية للمرحلة. فكان عهد الحماية بداية لهذا المسلسل الذي بصمته تجربة «ليوطي» في مجال التعامل مع هذا النوع من التراث وبالعمارة الاسلامية ككل. فاستصدرت بشأنه منذ بداية الحماية قوانين محافظة وترتيب لمعالم المدينة الأثرية شكلت القصبات العسكرية أبرزها. وساهمت هذه الاجراءات القانونية في بقائها شاهدة على ماضيها. الا أنه بحكم التعطل الذي طالها وعلامات التقادم وضعف الصيانة والترميم كانت تتعرض من حين إلى آخر أجزاء منها للتدهور والهدم...وهو ما تطلب من السلطات المعنية التدخل فيها، لكن بدون رؤية واضحة ولا احترام لقوانين الترميم والصيانة محكمة في ذلك الحاجة والمنفعة.

1- التشريعات والقوانين بخصوص ترتيب قصبة الشراردة كمعلمة تاريخية:

شكل القرن العشرون وعلى وجه التحديد منذ بداية الحماية مرحلة تحول جذري في تاريخ القصبة والمعمار الحضري بصفة عامة؛ فقد تم الاستغناء عن وظيفتها العسكرية. فيما باشرت السلطات الفرنسية صلاحياتها في التدخل في معالم المدينة القديمة في إطار سياسة إعداد المجال والتعمير بالمغرب. وأوكلت سياسة المحافظة إلى مصلحة الفنون الجميلة والآثار والتي قامت باستصدار مجموعة من النصوص التشريعية القاضية بتصنيفها كمعالم أثرية باعتبارها تعبر عن الثقافة والحضارة الأهلية.

القوانين المتعلقة بحماية أسوار فاس وتحصيناتها حسب التسلسل الزمني:

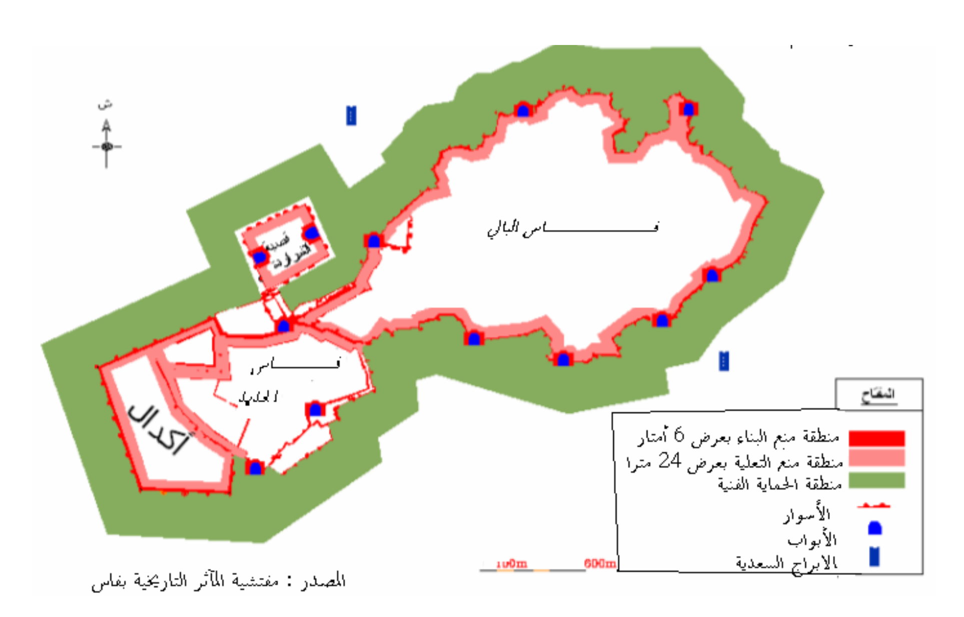
الرقم	تاريخ النص	موضـــوعـــه	الرقم والتاريخ والصفحة بالجريدة الرسمية
1	1914/8/25	ظهير بتاريخ 3 شوال 1332هـ متعلق بترتيب قصبة الشراردة كمعلمة تاريخية	رقم97 بتاريخ 1914/09/07 ص.704
2	1914/8/25	ظهير بتاريخ 3 شوال 2331هـ متعلق بترتيب قصبة فيلالة كمعلمة تاريخية	رقم97 بتاريخ 1914/09/07 ص.705
3	1914/8/25	ظهير بتاريخ 3 شوال 1332هـ متعلق بترتيب الأسوار الداخلية لفاس الجديد كمعالم تاريخية	رقم97 بتاريخ 1914/09/07 ص.706
4	1914/8/25	ظهير بتاريخ 3 شوال 1332هـ متعلق بترتيب أسوار فاس كمعالم تاريخية	رقم 97 بتاريخ 1914/09/07 ص.706
5	1914/8/25	ظهير بتاريخ 3 شوال 1332هـ متعلق بترتيب الأسوار الخارجية كمعلمة تاريخية	رقم 97 بتاريخ 1914/09/07 ص.717
6	1914/8/31	ظهير بتاريخ 9 شوال 1332هـ متعلق بترتيب باب الدكاكين كمعلمة تاريخية	رقم 97 بتاريخ 1914/09/07 ص.717
7	1914/8/31	ظهير بتاريخ 9 شوال 1332 متعلق بترتيب باب بوجلود كمعلمة تاريخية	رقم 98 بتاريخ 1914/09/07 ص.717
8	1920/11/19	ظهير بتاريخ 7 ربيع الأول.. متعلق بترتيب مختلف المناطق والمواقع والمتضمن تطبيق الظهير بتاريخ 71 ربيع الأول 1332هـ و1941 /02/13 المادة الرابعة ترتيب منطقة الحماية حول الحزام الكبير خارج الأسوار ومنطقةالحماية على طول أكدال بعرض 30 متر.	رقم 423 بتاريخ 1920/11/30 ص.2017

9	1922/10/14	ظهير بتاريخ 22 صفر 1341هـ متعلق بتعديل ترتيب نسبة من مناطق الحماية المقامة على طول حزام المدينة.	رقم 532 بتاريخ 1922/10/31 ص. 1566
10	1923/04/23	قرار وزاري بتاريخ 6 رمضان 1341هـ متعلق بضابطة الحماية الفنية لمدينة فاس (فاس الجديد وفاس البالي).	رقم 550 بتاريخ 80/05/08 ص.579
11	1923/08/29	ظهير بتاريخ 26 ربيع الثاني متعلق بتعديل ترتيب جزء من منطقة الحماية المقامة خارج الأسوار.	رقم 1042 بتاريخ 1932/10/14 ص1178
21	1963/02/14	ظهير بتاريخ 12 ذي القعدة 1354هـ متعلق بتعديل ترتيب منطقة داخلية للحماية على طول السور الرئيسي للمدينة.	رقم 1224 بتاريخ 1936/04/10 ص.418

2- تشخيص لتحصينات مدينة فاس:

ومع عهد الاستقلال استمر العمل بالتشريعات والقوانين السالفة. وتزايدت السلوكات العدوانية تجاه أسوار المدينة وتحصيناتها في سياق الأزمة الاجتماعية التي عرفتها المدن العتيقة متمثلة في الضغط السكاني الناتج عن الهجرة. فاتخذت بعض القصبات سكنى للعديد منهم. ولم تستطع الادارات الوصية التدخل لوقف هذه الخروقات لأنها لا تملك الوسائل البشرية ولا التقنية الكفيلة بالمنع.

وأمام تفاقم مشاكل المجال العتيق، انطلقت صيحات الهيئات الدولية معلنة ضرورة انقاذ التراث وايجاد السبل الكفيلة لذلك. فانخرط المغرب في الحملة منذ وقت مبكر، إلا أنه لم يبلور استراتيجية واضحة للتدخل والنهوض بموروثه التاريخي إلا مع عقد التسعينيات من القرن الماضي حيث تم خلق الإطارات المؤسساتية والإدارية (الوكالة الحضرية وإنقاذ فاس ووكالة التخفيض من الكثافة وإنقاذ فاس) وكذلك القانونية والتشريعية متمثلة في تصميم التهيئة من اجل إعطاء فعالية ومصداقية لمشاريع الإنقاذ؛ تمت خلالها بلورة مجموعة من المشاريع المتكاملة في شتى جوانب الحياة بالمدينة العتيقة...وذلك وفق منظور شمولي وتنموي تم انجاز العديد منها.



خريطة رقم 4: الضوابط القانونية المنظمة لحماية أسوار فاس

3- القصبة في مشاريع الإنقاذ ورد الاعتبار:

يبلغ طول الأسوار المحيطة بمدينة فاس حوالي 52 كلم، تتوزع بين الأسوار المحيطة بالمدينة بطول 13.600م والأسوار الداخلية بطول 9.000م ثم الأسوار الخارجية وتضم أسوار قصبة اشراردة ب 1.526م[25]، وهي بهذه الأبعاد تشكل ثقلا حضريا قويا داخل المجال الحضري ككل.

فالقصبة تستفيد من أحد المدارات السياحية ويدعى مدار الأسوار والتحصينات؛ الذي ينطلق من باب القصر الملكي في ساحة العلويين ثم يستمر في اتجاه الغرب محيطا بأسوار القصر ويصعد إلى البرج الشمالي ثم أطلال المرينيين ثم ينزل على قصبة اشراردة ويعود بنفس الطريق إلى جنان السبيل ثم يعرج على الفندق الأمريكي عبر الطريق الوطنية المتجهة شرقا نحو البرج الجنوبي ثم باب الفتوح أخيرا. (انظر خريطة المدار السياحي). وهذا المسار من شأنه أن يروج للقيمة التاريخية والحضارية لتحصينات المدينة ويدمجها في المنظومة العامة للمدينة في إطار اللاتمركز واللامركزية في النسيج

الأصيل، كما يساهم أيضا في توجيه الاهتمام إلى وسائل تهيئتها من خلال الإضاءة الليلية لها وإعداد المجالات المجاورة لها خدمة لها ولأعين الزوار المترددين عليها.

إن حجم هذه المشاريع وتكلفتها وتشعب جوانبها يحد نسبيا من سرعة انجازها، وهذا ما يمكن تجاوزه من خلال دعم المنظور التخصصي في التعاطي مع التراث. والأكيد أن تفعيل دور اللجنة المغربية للتاريخ العسكري على المستوى المحلي سيدعم النهوض بمشاريع الإنقاذ على مستوى العمارة العسكرية بمدينة فاس.

مدينة الرباط العتيقة، خصوصيات التصميم والطراز

ناصـرة كزنــاي
باحثـــة ـ سلا

تمهيـــد:

اختلفت الأهداف التي تحكمت في نشأة المدن الإسلامية بصفة عامة، والمدن المغربية بصفة خاصة، فمنها ما بدأ على هيئة معسكرات حربية، تم تطور إلى هيئة مدينة، ومنها ما أنشئ كعواصم أو حواضر للدول المتعاقبة كفاس وبغداد والقاهرة، ومنها ما كان في بدايته مجرد مناطق ارتكاز تحصينية للدفاع، وبمرور الزمن تحولت إلى مدن كبرى كالرباط، ومنها ما نشأ ونما مرتبطا بعوامل دينية أو اقتصادية، أو سياسية.. الخ.تأثر تخطيط هذه المدن بتلك الأهداف التي شيدت لتحقيقها، فساهمت في خلق نوع من التباين الذي قد نلمسه بين مدينة وأخرى، وإن تقاسمت بعض الخصائص المشتركة المؤطرة لمفهوم التخطيط العمراني للمدينة الإسلامية، فإن هذه المدن قد تختلف باختلاف أهداف وظروف نشأتها من جهة، ووظائفها وكذا المؤثرات التي تؤثر على نموها وتطورها من جهة أخرى، وهو أمر سنحاول تسليط الضوء عليه بدراسة تفصيلية للتخطيط العمراني لمدينة الرباط، متسائلين من خلال ذلك عن كنه هذا التخطيط وعن التكوينات المعمارية المهيكلة للتصميم الحضري العام للمدينة، وفق المراحل التاريخية الكبرى لتطور نسيجها العمراني.

أولا: السمات التخطيطية العامة لمدينة الرباط العتيقة.

إن الحديث عن التخطيط العمراني العام لمدينة الرباط دفعنا إلى إعادة استقراء خريطة هذه المدينة، في محاولة لحصر تكويناتها العمرانية وامتدادها المجالي، لنخلص

إلى القول، أننا أمام مدينة كبيرة، تنقسم إلى ثلاث وحدات عمرانية نسجت لنا تصميمها العام (الشكل1):

الوحـدة الأولى: قصبة الوداية.

الوحـدة الثانية: مدينة الرباط بجناحيها الموحدي الموركسي، والعلوي.

الوحـدة الثالثة: المدينة الأوروبية الجديدة.

هذه الوحدات العمرانية وإن فصلت بينهما الأسوار، التي يمكن اعتبارها بمثابة حدود فاصلة، فإنها قد غدت تشكل مع ذلك مجموعة من الخلايا المتداخلة والمتلاحمة والمتصلة مع بعضها البعض على مستوى الاستغلال الوظيفي لبعض المرافق الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية وأخيرا العلمية، وقد تشكلت رباط الفتح وأضحت مدينة ضخمة بثلاث وحدات عمرانية، انطلاقا من نواة أساسية: هي قصبة المهدية (قصبة الوداية) والتي ضمت قصر الخليفة والمسجد الجامع، وهي المرافق العمرانية المتعارف عليها في شأن القواعد الأولى التي تتحكم في تخطيط المدن الإسلامية على الأقل في المراحل الأولى لتشييدها، قبل أن يتوسع النسيج الحضري للمدينة بميلاد مدينة رباط الفتح على يد الدولة الموحدية، والتي توسعت أحياؤها بشكل خاص مع إستقرار الوافدين من الأندلس، غدت من خلالها مدينة جهادية متكاملة المرافق، قبل أن تغدوا حاضرة سلطانية وعاصمة ثانوية من عواصم البلاد خلال العهد العلوي الذي ساهم سلاطينه بتنوع وتعدد المرافق التي شيدوها بالمدينة من مرافق دينية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وعسكرية، مستكملين بذلك الخطوط العريضة لمدينة الرباط بوحدتيها، ليبقى نسيجها العمراني على هذا الحال، إلى أن حصل التغير الكبير مع توقيع معاهدة الحماية وانطلاق مما سمي حينها بالتخطيط العمراني العصري ذو الطابع الأوروبي.

I - مدينة الرباط العتيقة، خصوصية التصميم الهندسي.

يظهر من خلال معاينة متأنية لخريطة مدينة الرباط العتيقة، أن تخطيطها كان فريدا من نوعه ذلك أنه إذا كانت المدن الإسلامية عادة ما يتم بناؤها انطلاقا من نواة مركزية

تحتضن المسجد الجامع وقصر الخلافة لتتوزع من حولها منازل العامة، تماشيا مع الأسس الأولى للمدينة الإسلامية (المدينة المنورة)، فإن المسجد الجامع لمدينة الرباط ونقصد به مسجد «حسان» قد تم بناؤه خارج أسوار المدينة، بعيدا عن المناطق السكنية، وكأن مدينة الرباط العتيقة قد فقدت تلك الخاصية التي تجعل من المسجد الجامع أساس التنظيم العمراني للمدينة الإسلامية بشكل عام، في وقت لا يجب أن ننسى فيه مسألة هامة هي أن مدينة الرباط في الأصل سبق تخطيطها بناء مسجدها الجامع، فقد أشارت المصادر المغربية المعاصرة للفترة الموحدية أن الخليفة الموحدي أبا يعقوب قد شرع في تخطيط المدينة وبناء أسوارها وأبوابها قبل بناء مسجدها الجامع، الذي لم يبدأ العمل فيه إلا في عهد الخليفة المنصور[1].

وقد انعكس هذا الأمر على شوارع المدينة، التي جاء تصميمها مختلفا عن المتعارف عليه في تخطيط الشوارع في المدن المغربية العتيقة التي عادة ما تكون ضيقة مع دروب متعرجة، في حين أن مدينة الرباط وكما وصفها تيراس Terrasse [2] بدت مدينة دقيقة التنظيم، تتوزع فيها شبكة منتظمة من الطرق الفسيحة، وهي ثلاثة شوارع: من الشمال إلى الجنوب أي شارع القناصل، وشارع سيدي فاتح، وشارع الكزا، مع وجود شارعين من الشرق إلى الغرب هما شارع السويقة وشارع بوقرون، وهي الشوارع التي حددت خطوط المدينة الكبرى، كما لا يجب أن ننسى أن هذه الشوارع الأساسية تتفرع عنها مجموعة من الأزقة والدروب التي تبدوا متسعة بالمقارنة مع أزقة المدن التقليدية المغربية مثل أزقة مدينة فاس، وهنا تنبغي الإشارة إلى أن المدن الموحدية الكبيرة بصفة عامة، كانت تتسم في الغالب بأزقة طويلة ومتعرجة - باستثناء الرباط التي تبدوا أزقتها قليلة التعرج بالمقارنة مثلا مع فاس ومراكش - نظرا للبعد الموجود بين الأبواب ومركز المدينة، فقد كانت هذه الأزقة بمثابة المسالك الوحيدة التي تؤدي إلى خارج الأسوار،

1. سحر السيد عبد العزيز سالم، **مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي**، منذ نهاية إنشائها حتى نهاية عصر بني مرين، الأسكندرية، 1996، ص. 157.

2. Henri Terrasse, *ville impériales du Maroc*. Grenoble; Paris .1937 p. 121.

ومنها تتفرع الدروب التي تتوفر على أبواب تغلق ليلا، ثم إن هذه الأزقة والطرق منها ما هو نافذ، ومنها ما هو غير نافذ[3].

ضمت مدينة الرباط مجموعة من الأحياء السكنية الكبرى التي كانت إلى حدود نهاية القرن الثامن عشر لا تتعدى عشرة أحياء، هي على التوالي: حومات مولاي إبراهيم وسيدي فاتح و أبي القرون (بوقرون) ووقاصة، وهي الأحياء التي لم يطلها البناء والتشييد، في حين أن الأماكن التي طالها التعمير، هي حومات البحيرة والعلو والسوق الكبير والسويقة و الجزاء (الكزا)، وحي اللوبيرة، لينضاف حي أخر مع بداية القرن التاسع عشر (1808م) هو حي وقاصة، الذي سمي بحي «الملاح» بعد أن سكنه اليهود الذين نقلوا من حي البحيرة[4] (الشكل 6).

لكن، ألم تختص هذه الأحياء أو على الأقل البعض منها بوظائف معينة؟ في وقت أبدى فيه تيراس ملاحظته بخصوص غياب أحياء خاصة بالحرف.

من المتعارف عليه، أن الحي يعتبر أساس التعمير بالمدينة، وأن أحياء المدن المغربية القديمة بصفة عامة لا تخلوا من ميل إلى الاختصاص في الوظائف، يظهر ذلك من خلال وجود صنفين من الأحياء؛ الصنف الأول: هي أحياء سكنية قد تجمع ساكنة لها نفس الانتماء القبلي أو الديني أما الصنف الثاني: فهي أحياء تجمع بين السكن والحرف في نفس الوقت[5]، وإن هذا الأمر ينطبق بالضرورة على مدينة الرباط التي انقسمت إلى صنفين من الأحياء: أحياء جمعت بين السكن والحرف وهي الملاح، وبوقرون، والجزاء، وحي البحيرة وحي مولاي إبراهيم، وأحياء اختصت بالسكن، مثل أحياء سيدي فاتح والعلو واللوبيرة، وإن كانت هي الأخرى قد احتضنت أيضا بعض الأنشطة الحرفية،

3. أحمد قدور، **المدن الموحدية وعلاقاتها بالأقاليم، دراسة اجتماعية اقتصادية**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس الرباط،، 1987ـ 1988، الجزء الأول، ص.414-413.

4. عبد العزيز الخمليشي، **مدينة الرباط في القرن التاسع عشر 1912-1818، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2006-2007م، ج. 1، ص.73.

5. محمد فتحة، «تنظيم المجال الحضري داخل المدينة المغربية في نهاية العصر الوسيط»، ضمن، **وقفات في تاريخ المغرب**، دراسة مهداة إلى الأستاذ إبراهيم بوطالب، الدار البيضاء، 2001، ص. 65.

حيث احتضن حي اللوبيرة عدد من الأهراء والمخازن، كما أن حومتي سيدي فاتح ولعلو كانتا تتوفران على بعض الأضرحة والكتاتيب القرآنية، إلا أنه مع بداية سبعينيات القرن التاسع عشر فتحت دار للدباغة بمحاذاة باب العلو من قبل المسمى عبد القادر ملين، أضف إلى ذلك أن التاجر الفرنسي أوجين بيگاري (Bigaré.E) قد أدخل رحى عصرية (ماكينة الطحين) إلى نفس الحومة[6].

احتضن النسيج العمراني للرباط مرفقا اقتصاديا هاما ساهم في هيكلة النسيج الحضري للمدينة، هو عنصر السوق أو ما يعرف بالقيسارية، وإذا كان هذا العنصرغالبا مايتموضع حول المسجد الجامع في تخطيط المدن الإسلامية بصفة عامة والمدن المغربية بصفة خاصة، فإن هذا العنصر بمدينة الرباط لم يستقر كما جرت العادة بجوار المسجد الأعظم، وإنما وجد في حي السوق الكبير، وبالتالي فالمدينة كانت تتوفر على حيين يحتضنان هذا المرفق الاقتصادي وهما حي «السوق الكبير» وحي السويقة، وقد ضم حي «السوق الكبير عنصرالقيسارية، التي تعد إحدى أهم خصوصيات تخطيط مدينة الرباط والتي انقسمت إلى قسمين:

- «السوق التحتي، الذي يتصل من جهة الشمال بسوق الغزل[7]، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكونها كانت سوقا لبيع الصوف الخام والمغزول الصالح لمعامل النسيج، ومعامل البطانية والزرابي، ولبيع الجلود النيئة والمدبوغة وذلك مرتين في الأسبوع، كما كانت تعد متنفسا ترفيهيا يقصدها الناس للتجول، لقربها من الشاطئ وقصبة الأوداية، ويتصل من جهة الشرق بالوادي، ومن جهة الغرب بحومة البحيرة، وذلك من خلال عدة دروب كدرب الحوت، حيث كان يستقر سوق السمك وسوق الجزارين (قبل أن ينتقل إلى حي السويقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر).

- «السوق الفوقي»: والذي يتصل من جهة الغرب بحومة مولاي إبراهيم، في حين يتصل من جهة الشرق بالوادي. وفي هذه الجهة بالضبط كانت توجد مقرات الهيئات القنصلية ومحلات سكن الأجانب (وهذا ما يفسر تسمية السوق بقسميها مع بداية

6. عبد العزيز الخمليشي، **مدينة الرباط في القرن التاسع عشر 1912-1818، م. س**، ص.73.

7. Jacques Caillé, *La petite histoire de Rabat*, cherifienne d'édition et de publicité, casablanca,1954, p.69.

الحماية بزنقة القناصل)، وينتهي السوق الفوقي في الجنوب عند سوق رحبة الزرع. وقد امتد على طول جنبات هذه القيسارية بدء من باب سوق الغزل شمالا انتهاء عند باب الرحبة جنوبا- بعدد من الحوانيت والأهراء والمخازن، فضلا عن بعض الفنادق من أشهرها فندق اليهود وفندق الفحم على مقربة من فندق ابن عائشة[8]، الأمر الذي جعل من حومة «السوق الكبير» قطب رحى التجارة في المدينة، وقلبها النابض خاصة خلال الفترة العلوية وبالضبط على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1171–1204هـ/1757- 1790م).

إلى جانب قيسارية «السوق الكبير»، نجد مرفقا اقتصاديا آخر ضمته مدينة رباط الفتح، قد استقر في حومة السويقة التي كانت تمتد بشكل طولي من فتحة باب الجديد حيث باب التبن إلى حدود سوق رحبة الزرع. وعلى جنبات هذا المحج الطويل وحتى في بعض الدروب المتفرعة عنه جهة السور الأندلسي، كانت تمتد بحسب أصناف الحرف، صفوف الحوانيت والدكاكين إلى جانب مجموعة من الفنادق والأسواق، من أهمها على الإطلاق سوق الخرازين وسوق السباط، وذلك بمحاذاة المسجد الأعظم، ثم فندق الجلد (وبداخله فندق العود) وهو مقابل للمسجد الأعظم أيضا.

إذا كانت أهم الأنشطة الاقتصادية قد تجمعت بكل من حي السويقة والسوق الكبير، فإن باقي الصناعات الملوثة وذات الروائح الكريهة، خاصة الدباغة وصناعة الفخار، والصناعات التي تصدر أصوات مزعجة كالحدادة والقزدرة والنحاسة، قد تركزت في الشمال والشمال الغربي من حي وقاصة، الذي كان يقطنه فقراء المدينة ومهمشيها، وهذا ما يدفعنا إلى القول أن الأنشطة الاقتصادية قد توزعت داخل مدينة الرباط بحسب أهميتها، ونوعيتها، فبالمركز نجد التجارات الرفيعة التي توظف أموالا مهمة، في حين انتشرت الأنشطة المتواضعة والضرورية في الآن نفسه لحياة ساكنة المدينة بالقرب من الأبواب (حي وقاصة هذا من باب البحر). توفرت هذه الأسواق تتوفر على أبواب خاصة تغلق مساء، شأنها في ذلك شأن بعض دروب وأحياء الرباط، ونفس الأمر ينطبق

8 . Jacques Caillé, *la petite histoire de Rabat*, *op.cit*, p.31

على باقي المدن المغربية العتيقة مثل فاس ومراكش، فمن بين الأسواق التي كانت تتوفر على أبواب بالرباط نذكر على سبيل المثال لا الحصر: سوق الغزل، وسوق الرحبة، وسوق الجوطية المتواجد بالسويقة، أما الأحياء التي كانت تتوفر هي الأخرى على أبواب نجد على رأسها حي الملاح، وحي وقاصة، وحي سيدي فاتح، أما الدروب التي تزودت بالأبواب فهي كثيرة، منها درب الحوت، ودرب الفاسي درب المعموري، ودرب مولاي عبد الله ... الخ[9].

إذا كانت المرافق العمرانية ذات الطابع الديني حاضرة في تصميم مدينة الرباط في شكل المساجد والزوايا، فإن المسجد الجامع حسان على الرغم من عدم تموضعه مجاليا كنواة مركزية للمدينة، فقد تموضع كنواة مركزية على المستوى الوظيفي، شانه في ذلك شأن المساجد الأخرى بالمدينة التي توزعت على كافة الأحياء بأعداد كثيرة، تلبية لحاجيات الساكنة، لدرجة أن فاق عددها 50 مسجدا بالرباط أسس معظمها خلال الفترة العلوية [10].

انطلاقا مما سبق يمكن القول، أن تخطيط وبناء مدينة الرباط لم يكن تخطيطا عرضيا ولا تلقائيا في جوهره، بل جاء وفق مخطط مفكر فيه يكشف عن نظام أساسي يحترم قواعد وأحكام البناء في المدينة الإسلامية التقليدية، مع بعض المبادئ الخاصة التي أعطت للتخطيط العمراني للمدينة سمة الخصوصية، ليمثل تخطيطها في الآن نفسه تعبيرا ماديا عن ذلك التوازن التلقائي بين مرافق المدينة، كما يعكس منطق تصميم سعى لضمان مشاركة شبه كاملة في الحياة الدينية والاقتصادية والسياسية لساكنته بمختلف طبقاتها، مع حرص تام على ضمان خصوصية الحياة العائلية في آن واحد.

كما ينبغي القول، أن تخطيط المدينة قد راعى بعض السمات الأساسية التي أفرزت ليس فقط تصميم مدينة الرباط، وإنما تصميم بعض المدن المغربية، وهي السمة الدينية المجسدة مجاليا في المسجد، والسمة السياسة (الإطار المخزني) الممثل في القصر السلطاني،

9. عبد العزيز الخمليشي، **مدينة الرباط في القرن التاسع عشر، م.س**، ص. 73.

10. عبد الله السويسي، **تاريخ رباط الفتح**، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1979، ص. 121.

والسمة الاقتصادية الممثلة مجاليا في السوق أو القيسارية، وأخيرا السمة الطبيعية، حيث شيدت مدينة الرباط في موقع هام كان لعنصر البحر دورا كبيرا في هيكلة تشكل المدينة، التي جاء بناؤها وتخطيط أحياؤها ومرافقها انسجاما تلقائيا لأهمية هذا العنصر ليس فقط لكونه قد شكل عاملا أساسيا في تشكل عمران وعمارة المدينة، وإنما لكونه قد تحكم في الوظائف التي لعبتها المدينة عبر تاريخها الطويل كالوظيفة الجهادية والقرصنية والتجارية، والدبلوماسية، ووفق هذه السمات تشكل المجال الحضري لمدينة الرباط الذي يعد محصلة تقاطعات مرفلوجية لمشاريع عمرانية لمختلف الدول التي حكمت المغرب، والتي ساهمت في تشكل النسيج العمراني للمدينة من خلال تزويدها بالمرافق التي تعبر عن سياسة هذه الدول تجاه المدينة.

II. الدور الرباطية العتيقة، خصوصية التخطيط والطراز.

إذا كان التصميم الهندسي العام لمدينة الرباط العتيقة، قد اتسم بنوع الخصوصية الفريدة من نوعها، فإن قمة الخصوصية التخطيطية للمدينة العتيقة تتجلى في الدور السكنية، التي تأتي على رأس العمارة المدنية بها، والتي يحيل كل منها على فترة تاريخية معينة مرت بها المدينة بدءا من تأسيسها وصولا إلى توقيع عقد الحماية، غير أنه من الصعب فرز الدور السكنية بحسب هذه الفترات باستثناء منازل القرن 19 و20م، وذلك بسبب عدة اكراهات أهمها الإكراه الوثائقي، والإكراه الزمني، حيث تعرضت بعض المنازل وبحكم توالي السنين للخراب، الأمر الذي دفع للإصلاح وللترميم، ومن ثم إلى تغيير تصميمها الأصلي، أو على الأقل مظهرها الخارجي[11]، وهذا ما سيدفعنا للتسليط الضوء عن الخصوصية الهندسية العامة للمنزل التقليدي بمدينة الرباط بغض النظر عن الفترة التاريخية العائد إليها.

11. محمد السمار، **مدينة الرباط من التأسيس إلى نهاية القرن السابع عشر للميلاد**، ج. 1، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، الرباط 1998. 1999م، ص. 272 و273.

صنف جورج مارسي George Marçais دور السكن بالمغرب إلى ثلاثة مدارس معمارية كبرى[12] وهي: مدرسة الرباط - سلا ومدن الساحل الأطلنتي، ومدرسة مكناس، وفاس، وأخيرا مدرسة مراكش وأحواز الجنوب، مشيرا في ذات الوقت إلى مميزات كل مدرسة على حدة، ومعتبرا أن سمات بناء المنزل التقليدي تبعا لمميزات مدرسة الرباط - سلا ومدن الساحل، قد بقي منحصرا في إطار التقليد الموحدي، مفسرا ذلك بتطابق تصاميم المنازل الأصيلة ومواد بنائها وبعض أشكال زخرفتها الموحدية، مع مثيلاتها بمدينة الرباط التي تعود لكل من الفترة المورسكية والعلوية.

هكذا، فإن المنازل التقليدية الرباطية، شأنها في ذلك شأن أغلبية الدور العتيقة بكافة المدن المغربية الأصيلة، قد بنيت وفق تصور مجتمعي خاص، تميزت خارجيا بانغلاقها داخل جدرانها الضخمة، حيث لا يفتحها على الزقاق سوى باب المدخل ونوافذ قليلة وضيقة، كما أن هذه الدور قد بنيت بشكل متلاصق بعضها ببعض على طول الأزقة، وقد اتسمت هذه المنازل التقليدية بتصميمها الذي يتخذ شكلا مستطيلا أو مربعا، يتوسطه فناء هو الأخر مربع أو مستطيل، ويعتبر هذا الأخير بمثابة المحور الرئيسي الذي تحيط به كافة الغرف وباقي مكونات المنزل كالمطبخ، والحمام، والدهليز الذي يمثل الممر الوحيد المؤدي إلى الباب الرئيسي[13].

يفتح باب المنزل التقليدي على ما يسمى بالدهليز أي «السطوان» الذي يتكون من قسمين أو ثلاثة أقسام، يلتقيان عند زاوية قائمة في بعض الحالات، ويسمح «السطوان» بالوصول إلى فناء المنزل الذي يمكن اعتباره نواة أساسية في المنازل المغربية الأصيلة ليس فقط في مدينة الرباط وإنما بكافة المدن المغربية، حيث يلعب هذا الفناء دورا كبيرا في تعديل الجو والضوء بين خارج الدار وداخلها، كما يمثل المحور الرئيسي لكل العلاقات والأنشطة الاجتماعية لساكنة المنزل وبالأخص العنصر النسوي منه، واعتبارا لأهمية هذا

12 . Georges Marçais, *Architecture musulmane d'occident,Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile*, Paris, 1954, p. 399.398.

13. محمد السمار، «خصوصيات المعمار المبني بالتراب في العهد الموريسكي بمدينة رباط الفتح»، ضمن، **المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط**_، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 80، تنسيق محمد حمام، الرباط، 1999، ص.97.

العنصر في تصميم المنزل الرباطي فقد بلطت أرضيت وجدران بعض المنازل الرباطية بقطع الزليج أو الرخام الأبيض، وزودت بنافورات مائية تتوسط فناء الدار[14].

تشكلت حول فناء المنزل التقليدي الرباطي بقية الغرف المنظمة والموزعة بحسب الوظائف التي أنطيت بها، فغرف الطبخ والخزين والغسيل كانت تقع كلها على الجهة المتاخمة للدرب أو الزقاق[15]، تسهيلا لعملية الاتصال المباشر بهذا المجال الحيوي دونما الحاجة إلى الدخول ثم الخروج ثانية من باب الدار التي تصلنا بالطابق الأول أو بالطابق الثاني إذا وجد، كما توصل إلى السطح المكان المخصص لنشر الغسيل والمفضل في ذات الوقت لكافة أفراد العائلة للتجمع وللسهر خلال فصل الصيف، نظرا لبعده عن الأنظار ولما يوفره من جو لطيف.

وقد كانت غرف الدار السفلية منها أو العلوية تشرف مباشرة على وسط الدار (الصحن) (الشكل 7)، الذي يمثل المنفذ الوحيد للهواء وللضوء بالنسبة للمنزل التقليدي بالرباط خصوصا وبباقي مدن المغرب عموما، في وقت انعدمت فيه النوافذ على الواجهة الخارجية للمنزل، وتتميز تلك الغرف بطولها الذي يفوق عرضها، حيت بلغت في بعض الأحيان تسعة أمتار على مترين ونصف، إلى جانب توفرها على أبواب عالية، وتستعمل جنبات هذه الغرف للنوم ووسطها للاستقبال وللجلوس، كما تضاء عادة بنوافذ منحنية تقع على جنبات الباب[16]، ويحيط بصحن المنزل الرباطي التقليدي أربعة أروقة لحماية أبواب ونوافذ الغرف التي تطل بدورها مباشرة على الصحن، وتحمل هذه الأروقة أقواسا مختلفة غالبا ما تأخذ شكل حدوة الفرس مبنية بالحجر المنحوت، وتوضع على تيجان مزخرفة بزهرة الأكونط، والكل يقف على أعمدة من الحجر المنحوت[17].

14. عبد العزيز توري، «العمارة المغربية»، ضمن، **معلمة المغرب**، ج. 18، ص.61ـ78.

15 . Jacques Caillé, **La ville de Rabat jusqu'au protectorat français, histoire et archéologie**, VI2.,éme, éd. Frontispica, Casablanca,2006, p. 534.

16. جمال بالطاهر، **مشروع رد الاعتبار للمدينتين الأصيلتين بالرباط وسلا**، بحث لنيل دبلوم مهندس معماري، بالمدرسة الوطنية للهندسة المعمارية، الرباط، 1988، ص.30.

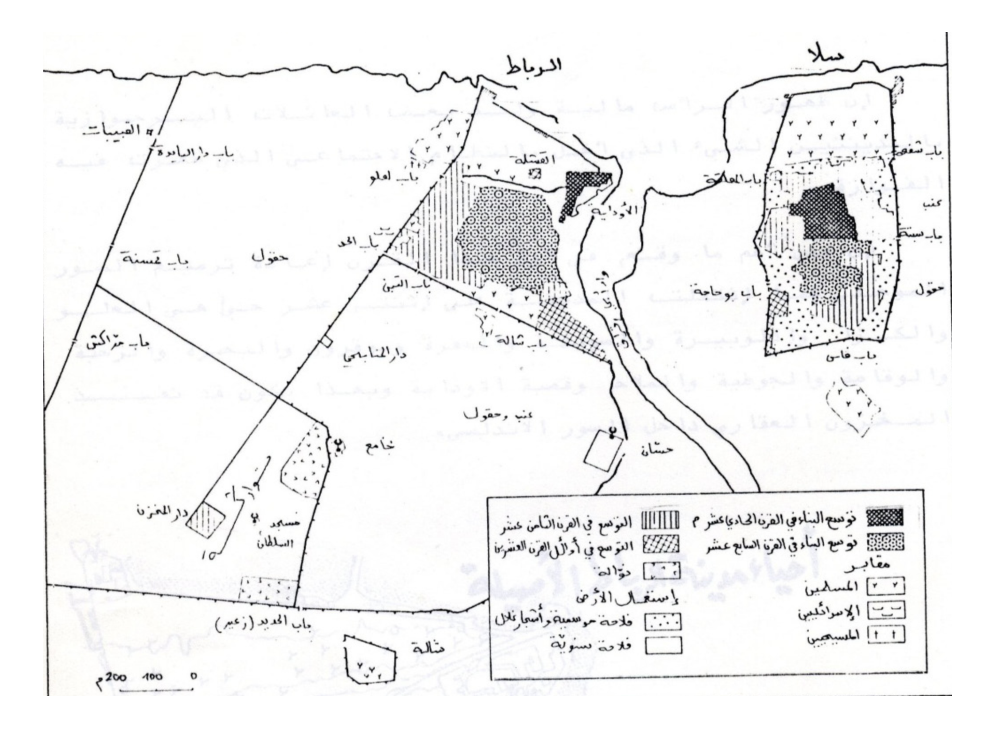
17. محمد السمار، «خصوصيات المعمار المبني بالتراب في العهد الموريسكي بمدينة رباط الفتح»، ضمن **المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، م.س**، ص.97.

انطلاقا مما سبق، يمكن القول أن توزيع الغرف في الدور الأصيلة بالرباط قد روعي فيه مبدأ المقابلة والتماثل، فإذا توفر المنزل على ثلاث أو أربع غرف في الجهة الأولى فقد قابله نفس العدد من الغرف فى الجهة الأخرى المقابلة، وفي حالة توفر غرفة واحدة فيقابلها إما فتحة في أحد الجدران تسمى «البهو» وإما نافورة ماء جدارية تسمى «سقاية» تزدان بزخاريف تقليدية كثيفة، هذا العنصر المعماري قد كثر إقحامه في العمارة المغربية خصوصا في القرن 19م، ووصل ذروة حضوره في القصور المخزنية أو الدور الكبيرة بكافة المدن.

والحاصل، أن المنزل بمدينة الرباط، قد اتسم ببعض الملامح المميزة والتي منحته خصوصية معمارية فريدة من نوعها:

- تصميم هندسي يسمح بالانغلاق على الفضاء الخارجي والانفتاح العمودي على الفضاء الداخلي.
- تصميم يضمن حرية التصرف للعائلة وللنساء على الخصوص، مع تكريس منطق الخصوصية.
- تخطيط يسمح بالتهوية والتشميس الدائم للمنزل.
- تصميم هندسي يراعي توفر المرافق الضرورية لساكنة المنزل.
- جاء تخطيط المنزل التقليدي منسجما مع تركيبة المجتمع الإسلامي التقليدي، وقائما على احترام خصوصية العائلة وتوازن القرابة وانعزال النساء في بيوتهن، وكأن البنية العمرانية للمدينة نابعة بشكل أساسي من واقعها الديني.

منحت هذه الملامح والمميزات المعمارية المنزل الرباطي العتيق خصوصيات فريدة من نوعها، ارتبط معها تصميمه وهندسته ارتباطا عضويا وثيقا بمجال المدينة ككل، هذا المجال الذي يكشف تصميمه العام عن رؤية تخطيطية واضحة تمثل تعبيرا ماديا عن التوازن التلقائي القائم في النسيج الاجتماعي للمدينة، الذي يتطلب انفصالا تاما بين الحياة العائلية والخصوصية لأفراده ويتطلب في آن واحد مشاركة شبه كاملة في الحياة الدينية والاقتصادية والسياسية لساكنة المدينة.



الشكـل 1: خريطة توضح مراحل توسع النسيج الحضري لمدينة الرباط إلى حـدود إقرار نظام الحماية الفرنسيـة

المصدر: جمال بالطاهر، مشروع رد الاعتبار للمدينتين الأصيلتين بالرباط وسلا، بحث لنيل دبلوم مهندس معماري بالمدرسة الوطنية للهندسة المعمارية، الرباط، 1988، ص.20.





الشكل 2 و 3: صور لبقايا رباط تاشفيـن المكتشف حديثا بجوار قصبة الأوداية



الشكـل 4: مسجـد حسان وصومعتـه الشامخـة



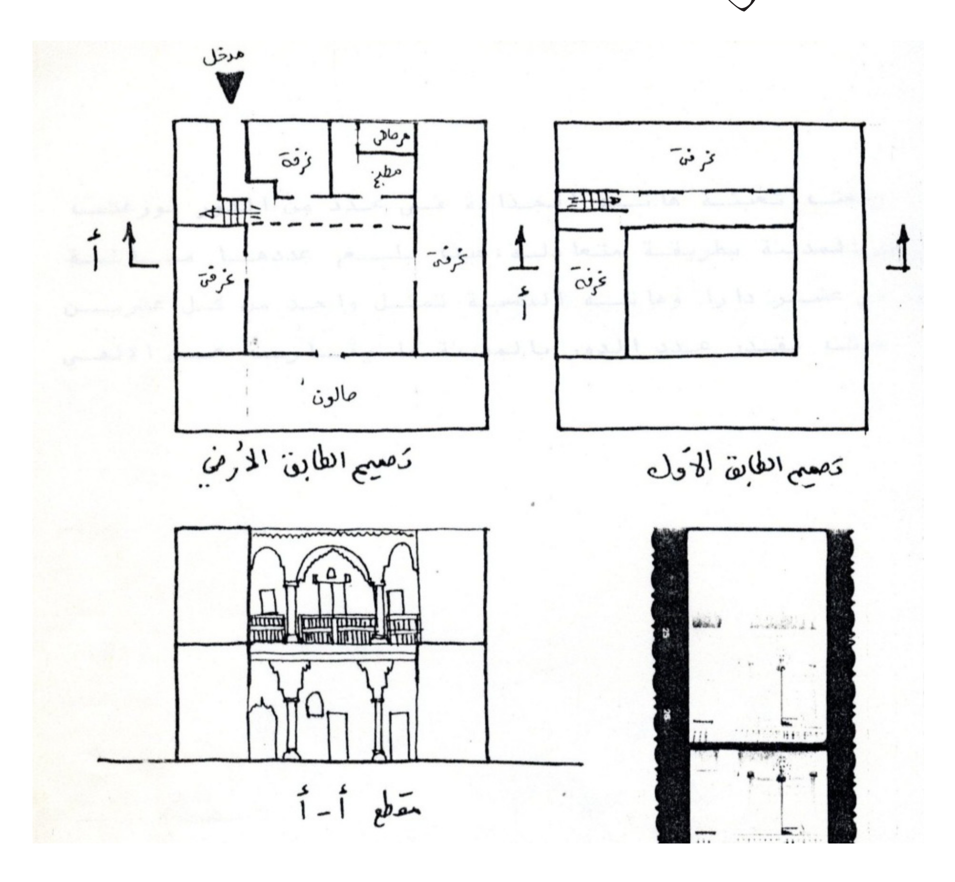
الشكل 5: خريطة توضيحية لأهم الوحـدات العمرانية لمدينة الرباط العتيقـة



الشكـل 6: خريطة توضـح أحياء مدينة الرباط العتيقـة

ثـانيـــا: الطـراز المعماري المغربي الأصيل بمدينة الرباط العتيقـة

يعد طراز العمارة المغربية التقليدية محصلة تجارب شتى تراكمت عبر الأحقاب والعصور، تلك التجارب النابعة من جذور راسخة في القدم، ومستوحاة من أصول متعددة أمازيغية ومتوسطية ومشرقية وإفريقية وأندلسية، اجتمعت كلها لترسم ملامح الخصوصية على العمارة المغربية بكافة فنونها الزخرفية الأصيلة، وقد دأبة الباحثون على تقسيم طراز العمارة المغربية العتيقة إلى أربعة أنواع، أعطوا لكل منها اسما خاصا، فسموا الأول بالطراز المغربي القديم (الطراز الأمازيغي)، وهو النمط المعماري لما قبل الإسلام، ونعتوا الثاني بالطراز المغربي الإسلامي المبكر، الذي يمتد منذ نشأة الإسلام إلى بداية عصر المرابطين، والذي يقوم على أسس «عربية» خالصة عملا وإنتاجا.



الشكل 7: تصاميم توضيحية للمنـزل التقليدي بمدينة الرباط العتيقـة

سمى الباحثون الأسلوب الثالث بالطراز المغربي الأندلسي، الذي تزامن مع عصر كل من الدولة المرابطية والموحدية ثم الكيان المريني والوطاسي، بمعنى أن هذا الطراز قد ابتدأ بمحاولات المرابطين الامتداد نحو الشرق بالمغرب الكبير ونحو الشمال بالأندلس، مساهمين في ربط الاتصال بين إسبانية والمغرب[18]، الأمر الذي ساهم في تطعيم الفن المغربي بمؤثرات أخرى واردة من الشرق عن طريق إفريقية الأغلبية والمغرب الأوسط، ومن الشرق مرة أخرى عن طريق فنون الأمويين بالأندلس، ثم جاء دور الموحدين فدفعوا بالفتوح المغربية شرقا إلى ليبيا وشمالا إلى الأندلس مؤكدين وضعية الاستمرار

18. Georges Marçais, *Architecture musulmane d'occident, Tunisie; Algérie; Maroc; Espagne et Sicile*; Paris; 1954T, 1. p. 301.

المغربي هناك، مما زاد في ورود التأثيرات المشرقية والأندلسية، وفي سيادة الفن الأندلسي على منطقة الغرب الأمازيغي ككل[19]، إلى جانب تأثيرات الفن المغربي الواضحة على فنون الإسلام بالأندلس، واستمر ذلك طيلة عصر المرينيين بالمغرب وبني نصر بغرناطة. وأخيرا ظهر طراز الشرفاء السعديين والعلويين الذي جمع توليفة لأهم ما إزدان به المغرب من الفنون الزخرفية العريقة، وماجادت به أنامل الصانع المغربي من زخارف وفنون تطبيقية اتسمت بروح الإبداع وحس الذوق والرقي عبر عصوره المختلفة.

يعد الطراز المغربي الأندلسي أهم أسلوب معماري شيدت وفقه أبرز مباني المغرب بما في ذلك مباني مدينة الرباط العتيقة، بدء من العصر المرابطي الذي حرص أمراؤه على تشييد مباني تستقي من الفنون الزخرفية الأندلسية زينتها، خصوصا وأن الملثمون قد استقدموا عدد من المهندسين والصناع الأندلسيين للمساهمة في بناء وزخرفة عدد من المرافق المعمارية المغربية بكل من فاس ومراكش[20]، وقد اكتملت شخصية هذا الطراز المغربي الأندلسي خلال عهد الموحدين، الذين غدوا أصحاب مدرسة فريدة من نوعها في فنون العمارة والزخرفة الإسلامية لها طابعها الخاص، لأنهم قد أتاحوا من خلال توسعاتهم المجالية الفرصة لتلاقح كل من فنون المشرق والمغرب والأندلس، وفتحوا لها أفاقا رحبة لتأثر وللتأثير في ذات الوقت[21].

مع انهيار الإمبراطورية الموحدية واستئثار بني مرين بالسلطة، غذى المرينيون ورثة هذا الطراز وورثة الحضارة الأندلسية الموحدية ككل، في وقت انكمش فيه هذا الطراز الفني بالمغرب الأوسط سواء في تلمسان على عصربني عبد الواد، أو في إفريقية إلى حدود تونس أيام الحفصيين، بينما ظل وفاء المرينين ثابتا عمارتا وزخرفتا لفنون الطراز المغربي الأندلسي، الذي وصل قمة النضج والتطور الفني خلال هذا العهد، وهذا ما زال

19. **نفسه.**

20. Abedelaziz Benabdellah, *L'art Maghrebin. Etude sur les différents aspects de l'art au Maroc et sur l'évolution historique de l'art maghrébin*, Notes et Documents XXXI, Rabat, 1961, p.29

21. عثمان عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، عصر الأشراف السعديين والعلويين**، ج. 5، **م.س**، ص.101-100.

واضحا للعيان في جملة من المآثر المرينية بالمغرب تأتي مدينة شالة الأثرية على رأسها مثالا يحتذى به في خصوصية وسمات الطراز الأندلسي[22].

انطلاقا مما سبق ذكره فإن العمارة المغربية عموما وعمارة مدينة الرباط خصوصا، هي حصيلة هذه الصيرورة التاريخية للفن المغربي، الذي سنحاول تلمس خصوصياته وسماته العامة، انطلاقا من تسليط الضوء على خصوصية العمارة والفنون الزخرفية بمدينة الرباط.

I- الخصوصيـــة الفنيـــة:

إذا كانت مدينة الرباط قد انفردت بخصوصية هندسية، بحكم كل من الموقع الإستراتيجي الذي احتلته، والدور السياسي والعسكري الذي لعبته، وأخيرا بحكم المجتمع الذي عاش فيها وطبعها بفلسفته ورؤاه المعمارية، وانطلاقا من هذا الأمر غدت للمدينة هويتها المعمارية، تلك الهوية التي نقشت الصناعة التقليدية المغربية زينتها الخارجية، وكست فضاءاتها الداخلية بأروع الإبداعات وأسماها.

إن أول ملاحظة يمكن للمرء إبداءها عند مشاهدة ملامح الفنون الزخرفية التي تزين واجهات المباني الأصيلة بمدينة رباط الفتح العتيقة، التي استمدت روحها من الطراز المغربي الأندلسي، أنها ملامح جمعت بين روح الضخامة والرقة، وروح البساطة والغنى، هذه الملامح التي ترتبط بظرفية إنشائها، وبسياسة مؤسسيها، وبفلسفة بانيها، على اعتبار أن الفنون الزخرفية هي قبل كل شئ لغة وتعبير إنسانيين، وبذلك جاءت مباني مدينة الرباط -وبالأخص التي تعود إلى الفترة الموحدية- متسمة بالطابع العسكري التحصيني، حيث ثم تزويد المدينة بأسوار ضخمة وأبواب منيعة وقصبة حصينة، مما جعل الفن المعماري والزخرفي للمدينة يتسم بسمة الضخامة مع روح الرقي والشموخ، مع بساطة في التكوينات الزخرفية، وهي بساطة اقتضتها ثورة الموحدين على الإسراف، وبعدهم عن الإكثار في الزخرفة انسجاما مع الخطاب السياسي الذي قام عليه الكيان الموحدي، والذي تحكم بشكل كبير في مفهومها للعمران ولفلسفة الفن، حيث أن هذه

22. Henri Basset et E . Lèvi-Provençal, «Challa: une nécropole mérinide», in *Hespéris*, Vol.2, 1922, p.425-385.

الدولة قد قامت على أساس التقشف ومحاربة الفن وبالأخص في مواقف المهدي ضد الزخارف والنقوش والموسيقى والسماع والرقص... إلخ[23].

غير أن هذه البساطة الزخرفية لم تمنع الموحدين أنفسهم من تزويد مبانيهم بنقوش زخرفية تتسم بالثراء من حيث تنوع الأشكال والتقاسيم مع بقائها واضحة المظهر بارزة الخطوط دون غلو وتشعب زخرفي، وهذا ما نراه بصورة واضحة على واجهة عدد من مباني مدينة الرباط العتيقة وبالأخص واجهة أبواب المدينة مثل باب الرواح، وباب العلو، ناهيك عن باب قصبة الوداية، التي حرص بناتها على تزينها وتنميقها بشتى الزخارف الهندسية، والنباتية، والكتابية، متخذتا من العناصر الزخرفية التقليدية زينتها.

بناء على أهمية الأبواب في طراز العمارة الإسلامية، باعتبارها أولى العناصر المعمارية التي تقابل الإنسان الداخل للمدينة، اعتنى سلاطين المغرب وبالأخص سلاطين الدولة الموحدية بهندسة وزخرفة أبواب مدينة الرباط، التي اتسمت بقلة زينتها وبساطة تكويناتها الزخرفية التي تعكس خصوصيات مدرسة الموحدين الفنية، ويعتبر باب الرواح الذي شُيد سنة 1197م من طرف الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، من أفخم الأبواب الخمسة التي تحيط بأسوار مدينة الرباط وأبرزها زخرفة بالمقارنة مع باقي أبواب المدينة، يبلغ طوله 28م وعلوه 12م، يحيط بفتحته الرئيسية بروزان أو نتوءان مربعان عبارة عن برج من كل جهة، وقوس الفتحة عبارة عن عقد متجاوز منكسر أو منفوخ داخل عقد متجاوز مفصص، وبين فتحتي الباب حيث تتحرك الدفتان غطاء نصف أسطواني، فتحته إلى الأسفل، وعلى محور الفتحة الرئيسية تمتد ثلاث قاعات متتالية، تغطيها قباب قائمة على مثلثات كروية مقوس[24] (شكل 8).

كما عرفت بعض أبواب الرباط ظاهرة شطف أركانها في بدنتي الباب، أي قصهما بتحويل التخطيط المربع إلى المثمن، غير أن الشطف في باب الأحد لا يحمل مقرنصا مقلوبا في أعلاه لإعادة التخطيط المثمن إلى تخطيط مربع في السطوح العليا، وبهذا

23. الحسن السايح، **الحضارة المغربية البداية والإستمرار**، منشورات عكاظ، الرباط، 2004، ط . 2، ج .2، ص .130.

24. عثمان عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج.5، **م.س** ، ص.137.

تضعف الأهمية الدفاعية في باب الأحد لعدم وجود مقرنص مقلوب يمكن من بروز المساحة العليا ويمكن للمدافعين من استخدامه، وباب الأحد هو الوحيد بالرباط البسيط في التخطيط لأنه بني كمدخل مباشر غير ملتوي وغير مرفقي[25].

يشير جورج مارسي، في إطار وصفه للمظاهر الزخرفية لأبواب المدينة أن زخرفة باب الرواح بلغت الغاية في الجمال من منبت العقود حتى قمة البناء، حيث تكونت زخرفة هذه الواجهة من أربعة عقود متتالية ومتراجعة، الواحدة تلو الأخرى، بمعني أن العقد نفسه يحيط به عقد ثان متشابك، وتتوسط كل بنيقية في العقد مروحة نخيلية محفورة حفرا غائرا في الحجر، تحيط بها زخارف نباتية ومراوح بسيطة ومزدوجة، إلى جانب الشريط الكتابي الذي يدور بالحشوة الوسطى من واجهة الباب، الذي هو عبارة عن آية قرآنية بالخط الكوفي بحروف كبيرة، ويطوق المجموع عمودان صغيران مزودان بتاجين[26]، ويبقى باب «الرواح» مع هذه المميزات من أجمل أبواب مدينة الرباط وأرقاها، باعتباره مرآة انعكاسية تنعكس عليها بساطة العمارة الموحدية، ورقي فنونها التقليدية[27].

إلى جانب فخامة ورقي الزخرفة بباب الرواح بمدينة الرباط، فإن باب الوداية يعد هو الآخر أحد روائع وإبداعات القرن السادس بالمدينة، لما احتواه من وسائل معمارية وأساليب دفاعية وجمال زخرفي، حيث تميز بتركيب هندسي متنوع وتعقيد معماري متطور وتفنن في وسائل الدفاع وأساليب التغطية، فضلا عن زخارفه الفنية الغنية التي تعلو إطار هذا الباب الضخم، والتي أظهر النحاتون براعة في نقشها ونحتها متخذين من الحجر مادتا خاما للإبداع، حيت تتخلل واجهة الباب خطوطا هندسية تحدد مختلف الأقسام، وتحيط كتابات الخط الكوفي بالمشتبكات وبأفاريز الزخرف السعفي، ويعلو الجميع إفريز من الحنايا المرصومة (أي المسدودة).

25. عثمان عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج. 3، ص. 127.

26. Georges Marçais, *Architecture musulmane d'occident, op. cit*, p69.

27. عثمان عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج. 3، **م.س**، ص. 125.

وإذا اقتضت تقاليد العمارة المغربية بأن يكون الوجه الداخلي للأبواب أقل تنسيقا من الوجه الخارجي، غير أن باب قصبة الأوداية شذ عن هذه القاعدة، فبرزت فيه كل العناصر الفنية التقليدية من خطوط هندسية، وحنايا متفتحة، وأفاريز وأشرطة كتابية، وأقواس مفصصة (أي ذات قويسات طبقا للفن الأندلسي المغربي)، وأقواس حدوية (أي شبيهة بحدوة الفرس أو نعله)، كما احتضنت زخرفة كتابية متميزة بخط كوفي راقي وخالي من التعقيد الزخرفي والمتناظر في ذات الوقت، هذه الزخرفة الكتابية التي شكلت أحد الخصائص المميزة للفن المغربي في بعده الأندلسي، أما الرسوم الزهرية فإنها تشغل هي الأخرى حيزا واسعا ضمن النسيج الزخرفي المهيكل لواجهة باب الوداية، إلى جانب الرسوم السعفية المنقوشة على بنيقات الأبواب (أي التي تتخذ أشكال ورقة النخيل) التي تذكر بالبالمت القديمة لكنها تبدوا هنا في أبواب الرباط، وبالأخص باب الوداية بفصوصها الإشعاعية عنصرا نباتيا إسلاميا يذكر بالقوقعة التي عرفها الفن الإسلامي منذ عصر الخلفاء، وتعتبر كذلك من العناصر الكلاسيكية في الترخيمات الموحدية وهي منتشرة في جميع أبواب مدينة رباط الفتح العتيقة، إلا أنها أبرز وأوسع في باب القصبة خاصة في الوجه الخارجي للباب، وهي من المقتبسات التي أرجعها الباحثون إلى الفن القوطي قبل الإسلام[28].

يبرز ثراء النقوش الزخرفية، وطابعها المتسم بالبساطة والدقة بالمدينة في صومعة مسجد حسان، التي استمدت زينتها من تعدد أنواع العقود والفتحات وكسوتها بشبكة المعينات المفصصة التي تعكس أشكال العقود المتقاطعة، وهي ظاهرة فنية يرجع ظهورها الأول إلى الفن الأمازيغي بصومعة قلعة بني حماد بالجزائر ثم عرفت انتشارها الدائم بالمغرب والأندلس على يد الموحدين ويد بني مرين فيما بعد، فالعقود المتجاوزة التي نحتت على جدران صومعة حسان تزينها المقرنصات التي يرجع اتخاذها بالمغرب إلى عهد المرابطين، قد عرفت تطورا كبيرا مع تعاقب الدول، متخذة بذلك أشكالا مختلفة فمنها العقد نصف الدائري، العقد الحاد الرأس، العقد المفصص، العقد المنكسر، والعقد الحدوي... الخ (الشكل 9).

28. عثمان عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية**، ج 3. ، **م.س**، ص.126.

من السمات العامة المميزة لفنون عمارة مدينة الرباط، أن غدا الخط العربي يلعب فيها دور زخرفيا وتجميليا[29]. متجاوزا بذلك دوره التأريخي لبناة الصروح ولتاريخ بنائها، محتلا حيزا هاما في عدد من المباني بالمدينة، حيث زين واجهات بعض مباني الرباط كالأبواب الضخمة والواجهات الداخلية لبعض المساجد كمسجد السنة وأهل فاس، وإن استخدام الخطوط الكوفية والتي تعكس حرص الصانع المغربي على جلاء ووضوح الخط العربي، مع ميل أكيد إلى استخدام التوريق البسيط، مع قلة التعقيد وتفضيل شطف هامات الحروف بمساحات واضحة وخالية من التقسيمات وكثرة الوريقات، توضح أن الزخرفة الكتابية تعد أهم مميزات ليس فقط العمارة المغربية وإنما العمارة الإسلامية ككل، التي اتخذت من الزخرفة الكتابية والخطوط العربية إطارا سطرت من خلاله آيات من القرآن الكريم أو أبيات من الشعر أو تاريخ إنشاء المبنى ومشيده، فأضحى بذلك الخط العربي صناعة فنية استعملها المعماريون لزيادة جمال وروعة المباني، ولهذا نجد أشرطة الكتابة الزخرفية تأخذ تنويعا في الزخرفة، وربما هذا التنويع استعمل لإقصاء عنصر الإملال من سيادة عناصر زخرفية من نوع واحد سواء أكانت هندسية أو نباتية.

تزينت جدران المباني المعمارية بالرباط، بتضفيرات نباتية وتعريشات نخيلية إتخدت من الحجر مادتها الخام، فنقشت عليه خطوط نباتية مؤلفة من براعم وأوراق متفرعة ومتصلة اتصالا أبديا، حيث نجد أن الغصن يتشابك مع هذه الأوراق تشابكا روحيا لا إراديا، لدرجة أن المشاهد لهذه الزخارف النباتية التي حفرت ونقشت بكل عنفوان على الحجر، يبدوا له أن الغصن والأوراق ينبت بعضهما من بعض، فالغصن غذى امتدادا للأوراق التي أضحت هي الأخرى امتدادا للغصن، وإن توزيع هذه الزخارف النباتية هو أمر مدروس في تاريخ فنون العمارة الإسلامية بصفة عامة، وذلك في محاولة الصانع والفنان المسلم الهروب مما ذهب الباحثون إلى تسميته، هاجس الخوف من الفراغ، ومن ثم كان حرص المعلم التقليدي على ملء الفراغ بحسن توزيع هذه الزخارف

29. Abedelaziz Benabdellah, *L'art Maghrebin,_op. cit*, p. 41.

النباتية وتكسية كامل السطح بدوران هادئ متوازن، مع الحفاظ على عنصر الإدهاش في إلقاء المشاهد وسط متاهات من خطوط الزخرفية التي لا بداية لها ولا نهاية[30].

وإن ما منح العمارة التقليدية بمدينة الرباط سمات الخصوصية، احتضانها لعدد هام من العناصر المعمارية ذات الطابع الإسلامي، والتي أعطت للمدينة هويتها المعمارية الخاصة، ونخص بالإشارة إلى الاستعانة بعنصر الأعمدة والتيجان، والأقواس والعقود، والقباب والمقرنصات... الخ، وقد برزت هذه العناصر المعمارية بشكل كبير بعدد من مباني المدينة كالمنازل والمساجد، فاحتضن مسجد حسان في هذا الإطار، أعمدة دائرية من الحجر والرخام توزعت بأعداد هامة بوسط بيت الصلاة، في حين احتضن مسجد ملينة ومسجد السنة أعمدة مربعة الشكل.

كما زودت منازل الرباط هي الأخرى بأعمدة متنوعة الأشكال فمنها الأسطوانية البدن، أوالمربعة، أوالمثمنة الزوايا...، تعلوها تيجان مميزة نقش على بعضها بزخارف نباتية وهندسية وكتابية، أبدع من خلالها المزخرف المغربي في نقش أوراق الأزهار وسعيفات النخيل وفي تسطير كتابات رائعة بالخط الكوفي على تنياها، مع حرص كبير على ضمان تناسق الوحدات الزخرفية وتوازن الوحدات الهندسية، إلى جانب ضمان قدرتها على تحمل أكتاف العقود بمختلف أنوعها الحدوية والمفصصة وغيرها من الأنواع، في وقت تجاوزت فيه العقود دورها المعماري على الأبواب والنوافذ وغدت لها وظائف جمالية بحتة، فصارت مشبكة ومجصصة ومزججة، فوق النوافذ والأبواب ورقبات القباب كما قد تحيط بفسقية جدارية وتسمى آنذاك بعقود صماء إذا لا تؤدي هنا دورها المعماري بل فقط دورها الجمالي بخلق الانسجام بين باقي العناصر المعمارية، وضمان التوازن في تلقي رقاب الأقواس.

هكذا تجلت خصوصية الفنون الزخرفية المغربية التي طبعت معالم مدينة الرباط، جعلت منها روائع معمارية تتصف بخاصيتي البساطة والغنى، الضخامة والرقة، وأخيرا خاصية الدقة والإبداع، عكستهما قوة الطراز المغربي في بعده الأندلسي، في ظل مدرسة

30. أحمد قاجة جمعة، **موسوعة فن العمارة الإسلامية**، مطابع السفير التجارية، ط .1، لبنان، 2000، ص.399.

الموحدين المعمارية، فامتاز هذا الفن بدقة النحت والنقش والنخر، وفي إتخاده من الحجر والخشب والزليج والفسيفساء... موادا خاما للإبداع والابتكار.

II. الخصوصيـة التقنيـة:

لبناء وزخرفة مباني الرباط استعان البناء والمزخرف والصانع المغربي، بعدد كبير من المواد الخام لبلورة عمائر هذه المدينة بمختلف أنواعها، فاستعان بالتابية، والحجر، والخشب، والفسيفساء، والرخام، والزليج، والزجاج، والحديد...، لتحقيق هذا الغرض، فإذا كانت أسوار مدينة الرباط قد بنيت على منوال الأساليب المرابطية من حيث البناء بقطع الحجارة الكبيرة غير المنتظمة أي غير المنجورة تتخللها قطع مستوية من حين لآخر تنتظم بها سطوح المداميك فقد استعان بناة مدينة الرباط بدء بالموحدين وإنتهاء بالعلويين بمادة الطابية في تشييد مبانيهم (شكل 10)، وإن اختلفت جودة الطابية الموحدية والعلوية عن التابية المورسكية والتي وإن كان المورسكيون قد استوحوا موادها من الأساليب الموحدية، فقد اعتبرها كل من مارسي وكايي أقل جودة بالمقارنة مع التابية الموحدية.

تعد التابية المغربية من خصوصيات المعمار المغربي العتيق، التي كان يتم تجهيزها عن طريق خلط الحمري والجير وعقاد الجير وكسرات الفخار والحجارة الصغيرة أو الصم، لتعجن بالماء حيث تترك لمدة معينة لتتخمر قبل الإقدام على صبها في حواجز خشبية، التي كانت تحدد شكل وحجم السور المراد بناؤه، وإن عملية صنع مادة الطابية هذه توضح حرص البناة وبالأخص الموحدين على ضمان صلابة مبانيهم من جهة، ومن جهة أخرى تحقيق سرعة في الإنجاز مع الاقتصاد الأكيد في النفقات، كل ذلك لمقاومة عوامل الزمن، وهذا ما تحقق بالفعل فصمدت هذه الأسوار أمام النكبات السياسية والكوارث الطبيعية.

إذا كان تشييد أسوار مدينة الرباط قد تم بالتابية، فإن أبواب هذه الأسوار قد كان بناؤها بالحجارة المنجورة المنتظمة الشكل، وذلك مراعاة لغايات دفاعية وانسجاما

مع تخطيطها ذي المنعطفات المرفقية المزدوجة بغرض عرقلة الهجمات المحتملة على المدينة، إلى جانب ما تضمنه الحجارة المنجورة من سهولة نقش كافة الزخارف سواء في طابعها الهندسي أو النباتي أو الكتابي، محققا بذلك هدفا دفاعيا وجماليا.

هكذا، بنيت أسوار الرباط وأبوابها بمادتين أساسيتين هما التابية والحجارة المنجورة، غير أن البناء بهاتين المادتين لم تقتصر فقط على بناء الأسوار والأبواب بل تجاوزتهما إلى تشييد عدد من المباني بالمدينة كالمنازل والمساجد، فقد تم بناء جدران مسجد ملينة بالتابية المغطاة بالمرطوب فوق أساسات من الحجارة الكبيرة غير المنجورة مع استعمال مادة الآجر في بناء أقواس وعقود هذا المسجد[31]، كما بنيت جدران مسجد السنة من التابية المزودة بكسرات القرمود والآجر، وأبوابه من الحجر المنجور، وأقواسه ودعائم عقود بيت صلاته من الآجر ، وسقفه من برشلات خشبية[32].

استعان الصانع المغربي في بناء منازل الرباط بمواد كثيرة ساهمت في صياغة مرافق تلك الدور السكنية سواء المنازل الموحدية أو الموركسية وحتي العلوية منها، فاعتمد الموركسيون على سبيل المثال على الدبش كمادة أساسية في بناء وزخرفة دورهم السكنية، إلى جانب استعمال الحجر المنحوت، والخشب والرخام والزليج والجبص والحديد والزجاج وأخيرا الطابية، فاستعمل الدبش في بناء الجدران الداخلية والخارجية للمنزل، وغطيت حيطانه بالملاط أولا ثم بالجير[33] ثانيا، كما استعمل الحجر المنحوت لتقوية المنزل، خاصة على مستوى الزوايا، والأقواس التي تعلو الأبواب والنوافذ والأروقة التي تحيط بالصحن، كما استخدم الحجر المنحوت في بناء الأعمدة، وذلك على شكل أجزاء أسطوانية متراكبة، واستعمل الخشب أيضا في بناء السقوف، وفي صنع الأبواب والنوافذ، كما استخدم كواجهات زخرفية على مستوى أفاريز المدخل الرئيسي للمنازل أو الأفاريز التي تعلو أروقة الصحون الداخلية.

31. Jacques Caillé, *La ville de Rabat jusqu'au protectorat français*, *op.cit.* 476-477.

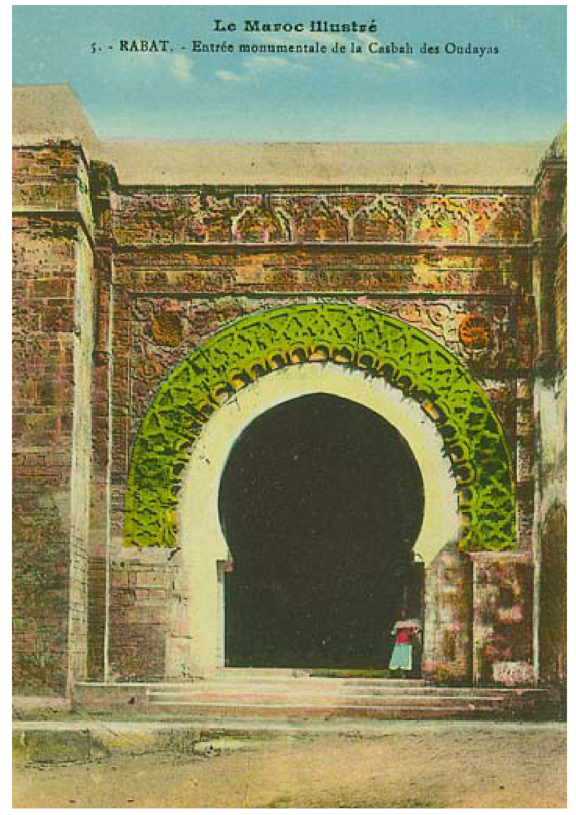
33. *Ibid,* p.469.

34. Georges Marçais, *L'architecture musulmane d'occident, op .cit*, p.398.

زخرفت بعض منازل المدينة، بالرخام والزليج والجبص وذلك في تغطية أرضية المنزل، وفي كسوة واجهات الحيطان والسواري والأفاريز والأعمدة، خاصة بالدور السكنية الراقية بالمدينة والقصور، التي كانت في ملك التجار والأغنياء وكبار الموظفين، حيث كان من سمات العمارة المغربية الأصلية وخاصة في إطار الطراز المغربي الأندلسي، تغطية الجدران الداخلية للمباني في جزئها السفلي بالزليج أو الفسيفساء في حين تتم كسوة الجزء العلوي منه بالجص الذي نقشت فيه شتى أنواع الزخارف الهندسية والكتابية ذات التضفيرات التي يغلب عليها التوريق المتقابل داخل عقود قائمة على أعمدة دقيقة من الجص.

ولا يجب أن ننسى في هذا الإطار، أن فن الجص المغربي قد لعب دورا حاسما في إثراء الجمال الزخرفي للصروح المعمارية المغربية ليس فقط في مدينة الرباط، وإنما في كافة المدن المغربية وبالأخص في فاس ومراكش التي احتضنت روائع الفنون التطبيقية المغربية العريقة، وذلك بسهولة تقسيمه وتنوع أساليبه وما اشتمل عليه من وحدات زخرفية سواء في صنفها الهندسي أو الطبيعي النباتي أو الصنف الكتابي، بالإضافة إلى أعمال الجص الفنية الواضحة في الأعمدة والأقواس والعقود والدلايات وفي القباب والمقرنصات والفسقيات المنتشرة ببعض مباني الرباط، وعلى رأسها ما ازدان به مسجد السنة ومسجد أهل فاس، حيث يتوسط صحن مسجد السنة فسقية من الرخام الأبيض تحملها دعامة من المرمر ضمن مربع من الزليج[34]، مستعينين في تحقيق ذلك بمهارة الجباس في نحت مزيج من الكلس والرخام، وبراعة النجار في بري المواسير الخشبية التي تتكون منها قطع المقربصات، وخبرة الصانع الزلاج في تلوين الفسيفساء والإستيحاء من النباتات الفارسية التي تزين السقوف والزهيرات بالقرنفل والسوسن في تخلد آية الفن المعماري المغربي في تجلياته الكبرى[35].

34. عبد العزيز بن عبد الله، «مساجد المغرب وجوامعه»، مجلة **دعوة الحق**، العدد 238، يوليوز 1984، ص. 25-21.
35. الحسن السايح، **الحضارة المغربية، البداية والاستمرار**، ج. 3، ص. 57 .





الشكـل 8 و 9: زخرفـة الواجهة الداخلية لباب الرواح بالسور الموحـدي





الشكل10 و 11: ثراء النقوش الزخرفية، بصومعة مسجد حسان





الشكل 12 و 13: استخدام مادتي التابية والحجر في بناء أسوار قصبة الوداية وواجهاتها

خلاصة:

يعد المجال الحضري لمدينة الرباط محصلة تقاطعات مرفلوجية لمشاريع عمرانية لمختلف الدول التي حكمت المغرب، وساهمت في تشكل النسيج العمراني لمدينة الرباط من خلال تزويدها بالمرافق التي تعبر عن سياسة هذه الدول تجاه المدينة، فانتقلت في خضم تطور نسيجها العمراني، من مجرد رباط للجهاد ضد برغواطة من جهة إلى قصبة للجهاد بالأندلس، تم إلى مدينة ذات مكانة رمزية خاصة إن لم نقل العاصمة الثالثة للدولة الموحدية إلى جانب مراكش واشبيلية، لتنتقل المدينة وفي صيرورة تاريخية معقدة من قاعدة للجهاد الديني بالأندلس إلى مدينة للجهاد البحري مع الاستقرار الموريسكي بها، قبل أن تغدو على العهد العلوي حاضرة سلطانية ذات سمات معمارية خاصة نافست كبريات الحواضر المغربية فاس ومراكش وبالرغم من التدهور الذي كانت المدينة ترزح تحت وطأته بين الفينة والأخرى زمن الأزمات السياسية التي عرفتها البلاد، وكأن المدينة محكوم عليها بمعايشة الخراب إن لم نقل العودة دائما إلى لحظة الصفر، لتظل على هذا المستوى إلى حين توقيع معاهدة الحماية، التي جعلت من مدينة الرباط العاصمة الإدارية والسياسية للمخزن وللجهاز الفرنسي ككل.

وقد كان بناء وتخطيط مدينة الرباط وفق نظام أساسي يحترم قواعد وأحكام البناء في المدينة التقليدية المغربية خصوصا والمدينة الإسلامية عموما، مع بعض المبادئ الخاصة التي أعطت للتخطيط العمراني للمدينة سمة الخصوصية، ليمثل تخطيطها في الآن نفسه تعبيرا ماديا عن ذلك التوازن التلقائي بين مرافق المدينة، كما يعكس منطق تصميم سعى لضمان مشاركة شبه كاملة في الحياة الدينية والاقتصادية والسياسية لساكنته بمختلف طبقاتها، مع حرص تام على ضمان خصوصية الحياة العائلية في آن واحد.

وإذا كانت مدينة الرباط قد انفردت بخصوصية هندسية، بحكم كل من الموقع الإستراتيجي الذي احتلته، والدور السياسي والعسكري الذي لعبته، وأخيرا بحكم المجتمع الذي عاش فيها وطبعها بفلسفته ورؤاه المعمارية، وانطلاقا من هذا الأمر غدت للمدينة هويتها المعمارية، تلك الهوية التي نقشت الصناعة التقليدية المغربية زينتها الخارجية،

وكست فضاءاتها الداخلية بزخارف تعبر في جزء كبير منها عن الطراز المغربي الأندلسي، وإذا كانت مدينة الرباط العتيقة قد تشكلت ونمت وفق مفاهيم المعمار التقليدي والذي تحكم في هندسة مرافقها وزخرفة مبانيها، فانه مع اتخاذ المدينة عاصمة للبلاد خلال مرحلة الحماية، تمت عملية بناء أحياء أوربية وفق مفاهيم جديدة، ناهيك عن عملية بناء أحياء للمغاربة سميث «بالأحياء الأهلية» مثل حي «ديور الجامع» وحي «يعقوب المنصور»، وقد اتخذت هذه الأخيرة من التصاميم والزخارف المغربية طابعها الخاص، انسجاما مع أهداف سياسة الحماية بالمغرب واحتراما لشعارات منظرها الجنرال ليوطي القائمة على منطق «المحافظة» وعلى «سياسة المراعاة» ...الخ.

إذن كيف تم تصميم المدينة الأوروبية الجديدة؟ ووفق أية سياسة وأية أهداف؟ وكيف انعكس هذان الأمران على مستوى تخطيط المدينة وهيكلة نسيجها العمراني؟ وهو ما سنحاول الإجابة عليه في بحث قادم.

شفشاون:
حاضرة شريفة بملامح أندلسية و قسمات جبلية

فاطمة بوشمال
محافظة المتحف الإثنوغرافي/شفشاون

تقديم:

ذكر ابن أبي زرع على لسان أحد الحكماء «أن أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها و كف جبابرتها»[1]. ومدينة شفشاون تستجيب لكل هذه المعايير أو الشروط في اختطاطها، إذ تقع في وسط مجال جبلي منيع، غابوي كثيف، غني بالموارد المائية، سيما نبع رأس الماء الطبيعي. كما أن هواءها طيب ومراعيها وفيرة ومروجها قريبة، تكفي ساكنتها مشقة السير والبحث. بالإضافة إلى كثرة أسواقها القائمة في كل حدب وصوب.

عرفت مدينة شفشاون في الروايات التاريخية الاستعمارية الإسبانية «بالمدينة المقدسة»[2]، لاعتبارات ركزت بالخصوص على إمتناع هذه المدينة على العسكريين

1. عبد الأحد السبتي، حليمة فرحات، **المدينة في العصر الوسيط: قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي**، المركز الثقافي العربي، ط.1، الدار البيضاء، بيروت، 1994، ص. 15.

2 . أنظر على سبيل الذكر:

(E.) Arques, «Xauen. La ciudad santa», *La Gaceta de África*, 1936, p. 139.

(A) Assia, «La vanguardia en Xauen. Desde la ciudad sagrada», *La Vanguardia Española*, Jueves, 24 de

والمستكشفين الأوروبيين، منذ تأسيسها سنة 876هـ/1471م، حتى نجاح أحدهم في كسر هذه القاعدة، ولو متأخر وبشكل مؤقتا: المستكشف الفرنسي شارل ذي فوكو سنة 1883، ثم الصحفي الإنجليزي هاريس سنة 1889. لكن، هاذين المستكشفين لم ينجحا في نقل صورة كاملة عن المدينة ولو حتى قبيل إحتلالها خريف سنة 1920. ولعل هذا الغموض الذي إكتنف المدينة طيلة أربعة قرون من الزمن شكل أحد الأسباب لهذه التسمية، لأن المقدس في غالب الأحيان ما قد يرتبط عند المرء بالأمر بعيد المنال.

لكن الدراسة التي نقوم بها حول هذه المدينة منذ ما ينيف على عشرية كاملة في إطار تحضير رسالة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، أكدت لنا أن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذه الصفة: المدينة المقدسة، تكمن في عدة دواعي. ونذكر من بينها أن مؤسس هذه المدينة الأمير علي بن راشد أحد حفدة القطب الرباني مولاي عبد السلام بن مشيش (ت.625هـ/1227 م)، ومن ثمة فأسرة الرواشد سليلة هذه الدوحة الشريفة. ثم أن الهدف الرئيس من وراء تأسيس هذه المدينة كرباط للجهاد من أجل وقف الزحف البرتغالي نحو الداخل، بعد إحتلال هؤلاء لمجموعة من الثغور الشمالية: سبتة سنة 1414-1415م، القصر الصغير سنة 1458م، ثم مدينتي طنجة وأصيلا سنة 1471م. لهذا، إرتأى هؤلاء الشرفاء تأسيس هذا الرباط لجمع الفرسان من أبناء هذه المناطق الجبلية وتهيئتهم لهذا الغرض العسكري ذي طبيعة المقاومة.

بغض النظر عن أسرة الرواشد الشريفة، استقر بالمدينة زمرة مهمة من الأسر الشريفة التي ساهمت بدور كبير في تعمير و تطوير المدينة، كما هو الحال لعدة هجرات أندلسية وأخرى يهودية. فالتركيبة السكانية للمدينة شكلت خليطا من هؤلاء وأولئك، ناهيك عن بعض العناصر الإفريقية النادرة والجبلية المحلية، التي بصمت المدينة بالطابع القروي الجبلي.

---

noviembre 1955, p. 7; (F.) Capaz y Montes, *Apuntes para la historia de la ciudad santa y misteriosa de Xauen*, Ed. Ulampia, Ceuta, 1928; (J.) Losada de la Torre, «Xauen, la ciudad sagrada y misteriosa, en la corazón de la cabila de Lajmas», *El Español*, Nº 37, 10 de Julio, Madrid, 1943, p.9.

نرنو من خلال هذا المقال الإحاطة ببعض أركان هذه المدينة، سواء على المستوى التاريخي أو على الصعيد الإجتماعي والإقتصادي، ناهيك عن الوقوف على الخريطة السكانية لهذه الحاضرة: الشرفاء، العنصر الأندلسي، العنصر اليهودي والإفريقي. فلقد تجسد التفاعل الثقافي بين هذه العناصر في طريقة التثاقف، والذي يحدث عندما تتخذ مجموعة صفات الآخرين، بينما تحتفظ ببعض صفاتها[3].

ليس الهدف من هذا المقال بسط تاريخ شفشاون منذ تأسيسها في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وحتى الاحتلال الإسباني لها مرتين سنة 1920، ثم سنة 1926، وإنما الهدف تقديم شروحات منهجية للقارئ لبعض الأحداث التاريخية التي عاشتها المدينة، ذات المجال الجغرافي الجبلي الصعب والمكونات البشرية المختلفة المشارب والرؤى، ساهمت كل واحدة منها بخصوصيتها الثقافية وأحيانا بعصبيتها القبلية في خلق صراعات أثرت بشكل كبير في التطور التاريخي للمدينة، ومن ثمة بناء الشخصية الشفشاونية.

1- اختطاط مدينة شفشاون

لم يكن الأمير علي بن راشد صاحب فكرة تأسيس رباط شفشاون، وإنما الفضل يرجع إلى ابن عمه الحسن بن أبي جمعة. فلقد بادر هذا الأخير إلى وضع اللبنات الأولى لهذا الرباط،على الضفة اليسرى لواد شفشاون. تولد هذا القرار لدى الحسن بن أبي الجمعة بعد معاينته ومشاركته في المعارك الأولى لدحض التقدم البرتغالي نحو الداخل. فلقد نجح هؤلاء في إحتلال الثغور الشمالية مثل سبتة ومدينة القصر الصغير ثم مدينتي طنجة وأصيلا سنة 1471م. لهذه الإعتبارات السياسية الحرجة، نذر الحسن بن أبي جمعه نفسه بمعية عدد كبير من أبناء هذه القبائل الجبلية، لوقف هذا التوسع البرتغالي.

تقف المصادر التاريخية المغربية على ذكر مبادرة هذا الفقيه الصالح أبي محمد الحسن بن جمعة لإختطاط مدينة شفشاون، لكنها لا تقدم تفاصيل عن هذه العملية

3. وويك مواري، **جغرافيا العولمة: قراءة في تحديات العولمة الإقتصادية والسياسية والثقافية**، ترجمة: سعيد منتاق، سلسلة عالم المعرفة، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ربيع الأول 1434هـ/فبراير 2013، ص. 272.

العمرانية، نظرا لشح المعلومات المتوفرة لديها، سيما وأن هذا المجاهد سيموت شهيدا، قائما يصلي في مسجد بقرية الخروب، الكائنة بجبل الحبيب[4] (إقليم العرائش حاليا). وتتفق كل الروايات التاريخية أن مقتله كان من تدبير النصارى من أهل النفاق مع أهل المنطقة. لم تمكن الظروف التاريخية إذن الشريف الحسن بن أبي جمعة من إستكمال مشروعه الحضري لبناء رباط الجهاد ضد البرتغال، فتصدر إبن عمه علي بن راشد لمهمة تنفيذ هذا الأمر.

2- الأمير علي بن راشد: مؤسس إمارة الرواشد وقائد الجهاد بالمنطقة ضد البرتغال

تذكر المصادر التاريخية المغربية أن علي بن راشد سليل الشرفاء العلميين، من حفدة القطب الرباني مولاي عبد السلام بن مشيش (ت.625هـ/1227م)، دفين جبل العلم بتازروت. ولد بقرية غاروزيم التي كانت تقع تحت نفوذ قبيلة الأخماس، في حدود سنة 844 هـ/ 1440م. وفي هذا السياق التاريخي، يروي الحسن بن محمد الوزان ومارمول كربخال أن أسرة علي بن راشد من بين الأسر الشريفة التي كانت تقيم بقبيلة بني حسان، عندما ثار سكانها على أسيادهم الشرفاء العلميين وأرغموهم على أداء الضرائب شأنهم في ذلك شأن عامة الناس[5].

اجتاز علي بن راشد إلى الأندلس في حدود 864 هـ/1460م. وهناك التحق ببلاط الأمير محمد الصغير، آخر أمراء غرناطة، لاكتساب الخبرة العسكرية في جهاده ضد النصارى. وخلال تواجده بهذه العدوة، تزوج مولاي علي بشابة أندلسية مسيحية من مدينة Vejer de la Frontera:

4. محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، ج. 1، تحقيق: محمد حجي، أحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة و النشر، سلسلة التراجم رقم 3، الرباط، 1397هـ/1977، ص. 220.

5. انظر على التوالي: مارمول كربخال، **إفريقيا**، الجزء الثاني، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، مطبعة المعارف الجديدة و دار نشر المعرفة، الرباط، 1409هـ/ 1989، ص. 2، وانظر أيضا:

(J.) Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*, T : I, Trad. (A.) Épaulard, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, N° LXI, Ed. Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve, Paris, 1981, p. 271.

تظل ظروف عودة علي بن راشد إلى مسقط رأسه محل تساؤلات عدة، في غياب روايات تاريخية مكتوبة وموثوق في صحتها. غير أن عودته شكلت زخما ودفعة قوية لحركة الجهاد المحلية التي كان يقودها ابن عمه: الحسن بن أبي جمعة. شارك إذن الأمير الشاب ابن عمه في غزواته الجهادية، لكنه سرعان ما أصبح أميرا للمجاهدين في الشمال الغربي للبلاد، بعد اغتيال الحسن بن أبي جمعة بقرية الخروب بجبل الحبيب، بل وغداة توقيع محمد الشيخ الوطاسي لمعاهدة الهدنة الأولى مع البرتغاليين سنة 876 هـ/1471م. تقضي بنود هذه المعاهدة بالالتزام بالهدنة لمدة عشرين سنة بين الطرفين، مع احتفاظ كل منهما على حقه في مهاجمة المدن المحصنة الواقعة تحت سيطرة الآخر، مع سريان نصوص المعاهدة.

تولى علي بن راشد زمام المبادرة بتغيير أو بالأحرى نقل موقع المدينة من العدوة اليسرى لواد شفشاون (رأس الماء) إلى العدوة اليمنى سنة 876هـ/1471م[6]، لدواعي إستراتجية كالقرب من منبع الماء والحماية الطبيعية المضمونة عبر التحصن بالجبال المحيطة بهذا الموقع. كما شيد القصبة كرباط للجهاد ضد الاحتلال البرتغالي. ويعد هذا الرباط (القصبة حاليا) من الرباطات الداخلية النادرة في المغرب، لأنه عادة ما كانت تشيد الرباطات على السواحل لحماية الثغور. شكلت القصبة إذن دارا للإمارة لمولاي علي بن راشد وأبنائه من بعده، بل ولكل قواد منطقة غمارة خلال العهدين السعدي والعلوي، حتى قبيل الإحتلال الإسباني للمدينة.

خاض علي بن راشد عدة عمليات جهادية امتدت إلى سواحل الهبط، لوقف الزحف البرتغالي بهذه المنطقة. بل ورفض توقيع أي إتفاق مع هؤلاء كما تبرز بعض الدراسات التاريخية الإسبانية[7]. واتخذ من مدينة ترغة لهذه الغاية ميناءا مهما لخروج أسطوله البحري، مما دفع بالبرتغال إلى حرقه وتدمير هذا الميناء الحيوي سنة 895هـ/1490م. كما جعل من مدشر الخروب، الكائن بقبيلة جبل الحبيب (إقليم العرائش حاليا)، قاعدة

6. نفس المصدر، ص. 33.

7. (G.), De Reparaz, «El estrecho de Gibraltar: Episodios principales de una tragedia histórica», *A.R.T.C.*, Epoca II, Año V, diciembre, Ceuta, 1929, p.282.

أخرى لانطلاق عملياته ضد الاحتلال البرتغالي، إلى جانب ميناء مرتين (مارتيل الحالي) الذي كان بدوره يعد مركزا إستراتيجيا بحريا لخروج المجاهدين منه. وهكذا، أسس هذا الأمير قواعد عسكرية بحرية وأخرى برية موزعة عبر الرقعة الجغرافية لمنطقة جبالة-غمارة، خصوصا بقرية ترغة وتغسة (ساحل إقليم شفشاون)، في إطار تنسيق العمليات الجهادية مع هذه القبائل، بغية إيقاف التوغل البرتغالي نحو المناطق الداخلية للشمال الغربي للمغرب.

تذكر بعض المصادر التاريخية محاولة استقلال علي بن راشد عن السلطة الوطاسية، ارتأت فيها هذه الأخيرة عملية انقلابية خطيرة تصدت لها بكل حزم وشدة. إذ سرعان ما دخلت الجيوش الوطاسية إلى المدينة سنة 900-901 هـ/1495-1496م، اضطر على إثرها علي بن راشد إلى الفرار من القصبة عبر سرداب سري للوصول إلى حدود المدينة. وبعد تدخل وجهاء المدينة و علمائها في الصلح بين السلطان محمد الشيخ الوطاسي وأمير شفشاون، عين هذا الأخير كممثل للسلطان على منطقة غمارة. و قد وصف المؤرخ أبو عبد الله محمد الكراسي (ت.964هـ/1544م) ثورة الأمير على السلطة الوطاسية، في أرجوزته التالية، قائلا[8]:

«وثـــار في شفشـاون وصــــالا	ذالك الشريـــف العادم المثـــــالا
أن يدخـل الحضـرة أو يطلـــع	دعـــا لنفسه وجـــــاء الطـمـــع
علـى بـلاد مـغـرب سلطانــــا	خـــاف وخاب رأيـــه ما كانـــا
تحـركـت لـداره الجنـــــود	فـــاس ومكنـــاس لهم بنـــود
دخل فاســا تحت حكـم الطاعه	اد عيـيت أفعـــالـه الجماعــــه
حتـــى إلى سبتـــة كرها قدمـــت	وولـــــده يحي الوزيــر المكرمـــا
نـــزل في شفشـاون تحت الديـار	وظهـــــر الغلب باخراب القـــرار
مـــر وخـــلا داره و مرفقــــه	وأحرق الدار فصــارت محرقــــــه
فانحصر ابن راشـــد في الجبـــل	بالانـقـطــــــاع وتـمـام الحـيـــل

8 . أبو عبد الله الكراسي، **عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل**، المطبعة الملكية، الرباط، 1383هـ/1963، ص.17-19.

فطلـــع الســادات للشريـــف	لاموا على ما كــان من تحريـــــف
دخـــل في الطاعـــة والجماعــة	وبعثـــت شفشـــاون بالطـاعـــة
وأقلـــع الوزيـــر عـنه الـنزلا	ومـــر راحلا وأوفـــا العـمـــــلا
ودخلـــــوا إلى ديار فـــاس	في ظل أمن الملك الوطاســــــي
وجـــاء بعــد ذلك ابن راشـــد	لدار مـــولانا الكبيـــر الماجـــــد
قابلـــه بالصفح والإغضــــاء	عما جنـــاه في الخـلاف النائــــي
أجـــرى عليــه الرزق والأنعامــا	وما يخـــص داره دوامـــــــا
وبعــد ذاك يـوم مـيـز العيــــد	جـــا طبلـه بعلـــم جـديـــــد
وعـــادت البلاد كيف كانـــت	كأنـهـــا من يـــده ما بانـــت
وبقيـــت بينهـــما المحبـــــه	حتى قضا الشريـــف فيها نحبـــه
وكـــان ذا أوائـــل المـــحـــرم	من بعد تسعمئـــــة تقـــــدم
هذي عوائـد الكـــرام الســـاده	من آل وطـــاس فنعـم القـــاده»

بعد تدخل أعيان شفشاون لدى السلطان الوطاسي إذن، واصل الأمير علي بن راشد حكم المدينة، ولكن باسم السلطة الوطاسية، مع الحفاظ على دوره الطلائعي في الجهاد ضد البرتغال، حيث جاوز عدد غزواته العشرات إلى حدود وفاته.

شكل تاريخ وفاة هذا الأمير موضوع اختلاف كبير بين المؤرخين المغاربة و الدارسين الأجانب، فهناك من رأى أنه توفي سنة 917هـ/1511م، في حين يؤكد البعض الآخر أنه ظل حيا إلى حدود سنة 922هـ/1516م. مهما يكن، فإن أمرا كهذا كان سيشكل من البديهي محط إختلاف بين الباحثين والرواة، لو لا بعد الروايات التاريخية الموثقة لهذا الحدث، و لندرة الأقلام التاريخية المحلية المؤرخة له.

ورغم كل هذا، فإن هذا الأمير يظل شخصية تاريخية مهمة على الصعيد المحلي والجهوي، لمساعدته لأبي الحسن المنظري مثلا في مشروع إعادة بناء مدينة تطوان سنة 888 هـ/1483م. كما أنه ساهم في الحد من التوسع البرتغالي بمنطقة الريف الغربي. علاوة على هذا، فقد أسس الإمارة الصغيرة لبني راشد أو الرواشد والتي برزت على

الساحة السياسية المحلية بوجه مشرف، رغم الظروف السياسية والتاريخية الصعبة التي شهدها المغرب خلال القرنين الخامس والسادس عشر الميلادي.

2 ـ التطور العمراني لمدينة شـفشاون

لم تكن مدينة شفشاون عاصمة لإمارة بني راشد فقط، ما بين 876ـ965 هـ /1471-1561م، بل استمر دورها باحتضانها لهجرات أندلسية متعددة، قبيل سقوط غرناطة سنة 1492م، وبعدها حتى سنة 1609م تاريخ طرد آخر العناصر الموريسكية من الأندلس، من طرف الملك فليبي الثالث. بالرغم من سقوط هذه الإمارة الفتية على يد السعديين سنة 975هـ/1567م، واظبت هذه المدينة الجبلية على أهميتها كمقر للسلطة لهذه القبائل المترامية الأطراف والصعبة المنال، سيما مع الدولة العلوية. ومن الناحية الجغرافية، فإن المدينة العتيقة لشفشاون تجثم على القمم الجبلية التالية: القلعة وتيسملال وبوحاجة، مما جعلها تتربع على عرش المدن الجبلية بشمال المغرب. وهكذا فإن مستويات تموضع أحياء المدينة تترواح على علو ما بين 540 متر و640 متر على مستوى البحر[9]. فليس من الغريب أن تجعل هذه الطوبوغرافيا الجبلية من ساكنة المدينة كما زوارها، في سيرهم وجولانهم إما في صعود أو في نزول لأزقة ودروب المدينة المنحدرة. لهذا فإنه من النادر إيجاد مناطق شاسعة ومنبسطة، الإ بعض الساحات المعدودة على أصابع اليد، والتي لا تتجاوز مساحتها في غالب الأحيان 4000 متر مربع.

2ـ1ـ القصبة أو دار المخزن أو دار إمارة الرواشـد:

تذكر المصادر التاريخية المغربية أن الأمير علي بن راشد بادر إلى بناء القصبة، دار إمارته وأبنائه من بعده. والمتعارف عليه في تخطيط المدن العربية-الإسلامية أن قصر الأمير والمسجد-الجامع من بعده، يشكلان المؤسسات الأولى التي توضع لبناتها، بخلاف المدن الرومانية والتي ما يشرع إختطاطها بالشارعين الرئيسين المتقاطعين، ووضع تصاميم المؤسسات العمومية الأولى في مشروع الاختطاط العمراني.

9. (W.) Hoenbach, (J.) Kolenda, «Geschichte und Topographie einer. Marokkanischen Stadt: Xauen», *Die Welt des Islam* , T. XVI, Ed. Brill, Leiden, 1975, p.112.

شكلت إذن القصبة النواة الأول لمدينة شفشاون والتي وكانت تتكون من الإقامة الأميرية، سجن، مسجد صغير خاص بالأمير، حديقة، إسطبل للخيول، أروية للبهائم، وعشرات الأبراج. ولقد استمرت القصبة في لعب دورها المنوط بها كدار للمخزن حتى الحماية الإسبانية، مع دخول الجيش الإسباني للمدينة خريف سنة 1920. بنيت القصبة إذن من مواد أولية محلية صلبة ومتينة كالحجر الجيري المعروف بالكدان في وضع أساسات هذه المعلمة، ثم طبقات متتالية من التراب المدكوك الصلب. أما جوانب الأبواب ونصف دوائر الأقواس، فقد بنيت من الأجور الأحمر المطبوخ نظرا لوفرة الأتربة المناسبة لصنعه وجماليته التي تتناسق مع ألوان مواد الأساسات. في حين تشكلت الأسقف الخشبية من أجود أنواع الأخشاب المحلية كالأرز والشيح والعرعار وغيرها. ومن الناحية الخارجية، شكل القرميد الأحمر الصلب المادة البنائية الأساسية في تسقيف هذا النوع من الأسقف. تشرف القصبة على ساحة وطاء الحمام ببوابة في أحد أبراجها، فتحت على عهد الحماية الإسبانية، إذ لا تشكل هذه البوابة الممر الأصلي للولوج إلى داخل القصبة، فلقد فتحها الجيش الإسباني في هذا الجانب من السور من أجل إدخال وحداته إلى القصبة.

2ـ 2ـ الأحياء الأندلسية فضاءات للتعايش السلمي الدائم: السويقة، ريف الأندلس، العنصر، باب السوق

واكب تأسيس القصبة بناء حي سويقة، الحي الذي جمع العناصر الأندلسية الأولى القادمة مع الأمير علي بن راشد من الأندلس. هناك من تحدث عن قدوم ثمانين أسرة أندلسية في هذه الهجرة الأولى، غير أن الروايات التاريخية الموثوق في صحتها تظل نادرة في هذا الصدد. إنما تعلق الأمر بتوثيق رواية شفوية كانت سائدة في الأوساط المحلية مرتبطة بهذا الموضوع، بدون تمحيص أو تحليل تاريخين.

توافدت على مدينة شفشاون هجرات أندلسية متعددة، استقر بعضها بهذه الحاضرة وأسسوا فيها أحياء لهم، ومنه من آثر الاستقرار بالمناطق القروية المترامية الأطراف لهذه المدينة. فهذا المجال الجغرافي القروي والجبلي بامتياز، يغري على استيطانه نظرا لوفرة

الموارد الطبيعية: المنابع المائية، الغطاء النباتي والغابات التي يمكن استغلال خيراتها لأغراض متعددة كالرعي مثلا، ثم السهول الضيقة المحاذية للوديان التي تستغل لأغراض زراعية معيشية.

عملت هذه الهجرات الأندلسية المتتالية على بناء أحياء سكنية خاصة بها، محاطة بالسور، عملا بالتقاليد العمرانية الشائعة في الأندلس، خصوصا بين أحياء غرناطة العربية. فهذه الأسوار والتي لا تزال بعض آثارها بادية لحد اليوم، لم تكن يوما أسوارا داخلية كما قد يظن البعض، و إنما هي أسوار كانت خاصة بالأحياء التي كانت تحيط بها.

2ـ3ـ الأحياء ذات العناصر القروية الجبلية: الخرازين

لم يكن من المعقول أن ينأى جيران المدينة من القرويين عن الإستيطان بها، لأنها بكل بساطة الحاضرة الوحيدة في هذا المجال الجغرافي الجبلي الواسع، والذي يستحيل التخيل فيه أحيانا وجود رقعة حضرية به. ونظرا لمعرفتهم المتميزة بالمدينة، نتيجة تكرار زياراتهم لها في العديد من المناسبات، فلقد بادر العديد من هؤلاء القرويين من سكان القبائل المجاورة إلى الاستقرار بها، خصوصا قبيلة الأخماس وغمارة، وذلك بتعمير حي الخرازين الذي شكل القبلة المفضلة لهؤلاء.

كانت أغلب هذه العناصر تمتهن حرفا يدوية ومهنا شاقة مثل الخرازة و الدباغة والنسيج والبناء. كما كانت تربطها علاقات طيبة بيد عاملة قروية تحمل إليها بعض المواد الخام: الخشب، الفحم، مواد البناء كالحجارة من نوع الكدان، إلخ. شكلت إذن هذه العناصر القروية قوة حرفية مهمة ويد عاملة مطلوبة في مجال الفلاحة. بل إن بعضها إلتحق ببعض المدن المغربية الأخرى كتطوان وفاس للعمل في مجالات حرفية معينة، خاصة النسيج والدباغة.

كما أن بعض الظروف التاريخية المضطربة و التي عرفتها قبيلة غمارة خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ساعدت على قدوم هؤلاء القرويين من سكان

منطقة جبالة، لتعمير مدينة شفشاون. نذكر من بين هذه الأحداث مثلا، مقتل الثائر أبي عبد الله محمد العربي الخمسي المعروف بأبي الصخور، على يد السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله سنة 1172هـ/1758م[10]. والشاهد أن قبيلة الأخماس تقع على مرمى حجر من مدينة شفشاون، بل إن حدود هذه القبيلة عرفت بعض التوسع أكثر من الانكماش بفعل النزاعات القبلية المتكررة، خلالي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. كما تشير المصادر التاريخية في هذا الشأن إلى إنزال السلطان لقائده على قبائل غمارة والأخماس ونواحيها بمدينة شفشاون، مما يؤكد على الدور المهم لهذه الحضارة الجبلية.

2ـ5. ملاح شفشاون دار حلول الأقليات اليهودية

لم يشكل صغر المساحة الجغرافية أو بلغة العصر محدودية الوعاء العقاري الذي يشغله النسيج العتيق لشفشاون، عائقا لاستقبال أعضاء هذه الطائفة، بل وتخصيص فضاءات مختلفة لإستقرارها، بحسب كثافتها السكانية مع الأخذ بعين الاعتبار مؤسسات لممارسة أنشطتها الاقتصادية. ولأن هذه الطائفة اليهودية التي عرفها المغرب ذات أصول مختلفة تنوعت بين المجموعة المحلية المعروفة بتوشقيم: البلديون، والمجموعة المهجرة من الأندلس المعروفة بكورشيم فالأستاذ شحلان يرى أن بعض العناصر اليهودية التي إستقرت بمدن شمال المغرب ، بما في ذلك شفشاون قدمت من الأندلس وحافظت على بعض تقاليدها وعلى لغتها القشتالية القديمة: اللادينو[11]. هذا لا يعني أن كل يهود شفشاون من أصول أندلسية، بل هناك عناصر قدمت مع إبن عم السلطان السعدي غداة إحتلاله للمدينة سنة 975هـ/1567م، وتوحيده للمغرب تحت لواء السعديين.

كان ملاح شفشاون يتوفر على بيعتين[12] وفرن تقليدي للخبز وعلى بعض الدكاكين لبيع منتجات مستوردة من مدن مغربية أخرى مثل السحن. يكفي أن نذكر بأن يهود

10. أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء السابع، تحقيق وتعليق: أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء، 2001، ص. 16.

11 . أحمد شحلان، «من مظاهر الحفاظ على التراث الحضاري الأندلسي لبعض الأسر اليهودية بالمغرب»، **مجلة التاريخ العربي**، العدد 58، مطبعة النجاح الجديدة، الدرالبيضاء، خريف 1432هـ/2011، ص. 231.

12. (G.S.) Colin, «Shafshāwan», E.I., T.IV, Ed. Brill & Klincksieck, Leyde. Paris, 1934, p.263.

شفشاون كانت تربطهم علاقات إجتماعية وإقتصادية قوية بنظرائهم بمدينتي تطوان وطنجة. بل إن شواهد قبور يهود شفشاون كانت تحيل في شكلها إلى تلك الخاصة بيهود تطوان، طنجة وأصيلا والقصر الكبير[13]. مما يعني أن شواهد قبور يهود شمال المغرب، ذوي أصول أندلسية، كانت تتميز بخصوصية معينة فيما يخص أشكالها مقارنة مع يهود باقي المغرب.

كما كان يهود شفشاون يشكلون فئة إقتصادية نشيطة في مجال الصياغة وصناعة أدوات الزراعة وبيع وإصلاح النعل والخرازة و صناعة السلل، وغيرها. كما اشتغلت زمرة منهم كعطارين يجوبون مداشر المنطقة.

2ـ6ـ مدينة شفشاون قبيل الحماية الإسبانية:

في بداية القرن العشرين، عانى المغرب من تمرد الثائر الجيلالي الزرهوني المعروف بأبي حمارة، والذي شمل العديد من المناطق الجبلية بشمال المغرب. فلقد إتخذ هذا الثائر من عدة مدن ومناطق مراكزا لإستجماع قواه من المناصرين له، نذكر من بين هذه المدن، مدينة تازة وقلعة تامسمان والتي إتخذها قاعدة لجمع الرجال والعتاد بالريف الشرقي. كان من الطبيعي أن يتقدم أبو حمارة إلى الريف الغربي لاستقطاب عناصر أخرى من أبناء هذه المنطقة. وبالفعل، نجح في ذالك عند دخوله شفشاون عبر تكليف بعض أبنائها: السمار ككاتب له، كما نجح في استقطاب محمد الصادق الريسوني (ت.1943) بجعله وزيرا له [14]. ولقد كلفت هذه التبعية بالثائر أبي حمارة ساكنة المدينة غاليا، إذ بعث السلطان مولاي عبد الحفيظ حركة مخزنية بقيادة بوشتى البغدادي لتأديب المدينة لخروجها على عصا الطاعة. وبالفعل، دخلت هذه القوات المخزنية إلى المدينة بهدف إعادة الأمور إلى نصابها ووضع حد لولاء بعض سكان المدينة لهذا الثائر.

13 . Gozalbes Busto (G.), «Convivencia judeo•morisca en el exilio», Espacio, Tiempo y Forma, Serie IV: Historia Moderna, T: VI, 1993, p. 89.

14 . خليفة (إدريس.)، الحركة العلمية و الثقافية بتطوان من الحماية إلى الإستقلال (1331-1376هـ/1912-1956م)، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1414هـ/1994م، ص. 546.

بمجرد خروج المدينة من أزمة أبي حمارة، دخلت في أخرى حيث باتت تابعة لنفوذ باشا جبالة: الشريف أحمد الريسوني (ت.1343هـ/1925) الذي حارب الإسبان تارة، وهادنهم تارة أخرى. وصارت شفشاون قلعة لتأديب وسجن كل العناصر الرافضة لهيمنته. مما أدى به إلى إعادة بناء سجن القصبة الأثري وتقوية دعائمه وسقفه[15]، كما أنه قد عمل على إصلاح البناية الداخلية لما عرف بدار المخزن، من أجل توفير إقامة مريحة لقائده المختار الهبطي[16].

في خضم الاختلاف الذي شهدته الساحة السياسية بشمال المغرب بين بعض رموزها: الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي (ت. 1963)، والشريف أحمد الريسوني (ت.1343هـ/1925)، وبعد استيلاء رجال محمد بن عبد الكريم على قرية تازروت الكائنة بقبيلة بني عروس، تم ترحيل عائلة أحمد الريسوني من مسقط رأسها بهذه القرية إلى مدينة شفشاون[17].

2ـ7ـ المدينة الكولونيالية لشفشاون: عاصمة إقليم غمارة العسكري

نظرا للصعوبات العسكرية الكثيرة التي واجهها الجيش الإسباني في احتلال مدينة شفشاون، والتي لم تكن ضمن حساباته الاستراتيجية، إرتأت الإدارة الإسبانية تخصيص هذه المنطقة بهذا الاعتبار الخاص. يكفي أن نذكر بأن وصول وحدات الجيش الإسباني، إلى الأطراف الشمالية-الغربية للمدينة، وبالضبط إلى قرية دار أقوباع، جاء متأخرا خريف سنة 1920. ففي الوقت الذي تم فيه الاحتلال المبكر لمدينة تطوان سنة 1913، استغرق وصول الكتائب العسكرية الإسبانية إلى مشارف مدينة شفشاون، بل ودخولها سبع سنوات.

بدخول الإسبان إلى مدينة شفشاون سنة 1920 من الباب المعروف بباب السوق، بادروا إلى وضع الكتائب الأولى للجيش الإسباني داخل القصبة الأثرية، باستغلالها كثكنة

15 . العربي اللوه، **المنهال في كفاح أبطال الشمال**، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى 1402هـ/1982، الطبعة الثانية 1430هـ/2009، تطوان.

16. (J.) De Lasquetti, *Chefchauen*. Información hecha el año 1918, Madrid, 1921, p. 30.

17 . اللوه، **المنهال في كفاح أبطال الشمال**، تطوان، ص. 129.

عسكرية تتسع للتجهيزات الحربية لهذه الوحدات. فلم تكن مدينة شفشاون تتوفر على تجهيزات حربية على النمط الأوروبي لإستيعاب هذا العدد الكبير من الجنود والضباط الإسبان، لهذا وجد الجيش الإسباني في القصبة الأثرية ذات المساحة الشاسعة أنذاك، مراده ولو بصفة مؤقتة. لقد بادروا إلى رفع علم الإستعمار الإسباني على البرج الكبير بالقصبة، إعلانا على بداية مرحلةتاريخية جديدة.

لم يكن احتلال مدينة شفشاون نهائيا، إذ لم يسمح بالتوسع العسكري الإسباني في المناطق الجبلية المجاورة والمستعصية في الوصول إليها، ومن ثمة السيطرة عليها. بل إن الإسبان وجدوا أنفسهم محاصرين بين أسوار هذه المدينة، بتهديدات عناصر المقاومة التي إتخذت من الجبال والكهوف معاقلا للقنص والضرب. فتأخر مرة أخرى إحتلال القرى النائية من المدينة.

عند فشل التقدم العسكري الأرضي على القبائل المجاورة، بدأت الإدارة الإسبانية في تغيير إستراتيجيتها العسكرية، بتوجيه ضربات جوية لهذه المناطق الجبلية، وذلك بقصفها بالطيران الحربي. وفي هذا السياق، استعملت الغازات الكيماوية بواسطة الطيران الإسباني لإجبار المقاومة المحلية على الاستسلام من جهة، وإجبار وقف الدعم الذي كانت تقدمه الساكنة لها.

غداة الإحتلال الثاني للمدينة سنة 1926، عمل الإسبان على بناء حي عسكري مجهز فقط بكل المؤسسات العسكرية الضرورية لمثل هذا الإقليم العسكري لغمارة ثم لشفشاون. وبعد انتهاء مسلسل الاحتلال لكل قرى ومداشر الإقليم في حدود سنة 1927[18]، عملت الإدارة الإسبانية على وضع تصميم عمراني مدني للحي الكولونيالي. وهكذا، تم وضع الأساس لبناء كنيسة القديس سان أنطونيو دي بادوا سنة 1936 لكنها هذا إلمشروع تأخر بسبب الحرب الأهلية الإسبانية، ليتم إفتتاحها في 8 مارس سنة 1940[19]. كما شرع الإسبان في تجهيز هذا الحي ببنايات أخرى كمسرح الملكة إيليزابيت،

18 . Anonyme, «Detalles de la ocupación de Bab Taza», *A.B.C.*, Madrid, 04/07/1927, p.15.

19 . (P. A.) Luengo Pérez, «Chauen: Fundación de la misión católica, notas históricas», *Mauritania*, Año XVI, Nº184,1 de Marzo de 1943, p. 61-63.

مدارس تعليمية، مؤسسات إدارية وبنكية كفرع بنك المغرب، محطة طرقية، مجزرة، والعديد من الحانات والمقاهي الليلية، إلخ.

3 ـ بعض المعالم الكبرى للمدينة:

تتميز المدينة العتيقة لشفشاون بوجود عدد كبير من المعالم التاريخية المختلفة بحكم ماهيتها وطبيعة بنائها والمهام المنوط القيام بها. فعمائر شفشاون متنوعة لأنها خصصت إما للعبادة كالمساجد والزوايا، وإما للخدمات الإقتصادية كالفنادق ودور الدباغة وأوراش النيالة (الدرازة)، وإما للخدمات العمومية كالحمامات والأفرنة التقليدية والسقايات.

3ـ1ـ المنبع الطبيعي لرأس الماء: هبة شفشاون

إذا كان النيل هبة مصر كما ذكرها المؤرخ الإغريقي هيرودت، فإن نبع رأس الماء يعد بحق هبة شفشاون، لأنه منحها الحياة والاستمرارية والتطور. فلقد شكل هذا المنبع المائي السببية والماهية لهذه الحاضرة والذي رسم لوجودها معنى. كما أنه خطط لتصميمها العمراني بشكل جميل يسمح بتزويد الأحياء الأولى للمدينة بمياهها. لقد تربع هذا المنبع على عرش هذه الحاضرة من الناحية الشمالية-الشرقية، ليتجاوز ماهيته الجغرافية كحوض مائي ويتحول إلى فضاء اجتماعي بامتياز، يجمع نسوة الأحياء العليا للمدينة لتنظيف ملابسهم، بل ولتبادل أطراف الحديث عن شجون الحياة الكثيرة.

تتميز مياه هذا المنبع بالحلاوة والعذوبة والخفة، وكل مميزات المنابع الجبلية. إنه العذب الفرات والذي يستحيل على سكان شفشاون كما زوارها شربها ولو مرة للوقوف على حلاوة الطعم الجبلي النادرة.

لم يكن منبع رأس الماء الرافد الوحيد للمدينة، بل هناك منابع خارجية أخرى كعين تيسملال وأخرى داخلية كعين السويقة وأبي خنشة، التي تحولت إلى أسبلة وسقايات عمومية. ساهمت هذه الأخيرة في إثراء المشهد العمراني للمدينة العتيقة، بل وفي تكريس دورها الرئيس: إرواء ظمأ المارة والسياح.

3ـ2ـ الساحة العمومية الكبرى وطاء الحمام، حيث اجتمع ما فرقته الظروف

إشتقت تسمية هذه الساحة من لفظ الوطاء الذي تتخذ منه فضاء لها من جهة، ومن وجود حمام البلاد، أول حمام تاريخي بالمدينة والذي يقع على مشارف هذه الساحة، من جهة أخرى. تتوسط هذه الساحة المدينة العتيقة سواء على المستوى الأفقي والعمودي، لأنها تشكل نقطة التقاء أحياء السويقة والصبانين من الجنوب، وريف الأندلس والخرازين من جهة الشمال.

يذكر شكل هذه الساحة تصميم الساحات العمومية التي تزين أحياء المدن الأندلسية مثل غرناطة، قرطبة، إشبيلية و غيرها. لم يكن التصميم الأندلسي الذي يغلب على هذه الساحة العمومية فقط، بل ماهيتها منذ التأسيس باعتبارها شكلت القلب النابض للمدينة، بحكم أهمية الأنشطة السوسيو-الإقتصادية والدينية التي تشهدها على طول السنة. إنها أكبر ساحة عمومية بالمدينة العتيقة، تتجاوز مساحتها 4000 متر مربع. كما أنها قطب المدينة التاريخي والسياحي بامتياز، باعتبار كل الطرق تؤدي إليها، بل وتفترق منها أيضا. لكن وظيفتها تغيرت بمرور الزمن، خصوصا بعد أن أصبحت شفشاون مركزا سياحيا من المستوى الثاني، فباتت فضاء سياحيا مهما تحتل المقاهي والمطاعم جل أرجائها، بدل الدكاكين والفنادق العتيقة التي شكلت في الماضي مركزها الحيوي.

وفي إطار مشروع تهيئة هذه الساحة، أعيد ترصيف أرضيتها بتصاميم متشابكة من أنواع مختلفة من الحجارة، كما تم إصلاح نافورتها الجملية بربطها بشبكة التيار الكهربائي لتقديم عروض من الإنارة الفنية بالليل، إلى جانب الاستمتاع برؤية مشاهد جميلة من الألعاب المائية نهارا.

3ـ3ـ المسجد الأعـظـم ومسجد أبي خنشة

يقع هذا المسجد محاذيا للقصبة الأثرية من الجهة الغربية، ولا يفصلهما سوى زقاق ضيق، يخصص بالأساس لمرور مواكب الجنائز إلى هذا المسجد، ودخوله من بوابة الجنائز إلى المسجد لأداء صلاة الميت. بني هذا المسجد من طرف ابن مؤسس المدينة: محمد

بن علي بن راشد (947-975هـ/1540-1569م) سنة 968هـ/1560م، وليس أباه مؤسس المدينة، كما قد يتخيل البعض. ولقد عرف هذا المسجد عدة عمليات توسيع وإصلاح، خاصة في الفترتين السعدية والعلوية، حيث إستغرق بناء الصومعة الحالية الثمانية الشكل سنتين ما بين 1256-1258هـ/1840-1842م[20].

يتوفر المسجد الأعظم على كل مكونات مركب ديني متكامل: قاعة كبيرة للصلاة، صحن مفتوح تتوسطه نافورة جميلة مخصصة للوضوء، قاعة للمنبر، مقصورة للإمام، ميضأة، مكتبة، صومعة ثمانية الشكل، مدرسة لتعليم العلوم الشرعية. ولقد خضع مصلى للنساء لتوسعة محدودة في إطار عملية الترميم التي عرفها المسجد خلال سنتي2006-2007، بالإضافة إلى تقوية أركانه وبلاطاته الموازية لحائط القبلة وكذا الصومعة.

يخلو المسجد الأعظم من الأشكال الزخرفية، ماعدا تلك التي تزين حائط القبلة، وبالخصوص واجهة المحراب. كما تمثل الصومعة الثمانية الأبعاد المرتكزة على قاعدة رباعية الشكل، تمثل نموذجا جميلا ومتناسقا من الصوامع المغربية، والتي يشكل فيها الزليج نسبة محدودة من مواد الزينة، في حين يرسم الأجور المطبوخ فضاءات متناسقة من حيث المساحة، لكنها مختلفة من حيث الأشكال الزخرفية كالنباتية: التوريق، والهندسية: التسطير.

لم يكن المسجد الأعظم المعلمة التاريخية الوحيدة التي شهدت عملية ترميم شاملة خلال هذه العشرية الثانية من هذا القرن، بل إننا نشهد خلال هاتين السنتين 2012-2013 عملية ترميم **مسجد أبي خنشة**. يقع هذا المسجد بحي الخرازين، أحد أهم الأحياء بالنسيج العتيق للمدينة. يتميز هذا المسجد بصومعة مربعة الشكل، مبنية من الحجر المصقول المحلي من صنف الكدان ونوع من الخليط المصنوع من التراب والجير. لاتحمل هذه الصومعة كسوة من الزليج التقليدي والتي غالبا ما تبرز على شكل شرفات.

20 . **الحوالة الحبسية للمسجد الأعظم**، الجزء الأول، نظارة أوقاف شفشاون، بدون تاريخ، بدون صفحة.

على غرار المسجد الأعظم، عرف مصلى مسجد الخرازين توسعة مهمة، مع تخصيص بوابة خاصة للنساء، بدل مشاركة الرجال نفس المدخل. شكل هذا التدخل اجتهادا مهما بالمهندس المعماري المكلف بمشروع الترميم الأستاذ عبد الرحمان التليدي. أفتحت هذه المعلمة الدينية للصلاة في شهر رمضان للسنة 1443هـ/2013.

3ـ 4ـ الفندق الكبير أو فندق شفيشو

حاليا، تنسب الرواية الشفوية المحلية هذا الفندق إلى أسرة شفيشو والتي لا يزال أحد عناصرها بتسيير هذا المرفق. عرف فندق شفيشو بالفندق الكبير نظرا لكبر مساحته مقارنة مع باقي الفنادق التقليدية الأخرى. إذ تبلغ مساحته تقريبا 596 متر مربع على المستوى الأرضي، تتوزع على ما ينيف خمسين حجرة. يقع هذا الفندق عند محور تقاطع ساحة وطاء الحمام وزنقة الترغي الكائنة جنوب حي ريف الأندلس. لازال الحرفيون القائمون بهذا الفندق يقاومون في صمت في الإبقاء على ماهية هذه البناية، وذلك بمزاولة بعض أنشطتهم الحرفية كصنع ما يعرف محليا «بالبرادع» الخاصة بالبهائم والنقش على الخشب والحدادة التقليدية المرتبطة بالزراعة المعيشية ورعي الماعز.

3ـ 5ـ الفرن التقليدي للسيدة الحرة

ينسب هذا الفرن التقليدي للخبز إلى السيدة الحرة، ابنة مؤسس المدينة، لكن هذا لا يعني أنها من بنته، إذ لا نتوفر على رواية تاريخية مضبوطة ومؤرخة لهذا الأمر. لكن الرواية الشفوية المحلية تؤكد على أن هذا الفرن هو الأول من نوعه، إذ يقع على حدود حي السويقة، والذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن الخامس عشر الميلادي. يمثل هذا الفرن التقليدي النموذج السائد لمثل هذه البنايات المكونة أساسا من غرفة يحتل بيت النار فيها الجزء الأكبر من مساحتها، إلى جانب ألواح خشبية بسيطة تصلح كدولاب مفتوح لوضع ما يعرف بألواح الخبز قبل الطبخ وبعده. يشرف هذا الفرن على الشارع ببوابة صغيرة بالكاد تضيء داخل الفرن.

يتوسط هذا الفرن تقاطع طرق نشيط ومهم من حيث السير والجولان، إذ يقع في منتصف المسار السياحي الحالي الرابط بين باب العين وساحة وطاء الحمام. فهذا الفرن ما زال يشكل محطة وقوف الأفواج السياحية الوطنية والأجنبية والتي تريد الاطلاع عن كثب على مهنة الخباز التقليدي.

كانت التقاليد المعمارية المحلية تقضي ببناء أسقف مزدوجة الميلان ومغطاة بالقرميد الأحمر لمثل هذا النوع من العمارة العمومية، وذلك لتفادي التسربات المطرية إلى بيت النار، بل ولكل مكونات الفرن.

3ـ 6ـ أرحية الدقيق والزيت

ذكرت أولى التقارير العسكرية الإسبانية لأحد ضباط الجيش الإسباني، قبيل إحتلال المدينة سنة 1920، وجود واحد وعشرين رحى الدقيق المائية وثلاثة عشر رحى طحن الزيتون[21]. ولعل وجود هذا العدد المهم من هذه الرحى يؤكد على وجود حركية إقتصادية مهمة على المستوى المحلي. نصبت هذه الأرحية على طول وادي شفشاون، أو ما يعرف الآن برأس الماء، حيث صبيب الماء قويا بالشكل الذي يسمح بمثل هذه الأنشطة الإقتصادية. فلقد عرفت ساكنة المدينة إستغلال ثرواتها المحلية بطرق متطورة أنذاك، فتوظيف القوة المائية في طحن مختلف أنواع الحبوب وبعض القطاني ساهم في تحقيق إكتفاء ذاتي قوي في توفير مثل هذه المواد الأولية الحبوب كالقمح الصلب والذرة بنوعيها (التركية والهرونية) والشعير والقطاني، كما ساهم في خلق فرص شغل بصفة دائمة للعديد من الأيدي العاملة المحلية.

4ـ الحضور الثقافي الأندلسي بمدينة شفشاون

1.4. الأصول التاريخية لهذا التأثير الأندلسي:

بالنسبة لأسرة بني راشد التي إتخذت من مدينة شفشاون عاصمة لإمارتها الفتية، فلقد ظهر تأثر هؤلاء بالثقافة الأندلسية على عدة مستويات. يكفي بأن نذكر أولا بجواز

21. (J.) De Lasquetit, *Chefchauen*. Información hecha el año 1918, Madrid, 1921, p. 22.

علي بن راشد إلى الأندلس في حدود 864 سنة هـ/1460م. وهناك التحق ببلاط الأمير محمد الصغير، آخر أمراء غرناطة، لاكتساب الخبرة العسكرية في جهاده ضد النصارى.

الأمر الثاني الذي كرس التأثير الأندلسي على شخصية علي بن راشد زواجه بشابة مسيحية أندلسية من مدينة بخير دي لا فرونطيرا (إقليم قادس حاليا). اعتنقت الإسلام لتحمل اسم للا الزهرة. كان لهذه الأميرة شقيقا فارسا محنكا عرفه المؤرخ البرتغالي رودريگيز «بمارتينو إليش»، المشتق من الإسم المسيحي مارتين فرنانديش. حينما اعتنق هذا الأخير الإسلام على غرار أخته، لقب بعلي فرناندو. وهكذا، أناط به إبراهيم بن علي بن راشد مهمة قائد جبل الحبيب، بمعية كتيبة عسكرية بلغت عدد عناصرها خمسين فارسا. لكنه، سيتخلى عن هذا الأمر ليستقر بمدينة شفشاون. تجدر الإشارة إلى أن هناك العديد من المؤرخين الذين ينسبون واد مارتيل الكائن بتطوان إلى هذا الفارس الشجاع.

وفي نفس السياق، شكل استقرار مجموعة من الهجرات الأندلسية لبناء أحياء خاصة بها في المدينة العتيقة لشفشاون، وتحت إشراف مباشر لأمراء بني راشد، إحدى الأمور التي رسخت الـتأثيرات الأندلسية في المجتمع الشفشاوني الفتي آنذاك. ومن بين الأحياء المنسوبة إلى هؤلاء الأندلسيين: السويقة، ريف الأندلس، العنصر (لقربه من عنصر رأس الما)، الصبانين وباب السوق. فلقد حملت هذه الأسر الأندلسية والموريسكية قبل سقوط غرناطة سنة 1492م وإلى حدود 1609م حرفها اليدوية ومعارفها الفكرية إلى هذه الحاضرة.

4ـ 2ـ العناصر الأندلسية المستقرة بالمدينة و بالقبائل المجاورة:

على غرار بعض مدن شمال المغرب، عرفت مدينة شفشاون استقرار بعض الأسر الأندلسية التي إن كانت محدودة في العدد، مقارنة مع مدن مغربية أخرى، إلا أنها ساهمت في خلق دينامية جديدة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

قبل الحديث عن التراث الثقافي لا مادي الذي حملته معها هذه العوائل الأندلسية إلى شفشاون، يجدر بنا ذكر أسماء بعضها والتي تحمل نفس الأصول لأسر إستقرت ببعض المدن المغربية: فاس، تطوان، الرباط، إلخ. من بين هذه الأسماء، نذكر على سبيل المثال: مورسيا، الكراسي، الحضري، الكوطيط، الأندرشي، الرندي، الردندو، المالقي، النالي، أجانا، الأندلسي، امفرج، عدرون، البناينو، قشتول، الغرناطي، الغراندي، بوعسل، بيصة، بن قلو، الهراس، الشلي، بوقرنة، مرزوق، خيرون، حيون، إلخ.

4ـ 3ـ الموسيقى الأندلسية:

تحتل الموسيقى الأندلسية أو ما يعرف عند المغاربة بموسيقى الآلة مقدمة المعارف الثقافية غير مادية التي حفظتها الأسر الأندلسية بالعناية والاهتمام، بما في ذلك تلك الشفشاونية الموطن. فمنذ قرون خلت، احتضنت زوايا حاضرة شفشاون (مولاي علي شقور، مولاي الحاج الشريف المحسوبة على الشرفاء العلميين، الدرقاوية)، الموروث الغنائي الأندلسي بالحفظ والرعاية والاهتمام، مخافة الاندثار. حفظت هذه المؤسسات الدينية إذن على هذا الموروث الشفوي في صدور أبنائها وتغنت به في احتفالاتها الدينية والاجتماعية، بل وشكلت بحق معاهد موسيقية كلاسيكية. حافظت على هذا التراث لا مادي، عبر زمرة من فقرائها الذين كانوا يتقنون مجموعة مهمة من الصنائع الأندلسية خلال إحيائهم للعديد من الأمسيات. شكل حفظ القصائد إلى جانب العزف على بعض الآلات مثل الرباب، العود، الدربوكة، الدف والكمان أولى مبادئ تعلم موسيقى الآلة.

وقد تكونت بهذه الزوايا أولى الأجواق المحلية للموسيقى الأندلسية التي برز من بين عناصرها عازفون مهرة سرعان ما التحقوا ببعض الأجواق الموسيقية الوطنية والجهوية بمدن الرباط، تطوان، طنجة، إلخ.

وإيمانا منها بضرورة مواصلة مشوار المحافظة ورد الاعتبار لكل ما هو مغربي أصيل وجميل، دأبت وزارة الثقافة منذ عقود على تنظيم مهرجان الموسيقى الأندلسية بمدينة شفشاون للإحتفاء بالتراث الموسيقي المغربي الأندلسي، بل وببعض رموزه المحلية، عبر

تكريم عدد مهم من هذه الأسماء المعروفة في موسيقى الآلة. وهكذا، شكل حضور أجواق للموسيقى الأندلسية من حواضر كبيرة، على غرار فاس، الرباط، تطوان، طنجة، مكناس، الدار البيضاء، شكل مناسبة مهمة لإثراء التواصل الروحي الأندلسي بين أجواق هذه المدن من جهة، مع إمتاع الآذان الصاغية والتواقة محليا لسماع بعض النوبات الأندلسية من مناطق أخرى.

وخلال السنوات الأخيرة، باتت وزارة الثقافة المغربية تنفتح على الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، بدعوة فرق أندلسية لموسيقى الفلامينكو للمشاركة والتأكيد على أن الموسيقى الأندلسية وموسيقى الفلامينكو وجهان لعملة واحدة: أندلس عربية شهدت أوج تقدمها الحضاري بوجود العرب والمسلمين لأزيد من سبعة قرون. تشهد أواخر شهر يونيو من كل سنة تنظيم ملتقى الأندلسيات في احتفالية أندلسية بهيجة ورائعة تسعى وزارة الثقافة للحفاظ عليها ضمن سلسلة مهرجاناتها السنوية.

4ـ 4ـ التأثير المعماري الأندلسي:

من الناحية المعمارية، دأب بناة مساجد شفشاون في تزيين صحونها بغرس الأشجار، خاصة شجر الأرنج، و ذلك تبعا لمذهب الأوزاعي ولعمل قرطبة وأهلها الذي كان له نفوذ قوي لدى فقهاء المغرب[22]. ولازال المسجد الأعظم بمدينة شفشاون العتيقة يحتفظ بواحدة من هذه الغروس. في حين فقد مسجد أبي خنشة الكائن بحي الخرازين هذه الميزة أثناء أعمال توسعته سنة 1951.

كما سعى بناة هذه المساجد إلى استعمال بعض مواد البناء المتداولة في العدوة الأخرى كالقرميد الأحمر بالنسبة للأسطح والخشب المصبوغ والمزخرف بالنسبة للأسقف الخشبية والأبواب الداخلية وكراسي الأئمة والثريات ومنابر الخطباء بهذه المعالم الدينية. تجدر الإشارة إلى أن أهم ثريات المسجد الأعظم بشفشاون مصنوعة من أجود الأخشاب

22. عمربن عبد الكريم الجيدي، **العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومهما لدى علماء المغرب**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1982، ص.373.

المحلية المصبوغة بأشكال زخرفية نباتية جميلة ومتناسقة، يغلب عليها التماثلية والتوازن في الأبعاد والمساحة. كما نجد بعض أضرحة وزوايا المدينة العتيقة مزينة بقباب خشبية كبيرة غاية في الإتقان، تغطي فناءات دور العبادة هاته. ونذكر من بين هذه القباب الرائعة تلك المتواجدة بكل من زاوية مولاي علي شقور والزاوية التيجانية وضريحي علي بن راشد وسيدي أحمد الوافي.

لم تكن العمارة الدينية الوحيدة من نوعها التي استأثرت بالحفاظ على مظاهر العمارة الأندلسية، بل إن عمارة البيوتات العتيقة تميزت هي الأخرى بوجود بعض ملامح الفن الأندلسي، على مستوى التصميم العام لهذه المنازل المزدانة بالفناء الداخلي، أشكال الأقواس والنوافذ والأسقف الخشبية المائلة، ناهيك عن وجود الرحى اليدوية والتي غالبا ما توضع بزاوية وراء البوابة الرئيسية للمنزل لاستعمالها لطحن كميات محدودة من الحبوب وبالخصوص القطاني.

4ـ 5ـ التأثيرات في مجال فنون المائدة:

حافظت المائدة المحلية على بعض الملامح الأندلسية الأصيلة، من قبيل الإستعمال القوي التوابل والأباريز وزيت الزيتون والتين والثوم والبقول والعسل، وغيرها من المواد الأولية. كما تحافظ النسوة الشفشاونيات مثلا على إعداد وصفة أندلسية تعرف محليا بالشوية، تتكون من قطع اللحم الصغيرة المطبوخ في مرق لذيذ. إن مثل هذه الأطعمة المحلية غالبا ما تحضر بمناسبة عيد الأضحى أو العقيقة. لهذا، يختلف الطبيخ باختلاف المناسبات الاجتماعية والدينية، كمراسيم الزواج، والعقيقة، والختان وعيد الأضحى. ولتقديم صورة كاملة عن مكونات المائدة الشفشاونية أولا من أجل إبراز التنوع الذي عرفته، ثم الوقوف على بعض ملامح التأثير الأندلسي ثانيا، وأخيرا إبراز الدور التفاعلي الناجح بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط في مجال التراث لا مادي، خصصت مقالا لتيمة المائدة الشفشاونية.

لقد نحجت المائدة الشفشاونية البسيطة في وصفاتها والصحية في مقاديرها بمعية ثلاث مدن متوسطية أخرى: صورية الإسبانية، شيلنتو الإيطالية وكورونا اليونانية، في تمثيل حوض البحر الأبيض المتوسط خير تمثيل بتصنيف موائد هذه المدن المتوسطية كنموذج للتراث العالمي لامادي في مجال الحمية المتوسطية.

5ـ علائق شفشاون بجيرانها جبالة من قبائل الأخماس وغمارة وغزاوة

ساهمت الاتحاديات القبلية المكونة للمجال الجغرافي لشفشاون: الأخماس، غمارة، غزاوة وصنهاجة السراير الممثلة في بني أحمد، ساهمت هذه القبائل الكبرى في رسم خريطة قبلية متنوعة شكلت أحيانا إحدى مصادر القوة، وأحيانا أخرى إحدى نقط الضعف حينما يتعلق الأمر بصراعاتها المتكررة للاستحواذ على مصادر الثروة: المنابع المائية، مناطق الرعي الغابوية والأراضي النادرة الصالحة للزراعة.

شكل التبادل التجاري حجر الأساس في العلاقات التي ربطت شفشاون بجيرانها من سكان جبالة، خصوصا قبائل الأخماس وغمارة وغزاوة. فالسوق الأسبوعي الذي كانت تشهده المدينة يومي الجمعة والإثنين، ثم تحول ليومي الخميس والاثنين، شكل المجال الإقتصادي الذي يقوي الروابط الإجتماعية بين سكان المدينة ومجالها القروي. فالسوق ليس فضاء إقتصاديا خالصا يجمع بين طرفي هذه المعادلة، أي بين البائع والزبون لفترة محددة، غالبا ما تكون قصيرة. بل إنه مجال يفوق ماهيته الاقتصادية الصرفة، ليصبح بمثابة موعدا متعارف عليه ومتفق عليه لإبرام العديد من الصفقات الكبرى والمتوسطة، بل ولتتميم عقود الزواج في كثير من الأحيان.

شكلت التبادل التجاري بين مدن شمال المغرب، مرورا بشفشاون للذهاب إلى فاس جنوبا وتطوان شمالا، أهم المهن الاقتصادية السائدة بالمدينة، مما جعلها تتوفر على بوابة خاصة لهذه القوافل التجارية، معروفة بباب الحمارة. وللأسف، قضى الاستعمار الإسباني على مثل هذه الأنشطة الاقتصادية، بتهديم هذا الباب التاريخي وطمس هذا النوع الأنماط التجارية.

لم تكن ساكنة هذه القبائل مجرد ممول للمدينة من المواد الخام في مجالات التجارة والصناعة التقليدية والبناء فقط، بل كان أبناء هذه القبائل الجبلية يمارسون مهاما صعبة، كحمل الأثقال والنيالة (الدرازة)، الخرازة، الزراعة كخماس، ورعي الأغنام.

خاتمـــة:

يبقى الإنطباع السائد لكل زائر لحاضرة شفشاون بأنها مدينة جبلية هادئة، لا تبرز خفاياها للوهلة الأولى، ولكنها في حقيقة الأمر ذات تاريخ عريق، زادته التضاريس الجغرافية خصوصية ثقافية مهمة، بحكم التنوع الديني لساكنة المدينة ما بين مسلمين ويهود. كما أن التعريب التدريجي لأمازيغ المنطقة منذ الفتح الإسلامي حتى الفترة الوسيطية، وما تزامن مع ذلك من استقبال هجرات أندلسية مختلفة وكذا بعض العائلات الإفريقية. كل هذه العناصر جعلت من هذه المدينة بوتقة حضرية وحيدة تقبل عليها كل العناصر الراغبة في المرور، كما في تعمير هذا المجال الجغرافي الشاسع والمتعدد الثروات الطبيعية.

وجاء تأسيس رباط شفشاون ليتوج تاريخ هذه الهجرات الإنسانية، ويجعل من هذه المدينة عاصمة لإمارة فتية محلية عرفت ببني راشد، وقلعة جبلية حافظت على دورها كفرع صغير للسلطة المركزية، المخزن، خصوصا على عهد الأسرتين السعدية والعلوية. لهذا، سعى ملوك هذا الأسرة إلى إيلائها الاهتمام المنوط بها لجعلها المركز الصغير والوحيد للسلطة في هذا المجال الجبلي الوعر والشاسع.

لم تكن إذن مدينة شفشاون حاضرة صغيرة كما قد يتبدى للبعض، وإنما كبيرة بحكم دورها الاستراتيجي في فضاء جهة جبالة-غمارة، ذي الميزات الثقافية والطبائع الجبلية والتأثيرات الأندلسية والحضور الشريف القوي. إنها حاضرة جبال الريف الغربي التي تختزل خمسة قرون من التاريخ الحافل بالمسرات والنكبات طبيعية كانت أو إنسانية، إلا أنها خلفت وراءها مدينة متنوعة على المستوى الثقافي.

البيبليوغرافيا:

1. المصادر التاريخية و الجغرافية:

ابن عسكر (محمد الحسني الشفشاوني)، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق حجي (محمد.)، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي بالدار البيضاء، مطبعة الكرامة، ط 3، 1424هـ/2003، الرباط.

القادري (محمد بن الطيب)، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني**، ج. 1، تحقيق: حجي (محمد)، التوفيق (أحمد)، مطبوعات دارالمغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم رقم 3، الرباط، 1397هـ/1977.

الكراسي (أبو عبد الله)، **عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل**،المطبعة الملكية، الرباط، 1383هـ/1963.

الناصري (أحمد بن خالد)، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء السابع، تحقيق وتعليق: الناصري (أحمد.)، منشورات وزارة الثقافة والإتصال، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء، 2001.

كربخال (مارمول)، **إفـريـقـيا**، الجزء الثاني، ترجمة: حجي (محمد.)، زنيبر (محمد.)، الأخضر (محمد.)، التوفيق (أحمد.)، بنجلون (أحمد.)، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة ودار نشر المعرفة، الرباط، 1409هـ/1989.

Léon L'Africain (J.), *Description de l'Afrique*, T: I, Trad. Épaulard (A.), Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, N° LXI, Ed. Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve, Paris.

2 ـ المـراجـع:

أبو عسل (محمد)، **ذاكرة مدينة شفشاون: وقائع ومرويات**، منشورات مرسم، مطبعة بورقراق، الرباط، 2008.

ابن عزوز حكيم (محمد)، **مولاي علي ابن راشد، مؤسس شفشاون**، الجزء الأول من تاريخ شفشاون، مطابع الشويخ، تطوان، 1999.

خليفة (إدريس)، **الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال (1331-1376هـ/1912-1956م)**، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1414هـ/1994م.

الجيدي (عمربن عبد الكريم)، **العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومهما لدى علماء المغرب**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1982.

السبتي (عبد الأحد)، فرحات (حليمة.)، **المدينة في العصر الوسيط: قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي**، المركز الثقافي العربي، ط.1، الدار البيضاء، بيروت، 1994.

شحلان (أحمد)، «من مظاهر الحفاظ على التراث الحضاري الأندلسي لبعض الأسر اليهودية بالمغرب»، **مجلة التاريخ العربي**، العدد 58، مطبعة النجاح الجديدة، الدرالبيضاء، خريف 1432هـ/2011، ص.231.

اللوه (العربي)، **المنهال في كفاح أبطال الشمال**، الطبعة الأولى، 1402هـ/1982، الطبعة الثانية 1430هـ/2009، مطبعة الخليج العربي، تطوان.

المريني (العياشي)، **صور من التاريخ البطولي لمنطقة جبالة**، الجزء الأول، المطابع المغربية والدولية، طنجة، 1983.

الهبطي المواهبي (محمد)، **مفتون منسيون بغمارة وشفشاون**، الطبعة الأولى، القنيطرة، الطبعة الأولى 2000.

مواري (وويك)، **جغرافيا العولمة: قراءة في تحديات العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية**، ترجمة: منتاق (سعيد)، سلسلة عالم المعرفة، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ربيع الأول 1434هـ/فبراير 2013.

3 ـ Bibliographie en langues étrangères:

Anonyme, «Detalles de la ocupación de Bab Taza», *A.B.C.*, Madrid, 04/07/1927, p.15.

Arques (E.), «Xauen. La ciudad santa», *La Gaceta de África*, Madrid, 1936, p.139.

Assia (A), «La vanguardia en Xauen. Desde la ciudad sagrada», *La Vanguardia Española*, Jueves, 24 de noviembre 1955, Barcelona.

Capaz y Montes (F.), *Apuntes para la historia de la ciudad santa y misteriosa de Xauen*, Ed. Ulampia, Ceuta, 1928.

Colin (G-S.), «Shafshāwan», E.I., T.IV, Ed. Brill & Klincksieck, Leyde-Paris, 1934, p.263-265.

De Lasquetti (J.), *Chefchauen*. Información hecha el año 1918, Madrid, 1921.

De Reparaz (G.), «El estrecho de Gibraltar: Episodios principales de una tragedia histórica», *A.R.T.C.*, Epoca II, Año V, diciembre, Ceuta, 1929, p. 282.

Hoenbach (W.), Kolenda (J.), «Geschichte und Topographie einer Marokkanischen Stadt: Xauen», *Die Welt des Islam*, T. XVI, Ed. Brill, Leiden, 1975, p.104-165.

Gozalbes Busto (G.), «Datos sobre los hispano-judíos en el Norte de África: Contribución al estudio de la historia de Marruecos», *C.B.E.T.*, XIII-XIV, Imp. Minerva, Tetuán, 1976, p.114-148.

Gozalbes Busto (G.), «Ali Ben Rasid intenta ocupar Ceuta en 1490», *C.A.M.C.*, Año I, Nº III, Ayuntamiento de Ceuta, Concejalia de Cultura, Ceuta, 1988, p.69-74.

Losada de la Torre (J.), «Xauen, la ciudad sagrada y misteriosa, en la corazón de la cabila de Lajmas», *El Español*, Nº 37, 10 de Julio, Madrid, 1943, p.9.

Luengo Péres (P.A.), «Chauen: Fundación de la misión católica, notas históricas», *Mauritania*, Año XVI, Nº 184, 1 de Marzo de 1943, p.61-63.

Martin Rui (J.M.), Mrini (A.), *La medina de Chauen: Guía histórica y de patrimonio cultural*, Ed. Proyecto Axarchauen. Interreg III A España-Marruecos, Imp. San Pancracio, Frigiliana, 2007.

Mouliéras (A.), *Le Maroc inconnu: étude géographique et sociologique, Deuxième partie: Exploration des Djebala (Maroc Septentrional)*, Ed. Augustin Challamel, Paris, 1899.

Yebbur (A.), *Los Berrached de Chefchaouen y su significación en la historia del Marruecos Septentrional*, Alta Comisaría de España en Marruecos, Delegación de Educación y Cultura, Imprenta Cremados, Tetuán, 1953.

النسيج الحضري لمدينة آسفي خلال العصر الوسيط

سمير أيت أومغار-لوبنى زبير*
باحثان في التاريخ ـ مراكش

حظيت مدينة آسفي بعناية واهتمام مجموعة من الإخباريين والمؤرخين والباحثين في التاريخ زيادة على علماء الآثار، من أبرزهم أحمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج السُّلمي الذي وضع "تقييدًا عن آسفي"، أثناء إقامته بقبيلة أحمر لإقراء أبناء السلطان محمد بن عبد الرحمان[1859-1873م].[1] كما ألف ناظر الأحباس بالمدينة [ما بين 1918 و1920م] أحمد بن محمد الصبيحي السلاوي أربعة كتب صغيرة حول آسفي ومنطقة عبدة، هي: "باكورة الزبدة من تاريخ أسفي وعبدة"، و"الرحلة الأسفية أو نظارة الصبيحي بأسفي"، و"صلحاء أسفي وعبدة"، و"عيسى بن عمر وفظائعه"[2]. ليأتي

* نتوجه بجزيل الشكر إلى السيد سعيد الشمسي محافظ المتحف الوطني للخزف بآسفي، والسيد عز الدين كرا المدير الجهوي للثقافة بجهة الرباط سلا والقنيطرة، على مدهما يد المُساعدة أثناء إعداد هذا المقال.

1 . محمد بن أحمد الكانوني العبدي، **جواهر الكمال في تراجم الرجال** (الدار البيضاء: المطبعة العربية، 1937)، الجزء الأول، 53؛ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1960)، الجزء الأول، 43؛ ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**. تعريب عبد القادر الخلادي. سلسلة التاريخ 5 (الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977)، 263؛ محمد بنشريفة، "الفقيه الكانوني ومؤلفاته"، ضمن **أسفي، دراسات تاريخية وحضارية**. أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي، 25.23 يونيو 1988 (أسفي . الرباط: المجلس البلدي لمدينة أسفي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1989)، 187؛ خالد طحطح ومحمد بكور، **مؤرخون مغاربة في الفترة المعاصرة، النصف الثاني من القرن 19 والنصف الأول من القرن 20** (الرباط: منشورات أمل، 2016)، 70.

2. ابن سودة، **دليل**، الجزء الأول، 35؛ إبراهيم السولامي، **الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية 1912-1956**(الدار البيضاء: دار الثقافة، دون تاريخ)، 245.244؛ محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة 1790-1930.** سلسلة الدراسات البيبليوغرافية رقم 1 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989)، الجزء الثاني، 203؛ محمد الظريف، "كتابة تاريخ أسفي،" ضمن **تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**. إعداد محمد الأسعد. دفاتر دكالة عبدة رقم 1، سلسلة بحوث ودراسات (الدار البيضاء: منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، 2000)، 37.36؛ محمد حجي،

بعدهما محمد بن أحمد الكانوني العبدي الذي افتتح سلسلة تآليفه عن المدينة بكتابه الموسوم بـ "آسفي وما إليه قديما وحديثا،" فضلا عن كتب أخرى حول نُخب المدينة وصلحائها...، مثل "جواهر الكمال في تراجم الرجال"، و"الجواهر الصفية في تاريخ الديار الآسفية"، و"البدر اللائح والمتجر الرابح في مآثر آل أبي محمد صالح"، و"بيوتات آسفي ونواحيه"، و"علائق آسفي ومنطقتها بملوك المغرب"[3]. أما بالنسبة للباحثين الأوربيين، فقد خَصَّ البعض منهم مدينة أسفي بكُتب ومقالات علمية، اتسمت باشتغالها أساسًا على قضايا من الزمن البرتغالي[4]، دون أن ترقى إلى مُستوى الأعمال المونوغرافية التي كُرّست للحواضر المغربية الكبرى مثل الرباط وفاس ومراكش...[5]، وإذا كانت العوامل المفسّرة لهذا الإحجام عن تقديم محاولات تركيبية لتاريخ أسفي منذ البدايات غائبة عنا في الوقت الراهن، فلنا أن نفترض أن ندرة الإشارات المكتوبة إلى تاريخ المدينة خلال العصر الوسيط، فضلا عن تدمير الجنود البرتغاليين لمجموعة من المباني الإسلامية داخل أسوار المدينة وتشييدهم في بعض الحالات لمبانيهم الدينية والمدنية والعسكرية

"الصبيحي، أحمد،" **معلمة المغرب**، الجزء 16، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر (سلا: مطابع سلا، 2002)، 5488.5489؛ أحمد بن محمد الصبيحي السلاوي، **كتابات أحمد بن محمد الصبيحي السلاوي حول أسفي**. تحقيق وتعليق عبد الرحيم العطاوي، محمد الظريف، علال ركوگ والرحالي الرضواني. منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، 9 (الرباط: الرباط نيت، 2004).

3. ابن سودة، **دليل**، الجزء الأول، 27، 36، 67؛ بنشريفة، "الفقيه الكانوني،" 179.196؛ محمد السعيدي الرجراجي، **الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني، حياته وفكره ومؤلفاته**. منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر بأسفي (مراكش: دار وليلي للطباعة والنشر، 2000)، 213.307؛ الظريف، "كتابة"، 37؛ محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة 1930-1956**. سلسلة الدراسات البيبليوغرافية رقم 8 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002)، الجزء الثالث، 27، 40؛ علال ركوگ، "الكانوني، العبدي،"**معلمة المغرب**، الجزء 20، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر (سلا: مطابع سلا، 2004)، 6729.6731؛ طحطح وبكور، **مؤرخون مغاربة**، 216.221.

4. أنظر على سبيل المثال:

Pierre de Cenival, "La cathédrale portugaise de Safi", *Hespéris* IX, 1er trimestre (1929): 1-27; Durval Rui Pires de Lima, *História da dominação portuguêsa em Çafim (1506-1542)* (Lisboa: Imprensa Lucas, 1930); Joseph Goulven, *Safi au vieux temps des portugais*. Congresso da história da expansão portuguesa no mundo. 4a Secçaõ (Lisboa: Sociedade Nacional de Tipografia, 1938).

5 . Jacques Caillé, *La ville de Rabat jusqu'au Protectorat français. Histoire et archéologie.* 3 vols. Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, XLIV (Paris: Éditions d'art et d'histoire, 1949); Roger Le Tourneau, *Fès avant le protectorat (Étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman).* Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, XLV (Paris: Université de Paris, Faculté des Lettres, 1949); Gaston Deverdun, *Marrakech des origines à 1912*. 2 vols (Rabat: Éditions Techniques Nord-Africaines, 1959).

فوقها قد حال دون تحديد هؤلاء الباحثين لمعالم النسيج الحضري قبل الغزو البرتغالي، وجعلهم يقتصرون في الكثير من الحالات على تلك الإشارات السريعة إلى الماضي الإسلامي للمدينة. وهو ما حاول بعض الباحثين المغاربة تداركه منذ النصف الثاني من القرن العشرين من خلال تحقيق النصوص المخطوطة والبحث في المصادر غير المُباشرة عن أية إشارة من شأنها إضاءة تلك الحقبة من تاريخ أسفي، زيادة على إنجاز بعض الحفريات الأثرية، وتنظيم ندوات علمية حول تاريخ المدينة وأعلامها. ومن بين هؤلاء الباحثين نذكر على سبيل المثال: إبراهيم كريدية وعلال ركوگ وسعيد الشمسي وعز الدين كرا وياسر بنهيمة وحفيظ أوبراهيم وسعيد البهالي وحامد التريكي ومحمد بالوز ومحمد بن الشيخ ومحمد الظريف والطيب عمارة وعبد الرحيم العطاوي...

بناء على ما سبق، سنحاول في هذه الورقة تحديد مكونات النسيج الحضري لمدينة أسفي خلال العصر الوسيط اعتمادا على الإشارات المصدرية ونتائج حفريات الإنقاذ المنجزة بموقع لالة هنية الحمرية داخل المجال المُحاط بالسور الموحدي.

ميناء وعمَارَات وبَشر:

تجمع كافة الدراسات الحديثة على ظهور اسم أسفي أول مرة في المصادر المكتوبة خلال القرن 11م،[6] بعدما أوردها أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي في كتاب المسالك والممالك ضمن المحطات الساحلية التجارية المطلة على المحيط الأطلنطي، فهو يقول: "وتسير السُّفن من ساحل نول إلى وادي السوس ثلاثة أيام، ثم من وادي السوس إلى مرسى أمقدول وهو مرسى مشتى مأمون وهو ساحل بلاد السوس، ثم إلى مرسى قوز وهو رباط يُعمره الصالحون وهو ساحل أغمات، ثم إلى مرسى أسفي، إلى البيضاء وهو رأس جبل داخل في البحر، ثم إلى جزيرة فضالة وهو ساحل بلد تامسنى

6 . Henri Basset et Robert Ricard, "Asfi", in *Encyclopédie de l'Islam*. Nouvelle édition (Leyde-Paris: E.J. Brill . G. P. Maisonneuve, 1960), t. I, 709; Yassir Benhima, *Safi et son territoire. Une ville dans son espace au Maroc (11e-16e siècle)* (Paris: L'Harmattan, 2008), 87.

حليمة فرحات وحامد التريكي، "أسفي :المدينة والرباط في العصر الوسيط"، ضمن **أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ** (آسفي-الرباط: المجلس البلدي لمدينة آسفي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1990)، 6.

بلد برغواطة"[7]. وقد أثار صمتُ البكري بخصوص النسيج الحضري للمدينة استغراب الباحثين، مُبررين إياه بتجرد أسفي حينئذ من كل طابع حضري[8]، ولعل هذا [الصَّمت] ما جعل الكانوني يجزم بعدم وجود سُور لحماية المدينة رغم انتعاش العمارة بها زمن حُكم المرابطين على حد قوله، وعدم إقامة صلاة الجُمعة بها[9]، مُرجعًا الفضل في تسويرها وتشييد أركانها للدولة الموحدية[10]. وهو ما لا نستطيع تأكيده أو نفيه في الوقت الراهن، بسبب غياب الحفريات الأثرية التي من شأنها إلقاء مزيد من الضوء على هذه المرحلة من تاريخ المدينة، باستثناء حفريات الإنقاذ التي أنجزت ما بين شهري أكتوبر ونونبر 1994 بموقع لالة هنية الحمرية [على بعد 300 متر شمال المنطقة الكائنة خارج الأسوار البرتغالية للمدينة]، داخل فضاء مقبرة إسلامية توقف استعمالها منذ خمسينيات القرن العشرين، والتي كشفت عن كَم كبير من الخزفيات المُرابطية والمُوحدية من القرنين 11 و12م، أكدت وجود ورشات لإنتاج الخزف بأسفي منذ العهد المُرابطي على الأقل.[11]

7 . Abou-Obeid-El-Bekri, *L'Afrique septentrionale*. Texte arabe revu sur quatre manuscrits et publié par Le Baron William Mac Guckin de Slane (Alger: Imprimerie du Gouvernement, 1857), 86.

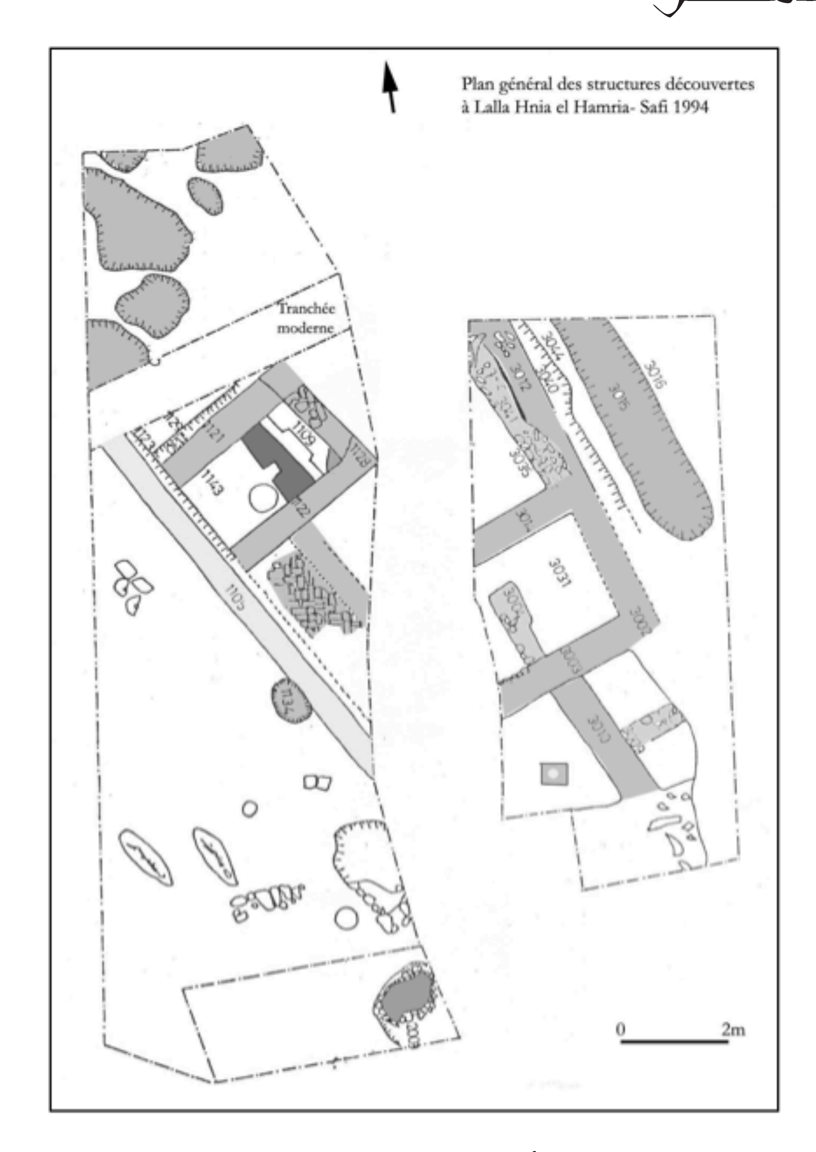
8 . Benhima, *Safi et son territoire*, 87.

9. محمد بن أحمد العبدي الكانوني، **آسفي وما إليه قديما وحديثا** (دون مكان النشر وتاريخه)، 79.

10. محمد بن أحمد العبدي الكانوني، **الجواهر الصفية في تاريخ الديار الآسفية**. دراسة وتحقيق علال ركوك ومحمد بالوز، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر بأسفي (الرباط: مطابع الرباط نت، 2015)، 16.

11 . Rachid Arharbi, *Fouille de sauvetage sur le site de Lalla Hnia El Hamria (Safi) (du 20 octobre au 30 novembre 1994). Note préliminaire*. Direction du Patrimoine Culturel, Rapport inédit; Azzeddine Karra, "*Recherches préliminaire sur l'histoire de la production céramique de Safi*" (Rabat: Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, 1995-1996), 13, 25; Mohamed Mohssine, "Safi: Les débuts d'une archéologie de sauvetage au Maroc", *Archéologia* (1995): 4; Abdallah Alaoui, Ahmed Saleh Ettahiri et Abdallah Fili, "L'archéologie islamique au Maroc, les acquis et les perspectives", in *Le Maroc médiéval, Un empire de l'Afrique à l'Espagne*. Yannick Lintz, Claire Déléry et Bulle Tuil Leonetti (eds.) (Paris: Louvre édition, Hazan, 2014), 46; Hamid Triki, "Safi: Un patrimoine historique négligé. Histoire d'un port atlantique entre les blessures du temps et l'impunité des hommes", in *Mémoire du futur. Safim-Safi, histoire d'une ville portuaire-carrefour de cultures*. Pour une inscription de la ville sur la liste du patrimoine mondial de l'UNESCO. Rapport, novembre 2015 (Évora: Département d'Architecture, Université d'Évora.CIDEHUS, 2015), 62; Abdallah Fili, "L'archéologie islamique au Maroc, les limites et les acquis", *Hespéris-Tamuda* LIV (2) (2019): 58; *Brochure du musée national de la céramique de Safi*.

بالإمكان مُعاينة نماذج من الخزفيات الوسيطة المرابطية والموحدية المُكتشفة بموقع لالة هنية الحمرية، في جناح العصر الوسيط بالمتحف الوطني للخزف بآسفي، وهي مُصنفة تحت الأرقام التالية: & MNCS 17.13 & MNCS 17.02 & MNCS 17.06 MNCS 17.03.



تصميم عام للبنيات المُكتشفة أثناء حفريات الإنقاذ بموقع لالة هنية الحمرية في مدينة أسفي سنة 1994

Arharbi, *Fouille de sauvetage*, 2 fig.1; Karra, "*Recherches*" fig.5 hors-texte.

بعد تلك الإشارة اليتيمة لدى البكري، وجب انتظار القرن 12م للحصول على معطيات إضافية بخصوص النسيج الحضري لمدينة أسفي. ومَرَدّ ذلك في اعتقادنا إلى ضياع جُل المصادر الإخبارية للدولة المُرابطية، باستثناء عدد قليل من كتب التراجم

والنوازل والدواوين الشعرية والرسائل الديوانية[12]. ومن بين أولى الإشارات للمدينة زمن حُكم الموحدين تلك التي أوردها الشريف الإدريسي في نزهته[13]، مُنبها فيها إلى كثافة التعمير واستقطاب المدينة لأعداد كبيرة من السُكان، فضلا عن الحركة التجارية النشيطة على مُستوى المَرسَى، فهو يقول: "ومرسى آسفي كان فيما سلف آخر مرسى تصل إليه المراكب، وأما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربع مجار. وآسفي عليه عمارات وبشر كثير من البرابر المُسَمِّين رجراجة وزودة وأخلاط من البرابر، والمراكب تحمل منه أوساقها في وقت السفر وسكون حركة البحر المظلم"[14]. كما أشار إلى المدينة في كتاب ثان له، مُحَددا المسافات الفاصلة بينها وبين المراسي الأساسية على الساحل الأطلنطي، فمِن "أنفا إلى مازيغن على البحر، خمسة وستون ميلا، ثم إلى مرسى أسفي خمسون ميلا، ومن أسفي إلى طرف الغيط مائة وخمسون ميلا."[15] لكنه لم يتحدث عن أي من المباني العمومية و/أو الخاصة التي احتضنتها المدينة وقتئذ بدليل حديثه عن "العمارات."

وعلى منواله، نقل أبو العباس العزفي في دعامة اليقين كرَامَة للشيخ أبي يعزى يلنور، تضمنت إشارة إلى نزوله من الجبال والبراري إلى السواحل مُستقبلا سَاحل آسفي من بلاد دكالة، حيث "عرض في طريقه بيوتهم ومنازلهم، وهي أخصاص"[16]. وهو ما اعتبره الباحثان حليمة فرحات وحامد التريكي "أقدم إشارة لجانب من جوانب الهيئة العمرانية زمن المرابطين"[17]، علمًا أن النص يتحدث عن العِمارة الخَاصة في مجال دكالة بشكل عام لا في مدينة آسفي وحدها، كما أن تشييد المنازل بالخشب أو القصب [الأخصاصُ، ج.

12. محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب، من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983)، الجزء الأول، 28-37.

13. علال ركوك، **أسفي من المرسى إلى الميناء، دراسة تاريخية خلال القرنين 19 و20** (الرباط: مطابع الرباط نت، 2014)، 11.

14 . Al-Idrisi, *Description de l'Afrique septentrionale et saharienne*. Texte arabe extrait du Kitab Nuzhat al-Muchtaq fi Ikhtiraq al-Afaq, d'après l'édition de Leyde [1866], par Reinhart Dozy et Jan de Goeje, publié par Henri Pérès. Col. Bibliothèque de l'Institut d'Études Supérieures Islamiques d'Alger, X (Alger: La Maison des Livres, 1957), 49.

15. الشريف الإدريسي السبتي، **أنس المُهج ورَوض الفرج. قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان**. تحقيق الوافي نوحي (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007)، 187.

16. أبو العباس العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**. تحقيق أحمد التوفيق (الرباط: مكتبة خدمة الطالب، 1989)، 61.

17. فرحات والتريكي، "أسفي"، 13، الإحالة 4.

خُصّ[18]] دليل على تعلق الأمر بالسكن القروي، زيادة على تصريح المُؤلف بمُشاهدة أبي يعزى لهذه المنازل في طريقه لا حين بُلوغه مدينة أسفي. أما بالنسبة لزمن الكرامة فمن الصعب حصره في العهد المُرابطي دون العهد المُوحدي الذي عاصره الشيخ أيضا.

عَدَا ذلك، تضمنت إحدى الرسائل الإخوانية لأبي المُطرف ابن عَميرة إشارة مهمة تفيد باستقطاب المدينة للمُهاجرين فرَادَى و/أو جَماعات زمن حكم الموحدين، وهو ما يدل على جاذبيتها وتوفرها على المرافق العمومية الأساسية مثل المساجد والحمامات والأسواق والسقايات. فقد استفسره أحد الفضلاء من مدينة مُرسية الأندلسية عن أنسب المُدن للمقام والهجرة بعدما استولى المسيحيون على بلده[19]، فأجابه عن سؤاله قائلا: "فأما ما ذَكَرَ من الارتياد، وأراد من الترجيح بين البلاد، فهذا مدىً رحب، والقول فيه صعب، إلا أني أقول إن هذا المكان [رباط الفتح] فيه لعمري مَرَافق، وأشياء توافق، وضواحيه مُلتقى ذِئب وقَسُور، ومَغارُ عربٍ وبربر، فالحارث بها في أشد عنت، والمُقيم كالمُسافر هو ومالهُ على قَلَت، وتجارةُ البلد ما بها بَاس، بل يعيشُ منها نَاس، والحرث فيما يلي هذا المكان كان يَسْهل، إلا أن مُؤَنتَه تثقل، ويُتحدَّث عن أسَفي أنها أخصبُ الأرجاء، وأقبلهَا للغُربَاء"[20]. وفضلا عن ذلك، عثر الباحثون في الأرشيف الجنوي على وثيقتين [عقدان تجاريان] تُشيران لأول مرة [على مُستوى الأرشيف الأوربي] إلى أسفي "*Saphin*". يعود العقد الأول إلى 14 مارس 1253م، وهو عبارة عن قراض[21] قيمته 200

18. يُعرف محمد بنشريفة الأخصاص بأنها «نوايل»، يُنظر: محمد بنشريفة، "الماجريون"، ضمن **أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ** (أسفي-الرباط: المجلس البلدي لمدينة أسفي . كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1990)، 32.

19. محمد بنشريفة، **أبو المُطرف أحمد بن عَميرة المخزومي، حياته وآثاره** (الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1966)، 196؛ محمد بن شريفة، "أسفي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين"، ضمن **تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**. إعداد محمد الأسعد. دفاتر دكالة عبدة رقم 1، سلسلة بحوث ودراسات (الدار البيضاء: منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، 2000)، 130-131؛ محمد بن شريفة، **الأعمال الكاملة لأبي المُطرِّف ابن عَميرة (ت. 658هـ). 1- السيرة**. سلسلة نوادر التراث 31 (الرباط: الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، 2018)، 287.

20. محمد بن شريفة، **الأعمال الكاملة لأبي المُطرِّف ابن عَميرة (ت. 658هـ). 2- الرسائل**. سلسلة نوادر التراث 31 (الرباط: الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، 2018)، الجزء الثاني، 579-580.

21. أنظر تعريف القراض لدى: محمد زنيبر، "بعض موانئ التجارة المغربية في العصر الوسيط"، ضمن **أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب** (الدار البيضاء: منشورات جامعة الحسن الثاني . عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989)، الجزء الثاني، 244؛ مصطفى نشاط، **جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ /1212م إلى سنة 759هـ /1358م. مساهمة في دراسة العلاقات الإيطالية المغربية أواخر العصر الوسيط** (الرباط: مطابع الرباط نت، 2014)، 221-222.

جنوفينو "*Genovino*" توصل بها كريمالدو "*Cristiane Crimaldo*" من مؤسسة مالية تابعة للكفرنو "*Guglielmo Lecavorno*". ويُشير هذا العقد إلى استهداف العملية التجارية مدينة أسفي، ومنها إلى حين يُريد الله أو يأمر الله. أما العقد الثاني، فهو مؤرخ بـ 28 أبريل من السنة نفسها، وهو بدوره قراض قدمه بنوزو "*Gugliemo Bonozo*" لمُواطِنه دُوريا "*Jacopo Doria*" وبلغت قيمته مئة لِيرة لاستثمارها في التجارة مع أسفي[22]. وهو ما يعكس أهمية أسفي كمدينة ساحلية نشيطة، نُرَجِّح توفرها زمن حكم المُوحدين على البنيات التحتية الضرورية لاستقبال السفن والتجار وتخزين البضائع وتسويقها داخل المدينة وخارجها.

وفي زمانه سُوِّرَت آسفي المحروسة:

سلفت الإشارة أعلاه إلى جزم الكانوني بغياب سُور لحماية المدينة زمن حُكم المرابطين،[23] مُؤكدًا نهوض الموحدين بهذه المهمة. وقد استند في قوله هذا على إشارة وردت لدى أحمد بن إبراهيم المَاجري في المنهاج الواضح، أثناء الترجمة لأبي محمد صالح، حيث قال: "وأما بلده فهو بلد آسفي المحروسة، وهي مسكنه وفي زمَانه سُورت"[24]. وبما أن ولادة الشيخ كانت سنة 1155م ووفاته سنة 33-1234م[25]، فإن تسوير المدينة سيكون قد تم ما بين مرحلة حُكم الخليفة الأول عبد المومن بن علي الكومي [1130-1163م] والخليفة العاشر عبد الواحد الرشيد بن إدريس المأمون [1232-1242م].

ورغم استحالة تعيين الخليفة الذي أمَرَ بتشييد السور، فقد رَجَّح الكانوني أن يكون "يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن بن علي الموحدي، لأن دولته كانت أواسط عمر الشيخ أبي محمد صالح من القرن السادس، ولأنه هو أغنى الموحدين بتحصين البلاد وضبط الثغور وبناء المساجد والمدارس وغيرها، وهو أعظمهم آثارًا"[26]. وهو ما رَجَّحَهُ

22. مصطفى نشاط، "الجنويون بأسفي من منتصف القرن 7هـ/13م إلى منتصف القرن 8هـ /14م،" ضمن **نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط** (وجدة: مكتب الطالب، 2005)، 153،154.

23. محمد بن أحمد العبدي الكانوني، **آسفي وما إليه قديما وحديثا** (دون مكان وتاريخ النشر)، 79.

24. أحمد بن إبراهيم الماجري، **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**. تحقيق عبد السلام السعيدي (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2013)، الجزء الأول، 305.

25 . Benhima, *Safi et son territoire*, 99.

26. محمد بن أحمد العبدي الكانوني، **الجواهر الصفية في تاريخ الديار الآسفية**. دراسة وتحقيق علال ركوك ومحمد بالوز، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر بأسفي (الرباط: مطابع الرباط نت، 2015)، 16.

أيضا عز الدين كرا وسعيد الشمسي[27]. لكن هناك من افترض تشييده في نهاية القرن 12م أو مطلع القرن 13م، في الوقت الذي شَرَعت فيه الدولة الموحدية بمجموعة من أشغال التحصين في كل من فاس والريف[28]، ففي سنة "إحدى وستمائة بنى يعيش عامل أمير المؤمنين الناصر الموحّد على بلاد الريف سور مدينة بَادِس وسور المَزمَّة وسور مَليلة خوفا عليهم من فجأة العدوّ النصراني"[29]. كما افترض ياسر بنهيمة ارتباط مشروع تسوير أسفي بالاضطرابات التي كانت تتسبب فيها القبائل العربية المُجاورة للمدينة منذ عهد الخليفة الناصر بن يعقوب المنصور[1199-1213م].[30]

ومن بين أهم الوثائق المُعتمدة للتعرف على هيئة السور الموحدي بعدما اختفت جُل معالمه، تلك الصورة المنشورة في كتاب كِيوِيتَاتِس أوربِيس تيرَّارُوم (*Civitates orbis terrarum*) [مُدن العَالم] للألماني جورج براون (*George Braun*) والهولندي فرانس هوغنبيرغ (*Frans Hogenberg*)، والمنشور في ستة أجزاء ما بين سنتي 1572 و1617م. فهي تُظهر سُورًا وسِيطيا يُحيط بالمدينة دون التل المُشرف عليها، أما بالنسبة لخط الساحل، فقد اقتصر التسوير فيه على الخليج الصغير المُكوَّن من شاطئ رملي صالح لرُسُو السفن، وهو ما استدعى حمايته، عكس القطاع الجنوبي الغربي من المدينة المُشيد فوق جُرف نِسبي التحَدُّر والمُرتفع عن مستوى سطح البحر بعشرات الأمتار، فقد تُرك دون سُور بسبب وضعيته الطبوغرافية المَحمية طبيعيا. كما وُجِدَت في القسم العلوي من المدينة [موضع دار السُّلطان حاليا] قصبة مغربية[31] مُستطيلة الشكل ومُدعمة بأربعة

27 . Azzedine Karra, "*Recherches sur l'architecture religieuse dans la médina de Safi*" (Mémoire de fin d'études du II^{ème} cycle, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine à Rabat, 1994-1995), 10.

سعيد الشمسي، "المعمار العسكري بآسفي بين النمط المغربي والطراز الأوربي،" **المناهل** 73-74 (2005): 224.

28 . Benhima, *Safi et son territoire*, 112.

29 . Anonyme, *Ad-dadīirat as-saniyya. Chronique anonyme des Mérinides*. Texte arabe publié par Mohammed Ben Cheneb. Publications de la faculté des lettres d'Alger, Bulletin de correspondance africaine, tome LVII (Alger: Ancienne maison Bastide-Jourdan, Jules Carbonel, 1921), 39.

30 . Benhima, *Safi et son territoire*, 112.

31. أكد المهدي شويرگات إطلاق اسم أشبار على القصبة أو الحصن الموحدي في مدينة أسفي، لكنه لم يُفصح عن المصادر التي اعتمدها في هذا الشأن. ويدل هذا الاسم الأمازيغي على مكان إطلاق النار سواء تعلق الأمر ببناية قارة، أو بمجرد متراس [من تراب أو حجارة] أو خندق ظرفي يتخندق خلفه الرامي في أرض المعركة، حسب المعلومات التي زودنا بها السيد محمد المدلاوي المنبهي، المتخصص في اللسانيات والباحث بالمعهد الجامعي للبحث العلمي. ينظر:

Mehdi Chouirgate, "Un palais en marche :le camp califal almohade," in *Las Navas de Tolosa, 1212-2012.*

أبراج على مُستوى زواياها الأربعة، لا شك أنها تحكمت في المسالك البرية المؤدية إلى المدينة، كما ساعدها موقعها فوق الرّبوة من استشراف كافة أطراف المدينة ومينائها.



مدينة أسفي خلال مطلع القرن 16م

Georg Braun et Frans Hogenberg, Tingis Lusitanis Tangiara; Tzaffin; Septa, date de publication 1645, Bibliothèque nationale de France, département Cartes et plans, GE DD-1605 (57).

Miradas cruzadas. Patrice Cressier et Vicente Salvatierra Cuenca (dir.) (Jaén: Universidad de Jaén, 2014), 6.

32. Pierre de Cénival, *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*. Première partie.dynastie sa'dienne, Archives et Bibliothèques de Portugal, tome I (juillet 1486-avril 1516). Publications de la section historique du Maroc (Paris: Paul Geuthner, 1934), 160; Benhima, *Safi et son territoire*, 116-7.

أحمد بوشرب ،**دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481- أكتوبر 1541)** (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1984)، 89؛ الشمسي، "المعمار العسكري،" 226، 237.

أما الرّبوَات الموجودة داخل المجال المُسَوّر في كل من الشمال والجنوب الشرقي، فقد خَلت من أي بناء، وهو ما دفع بالباحث بيير دُوسِينِيفال إلى ترجيح استخدامها كمقابر.[33]

وفضلا عما سبق، اشتملت مُراسلات السلطات البرتغالية بالمدينة بعد احتلالهم لها على إشارات مهمة إلى تدهور السُّور المُشيد بتقنية الطابية، إضافة إلى حديثها عن قصبة تُشرف على المدينة، رُبما شُيّدت مع السور في الوقت نفسه[34]. فلسان الدين بن الخطيب الذي زار المدينة خلال القرن 14م[35] لم يَصف هذه القصبة أثناء حديثه عن المدينة وأسوارها، مُكتفيا بالقول أن أسفي "لَبِنة التمام للمُسَوّرات بالمغرب، ليس وراءها مدينة جامعة، ولا محلّة مُسَوّرة"[36]. كما تضمنت رسالة رسمية من حَامية أسفي إلى البلاط الملكي البرتغالي إثر حِصار المدينة سنة 1510م من طرف القبائل المُجاورة، مجموعة من المعطيات الرقمية حول السور الوسيطي، يمكن تلخيصها في توفره على 83 بُرجا دون احتساب الأبراج الأربعة للقصبة، وامتداده على طول 2800 متر خَطي.[37] أما بالنسبة للأبواب، فمن الصعب حصر أعدادها وتوطينها بدقة على طول السور الوسيطي. فالمصادر الوحيدة المُعتمدة للتعرف على أسمائها ومواضعها بشكل تقريبي هي المصادر البرتغالية، والتي أتت على ذكر أسماء البعض منها، وهي: باب المدينة الغربية وباب أكوز وباب الخميس وباب الشعبة وباب المجاذيم وباب البحر[38]. قد يكون البعض

33. De Cénival, *Les sources inédites*, 161.

34 . Benhima, *Safi et son territoire*, 117.

35. فرحات والتريكي، "أسفي"، 7؛ الشمسي، "المعمار العسكري"، 224.

36. لسان الدين بن الخطيب، **نفاضة الجَراب في عُلالة الاغتراب**. نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1985)، 71.

37 . Benhima, *Safi et son territoire*, 117-8.

بوشرب ،**دكالة والاستعمار البرتغالي**، 89؛ بيدرو دياش، **البرتغاليون في المغرب، عمارة وعمران من 1415 إلى 1769**. ترجمة أحمد محفوظ، ساهم في الترجمة رشيد برهون وعبد الهادي الإدريسي (كويمبرا: دار غرافيكا، 2000)، 170؛ أبو القاسم الشبري، **دكالة وإيالتها. جهة دكالة عبدة: تاريخ وآثار** (الجديدة: بسمة برينت، 2012)، 55.

38 . De Cénival, *Les sources inédites*, 183-4, 273; Damião *de Góis, Les portugais au Maroc de 1495 à 1521. Extrait de la chronique du Roi D. Manuel de Portugal, traduit et commenté par Robert Ricard. Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, XXXI (Rabat: Éditions Félix Moncho, 1937), 61-3;* Benhima, *Safi et son territoire*, 118.

بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**، 89؛ الشمسي، "المعمار العسكري"، 235؛ الشبري، **دكالة وإيالتها**، 55.

منها مَرينيا، كما ذهب إلى ذلك عبد العزيز توري وعز الدين كرا، حيث رَجَّحَا أن يكون باب المدينة الغربية إضافة مرينية للسور الموحدي، بسبب تشييد المدينة التي مَنحت اسمها لهذا الباب زمن حُكم السلطان أبي عنان المريني[39]. وهو أمر غير مُستبعد، لكن وجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار قبل تبني هذه الفرضية إمكانية تغير أسماء الأبواب، وبالتالي احتمال منح أحد الأبواب الموحدية اسمًا جديدًا خلال العهد المريني، وهو أمر شائع في تاريخ المجالات الحضرية بالمغرب. كما أن هناك احتمالا لتطابق اسمين أو أكثر من الأسماء الواردة أعلاه مع باب واحد، كما هو الشأن بالنسبة لباب الخميس وباب أگوز الذين كانا قريبين من بعضهما البعض حسب المصادر البرتغالية، وهو أمر مُستبعد حسب ياسر بنهيمة بسبب حساسية المنطقة التي فُتح فيها البابان وصعوبة الدفاع عنها.[40]

ومن بين أولى المُحاولات لتحديد مسار السور المُوحدي/الوسيطي، تلك التي قام بها محمد بن أحمد الكانوني العبدي في مطلع القرن العشرين، فقد تتبع بقايا هذا السور بفضل تحرياته الميدانية الدقيقة، والتي سمحت بوضع تصور أولي لمساره، فهو يقول: "وسوروها بسور واسع، وهو الذي في غالب ظني توجد آثاره بأطراف البلد يبتدئ جنوبا من وسط تراب الصيني من زنقة القنيطرة وعليه أساس الدار التي تحت عدد 19، ويمر شمال المستشفى الأهلي، ثم يمر أمام رحى الريح الأثرية وعليه أساس الجدار القبلي من أوتيل كمبانية باكيت، ثم أمام القصبة العليا، ثم وسط بياضة شمالا من آسفي حتى يبلغ البحر في سمت قبة الولي سيدي أبيه من الشمال"[41]. وقد تلا هذه المحاولة بحث ميداني قام به كل من عبد العزيز توري وعز الدين كرا سنتي 2000 و2001م، مَكنهما من اكتشاف بعض الأجزاء المجهولة حينئذ من السور الموحدي. فقد عثرا أثناء ترميم الواجهة الغربية لسور المدينة المُطل على البحر سنة 2000م على أجزاء متقطعة من

39. عبد العزيز توري وعز الدين كرا، "الاحتلال البرتغالي وهاجس التحكم في المجال من خلال مقاربة أثرية لمدينتي آسفي وأزمور"، ضمن أعمال ندوة **الوجود البرتغالي في المغرب وآثاره**. سلسلة الندوات (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 2006)، 175.

40 . Benhima, *Safi et son territoire*, 118.

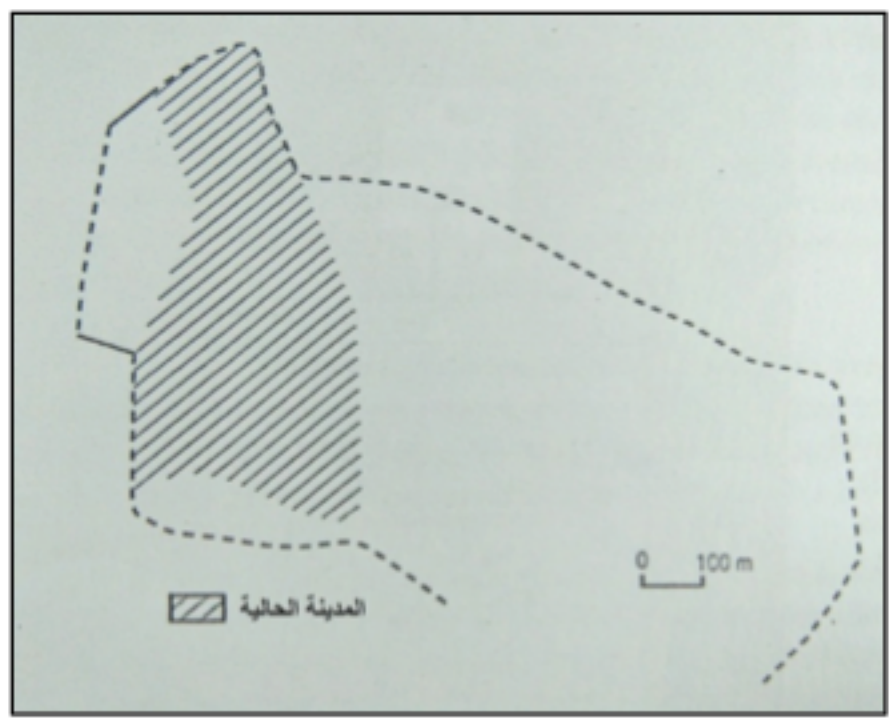
41. الكانوني ،**آسفي وما إليه**، 79. يُنظر أيضا: الكانوني، **الجواهر الصفية**، 16.

سور ترابي يمتد أسفل السور الحالي، إضافة إلى بقايا جُدران ترابية مكونة من نفس مواد البناء المكتشفة بالواجهة المذكورة، بالجانب الشمالي الشرقي للقصبة الحالية. وفي سنة 2001م، تمكنا أثناء معاينة إحدى الحُفر التي ظهرت أسفل السور البرتغالي الممتد من القصبة إلى برج خزنة البارود من اكتشاف جدار مُشيد بواسطة التراب والجير يمُر وسط السور ويفوق عرضه المتر الواحد، رجّحا أن يكون جزءا من السور الموحدي الذي استغله البرتغاليون لبناء حصنهم.[42]

وفي سنة 2008، أصدر ياسر بنهيمة أطروحته المُنجزة بجامعة ليون سنة 2003 حول "المجال والمجتمع القروي في المغرب الوسيط، الاستراتيجيات الترابية وبنيات السكن: جهة أسفي نموذجا"، والتي قدّم فيها وصفا للمقاطع المرئية المتبقية من السور الموحدي شمال السور البرتغالي الذي يحد المدينة الحالية. ويتميز المقطع الأول بتعامده مع الزاوية الشمالية الشرقية للقصبة البرتغالية، ويتجه في مساره صوب الشمال قبل تغييره صوب الخليج الصغير للمدينة. وهو جِدار مُشيد بالطابية يرتكز على قاعدة حجرية، ويبلغ ارتفاع كل وحدة من وحداته 0.65 متراً، تم تدعيمها على مستوى قسمها العلوي ببلاطات حجرية أو كتل كلسية مُمدّدة. أما المقطع الثاني فيوجد داخل الجدار الممتد من السور البرتغالي تجاه الشمال. وقد نتج عن الأشغال العمومية مطلع القرن العشرين [بُغية فتح ثلاثة أقواس] إزالة القاعدة السفلى للجدار المُشيدة بواسطة الطابية، باستثناء بعض القطع التي احتفظ بها، وهي شبيهة بعد مُعاينتها بالمقطع الأول سالف الذكر. ومن بين العناصر المُعتمدة لتأكيد تشييدها زمن حُكم الموحدين اكتشاف الباحث لشكل هندسي منقوش على الطلاء الجيري للجدار، يُشبه إلى حد كبير الأشكال الزخرفية الموجودة في بعض الأبواب المُوحدية الكبرى.[43]

42. توري وكرا، "الاحتلال البرتغالي"، 183.

43. Benhima, *Safi et son territoire*, 112.6.



المسار الافتراضي للسور الموحدي بمدينة أسفي حسب ياسر بنهيمة

Benhima, *Safi et son territoire*, 116 fig.14.

الجَامع الأعظم والرِّباط:

اشتملت مدينة أسفي مثل سائر المدن الإسلامية على مجموعة من المساجد إضافة إلى رباط أسَّسه الشيخ أبو محمد صالح بن ينصارن الماجري. وقد احتفظت المصادر العربية الوسيطية والبرتغالية أيضا بأسماء عدد من هذه المساجد، مثل جامع رابطة تامرنوت[44] وجامع القبور وجامع ناحية أورير وجامع باب الشعبة وجامع باب البحر والجامع الأعظم.[45] كما تضمنت صُورة المدينة في مطلع القرن 16م رسمًا لأربع صوامع

44. أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. تحقيق أحمد التوفيق، سلسلة بحوث ودراسات رقم 22 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997)، 433؛ الماجري، **المنهاج الواضح**، الجزء الثاني، 591؛ فرحات والتريكي، "أسفي"، 11.

45 . De Cénival, *Les sources inédites*, 183.4; Benhima, *Safi et son territoire*, 120.

فرحات والتريكي، "أسفي" 11، إبراهيم كريدية، **شذرات من تاريخ المسجد الأعظم بآسفي** (مراكش: دار وليلي للطباعة والنشر، 2005)، 20.

وسيطية، رَجَّحَ أحمد بوشرب تطابق الكبرى منها مع الجامع الأعظم، وتطابق الصومعة المتوسطة الارتفاع في القطاع الجنوبي الغربي مع جامع رباط أبو محمد صالح.[46]



الصوامع الوسيطية في مدينة أسفي مطلع القرن 16م

Braun et Hogenberg, *Tingis Lusitanis Tangiara; Tzaffin; Septa.*

أما بالنسبة لآثار هذه المساجد، فقد اختفت بسبب التخريب المُمنهج الذي تعرضت له عند احتلال البرتغاليين للمدينة[47]، وهو ما وثقه أهل أسفي في رسالة مُوجهة إلى الملك إيمانويل الأول بتاريخ 2 يوليوز 1509م، يخبرونه فيها بأن: "النصارى [اشتغلوا] بهدم جوامعنا وسرق حصورهم ودِفافهم فهدموا لنا جامع بالقبور ولم يبق فيه حيط واقفْ وكذالك زاوية لنا بإزايه يقال لها زاوية سيدي بو علي وجامعنا الكبير الأعظم الذي هو مَشهَرُ ديننا ترا رجالك فيها أيضا يبلون ويغيظون وجامع آخر لنا بباب الشعب أخذه عاملك ديوغ الدالزنبوج مع زوج ابيار من الماء هنالك للعامة قطع عليهم بحايط

46. بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**، 89.

47 . Karra, "*Recherches sur l'architecture*" 29, Yassir Benhima, "Les conséquences de l'occupation portugaise sur le peuplement de la région de Safi dans le Maroc du XVI^e siècle", in *Du nord au sud du Sahara, cinquante ans d'archéologie française en Afrique de l'Ouest et au Maghreb: Bilan et perspectives.* André Bazzana et Hamady Bocoum (eds.) (Paris: Éditions Sépia, 2004), 242.

وادخلهم في جنان هنالك وأخذ الجنان لنفسه وكذلك جامع لنا بباب البحر مشت حصوره ودفافه وجامع لنا بناحية أورير مشت حصوره ودفافه أيضا وغير هاؤلاء مما لا نصف لك وأخذوا لنا أيضا أحباس هاذه الجوامع من الجنات والديار والحناوت[الحوانيت]"[48].

أما الكانوني، فلعدم اطلاعه على نص هذه الرسالة، لم يتمكن من تحديد أسماء المساجد القائمة داخل المدينة وخارج أسوارها قبل الغزو البرتغالي، مؤكدا أن مساجدها المُعاينة بها مطلع القرن العشرين "أسست في القرن العاشر الهجري فما بعده. أما المساجد السابقة عن هذا التاريخ فإنها لما استولت اليد الغاشمة من البرتغاليين على هذا البلد أذاقتها من الإهانة والتخريب ألوانا ولم تترك لأولئك البؤساء الذين كانوا تحت نفوذها مسجدا يؤدون فيه طقوس دينهم."[49]

ورغم كل أعمال التخريب التي أتت على مساجد أسفي ومنازلها ومنشآتها العمومية الأخرى، ظلت مئذنة الجامع الأعظم قائمة بسبب استخدامها المُحتمل خلال المرحلة البرتغالية كحَامِل لجرس الكاتدرائية المُشيدة بجواره[50]، مقابل تدمير الجامع والذي لم يعد بالإمكان التعرف على تخطيطه لولا الوصف الذي خَصَّه به لسان الدين بن الخطيب عند زيارته للمدينة، ونصُّه: "وصلينا بمسجدها الجامع وهو مبنى عتيق، ومجمع فسيح متعدد الزيادات والصحون والتعاريج، سبق منه ما بين يَدَي المحراب بعضٌ على أيدي قوم من الصالحين، رفعوا به عمَدًا تناهز الأربعين، بادية ضخمة خشنة على سبيل من الجفاء والسذاجة يباشرها سقف لاطئ من غير نقش ولا إحكام عَلَتها خُشُب بالية، وقُضُب ناخرة، بما يدل على قِدم العهد، ويُنبئ على اجتناب فضول العمل. فلم تمتد إلى تغييرها يد، ودارت بها الزيادة النبيهة والبلاطات من جهاته. وبصحن هذا المسجد جِبَابٌ للماء ينتابها الناس لسقيهم ووضوئهم فيحسبهم. ويُقابل القبلة من جوفي الصحن زاوية بها فقراء يدعون ذكرًا لله، فيُعاطون مقام التوكل، فلا يُغبُّ عنهم التفقد."[51]

48 . De Cénival, *Les sources inédites*, 183.4.

49. الكانوني، **آسفي وما إليه**، 87.

50 . Pierre de Cenival, "La cathédrale portugaise de Safi," *Hespéris* IX, 1er trimestre (1929): 11.

51. ابن الخطيب، **نفاضة الجَراب**، 72.

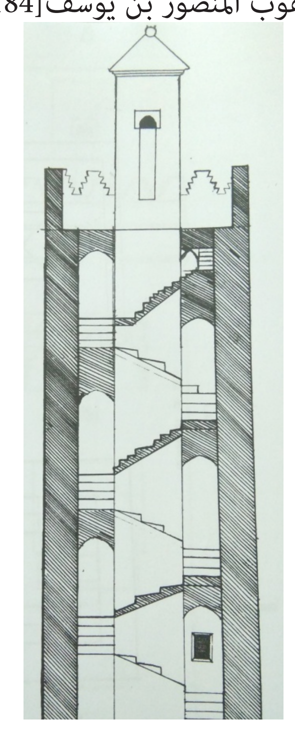
يُستنتج من هذا الوصف الدقيق لجامع أسفي الأعظم[52] مدى شساعة مساحته بدليل تكونه من عدة صحون، لضمان إضاءة وتهوية جيدتين للجامع بسبب الامتداد الكبير لقاعة الصلاة، كما هو شأن مساجد مُوحدية أخرى تم اللجوء إلى مُضاعفة عدد صُحونها للغرض نفسه مثل جامع حسّان في الرباط وجامع يعقوب المنصور في سلا وجامع المنصور بقصبة مراكش، وهو ما اعتبره مجموعة من الباحثين المُتخصصين في العمارة والآثار الإسلامية بالمغرب خاصية مُميزة لمساجد نهاية القرن 12م[53]. كما أن اشتمال أحد صحونه على خزانات مائية تحت أرضيته وكثرة بلاطاته وتوالي الزيادات فيها يدعم فرضية شساعة الجامع. أما بالنسبة للمئذنة، فقد ورد بخصوصها في تقاييد الفقيه مولاي عبد السلام بن محمد الحسني الإدريسي [1893-1973م] ووالده الفقيه سيدي محمد مولاي الحاج [1860/1861-1938م] وكنانيش رفيقه الفقيه الحاج الحسن بن الطاهر وعزيز ما يلي: "إن المنار الموجود الآن بالجامع الأعظم أقدم من مسجده، فالمسجد الذي كان به المنار المذكور اندرس حين استولى النصارى على المدينة، وبعد خروجهم بني هذا المسجد فلبنائه ما يقرب من مائة سنة والله أعلم، وإن المنار من المدينة القديمة بدليل فصله عن المسجد بالديار والطرق، وقد سمعت هذا ممن أثق به، قاله الفقيه سيدي محمد بن عبد العزيز كرضيلو في تأليفه إرشاد السائل في معرفة القبلة بالدلائل"[54]. وقد شُيّدت المئذنة بواسطة الحجر المنجور فوق أرضية مُربعة الشكل، وتنتهي مثل باقي المآذن بسطح مستو يُحيط به جدار قصير مُتَوَّج بشرَّافات مُسَننة. ويبلغ ارتفاعها من سطح الأرض إلى قمة الشرَّافات 22.60 متر، يعلوها بعد ذلك العزري المُشيد بدوره فوق أرضية مربعة. أما بالنسبة للبنية الداخلية للمئذنة، فتتكون من نواة غير مُجوفة، يُحيط بها مُنحدر [دَردُوبَة] يسمحُ بالصعود إلى العزري، وقد كُسيت جدرانها بطلاء أحمر غني بالجير، كما فتحت بها كُوات صغيرة لضمان الإضاءة. وبالانتقال إلى العزري، نجد به

52. أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، **السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**. القسم الأول، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984)، 270.

53 . Abdelaziz Touri, Ahmed Saleh Ettahiri et Abdallatif El Khammar, "Aperçu sur l'organisation spatiale des mosquées marocaines", in *Spécificités architecturales des mosquées au royaume du Maroc* (Rabat: Ministère des Habous et des Affaires Islamiques, 2008), 27-8.

54• الطاهر وعزيز، "صفحات من تاريخ أسفي"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط**. (1996-1997)21-22، 248.

مدخلين يسمحان بالولوج إلى غرفتين، خُصصت إحداهما للمؤذن والأخرى للمؤقت[55]. وتتسم المئذنة باحتفاظها على مُستوى واجهاتها بزخارف موحدية أصيلة لم ترق رغم جماليتها إلى المستوى الذى بلغته زخرفة المآذن الموحدية في كل من جامع المنصور بقصبة مراكش وجامع حسّان في الرباط، وهو ما دفع بالباحث ياسر بنهيمة إلى تأريخها بالربع الثالث من القرن 12م، أي خلال المرحلة التي بدأت تكتمل فيها معالم التقليد الموحدي في زخرفة المآذن[56]. وبالتالي نُرَجِّح تشييد الجامع الأعظم ومئذنته زمن حُكم أحد الخلفاء الموحدين الثلاثة الأوائل وهُم: أبو محمد عبد المومن بن علي الكومي [1130-1163م] وأبو يعقوب يوسف بن عبد المومن [1163-1184م] وأبو يوسف يعقوب المنصور بن يوسف[1184-1199م].



صورة ومقطع لمئذنة الجامع الأعظم في مدينة أسفي

Karra, “Recherches sur l’architecture” fig. 8.

55 . Karra, *Recherches sur l’architecture*” 51-2.

56 . Benhima, *Safi et son territoire*, 120; voir aussi: Ana Sofia Neno Leite, “La semi-insularité de Safi. Les défis de la patrimonialisation,” *e-Phaïstos* IV.2 (2015): 6.

وبعيدًا عن الجامع الأعظم، وُجد قطب حضري آخر هو رِباط الشيخ أبو محمد صالح بن ينصارن الماجري، أحد أكبر شيوخ التصوف عند تأليف ابن الزيات لكتاب التشوف سنة 1220م[57]، و"شيخ الصالحين وقدوتهم، شرف المغرب الأقصى وفخره وشمس زمانه"[58] حسب العبدري. وقد شَيَّدَ رباطه المذكور خلال العهد المُوحدي بعيدًا عن مركز المدينة ومحور نشاطها، على بُعد عشرات الأمتار من الجُرف المُطل على البحر جنوب غرب المدينة[59]. ويعود اختياره للهامش كفضاء لتأسيس رباطه إلى التوتر والتنافر القائم بينه وبين السلطة، بسبب رَبطِه دعوته إلى تنظيم ركب الحج بالنهي الصريح عن رُكوب البحر، وحثه الناس على استعمال المسالك البرية المحظورة من طرف رجال المذهب بعد نزول قبائل البدو الهلاليين بالبلاد الأفريقية[60]. أما بخصوص بنية الرباط ومَرافقه وخصائصه المعمارية زمن التأسيس فهي غير معروفة، ولا نتوفر بخصوصها إلا على شهادة متأخرة زمنيا للسان الدين بن الخطيب إضافة إلى الصورة البرتغالية المذكورة أعلاه لمئذنة جامع الرباط إن صَحّت المطابقة. يقول ابن الخطيب في وصفه للرباط: "وجئنا إلى رباط الشيخ أبي محمد وهو من المشاهد الحافلة والمآلف الجامعة. فضاؤه رَحبٌ مرصوف بحجر الكذان يدور به سقيف نظيف ذو أبواب تفضي إلى زوايا ومدافن، وبطوله عن يمين الوالج مسجد الصلاة وتربة الشيخ في بيت عُمِدَ سَمكُه لانفساح عرضه بقايم من الخشب، وقبر الشيخ قبليه عن يمين الداخل إليه، قد اتخذ له حوض من الخشب من الرفيع أكسبته الأيام دُهمَه، فتخاله منحوتًا من الألوَة قد أملست من الاستلام حافته، وسُوي من نظيف الرمل سَبَجُه، وبإزائه قبور شبيهة به في الشكل لوالده وحفدته، تتخللها الحُصُر النظيفة"[61]. وهي أوصاف تدل على العناية البالغة بهذا الرباط

57. ابن الزيات، **التشوف**، 41.

58. أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي، **رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية**. حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي. سلسلة الرحلات 4، الحجازية 1 (الرباط: منشورات جامعة محمد الخامس، 1968)، 280.

59 . Benhima, *Safi et son territoire*, 120.

فرحات والتريكي"أسفي"، 8.

60. محمد القبلي، "قراءة في زمن أبي محمد صالح،" ضمن **أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ** (أسفي.الرباط: المجلس البلدي لمدينة أسفي . كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1990)، 90، 94.

61. ابن الخطيب، **نفاضة الجَراب**، 71.

والامتداد الكبير له بسبب المرافق العديدة [الزوايا والمدافن] التي أضيفت إلى نواته الأصلية طيلة العهدين المُوحدي والمريني.

قيسارية وورشات الخزف:

لم تقتصر المدينة على البحر كمورد اقتصادي وحيد، فقد أهلها موقعها الجغرافي ومواردها الطبيعية لمُمارسة أنشطة تجارية وحرفية متنوعة، أمكن التعرف على بعضها من خلال الإشارات النصية واللقى الأثرية. فقد أشار ابن عبد الملك المراكشي إلى قيسارية أسفي، في سياق ترجمته لمحمد بن إبراهيم الغساني التلمسيني، وهو عالم ذو حظ صالح من رواية الحديث ومتقدم في ضبط اللغات، ذاكر للآداب والتواريخ والأنساب، مشارك في الفقه والنحو وضارب في قرض الشعر بسهم مصيب، احترف التجارة في القيسارية المذكورة، فكان "يقعد في حانوته لاسترزاقه كل يوم يديرها فيها بعد الفراغ من مجلس تدريسه الموطأ والسير والنحو والآداب واللغة"[62]. أما بخصوص السِّلع المعروضة للبيع داخل هذه القيسارية، فمن المُرجح أن تكون من النوع الفاخر، كما هو الشأن بالنسبة للقيسارية الموحدية في قصبة مراكش[63]. وبالتالي نفترض تشييدها في موضع غير بعيد عن الجامع الأعظم بحُكم أهميتها وعدم احتوائها على أية أنشطة مُلوثة كما هو الشأن بالنسبة للدباغة وإنتاج الخزف التي عادة ما كانت تُخصص لها فضاءات بمحاذاة الأسوار أو خارجها.[64] وتجدر الإشارة إلى استمرار النشاط التجاري بهذه القيسارية إلى مطلع

62. أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، **السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**. القسم الأول، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984)، 270.

63. أحمد بن محمد ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. (قسم الموحدين)**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر وعبد القادر زمامة، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر بالرباط (بيروت . الدار البيضاء: دار الغرب الإسلامي . دار الثقافة، 1985)، 258؛ محمد رابطة الدين، "قيسارية مراكش الموحدية"، **مجلة المناهل** 228 :(1992) 40؛ محمد رابطة الدين، **مُراكش زمن حكم الموحدين، جوانب من تاريخ المجال والإنسان** (مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، 2008)، الجزء الأول، 251.

64 . Abdallah Fili et Ahlam Rhondali, "L'organisation des activités polluantes dans la ville islamique: l'exemple des ateliers de potiers", in Actas del II Congreso Internacional: *La Cuidad en al-Andalus y el Magreb*. Antonio Torremocha Silva y Virgilio Martínez Enamorado (Coord.) (Granada: Fundación El Legado Andalusí, 2002), 657-70.

القرن 16م، فقد اشتكى سكان أسفي في رسالة مُوجهة منهم إلى الملك إيمانويل الأول بتاريخ 2 يوليوز 1509 ممن النهب الذي تعرضت له: "وعاملك ديوغ الدالزنبوج ينظر فيهم ولم يقول لهم ماذا تفعلون والقيسارية يا مولانا بإزاء دَارِه وهو قادر على منعها من غير خروج من داره والتاكلت فيها أموالا كثار وأبا يمنعها."[65]

وفضلا عن الأنشطة التجارية المرتبطة بالقيسارية والمَرسَى، امتهن البعض حِرفا أخرى مثل إنتاج الخزف، كما تشهد على ذلك كرامة من كرامات الشيخ أبو محمد صالح [القرن 13م]، هذا نصُّها: "حدثني الشيخ الفاضل محمد بن عبد الله بن الشيخ الفاضل أبي علي عمر بن عبد العزيز قال: سمعت والدي عمر بن عبد العزيز يقول: اشتد علينا العطش ونحن أربعة حجاج مغربين، وليس معنا ماء ونحن في موضع معطش، إلى أن أشفقنا على أنفسنا، وصار كل منا هائما على رأسه فرأيت سدرة فقصدتها لأموت تحتها، وأخذت أستغيث بالشيخ، فلما بلغتها وجدت رجلا قاعدا تحتها، ومعه كوز ماء أخضر جديد من عمل آسفي، فقال لي اشرب، فقلت له ورفقائي؟ فقال: اشرب، فإنك على جب ماء وإذا بين يديه جب ماء، مفتوح فشربت ورويت، فذهب عني وتركني ولم أسأله لما بي من الجهد، فأتى أصحابي السدرة، كما أتيتها فقلت لهم: هذا جب ماء. فشربوا وأقمنا عليه يوما وليلة، فلما قدمت على الشيخ سألني عن الطريق، فما زلت أعلمه بما جرى لنا حتى أتيت لذكر الجب فقال: أتعرف ذلك الرجل إذا رأيته؟ فقلت: نعم. فلما خرج الفقراء ولم يبق معه سوى رجل واحد، يقال له حسن الفخار، فنظر الشيخ إلي وقال: هل تعرف صاحبك الذي سقاكم الماء في البرية إذا رأيته؟ فتوسمت وجه الرجل فإذا هو صاحبنا. فقلت: هو ذا. فقال: لما ذكرت اسم الشيخ مستغيثا به وكنت جالسا على جب داري، أستقي منه فناولتك الماء نيابة عنه، والجب هو جب داري، وكل ذلك ببركة الشيخ."[66]

65 . De Cénival, *Les sources inédites*, 181.

66. الماجري، **المنهاج الواضح**، الجزء الثاني، 624.

يُشير هذا النص بشكل صَريح إلى إنتاج الأواني الخزفية بمدينة أسفي خلال العهد الموحدي، وتخصص بعض الأسر في إنتاجها مثل أسرة الفخار التي نُرَجِّح حملها لهذا اللقب بسبب اشتغال عددٍ من أفرادها في هذا النشاط الحرفي. وهو ما أكدته حفريات الإنقاذ المنجزة بموقع لالة هنية الحمرية ما بين شهري أكتوبر ونونبر 1994، حيث كشفت عن مجموعة كبيرة من الخزفيات المُرابطية والمُوحدية من القرنين 11 و12م.[67]

وبهذه البلدة المدرسة والمارستان:

من بين الإضافات المعمارية للنسيج الحضري بمدينة أسفي خلال العهد المريني، مدرسة لتعليم الطلبة وإيوائهم شيّدها السلطان أبو الحسن المريني [1331-1351م]، ذكرها ابن مرزوق التلمساني في سياق تعيينه لمآثر ومحاسن هذا السلطان، فقال "أنه أنشأ رضي الله عنه في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة. فأنشأ بمدينة تازى قديما مدرستها الحسنة، وببلد مكناسة وسلا وطنجة وسبتة وآنفى وأزمور وآسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير وبالعُبّاد ظاهر تلمسان"[68]. كما أشار إلى وُجودها لسان الدين ابن الخطيب عند زيارته لأسفي[69]، لكنها اختفت مثل مجموعة من المدارس المرينية دون ترك أي أثر دال على موضعها، لكننا نُرجح تشييدها بجوار الجامع الأعظم كما هو الشأن بالنسبة لمدرسة الطالعة الكائنة جنوب شرق الجامع الكبير في سلا، والمدرسة المجاورة للجامع الكبير في تازة، والمدارس المرينية المُشيدة قرب جامع القرويين مثل المدرسة المصباحية ومدرسة الصفارين ومدرسة العطارين، إضافة إلى مدرسة الصهريج قرب جامع الأندلس[70]. أما بخصوص المارستان، فتقتصر معرفتنا

67 . Arharbi, *Fouille de sauvetage*; Karra, "*Recherches*" 25; Mohssine, "Safi", 4.

68. محمد ابن مرزوق التلمساني، **المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحسان مولانا الإمام أبي الحسن**. دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، ضبط وتقديم محمد مفتاح (الرباط: دار الأمان، 2012)، 332؛ الكانوني، **الجواهر الصفية**، 25.

Ahmed Saleh Ettahiri,"Genèse et rôle de la médersa au Maroc islamique", *Bulletin d'Archéologie Marocaine* XXII (2012):277.

69. ابن الخطيب، **نفاضة الجَراب**، 72.

70 . Ahmed Saleh Ettahiri, "*Les madrasas Marinides de Fès. Etude d'histoire et d'archéologie monumentales*" (Thèse de Doctorat nouveau régime en Art et Archéologie islamiques, Université de Paris-Sorbonne (Paris IV), Institut d'Art et d'Archéologie, 1996); Ettahiri, "Genèse", 277.

له على إشارة وحيدة أوردها ابن الخطيب بمناسبة لقائه بصاحب السّوق ومُقيم رسم المارستان الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد ابن منير الهاشمي الجزيري، واصفا إياه بكونه "من أهل الظرف والخيريّة والتمسك بأذيال أهداب الطلب. حَسنُ الخط جميل العشرة، خفيفٌ في سبيل المشاركة. نشأ بالخضراء، وحضر حصارها، وحج وخدم الصاحب بدمشق فأحظاه [...] مولده بالخضراء عام خمسة وسبعمائة [1306-1305م]"[71]. وقد علق محمد بن أحمد الكانوني على هذا الخبر بقوله: "وهذا المستشفى يغلب على الظن أنه من تأسيس الدولة المرينية، وإذا كان كذلك، فإنه لا يعدو يعقوب بن عبد الحق أو أبو الحسن أو ولده أبو عنان، إذ الثلاثة كان لهم من العناية بهذا الشأن ما ليس لغيرهم. ولا يوجد أثر الآن وقبله بأزمان لأن الثغر قد تطورت به الأحوال بانصباب داء البرتغاليين الذين استولوا عليه أوائل القرن العاشر الهجري فأبادوا معالم المُسلمين ولم يتركوا به أثرا إلا النادر."[72]

دار السّكة:

تزخر المجموعات النقدية العمومية والخاصة بعدة نماذج لمسكوكات علوية ضُربت بمدينة أسفي، اعتمدها الباحث عُمر أفا لتحديد مرحلة نشاط دار السكة بهذه المدينة، والتي حَصَرها - تبعا للمُعطيات الأولية المتوفرة - ما بين سنتي 1716م و1836مط[73]. وبالتالي، تم استبعاد وُجود دار مماثلة بأسفي قبل العهد العلوي بسبب انعدام الشواهد المادية الدالة على ذلك، إلى أن كشف الباحث محمد الحضري عن قطع نقدية ذهبية ضُربت في مدينة أسفي خلال العهد المريني. ويتعلق الأمر بسَبع قطع نقدية ذهبية

71. ابن الخطيب، **نفاضة الجَراب**، 72-73.

72. محمد بن أحمد الكانوني العبدي، **الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى**. تحقيق علال ركوك ومحمد بالوز (الرباط: منشورات كلية الطب والصيدلة، جامعة محمد الخامس السويسي، 2013)، 149. يُنظر أيضا: الكانوني، **آسفي وما إليه**، 106؛ الشمسي، "المعمار العسكري"، 224.

73. عمر أفا، "دار السكة بأسفي في القرن الثامن عشر"، ضمن **أسفي، دراسات تاريخية وحضارية**. أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي، 23-25 يونيو 1988 (أسفي . الرباط: المجلس البلدي لمدينة أسفي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1989)، 115-116؛ عمر أفا، "دار السكة بأسفي في القرن الثامن عشر الميلادي"، ضمن **تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**. إعداد محمد الأسعد. دفاتر دكالة عبدة رقم 1، سلسلة بحوث ودراسات (الدار البيضاء: منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، 2000)، 169.

اكتشفت في جزيرة صقلية [في بوتيرا(*Butera*)] ضمن كنز مُكون من 90 قطعة نقدية ذهبية مرينية، تُوجد محفوظة في الوقت الراهن بمركز المسكوكات الإسلامية التابع لجامعة توبنغن (*Tübingen*) بالجمهورية الفيدرالية الألمانية. وقد ضُربت القطع السبع معًا في مدينة أسفي باسم محمد المسعود، وتنقسم إلى فئتين هما: نصف دينار ورُبع دينار.[74]

تتجلى الفئة الأولى [نصف دينار] في قطعة نقدية واحدة[75]، تحمل في أحد وجهيها داخل شكل مربع مُكون من خطين متوازيين الكتابة العربية التالية: "لا إله إلا/الله محمد/رسول الله/الحمد لله"، وفي المُحيط المُجزأ إلى أربعة أقسام، نجد الكتابة التالية: "[وما] النصر/إلا من عند/الله [العزيز]/الحكيم". أما بخصوص الوجه الآخر للقطعة النقدية فنجد داخل شكل مربع مُكون من خطين متوازيين الكتابة التالية: "عن أمر عبد/الله محمد/المسعود/أيده الله،" إضافة إلى كتابة في المحيط المجزأ إلى أربعة أقسام، هذا نصُّها: "ضرب بمدينة/أسفي [حر]/سها الله/تعالى." أما الفئة الثانية [رُبع دينار] فتتجلى في سِت قطع نقدية[76]، تحمل كل واحدة منها في أحد وجهيها داخل شكل مربع مُكون من خطين متوازيين الكتابة العربية التالية: "لا إله إلا/ الله محمد/رسول الله"، وفي المُحيط المُجزأ إلى أربعة أقسام، نجد الكتابة التالية: "نصر من/الله/وفتح/قريب." أما بخصوص الوجه الآخر للقطعة النقدية فنجد داخل شكل مربع مُكون من خطين متوازيين الكتابة التالية: "عن أمر عبد/الله محمد/المسعود"، إضافة إلى كتابة في المحيط المجزأ إلى أربعة أقسام، هذا نصُّها: "أسفي/أمنها/الله/بمنه."[77]

---

74 . Mohamed El Hadri, "Des monnaies inédites frappées à Safi à l'époque mérinide (Au nom de Mohammad al-Mas'ūd", *Bulletin d'Archéologie Marocaine* XXII (2012): 481.

75. تحمل القطعة النقدية من فئة نصف دينار رقم :67-28-99، ويبلغ وزنها 2.19 غرام، وقطرها 26 ملم.

76. تحمل القطعة النقدية الأولى رقم: 68-28-99، ويبلغ وزنها 1.16 غرام، وقطرها 20 ملم. وتحمل القطعة النقدية الثانية رقم 69-28-99، ويبلغ وزنها 1.12 غرام، وقطرها 20 ملم، وتحمل القطعة النقدية الثالثة رقم 70-28-99، ويبلغ وزنها 1.08 غرام، وقطرها 20 ملم، وتحمل القطعة النقدية الرابعة رقم 71-28-99، ويبلغ وزنها 1.14 غرام، وقطرها 21 ملم، وتحمل القطعة النقدية الخامسة رقم 72-28-99، ويبلغ وزنها 1.08 غرام، وقطرها 21 ملم، وتحمل القطعة النقدية السادسة رقم 73-28-99، ويبلغ وزنها 1.14 غرام، وقطرها 20 ملم.

77 . El Hadri, "Des monnaies inédites", 481.2.

وتتطابق النصوص المنقوشة على هذه القطع النقدية مع تلك التي وُجدت ببعض مسكوكات السلطان المريني أبو سعيد عثمان الثالث، وبالتالي فمن المُرجّح أن تكون هذه القطع الفريدة من نوعها من إصدار حاكمٍ محلي لمدينة أسفي خلال السنوات الأخيرة من حُكم أبي سعيد عثمان الثالث، وهو ما يدعمه تاريخ دفن ذلك الكنز في جزيرة صقلية، والذي وَطّنه عُلماء الآثار في العُشرية الثالثة من القرن 15م. أما فيما يتعلق بـ"عبد الله محمد المسعود" فلا نتوفر بخصوصه على أية إشارة في النصوص المكتوبة حتى نتبيَّن هُويته[78]، فضلا عن عدم معرفتنا بموضع دار السّكة حينئذ داخل النسيج الحضري لمدينة أسفي.



قطعة نقدية ذهبية من فئة نصف دينار

El Hadri, “Des monnaies inédites”, 484 fig.1.

78 . El Hadri, “Des monnaies inédites”, 482.3.



قطعة نقدية ذهبية من فئة رُبع دينار

El Hadri, “Des monnaies inédites”, 484 fig.2.

فضاءات الموت:

توفرت مدينة أسفي مثل سائر المدن الإسلامية على مقابر داخل نسيجها الحضري وخارجه، أمكن التعرف عليها من خلال الإشارات النصية المتوفرة. فقد وُجدت خلال العهد الموحدي مقبرة جنوب الجامع الأعظم دُفن بها العالم محمد بن إبراهيم الغساني التلمسيني[79]، كما أشارت رسالة سُكان أسفي إلى الملك إيمانويل الأول إلى "جامع القبور" دون تحديد موقع هذه المقبرة[80]. فضلا عن ترجيح بيير دُوسِينِيفال استخدام الرّبوَات الموجودة داخل المجال المُسَوّر في كل من الشمال والجنوب الشرقي حسب الصورة البرتغالية المنجزة للمدينة مطلع القرن 16م كمقابر[81]. ولعل المثير للانتباه في هذه اللائحة الأولية للمقابر هو إمكانية وجود أكثر من مقبرة إسلامية داخل النسيج الحضري للمدينة لا خارجها. فهل كانت محدودية الامتداد المجالي للنسيج الحضري داخل أسوار أسفي سببًا في نشوء هذه الفضاءات الجنائزية أم أن للأمر علاقة بالهاجس الأمني؟

79. ابن عبد الملك المراكشي، **السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة**، 270.

80 . De Cénival, *Les sources inédites*, 183.

81 . De Cénival, *Les sources inédites*, 161.

نستنتج مما سبق، تعدد مكونات النسيج الحضري لمدينة أسفي خلال العصر الوسيط، فقد اشتملت على عددٍ من المنشآت العسكرية [السور والقصبة] والدينية [الجامع الأعظم والمساجد الصغرى ورباط الشيخ أبو محمد صالح] والاقتصادية [المرسى والقيسارية وورشات الخزف ودار السّكة] والصحية [المارستان] والعلمية [المدرسة] والجنائزية [المقابر]. لكن معرفتنا بها تقتصر في كثير من الحالات على إشارات سريعة ومقتضبة في المصادر العربية والبرتغالية، أمكن تطعيمها أحيانا بنتائج الحفريات الأثرية المُنجزة بموقع لالة هنية الحمرية ودراسة القطع النقدية المضروبة في مدينة أسفي على يد حاكم محلي زمن حكم السلطان المريني أبو سعيد عثمان الثالث.

البيبليوغرافيا:

ابن الخطيب، لسان الدين. **نفاضة الجَراب في عُلالة الاغتراب**. نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني. الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1985.

ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي. **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. تحقيق أحمد التوفيق، سلسلة بحوث ودراسات رقم 22. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997.

ابن سودة، عبد السلام بن عبد القادر.**دليل مؤرخ المغرب الأقصى**. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1960.

ابن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد. **السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**. القسم الأول، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة. الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984.

ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد.**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.(قسم الموحدين)**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر وعبد القادر زمامة، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر بالرباط.بيروت - الدار البيضاء: دار الغرب الإسلامي - دار الثقافة، 1985.

ابن مرزوق التلمساني، محمد. **المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحسان مولانا الإمام أبي الحسن**. دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، ضبط وتقديم محمد مفتاح. الرباط: دار الأمان، 2012.

الإدريسي السبتي، الشريف. **أنس المُهج ورَوض الفرج. قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان.** تحقيق الوافي نوحي. الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007.

أفا، عمر. "دار السكة بأسفي في القرن الثامن عشر الميلادي". ضمن **تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**. إعداد محمد الأسعد. دفاتر دكالة عبدة رقم 1، سلسلة بحوث ودراسات، 167-174. الدار البيضاء: منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، 2000.

أفا، عمر. "دار السكة بأسفي في القرن الثامن عشر." ضمن **أسفي، دراسات تاريخية وحضارية**. أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي، 23-25 يونيو 1988، 113-122. أسفي - الرباط: المجلس البلدي لمدينة أسفي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1989.

بروفنصال، ليفي. **مؤرخو الشرفاء**. تعريب عبد القادر الخلادي. سلسلة التاريخ 5. الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977.

بنشريفة، محمد. **الأعمال الكاملة لأبي المُطرِّف ابن عَميرة (ت. 658هـ)**. سلسلة نوادر التراث 31. الرباط: الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، 2018.

بنشريفة، محمد. "أسفي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين." ضمن **تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**. إعداد محمد الأسعد. دفاتر دكالة عبدة رقم 1، سلسلة بحوث ودراسات، 125-137. الدار البيضاء: منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، 2000.

بنشريفة، محمد. "الماجريون". ضمن **أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ**، 31-45. آسفي- الرباط: المجلس البلدي لمدينة آسفي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1990.

بنشريفة، محمد. "الفقيه الكانوني ومؤلفاته." ضمن **أسفي، دراسات تاريخية وحضارية**. أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي، 23-25 يونيو 1988، 171-196. أسفي - الرباط: المجلس البلدي لمدينة أسفي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1989.

بنشريفة، محمد. **أبو المُطرف أحمد بن عَميرة المخزومي، حياته وآثاره**. الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1966.

بوشرب، أحمد. **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481– أكتوبر 1541)**. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1984.

توري، عبد العزيز وعز الدين كرا. "الاحتلال البرتغالي وهاجس التحكم في المجال من خلال مقاربة أثرية لمدينتي آسفي وأزمور". ضمن أعمال ندوة **الوجود البرتغالي في المغرب وآثاره**. سلسلة الندوات، 171-206. الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 2006.

حجي، محمد. "الصبيحي، أحمد. " **معلمة المغرب**، الجزء 16، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 5488-5489. سلا: مطابع سلا، 2002.

دياش، بيدرو. **البرتغاليون في المغرب، عمارة وعمران من 1415 إلى 1769**. ترجمة أحمد محفوظ، ساهم في الترجمة رشيد برهون وعبد الهادي الإدريسي. كويمبرا: دار غرافيكا، 2000.

رابطة الدين، محمد.**مُراكش زمن حكم الموحدين، جوانب من تاريخ المجال والإنسان**. مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، 2008.

رابطة الدين، محمد. "قيسارية مراكش الموحدية." **مجلة المناهل** 40 (1992): 216-232.

رگوگ، علال. **أسفي من المرسى إلى الميناء، دراسة تاريخية خلال القرنين 19 و20**. الرباط: مطابع الرباط نت، 2014.

رگوگ، علال. "الكانوني، العبدي." **معلمة المغرب**، الجزء 20، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 6729-6731. سلا: مطابع سلا، 2004.

زنيبر، محمد. "بعض موانئ التجارة المغربية في العصر الوسيط." ضمن **أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب**، الجزء الثاني، 37-245. الدار البيضاء: منشورات جامعة الحسن الثاني - عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989.

السعيدي الرجراجي، محمد. **الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني، حياته وفكره ومؤلفاته.** منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر بأسفي. مراكش: دار وليلي للطباعة والنشر، 2000.

السولامي، إبراهيم. **الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية 1912-1956**. الدار البيضاء: دار الثقافة، دون تاريخ.

الشبري، أبو القاسم. **دكالة وإيالتها. جهة دكالة عبدة: تاريخ وآثار**. الجديدة: بسمة برينت، 2012.

الشمسي، سعيد. "المعمار العسكري بآسفي بين النمط المغربي والطراز الأوربي." **المناهل** 73-74 (2005): 223-248.

الصبيحي السلاوي، أحمد بن محمد. **كتابات أحمد بن محمد الصبيحي السلاوي حول أسفي.** تحقيق وتعليق عبد الرحيم العطاوي، محمد الظريف، علال ركوگ والرحالي الرضواني. منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر 9. الرباط: الرباط نيت، 2004.

طحطح، خالد ومحمد بكور. **مؤرخون مغاربة في الفترة المعاصرة، النصف الثاني من القرن 19 والنصف الأول من القرن 20**. الرباط: منشورات أمل، 2016.

الظريف، محمد. "كتابة تاريخ أسفي". ضمن **تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**. إعداد محمد الأسعد. دفاتر دكالة عبدة رقم 1، سلسلة بحوث ودراسات، 35-48. الدار البيضاء: منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، 2000.

العبدري الحيحي، أبو عبد الله محمد بن محمد. **رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية**. حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي. سلسلة الرحلات 4، الحجازية 1. الرباط: منشورات جامعة محمد الخامس، 1968.

العبدي الكانوني، محمد بن أحمد. **الجواهر الصفية في تاريخ الديار الآسفية**. دراسة وتحقيق علال ركوك ومحمد بالوز، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر بأسفي. الرباط: مطابع الرباط نت، 2015.

العبدي الكانوني، محمد بن أحمد. **الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى**. تحقيق علال ركوك ومحمد بالوز. الرباط: منشورات كلية الطب والصيدلة، جامعة محمد الخامس السويسي، 2013.

العبدي الكانوني، محمد بن أحمد. **جواهر الكمال في تراجم الرجال**. الدار البيضاء: المطبعة العربية، 1937.

العبدي الكانوني، محمد بن أحمد. **آسفي وما إليه قديما وحديثا**. دون مكان وتاريخ النشر.

العزفي، أبو العباس. **دعامة اليقين في زعامة المتقين**. تحقيق أحمد التوفيق. الرباط: مكتبة خدمة الطالب، 1989.

فرحات، حليمة وحامد التريكي. "أسفي: المدينة والرباط في العصر الوسيط." ضمن **أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ**، 5-14. آسفي-الرباط: المجلس البلدي لمدينة آسفي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1990.

القبلي، محمد. "قراءة في زمن أبي محمد صالح." ضمن **أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ**، 87-102. آسفي-الرباط: المجلس البلدي لمدينة آسفي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1990.

كريدية، إبراهيم. **شذرات من تاريخ المسجد الأعظم بآسفي**. مراكش: دار وليلي للطباعة والنشر، 2005.

الماجري، أحمد بن إبراهيم. **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**. تحقيق عبد السلام السعيدي. الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2013.

المنوني، محمد. **المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة 1930-1956**. سلسلة الدراسات الببليوغرافية رقم 8. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002.

المنوني، محمد. **المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة 1790-1930**. سلسلة الدراسات الببليوغرافية رقم 1. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989.

المنوني، محمد. **المصادر العربية لتاريخ المغرب، من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983.

نشاط، مصطفى. **جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ / 1212م إلى سنة 759هـ/1358م. مساهمة في دراسة العلاقات الإيطالية المغربية أواخر العصر الوسيط**. الرباط: مطابع الرباط نت، 2014.

نشاط، مصطفى. "الجنويون بأسفي من منتصف القرن 7هـ /13م إلى منتصف القرن 8هـ /14م." ضمن **نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط**، 53-163. وجدة: مكتب الطالب، 2005.

وعزيز، الطاهر. "صفحات من تاريخ أسفي". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط** 21-22 (1996-1997):241-270.

Alaoui, Abdallah, Ahmed Saleh Ettahiri et Abdallah Fili. "L'archéologie islamique au Maroc, les acquis et les perspectives." In *Le Maroc médiéval, Un empire de l'Afrique à l'Espagne*. Yannick Lintz, Claire Déléry et Bulle Tuil Leonetti (eds.), 44-7.Paris: Louvre édition, Hazan, 2014.

Al-Idrisi. *Description de l'Afrique septentrionale et saharienne*. Texte arabe extrait du Kitab Nuzhat al-Muchtaq fi Ikhtiraq al-Afaq, d'après l'édition de Leyde [1866], par Reinhart Dozy et Jan de Goeje, publié par Henri Pérès. Col. Bibliothèque de l'Institut d'Études Supérieures Islamiques d'Alger, X. Alger: La Maison des Livres, 1957.

Anonyme. *Ad-dahīirat as-saniyya. Chronique anonyme des Mérinides*. Texte arabe publié par Mohammed Ben Cheneb. Publications de la faculté des lettres d'Alger, Bulletin de correspondance africaine, tome LVII. Alger: Ancienne maison Bastide-Jourdan, Jules Carbonel, 1921.

Arharbi, Rachid. *Fouille de sauvetage sur le site de Lalla Hnia El Hamria (Safi) (du 20 octobre au 30 novembre 1994). Note préliminaire*. Direction du Patrimoine Culturel, Rapport inédit

Basset, Henri et Robert Ricard. "Asfī". In *Encyclopédie de l'Islam*. Nouvelle édition, t. I, 709-10. Leyde-Paris: E.J. Brill - G.-P. Maisonneuve, 1960.

Benhima, Yassir. *Safi et son territoire. Une ville dans son espace au Maroc (11^e-16^e siècle)*. Paris: L'Harmattan, 2008.

Benhima, Yassir. "Les conséquences de l'occupation portugaise sur le peuplement de la région de Safi dans le Maroc du XVI^e siècle". In *Du nord au sud du Sahara, cinquante ans d'archéologie française en Afrique de l'Ouest et au Maghreb: Bilan et perspectives*. André Bazzana et Hamady Bocoum (eds.), 239-45. Paris: Éditions Sépia, 2004.

Brochure du musée national de la céramique de Safi.

Chouirgate, Mehdi. "Un palais en marche: le camp califal almohade". In *Las Navas de Tolosa, 1212-2012. Miradas cruzadas*. Patrice Cressier et Vicente Salvatierra Cuenca (dir.), 1-11. Jaén: Universidad de Jaén, 2014.

De Cénival, Pierre. *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*. Première partie - dynastie sa'dienne, Archives et Bibliothèques de Portugal, tome I (juillet 1486 - avril 1516). Publications de la section historique du Maroc. Paris: Paul Geuthner, 1934.

De Cenival, Pierre. "La cathédrale portugaise de Safi". *Hespéris* IX, 1er trimestre (1929):1-27.

De Góis, Damião. *Les portugais au Maroc de 1495 à 1521. Extrait de la chronique du Roi D. Manuel de Portugal, traduit et commenté par Robert Ricard.* Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, XXXI. Rabat: Éditions Félix Moncho, 1937.

El Hadri, Mohamed. "Des monnaies inédites frappées à Safi à l'époque mérinide (Au nom de Mohammad al-Mas'ūd". *Bulletin d'Archéologie Marocaine* XXII (2012): 481-4.

El-Bekri, Abou-Obeid. *L'Afrique septentrionale*. Texte arabe revu sur quatre manuscrits et publié par Le Baron William Mac Guckin de Slane. Alger: Imprimerie du Gouvernement, 1857.

Ettahiri, Ahmed Saleh. "Genèse et rôle de la médersa au Maroc islamique". *Bulletin d'Archéologie Marocaine* XXII (2012): 266-84.

Fili, Abdallah. "L'archéologie islamique au Maroc, les limites et les acquis". *Hespéris-Tamuda* LIV (2) (2019): 39-66.

Fili, Abdallah et Ahlam Rhondali. "L'organisation des activités polluantes dans la ville islamique: l'exemple des ateliers de potiers". In Actas del II Congreso Internacional: *La Cuidad en al-Andalus y el Magreb*. Antonio Torremocha Silva y Virgilio Martínez Enamorado (Coord.), 657-72. Granada: Fundación El Legado Andalusí, 2002.

Karra, Azzeddine. "*Recherches préliminaire sur l'histoire de la production céramique de Safi.*" Rabat: Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, 1995-1996.

Karra, Azzeddine. "*Recherches sur l'architecture religieuse dans la médina de Safi.*" Mémoire de fin d'études du IIème cycle, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine à Rabat, 1994-1995.

Mohssine, Mohamed. "Safi: Les débuts d'une archéologie de sauvetage au Maroc". *Archéologia* (1995): 4.

NenoLeite, Ana Sofia. "La semi-insularité de Safi. Les défis de la patrimonialisation". *e-Phaïstos* IV-2 (2015): 1-19.

Touri, Abdelaziz, Ahmed Saleh Ettahiri et Abdallatif El Khammar. "Aperçu sur l'organisation spatiale des mosquées marocaines." In *Spécificités architecturales des mosquées au royaume du Maroc*, 21-40. Rabat: Ministère des Habous et des Affaires Islamiques, 2008.

Triki, Hamid. "Safi: Un patrimoine historique négligé. Histoire d'un port atlantique entre les blessures du temps et l'impunité des hommes". In *Mémoire du futur. Safim-Safi, histoire d'une ville portuaire - carrefour de cultures*. Pour une inscription de la ville sur la liste du patrimoine mondial de l'UNESCO. Rapport, novembre 2015, 66-8. Évora: Département d'Architecture, Université d'Évora - CIDEHUS, 2015.

الخصائص العمرانية والمعمارية للمدينة العتيقة بتارودانت: ملاحظات أولية

نورالدين صادق
أستاذ باحث في التاريخ والتراث - تارودانت

مقدمــة:

خلف الاستشراق أدبا وفيرا حول المدينة في العالم الإسلامي، حاول من خلاله الدارسون الغربيون، سواء منهم الفرنسيون أو والانجلوساكسون، التشكيك في وجود مدينة إسلامية. فمنهم من نزع عنها الصبغة الإسلامية، وجعل منها مجرد مدينة شرقية، تتشابه خصائصها مع مدن الشرق القديم.[1] بينما اتجه غَرَضُ آخرين نحو مساءلة دلالة التخطيط: هل المدن الإسلامية مُدنٌ «مُنشأَة» أم مُدنٌ «عَفوية»؟ وعموما فإن النظرية الاستشراقية استندت إلى فكرة أساسية مفادها أن المدينة المنشأة تشكل استثناء في تاريخ الإسلام، لأنه من النادر أن يكون قد سبق تصورها أو تصميمها![2] ومع ذلك لا نعدم من بين المستشرقين من أخضع هذه الأحكام لكثير من المراجعة والتدقيق، من أمثال هنري تيراس الذي يؤكد أنه: «كان للمدن على الدوام أهمية كبرى في العالم الإسلامي، إذ سرعان ما اكتسبت مدن ما قبل الإسلام، والمدن الحديثة التأسيس، على السواء شكلا خاصا، حافظت عليه خلال العصر الوسيط، ووصلت به أحيانا إلى أيامنا هذه، وتعود هذه الأهمية إلى أصول الدين الجديد الذي أتى به رجل حضري اسمه محمد».[3]

1. هشام جعيط، **نشأة المدينة العربية الإسلامية**، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2005، ص. 148.
2. **نفس المصدر**، ص. 150-151.
3. هنري تيراس، **المدينة الإسلامية، مدخل كتاب**: «الحواضر الأندلسية» لليوبولدو طريس بالبس، ترجمة محمد يعلى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2007، ج1، ص. 31.

وقد روج عدد من الباحثين الاوربيين، بشكل غير بريء، لأطروحات، لم يدخروا جهدا في البرهنة عليها، مفادها أن تَمَدُّن شمال إفريقيا، ومن ضمنه المغرب، لم يتحقق إلا على يد القوى الخارجية.[4] وكثيرا ما نُسبَ تأسيس عدد من المراكز الحضرية، بسواحل المغرب القديم، إلى شعوب شرق وشمال المتوسط، كالفنيقيين، والقرطاجيين، والإغريق. غير أن نتائج الأبحاث والتنقيبات الاثرية، برهن على أن تلك المراكز التي عادة ما يُنسَب تأسيسها الشعوب المذكورة، كانت في الواقع عبارة عن تجمعات سكنية محلية، وأن دور الفنيقيين والقرطاجيين، يقتصر فقط على إنشاء وكالات تجارية بها، تستجيب لأغراض التبادل بين ملاحي هذه الشعوب، وبين سكان تلك المراكز الحضرية، والتجمعات السكنية من الأهالي الأمازيغ.[5] وهذا الأمر يؤكد، بما لا يدع مجالا للشك، أن تطور وازدهار المراكز الحضرية بالمغرب القديم منذ القرن الخامس قبل الميلاد (ق5 ق م)، جاء نتيجة لتفاعل حضاري نشأ عن علاقات تجارية متعاقبة، ومتداخلة، مع كل من فنيقي قادس، والقرطاجيين، والإغريق، ولم يكن قط نتاج حركة استيطانية أو استعمارية.[6]

وقد بالغت أطروحات أخرى في تمجيد دور المستعمر، قديما وحديثا، في تمدن المغرب، في الوقت الذي مرت فيه مرور الكرام على ما كان للحضارة الإسلامية من تأثير واضح على تطور وازدهار الظاهرة الحضرية، بالمغرب الوسيط والحديث. غير أن الدارس، المتمعن في تاريخ المغرب، يخلص دون كبير عناء، إلى أن موجات المستعمرين المتعاقبين على البلاد، لم يكن لهم من هم سوى استغلال خيراتها واستعباد أهلها خدمة لمصلحة أوطانهم، لذا كان تركيزهم كبيرا على شمال المغرب وبعض سواحله، فكان لا بد من نشأة الدولة المغربية الإسلامية، لنشهد سرعة وتطور الظاهرة الحضرية، وانتشار المراكز العمرانية عبر مختلف أطراف البلاد، شمالها وجنوبها، شرقها وغربها، جبالها وسهولها، صحاريها وسواحلها.[7]

4. سعيد أگدال، **المدينة المغربية عبر التاريخ**، الجزء الأول: **من لكسوس إلى فاس**، دار نشر المعرفة، الرباط 2016، ص. 4.

5. محمد العميم، **إشكالية المدينة بشمال إفريقيا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك، الدار البيضاء 1990، ص.66، انظر كذلك سعيد أكدال، **م.س**، ص: 24.

6. محمد العميم، **م.س**، ص. 66.

7. سعيد أگدال، **م.س**، ص. 63.

وسنحاول من خلال هذا المبحث، أن نضع مدينة تارودانت العتيقة في سياقات تأسيسها، متتبعين ومتفحصين لخصائصها العمرانية والمعمارية، لنقف، من خلال تحليل واستقراء هذه الخصائص، إما على مظاهر التخطيط المسبق، المفكر فيه، والوظيفي إن وجدت، أو على مظاهر العفوية، والتلقائية، والاعتباطية إن تأكدت. كما أننا سنحاول أن نقف أيضا على مدى أثر العقيدة الإسلامية، في تطوير، وفي تكييف تصميم وعمران مدينة تارودانت، التي ليس هنالك أدنى شك في كون نشأتها سابقة على الإسلام بحقبة ليست باليسيرة؟

وللتوضيح فإن ما سأقدمه من خلال هذا المبحث لا يشكل دراسة متكاملة بكل ما تحمله الدراسة العلمية الدقيقة من معنى، وإنما هي مجرد ملاحظات أولية، ناتجة أولا عن اشتغالي على مدينة تارودانت، كموضوع للبحث في مجالات عدة: التاريخ، المجتمع، الثقافة، العمران... وذلك منذ مدة تناهز بضعا وثلاثين سنة، كما أن كثيرا من هذه الملاحظات ناتجة أيضا عن بعض قراءاتي، وكذا ملاحظاتي حول أعمال بعض ممن اهتم بهذه المدينة، أو من الذين شكلت حقلا لدراساتهم وأبحاثهم، من باحثين اجتماعيين، ومهندسين معماريين، ومكاتب دراسات تقنية؛ أو من مجرد زوار مغاربة وأجانب، على قدر كبير من الثقافة والمعرفة العلمية، أهلتهم ليُبدُوا ملاحظات، أو يُدلُوا بشهادات حول المدينة العتيقة لتارودانت بشكل عام، أو حول تخطيطها العمراني، أو حول هندستها المعمارية، أو حول وظيفية استعمال المجال داخلها... وإن أملي لكبير في أن تفيد لململة هذا الشتات كله، في سد ثلمة كبرى، يتركها نقص الدراسات المعمارية، والعمرانية، والاجتماعية، والتاريخية... حول هذه المدينة، وذلك لنفس الأسباب التي سبق وفصلت الحديث فيها من خلال مدخل هذا الكتاب.

1ـ في البحث عن الأصول: أصبح في حكم المؤكد أن مدينة تارودانت تعود لأصول أمازيغية سابقة على الإسلام بحقب تاريخية ليست باليسيرة. وقد سبق أن قادنا تحليل مختلف المعطيات والقرائن المتاحة، إلى ترجيح تأسيس المدينة من طرف أمراء حلف قبائل هشتوكة وجزولة، في سياق حركة التمدين التي شهدها المغرب القديم، على

يد عدد من الزعامات القبلية المحلية، خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وقد تقدم أيضا أن استخلصنا رغبة ذلك التنظيم السياسي الأولي، لتلك القبائل المذكورة، في تأسيس مدينة تكون عاصمة كيانه الناشئ. ولعل هذا ما يفسر، إلى حد كبير، دوافع اختيار موقع وموضع المدينة، اللذين توفرت فيهما شروط ملائمة الاستقرار البشري، من خصب، ووفرة مياه، وسهولة تنقل، ومن الوقوع على المحور الطرقي الهام، الذي يربط شمال غرب إفريقيا، ببلدان غربها الواقعة اليوم جنوب الصحراء الكبرى. مع مراعاة خصائص القرب من الساحل الأطلنتي، والبعد عنه، في ذات الوقت، بما يكفي للاحتماء من غزاة محتملين قد يأتون عبره... وهي عناصر كثيرة، قد تفيدنا بدورها في استقراء بعض من أهداف ودوافع مؤسسي المدينة الأوائل، وفي استجلاء بعض من أدوار ووظائف المدينة، منذ عهود نشأتها الأولى، ويدفعنا إلى الاقتناع بأن تارودانت اضطلعت، منذ ذاك بأدوار العاصمة السياسية والإدارية، وبوظائف المركز التجاري والحضري. وهو أمر، لاحظنا أنه لم يتغير كثيرا، حتى خلال مراحل تاريخ المدينة الإسلامي. فعناصر ومميزات الموقع والموضع هاته، جعلتها تحتفظ بأدوارها وبوظائفها كعاصمة، وكقطب جهوي حيوي، يهيكل ويتصدر مجال سوس الأقصى، خلال عهود كل الدول الإسلامية المتعاقبة على حكم المغرب. ويبدو جليا أن المدينة تأثرت كثيرا، خلال هذه المرحلة، بروح العقيدة الإسلامية الجديدة، التي سرعان ما تحَكّمت قيمها ومبادئها في هيكلة، وتدبير، وتنظيم المجال الحضري للمدينة

الخصائص العمرانية والمعمارية لمدينة تارودانت العتيقة:

1.1ـ تارودانت المدينة المسورة:

نظرا لأهميتها الاستراتيجية، والتي تأكدت معالمها بشكل واضح من خلال فتوحات المرابطين والموحدين، ومن خلال صراعات كل الدول أعقبتهم حولها، فإن مدينة تارودانت، ومنذ أن وصلتنا أخبارها، كانت مدينة محصنة، ذات أسوار منيعة. وقد أثار التأريخ لهذه الأسوار، ولا يزال، جدلا كبيرا بين المهتمين، كما أنه كان موضوع كثير من «الاجتهادات»، التي لم يكن لها من سند أو قرينة علمية تذكر، وقد تمت من طرف بعض من غير المتخصصين!

وأمام غياب القرائن التاريخية الواضحة، فإن معلوماتنا تبقى غير مؤكدة، وغير واضحة عن تحصينات المدينة، خصوصا أثناء الفترة السابقة على الفتح الإسلامي. هذا بالرغم مما سبق وأَكَّدناه من أن تارودانت اضطلعت منذ تأسيسها بدور العاصمة السياسية، وبالرغم أيضا مما تأكد في أخبار الفتوحات الإسلامية، من شراسة الصراع حولها،[8] ومن ربط مباشر لسقوط المدينة، بإذعان جموع البربر من أهل السوس.[9] وهي كلها معلومات تؤكد تلك الأهمية الاستراتيجية التي تحدثنا عنها، كما أنها قد توحي بأن مدينة بكل هذه الأهمية من الصعب أن نتصور أن تكون من دون تحصينات تحميها؟

لكن كل هذه الشكوك، لا تفتأ أن تزول تماما، عند مطالعتنا لأخبار فتوحات المرابطين بسوس، وأخبار حصارهم لحاضرته تارودانت، واقتحامها عنوة على أهلها من الرافضية البجلية،[10] وهي معلومات صريحة تؤكد وجود هذه التحصينات. وهو نفس ما تؤكده عدد من الإشارات المتفرقة التي وردت حول سور المدينة منذ عصر المرابطين. ومن ضمن هذه الإشارات ما ورد في ترجمة أبي محمد صالح بن واندلوس،[11] حيث تم الحديث عن «**انهدام طائفة من سور المدينة**»[12]، ويبدو من سياق الحديث أن هذا الانهيار لم يكن ناتجا عن حرب طارئة، أو عن غارة مفاجئة، لذا لا يمكننا إلا أن نُسَلّم بفرضية قدم سور المدينة، مما جعل عوامل الانهيار والتلف تلحقه.

من جهته يؤكد عالم الآثار الفرنسي Bazzana André، من خلال التنقيبات التي أجرتها بعثته بأسوار تارودانت،[13] أن هذه الاسوار قد تعود إلى ما قبل القرن

8. ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر 1961، ج1، ص. 267.

9. ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون، م.س**، ج6، ص. 142؛ الناصري، **الاستقصا، م.س**، ج1، ص. 139.

10. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب، م.س**، 162؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون، م.س**، ج6، ص. 244؛ الناصري، **الاستقصا، م.س**، ج2، ص. 14.

11. ولي صالح أصله من تارودانت، وابن واندلوس تعني ابن الاندلسي، وهو المعروف عند أهل المدينة اليوم باسم «سيدي وسيدي»، كانت وفاته بعد عام 590هـ/1194م، ترجم له ابن الزيات، **التشوف، م.س**، ص.347-349.

12. ابن الزيات، **التشوف، م.س**، ص. 347.

13. أجريت تنقيبات أركيولوجية، بتمويل من سفارة فرنسا بالرباط، وبدعم من وزارة الثقافة المغربية، وبتعاون مع بلدية رومانس الفرنسية، وقد جرت التنقيبات على يد كل من André Bazzana، مدير أبحاث بالمعهد الوطني للبحث العلمي بفرنسا (CNRS)، العربي الرباطي، أستاذ بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط، Yves Montmessin، تقني بـ: CNRS وبدار الشرق والبحر المتوسط، و Jean Pierre Van Staevel، أستاذ محاضر بجامعة باريس IV السربون. وقد نشرت بعض خلاصات هذه البعثة في مداخلة لرئيسها أ. بازانا، تحت عنوان:

العاشر الميلادي (ق10م)، وأن تخطيطها الأصلي يمثل تحصينات «بدائية» تتخذ شكلا مستديرا«un enclos primitif de forme circulaire».[14] ولقد تأكد في مصادر العصر الموَحديّ، بما لا يدع مجالا للشك، وجود أسوار قديمة شامخة، جعلت تارودانت تحمل صفة «الحصن» في مصادر هذا العهد، كما أكدت معلومات هذه المصادر أيضا، وجود قصبة سلطانية، تضم مسجدا للخطبة، وعددا من المرافق الاخرى، وأنه قد جرت العادة على اتخاذ هذه القصبة مقرا لإقامة حكام المدينة، من قادة الجيش، ومن ولاة الأمراء والخلفاء.[15]

1ـ1ـ1 ـ خصائص ومميزات أسوار تارودانت:

تتميز أسوار تارودانت على عدد من المستويات، وبصفة خاصة على مستوى مواد بنائها، وعلى مستوى شكلها العام، وكذا على مستوى سمكها.

1ـ1ـ1ـ1ـ مواد البناء المستعملة في أسوار تارودانت:

بالرغم من مظهر التجانس الذي قد يوحي به المظهر الخارجي لأسوار تارودانت، فإن المعاينة الدقيقة لهذه الأسوار، وعن كثب، تثبت غير ذلك. فقد سبق لبعض المهندسين المعماريين، وكذا لبعض مكاتب الدراسات المختصة، أن صنفت أسوار تارودانت على أنها جدران ترابية متجانسة، بنيت بتقنية التراب المدكوك «اللوح».[16]

وقد تمكنت بعثة أثرية مختلطة، ضمت في عضويتها خبيرا في البناء الترابي، ومهندسا معماريا، وعالم آثار، من دحض أطروحة التجانس هذه، حيث أثبتت عدم تجانس مواد البناء المستعملة في بناء أسوار تارودانت، وأكدت أيضا على أن أي تغير في مادة البناء،

«Les remparts de Taroudannt: un conservatoire des modes de construction en terre crue (XIe–XVIe siècles): Echanges transdisciplinaires sur les architectures et les constructions en terre crue», *Colloque de Montpellier* (Décembre, 2001).

14. André Bazzana, *Les remparts de Taroudannt, op.cit*, p.2 :

15.ابن عذاري، **البيان المغرب، م س**، ج 3، ص. 594 ثم 599.598.

16.سبق لمكتب الدراسات LPEE من فاس أن خرج بمثل هذا الاستنتاج، انظر:

Jeanne Marie Gentilleau, *Les remparts de Taroudannt, Synthèse des actions de la mission de coordination*, avril 1999.

قد يعد مؤشرا دالا على تاريخ البناء، أو على تاريخ التدخل للإصلاح والترميم. وإذا كانت تقنية «اللوح»، هي طريقة البناء المهيمنة، فإن حجم، وقياس الألواح المستعملة، قد اختلف كثيرا من فترة بناء لأخرى، وقد أثبت تقرير البعثة الاثرية أن ست قياسات مختلفة من الالواح قد استعملت في بناء أسوار تارودانت. كما أن المواد المستعملة للبناء، بدورها قد تراوحت ما بين تربة ذات طبيعة طينية هشة، استعملت في فترات بناء سابقة، قد تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، أو للقرن العاشر، أو ربما حتى قبل ذلك. في حين استعملت، في الواجهة الخارجية لهذه الأسوار، تربة مثبتة بكميات مهمة من الجير، تجعل الجدران أكثر تماسكا، وأكثر صلابة ومقاومة، وهي التي شاع استعمالها، بعد الشروع في استخدام الأسلحة النارية، أي خلال القرن السادس عشر، الذي هو عصر السعديين.[17]

2-1-1-1- أسوار تارودانت: تخطيطها، عناصرها، وأجزاؤها:

إن اعتماد تقنية تحليل معطيات الصورة الجوية العمودية، يؤكد أن تصميم مدينة تارودانت قد وضع في الأصل، وفق خطة دائرية متكاملة الاستدارة، وأنه لم يتغير عن مداره خلال العصور اللاحقة. كما يبدو أيضا، أن هذا التصميم قد وضع في فترة متقدمة على بناء القصبة السلطانية، هذه الأخيرة التي تبدو جد منحرفة عن العناصر المهيكلة لهذا التصميم.[18]

تمتد أسوار تارودانت على محيط يقدر طوله بسبع كيلومترات ونصف (7.5كلم)، يتخللها مائة وثلاثون (130) بُرجاً للمراقبة (Tours)، وتسعة عشر (19) بُرجاً زَاويّاً أو حصنا (d'angle Bastions)، وتخترقها أيضا خمسة أبواب عتيقة. أهم هذه الأبواب هو «باب القصبة»، وقد استمد أهميته من القصبة السلطانية، التي بنيت بجواره في فترة لاحقة، وهي كما أسلفنا، قد ذكرت منذ عصر المُوحّدين.[19] فأصبح باب القصبة هو الباب

17.أكد دي طوريس خلال هذه الفترة أن تارودانت: «تحيط بها أسوار من الطين الممزوج بالجير»، **تاريخ الشرفاء، م.س،** ص. 166.

Jeanne Marie Gentilleau, *Les remparts de Taroudannt, op.cit*, p.12-18-81.

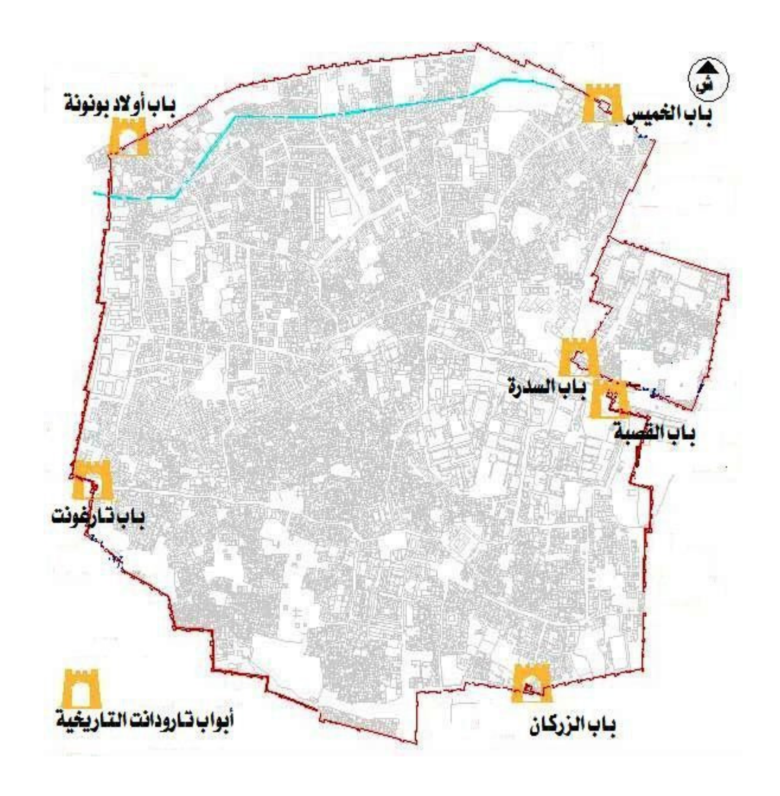
19.ابن عذاري، **البيان المغرب، م.س،** ص. 459.

الرسمي، الذي تلج منه المواكب الرسمية الوافدة على المدينة، ثم تحول منذ مطلع القرن 16م إلى باب سلطاني، عندما أصبحت تارودانت عاصمة للدولة السعدية، وهذا الباب يعرف اليوم بـ: «باب السلسلة»، وهو مجرد اسم مستحدث. أما باقي أبواب تارودانت التاريخية فهي: باب الخميس، ويأخذ اسمه من سوق الخميس، الذي كان ينعقد بجانبه منذ قرون خلت، وعلى الأقل منذ عهد السعديين.[20] وباب «أولاد بونونة»، وينفتح أيضا على الجهة الشمالية للمدينة، وباب تارغونت، وهو المعروف تاريخيا بـ: «باب الغزو» وبهذا الاسم ذكرته مراسلات تعود إلى مطلع القرن السابع عشر الميلادي،[21] وهو ينفتح في الجهة الغربية من أسوار المدينة، وكانت قوات المجاهدين، أيام السلطان محمد الشيخ السعدي، تخرج من هذا الباب متوجهة للجهاد بثغر أكادير المحتل من طرف البرتغاليين.[22] وفي الواجهة الجنوبية لأسوار تارودانت ينفتح باب الزركان، وقد صيغت بشأن هذا الاسم تأويلات عدة لتفسيره، غير أيًّا منها لم يكن يرتكز على أية قرائن أو شهادات تاريخية قاطعة، بل على مجرد تخمينات لفظية متعسفة لبعض المتطفلين الذين ابتلى الله بهم تاريخ هذه المدينة. سيضاف إلى هذه الأبواب القديمة الخمسة، باب سادس، وهو الباب الوحيد المفضي إلى داخل القصبة، ويعرف عند أهل تارودانت ب: «باب السدرة»، وقد أخذ اسمه من شجرة سدر كبيرة، كانت تنبت عند واجهته الخارجية، على يسار الداخل منه.

20. دييگو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء، م.س**، ص. 167. أنظر أيضا نور الدين صادق، تارودانت من خلال مقيدات التلمساني، **م.س**، ص. 47.

21. ذكره قاضي الجماعة بتارودانت، عيسى بن عبد الرحمان السكّتاني، بهذا الاسم: «باب الغزو» في رسالته إلى شيخه يحيى الحاحي، حوالي سنة 1614م/1023هـ انظر هذه الرسالة عند كل من: الإفراني، **نزهة الحادي**، ص. 328-337، عباس بن إبراهيم المراكشي، **الإعلام**، ج: 10، ص. 237-244.

22. انظر تفاصيل الحملات الجهادية لأهل تارودانت عند: البرتغالي المجهول، **تاريخ سانتا كروز، م.س**، وخاصة ص. 56 وما بعدها.



2-1-1-هندسة أبواب سور تارودانت:

تخترق أسوار تارودانت، كما اسلفنا، ستة أبواب، خمسة منها تنفتح بها المدينة على محيطها الخارجي، وهي «باب القصبة»، «باب الخميس»، «باب أولاد بونونة»، «باب تارغونت»، ثم «باب الزرڭان». أما سادس هذه الأبواب القديمة، فهو «باب السدرة»، وهو الباب الوحيد الذي كان يربط بين المدينة وقصبتها السلطانية.

وعلى العموم، فإن أبواب تارودانت تتخذ شكل أقواس بسيطة غير منكسرة، وغير ذات تيجان في الغالب، وهي تتدفق ببساطة معجزة، تعطيها جمالية متميزة. وهنا لا بد لنا من ضرورة الانتباه إلى تمييز هذا الشكل الأصلي لهذه الأبواب، عن التعديلات التي ألحقتها بها تدخلات الترميم المتتالية، والتي غيرت من شكل بعض الاقواس، أو من الاشكال الزخرفية الدقيقة والبسيطة، التي كانت تزين بعض واجهتها الخارجية.

بنيت أبواب تارودانت وفق هندسة خاصة، ويمكن تصنيفها ضمن ما يعرف بالأبواب الملتوية، أو بالأبواب المرفقية (Portes chicanées/Portes coudées). ولا يقصد بالباب في عمارة أسوار تارودانت، القوس المجرد، بل إن كل باب من أبواب سور المدينة، يعتبر مؤسسة دفاعية، وجبائية، وأمنية قائمة الذات. لذا تطلب الأمر تصميم هذه الأبواب بشكل يلائم مختلف تلك الأدوار التي تناط بها.

وعادة ما تتكون بناية الباب من عدة أجزاء أساسية متتالية، تختلف في عددها، وفي تكرارها من باب لآخر. حيث تبتدأ البناية بقوس أو بعدة أقواس خارجة، وتنتهي في آخرها أيضا بقوس، أو بعدد من الأقواس من الجهة الداخلية. وتفصل بين كل هذه الاقواس ممرات ملتوية، تختلف درجة التوائها، وتعقدها، حسب الدور الأساسي المنوط بالباب المعني. وتتكون هذه الممرات من أقبية أو ممرات مغطاة، يختلف عددها من باب لآخر، وكذا من وسعات، أو ساحات مربعة، تختلف مساحتها، وعددها أيضا، حسب الدور الذي يقوم به الباب.

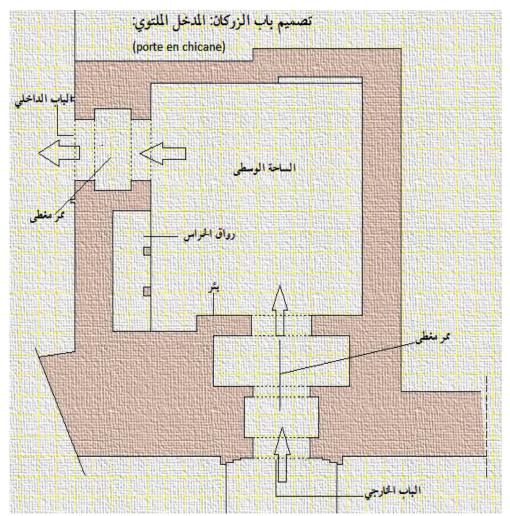
صممت أبواب تارودانت لتلعب ثلاثة أدوار رئيسية، دور عسكري دفاعي، ودور اقتصادي جبائي، ثم دور أمني. وقد كان الأصل في تصميم الأبواب بهذا الشكل، هو حماية المدينة من الهجومات المباغتة. والمتتبع لتاريخ تارودانت، لا يمكنه أبدا أن يحصي عدد الهجومات، وعدد الحصارات، التي تعرضت لها المدينة عبر تاريخها الطويل، سواء خلال فترات سقوط دول قديمة، ونشوء أخرى جديدة، أو خلال فترات ضعف واضمحلال الدولة المركزية، ونهوض القبائل المجاورة للسيطرة على خيرات المدينة وثرواتها.[23] وقد استتبعت الأدوار الاقتصادية التي نهضت بها تارودانت، وخاصة مع مطلع العصر الحديث، كمركز تجاري مهم على طرق التجارة القافلية، وكمُصَدّر أساسي لمادة السكر، ولمنتوجات عدد هام من الصناعات الحرفية، أن تضطلع أبواب المدينة أيضا بدورها

23. لنا العبرة في هذا الباب بما تزخر به كتب التاريخ، مما تعرضت له تارودانت، من غارات وحصارات إبان الصراعات المرابطية الموحدية للسيطرة عليها (البيذق الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت)، أو بما عرفته، من مثل ذلك، مع ثورة ابن يدر الزكندري نهاية عصر الموحدين (ابن عذاري، **البيان المغرب**)، أو بحصارات وغارات قبائل الأعراب، نهاية العصر المريني الوطاسي، (الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**)، أو بما تعرضت له من صراعات حولها من طرف الحاحيين والسملاليين، والقبائل المجاورة، على إثر انهيار الدولة السعدية (الإفراني، **نزهة الحادي**)، أو بحصارات وغارات الجيش السلطاني على أمراء البيت العلوي الثائرين بها، خلال فترة حكم السلطان المولى إسماعيل... (الناصري، **الاستقصا**).

في هذا المجال، وقد غلب عليها في فترات الاستقرار والازدهار الدور الجبائي. فتحولت الساحات والوسعات، الموجودة داخل بنايات الأبواب، إلى فضاءات ملائمة لعزل ذواب كل تاجر، من كل قافلة ترسو أمام هذه الأبواب، لإحصاء بضائعها، واستخلاص واجب «الديوانة»، قبل السماح لها بالدخول. وفي الأيام العادية يضطر تعدد الأقواس، والتواء الممرات، كل الداخلين والخارجين، إلى المرور أمام عدد من الحراس، مما يسهل على هؤلاء ضبط كل المارين أمامهم، ويساهم بالتالي في تقوية الحراسة الأمنية بأبواب المدينة.



صورة قديمة للقوسين الداخليين لباب القصبة (باب السلسلة)، قبل الاستغناء عن استعمالهما



تصميم «باب الزركان»، وهو نموذج لالتواء بسيط، قد يكون النشاط التجاري هو الغالب على أدواره، وهندسة هذا الباب شبيهة إلى حد



صورة نادرة لباب السدرة، التقطها الدكتور بول شاتينيير لأبنائه خلال فترة استقرارهم

3-1-1- أبراج سور تارودانت:

من عناصر السور الأساسية، والتي تطرح كثيرا من التساؤلات، وتوحي بكثير من الافتراضات، في غياب دراسة أثرية جد مركزة، وجد مدققة، نجد الأبراج. فالملاحظة المدققة تؤكد أن أبراج سور تارودانت هي من أصناف عدة، تختلف حسب المقاطع، والمناطق. فالمنطقة الممتدة بين باب تارغونت وباب أولاد بونونة، تتميز أبراجها بكونها مملوءة بتربة طينية مدكوكة، يبدو من آثار جوانبها، أنها كانت مغطاة بطبقة مبلطة. ويعتقد أن ملأ هذه الأبراج، قد يعود إلى عهد السعديين، ربما استجابة لانتشار استعمال الأسلحة النارية؟[24]

وعلى عكس ما تقدم، فإن أبراج سور القصبة فارغة، مغطاة بسقف على مستوى ممر الحراسة. ويبدو أن بعضها، قد يكون استخدم لإقامة الحراس، حيث تتكون من مستويين، يمكن الولوج إلى كل منهما عبر باب منفصل.[25]

أما باقي الأبراج، وخصوصا، على طول المقطع الممتد بين باب القصبة وباب الزركان، فإن الأبراج فارغة، يحفها من الداخل السور القديم، الذي يشكل حاليا الجدار الداخلي للسور، ويبدو في هذه المنطقة أكثر ارتفاعا، وأقل سمكا حيث لا يتجاوز سمكه 0.80م، وهو مغطى بسقف ترابي شديد التثبيت بالجير، على مستوى ممر الحراسة. ويمكننا أن نفترض بأن هذه الأبراج الفارغة، تشكل جزءا من هندسة التحصينات القديمة، وأن السعديين قد يكونوا أحاطوها من الخارج، بالسور الذي بنوه، والذي يشكل الآن واجهتها الخارجية البارزة.[26]

وعموما فإن هندسة الأسوار وأبوابها بهذا الشكل، هو الذي أكسب مدينة تارودانت حصانة، ومناعة قل نظيرهما، في غيرها من المدن، وهو أيضا ما جعل منها مهدا ومنطلقا لقيام، أو لتوسع الدول والإمارات من جنوب المغرب نحو شماله، من الأراضي الواقعة

24 . Jeanne Marie Gentilleau, *Les remparts de Taroudannt ,op.cit*, p.2

25 . نفسه.

26 . نفسه.

خلف جبال الاطلس الكبير؛ وكذا ملاذا آمنا لاحتماء الثوار، والقائمين؛ وأيضا منطلقا، وقاعدة خلفية تحمي جيوش المجاهدين.[27]

2-1ـ المبادئ العامة المميزة لعمران ومعمار تارودانت:

1-2-1 ـ التوازن بين المساحات المبنية والمساحات الخضراء:

أجمعت كل كتابات المؤرخين، والجغرافيين، والرحالة، التي كانت مدينة تارودانت موضوعا لها، منذ الشريف الإدريسي، وهو من أهل القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي (توفي: 559هـ/1166م)، وحتى الدكتور بول شاتنيير، الذي زار المدينة، في ركاب حملة الكولونيل دولاموط، سنة 1914، كلها أجمعت على أن تارودانت بلد خصيب، كثير الأغراس، وافر الخيرات، والفواكه... ولعل آخر هذه الاوصاف، ما خلده الدكتور بول شاتنيير في دفتر رحلته: «تارودانت ... هي قبل كل شيء حديقة فسيحة، مزروعة بكثافة، مغروسة بأشجار الزيتون والنخيل، محاطة بأسوار عالية ذات شرفات. وسط هذه الخضرة، تنتشر أربع قرى (أحياء)،[28] تلتف حول مساجدها؛ أهمها يظهر من بعيد بفضل صومعة من طراز قديم مزخرفة بأزهار الزنابق من الفسيفساء الزرقاء».[29] من هذه الاوصاف يتأكد بجلاء أن مختلف البنايات، من أسواق وفنادق، ومرافق حيوية، وأحياء سكنية، قد تركزت في وسط المدينة العتيقة لتارودانت. في حين بقيت كل المساحات، التي تحيط بهذه البنايات، وتفصل بينها وبين أسوار المدينة من الداخل، لتشكل مجالا تحتله الحدائق، والبساتين: «الجنانات».[30] وقد شكلت هذه المساحات المغروسة، والمزروعة،

27. لم ينطلق المرابطون لفتح شمال المغرب إلا بعد سيطرتهم على سوس، واقتحام تارودانت؛ ومن أرغن، وتنمل، بضواحيها انطلقت حركة الموحدين، واختارها الخليفة عبد المومن لأخذ بيعة كل قبائل الجنوب، قبل أن يتوجه لشمال المغرب؛ وبها بويع السعديون، ومنها انطلقت دولتهم. ومن بين أشهر الثوار الذين احتموا بها نذكر: ابن يدر الزكندري، ويحيى المناني الحاحي، والمولى الحران، المولى محمد العالم... ومنها انطلقت جيوش المجاهدين لتحرير «سانتا كروز»، وباقي ثغور المغرب الأطلنطية ق16م.

28. تسمى هذه الاحياء أو الحومات في تارودانت بالربع، وقد ذكر الدكتور شاتنيير أربعة أرباع، غير أن المدينة تتكون من خمسة أرباع، وهي: ربع أسراگ، ربع الزاوية، جامع الكبير، ربع القصبة، وربع فرق الأحباب. ولم يكن الملاح ضمن هذا التصنيف لأنه حومة مستقلة لها شيخها ومقدمها وهما يهوديان.

29. بول شاتينيير، **بعثة إلى سوس**، ترجمة وتعليق نورالدين صادق، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان 2015، ص.48.

30. «الجنانات» في لغة أهل تارودانت جمع والمفرد «جنان» بتسكين حرفي الجيم، والنون الأخيرة. وكلمة جنان، بكسر الجيم، في اللغة العربية هي جمع جَنَّة، ويقصد بـ: «الجنان» في تارودانت الحقل، أو البستان، وعادة ما يكون مغروسا بأشجار الزيتون،

حزاما أخضرا، يلف أحياء المدينة، ويلعب أدوارا حيوية متعددة في الحياة اليومية للمدينة ولساكنتها. وهو وضع لم يتغير كثيرا منذ تلك النصوص القديمة، التي وصلتنا عن وصف المدينة، إلى أولى خرائط المدينة، التي أنجزتها سلطات الحماية سنة 1918م.

إن تخطيط عمران المدينة على شكل أحياء، وحومات متفرقة تفصل بينها، وتحيط بها في نفس الوقت العديد من «الجنانات»، لم يأت اعتباطا، بل إن لهذه المساحات الخضراء المغروسة بكثافة، والمشجرة، أدوارا مختلفة تلعبها، ويمكن أن نذكر من ضمنها:

الدور الاقتصادي: ويتمثل في كون هذه البساتين تشكل منطقة إنتاج قريبة، تزويد المدينة بجزء كبير مما تحتاجه من منتوجات فلاحية، خاصة منها البواكر، والخضر، والفواكه (العود الرقيق).

الدور الاستراتيجي: ويتجلى أساسا في تمكين المدينة من الصمود الطويل في وجه الحصارات، التي صارت عادة وديدنا، يلجأ إليه كل الطامعين في حكم المدينة، من الثوار، والمنتفضين، وقبائل الرعاة المجاورين، وغيرهم.. ومن حسن حظنا أن نقل إلينا شاهد عيان، من أهل تارودانت، حالة المدينة بعد سنة كاملة من الحصار، حوالي سنة: (1070ه/ 1660م):[31]

الدور البيئي/الإيكولوجي: لقد ساهمت كل تلك البساتين، والحدائق الغناء، الكثيفة الأشجار في إحداث توازن بيئي، عبر تنقية الهواء مما يعلق به من غبار وشوائب، وفي إعطاء المدينة جوا صحيا رائقا، بهر كل من زارها، مثل ابن عذاري (ق: 7هـ/13م): «واتصل هذا المجموع بعضه ببعض، في بسيط معتدل الهواء، فسيح الأرجاء، واسع الطرقات، كثير الخيرات، قد احتوت تلك الرياضات على أشجار اختلفت ألوانها، وحدائق ملتفة أغصانها... فإنه كله روضة رائقة، وبهجة فائقة».[32]

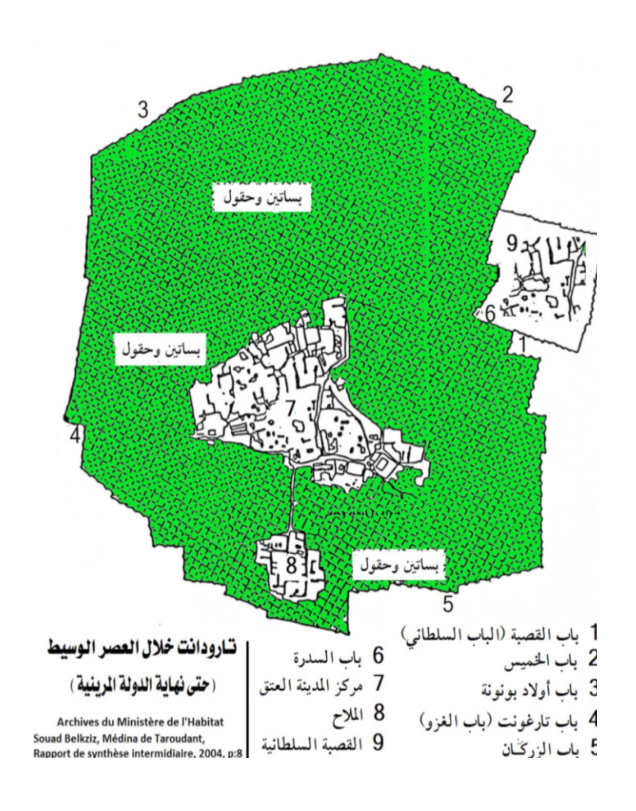
الدور الاجتماعي/الثقافي/الترفيهي: سرعان ما ساعدت هذه البيئة المتميزة على

وأشجار الفواكه المختلفة، التي يطلق عليها أهل تارودانت «العود الرقيق»، وعادة ما يخصص جزء منه للحرث وأعمال الفلاحة الأخرى.

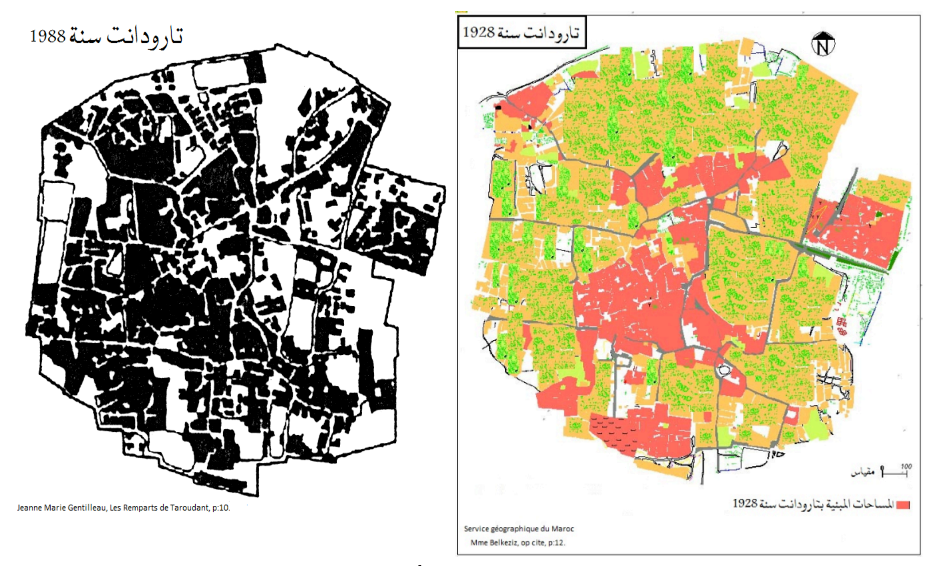
31. نورالدين صادق، **تارودانت من خلال مقيدات محمد بن عبد الرحمان التلمساني (ابن الوقاد)، م.س**، ص.49.48.

32 . ابن عذاري، **البيان المغرب، م.س**، ج3، ص. 594.

تكييف السلوك اليومي، والعادات الثقافية الحضرية لأهل تارودانت، وذلك بظهور عادات وطقوس، أصبحت جزءا لا يتجزأ من السلوك الحضري لمختلف فئات الصُّنَّاع من دَبَّاغين، ودَرَّازين، وخَرَّازين، وصَاغَة.. وبالتدريج، تحولت كل تلك البساتين النضرة، والحدائق الغناء، إلى فضاءات ملائمة لاحتضان عادة «النزاهة» بطقوسها المميزة. وقد أصبحت «النزاهة» طقسا أسبوعيا، يمارسه الحرفيون والتجار، يوم عطلتهم الأسبوعية التي هي يوم الجمعة. كما أصبحت أيضا عادة فصلية تمارسها كل الاسر الحضرية، بحلول فصل الربيع من كل سنة. ومن خلال جلسات «النزاهة»، التي يمارسها الحرفيون، تطورت بالتدريج إيقاعات فن الدقة الرودانية، ومن خلالها أيضا شاع نظم، وإنشاد قصائد الملحون، بطريقة خاصة جدا، هي التي تعرف بفن «الكْريحة»[33]



33. «الكْريحة» مشتقة من القريحة، وهي: «ملكة يقتدر بها على الإجادة في نظم الشعر» (**المنجد في اللغة والأدب، والعلوم**)، فشيخ الملحون هنا ليس مجرد منشد، بل هو يردد قصائده التي ينظمها من قريحته ويسمى شيخ الكْريحة.



تشير المساحات الداكنة (الحمراء في التصميم الأول إلى حجم الرقعة المبنية والتي لا تتجاوز ثلث المساحة العامة

هكذا إذن، يبقى وسط المدينة ومركزها، الذي تحتله مجموعة من الأحياء، مثل حي«أسراڭ»، وحي «الزاوية»، مجالا خالصا تتركز فيه الأسواق، والفنادق، والمشاغل والورشات الحرفية، كما تتركز في أطرافه أيضا العديد من المساجد، وأضرحة الصلحاء، ومقرات الزوايا... وهذا المركز تحتل قلبه، وتشكل نواته ساحة أسراڭ التي تشكل نواة المدينة أيضا، وقلبها النابض. فعندها تلتقي كل الطرق الواردة من أبواب المدينة الخمسة، هذه الأبواب، التي تتطابق بشكل تام مع المسالك التجارية، التي كانت تربط تارودانت بباقي المدن المحيطة. وهكذا فإن تقاطع أبواب المدينة مع ساحة أسراڭ يعتبر العنصر الأساسي الذي يهيكل النسيج العمراني لتارودانت. وهذا أمر يحيلنا بشكل قوي على إحدى وظائف المدينة الأساسية وهي: الوظيفة التجارية.[34]

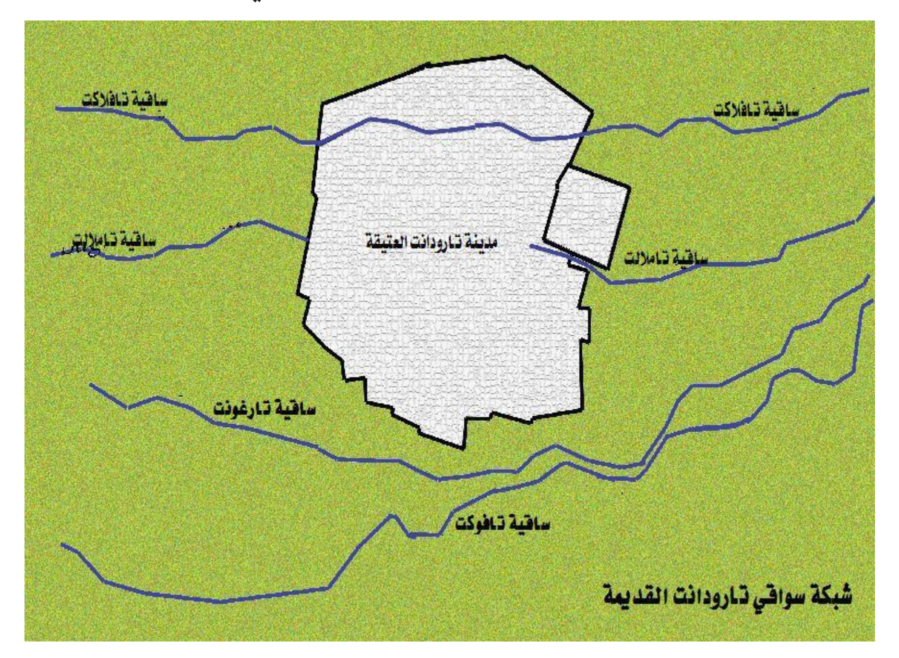
وعلى عكس باقي المدن الإسلامية العتيقة، التي عادة ما يحتل فيها المسجد، أو دار الإمارة (قصر الأمير) قلب المدينة، وحولهما، كرمزين للسلطة الروحية والسياسية، تنتظم وتتهيكل باقي الانسجة الحضرية الأخرى؛ فإننا في حالة مدينة تارودانت، نجد الجامع

34. Fouad Lamouri et Rahal Kaisser, *Etude architecturale de La Médina de Taroudant*, Ministère de l'Intérieur, Direction de l'Architecture et de l'Urbanisme, p.26.

الكبير لا يحتل قلب المدينة العتيقة، بينما تنزوي القصبة السلطانية، بمختلف مرافقها، وبنياتها الإدارية والعسكرية، إلى أقصى هامش المدينة الشمالي الشرقي.

جريان المياه العذبة داخل المدينة، واختراق السواقي لها من كل الجوانب:

5-1-2-1ـ أهمية السواقي وأدوارها: استفادت تارودانت، منذ قرون خلت، من مياه أربع سواقي كبرى، كانت تخضع لنظام محكم في السقي، وفي تقسيم المياه بين ذوي الحقوق. اثنتان من هذه السواقي تخترقان المدينة من الشرق إلى الغرب، وتمران عبر حقولها، وعبر أحيائها السكنية، بل إن بعض فروع هذه السواقي، ومصارفها، تمر من تحت الدور السكنية في كثير من الأحيان؛ وهما ساقية «تافلاكت»، وساقية «تاملالت». بينما تمر ساقيتان أخريان، وهما ساقية «تارغونت»، وساقية «تافوكت»، بمحاذاة أسوار المدينة، من الجهة الجنوبية.[35] وتلعب هذه السواقي مجتمعة، أدوارا متعددة في الحياة اليومية للمدينة ولأهلها، يمكننا أن نحصر البعض منها فيما يلي:



35. حول هذه السواقي، ونظام الري بها وكيفيات توزيع مياهها، راجع الفصل المتعلق بـ: «تنظيم مياه الري» بين ص. 130 و138 من هذا الكتاب.

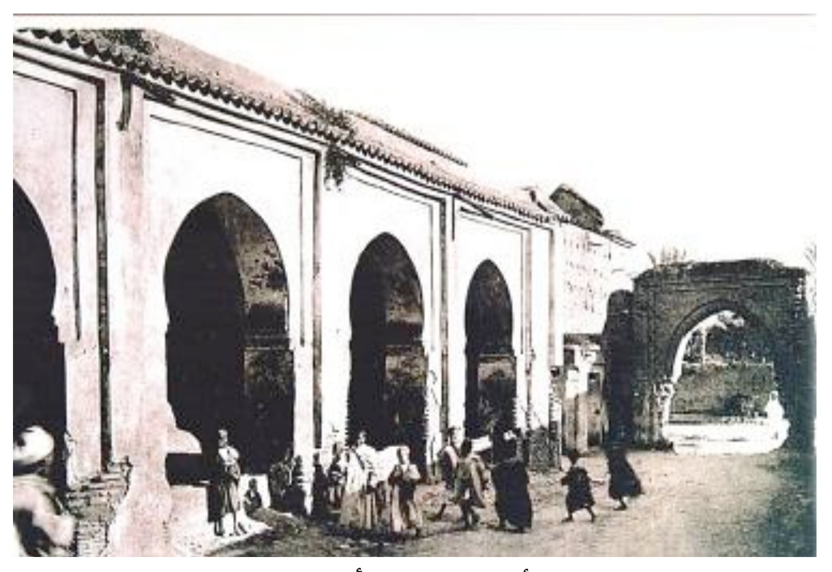
توفير مياه السقي للحقول والبساتين: لقد سبق ورأينا بأن أولئك الذين وضعوا تصميم مدينة تارودانت، حَبَوهَا باحتياطي استراتيجي مهم من الأراضي المخصصة للزراعة، داخل الاسوار، وحول مختلف الأحياء، والحومات، أو ما يعرف في تارودانت بـ:»الربوعة«. وكان من الطبيعي أن يفكروا في تزويد كل هذه الأراضي وهذه «الجنانات» بما يكفيها من مياه السقي، لذا جعلوا من ساقيتي «تافلاڭت»، و»تاملالت»، وما يتفرع عنهما من سواقي صغيرة ومصارف، المُزَوّد الرئيسي لكل الحقول، ولكل المنشآت الحيوية، ولكل الحومات، بمياه السقي المخصصة أساسا لأغراض زراعية. وبهذا كانوا يضمنون الانتظام في تزويد الأسواق بقسط هام من حاجياتها، من الخضر، والفواكه، والحبوب، في أوقات السلم، كما أنهم يضمنون، أيضا، مخزونا استراتيجيا في أوقات الحرب والحصار، يمَكّن أَهل المدينة من الصُّمُود لمدة طويلة.[36]

العمل على تلطيف الجو: من المعلوم، كما قدمنا لذلك في مدخل هذا العمل، أن تارودانت تقع في منطقة يسودها مناخ شبه جاف، مطبوع عادة بارتفاع مهم في درجات الحرارة، خاصة خلال فصل الصيف. لذا تفتقت عبقرية مؤسسي المدينة، أو من جاء بعدهم، على جعل الساقيتين المذكورتين، وما يتفرع عنهما من قنوات ومصارف، تخترق الأحياء السكنية، بل ويمر البعض منها من أسفل المساكن، في عدد من الأحياء السكنية بالمدينة العتيقة. وقد ساهم جريان المياه بهذا الشكل، في تلطيف الجو، وفي طبع الطقس بكثير من الرطوبة ومن الاعتدال، داخل هذه الاحياء. خاصة وأنها كانت محاطة بضلال أشجار الزيتون، والليمون، والفشفاش، والصفصاف من كل الجوانب.

السقايات السعدية: اهتم السعديون بإقامة عدد من السقايات العمومية، قرب عدد من المرافق العمومية، كالمساجد الكبرى، وسجن المدينة. وكانت السقايات عبارة عن بنايات كبيرة تتكون من واجهتها من قوسين على الأقل، ينفتحان على صهريج كبير، تزوده السواقي، التي سبق ذكرها بالمياه العذبة، ويستعمله المارة وزوار المدينة من

36. دامت الحرب سجالا حول تارودانت، ودام حصار جيوش السلطان المولى إسماعيل، بقيادة ابنه الأمير المولى زيدان، لقوات أخيه الأمير المولى محمد العالم بتارودانت ثلاث سنين، قبل أن يتمكن من دخولها، وذلك من: 1114هـ/1703م إلى 1116هـ/1705م. الناصري، **الاستقصا، م.س**، ج7، ص. 91.

الغرباء، ورواد المرافق المحاذية، للتزود بمياه الشرب، وتلطيف أطراف الجسم إبان ارتفاع الحرارة، وللوضوء أيضا. ولم تندثر جل هذه السقايات، إلا منذ وقت قريب جدا، بفعل الإهمال، وبفعل جهل المسؤولين والسكان معا، بقيمتها الوظيفية، والحضارية، والمعمارية، والجمالية. ومن أشهر تلك السقايات: سقايات الجامع الكبير، وقد تمكننا بحمد الله من إقناع المسؤولين بإرجاعها خلال الترميم الأخير بعد حريق الجامع، وسقايات جامع فرق الأحباب، وهي أجمل هذه السقايات وأكبرها، وسقايات مسجد سيدي أوسيدي، وسقايات سجن القصبة، التي لا تزال بقاياها شامخة، بالرغم من طول أمد الإهمال، ومن عبث العابثين بمعالمها.



صورة لسقايات جامع فرق الأحباب، وهي من أجمل سقايات المدينة، هدمتها مياه الأمطار نهاية الستينيات من القرن العشرين، والصورة تعود إلى مطلع الثلاثينيات

الآبار والمياه الجوفية: فضلا عن كل مصادر المياه السالفة الذكر، فإن المياه الجوفية لم تكن بعيدة العمق، بالمدينة وبمحيطها، ولذلك كانت دور المدينة، تتوفر كل منها على بئرها الخاص. وهذا ما جعل السكان في راحة تامة من مشكل التزود بالمياه العذبة، مياه الشرب، والذي كانت تعاني منه العديد من المدن العتيقة بالمغرب.

هكذا ساهمت وفرة المياه بالمدينة، ومن كل هذه المصادر المختلفة، والمتنوعة، في جعلها مدينة خضراء، جميلة، بهرت آيات خصبها، ومظاهر خضرتها كل من زارها من أصحاب القلم، الذين خلدوا لها أوصافا حافلة، تنم عن الاعجاب الكبير الذي تركته في أنفسهم. فهذا الشريف الإدريسي يقول فيها: «هي تارودانت ... وبها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة، وأنواع كثيرة كالجوز والتين والعنب...، وكذلك المشمش والتفاح المهند، وقصب السكر الذي ليس على قرار الأرض مثله طولا وغلظا وحلاوة وكثرة ماء».[37] وهو نفس الانطباع تقريبا، ذلك الذي خلفته عند ابن عذاري المراكشي، الذي خلد لها بدوره وصفا حافلا أيام الموحدين، من ضمن ما جاء فيه: «وشاهدت وصفا حفيلا، وبلدا خصيبا، وذلك أن ساقية كبيرة ارتفعت من وادي سوس إلى تارودانت، وعليها العمارة والسكنى والرياضات،... وفيها من الأشجار أنواع، واتصل هذا المجموع بعضه ببعض في بسيط معتدل الهواء، فسيح الأرجاء، واسع الطرقات، كثير الخيرات... ناهيك عن واد ينعقد من مائه السكر قد صفا زلالا وزهت به هذه البلاد جمالا».[38]

اعتماد الوظيفة كمبدأ عمراني للتمييز بين الأحياء:

يتكون المجال الحضري لمدينة تارودانت العتيقة من عدد من الاحياء والحومات، يتفرد كل منها بوظيفته الخاصة، لكنها تندمج كلها في وحدة عمرانية منسجمة هي المدينة. واعتمادا على الوظيفة التي تقوم بها مختلف الأحياء والحومات، يمكننا أن نميز فيها بين الأحياء السكنية، وهي تشكل مجالات منعزلة، تحيط بنواة المدينة ومركزها، لكنها تنفصل عنها بأحزمة خضراء من البساتين و«الجنانات». ثم هنالك في أقصى الشمال الشرقي للمدينة يقع «الحي الإداري»، الذي تمثله القصبة، بما تحويه من مرافق إدارية، كـ: دار المخزن، والسجن، ومقر الخزينة «دار العشور»، والثكنة العسكرية.. وتمثل حومة الجامع الكبير الحي العلمي والثقافي، لاحتضانها جامعة الجامع الكبير، والمدرسة الجشتيمية، وزواية آل التلمساني (بني الوقاد)، وحي سيدي احساين، الذي كان في

37. الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، م.س**، ص.227.

38. ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب، م.س**، ج3، ص. 594.

الغالب مقرا لسكنى الأساتذة، والشيوخ المدرسين، والطلبة. ويشكل قلب المدينة الحي التجاري والحرفي بامتياز، ففيه تتركز الأسواق، التي تحوي مختلف «الحناطي» المُشَكَّلة من فئات وأصناف مختلفة من التجار والحرفيين، كما يضم عددا من الفنادق، المخصصة لاستقبال التجار من مختلف الآفاق، ببضائعهم، وبذوابهم. غير أنه بالمرور من حي لآخر، لن تشعر بأي تناقض أو بأية قطيعة في استمرارية النسيج العمراني.

فوحده الإطار والنسيج المعماري، هو الذي يتغير من حي لآخر حسب وظيفة المجال: فتارة تصادف مجموعة كبيرة من الدكاكين مصطفة، مفتوحة مباشرة على طرق عريضة نسبيا، تتميز بالاستمرارية، وتنعدم فيها الممرات المغلقة/المسدودة (impasses)، وهو ما يعكس رغبة كبيرة معلنة في تسهيل المرور، فتأكد حينها أنكـ وسط حي تجاري. وتارة أخرى قد تجد نفسك وسط أزقة ضيقة، شديدة التعرج، تحدها جدران عالية نسبيا، تنفتح بها أبواب معدودة، وتتخللها بين الفينة والاخرى ممرات مغطاة «الصابة»، وتعلو هذه الصابات بنايات غرف، تتلصص على الزقاق بنوافذ متوسطة الحجم «المصرية»، وفي نهاية هذا الزقاق الطويل والمتعرج، ينتصب أمامك حائط يعلن نهاية الجولة، حينها كن متيقنا أنك في قلب حي سكني.

الفصل الكلي بين الأحياء الوظيفية والسكنية:

إن اعتماد الوظيفة كمبدأ للتمييز بين مختلف الأحياء، لا يقتصر على التمايز المجالي بين هذه الأحياء، بل إنه يُكَيِّف تخطيطها العمراني، ويُساهم في تشكيل عناصرها المعمارية، وفي توظيف هذه العناصر بشكل دقيق، وملفت، لتستجيب لمتطلبات الحياة اليومية للساكنة. وهكذا يتكيف عُمران ومعمار الأحياء الوظيفية، بشكل مَرن مع النشاط الرئيسي لكل من هذه الأحياء. فالأسواق تتهيكل أزقتها حول «الحناطي»، وتُمفصل ممراتها الفنادق، باعتبارها فضاءات مغلقة، منها ما يقدم خدمات الإيواء، والتخزين، ومنها ما يتخصص في احتضان بعض الأنشطة المحددة مثل: فندق التمر، فندق الجلد، فندق الكتان... لكن مجموع أزقة وممرات السوق، تقود وجوبا نحو

الفضاء المحوري الذي يهيكل كل هذه البنية، والذي تمثله ساحة أسراگ، قلب المدينة النابض، ومركزها الذي يستقطب كل الأنشطة التجارية والحرفية.

وبعيدا عن كل هذه الحركية، وعن كل تلك الحيوية والضوضاء، التي تشهدها الأحياء الوظيفية على اختلافها، تنزوي الأحياء المخصصة للسكن، محصّنة بأحزمتها الخضراء، منفصلة تماما عن أحياء التجارة والحرف. غير أن هذا الفصل لا يأتي اعتباطا، ولا تبدو فيه آثار التعسف. بل إنه يتأسس على جملة من والقيم المبادئ، التي ترتبط بالعقيدة الإسلامية، هذه القيم والمبادئ، التي يبدو أنها حكمت، ووجهت، تخطيط وعمران كثير من المدن الإسلامية منذ نشأتها. ولعل أكبر نجاح حققه مخططو المدن الإسلامية ومهندسوها، هو قدرتهم الفائقة على ترجمة تلك القيم والمبادئ، إلى مخططات عمرانية، وإلى أشكال وعناصر معمارية، تكيف السلوك اليومي لمرتاديها لينسجم مع روح عقيدة الإسلام. ومن بين هذه المبادئ والقيم يمكن أن نمثل بمبادئ «منع الضرر»، و»حرمة العائلة»، وبقيم «التكافل الاجتماعي»..

يرتبط شكل الاحياء السكنية بتارودانت العتيقة، ارتباطا وثيقا بالمستوى الاقتصادي لساكنتها، فعلى سبيل المثال في حي الجامع الكبير، حيث كانت تقطن الأسر التقليدية الميسورة، نجد كثافة سكانية منخفضة، تدل عليها مساحة الدور السكنية، التي تتميز باتساعها مقارنة مع ما هو عليه الامر في الأحياء الأخرى، غالبا ما تتوسطها أفنية يبلغ ضلعها في المعدل سبعين ذراعا، وذلك حرصا على ضمان تهوية المنازل، حسب إرشادات السلطان محمد الشيخ السعدي. كما نجد بهذا الحي طرقا قليلة العدد، لكنها متسعة نسبيا. وعلى عكس ذلك ففي أحياء «**الملاح**»، و»**درب أقا**»، و»**فرق الأحباب**»، حيث تنتشر الأحياء السكنية للفئات المتوسطة، تنتشر مساكن أصغر مساحة، وأحياء أكثر كثافة، تتوفر على عدد أكبر من الأزقة الطويلة الضيقة، والتي تتفرع بدورها إلى مسالك، غالبا ما تفضي إلى ممرات مغلقة «impasses».

إن وضع تصاميم الاحياء السكنية بهذا الشكل، يعكس رغبة المهندسين الملحة في حماية النساء والأطفال، داخل الأحياء السكنية، وحرصهم الشديد على الحد من

ولوج غير القاطنين لهذه الاحياء، وذلك بهدف ترك هامش أكبر من الحرية للأطفال قصد اللعب، وللنساء قصد التواصل فيما بينهن، وكذا للقيام ببعض الأعمال الجماعية، التي تحتم التعاون فيما بينهن (التنگية، التسدية...)، أو فقط للاجتماع وتبادل أطراف الحديث والترويح على بعضهن، أثناء فترات غياب الأزواج. وهذا الامر هو الذي يفسر إصرار أولئك المهندسين، على تأثيث هذه الشبكة المعقدة، من الأزقة والمسالك المتشعبة، بعدد مهم من الساحات المتوسطة منها، والصغيرة، والتي تعرف في القاموس المحلي بـ:»**الوسعات**»، والتي تشكل فضاءات ملائمة، تيسر التواصل بامتياز.

بعض العناصر والتقنيات المعمارية المميزة لمعمار تارودانت:

يتميز النموذج المعماري لمدينة تارودانت بجمعه، في سلاسة وتناسق تامين، بين ملامح، وعناصر، وتقنيات، معمار الحواضر الإسلامية، بما طورته من تجارب في المغرب والأندلس؛ وبين أشكال، وعناصر، وتقنيات، المعمار المحلي القروي الأمازيغي العتيق. وهو أمر يجعل من عمارة مدينة تارودانت، نموذجا معماريا يتميز كثيرا عما تعرفه أغلب حواضر المغرب العتيقة، في وسط وشمال البلاد. لذا نرى أنه من اللازم أن نقف، ولو بعجالة، عند بعض من تلك العناصر، وعند بعض من تلك التقنيات المميزة، لنفهم بعضا من القيم التي ترتكز إليها، ولنستجلي بعضا من معالم وظيفيتها. على اعتبار أن هذا النوع من المعمار، يندرج ضمن صنف المعمار الوظيفي: فكل العناصر، وكل الاشكال المعمارية المستعملة، لها وظيفة أساسية تبرر استعمالها.

الممر المغطى أو «الصابة»:

عند ولوج الاحياء السكنية على الخصوص، تثير انتباهنا كثرة الممرات المغطاة، التي تعتري مختلف الازقة والدروب. وهذه الممرات هي التي تدعى في القاموس المحلي بـ «**الصابة**». وهي ليست مجرد شكل، أو تقنية معمارية، ذات صبغة تزيينية أو جمالية، بل إنها في العمق تعبير معماري، يجسد قيمة حضارية وإنسانية، ويعطي الدليل على وظيفية مختلف العناصر والأشكال المعمارية، داخل هذا النسق العمراني المتجانس، والوظيفي، الذي تمثله عمارة تارودانت.

فالصابة، تجسد مبدأ وقيمة: تغليب المصلحة العامة على المصالح الخاصة، حيث أن المالكين الأقرب إلى الطريق العام، أو إلى الزقاق الرئيسي، يكونون ملزمين بالتنازل، عن الجزء الضروري من حقهم في ملكيتهم، لفائدة جيرانهم الواقعين خلفهم، حتى يتسنى لهم الوصول إلى ذلك الطريق العام، أو ذلك الزقاق. وهو ما يسمى في أعراف المدينة بـ: «حق المكّاز»، أو في لغتنا الحديثة بـ: الحق في المرور (Le droit au passage). وفي مقابل ذلك، يبقى من حق أولئك المالكين استغلال الطابق العلوي، الذي غالبا ما تشغله غرفة بنافذة واحدة، وفي بعض الأحيان بنافذتين متقابلتين، تطلان على الزقاق، وتدعى هذه الغرفة بـ: «المصرية».

أما من الناحية دواعي توظيف هذه التقنية، وهذا الشكل المعماري، ففضلا عن وظيفة تسهيل مرور جميع المالكين، وتسهيل وصولهم إلى دورهم وعقاراتهم، فإن تعدد «**الصابات**» على امتداد الازقة داخل الحومة، تجعل هندسة هذه الأزقة والممرات جد ملائمة لأحوال الطقس. فمناخ مدينة تارودانت يتميز عموما بارتفاع درجات الحرارة، خلال أغلب أشهر السنة، مع بلوغها درجات قياسية خلال فصل الصيف، وتتابع هذه الممرات المغطاة، يضمن لساكنة الحومة مرورا ممتعا، بعيدا عن لفح أشعة الشمس الحارقة. وهو ما يضمن، في ذات الوقت، تكييفا طبيعيا لتلك الأزقة والممرات، وهنا تكمن عبقرية المهندسين القدامى، وتتضح مدى نجاعة، ووظيفية، مختلف الاشكال التي درجوا على استعمالها. فبين الصابة والأخرى تبقى فسحات غير مغطاة، تسمح بتسرب الهواء، الذي يتمكن من خلق مجرى له (un courant d'air) عبر الردهات، وعبر الازقة الملتوية المظللة، فتنخفض درجة حرارته بسرعة ملفتة، وتنخفض معها درجة حرارة الزقاق، بل حتى الدرب بأكمله. وباللجوء إلى التجربة والمعاينة، لا تصعب ملاحظة هذا الامر بجلاء، فيما تبقى من أنسجة الدروب العتيقة، كـ: «درب الفقيه»، بحومة «سيدي حساين» مثلا، والذي تنخفض به درجة الحرارة، خلال فصل الصيف، عما هي عليه في الممر الرئيسي بنسبة قد لا تقل عن 30٪.

وفوق كل هذا وذاك، فإن تعاقب المقاطع المظللة، والمهواة، على امتداد الزقاق، يسمح بضمان التوازن بين كميات الظلال والضياء، داخل هذه الممرات، مما يتيح قدرا كبيرا من الراحة لعين الناظر، ويجنبها مخاطر قوة انعكاس الأشعة في بيئة مشمسة. كما يسمح أيضا بتسرب كمية الضوء اللازمة، لخلق إنارة طبيعية، تكسر ظلمة تلك العتمة التي تخلقها ظلال «الصابات».

الممر الملتوي/ أو المَرفقي: La chicane/le passage coudé

عادة ما يتم الانتقال من حي لآخر عبر فضاءات ملتوية، متعرجة،(La chicane)، يترجمها البعض بالممرات المرفقية.[39] وهذا الممر الملتوي يعتبر بمثابة ترجمة مجالية، معمارية لمبدأ الانتقال، بين مجالين مختلفين، أو من حي إلى آخر، وعادة يتم الإعلان عنه بطرق مختلفة مثل التغيير المفاجئ في اتجاه الطريق، أو ضيقها المفاجئ، أو عبر ظهور ساحة أو وسعة تتفرع منها عدة أزقة...[40] وكل هذه الأشكال بمختلف أبعادها، تؤدي وظيفة مجالية هي الربط بين أحياء المدينة.

اعتماد ازدواجية الفضاء المغلق والفضاء الرحب المهوى:

تأسست عمارة تارودانت على عدد من المبادئ المعمارية، من ضمنها مبدأ الفضاء المغلق، والذي يتجلى أولا في السور الذي يحيط بالمدينة، مشكلا بذلك فضاء مغلقا، بحيث لا يمكن للمدينة أن تتصل بما يقع خارج السور إلا عبر أبوابها الخمسة. كما أن هذا المبدأ يبرز أيضا من خلال شكل الساحات و»الوسعات»، حيث تتركز حركة التجارة والمرور: فبالرغم من أنها ترتبط بباقي أنسجة المدينة عبر شبكة من الطرق والمسالك والأزقة الملتوية، فهي، مع ذلك تبقى فضاء مغلقا بصريا، ذلك أن تواجدك وسط الساحة لا يمكنك من رؤية ما يقع خارجها، ولو بمحيطها القريب. بل إن الطريق نفسه قد يصير أحيانا فضاء مغلقا على العين، نتيجة تغير مفاجئ في الاتجاه، أو بروز ممر مغطى «صابة». يتجلى مبدأ الفضاء المغلق كذلك، بوضوح تام، في هندسة المساكن، التي تنتظم

39. منير أقصبي، **العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ**، **م.س**، ص. 14.

40. F. Lamouri et R.l Kaisser, *Etude architecturale de La Médina de Taroudant* , *op.cit*, p.60.

مجالاتها حول الساحة الوسطى «**وسط الدار**»، «**المراح**»، والذي ترتبط أهميته عادة بالعلاقة التناسبية بين مساحته وبين علو الجدران المحيطة به، فهذه العلاقة هي التي تعطي للبناية طابعها، فهي التي تحدد حجم التهوية، وكمية الإضاءة، ومدى الحاجة إلى وجود أغراس، كما أنها هي التي تعزز طابع الخصوصية في المنزل لكونها مغلقة عن العالم الخارجي.[41]

يتمظهر الفضاء المغلق في كل هذه الحالات، بأشكال مختلفة، فيتغير رسمه هندسته حسب الاشكال المعتمدة: إما مربعا، مستطيلا، أو يتخذ شكلا دائريا... وهو ما يمنح معمار تارودانت العتيقة أشكالا تتميز بالتنوع والغنى.

تربط الفضاء الرحب المهوى، بالفضاء المغلق علاقة تلازم وتكامل. فبالرغم من كون المدينة كلها تشكل فضاء مغلقا، محاطا بشكل كامل بالأسوار، فإن نسيجها العمراني كان يحتضن مساحات خضراء، مشجرة ومزروعة، شكلت متنفسا حقيقيا للمدينة. رأينا كذلك كيف تنتشر، على مستوى الأحياء السكنية «وسعات» مختلفة الأحجام والأشكال، تكتسي أهمية وحيوية خاصتين باعتبارها متنفسا عمرانيا. الدور السكنية بدورها تتنفس عبر فناءاتها و»مراحاتها». الاحياء التجارية أيضا تتهوى بواسطة قيسارياتها وفنادقها. وعندما يتجه زائر المدينة نحو ساحتها الوسطى «أسراك»، عبر شبكة الممرات والازقة الضيقة، والمزدحمة، ويخرج منها إلى فضاء الساحة الرحب، سرعان ما يتنفس الصعداء، ويتملكه إحساس مفاجئ بجمالية المكان، لكن بعد تأمل يدرك ببساطة أن هذا الإحساس، لا يرجع في الواقع إلى شكل البنايات، أو جمالية الواجهات، ولكن إلى الساحة نفسها في أبعادها وفي ارتباطها بالنسيج المحيط بها. وحدها لمسة المعماري (L'urbaniste) تمنحك ذلك الإحساس بالمتعة.[42]

الجمع بين خصائص المعمار الحضري والمعمار القروي:

منذ ظهورها على مسرح التاريخ، ظلت تارودانت حاضرة الإقليم السوسي، كما اضطلعت بأدوار المركز التجاري والحضري، بل بأدوار العاصمة السياسية والاقتصادية..

41. **نفسه**، ص. 63.

42. **نفسه**، ص. 64-65.

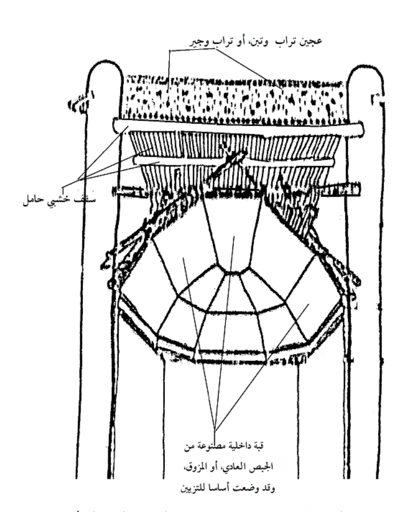
وقد استتبعت كل هذه الأدوار، استقطاب المدينة لأفواج النازحين، من آفاق بعدية، كما من القرى والجبال المجاورة، سواء بشكل فردي أو بأشكال جماعية، حسبما تمليه التقلبات السياسية، والاقتصادية، التي عاشتها المدينة، عبر مراحل ومحطات مختلفة من تاريخها. وقد أفرز هذا الوضع، تطورا مطردا لنسيجها العمراني، في تأثر واضح بأصول الساكنة النازحة، وبمواطن وفودها، وأيضا بمستواها الاقتصادي والاجتماعي. وهكذا تطور بتارودانت معمار حضري خالص، على غرار معمار حواضر المغرب الكبرى. وإلى جانبه نما شكل آخر من المعمار يعود إلى أصول قروية، على غرار ما يحدث في قرى الاطلسين الصغير والكبير، وبباقي سهول سوس. وقد ساهم هذا التأثير القروي في بصم التنظيم الحضري للمدينة، وهي خصوصية لا نجدها لا في فاس، ولا في مراكش.[43] وبالتدريج تَشَكَّلَ نموذج معماري وعمراني وسيط، يتميز على عدد من المستويات:

فعلى مستوى مواد البناء المستعملة، يمكن أن نلاحظ كيف يتم الجمع بسلاسة بين مواد بناء تختلف أصولها، وتقنيات استخدامها. حيث يستعمل التراب المدكوك، وفق تقنية «اللوح»، وقد يخلط التراب بنسبة معينة من الجير قصد تثبيته، أو يستعمل منفردا. وقد تستعمل تقنية «الطابية»، وذلك باستخدام لبن ترابي نِيٍّء يدعى «الطوب» أو «أمقدار»، وهو لبن يصنع من التراب المخلوط بالتبن، ويجفف طبيعيا على أشعة الشمس.

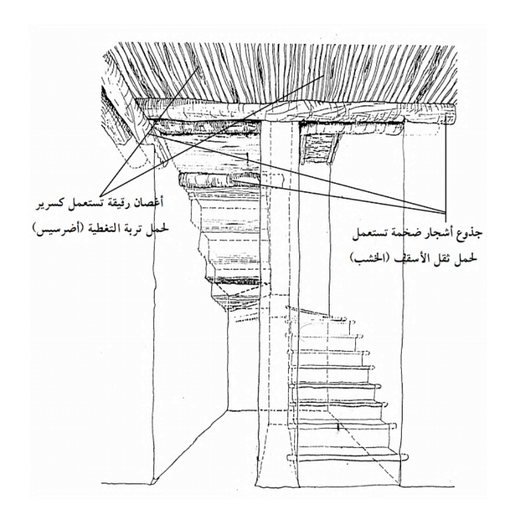
ويحدث الأمر نفسه على مستوى التقنيات المعمارية المعتمدة، حيث يهتم السكان الحضريون بتزيين بيوتهم عبر استعمال الجبس المنقوش والملون، المزين بزخارف نباتية، وبكتابات بديعة، ويُستعمل الخشب المزخرف بنقوش دقيقة وجميلة، في أسقف المنازل والرياضات، بينما تكسى جدرانها وأرضياتها بالرخام، أو بأشكال بديعة من الزليج والفسيفساء، ذات الألوان الزاهية... وإلى جانب هذا النوع من البنايات الفخمة، نجد بنايات أخرى أكثر بساطة، تستعمل لتغطية سقوفها عارضات متينة من الخشب المعالج بشكل أولي، المقطوع من جذوع أشجار الزيتون أو الصفصاف، أو النخيل. وتتخلل

43. **نفسه**، ص. 21.

هذه العارضات بشكل يتعامد معها صفوف مرتبة من أغصان شجر الأرگان المتوسطة والرقيقة، والتي تسمى «**أضرصيص**»، ولتزيين الجدران، وخاصة منها جدران الأفنية، يستعمل طلاء جيري يعتمد على رسم أشكال بشرية وحيوانية عفوية، مثل ما يحدث في عمق القرى المجاورة. وعلى مستوى الأسطح أيضا، قد تتجاور الأسطح العادية المستوية إلى جانب قباب ضخمة تتميز الفخامة، كما قد تتجاور أبواب صغيرة، تضطر الداخل عبرها إلى الانحناء، مع أقواس عالية محكمة البناء...



رسم لسقف حضري، يبرز الميل إلى المظهر الجمالي للعمارة، فيغطى السقف الخشبي



رسم لسقف خشبي مكشوف، يبرز أحد مظاهر تأثير العمارة القروية في معمار

ويتضح ذلك التمازج والتلاقح بشكل سلس بين ثقافتين مكملتين لبعضهما البعض: عربية، وأمازيغية؛ حضرية، وقروية، بشكل واضح وملموس، على مستوى القاموس اللغوي والتقني المستعمل في مجال المعمار والبناء. فعلى هذا المستوى يجمع القاموس المتداول بين الألفاظ العربية والأمازيغية، والتي تتداول بشكل عادي بين كل ساكنة المدينة، على اختلاف أصولها. ونسوق كمثال على ذلك بعضا من هذه الكلمات، حيث يتحدث أهل تارودانت عن: المنزه، المراح، القبة، السواري، القوس، المحراب، الصحن...، وأيضا عن: أكفيف، أمقدار، تزاگورت، أضرصيص، أعگمي، تليمامت، أمياضي...

ملاحظات على سبيل الختم:

من خلال هذه القراءة الأولية والمبسطة، حول عمران ومعمار مدينة تارودانت، يتضح بجلاء أن هذا المجال لا يزال بكرا، لم ينل حظه بعد من الدراسة المتأنية، ومن التحليل الرصين، اللذين من شأنهما أن يجدا التفسير والتأويل الملائمين للعديد من التقاليد العمرانية، ومن الأشكال المعمارية، المنتشرة في عمران ومعمار مدينة تارودانت العتيقة. ولعلها الطريقة الأنجع، لكي نجعل كل تلك الأشكال والعناصر العمرانية والمعمارية المتداولة تبوح بكل مكنوناتها وتكشف كثيرا من طلاسمها؛ الامر الذي قد يمكننا أيضا من الكشف عن جزء هام من أسرار تاريخ هذه المدينة، التي لا يزال الكثير منها مستعصيا.

ينبغي أيضا أن نستحضر أن مدينة تارودانت كانت تضم عددا كبيرا من القصور والرياضات، التي اندثر الكثير منها، ولم نعد نعلم عنها أي شيء. إلى درجة أننا اليوم نجهل حتى مواقعها، بل ومواقع أحياء بكاملها أتى عليها الخراب، كحومة «عيسى بن القاضي»، والتي يشير إليها كل من القاضيين السكّتاني والتمنارتي، وكذا «الربع» وهو أحد أحواز تارودانت، وردت إليه إشارات عديدة خصوصا عند التمنارتي ولا نعلم اليوم له موقعا.

لقد كان من حسن حظنا، أن ترك لنا صاحب «مناهل الصفا» وصفا حافلا لهذه المدينة، أيام السلطان أحمد المنصور، حيث قال: «وإلا فالمحمدية التي هي من مشيدات الإمام والد مولانا المنصور ... ذات القصور المشيدة، والأواوين الموطدة، والرياض المفوفة، والمساجد المزخرفة، والمآذن المقرطة بلآلئ النجوم المشنفة، إلى معاصر السكر الجاثمة حواليها جثوم أهرام مصر ... لا يطير تحت جناحها البلد الجديد من فاس، الذي هو عند بني مرين مشيديه آية خارقة، ولا قصبة مراكش، التي هي عند الموحدين من قبيل الإعجاز، بل إذا ذكرت المحمدية لف كل منهما رأسه استحياء، وحسبي شهادة العيان»[44].

44. عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا، م.س**، ص. 182.

كذلك ينبغي أن نسجل أنه، وفي غفلة منا جميعا، تمتد أيادي الزمان، وأياد أخرى آثمة، مجردة من كل ضمير حي، لتختلس ما تبقى من هذا التراث الزاخر، وتصيره في خبر كان.[45] وهو ما يعرض مدينتنا، وتاريخها، ونحن جميعا معهما، لشكل تعسفي من أشكال فقدان الذاكرة. لذا تقع على عاتق كل أبناء تارودانت، وعلى عاتق كل المسؤولين المحليين، والإقليميين والمركزيين، كل من موقعه، وفي حدود اختصاصه، مسؤولية تاريخية جسيمة، تتمثل في ضرورة التدخل العاجل للاعتناء بهذا النزر اليسير المتبقي من تراث تارودانت المبني، والعمل صيانته، والمحافظة عليه من الاندثار والزوال.

المصــادر:

ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر 1961.

علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، مراجعة غبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية 1999.

يوسف بن يحيى التادلي، ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط 1984.

أحمد بن محمد بن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب**، تحقيق بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 2013.

أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.

عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت 1988.

عبد العزيز بن محمد الفشتالي، **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**، تحقيق عبد الله گنون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

الجندي البرتغالي المجهول، **تاريخ سانتا كروز**، الترجمة إلى العربية أحمد صابر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، الطبعة الثانية 2007.

45. يمكن أن نذكر ضمن آخر المعالم العمرانية التي طالها الهدم الممنهج، وتغيير المعالم، بواسطة رخص وتصاميم «قانونية»، دون أي تدخل لحمايتها من طرف أي من الجهات المختصة والمعنية: رياض القائد الدردوري، وهو أحد أجمل رياضات المدينة، وقد تم تحويله إلى قيسارية، ثم المستوصف الاهلي الذي افتتحه الدكتور شاتينيير سنة 1914، وهو أحد أول المستوصفات المغربية، والذي تحول إلى مشاريع خاصة: صيدلية، عيادة، مقهى.. فضلا عما تم طمسه قبل ذلك من معالم المدينة، كسقايات جامع فرق الاحباب، وسقايات جامع سيدي وسيدي، وغيرها من الصَّابَات والرياضات.

دييڭو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء.

أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1997.

مراجع باللغة العربية:

هشام جعيط، **نشأة المدينة العربية الإسلامية**، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2005،

هنري تيراس، **المدينة الإسلامية**، مدخل كتاب: «الحواضر الأندلسية» لليوبولدو طريس بالبس، ترجمة محمد يعلى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2007.

سعيد أگدال، **المدينة المغربية عبر التاريخ**، الجزء الأول: من لكسوس إلى فاس، دار نشر المعرفة، الرباط 2016.

محمد العميم، **إشكالية المدينة بشمال إفريقيا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك، الدار البيضاء 1990،

نور الدين صادق، **تارودانت من خلال مقيدات محمد بن عبد الرحمان التلمساني (ابن الوقاد)**، المطابع التجارية المغاربية، الطبعة الأولى، أكادير 1998.

بول شاتينيير، **بعثة إلى سوس**، ترجمة وتعليق نور الدين صادق، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان 2015،

منير أقصبي، **العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2015.

مراجع باللغة الفرنسية:

Lamouri Fouad et Kaisser Rahal, *Etude architecturale de La Médina de Taroudant*, Ministère de l'intérieur, Direction de l'Architecture et de l'urbanisme.

Bazzana André, *Les remparts de Taroudannt: un conservatoire des modes de construction en terre crue (XIe–XVIe siècles)*, in «Echanges transdisciplinaires sur les architectures et les constructions en terre crue», Colloque de Montpellier (Décembre, 2001).

Expertise des remparts de Taroudant, synthèse globale, pour l'Ambassade de France au Maroc, Réseau INSERMED, LPEE, Casablanca, 1997.

Gentilleau Jeanne Marie, *Les remparts de Taroudannt, synthèse des actions de la mission de coordination*, ACROTERRE, Ville de Romans, avril, 1999.

قصور واحات الجنوب الشرقي بين الماضي والحاضر

محمد البوزيدي
باحث في التراث ـ بوجدور

شكلت القصور، منذ زمن بعيد، حضارة معمارية متميزة لواحات الجنوب الشرقي[1]، إذ تعتبر أيقونات وبصمات تاريخية هامة تتيح للباحثين قراءة ماضي المنطقة برؤية أنتروبولوجية، كما تكشف عن أساليب عيش الساكنة في فترات مختلفة.

فما هو القصر؟ وكيف تشكل في مراحل سابقة؟ وماهي المفارقات التي يعيشها بين ماضيه المشرق وحاضره المؤلم؟

1ـ القصـر

يطلق القصر[2] على بناء متماسك ومتصل لمجموعة من المنازل المجاورة بعضها البعض، وتخترقه دروب تتفرع كلها عن مدخله الرئيسي، كما أنه وحدة اجتماعية وترابية حكمتها مجموعة من الأعراف والقوانين غير المكتوبة التي تواضعت عليها الساكنة في فترات تاريخية معينة والتي تطورت مع الزمن.

---

1. بل يعتبر المغرب من بين البلدان القليلة التي ازدهر فيها هذا النوع من البناء ومازالت المناطق الجنوبية الشرقية محافظة عليه بشكل كبير رغم زحف الإسمنت.

2. جاء في **لسان العرب** القَصْرُ من البناء، وقال اللحياني: هو المنزل، وقيل: كل بيت من حَجَر سمي بذلك لأَنه تُقصَرُ فيه الحُرَمُ أَي تُحْبس، وجمعه قُصُور.وفي التنزيل العزيز: ويجْعَل لك قُصُوراً. والمَقْصُورة: الدار الواسعة المُحَصَّنَة،وقيل: هي أَصغر من الدار. والقَصُورَةُ والمَقْصورة: الحَجَلَةُ؛ عن اللحياني. الليث: المَقْصُورَة مقام الإِمام، وقال: إِذا كانت دار واسعة مُحَصَّنة الحيطان فكل ناحية منها على حِيالِها مَقْصُورة، وجمعها مَقاصِرُ ومَقاصِيرُ؛ وأَنشد: ومن دونِ لَيْلى مُصْمَتاتُ المَقاصِرِ المُصْمَتُ: المُحْكَمُ.

ويؤكد د محمد ايت حمزة أن القصر صنف من السكن تشتهر به الواحات الجنوبية الممتدة بين الأطلس وتخوم الصحراء بدءا بوادي درعة الأسفل والأوسط مرورا بتافيلالت حتى فكيك، بل إن معالم هذا النمط من السكن يجد استمرارا له في الصحراء الكبرى في كل من الجزائر وتونس وليبيا [3].مع التنبيه إلى أن قصور واحات وادي درعة تختلف عن تلك الموجودة بتافيلالت «لأن الأولى تكون محاطة بسورين يتراوح علو الداخلي منها ما بين 1.40 و 1.80 مترا، أما السور الخارجي فيكون أعلى من سابقه ويبنى بمواد صلبة كما توجد بزواياه الأربع أبراج عالية. بينما القصور بتافيلالت لا تتضمن إلا سورا واحدا وغالبا ما تلتصق به جدران المنازل»[4].

وكلمة القصر تقابلها كلمة الدوار والدشر في باقي مناطق المغرب ..ويسمى بالأمازيغية «إغرمان» ومفردها إغرم كما تستعمل بعض الكلمات الأخرى كمرادف لها كالقصبة [5]..[6]

وغالبا ما يتخذ القصر شكلا مستطيلا ويحيط به سور عال، وتتخلله أبراج في الأركان وما بينها وعلى جانبي المدخل الوحيد الذي ينفتح مباشرة في السور وسط أحد الواجهات، ويكون المدخل عبارة عن قوس يزين إطاره بنقوش جميلة، وهو يؤدي إلى رواق مغطى يفضي بدوره إلى ساحة داخلية كما يضم منازل متراصة ومنتظمة حول أزقة ضيقة مغطاة[7].

---

3. محمد أيت حمزة مادة، **القصر معلمة المغرب** الجزء 19، 2004 ، ص. 38-66.

4. Abdelaziz Touri, Colloque d'Erfoud: l'histoire du Sahara et des relations transsahariennes entre le Maghreb et l'Ouest africain du moyen âge à la fin de l'époque coloniale, Italia ,1986 p.33.

5. ورد في **لسان العرب** القَصَبةُ جَوْفُ القَصْر؛ وقيل: القَصْرُ.وقَصَبةُ البَلد: مَدينَتُه؛ وقيل: مُعْظَمُه.والقَصَبَةُ جَوْفُ الحِصْن، يُبْنى فيه بناءٌ، هو أوسَطُه. وقَصَبةُ البلاد: مَدينَتُها.والقَصَبة القَرية وقَصَبةُ القَرية: وسَطُها.ويطلق عليها بالأمازيغية تغرمت وإغرم كالقصبة وكذلك كَصيبة وكَصيرة التي هي تصغير للقصبة. وتنتشر القصبات بكثرة بواحات وادي درعة وتافيلالت، وقد تضم أكثر من أربعة طوابق بأبراج مربعة الشكل وجرت العادة أن تحتضن مسكن قائد المنطقة، والمسجد ،ومكان الخزين ورياضات وحدائق وجنان... وكان المغرب يتوفر إلى حدود القرن العشرين على أكثر من 1000 قصبة لكن أغلبها انقرضت أو في طور الانقراض لإكراهات مختلفة .

6. حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن 8 هـ/14م**، 1997، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص. 114.

7. لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة. دراسة تاريخية وأثرية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2008، الجزء الثاني، ص. 436

وإذا كانت الوثائق التاريخية لا تحدد تاريخا مضبوطا لبداية تشكل القصور وتجمع السكان فيها[8].

فإن المؤكد أن عملية البناء قد ارتبطت بدواع أمنية واعتبارات اقتصادية وطبيعية أهمها ارتباط معيشة السكان بالفلاحة التي اتخذت من الوادي استمراريتها ،ووفق مواصفات متطابقة فرضتها جدلية تأثر وتأثير الإنسان بالبيئة المحيطة به مما جعل أغلب القصور تبدو بتصاميم متشابهة وتحتفظ بلونها القمحي المتميز الذي اكتسبته من لون التراب [9]الذي بنيت به.

كما أن القصور التي غالبا ما يتم بناؤها في فصلي الصيف والربيع لإكراهات المناخ وقساوته في فصلي الخريف والشتاء، تعتمد في البناء على مادة الطين[10] الذي يتشكل من خلط التراب المحلي بالماء والتبن، وذلك لأسباب متعددة يمكن جرد أهمها:

- إن المنازل المبنية بالطين تعتبر مناسبة جدا للسكن في طقس الواحات حيث تتميز بالدفء شتاء وبالرطوبة صيفا؛

- إن الطين مادة أولية متوافرة بكثرة ولا تكلف صاحب البناء كلفة إضافية؛

8. يؤكد حسن حافظي علوي أن أقدم القصور يعود إلى القرن الخامس الهجري 11م، **مرجع سابق**، ص. 116ـ120.

9. يعتبر التراب المادة المستعملة في بناء القصور، ويستخرج غالبا وبسهولة من عين المكان، كما أن المادة الأولية – كما يؤكد تاويشخت – لا تستعمل مباشرة في حالتها الطبيعية. بل تخدم وتحول في مكوناتها الفيزيائية لضمان استقرار المادة عبر خلطها بمواد مخصبة نباتية كانت (التبن) أو معدنية (صلصال الترسبات رمل الأودية، الحصى ...) مما يقلل من عوامل التجفيف ويساعد على مقاومة المادة ضد الكسر ويلعب الجو هذا الدور بامتياز حيث يقوم بالربط بين مكونات التراب وبالتالي تشكيل طبقة صلبة ومضادة للرطوبة ولتسرب الماء. وتكمن أهمية التراب كمادة للبناء حسب بازانا أندري في كونه مادة سريعة الاستعمال ولا تعتمد على أدوات معقدة أو باهضة الثمن كما يوفر تماسكا داخليا للجدران ويقاوم الريح والأمطار القوية ويضمن تكيفا جيدا للحرارة وللصوت.

10. هو المادة التي يحصل عليها بعد مزج التراب بالماء حيث يتم بواسطته تشييد جدران المنازل وتوظيفه في بناء السقوف والسواري. وحسب موسوعة ويكيبيديا يتكون الطين أساسا من جسيمات صغيرة جدًا صفائحية الشكل من الألومينا والسيليكا مرتبطة معاً بالماء. كما توجد مواد مختلفة في الطين يمكن أن تعطيه ألوانًا مختلفة. فعلى سبيل المثال، يمكن لأكسيد الحديد أن يكسب الطين اللون الأحمر، أما المركبات الكربونية فتعطي ظلالاً مختلفة من اللون الرمادي، بينما تضفي المادة العضوية على الطين اللون الأسود. يصف الجيولوجيون الطين بأنه ذرات (أي جسيمات) صغيرة جدًا من التربة حجمها أقل من أربعة ميكروميترات (مقياس أبعاد الأجسام الدقيقة) في القطر. كما أن كلمة الطين تعني أيضًا مادة من الأرض مكونة من أنواع معينة من معادن السليكات التي تكسّرت بعوامل التعرية.

- إن الطين غالبا ما يستخرج وبسهولة من عين المكان، كما أن المادة الأولية لا تستعمل مباشرة في حالتها الطبيعية. بل تخدم وتحول في مكوناتها الفيزيائية لضمان استقرار المادة عبر خلطها بمواد مخصبة نباتية كانت (التبن) أو معدنية (صلصال الترسبات، رمل الأودية، الحصى...) مما يقلل من عوامل التجفيف ويساعد على مقاومة المادة ضد الكسر؛[11]

- إنها مادة قوية ،فرغم ما قد يلاحظ من سهولة التصرف في الطين لكنه يصمد لعقود طويلة خاصة إذا أتقن استعماله وتدقيقه وهذا ما يلاحظ حاليا، فأغلب القصور مازالت صامدة تقاوم مختلف عوامل التعرية من رياح وأمطار رغم مرور عشرات السنين على بنائها.

وقد اعتمد السكان من أجل بناء مختلف مرافق ومنازل القصور على مايسمى بـ «الطابية» وهي تقنية لبناء القصور والقصبات عرفها ابن خلدون في مقدمته الشهيرة بقوله: البناء بالتراب خاصة، حيث يتخذ لها لوحان من الخشب ويختلف مقداره طولا وعرضا باختلاف العادات في التقدير، وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس، وقد بُوعدَ بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس، ويُوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال، وتشد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه ثم يزاد التراب ثانيا وثالثا إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة السابقة، وهكذا إلى أن تنظم الألواح كلها سطرا من فوق سطر، وينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب.[12]

ولقد كان البناء بالطابية التقنية المستعملة في مختلف واحات الجنوب الشرقي وفي سجلماسة قديما والواحات المجاورة لها كتيزيمي وتدغة ودادس ودرعة وسوس،

11. لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية**، الجزء الأول، ص. 323.

12. ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، دار القلم بيروت، 1978، ص.407-408.

كما كانت تستعمل في تركيبتها تربة صلصالية تستخرج محليا، وبالتالي فهي قادرة على تحمل التغيرات المفاجئة للحرارة بين الليل والنهار وبين الشتاء والصيف وعلى أن تدوم طويلا[13]، كما تتميز بالصلابة إذ يستخدم في بنائها تراب طيني غني بالرمل والحصى الصغيرة، يستخلص من عين المكان ويبلغ طول الطابية حوالي ثلاثة أمتار وعلوها حوالي 0.80 مترا ويتراوح السمك مابين 0.90 مترا ومتر ونصف، وبذلك يصل ارتفاع السور المشيد من الطابية إلى 11 مترا وأكثر بالنسبة للأبراج، ويعتمد في تركيبها على اللوح والمركاز وعلى ميزان الخيط لضبط استقامة الجدار.[14]

2- وسائل بناء القصر

ومن أجل البناء اعتمد البناؤون على وسائل تقليدية أبدعتها مهارات يدوية محلية ومن أبرزها:

ـ **أوراق اللوح:** جمع ألواح، ويعتقد أنها كلمة عربية، ويرجع تاريخ ظهورها إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد ولكن انتشارها بحوض البحر الأبيض المتوسط لم يبرز إلا في ظل الحضارتين الفينيقية واليونانية، فاللوح يعني الوسيلة المعتمدة في البناء، بينما الطابية هي تقنية للبناء أكثر من كونها مادة للبناء،[15] وهي «عبارة عن لوحتين من الخشب طول الواحدة منها متر ونصف وعرضها متر واحد، ولا تستعمل هذه الأداة في عملية البناء إلا بعد وضع الأساس الذي يبنى بالحجارة والطين، ويملأ اللوح بخليط التربة والحجارة الصغيرة، ولا يبلل هذا الخليط بالماء كثيرا حتى تسهل عملية ركزه بالمراكز، والجدار المبني بهذه الطريقة يكون عرضه 50 سنتيمتر، وحين يصل ارتفاعه إلى مستوى ثلاثة أو أربعة أمتار يشرع العمل في السقف اعتمادا على أعمدة خشبية من خشب النخيل ويوضع القصب أو جريد النخل بعد تجريده من سعفه فوق هذه الأعمدة ثم يغطى الكل بالتراب المبلل ثم يطمر بالتراب حتى يصل سمكه حوالي 20 سم وتوضع فوقه طبقة غير سميكة من الطين». [16]

13. **نفسه**، ص. 329.
14. لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة، مرجع سابق**، الجزء الثاني، ص. 431.
15. لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة، مرجع سابق**، الجزء الأول، ص. 325.
16. حسن حافظي علوي، **سجلماسة، م.س**، ص. 117.

- **المركـــز:** وهو عبارة عن آلة خشبية لدك التراب ،لذلك فهي ثقيلة نسبيا مما يسمح بتماسك التراب المبلل، وهو يلعب أدوارا هامة لتكون عملية البناء متقنة ومحكمة الاتزان،كما أن البناء به يتطلب إعداد التربة المناسبة وتهيئ مكان البناء بحفر الأساس إذا لم يكن هناك أساس معد للعملية.[17]
- **القفـاف:** مفردها قفة وهي مصنوعة من سعف النخيل ويحمل بها التراب من المكان الذي تم تجميعه فيه إلى وسط اللوح.
- **العتلـة:** وسيلة لتجميع التراب ووضعه في القفاف كما تتم الاستعانة بفأس خاص بالحفر.
- **القنب:** وهي الحبل الذي تشد به الألواح.
- **الخباطة:** وهي آلة خشبية يرمم بها بعض التراب الذي لم يلتئم مع اللوح في نهاية اللوح.
- **الركائز:** وعددهم في الغالب أربعة إلى ستة وهي التي تحكم اللوح بعد شده بالحبال.
- **القالب المزدوج:** مصنوع من الخشب الذي يوضع فيه التراب المبلل مما يؤدي إلى صناعة الطوب، وهو «الأسلوب الأكثر استعمالا في المناطق الجنوبية لكل بلاد المغرب منذ أقدم العصور»[18]، وهو مادة صغيرة للبناء تصنع بواسطة قالب مستطيل الشكل ويعتمد فيه على تربة محلية ذات خصائص تجعله يعمر طويلا ويقاوم التغيرات المناخية، كما أنه استخدم ولا يزال في تشييد المباني الثانوية وفي الترميم أو دعم أجزاء من أسوار الطابية أو في تزيين الواجهات ، ويستعمل لبناء الأروقة الداخلية وفي التوسيعات والارتفاعات وفي التشكيلات الهندسية المختلفة داخل المنزل.[19]

17. محمد لمراني علوي، «المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة»، **ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض الأبيض المتوسط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999، ص. 108ـ109.

18. حسن علوي حافظي، «مواد البناء من خلال كتاب **الإعلان بأحكام البنيان** لابن الرومي»، **ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض الأبيض المتوسط، مرجع سابق**، ص. 54، 1999.

19. تاوشيخت، **عمران سجلماسة, م.س**، الجزء الأول، ص. 331.

- **الميـزان:** يعرفه ابن الرامي أنه الآلة التي تضبط استقامة ارتفاع الجدران وعدم دخولها أو خروجها عن السمت الذي بدأ به من أساس الجدران، وهذا الميزان عبارة عن ثقل من الحديد يربط به خيط وينظم في قطعة من الخشب تحرر على الحائط في أعلى بناء الجدار[20]. كما أنه آلية لضبط جمالية الحائط من الداخل والخارج.[21]

- **الطوبية:** «وتعتمد على تراب خال من الرمل والحصى يضاف إليه التبن الرقيق ويخلط بالماء ويستعمل في صنعها إطار خشبي «قالب» به فراغين مستطيلين يملآن بالتراب الذي يدك حتى تلتحم أجزاؤه، فيزال القالب وتترك الطوبية على الأرض حتى تجف جيدا تحت أشعة الشمس. ويتكون القالب عادة من حجمين مختلفين الأول كبير يبلغ في المعدل 30سنتيمتر طولا و 15سم عرضا و8سم سمكا ،أما القالب الصغير الحجم فيبلغ طوله 26سم والعرض 13سم والسمك 7سم».[22]

- كما يعتمد في التسقيف على الخشب المستخرج من النخل.[23]

3ـ مرافق القصر

يتكون القصر من مرافق وأجزاء مختلفة وهي:

20ـ **نفسه**، ص. 333.

21. محمد لمراني علوي. **مرجع سابق**، ص. 108.

22. تاويشخت، **عمران سجلماسة، م.س**، الجزء الثاني، ص.431.

23. يعتمد في تشييد السقوف والقباب والأروقة الداخلية للقصور على أنواع مختلفة من الخشب، اهتم بجردها الباحث تاويشخت في كتابه **عمران سجلماسة، دراسة تاريخية وأثرية**، الجزء الثاني، ص. 435، وهي كالآتي: المادة ويبلغ طولها مابين 3 و7 أمتار بينما يتخذ سمكها شكلا مربعا متساوي الأضلاع (0.30×0.40 متر) أو مختلف الأضلع (0.18×0.30 متر أو 0.26×0.40 متر)؛ الگايزة وهي شكل من أشكال المادة ذات الأضلع المربعة (مابين مترين ومترين ونصف)ويتراوح سمكها ما بين 0.10 و0.16 مترا؛ الورقة وترافق الكايزة وتلتصق بها من الأسفل، ويتراوح سمكها مابين 0.01 و0.03 مترا، ويبلغ طولها مابين متر ونصف ومترين أو مترين ونصف؛ التشبيكة وهي أخشاب صغيرة مأخوذة من شجرة النخيل كذلك يبلغ سمكها مابين 6و8 سم، وطولها مابين 12و18 سم، تسمى أيضا تشبيكة الربط، وهي عبارة عن مواد لاحمة توظف لتشبيك أخشاب الگايزة؛ الفرد وهو عبارة عن خشبة من النخيل يبلغ طولها مابين مترين ونصف وثلاثة أمتار وعرضها مابين 0.30 و0,50 متر وتستعمل في مدخل المنزل والبيوت وأحيانا في السقف؛ القنطرة وتشبه في طولها حجم الفرد بينما يتراوح عرضها ما بين 0.20 و 0.30 متر، وتستخدم في السقف؛ الگريدة: وهي خشبة صغيرة مأخوذة من شجر النخيل طولها ما بين 1 و1.30 م، أما سمكها فمحدود بين 15 و30 سنم، يتم تصفيفها وإتقانها لتكون بعض الأشكال الهندسية في السقف إما على شكل مربعات أو مستطيلات؛ الجريد والقصب ويوظفان في بناء سقوف بعض البيوت وحظائر الحيوانات والدواجن؛ الساكف وهو مايقابل العتبة من أعلى الباب ،ويشيد إلى جانب السقوف والخرجات من الخشب.

ـ السور: لقد فرضت الضرورات الأمنية وضع سور على جنبات القصر وغالبا ما تكون قاعدته مبنية بالحجارة تحسبا لغمر فيضانات الأنهار[24] ويحيط بكل القصر على شكل مستطيل كما يتميز بعلوه الذي قد يتجاوز 11 مترا، تتخلله عدة أبراج مربعة يتراوح عددها ما بين 9 و13. وتكون هذه الأبراج غالبا مزينة بنقوش هندسية مختلفة.[25]

وقديما لم تكن القصور محاطة بسور، فـ «الخربات والأطلال المنتشرة بين حقول النخيل في مختلف واحات الوادي تقوم دليلا على أن القصور الأولى قد بنيت وسط الحقول حيث كان السكان ليسوا بحاجة إلى حماية هذه القصور والدفاع عنها» [26] كما ذكر الشريف الإدريسي الذي عاش في القرن السادس الهجري 12م أن القصور بواحات درعة مثلا لم تكن مسورة خلال القرون الوسطى فهي ليست مدينة يحيط بها سور، وإنما هي قرى متصلة وعمارات متقاربة [27]، لذلك لم يستبعد د. أحمد البوزيدي أن تكون فكرة تحصين القصر بسور خارجي قد ظهرت مع وصول قبائل بني معقل إلى وادي درعة مع بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري 13 م[28]، خاصة أن القبائل المغيرة كانت تستولي على المزروعات وتغتصب الحصون والقلاع.[29]

ـ الأبراج: وعددها أربعة وقد تنضاف لها اثنين في فم القصر، وكانت توظف لحماية القصر من القبائل المعادية وكذلك لمراقبة الفضاء الخارجي، ويكون داخل كل برج شخص أو شخصين يتناوبان ليلا ونهارا للحراسة.

ـ «فم القصر»: هو باب القصر ومدخله، يفتح في الصباح الباكر ويغلق في المساء من طرف الدواب (أو البواب) الذي يتكلف بمراقبة كل الداخلين والخارجين من القصر ليلا ونهارا، ذا باب خشبي كبير ضخم ومقوس، ومزين بنقوش مختلفة وبرجين مربعين، وهو يؤدي إلى فضاء مغطى يسمى بالدكانة وفوقه مصرية يسكنها البواب، وفي الدكانة يجتمع أعيان ومسني القصر أثناء مناقشاتهم وتداولهم في الأمور العامة لتدبير القصر وتزجية الوقت، ويفضي فم القصر بدوره إلى ساحة داخلية وهي الرحبة. وتكمن خلفية

24. حسن علوي حافظي، **مرجع سابق**، ص.115.

25. لحسن تاويشخت، **عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية**، الجزء الثاني، ص. 438.

26. أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن 17 مطلع القرن 20**، 1995، ص. 201.

27. الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، ص. 38، الجزائر، 1957.

28. البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة**، ص. 201.

29. علي بن أبي زرع، **روض القرطاس**، 1973، الرباط. ص.307.

فم القصر في الجانب الأمني، فوجود باب واحد إضافة إلى الحائط - السور الشاهق يمنع مهاجمة القصر ويضمن عدم تعرض الممتلكات للسرقة والهجوم وهو الباب الوحيد الذي يلج أو يخرج منه السكان إلى الخارج، ويتم تعيين قيم عليه يسمى «الدواب» يعهد إليه بمراقبة الداخلين وتسلم جزء من المداخيل كضريبة خاصة لمالية جماعة القصر والتي يتم وضعها في دار القبيلة .

ـ **الرحبـة** [30]: وهي فناء مفتوح وفضاء عمومي يكون مجالا لاحتضان التجمعات العامة لرجال القبيلة سواء أكانت عامة أو استثنائية حيث تكون مكانا مفضلا لتنظيم موسم أو معروف القبيلة، والمناسبات الخاصة بالقبيلة أو تلقي العزاء.

ويعرفها آيت حمزة أنها ساحة متعددة الاختصاصات، حيث تستغل للأنشطة الاقتصادية كالتبادل واستقرار بعض الحرفيين (الحداد) وبجانبها توجد دار القبيلة - الضيافة والمسجد،كما تستغل لإقامة أفراح القبيلة ومآتمها، وهي كذلك ملتقى للأطفال والشبان قبيل وبعيد غروب الشمس للعب وتبادل الحكايات.

وللدخول إلى ساحة القصر يحتاج المرء أن يعرج إما ذات اليمين أو ذات الشمال، وهذه جزئية معمارية بالغة الأهمية حيث تحمي القصر من التيارات الريحية القوية، كما تحميه من أنظار الفضوليين من المارة الأجانب وتخلق الارتباك لدى الغزاة المعتدين.

كما أن هذه الساحة تكون فضاء لاختيار شيخ القبيلة كل سنة ،وينزل فيها قوافل التجار والمسافرين العابرين، وانطلاقا من هذه الساحة تتفرع أزقة طويلة شبه مظلمة حيث يتعمد السكان تسقيفها لحماية القصر من العواصف الرملية ومن أشعة الشمس المحرقة، وللتمكن من استغلال مستواها العلوي للسكن.[31]

كما تستغل السطوح والطوابق العلوية للنوم وتجفيف الفواكه وبعض الغلال كالحناء والسفلية للاحتماء من الحر أو البرد.

30. جاء في القاموس المحيط **الرُّحْبُ** ورَحَّبَ به تَرْحِيباً: دَعاهُ إلى الرُّحْبِ. ورَحَبَةُ المَكانِ: ساحَتُه ومُتَّسَعُه، وهي فضاء منبسط واسع وفسيح يطلق عليها أرَحْبي بالأمازيغية.

31. محمد أيت حمزة، مادة «القصر»، **معلمة المغرب**، الجزء 19، 2004، ص. 66ـ38.

المسجد [32]: وهو الذي يلي الرحبة من ناحية الترتيب. ويسمى عند القبائل الأمازيغية تيمَزْگيدا، ويوجد بمدخل القصر، وتلتقي فيه كل أزقته، تؤدى فيه الصلوات الخمس، كما يلعب دورا تعليميا وتربويا وروحيا من خلال إشراف الفقيه على تعليم الصبيان الحروف وتحفيظ القرآن. هذا الفقيه تعينه جماعة القبيلة وفق قانون عرفي يسمى الشرض أو الشرط وهو مقدار ما اتفق السكان مع الفقيه لدفعه مقابل مهمة الإمامة، والخطابة، والإقراء ولتعليم الأطفال وإمامة الناس للصلاة.كما كانت مختلف مساجد القصور تستضيف طالبي العلم من المْسَافْرية (نسبة للسفر) حيث يتطوع رجال القبيلة بتحمل مصاريف إقامتهم من ايواء وتغذية من خلال عرف يسمى الرتبة... وعادة مايتكون المسجد من محراب وقاعة متسعة للصلاة ومتوضأ ومغسل وبيت الفقيه ومحضرة للتدريس...

دار القبيلة: أو تكَمي نْتاقبيلت بالأمازيغية، وهي مقر الاجتماعات الخاصة للجماعة، كما تضع فيها القبيلة الضرائب العينية التي يتم جمعها من أجل التصرف فيها كاستقبال ضيوفها من الغرباء وأبناء السبيل أو مختلف المصاريف المتنوعة، ونزلا لرسل المخزن الذين يتجولون لجمع اللوازم الجبائية أو تبليغ أوامر مخزنية ذات طبيعة عمومية.

وبدار القبيلة يتم تجميع جزء من إنتاج القبيلة لتمويل رجال الجبايات المخزنية وإطعامهم، كما قد يتم توظيف المداخيل لتمويل موسم معين، فكل من أدخل منتوجا للقصر يتكلف صاحب الساروت بأخذ نصيب منه توظفه جماعة القصر في مصالح عامة مرتبطة بتحمل القبيلة لأعباء مختلفة ...[33].

وقد كانت دار القبيلة في بداية الأمر تحت إشراف «البواب» الذي يفتح الأبواب ويغلقها في المساء ويقوم بحراسة القصر ومراقبة الغرباء الوافدين على القبيلة وإخبار الجماعة بوجودهم ، لتقوم القبيلة بعد ذلك بواجب الضيافة. لكن تحولت هذه المهمة

32. تؤكد أغلب المصادر التاريخية أن أول مسجد بالمغرب - بل وفي إفريقية كلها بعد جامع القيروان- مسجد عقبة ابن نافع الفهري التابعي الجليل، أسسه عند دخوله المغرب في حدود سنة (62 هـ/681 م) بضاحية ترغة ببني زيات، إحدى قبائل غمارة على ساحل المتوسط، يبعد عن تطوان بنحو (60 كلم)، وقد انمحت آثاره.

33. أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة، مطلع القرن 17 مطلع القرن 20**، ص، 203.

لاحقا إلى «صاحب الساروت» (المفتاح) وهو أمين خاص يتم اختياره من بين سكان القصر المعروفين بالصدق والأمانة بعد أن يحرر من كل التكاليف الداخلية للقبيلة. وقد ظلت دار القبيلة تقوم بمختلف وظائفها طيلة عهد الحماية ولم تتخل عنها إلا في السنوات الأولى من الاستقلال.

للتذكير تم إحياء هذا الفضاء حاليا في صيغة جديدة عبر دار الجمعية التنموية للقصر حيث يتم وضع التجهيزات اللازمة للحفلات والأعراس ويتم كراؤها من طرف المعني تحت إشراف أمين الجمعية.

الدروب: [34] بعد مدخل القصر يتوزع القصر إلى دروب متنوعة تحتضن العديد من الأزقة التي تحتوي منازل مختلفة. وتتميز الدروب بكونها مسقفة بالمواد الأولية كجريد النخل والقصب والطين المختلط بالتبن وخشب النخيل والسعف وخشاش القصب ,مما يتيح للساكنة الاحتماء من الشتاء والبرد في فصل الشتاء ومن شدة الحرارة في الصيف.

الزقاق: وهو ضيق مقارنة مع الدرب، وقد يمتد عرضه إلى 3 أمتار ويتضمن مجموعة من المنازل، وغالبا ما تتشكل من الأسر المتقاربة في انتماءاتها العائلية وفي نفس الوقت يتم فيه تصريف مياه الأمطار، ويتفرع عن كل زقاق دروب صغيرة تنفتح عليها أبواب المنازل، وهي مكان وفضاء للقيلولة والسمر والتجمعات العادية لنساء ورجال وأطفال القبيلة. وتلعب الأزقة «عدة أدوار منها ما هو طبيعي مثل التهوية ومنع تسرب الرياح المحملة بالغبار والرمل، ومنها ما هو اجتماعي يتجلى في ضمان أواصر التآزر والتكافل، ومنها ما هو اقتصادي حيث تستغل الأزقة من طرف النساء في إنجاز بعض الأعمال اليدوية، وبذلك يظهر القصر على شكل «خلية سكنية تضم العديد من المنازل والأسر التي يجمعها تقارب وتشابه أنماط العيش وأيضا بعض الترابطات الاجتماعية ذات الأصول القبلية المتعددة».[35]

34. جاء في **لسان العرب**، الدَّرْبُ: مَعروف. قالوا: الدَّرْبُ بابُ السِّكَّة الواسِعُ؛ وفي **التهذيب**: الواسعة، وهو أَيضاً البابُ الأَكبَر، والمعنى واحدٌ، والجمع دِرابٌ. أَنشد سيبويه: مِثْل الكلابِ، تَهِرُّ عند درابِها، *ورِمَتْ لَهَازِمُها مِنَ الخِزْبازِ وكلُّ مَدْخلٍ إِلى الرُّوم: دَرْبٌ من دُرُوبِها. وأَصل الدَّرْبِ: المضيقُ في الجِبالِ؛ ومنه قَوْلُهُم: أَدْرَبَ القومُ إِذا دَخَلُوا أَرضَ العَدُوِّ من بلادِ الرُّوم. وفي حديث جَعْفرِ بنِ عمرو: وأَدْرَبْنا أَي دَخَلْنا الدَّرْبَ. وهو ممر صغير ينفذ من الزقاق ليصل الى المنازل.ولا يتجاوز عرضه مترين.

35. لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة، م.س**، الجزء الثاني، ص. 436.

المنزل-الدار [36]: ويسمى بالأمازيغية تكَمي، وقد أشار الحسن الوزان أن بناء دور القصور بسيط مما يجعل الرجل يستطيع وحده هدمها ،إن لم يكن البناء رصيصا، وعلى من أراد الاحتفاظ على داره أن يصلحها من حين لآخر ،لأن البناء لايقاوم الأمطار إلا بصعوبة،كما أنها قليلة الارتفاع مبنية من المواد المأخوذة من البيئة التي شيدت بها، لأن نقل مواد البناء غير متيسر وخاصة عبر مسافات طويلة.

و«يتكون كل منزل من عدد كبير من الغرف تنفتح أبوابها وكواتها على فناء تتوسطه أعمدة تمكن من تسقيف حواشيه والسماح لضوء عمودي من إنارة المنزل دون نفاذ أشعة الشمس إليه. ويستغل هذا الفناء لمزاولة الوظائف اليومية العادية كالطهي والنسج، كما يستغل مكانا للأكل، بل وحتى للنوم في فترات من السنة. وتستغل الغرف أساسا لتخزين الحبوب والثمار والخضر المجففة وخشب التدفئة والأعلاف والأدوات الفلاحية ولإيواء بعض رؤوس الماشية، ومن تم لتجميع روث البهائم قبل نقله إلى الحقول ليستغل كسماد. وعندما يتوفر السكن على طابق علوي يتم التراقص بين الطوابق حسب تعاقب الفصول وتعاقب الليل والنهار حيث تستغل السطوح والطوابق العلوية للنوم وتجفيف الفواكه وبعض الغلال كالحناء والذرة بينما تستغل الطوابق السفلى للاحتماء من حرارة الشمس نهارا والاحتماء من قسوة البرد أيام الشتاء».[37]

4 ـ ماذا تبقى من القصر؟

لقد ظل الشكل الخارجي للقصر كما هو عليه لعدة قرون مضت، حيث عرفت هذه القصور تطورات كبيرة على إثر التحولات العمرانية التي عرفتها واحات الجنوب الشرقي مع بداية عهد الاستقلال.[38]

36. جاء في **القاموس المحيط**، الدارُ: المحلُّ يَجمعُ البناءَ والعَرْصَةَ، ج: أُدْؤُرٌ وأدْوُرٌ وآدُرٌ ودِيارٌ ودِيَارَةٌ وديرانٌ ودُورانٌ (ودُوراتٌ) ودِياراتٌ وأدوارٌ وأدورةٌ، والبلدُ، ومدينةُ النبيِّ، صلى الله عليه وسلم، والقبيلةُ، كالدارَة، وبهاء: كلُّ أرضٍ واسعة بينَ جبالٍ، وما أحاطَ بالشيء، والدَّارُ: المحل يجمع البناء والعرصة، أُنثى؛ قال ابن جني: هي من دَارَ يَدُورُ لكثرةً حركات الناس فيها، والجمع أَدْوُرٌ وَأَدْؤُرٌ في أَدنى العدد والإِشمام للفرق بينه وبين أَفعل من الفعل والهمز لكراهة الضمة على الواو؛ قال الجوهري: الهمزة في أَدؤر مبدلة من واو مضمومة، قال: ولك أَن لا تهمز، والكثير دِيارٌ مثل جبل وأَجْبُلٍ وجِبالٍ. وفي حديث زيارة القبور: سلامٌ عليكم دَارَ قَوْم مؤمنين؛ سمي موضع القبور داراً تشبيهاً بدار الأَحياء لاجتماع الموتى فيها. قال تعالى: ولنعم دار المتقين؛ فذكَّر على معنى المَثْوَى والموضع، كما قال عز وجل: نِعْمَ الثوابُ وحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً.

37. محمد أيت حمزة، **معلمة المغرب، مرجع سابق**، ص. 39.66.

38. Abdellah Hammoudi, «L'évolution de l'habitat dans la vallée du Draa», *R.G.M.N* ,1970, p.18-33 .

وقد ارتبطت هذه التغيرات التي تسارعت مع نهاية القرن العشرين بالتغير الذي خضع له نمط الحياة العامة، فقد أصبحت هجرة الشباب ثابتا من ثوابت البادية من أجل البحث عن فرص شغل في المدينة مما طور تفكيرهم مقارنة مع الأجيال السابقة،كما حدث توسع ديموغرافي أصبحت معه القصور عاجزة عن احتواء العدد المتزايد من الولادات مما دفع أغلب الجماعات إلى توزيع أراضي الجموع التابعة للقصر من أجل السماح ببناء منازل جديدة. لكن مالذي حصل بعد ذلك؟

بعد توزيع الأراضي، ومع صدمة المدنية وتطور البنيات التحتية للقرى خاصة إدخال الماء الصالح للشرب والكهرباء، أصبح الجميع يتجه لبناء مخالف لما عرفته القصور. فقد اختفى الطوب الذي يبرز زخرفة فنية وجمالية للقرية ليعوض بالأجور حيث أصبح البناء يعتمد على الاسمنت المسلح، واختفت الأبواب الخشبية لتحل محلها الأبواب الحديدية. كما كان لتطور التفكير دوره في غياب أي رابط بين البناء الجديد والقديم، فلم تبق الأزقة كما كانت، وغابت فضاءات القصر ومواصفاته التقليدية وجماليته الفنية ليتحول ـ دون رغبة منه ـ إلى شبه مدينة جديدة تتشكل ببطء شديد خاصة بعد أن اختفت المهن التقليدية لتظهر مهن جديدة تعتمد على التجارة والخدمات والأعمال المأجورة.

ومع تحول القصر ـ الذي لم يبق منه إلا الاسم القديم الذي حافظ عليه رغم كل التحولات ـ إلى منازل متناثرة هنا وهناك دون رابط أو سور، مع ظهور مرافق جديدة لم تكن من قبل كالدكاكين التجارية ومواقف ومرآب السيارات.... كما غابت الوشائج الاجتماعية التي ربطت بين أهله، كما اختفت مختلف المؤسسات التقليدية التي شكلت قيمة مضافة للبهاء التاريخي للقصر واستبدلت بأخرى غريبة عن الوسط الطبيعي الذي احتضن القصر لقرون مضت، فاختفت مؤسسة «اجماعة» داخله، وعوضتها مؤسستي الجماعة المحلية والشيخ التابعة لوزارة الداخلية اللتان أصبحتا مكلفتان بتدبير القصر، وغدت المحكمة هي الحكم الفاصل بين المتنازعين، وأصبح دور بعض الساكنة - عوض حل الإشكال-الشهادة لمصلحة أحدهما ضد الآخر.

لذلك لا غرابة في أن يبقى القصر حاضرا، مجرد أطلال معمارية تستغل سياحيا لتبرز للسائح الأجنبي حضارة تاريخية مرت من هناك، بل طور البعض توظيف هذه الخاصية في جمع ما تبقى من الوسائل التقليدية لخلق متحف قروي، خاصة أن مختلف الفنادق لا تتورع عن شراء ما تبقى منها، فقد تخلص منها أصحابها -كمن ينفض غبارا - مقابل أموال زهيدة. كما أصبح بعضها مكانا لتصوير أفلام سينمائية مختلفة لا تترك لأصحابها ولو نسخة من العمل المنجز.

5ـ مالعمل؟

وفي ظل هذا الوضع المؤلم للقصور، يغدو التدخل مستعجلا من قبل الجهات المسؤولة والوصية على القصور كل في دائرة اختصاصه (وزارات السياحة والثقافة والداخلية والإسكان، الجماعات المحلية، المجتمع المدني، فاعلون اقتصاديون) لحماية ما تبقى من آثار تاريخية تحيل على حضارة عريقة عبر:

ـ التحسيس بأهمية هذا الإرث الجماعي، ثم ثانيا بحمايته والمحافظة عليه بكل الوسائل، وثالثا بتأهيله ليواكب مسار التنمية المستدامة.[39]

ـ استثمار «القيمة الفنية للقصور والتناسق النموذجي مع الوسط الطبيعي الذي توجد فيه كعنصر للجاذبية في أفق تطوير السياحة الثقافية»[40] بالمغرب خاصة أن «المعمار المغربي المبني بالتراب لا يزال محط إعجاب وتقدير من لدن المهتمين والزوار من مختلف أنحاء المعمور، فجماليته وانسجامه مع الوسط الطبيعي الذي ولد فيه يبهر الناظرين، كما أن هذه القصبات والقصور شواهد تدل دلالة واضحة على عبقرية سكانها وعلى ماضيهم العريق».[41]

ـ حماية هذا التراث وترميم الأماكن التاريخية منه عوض تركها فريسة للإهمال. فهي «جزء من الذاكرة المحلية والوطنية وتأهيله»؛[42]

39. حوار مع لحسن تاوشيخت نشر في موقع **ميثاق الرابطة يوم 17-06-2011.**

40. مصطفى الإدريسي، «التجمع البشري وتنمية التراث المعماري والحضري للجنوب المغربي»، **أعمال الدورة الأولى لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية مركز الدراسات والبحوث العلوية**، دجنبر 1989، ص. 413.

41. محمد لمراني، **ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض الأبيض المتوسط مرجع سابق** ص. 12.

42. محمد أيت حمزة، **معلمة المغرب. مرجع سابق**، ص. 39.66.

ـ تخصيص برامج إعلامية لتشجيع السياحة الداخلية اعترافا بأهمية هذا التراث؛

ـ تحسيس الساكنة بالمزايا الصحية للبناء التقليدي؛

ـ تدخل الوكالات الحضرية أثناء تقديم رخص البناء من أجل تحفيز الساكنة على البناء بالمواد الأولية خاصة على صعيد الشوارع التي توجد جانب القصور؛

توثيق ما تبقى منها حفظا للذاكرة.

فهل توقف هذه الإجراءات حملة هدم ما تبقى من قصور واحات الجنوب الشرقي ماديا ومعنويا؟

السنوات القادمة كفيلة بالجواب

التنظيم العمراني والمعماري بقصور المغرب الشرقي
قصر الزاوية الصادقية[1] نموذجا

عبد الواحد مهداوي الصادقي
أستاذ باحث في التراث ـ تازة

يعتبر هذا الموضوع محاولة متواضعة للإسهام في دراسة جانب من مميزات مناطق الجنوب الشرقي للمغرب، بما تكتنزه من خصوصيات معمارية واجتماعية واقتصادية... وفي اعتقادنا أن واحة تافيلالت لا زالت تشكل مجالا خصبا للبحث، خصوصا في المجال المعماري والعمراني؛ إذ أن أغلب البحوث والدراسات التي أنجزت حول المنطقة ، والتي غالبا ما يقوم بها طلبة و أساتذة باحثون ينتمون للمنطقة، ركزت في عمومها على دراسة الجانب التاريخي العام للمنطقة دون أن تركز بما يكفي على الخصائص العمرانية والمعمارية والمجالية التي تنفرد بها.

وسأسلط الضوء من خلال هذه المقالة على جانب من التنظيم العمراني والمعماري لقصر الزاوية الصادقية بمنطقة الرتب التابع إداريا لإقليم الرشيدية محاولا إبراز أهمية الغنى المعماري للبناء بهذه المنطقة ودقة التنظيم المجالي والعمراني بهذا القصر.

---

1. التسمية المعروفة بها بالمنطقة هي الزاوية الجديدة. وقد آثرت أن أستعمل تسمية الزاوية الصادقية رغبة في استدعاء البعد التاريخي لهذه الزاوية باعتبار القصر هو وعاء عمراني باشرت فيه الزاوية مهامها وأنشطتها، بل أنها هي السبب الرئيسي وراء بنائه.

1- لمحة تاريخية عن الأصول الأولى للقصور:

إن مصطلح القصر، الذي تقابله كلمة «المدشر» ببعض أنحاء المغرب، تستعمل للدلالة على السكن القروي في واحات وادي زيز ووادي غريس وكذلك وادي دادس ووادي درعة، وقبل السيادة العربية كان المصطلح المستعمل هو «إغرم» وجمعها إغرمان.[2]

ويرجع أصل القصر عموما إلى الفترة البرونزية (ما بين الألف الثالثة والألف الأولى قبل الميلاد). فالنتائج التي توصل إليها مركز البحوث والدراسات العلوية بتافيلالت تفيد أن البقايا الأثرية (النقوش الصخرية، المدافن الجنائزية والأدوات) التي تزخر بها منطقة تافيلالت تشهد على قدم الإستقرار البشري بالمنطقة وعلى المستوى الحضري الذي وصلت إليه[3]. ويرجع هانسنس J. Hensens تافيلالت القديمة إلى الحضارة المتوسطية، وبأن القصر وسكانه قد عرفوا تأثيرات شرقية ومتوسطية قبل الإسلام. فالمنازل ذات الحصون والأشكال المربعة وظهور الزوايا القائمة والتخطيط العسكري وإحكام بناء الأسوار الضخمة ووجود النخيل والجمل كلها معطيات كلها عناصر تنتمي لحضارة البحر الأبيض المتوسط.[4]

ويجمع العديد من الباحثين على أن العناصر الزناتية هي التي كانت وراء هذا النموذج المعماري بواحات المغرب الأقصى بعد قيام دولة المرينيين التي كانوا يشكلون عصبيتها القبلية. وفي هذا السياق يتحدث ابن خلدون عن أن «القبائل الزناتية تركت قصورها جنوب جبال درن لعرب المعقل بعد أن تكونت لها دول ببلاد المغرب، بني مرين بفاس وبني زيان بتلمسان».[5]

---

2. لا زال هذا المصطلح يستعمل في المناطق التي تقطنها غالبية أمازيغية.

3. لحسن تاوشيخت، «العمارة العلوية بتافيلالت خلال عهد مولاي إسماعيل»، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة الثانية مركز الدراسات العلوية، الريصاني، دجنبر 1990، ص. 178.

4 . J.Hensens, «Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le ksar problème de rénovation du Maroc», in *Bulletin Economique et Social*, juillet-septembre,1969, n°14, p.83.

5. ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب **العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي**

لفهم الخصوصيات المعمارية للقصور، لا بد من ربطها بالتاريخ العام للمنطقة، الذي يشكل القصر لوحة حية ترتسم عليها بصمات الأحداث التاريخية التي شهدتها المنطقة، **والتي أفرزت ثلاثة أنواع من القصور:**

النوع الأول **القصور المخزنية** وهي تلك التي كانت مقرا لممارسة السلطة بالمنطقة، والتي تنفرد بخصائص معمارية متميزة. تظهر هذه الخصائص بوضوح في الزخارف التي زينت بها أبواب وأبراجها، بالإضافة إلى وجود بعض البنايات التي كانت عبارة عن مساكن للأمراء أو مكانا لممارسة السلطة. ومن أبرز هذه القصور: قصر الفيضة وقصر أولاد عبد الحليم بالريصاني وقصر المعاركة بالرتب.

النوع الثاني **قصور القبائل**: وهي تلك التي كانت تسكنها قبائل معينة تجمع بينها أواصر القرابة والمصلحة المتبادلة. وهذا النوع هو الأكثر انتشارا في المنطقة.

وأخيرا **قصور الزوايا**: والتي كانت بعض الزاويا تتخذها مركزا لإشعاعها الديني والثقافي، وتنعكس هذه الوظيفة على تخطيطها وعلى طبيعة المرافق الموجودة بها.

2ـ الزاوية الصادقية: السياق التاريخي والإشعاع الديني والعلمي

قبل الحديث عن الوعاء المعماري والعمراني الذي احتضن هذه المؤسسة الدينية والاجتماعية، يجدر بنا أن نتناول باقتضاب البعد التاريخي والإشعاعي والديني والثقافي للزاوية الصادقية والذي سبق للأستاذ حسن الصادقي أن تناوله في مقالة منشورة بالعدد الخاص بالزوايا بمجلة **المناهل**[6].

أسس هذه الزاوية الشيخ أحمد بن عبد الصادق المتوفى سنة 1066 للهجرة بمنطقة الرتب التابعة إداريا لإقليم الرشيدية. وقد وردت ترجمة ابن عبد الصادق في العديد من كتب التراجم والأنساب كما ذكر ذلك الأستاذ حسن الصادقي.

السلطان الأكبر، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،1981، ج.7 ص.77.

6. حسن الصادقي، «أضواء على الزاوية والطريقة الصادقية»، مجلة **المناهل**، الزوايا في المغرب، 2009، ج2. ص.147، مطبعة دا ر المناهل، وزارة الثقافة، الرباط.

وقد أسست الزاوية فروعا لها في العديد من المدن والمناطق بالمغرب كفاس ومكناس ومراكش وخنيفرة ولها العديد من الأتباع والفقراء بمختلف مناطق المغرب وبالجنوب الغربي للجزائر، كما اشتهر من أبناء وحفدة ومريدي الزاوية العديد من الشيوخ والعلماء والزهاد نذكر منهم:

- الشيخ سيدي عبد الكريم بن عبد الله بن أحمد الذي اشتهر بقيادة موكب الحجيج المتجه من تافيلالت إلى البقاع المقدسة؛

- الشيخ سيدي مهدي بن عبد الكريم مؤسس القصر موضوع هذه المقالة والذي تحدث عنه المنالي الزبادي صاحب «سلوك الطريق الورية بالشيخ والمريد والزاوية» الذي التقاه وتدارس معه بعض مؤلفاته بفاس؛

- الشيخ عمر بن المهدي بن عبد الكريم بن عبد الله بن أحمد بن عبد الصادق، الذي اشتهر بنسخ الكتب؛

- الشيخ محمد بن عمر بن المهدي بن عبد الكريم بن عبد الله بن الشيخ أحمد ابن عبد الصادق؛

- الشيخ الحاج محمد الهاشمي بن علي الرتبي الصادقي الذي اشتهر بعلمه الغزير في مجال الحديث وكتب عنه تلميذ ابن رحمون ثبتا سماه «الفتح الوهبي فيمن أجاز لسيدي الحاج الهاشمي الرتبي»[7] وصنفه الزركلي الدمشقي في كتاب الأعلام[8] ضمن علماء الحديث بالمغرب، كما صنفه ابن زيدان ضمن الطبقة الثانية للعلماء في عهد السلطان العلوي المولى سليمان[9]؛

- الشيخ سيدي السهلي بن العروسي، الذي اشتهر بورعه وتقواه بمدينة فاس؛

7. ابن رحمون التهامي، محمد التهامي الفاسي، الفتح الوهبي فيمن أجاز لسيدي الحاج الهاشمي الرتبي، مخطوط الخزانة العامة، 1362، ص.350.

8. خير الله الزركلي، **الأعلام**، الجزء التاسع عشر، مطبعة دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، 2002، ص.8.

9. عبد الرحمان بن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، ج 2، ص. 169، المطبعة الملكية، بالرباط.

ـ الفقيه الحاج المهدي بن محمد بن الحبيب والذي كان إماما وخطيبا بمسجد الزاوية الصادقية منذ ستينيات القرن الماضي وتخرج على يديه العديد من حفظة القرآن.[10]

3- الموقع و التنظيم العمراني

تم بناء قصر الزاوية الصادقية الأول[11] بمحاذاة قصر البطاطحة الموجود على الضفة اليسرى لوادي زيز، لكن سرعان ما انتقل مركز ثقل الزاوية الصادقية من الضفة اليسرى إلى الضفة اليمنى بعد بناء قصر الزاوية الجديدة من طرف حفيده الشيخ المهدي بن عبد الكريم بن عبد الله بن الشيخ المؤسس أحمد بن عبد الصادق (كان حيا عام 1182 للهجرة)[12].



صورة بالأقمار الاصطناعية لقصر الزاوية الصادقية

يقع قصر الزواية الجديدة بجماعة الرتب بإقليم الرشيدية، على الضفة اليمنى من وادي زيز، على بعد ما يناهز 10 كلم من مركز قيادة أوفوس. وقد أسس هذا القصر أحد حفدة مؤسس الزاوية الصادقية، وهو سيدي مهدي بن عبد الكريم بن عبد الله بن أحمد.

10. والدنا رحمه الله المتوفى سنة 2009.

11. المسمى قصر الزاوية القديمة الذي تهدم بشكل شبه كلي على إثر فيضان وادي زيز سنة 1965.

12. المنالي الزبادي، «سلوك الطريق الوارية بالشيخ والمريد والزاوية»، مخطوط الخزانة العامة رقم 190، خ.س، 12084، ص.270.

لقد توفرت في موقع قصر الزاوية الصادقية معظم شروط بناء المدن الإسلامية التي تحدث عنها العديد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة، والتي لخصها ابن أبي الربيع في شروط ستة: «سعة المياه المستعذبة وإمكان الميرة المستمدة واعتدال المكان وجودة الهواء والقرب من المرعى والاحتطاب وتحصين منازلها من الأعداء والذعار وأن يحيط بها سور يعين أهلها».[13]

ففيما يتعلق بالمياه المستعذبة، فالقصر أقيم على ضفة وادي زيز الذي يستفيد من مياهه في ري المزرعة التي تم تخطيطها واستحداثها بعناية بين القصر والوادي من خلال سد صغير أقيم عليه، لكن مصممه أخذ مسافة كافية عن الوادي المذكور تجعله في منأى عن الفيضانات التي اشتهر بها قبل بناء سد الحسن الداخل في عالية الوادي.

أما الميرة المستمدة فالمقصود بها توفر الطعام والكساء أي حضور البعد الاقتصادي في تخطيط هذا القصر؛ إذ أن خصوبة الأرض تساهم في توفير مختلف المواد الغذائية خصوصا منتوج التمور الذي يعتبر عصب الحياة الاقتصادية بالمنطقة، كما أن القصر يقع على الطريق المتجهة من المغرب إلى جنوب الصحراء، حيث كان يستقبل القوافل التجارية التي تقيم به من أجل الاستراحة قبل استئناف طريقها. وقد كان هؤلاء التجار يقومون بتسويق جزء من بضائعهم بالمنطقة.

أما فيما يتعلق بشرط اعتدال المكان وجودة الهواء بني القصر على مكان معتدل، لا هو بالمرتفع فيصعب بلوغه ولا بالمنحدر فيكون معرضا للأخطار والفيضانات. أما عن الهواء فإن مناخ المنطقة تتوفر فيه الشروط الصحية، إذ أن نسبة الرطوبة به ضعيفة بالرغم من الحرارة المفرطة صيفا والبرودة النسبية شتاء.

بخصوص القرب من المرعى والاحتطاب، فإن مزرعة القصر «الغابة» المعتمدة على نظام الري بالساقية المستخرجة من وادي زيز توفر مختلف المواد اللازمة لتربية المواشي

13. شهاب الدين أحمد بن محمد ابن أبي الربيع، **سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال**، دار العاذرية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 2010.

التي كان يمتهنها سكان القصر (تربية الغنم والبقر بالخصوص). كما أن السنوات المطيرة كانت تعرف عملية الرعي لقطيع الأغنام وفق نظام جماعي دقيق، وتتم هذه العملية داخل الأراضي السلالية غير المحروثة التابعة للقصر، إلا أن هذه الظاهرة انقطعت مؤخرا حيث اكتفى السكان بتربية المواشي داخل منازلهم. أما الحطب فقد كانت توفر «الغابة» كل ما يحتاجه السكان من هذه المادة من خلال قطع الجريد اليابس الذي يوفره النخيل والذي يتم استعماله للطهي والتدفئة خلال فصل الشتاء.

أما فيما يتعلق بتحصين منازله من الأعداء والذعار، فقد كان القصر يتوفر على سور وأبواب وأبراج تساعد على حمايته من مختلف الأخطار الأمنية التي كان يتعرض لها.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا القصر يوجد على بعد ما يناهز 2 كلم من قصر المعاركة الشهير الذي أسس في العهد الإسماعيلي، وكان من نصيب المولى الشريف ابن السلطان مولاي إسماعيل العلوي.

على مستوى الشكل الهندسي يتخذ القصر شكلا مربعا يتوسطه الزقاق الرئيسي الذي يصطلح عليه «المحج» الممتد من الشرق إلى الغرب، والذي تتفرع عنه عشر أزقة متعامدة معه، خمسة إلى الشمال وخمسة إلى الجنوب.



صورة عامة تبرز التنظيم العمراني للقصر

ـ البـاب الرئيسـي:

يعتبر مدخل القصر أو باب القصر أو حسب المصطلح المحلي «فم القصر» عنصرا معماريا هاما يجمع بين وظيفتين أساسيتين: الوظيفة الدفاعية والتي تؤرخ لمرحلة الاضطراب وانعدام الأمن التي عرفتها المنطقة، عندما كانت القبائل غير المستقرة تغير على قصور واحة الرتب لتنهب خيارتها. وبين وظيفة الأبهة والهبة والخشوع، باعتبار المدخل هو واجهة القصر الرئيسية.

كان باب القصر يغلق من غروب الشمس من كل يوم حتى شروقها في اليوم الموالي. وكان يقوم بهذه الوظيفة حارس يسمى «البواب»، يحكم إغلاق الباب بقفل كبير يثبت بين الباب الخشبي والجدار، لأن السيطرة على الباب تعني السيطرة على القصر. ويتم تدعيم هذه الوظيفة الدفاعية بالشكل المرفقي[14] الذي يربط المدخل بالزقاق الرئيسي «المحج» حتى لا يتمكن العدو من رؤية القصر من الداخل و يساهم أيضا في الحفاظ على حرمته، كما هو الحال أيضا بالنسبة لمداخل المنازل التي تتوفر على هذا الشكل المرفقي الذي يمكن من عزل فناء المنزل «وسط الدار»، مكان العيش اليومي، عن الدرب الذي يستعمله السكان.



الباب الرئيسي للقصر

14. شكل معماري يمكن القصر من الحماية من الأخطار الخارجية، إذ لا يمكن الدخول إلى الزقاق الرئيسي «المحج» إلا بعد التعريج يمينا أو يسارا.

ولما لم تعد الحاجة ماسة إلى إغلاق الباب، غداة استقلال المغرب واستتباب الأمن بالمنطقة، تعطلت وظيفته التقليدية ولم يعد يغلق. وأصبحت الوظيفة الرئيسية التي يؤديها الآن هي الدخول والخروج من القصر، لكن الباب الخشبي لايزال إلى يومنا هذا مثبتا بمكانه شاهدا على مرحلة تاريخية هامة وحساسة من تاريخ المنطقة.

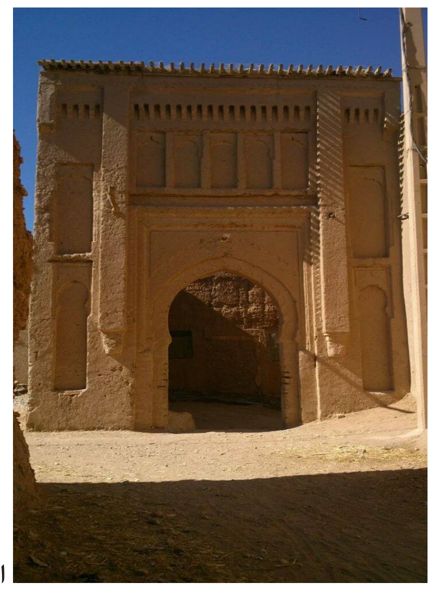
وينبغي الإشارة إلى أن باب قصر الزاوية الجديدة موجه إلى الشرق في اتجاه الغابة، من أجل تسهيل خروج السكان إلى الغابة. وقد يحيل على اتجاه الخطر الذي يهدد القصر، سواء من القصور المجاورة أو من خارج الواحة. ولم يبق من المدخل الآن إلا الجزء الخارجي، أما الساحة الداخلية التي كانت توجد بها «الدكانة»[15] وتتضمن أقواسا مغلقة وتفضي إلى الجزء الداخلي من المدخل فلم يبق لها أثر وتم إضافة جزء كبير منها إلى المسجد بعد إعادة بنائه.

أما من **حيث الزخرفة،** فإن واجهة الباب تضم أشكالا زخرفية بسيطة لكنها تكتسي طابعا جماليا وفنيا مميزا، وهي عبارة عن أشكال هندسية منقوشة فوق القوس. وذلك عكس ما نلاحظه على مداخل بعض القصور، كالقصر المجاور المسمى «المعاركة» وقصور الفيضة وأولاد عبد الحليم بتافيلالت، من زخارف وكتابات منقوشة. وربما يفسر ذلك بفكر البساطة والزهد الذي كان يتبناه مؤسس القصر الشيخ سيدي مهدي بن عبد الكريم والذي انعكس على الجانب المعماري سواء في مدخل القصر أو في مختلف المرافق والبنايات التابعة له. وتذكر الرواية الشفوية أنه تم وضع مصحف بمكان ما داخل بناء الباب تبركا به وطلبا للحماية والحفظ للبلد من كل سوء أو مكروه.

الباب الجديد «فم جديد»

تم إحداث باب جديد بالواجهة الجنوبية الشرقية للقصر بالقرب من دار شيخ الزاوية، يخصص لولوج ضيوف الزاوية، وخروج ودخول الشيخ، وتشير بعض الروايات الشفوية إلا أن فتحه كان برغبة من سكان الدرب المجاور«درب الحوش».

15. مكان يجلس به أعيان القصر للتشاور والحديث في الأمور التي تهم ساكنة القصر.



الباب الجديد «فم جديد»

وتتخذ بناية المدخل شكلا مربعا، وتم تزيين واجهتها ببعض الأشكال الهندسية التي تتشكل في أغلبها من أقواس صغيرة من الطين مرسومة بعناية فوق المدخل وعلى جنباته بشكل متواز، كما زينت قمته بأخشاب منقوشة بارزة تفصل بينها مسافات متساوية تعطي للباب رونقا وجمالا .

وفي عام 1965م وهي السنة التي شهدت فيها المنطقة فيضان وادي زير، وبعد أن حاصرت المياه المدخل الرئيسي للقصر، اضطر السكان لخلق مخرج جديد إلى الجهة الغربية من القصر يسمى «فم أيت حسين» من أجل النجاة بأرواحهم. إلا أن هذا المخرج لا يتخذ أي شكل معماري متميز باعتبار الظرف الطارئ الذي تم إحداثه فيه.

وقد تأثر الشكل المورفولوجي الأصلي للقصر بفعل التوسع في البناء وإحداث مخارج جديدة في نهاية الأزقة الفرعية تسمى بـ «الخراجيات» التي فتحت القصر على مصراعيه في جميع الاتجاهات بعد أن لم تعد المسألة الأمنية تفرض ذلك.

الأسوار والأبـراج:

تحيط الأسوار بالقصر على شكل أضلاع مستقيمة، وتتميز بسمكها الكبير وبعلوها الذي يصل إلى ما يناهز 7 إلى 8 أمتار. وانسجاما مع الهدف الدفاعي، فهناك سور خارجي وآخر داخلي بينهما فراغ[16]. وهذا ما يسهل عملية المراقبة والنصب للعدو، كما أنه يشكل تقليدا دفاعيا يوجد بالعديد من المدن العتيقة بالمغرب. ونظرا للحزام السكني الذي تم إحداثه بعد توسيع القصر، أصبح من المتعذر ملاحظة السور بالعين المجردة لأنه أصبح جزءا داخليا للمساكن.

وتتخلل الأسوار، أبراج مربعة تستقر أربعة منها في أركان القصر الأربعة. هذا بالإضافة إلى برج صغير يستقر في منتصف كل ضلع من أضلاع القصر يسمى «البريج» وقد تهدم البرج الجنوبي والشرقي في حين لا زال البرجان الآخران قائمان.



البرج الشمالي الغربي للقصر

المسجد (الجامع):

يوجد المسجد في الجهة اليمنى بعد الدخول من باب القصر، وللإشارة فإن المسجد تمت إعادة بنائه من جديد بالحجارة والإسمنت سنة 1964م، وأضيفت إليه مساحة

16. يصطلح عليه في المنطقة بـ «السور والدور».

مهمة من المدخل. ولم يبق من القديم إلا المنبر الخشبي غير المستعمل حاليا ونعش لحمل الموتى.

ويشغل المسجد الآن مساحة كبيرة خصوصا بعد توسيعه على حساب مساحة المدخل الرئيسي. وقسم آخر يضم: قاعة للصلاة «بيت الله» والتي تحتوي على 28 عمودا «سواري» مبنية بالحجارة والإسمنت، وتتخذ أشكالا مربعة. وأما المنبر فقد كان في البداية خشبيا ثم تم بناؤه بالحجارة يصعد إليه الإمام بواسطة أدرج ملتصقة بجدار القبلة قبل أن يتم الاستغناء عنه بمنبر خشبي بعد عملية إصلاح شهدها المسجد مؤخرا. وتتخذ صومعة المسجد شكلا مربعا وهي خالية من الزخارف باستثناء بعض الفتحات التي تساهم في تهويتها وإضاءتها. كما يضم أيضا مسجدا خاصا بالنساء تم اقتطاعه من المساحة التي كانت مخصصة لمرفق الوضوء[17] بعد إعادة تهيئته مؤخرا.

ضريح مؤسس القصر:

وهو ضريح الشيخ سيدي مهدي بن عبد الكريم مؤسس القصر وأحد حفدة سيدي أحمد بن عبد الصادق مؤسس الزاوية الصادقية «مول البلاد». ففضلا عن كونه مكانا للتبرك والزيارات، فقد كان يقوم ولا يزال بوظيفة الكتاب القرآني «المحضرة» وقد زينت قبته بأشكال زخرفية غاية في الروعة، تقول الرواية الشفوية المتداولة أن يهوديا كان يقيم بالمنطقة هو الذي تفنن في إنجازها.



ضريح الشيخ سيدي مهدي بن عبد الكريم

17. يصطلح عليه محليا «المياضي».

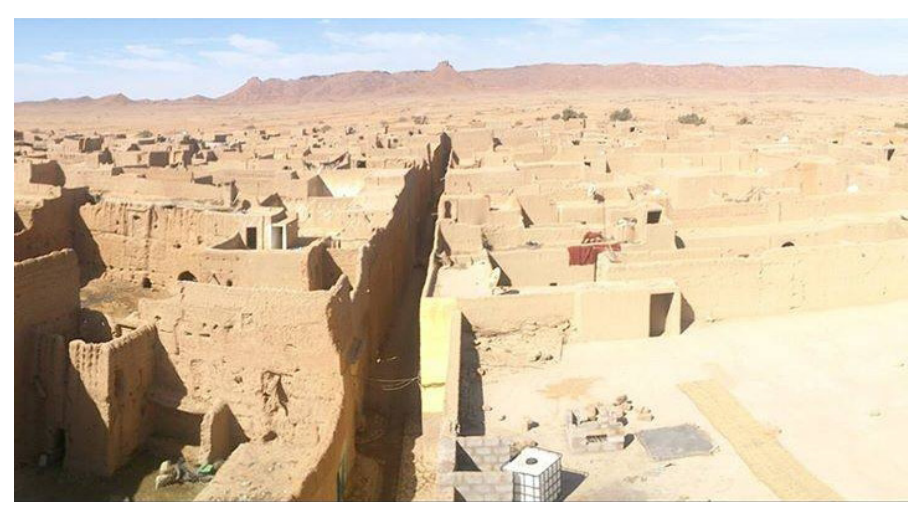
الزقاق الرئيسي والأزقة الفرعية:

يمتد الزقاق الرئيسي «المحج» من الشرق إلى الغرب على شكل مستقيم، مقسما القصر إلى شطرين شبه متساويين. وكان يرتبط مع المدخل بشكل مرفقي، وعلى جنباته توجد مجموعة من الدكاكين لبيع المواد الغذائية والحاجيات اليومية للسكان. وقد تم تبليط أرصفته بالحجارة مما أكسبه صفة الشارع، ويبلغ عرضه حوالي ثلاثة أمتار.

وتتفرع عن الزقاق الرئيسي أزقة فرعية «الزقاقات»، كانت في مرحلة سابقة غير نافذة، لكن بعد التوسع المجالي للقصر تم فتح ما يسمى بـ «الخراجيات» لكي ينفتح الدرب على الخارج. وهذه الأزقة كلها مسقفة ومظلمة، ولذلك يتم فتح بعض الثقب في السقف من أجل الإضاءة، وتسمى محليا «الضواية». أما من حيث المساحة، فهي أقل اتساعا من الزقاق الرئيسي، وبها أرصفة مبنية من الطين تسهل عملية المرور خصوصا في اللحظات التي تجري فيها مياه الأمطار، كما تتخذها النساء مكانا مفضلا للجلوس والحديث بعيدا عن أعين الرجال الذين يعبرون «المحج».

المربض «الروى»:

بحكم وجود قصر الزاوية الصادقية على الطريق الصحراوية ، فإنه كان يشكل محطة للكثير من التجار ومواكب الحج الذين كانوا يضعون دوابهم وأمتعتهم بـ «الروى» على أن يتكفل شيخ الزاوية بإيوائهم وإطعامهم وتغذية دوابهم، عكس القصور الأخرى التي لا تتوفر على زاوية، وتكون فيها مهمة الإيواء والإطعام على عاتق السكان. وهو يشبه إلى حد ما الفندق بالمدن العتيقة. إلا أن هذه الوظيفة لم تعد قائمة بالنظر إلى تغير طرق المواصلات بعد إحداث الطريق الوطنية رقم 13 وظهور وسائل النقل الحديثة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الروى هو مرفق تابع لمؤسسة الزاوية.



المربض «الروى» في وضعيته الحالية

دار الزاويـــة:

وهي دار أسسها مؤسس القصر، وكانت تقوم بوظيفة إطعام المحتاجين من سكان القصر والمتسولين وكذا التجار العابرين، في حين كان الروى يوفر لهم المأوى. كما كانت تستقبل أتباع الزاوية القادمين بشكل دوري من قصور تافيلالت وتيزيمي وورزازات والذين يصطلح عليهم «الفقرا»[18]. ولا زالت هذه الظاهرة مستمرة إلى يومنا هذا، إلا أن دار الزاوية أصبحث خربة بفعل الإهمال، وأصبحت دار شيخ الزاوية تقوم بوظيفتها.

المصريـــة:

كانت المصرية تتموضع فوق المدخل الرئيسي للقصر قبل أن يتهدم سقفه، وكانت تقوم بوظيفة مقر «الجْماعة» تناقش فيها القضايا التي تهم القصر وتتخذ فيها القرارات العامة التي تهم تدبير الماء الذي كان يعرف تقسيما زمنيا دقيقا بين ملاكي الأراضي الفلاحية وحدته الأساسية هي «التاكورة»[19]. كما يتم فيها الاتفاق على تعيين «شيخ الغابة» الذي يكلف بالسهر على أمن المنتوج الزراعي من السرقة والإتلاف.

18. هم مريدو الزاوية وأتباعها المنتشرين بالخصوص بقصور الريصاني والسيفة و تيزيمي.

19. هي وحدة زمنية يتم اعتمادها في تقسيم مياه الساقية حيث تمتلك كل عائلة مالكة للأرض في الغابة عددا من التاكورات يتناسب مع حجم ملكيتها للأرض.

المقبــرة:

تتموضع بعيدا عن القصر، ويصطلح عليها «المدينة» اي مدينة الأموات، وتقع إلى الجنوب من بناية القصر لكنها غير مسورة. لكن هذا لم يمنع من وجود مقابر قديمة مسورة



المقبــرة

الأنــدر:

جمع نادر ويصطلح عليه محليا بـ «النوادر» وهو مكان تتم فيه عملية تصفية منتوج الحبوب بعد حصاده في فصل الصيف، ويصطلح على هذه العملية «الدراس». كما تتم فيه عملية استكمال إنضاج التمور في فصل الخريف، وذلك بتعريضها للشمس. وتتوفر كل أسرة مالكة للأرض بالغابة على «نوادر».

تخضع «النوادر» لتنظيم مجالي دقيق؛ إذ أنها تتخذ شكل تجزئة عقارية،تفصل بينها طرقات لمرور الدواب التي تستعمل في نقل المنتوج بين الغابة والأندر والمنازل حيث تتم عملية التخزين.

المعصـــرة:

وهي مؤسسة ذات صبغة إنتاجية تتم فيها عملية عصر الزيتون بطريقة تقليدية. وكانت توجد بالقصر معصرتان مقسمتان على أساس إثني، إحداهما خاصة بالأمازيغ

«البرابر» والأخرى في ملك الشرفاء الصادقيين «المْرابْطين». إلا أنهما الآن معطلتان بسبب الخلاف على تدبيرهما وكذلك بسبب منافسة المعاصر العصرية التي ظهرت مؤخرا بالقصور المجاورة.

وكان تدبير المعصرة يتم وفق نظام «الشركات المساهمة» حيث تضم عددا كبيرا من الأسهم يتم تداولها وبيعها بين الأسر وتتم الاستفادة من عائداتها بناء على عدد الأسهم المملوكة.

وقد حرصت قصور المنطقة على أن تكون المعاصر من المرافق التي تخضع لتدبير جماعي ولا يسمح بتعددها. وذلك ما يمكن أن نفهمه من شروط اتفاقية الگارة في بنده رقم 151 التي منعت بناء المعاصر الفردية حيث جاء فيه: «ومن أراد أن يصنع المعصرة في بلدنا نصافه مائة مثقال ويهدمها».[20]

وفي ارتباط بالموضوع، أشار اتفاق الگارة في بنده رقم 45 إلى أن سكان الگارة ملزمين بتقديم «لأهل سيدي أحمد بن عبد الصادق إثنان من الأعشار»[21] من الزيت، اعترافا لهذه الزاوية بالدور الذي كانت تلعبه في المنطقة خصوصا في ما يتعلق بالصلح بين المتخاصمين سواء كانوا أفرادا أو قبائل أو أحلافا قبلية.

5- التوسع العمراني للقصر

إن مؤسسة القصر بشكلها المغلق، ماكان لها أن تصمد أمام التحولات التي عرفها المغرب المستقل، وخصوصا الانفجار الديموغرافي الذي شهدته المدن والقرى على السواء، فكان لزاما عليها أن تستوعب هذه التحولات. فقد كان العامل الديموغرافي وتحسن الظروف الأمنية سببا محفزا لهذا التوسع العمراني الذي شهده قصر الزاوية الصادقية. فكـأننا بالقصر يفتح ذراعيه: شمالا في اتجاه قصر المعاركة وجنوبا في اتجاه الجرف[22].

21. L .Mezzine: *Le Tafilalt. Contribution à l'histoire du Maroc aux XIII et XVIII siècles,* publication de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1987, p.154.

22. **نفسه**، ص. 142.

22. لأن الحدود المجالية للقصر من الناحية الجنوبية تصل إلى حدود جماعة الجرف (بالقرب من أرفود) عن طريق إردي.

وقد كانت أول عملية للتوسع في الاتجاه الداخلي؛ حيث تم التوسع على حساب الزقاق الرئيسي «المحج» الذي كان عرضه في السابق يصل إلى حوالي 6 أمتار، وقد تم تضيقه بالبناء حتى أصبح عرضه 3 أمتار فقط. ثم استمر التوسع انطلاقا من الدور المحاذية للسور الخارجي؛ حيث أصبح السور في ما بعد جزءا داخليا من البناء، وتم فتح أبواب هذه الدور نحو الخارج، فأصبحت تشكل حزاما معماريا يحيط بالقصر. وهذا ما ساهم في تقليص وظيفة المدخل الرئيسي الذي كان المنفذ الوحيد للدخول أو الخروج من القصر. ثم استمر التوسع في مرحلة لاحقة بعيدا عن الأسوار في اتجاه الشمال والجنوب كما أشرنا سالفا.

وقد تم على العموم استعمال نفس مواد ووسائل البناء في إطار هذا التوسع، حيث تأسست أحياء جديدة بشكل طولي في اتجاه قصر المعاركة والجماعة القروية الجرف. لكن البناء لم يتم بنفس الإتقان الذي كان عليه إبان بناء نواة القصر.



جانب من التوسع المجالي للقصر

وقد لوحظ ذلك بوضوح على إثر الأمطار الغزيرة التي شهدتها المنطقة سنوات التسعينيات والتي نجمت عنها أضرار بليغة كسقوط بعض المنازل عن آخرها. وقد لوحظ أن القصر/النواة لم يعرف أضرار كبيرة بالمقارنة مع البناء الجديد. وفي إطار التعويضات

التي قدمتها الدولة للمتضررين، تم بناء بعض المنازل الجديدة بالإسمنت المسلح وهي بداية ظهور هذا النوع من البناء الذي لا يتلاءم مع الطابع المعماري للمنطقة ولا مع طبيعة المناخ القاري المتميز بحرارته المفرطة صيفا والتي تجعل الحياة داخله شبه مستحيلة عكس المباني الترابية التي تساهم في تلطيف الحرارة نسبيا.

6- الحالة الفيزيائية للقصر وعمليات الترميم والإصلاح

6-1 ـ الحـالة الفزيائيـة:

رغم التحولات التي عرفها القصر في العقود الأخيرة ، فإن حالته الفزيائية لازالت في عافية مقارنة ببعض القصور المجاورة كقصر البطاطحة المجاور الذي تم هجره بصفة شبه نهائية. والسر الكامن وراء ذلك هو أن النسبة الهامة من المنازل التي لا زالت مسكونة إلى حد الآن تخضع لعمليات الصيانة والترميم المستمرين. أما المنازل التي هجرها سكانها في اتجاه مجال التوسع الجديد أو هاجروا في اتجاه مدن أخرى فهي تعاني من التدهور؛ حيث أصبح البعض منها عبارة عن خرب تهدد الدور المجاورة نظرا لارتباط البناء وتداخله داخل القصر.

2-6- عمليـات الترميـم والإصــلاح:

يمكن أن نتحدث عن عمليات الترميم والإصلاح من خلال مستويين: **الأول:** وهي العمليات التي تهم المجالات والمرافق العمومية. وقد همت هذه العمليات بالأساس، المسجد الذي تمت إعادة بنائه وتوسيعه سنة 1964م، ثم المدخل الرئيسي الذي عرف ترميما بعد إعادة بناء المسجد.

و**الثاني**: وهي الترميمات والإصلاحات الفردية التي تهم أساسا جزءا من الدور كتبليط الجدران بالطين، وكذا السطوح التي تتدهور بفعل الأمطار. وهو ما يصطلح عليه بعملية «التملاس». وقد يتم أحيانا إعادة هيكلة الدار وذلك بهدمها وإعادة تصميمها من جديد. كما تخضع المنازل لبعض العمليات البسيطة بشكل مستمر، كصباغة الجدران استعدادا لاستقبال المناسبات الأسرية.

تيگساس
حاضرة بلاد غمارة

عبد السلام الجعماطي
أستاذ باحث بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين ـ طنجة

شهدت مراسي بلاد غمارة بشمال المغرب الأقصى في العصر الوسيط حالة انتعاش اقتصادي وتوسع عمراني وتزايد ديمغرافي ملحوظ، وذلك بفضل تحقيق الوحدة السياسية بين أقطار الغرب الإسلامي، ومن بين تلك المراسي احتل مرفأ تيگساس مكانة مهمة في الطريق البحري الرابط بين سواحل الأندلس وشمال إفريقيا من جهة، وبين وسط المتوسط وشرقه من جهة أخرى، رابطة بذلك بين جناحي دار الإسلام بالمشرق والمغرب.



منظر عام لموقع مدينة تيگساس الأثرية

تصوير: ذ. عبد اللطيف الفيلالي

ومن بين الشهادات التاريخية المعاصرة لهذه الفترة نذكر فقرة من كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، لابن سعيد المغربي (ت. 685هـ) الذي عاش أواخر عصر الموحدين وصدر دولة بني مرين، حيث يذكر عن منطقة غمارة ما نصه:

وصف ساحل غمارة

«فأول ما يلقاك في بر العدوة بعد سبتة جبل غمارة العالي الطول، العريض، فيه من الأمم ما لا يحصيهم إلا الله تعالى. ومنه يحمل خشب الأرز الذي تنشأ منه الأساطيل، ويصرف في الأبنية الملوكية ويحمل إلى الآفاق. وبينه وبين سبتة ستة وعشرون ميلاً، وإلى نهر لو النازل منه عشرة أميال وهو كبير تدخله المراكب وتسير فيه؛ ومنه إلى مدينة باديس سبعون ميلا، وهي من أشهر فرض غمارة، وذلك الساحل يعرف بالريف. ومن باديس إلى المزمة مثل ما بين باديس إلى سبتة مائة ميل. وهي فرضة مشهورة».[1]

كما يستدل من شهادة أخرى لنفس الجغرافي والمؤرخ السالف، أن بلاد غمارة قد أسهمت بشكل فعال ومباشر في إمداد أسطول سبتة بالقطع البحرية التي أضحى بفضلها قوة بحرية مهابة الجانب بالحوض الغربي للبحر المتوسط شمال إفريقيا، حيث يقول ابن سعيد:

اعتماد أسطول سبتة على سفن غمارة

«وهذه المدينة بين بحرين وهي ركاب البرين، تشبه الإسكندرية في كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة، ولا يُحْوِجُون صاحبَها إلى تقاص. وهي الآن غير راجعة إلى سلطان بل يدبرها الفقيه العرفي. وعسكرها في أسطولها في المراكب التي ترد عليها من البحر المحيط ومن ريف غمارة».[2]

---

1. ابن سعيد المغربي، **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**، تحقيق خوان فرنيط خينيس، منشورات معهد مولاي الحسن، تطوان: 1958، ص. 74-73.

2. ابن سعيد المغربي، **مصدر سابق**، ص. 73.

و«تيگساس» (بكاف معقوفة) اسم أمازيغي ضارب في القدم، ونلمس تعدد الصيغ التي كتب بها تبعا للنصوص التاريخية المعتمدة في هذه المداخلة، حيث ورد بصيغ «تيگساس» و«تيقساس» و«تيقيساس» وتجيساس» و«تيجيساس» بل وردت اللفظة حتى بصيغتي «يكساس» و«تيفاش»؛ وهما في اعتقادنا محض تصحيف وتحريف.

وتقع أطلال مدينة تيگساس الأثرية على مسافة نحو 70 كلم عن مدينة تطوان، وتحتل أحد أجمل شواطئ إقليم شفشاون. والجدير بالذكر أن تيگساس تعد من أقدم المدن والمرافئ المغربية، فقد شهدت تعاقب عدة شعوب وحضارات على السيادة بها، وبهذا الصدد، تذكر «خريطة المغرب الأركيولوجية» ـ اعتمادا على المصادر المكتوبة ونتائج الحفريات الأثرية التي أجريت بها سنة 1958 ـ «أن هذه المدينة من تأسيس المغاربة قبل مجيء الرومان واستعمارهم لشمال المغرب، [وقد] مرت عليها أطوار عديدة حتى نزل بها القوط. وبعد الفتح الإسلامي أصبحت مدينة إسلامية معروفة متصلة تمام الاتصال بمملكة الأمويين في الأندلس».[3]

كما أورد صاحب **مرآة المحاسن** وصفا لتيگساس، منبها على قدم عمرانها، وهو وصف يجمع بين الجوانب الطبوغرافية والاقتصادية للمدينة؛ غير أنه لا يحدد تاريخا مضبوطا أو مصدرا معينا لمعطياته عن هذه الحاضرة؛ ويبدو أنه استند إلى مصدر يعود إلى زمن سابق للقرن الهجري الثامن، مثلما سيتضح لاحقا. ويقول بهذا الصدد: «هي في شرق تطاون على مسيرة يوم منها، في موضع كثير الحجارة والصخر، في سفح جبل في غربيها، تحتها في شمالها جرف كثير الصخر عظيمه، على مكسر موج البحر. لها نهر نَبّاع، يجلب إليه منه جدول؛ ولها تبسيط تركبه الجداول من كل جهة؛ فتسقي الزرع والكتان والثمار، فأهلها في أمن من القحط، وهي قديمة العمران».[4]

3. أحمد المكناسي، **خريطة المغرب الأركيولوجية: للمواقع الأثرية لما قبل التاريخ إلى ظهور الإسلام**، تطوان، 1961، ص. 13.

4. محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد (3)، ص. 225.

حاضرة بلاد غمارة:

تتضح الأهمية التي تبوأتها مدينة تيگساس، من خلال استعراض الدور الذي أدته هذه الحاضرة عبر المحطات الكبرى لتاريخها الإسلامي، سواء على المستوى السياسي بوصفها حاضرة بلاد غمارة خلال حقب معينة من تاريخ المغرب؛ أو على المستوى الاقتصادي، حيث احتضنت مرفأ نشيطا للملاحة البحرية والتجارة بالحوض الغربي للبحر المتوسط.

وبالنسبة إلى الجانب السياسي، تكشف إحدى الروايات التاريخية عن وجود هذه الحاضرة الإسلامية منذ عصر الأدارسة بالمغرب، حيث شكلت عاصمة محلية لبلاد غمارة منذ تقسيم المغرب بين أبناء المولى إدريس الثاني بمبادرة من خلفه المولى محمد بن إدريس (213-221هـ)؛ وتذكر الرواية في سياق التقسيم الإداري الجديد للمغرب أن المنطقة الشمالية الغربية خضعت للأمير عمر، حيث ولاه أخوه «مدينة تيگساس ومدينة ترغة وبلاد صنهاجة وغمارة وما والاها»[5]. وفي تطور الأحداث السياسية والعسكرية غداة هذا التقسيم، تتكشف المكانة التي احتلها الأمير الإدريسي المذكور، إذ تشير إليه الرواية بوصفه «صاحب تيگساس وبلاد غمارة»[6]. والجدير بالذكر، أنه أضحى حاكما يباشر تدبير شؤون القسم الشمالي من المغرب الأقصى برمته، انطلاقا من عاصمته تيگساس، عقب انتصاراته على أخويه القاسم صاحب طنجة وسبتة، وعيسى صاحب شالة وتامسنا؛ إذ ضم إليه كل هذه الأقاليم، غير أنه ظل يدين بالولاء إلى أخيه الأكبر المولى محمد بالعاصمة فاس.

لقد استمرت أهمية هذه المدينة على المستوى السياسي طيلة العصور اللاحقة، حيث ذكرها البيذق في سياق التحركات العسكرية التي قام بها الموحدون لتوطيد نفوذهم

5. أبو الحسن علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط. 2، الرباط، المطبعة الملكية، 1999، ص. 63-64؛ أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والنشر، 1973، القسم الأول، ص. 203- 204؛ مرآة المحاسن، **مصدر سابق**، ص. 225.

6. **نفسه**، ص. 65.

بشمال المغرب،[7] كما ظلت تيگساس تتمتع بمكانة مرموقة بين المرافئ الإستراتيجية بالساحل المتوسطي خلال عصر المرينيين، وهو ما تكشف عنه بعض الإشارات إليها في أحد التقاييد المحلية المنشورة حديثا، ويأتي في طليعة تلك الإشارات ذكر تيگساس بوصفها المرسى الذي نزل به أحد أدعياء العرش المريني وهو الأمير عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق، عقب عبوره من الأندلس بمعية فرقة من الجنود المسيحيين الذين استقدمهم لمنازعة سلطان المرينيين بالمغرب أبي يعقوب يوسف (685- 706هـ). ويذكر ابن مرزوق بهذا الصدد أن الدعي المذكور «احتل قريتي ترغة وتيگساس ثم توجه إلى ناحية الهبط وبايعته مدن أصيلة والعرائش والقصر الكبير سنة 704هـ. واستفحل أمره، ولم يتمكن السلطان أبو يعقوب يوسف من القضاء عليه؛ فبقي عثمان يصول ويجول بقبائل الهبط وغمارة إلى أن قتل السلطان سنة 707هـ، وكلف ابن عمه عبد الحق بن عثمان بملاحقة الأمير الثائر عثمان الذي لجأ إلى مدينة سبتة واعتصم بها إلى شهر محرم 709هـ».[8] وسوف تستمر هذه المكانة الإستراتيجية لتيگساس طيلة القرن الثامن للهجرة، حيث ورد ذكرها في إشارة ثانية وذلك بمناسبة نزول دعي آخر للعرش المريني بهذا المرسى، وهو أبو سالم سنة 760هـ /1359، مطالبا بدوره بعرش المرينيين.[9]

محطة بحرية نشيطة:

أما بالنسبة إلى الدور الاقتصادي الذي أدته تيگساس، فيجدر التنويه بكتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري، بوصفه أقدم النصوص الجغرافية التي أشارت إلى هذه الحاضرة المغربية في سياق حديث المؤلف عن شهرة بني حميد بنتاج خيولهم التي عرفت لدى أهل الأندلس بالخيول الحميدية؛ ويحدد النص المذكور مواطن هذه

7. أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط. 2، الرباط، المطبعة الملكية، 1425هـ- 2004م، ص. 54، ويذكر المؤلف بهذا الصدد ما يلي:

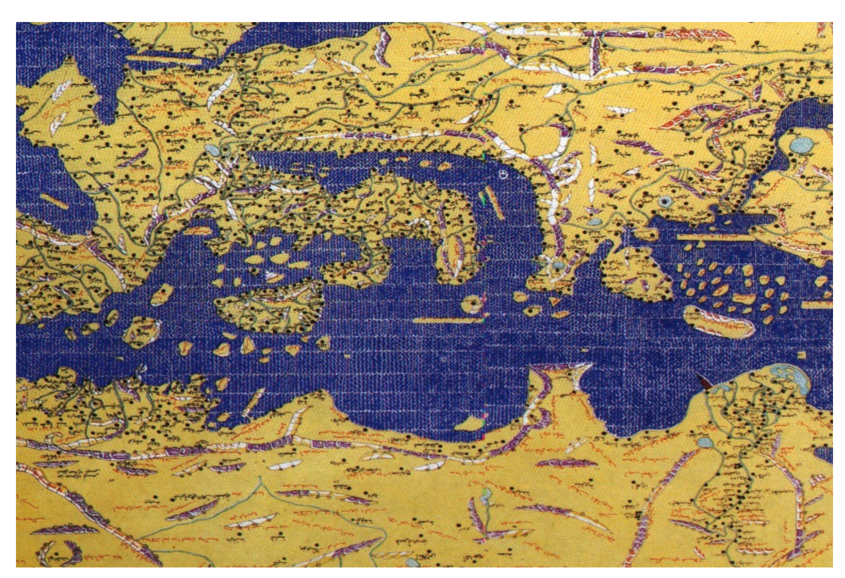
«ثم قلعنا إلى **تيگساس** ونزلنا بموضع يسمى أم يكيك ووحد بنو نال وبنو زياد، وقلعنا منها إلى آست سار فوحد أولاد حيان متاع تيزيران وبنو أزكدا فقلعت محلتنا إلى الثلاثاء متاع بوعريف، فوحد تم عبد الله بن يحياتن، وقلعنا إلى القلعة متاع بادس، ووحد أهل الطارقية والمحففة، وقلعنا إلى كزناية متاع تيزغت فوحد منهم ثلاثة قبائل وبقي ثلاثة قبائل». (يجدر التنبيه إلى التصحيف الذي لحق اسم **تيگساس** في النسخة المعتمدة في هذا البحث، واستدركها المحقق في لائحة التصويبات، ص. 96.)

8. محمد بن عزوز حكيم، **أطلس قبائل غمارة**، تطوان، 2007، الجزء الأول، ص. 34.

9. **نفسه**، ص. 38.

القبيلة الغمارية في المنطقة الممتدة ما بين نهر لو وتيگساس.[10] ومن المعلوم أن معظم المادة الجغرافية والتاريخية التي أوردها البكري عن بلاد المغرب منقولة عن كتاب «المسالك والممالك» لأبي مروان محمد بن يوسف الوراق القيرواني الذي عاش بقرطبة وتوفي بها سنة 363هـ، بعد أن ألف عدة مصنفات للخليفة الأموي الحكم المستنصر (350ـ366هـ).

ويبدو أن مرسى تيگساس قد استمر ازدهاره على المستوى الاقتصادي إلى حدود عصر الشريف الإدريسي، وهو ما يتضح من خلال نص جغرافي في كتاب «أنس المهج وروض الفرج»، إذ يشير إليه بوصفه محطة بحرية رئيسة تتوسط سواحل بلاد غمارة، ضمن خط ملاحي يربط بين سبتة وهنين؛ وبالتالي فهو يصف هذا الطريق البحري كونه شاهد عيان على النحو الآتي:



خريطة حوض البحر المتوسط
مجتزأة من خريطة العالم للشريف الإدريسي

10. أبو عبيد البكري، **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992، بيروت، ط.1،ج. 2، ص. 786.

«ومن سبتة على البحر إلى هنين مجريان، والطريق بينهما من سبتة إلى وازلان ثلاثون ميلا، ومنه على حصن تيقساس [= تيگساس] ثلاثون ميلا، إلى حصن مسطاسة نصف يوم، إلى حصن كركال خمسة عشر ميلا، إلى مدينة بادس على البحر نصف يوم. فذلك من سبتة إلى بادس مجرى، ومن بادس إلى هنين مجرى».[11]

ومن نافلة القول إن هذا الطريق البحري هو نفسه الذي تم اتباعه من قبل سفن غرب الأندلس والسواحل الأطلنتية للمغرب الأقصى؛ وذلك ما تؤكده عدة روايات عن توقف السفن المبحرة من غرب المتوسط وجنوب شبه جزيرة إيبيريا نحو الشرق في اتجاه المغرب الأوسط وإفريقية ومصر والشام. ويجدر التنبيه على أن الوصف المذكور يعد فريدا في بابه، إذ لا تشير إليه كتب الجغرافيا العربية السابقة لعصر الشريف الإدريسي. ومرد هذا الغياب يعود دون ريب إلى كون المرسى المذكور قد شهد خلال أواخر عصر المرابطين وبداية عصر الموحدين عملية إعادة إدماجه في شبكة المواصلات بين مراسي ضفتي المتوسط بفعل تحقيق وحدة سياسية بين المغرب والأندلس منذ بدء إسقاط ملوك الطوائف سنة 483هـ على وجه التقريب. ومما يزكي هذه الفرضية مبادرة الموحدين إلى ضم مرسى تيگساس لنفوذهم تبعا للإشارة التي أوردها البيدق مؤرخ عبد المؤمن بن علي الكومي سالفا؛ يضاف إلى ذلك أن الموحدين نهجوا سياسة عسكرية تعتمد على الأساطيل البحرية بشكل أساسي، وقد استخدموا مراسي دولتهم الشاسعة في مواجهة القوى البحرية المعادية، وخاصة بني غانية والممالك الإيبيرية والنورمان المستقرين بجنوب إيطاليا وصقلية، أثناء محاصرتهم للمهدية سنة 555هـ. ومما لا شك فيه أن بداية عصر الموحدين قد شهدت انطلاقة قوية لصناعة السفن في أوراش هذه الإمبراطورية؛ وبحكم غنى منطقتي الريف وغمارة بثرواتهما الغابوية، فقد استفادت تيگساس من موقعها في هذه الصناعة. وإذا كنا لا نتوفر على معطيات معاصرة حول صناعة السفن وإنتاج الخشب بالمنطقتين الواقعتين شمال المغرب الأقصى، فإن عدة إشارات تعود إلى فترة لاحقة لعصر الإدريسي تفيد لجوء السفن الأندلسية

11. الشريف الإدريسي، **أنس المهج وروض الفرج**، تحقيق جاسم عابد مزال، نشر المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1989، ص. 43- 44.

العابرة للمتوسط إلى مراسي بلاد الريف من أجل التزود بالخشب لإصلاح الأعطاب التي تلحقها.[12]

ومع أن الوصف الذي قدمه الإدريسي عن تيگساس يقتصر على ذكر المسافة التي تفصل هذا المرسى عن باقي المرافئ في خط السير جيئة وذهابا، فإن نشاط الملاحة البحرية عبره يعد في حد ذاته مظهرا جليا للانتعاش الاقتصادي الذي شهدته بلاد غمارة إلى حدود هذه الحقبة، وهو ما يتضح مثلا من خلال نصوص أخرى في **نزهة المشتاق** تصف هذه المنطقة بشكل يؤكد ازدهارها في فجر عصر الموحدين؛ وبهذا الصدد، يقول الإدريسي ما يلي:

«وبلاد غمارة جبال متصلة بعضها ببعض كثيرة الشجر والغياض وطولها نحو ثلاثة أيام ويتصل بها من ناحية الجنوب جبال الكواكب، وهي أيضا جبال عامرة كثيرة الخصب وتمتد في البرية مسيرة أربعة أيام حتى تنتهي قرب مدينة فاس».[13]

غير أن معطيات أخرى ذات صبغة عمرانية وعسكرية عن تيگساس أو تيقساس ـ مثلما يسميها الإدريسي ـ تؤيد ما نذهب إليه من انتعاش هذا المرفأ المتوسطي على المستوى الملاحي والتجاري خلال هذه الحقبة بالذات، على الرغم من العلاقة غير الودية التي كانت تجمعه بجيرانه، حيث يذكر الشريف الإدريسي بهذا الصدد عن تيگساس أنه «حصن معمور في غمارة لكن أهله بينهم وبين غمارة حرب دائمة».[14]

النهضة العلمية والثقافية لتيگساس:

ومن الشهادات الحية على هذه النهضة العلمية والثقافية التي عمت ربوع منطقة غمارة وتيگساس منها بوجه أخص، ما يذكره العلامة محمد الفاسي في ترجمة الشيخ أبي المحاسن إذ يقول:

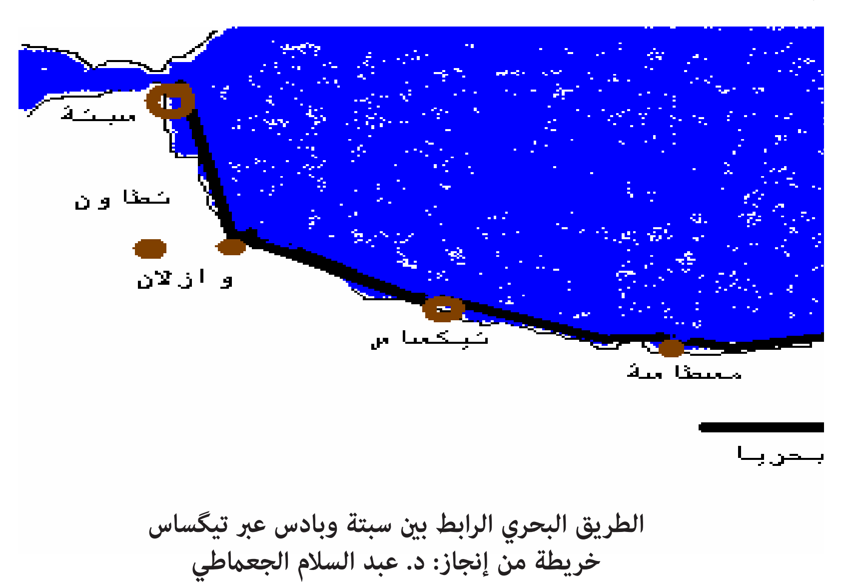
12. عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، ط. 2، الرباط، المطبعة الملكية، 1414هـ- 1993م، ص. 106.

13. الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، مج. 2، ص. 532.

14. **نفس المصدر والصفحة.**

«قبيلة بني زيات: بزاي، ثم ياء تحتانية خفيفة، ثم ألف، ثم تاء مثناة فوقية؛ من قبائل بني يال (بياء تحتانية، وألف مد فلام) بطن من بطون غمارة [...] (ثم يفصل في فروع القبيلة، ويعقب قائلا:) «وكانوا أهل حسب ومروءة وطلب علم، قد عُرِفُوا بذلك واستمروا عليه».[15]

ويكفي هذه الحاضرة فخرا أن القبيلة المساكنة لمحيطها ـ وهي بني زيات ـ أنبتت ثلة من العلماء في مختلف ينابيع العرفان؛ وفي طليعتهم الجغرافي والرحالة الذائع الصيت الحسن بن محمد الوزان أو ليون الإفريقي صاحب كتاب **وصف إفريقيا** الذي ينتسب أجداده إلى هذه القبيلة؛ والفقيه المجتهد الطلعة عبد العزيز الزياتي الذي احتوى قصب السبق في تشريع قانون منع التدخين في مجموعه الفقهي «الجواهر المختارة» حتى قبل تداول هذه العادة على نطاق واسع بين أمم المعمور؛ والعلامة المؤرخ المحقق سعيد أحمد أعراب، صاحب الفضل في إخراج نصوص تراثية نادرة للنشر وفي مقدمتها **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف** والمشارك في إخراج موسوعة العلماء المالكيين **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**.



الطريق البحري الرابط بين سبتة وبادس عبر تيگساس
خريطة من إنجاز: د. عبد السلام الجعماطي

15 . **مرآة المحاسن، مصدر سابق**، ص. 226.

تراجع مكانة تيگساس:

من خلال الإشارة السالفة، نلاحظ أن علاقة العزلة التي أضحت تعيشها تيگساس عن الوسط القبلي المحيط بها منذ هذا العصر شكلت بداية التراجع الاقتصادي لهذا المرسى. ويبدو أن هذه العزلة سوف تتعزز بعد عصر الإدريسي بسبب سلوكها لمنحى بعيد عن الاستقرار. ولعل السبب في تضاؤل مكانة تيگساس اقتصاديا، يكتسي بعدين، أحدهما داخلي يتمثل في تغيّر الظروف السياسية بشمال المغرب الأقصى عشية أفول نجم الموحدين وانتشار الفوضى السياسية والتناحرات القبلية، إلى جانب تعاقب سنوات الجفاف والمجاعات، وهو ما يعكسه مصدر منقبي في إحدى رواياته[16]. أما على المستوى الخارجي، فنضع نصب الاعتبار ذلك الانقلاب في موازين القوى العسكرية الذي حصل بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط لصالح الجيران الشماليين؛ فمع تراجع هيبة الدولة الموحدية بالغرب الإسلامي وتضاؤل صولة أساطيلها البحرية بسواحله، رجحت الكفة لصالح أساطيل المدن الإيطالية والإسبانية والبرتغالية. وكان من المظاهر المباشرة لتزايد قوة تلك الأساطيل أن صارت تكتسي خطرا داهما على الملاحة بسواحل شمال المغرب، ومن ضمنها حركة الأسفار البحرية انطلاقا من تيگساس، بالنظر إلى موقعها الجغرافي كواسطة عقد للمواصلات البحرية بين الشمال الشرقي للمغرب وشبه الجزيرة الطنجية. كما أن بلاد الريف وغمارة قد شكلتا خلال عصر الإدريسي معبرا بين ضفتي المغرب والأندلس.

وعلى الرغم من ندرة النصوص التاريخية عن هذه الوضعية الحرجة التي عاشت على إيقاعها تيگساس منذ منتصف القرن السابع الهجري وحتى اضمحلال مكانتها في أواخر القرن الثامن للهجرة، فإن بعض المصادر المنقبية تشير إلى استفحال القرصنة المسيحية ضد السفن المنطلقة من مرسى تيگساس؛ وفي هذا السياق يقـول البادسـي ــ بوصفه شاهد عيان ــ ما يلي: «ومما شاهدناه من بركة دعائه أن أبا إسماعيل بن أحمد كان أراد التوجه إلى تجيساس من بلاد غمارة بعياله، فتقدم ووجه إلى عياله

16 . البادسي، **المقصد الشريف**، ص. 58.

زورق صيد، فخرج عليه عدو البحر بمرسى ياليش، فأسرت زوجة إسماعيل وبنت لها منه صغيرة، وأخت لي شقيقة...».[17]

واعتمادا على هذه الإشارات، نخلص إلى استنتاج مؤداه أن إيقاع النشاط البحري بهذا المرفأ أضحى تحت رحمة القراصنة الأوروبيين منذ تراجع نفوذ الموحدين. ومن نافلة القول إن أمن السبل البحرية يعد شرطا لا مناص منه لضمان سلامة الملاحة والتجارة انطلاقا من المرافئ، لذلك نذهب إلى التأكيد على اضمحلال مكانة تيگساس الاقتصادية مع القرن الثامن الهجري، في ارتباط وثيق مع الاختلال الداخلي والتهديد الخارجي لسواحل المغرب المتوسطي.

غير أن تيگساس لم تفقد ازدهارها العمراني إلا في أواخر العصر المريني؛ وفي هذا الصدد يذكر ابن مرزوق أن أهل تيگساس هاجروا حاضرتهم بعد وفاة عاملهم الحاجب فارح بن مهدي العلج عام 806هـ «بسبب القحط الذي أصابها»[18]؛ أما العلامة المرحوم سعيد أحمد أعراب فيرى أن الإسبان هم الذين قاموا بتخريبها أواخر المائة الثامنة للهجرة[19]. بينما يرجح عبد الوهاب بن منصور[20] ما جاء في رواية صاحب **مرآة المحاسن**السالف الذكر، الذي يذكر أن جلاء سكان تيگساس عن بلدتهم إنما يعزى إلى جور واليهم المذكور، واضطرارهم إلى ذلك.[21]

ويبدو أن تيگساس قد استعادت شيئاً يسيرا من مكانتها على يد مولاي علي بن راشد أمير شفشاون سنة 877هـ، حيث تفيد عدة شهادات تاريخية معاصرة لهذه الفترة استرداد تيگساس لبعض مكانتها على المستوى العسكري والإستراتيجي، بصفتها قاعدة للأسطول الجهادي التابع لبني راشد أمراء شفشاون، وهذا ما يفسر تلك المحاولات

---

17. **نفسه**، ص. 111-112؛ والجدير بالإشارة أن المعطيات المثبتة في المتن تأتي في سياق رواية عن سيرة أحد المتصوفة بمنطقة الريف، و«بركة» ذلك الشيخ الصوفي في استدرار الفدية اللازمة لاستنقاذ الأسرى من أيدي القراصنة.

18. **أطلس قبائل غمارة**، ص. 39.

19. **البادسي، المقصد الشريف**، ص. 111، التعليق رقم: 104.

20. **روض القرطاس**، ص. 63، التعليق رقم: 108.

21. **مرآة المحاسن**، ص. 225- 226.

البرتغالية والإسبانية المتكررة لاحتلال كل من ترغة وتيگساس أو تخريبهما. غير أن جميع المحاولات آلت إلى الفشل الذريع؛ وفي هذا السياق يذكر ابن مرزوق في غضون أحداث 914ه\1508م، أن الأمير علي بن راشد حاكم شفشاون «جعل قاعدة سفنه بترغة وتيگساس، وقد ازداد نشاط المجاهدين على إثر سقوط غرناطة، فـ[صاروا] يجوبون البحار ليلا ونهارا ويعودون بغنائم كثيرة نتيجة الحملات التي يقومون بها ضد المدن الشاطئية الأندلسية التي استولى عليها العدو الغاشم [يقصد الإيبيريين]، وكثيرا ما كانت تتم الغارات المذكورة باتفاق ومشاركة البحارة الريفيين انطلاقا من مربط سفنهم بحجرة بادس».[22]

أما العمليات العسكرية التي قام بها البرتغاليون والإسبان ضد كل من تيگساس وترغة، ففي سنة 923ه/1517م، هاجمت ستون سفينة حربية برتغالية مرسى ترغة من أجل تحطيم السفن الجهادية الراسية به؛ غير أن الجنود البرتغاليين لم يجرؤوا على النزول إلى الشاطئ نظرا إلى شدة المقاومة التي واجهتهم.[23] وفي سنة 939ه 1533م هاجم أسطول إسباني قاعدة ترغة، غير أنه فشل على غرار سابقه البرتغالي.[24] وتكررت المحاولة نفسها من الجانب الإسباني سنة 976ه 1568م، دون جدوى.[25] كما تعرضت تيگساس عام 1009ه 1601م لهجوم مسيحي، غير أن سكانها تصدوا للمهاجمين واستطاعوا أن يبيدوا أكثر من 30 نفرا وأن يأسروا قائد الأسطول من بين مئة أسير مسيحي.[26]

ومن الواضح مما سلف أن كل من ترغة وتيگساس صمدتا طيلة القرن العاشر للهجرة\ السادس عشر للميلاد، على الرغم من فقدان الكثير من أهميتهما السياسية والملاحية؛ فقد استمرتا محطتين للسفن الجهادية المنطلقة من تطاوين وأحوازها تحت قيادة المقدمين من أسرة آل النقسيس.

---

22. **أطلس قبائل غمارة**، ج. 1، ص. 114.

25. **نفسه**، ص. 122.

26. **نفسه**، ص. 131.

27. **نفسه**، ص. 139.

28. نفسه، ص. 166.

المصادر والمراجع

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط. 2، الرباط: المطبعة الملكية، 1999.

ابن سعيد المغربي، **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**، تحقيق خوان فرنيط خينيس، منشورات معهد مولاي الحسن، تطوان: 1958.

ابن عزوز حكيم، محمد، **أطلس قبائل غمارة**، تطوان، 2007، الجزء الأول.

ابن القاضي، أحمد المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، الرباط: دار المنصور للطباعة والنشر، 1973، القسم الأول.

البادسي، عبد الحق بن إسماعيل، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، ط. 2، الرباط: المطبعة الملكية، 1414هـ- 1993م.

البكري، أبو عبيد، **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ط. 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992، ج. 2.

الشريف الإدريسي، **أنس المهج وروض الفرج**، تحقيق جاسم عابد مزال، نشر المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1989.

الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، مج. 2.

الصنهاجي، أبو بكر بن علي المكنى بالبيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط. 2، الرباط: المطبعة الملكية، 1425هـ- 2004م.

الفاسي، محمد العربي بن يوسف الفهري، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد (3).

المكناسي، أحمد **خريطة المغرب الأركيولوجية: للمواقع الأثرية لما قبل التاريخ إلى ظهور الإسلام**، تطوان، 1961.

من حاضرة سجلماسة إلى قصور تافيلالت

لحسن تاوشيخت
أستاذ باحث، المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، الرباط

توطئـــة:

يحاول هذا المقال الإحاطة بمجموعة من الإشكاليات المرتبطة بنوع العمارة المعتمدة في سجلماسة وكيف انتقلت هذه العمارة من شكل حاضرة مجمعة إلى قصور وقصبات مشتتة، وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية: ما هي الظروف التي أدت إلى تأسيس مدينة سجلماسة وإلى تطورها السريع والهائل؟ وما هي المواد المستعملة في بناء هذه المدينة وفي زخرفة تكويناتها المختلفة وما هي أهم المرافق المعمارية التي توفرت عليها؟ ثم هل يمكن اعتبار سجلماسة في خطتها العمرانية عبارة عن مجموعة من البنايات المشتتة لا يجمعها إلا السور أم أنها كانت تمثل تجمعا حضريا حقيقيا؟ وهل يمكن إيجاد مقاربة بين المعمار السجلماسي والقصور والقصبات الموجودة حاليا بتافيلالت؟ وهل يمكن اعتبار أن هذه القصور تمثل نموذجا مصغرا للمدينة الأم أو على الأقل نمطا عمرانيا مستوحىً منها؟

تعتبر سجلماسة ثاني مدينة إسلامية تشيد بالغرب الإسلامي بعد القيروان وأول حاضرة بالمغرب الأقصى مثلت عاصمة إمارة بني مدرار الصفرية المستقلة عن الخلافة بالمشرق. فقد أجمعت بعض المصادر التاريخية أن سجلماسة بنيت سنة 140هـ/757م

وقد أهلها موقعها الاستراتيجي كصلة وصل أساسية بين مختلف مناطق شمال إفريقيا وبلاد السودان الغربي من جهة والمشرق الإسلامي من جهة ثانية، على نشر الإسلام بهذه المنطقة بل وعلى لعب الدور الريادي في التواصل الحضاري، الشيء الذي جعل اسم سجلماسة يرتبط في الكتابات العربية وبالتالي أن تؤثر وبشكل فعال في بلورة حضارة عربية إسلامية بإفريقيا جنوب الصحراء.

كما كان لهذا الدور المتميز الأثر الإيجابي في ازدهار سجلماسة في مختلف نواحي الحياة: فمن الناحية السياسية بسطت سجلماسة نفوذها على عدة مناطق من بينها درعة، أغمات، أحواز فاس،... قبل أن تصبح إقليما متميزا تابعا للإمبراطورية المغربية حيث ظلت مجالا حيويا ونقطة انطلاق لكل الدول التي تعاقبت على حكم المغرب. في المجال الاقتصادي انتعشت الفلاحة بفضل نظام متطور للري وتطورت الصنائع وأصبحت المدينة البوابة الرئيسية للسيطرة ليس فقط على التجارة العالمية بل وعلى الحكم المركزي. في الميدان الاجتماعي أضحت سجلماسة مركز استقطاب حيوي ساهم في تحول حياة عيش السكان من الاستغلال الرعوي والزراعي المتنقل إلى حياة أكثر استقرارا تعتمد فضلا عن الفلاحة، على التبادل التجاري والحرف، مما جعلها تحتضن أجناسا متنوعة ومختلطة. على الصعيد الحضاري عرفت المدينة تطورا عمرانيا كبيرا كما اعتبرت منبرا ثقافيا حرا لتبادل الرأي بين العلماء والمفكرين.

الكتابات العربية، بالرغم من ضآلتها وتجزيئتها، تقدم أوصافا مهمة عن موقع سجلماسة، فالمؤرخون العرب الأوائل، بالرغم من أن القليل منهم من زارها فعليا، اعتبروها كمدينة كبيرة ومنطلق لتجارة الذهب ونموذج للمدن الأخرى. وهكذا نجد أول إشارة لسجلماسة بعد قرن من تشييدها عند الخوارزمي المتوفى سنة 229 هـ/846 م حينما ذكر أنها مدينة محورية على شكل نقطة التقاء مواقع العالم، بينما جاءت في بقية الكتابات [حوالي 13 مصدرا] كحاضرة غنية وجذابة. وتطرح هذه المصادر المكتوبة عدة إشكاليات أهمها: أن أغلب هذه الكتابات يكرر نفس المعلومات، وأن ثلاثة فقط من

مؤلفيها هم الذين زاروا المدينة بالفعل وهم: ابن حوقل (حوالي سنة 380 هـ/967 م)، وابن بطوطة (سنة 752 هـ/1352 م) والحسن الوزان (حوالي سنة 918 هـ/1516 م).

كانت سجلماسة بمثابة واسطة العقد في تجارة القوافل بالغرب الإسلامي. «في القرن 3 و 4 هـ (9 و 10 الميلادي) اتجه العالم الإسلامي نحو الطرق البرية وصارت الطرق البحرية مكملة لها فقط... وبرزت في النهاية من هذه المرحلة طرق الذهب والرقيق الأسود بين حوض المتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء... وانشغلت القوات السياسية في الغرب الإسلامي بالصراع على هذه الطرق وتحولت المراكز الشمالية من الصحراء الكبرى إلى مكان للتنافس بين القوات المتصارعة عليها، فصارت غدامس، ورگلة، تاهرت، سجلماسة، نول-لمطة وأودغشت مسرحا للتنافس الساخن بين جميع القوات المغربية»[1]. فأمويو الأندلس كانوا يقبلون على منتوجات المغرب خاصة ذهب الصحراء عن طريق سبتة، فاس و سجلماسة حتى أن الدنانير الذهبية الأندلسية كانت تضرب باسم الأمويين في مدن مغربية مثل نكور وفاس وسجلماسة[2]. وبما أن سك النقود يدخل في مهام الدولة وأن رواج هذه النقود في التجارة العالمية دليل على الدور المباشر الذي تلعبه الدولة في هذه التجارة البعيدة المدى، فإن مراقبة الطرق العابرة لسجلماسة تظل ضرورة ملحة للتحكم في المدينة. كما كان الفاطميون يتوصلون بحوالي نصف مداخلهم الجبائية أي ما يفوق 400 ألف دينار من سجلماسة.

وفي مشروعها الوحدوي للسيطرة على الغرب الإسلامي، حاولت الدعوة المرابطية منذ البداية التحكم على أهم المراكز التجارية حتى تتمكن من ضمان قوة مادية ثابتة تستطيع بواسطتها تحمل نفقات تحركاتها العسكرية. وكانت سجلماسة من بين المراكز الأولى التي طبقت بها هذه الخطة الاستراتيجية. وقد عرفت المدينة مع السيطرة المرابطية نموا كبيرا ارتبط أساسا بتجارة القوافل التي كان المرابطون يتحكمون في مختلف محطاتها وطرقها، مما نتج عنه استتباب الأمن وتنشيط الحركة، وتبوأت سجلماسة مكانة

1. هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4هـ/منتصف 11م**، المحمدية، مطبعة فضالة، 1995، الجزء 1 ص. 376.

2. دانييل أوستاش، «تاريخ النقود العربية»، **البحث العلمي**، عدد مزدوج 15-14، يناير-دجنبر 1969، ص. 138.

عاصمة إقليمية ذات الدور الحاسم في بناء دولة مرابطية مترامية الأطراف بل وشكلت جزءا حساسا من شبكة الاقتصاد المالي للدولة خصوصا بعد سيطرتها المباشرة على أهم مراكز جنوب الصحراء مثل تمبوكتو و أودغشت. ومنذ استيلائهم على سجلماسة سنة 450هـ/1054م ولمدة 30 سنة والمرابطون يضربون نقودهم بسجلماسة فقط وتحت اسم أبو بكر وحده، ثم أخذت بعد وفاته تسك بمراكش، أغمات، فاس، تلمسان، الأندلس وطبعا بسجلماسة. «بوقوعها على مفترق المحاور التجارية للإمبراطورية المرابطية، أصبحت سجلماسة مدينة كبيرة، عامرة ومزدهرة، حيث كانت تصدر القطن والكمون والقرنفل، والحناء إلى بلاد السودان وإلى كل جهات الغرب الإسلامي»[3].

وكان لدورها الاقتصادي وبفضل مواردها المادية الضرورية للخزينة المركزية، وضع الموحدون سجلماسة كهدف أول في مخططهم السياسي ما بين 1139 و 1145م وقبل أن يتمكنوا من السيطرة على العاصمة المرابطية نفسها، لذلك اتبعوا نفس السياسة المرابطية في احتلالهم لسجلماسة باعتبارها مفتاح التحكم في طرق التجارة الصحراوية، إلا أنه «مع السيطرة الموحدية أصبح التوازن التجاري المحقق بالغرب الإسلامي يعرف ظروفا غير مساعدة لوضعية سجلماسة»[4]. ذلك أن هذه الأخيرة فقدت ثقلها التجاري لفائدة مدن المغرب الأوسط وخاصة تلمسان وبجاية والتي حظيت بالأولوية من طرف عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه من بعده، فضلا عن انشغال الموحدين في إخماد الثورات وخاصة بالأندلس، مما جعل سجلماسة تقع فريسة أطماع حكامها أو بعض الثوار الذين يريدون الانفراد بمواردها.

في عهد المرينيين [1393-1255م] ظلت سجلماسة من كبريات مدن المغرب ولكنها لم تعد تلعب ذلك الدور التجاري الهام، بل إن هذا الدور تقلص بشكل كبير نتيجة عدة عوامل من أهمها بداية تحول الطرق التجارية نحو المحيط الأطلسي، وسيطرة قبائل بني معقل على أهم المحاور والمراكز القوافلية وأيضا إعطاء الأسبقية من طرف الدولة

3. Mohamed El-Mellouki : *Contribution à l'étude de l'histoire des villes médiévales marocaines : Sigilmassa des origines à 668 H/1269 J.C*, Thèse du 3° cycle, Aix-en-Provence, 1985, p 307

4. **نفس المرجع**، ص. 294.

المرينية للطريق الغربي درعة – نول لمطة، فضلا عن انشغال حكام بني مرين في مواجهة الصراعات الداخلية والمشاكل السياسية والعسكرية الناتجة عن الزحف المسيحي نحو الأندلس. وكان لهذه العوامل وغيرها مثل الضرائب الثقيلة المتنوعة والنزاعات القبلية، أن تعرضت مدينة سجلماسة للتدهور والاندثار حوالي 1393م.

مجمل القول إن مدينة سجلماسة والتي ارتبط إشعاعها وكذا أهميتها بتجارة القوافل، كانت نتيجتها المأساوية مع فقدان تحكمها في هذه التجارة. وهكذا كما بدأت إشراقة أنوارها التاريخية ومكانتها السياسية والاقتصادية مع طرق القوافل حوالي سنة 140هـ/757م، انطفأت مصابيحها ودورها الريادي مع ظهور أهمية الملاحة البحرية في أواخر القرن 8 هـ/14م. فكانت خاتمتها المؤلمة أن غابت نهائيا ليس فقط من مسرح الحياة بل وأيضا في الكتابات التاريخية.

1ـ المقاربة التاريخية:

تمتد هذه الكتابات العربية المؤرخة لحاضرة سجلماسة زمنيا ابتداء من الخوارزمي في النصف الأول من القرن 3 الهجري/9 الميلادي إلى ابن خلدون في النصف الثاني من القرن 8 الهجري/14 الميلادي. هذا في الوقت الذي يأتي فيه الحسن الوزان مائة عام من بعد اندثار سجلماسة [بداية القرن 10 الهجري/16 الميلادي] حيث يقدم معلومات ضافية عن المدينة اعتمادا على معاينته لما تبقى من خرابها واعتمادا على الرواية الشفوية. ويعتبر البكري في كتاب المسالك والممالك الذي ألفه حوالي سنة 453 هـ/1068م، الوحيد الذي قدم تفاصيل أكثر عن سجلماسة، رغم أنه لم يغادر قط بلده الأصلي بالأندلس واكتفى بجمع معلوماته نقلا عن ابن حوقل أو رواية عن التجار الذين زاروا المدينة. وبعد البكري بحوالي 300 سنة نجد ابن فضل الله العمري في كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الذي كتبه حوالي سنة 737 هـ/1337 م، يقدم وصفا دقيقا للمدينة وذلك اعتمادا على مؤلفي البكري وابن حوقل. وهكذا تجدر الإشارة إلى أن الجغرافيين

القدامى اعتمدوا على أهم المصادر المتوفرة مما جعل معلوماتهم متشابهة ولا تتغير إلا نادرا.

ويصف ابن حوقل خلال القرن 4 الهجري/10 الميلادي، مرافق سجلماسة بالجمال وبالسمو فيقول «وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية»[5]. أما ابن الخطيب فيشير من جهته «والرفاهية بها فاشية والنشء في الحلية ناشئة»[6]. ويذكر الإدريسي في القرن 6 الهجري/12 الميلادي «وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة وكثيرة العامر وهي مقصد الوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنات رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر كثير الماء»[7]. ويقدم العمري صورة كبيرة عن سجلماسة بقوله: «فهي مدينة ضخمة في جنوب مدن المغرب الأخرى بجوار الصحراء الكبرى، وهي من أكبر المدن بالمغرب والأكثر ازدهارا في العالم. يخترقها نهر كبير وتتوفر على قصور متينة ومباني عالية وأبواب مرتفعة، الهواء بها طاهر نظرا لقربها من الصحراء»[8]. ويورد المقدسي وصفا أكثر دقة فيقول بأن سجلماسة «قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة، شديدة الحر والبرد، صحيحة الهواء، كثيرة الأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات، كثيرة الغرباء، موافقة لهم يقصدونها من كل بلد وهي ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة»[9]. أما صاحب كتاب الاستبصار [القرن 6 الهجري/12 الميلادي] فيكرر نفس معلومات البكري في وصف المدينة فيقول: «مدينة سجلماسة، مدينة عظيمة من أعظم

5. أبو القاسم محمد النصيبي ابن حوقل، **صورة الأرض**. بيروت، مكتبة الحياة، الطبعة الثانية 1992 (ص. 90).

6. لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**. تحقيق ودراسة وترجمة إسبانية للنص العربي للدكتور محمد كمال شبانة. الرباط، مطبعة أكدتا، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي 1977 (ص 181).

7. أبو عبد الله الإدريسي، **وصف إفريقيا الشمالية-الصحراوية**. الجزائر، نشر هنري بيريس 1957، (ص. 37).

8. ابن فضل الله أحمد بن يحيى العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. تحقيق مصطفى أبو ضيف. الدار البيضاء، 1988 (ص. 200).

9. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي، **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. دمشق، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1980. (ص. 231).

مدن المغرب، وهي على طرف الصحراء، لا يعرف في قبليها ولا غربيها عمران، بينها وبين غانة صحراء...ولمدينة سجلماسة 12 بابا، ولها بساتين وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه...وهي على نهرين من عنصر واحد في موضع يسمى أكلف، وتمده عيون كثيرة، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر في حياض كحياض البساتين»[10]. ويصف ابن بطوطة المدينة عندما زارها سنة 752 هـ/1352 م واستقر عند الفقيه أبي محمد البشري: «وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف إيرار منه لا نظير له في البلاد»[11]. وفي مكان أخر يقارن ابن بطوطة بين شكل السكن بالصين وبسجلماسة من خلال تواجد الدار في وسط حديقة فيشير في وصفه لمدينة كوانزهو بمضيق تاويان بالصين: «وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا»[12]. كما يشير الحسن الوزان الذي زار المدينة بعد تخريبها [بداية القرن 10 الهجري/ 16 الميلادي] أن سجلماسة «شيدت فوق هضبة على نهر زيز وكان يحيط بها سور عال لا زالت بعض أجزائه ظاهرة وكانت لها نافورات كثيرة يأتي ماؤها من النهر. وكان بها ناعورات كبيرة تحمل هذا الماء من زيز وتطلقه في قنوات تحمله إلى المدينة»[13]. وإذا رجعنا إلى دائرة المعارف الإسلامية فتصف المدينة بأنها: «كانت البلدة عامرة بأهلها متسعة الأطراف، تتألف من حصون منيعة وعمائر وبيوت بني كل منها في وسط حديقة... وسجلماسة اليوم خرائب وأطلال... ويطلق عليها أهل البلاد على سبيل التلطيف المدينة العامرة، وهي تمتد على طول الشاطئ

10. مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار: وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية 1985. (ص. 200-201).

11. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي. الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث. خمس مجلدات 1997، المجلد 4 (ص. 239).

12. **نفس المصدر ونفس المجلد** (ص. 135).

13. محمد بن الحسن الفاسي الوزان، **وصف إفريقيا**، تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، جزءان 1982، ج 2، (ص 127).

الشرقي لوادي زيز نحوا من خمسة أميال، ولم يبق منها إلا منارة ما زالت قائمة على قنطرة عبر وادي زيز وكتل ضخمة من الأسوار المشيدة من الصلصال في كل مكان»[14].

2ـ المقاربة الأثرية:

شكل موقع سجلماسة محطة لعدة بعثات علمية مغربية وأجنبية منذ 1971 مع البعثة الإيطالية وإلى غاية اليوم مع البعثة الفرنسية ومرورا بالبعثة المغربية سنة 1974 والبعثة الأمريكية ما بين 1988 و1998 وتحريات مركز الدراسات والبحوث العلوية سنة 1990 و1991. كشفت هذه الأبحاث عن معطيات معمارية مهمة لم ترد في المؤلفات المكتوبة بتفصيل، ومن أهمها:

ـ المسجد الجامع حيث تتبعت الحفريات التطورات التي عرفها منذ فترة المرابطين وإلى غاية العصر العلوي الأول (من القرن 10 إلى القرن 18 الميلادي)؛

ـ السور الخارجي الذي تم التعرف على مواد بنائه، امتداده ومختلف مكوناته؛

ـ نمط السكن السجلماسي الذي تم ضبط تصميمه، ومواد بنائه ومرافقه؛

ـ منشآت الصناعة الخزفية حيث تم رصد أماكن تمركزها والأدوات المستعملة في صنعها، ونوعية منتجاتها؛

ـ بعض التجهيزات المائية التي تمت معرفة أصنافها كالسدود والقنوات والأحواض والخطارات وغيرها؛

ـ إنجاز تصميم طبوغرافي أثري لموقع سجلماسة في جزئه الأوسط. كما تم إجراء رفع هندسي للطبقات الأثرية وخاصة منها الواقعة بالجهة الشرقية. أكدت هذه الرفوعات بأن الموقع تعرض لعدة تغييرات ارتبط بعضها بالاضطرابات السياسية والاجتماعية التي شهدتها المدينة. تبين من خلال هذه البحوث الميدانية بأن الموقع شهد مرحلتين من

14. مجموعة من المؤلفين، **دائرة المعارف الإسلامية**. ج 11، (ص. 301-300).

الاستقرار: الأولى تمتد من القرن 9 الهجري/15 الميلادي إلى القرن 11 الهجري/17 الميلادي حيث أستغل الموقع لإقامة مصانع الخزف. أما المرحلة ثانية فتمتد من أواخر القرن 11 الهجري/17 الميلادي إلى بداية القرن 13 الهجري/19 الميلادي وشهدت بناء القصبة السجلماسية من طرف السلطان مولاي إسماعيل (القرن 17 الميلادي) والتي رممها وأعاد بناءها السلطان سيدي محمد بن عبد الله في أواخر القرن 18 الميلادي، قبل أن تخرب نهائيا (19 الميلادي).

تعترض الباحث عن آثار سجلماسة إشكالية التحديد الحقيقي للموقع، ذلك أن الكثير من المعطيات الأثرية تستخلص أساسا من اللقى الخزفية، كما أن الحفريات المنجزة بسجلماسة لحد الآن لا تزال محتشمة. وبالرغم من المعيقات الستراتيغرافية، فالمقاربة بين المعطيات الطبوغرافية والصور الجوية والمسح الأثري من جهة، والرواية الشفوية والكتابات التاريخية من جهة ثانية، مكنت من الحصول على صورة تقريبية لمجال سجلماسة وخاصة مركزها الحضري خلال السنوات الأخيرة من ازدهارها. وتبقى المعرفة الدقيقة بمجال سجلماسة العمراني، بالرغم من تضافر جهود الباحثين، محدودة جدا. فالمصادر الأدبية لا تقدم إلا أوصافا عامة تفتقر إلى التفاصيل، لأنها اهتمت بالوقائع السياسية للمدينة وبمؤهلاتها الاقتصادية وأغفلت تنظيمها الحضري. أما الرواية الشفوية فيكتنفها الكثير من الغموض والتناقض ولم تستطع تقديم كل المعلومات الكافية، هذا فضلا عن انعدام كل الوثائق ذات الصلة بأحوال المدينة.

3ـ من مدينة سجلماسة إلى قصور تافيلالت:

ظلت مدينة سجلماسة تابعة رمزيا على الأقل للحكم المركزي بفاس، لكن وضعها بدأ في التدهور الفعلي منذ فترة حكم أبي الحسن المريني خلال منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، قبل أن تندثر نهائيا في عهد أبي العباس أحمد مع نهاية هذا القرن [حوالي سنة 795-802 هـ/1393-1400 م] بعد أن عانت من الثورات والتمردات بين حكامها وبين هؤلاء وسلاطين بني مرين، فتفرق سكانها في قصبات خاصة بهم بالضواحي.

ويشير محمد بن الحسن الوزان إلى أن المرينيين عهدوا بحكم إقليم سجلماسة إلى «أقرب الناس إليهم وخاصة أبناءهم. وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد ملك فاس، فثار الإقليم وقتل أهل البلد الوالي وهدموا سور المدينة، فبقيت خالية حتى يومنا هذا، وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حر، والبعض الآخر خاضع للأعراب»[15]. وتبقى العوامل غير المباشرة لهذا الاندثار جد مترابطة ويمكن تلخيصها في أربعة أساسية هي:

ـ العامل الأول يتمثل في هيمنة القبائل العربية وما سببته من قلاقل، مما أثر بشكل سلبي على الحياة الاقتصادية للمدينة. فضعفت المحاصيل الزراعية وتوقف سك العملة وتحولت مسالك تجارة القوافل إلى جهة أخرى...» وعمت فوضى كثيرة البلد خلال فترة استقرار وهيمنة القبائل العربية. في نفس الوقت تدهورت التجارة الصحراوية. وضعفت سجلماسة، المدينة المحورية للواحات وانتهى بها المطاف إلى الاندثار»[16].

ـ العامل الثاني يتعلق بتحول مسالك التجارة الصحراوية نحو موانئ المحيط الأطلسي مع ظهور البرتغاليين بهذه الشواطئ ونحو المناطق التي كانت أكثر أمنا مثل تلمسان وإفريقية ودرعة. هذا التحول حال دون استفادة المدينة من موارد رئيسية التي بفضلها نشأت أول الأمر وعرفت أوجهها اقتصاديا وسياسيا في عدة فترات.

ـ العامل الثالث يرتبط بسياسة سلاطين بني مرين أنفسهم وخاصة منهم أبي يوسف يعقوب وأبي الحسن تجاه سكان سجلماسة حيث قاموا بمحاصرة المدينة بقوة ولمدد طويلة، بل ودخلوها عنوة وكان لذلك تأثيرا سلبيا على قاعدتها الاقتصادية عامة والفلاحية على الخصوص بفعل تغوير عيونها الطبيعية والتي تشكل منبع الحياة بالمنطقة. وإلى ذلك يشير صاحب **الاستقصا** «أن أهل سجلماسة اختلفوا مع السلطان الأكحل فحاصرها واشتغل بتغوير ماء العين[17] التي تسقى منها، فكان ذلك سببا في خلائها»[18].

15. الوزان، **المصدر السابق**، الجزء 2، (ص. 121).

16. Henri Terrasse: «Notes sur les ruines de Sijilmassa», *IIème Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes, Tlemcen 14-17 avril 1936*. Alger, Publication de la Société Historique Algérienne 1936, 9-(p. 362).

17. ويقصد ربما عين تمدرين الواقعة قرب قصر البروج بسهب أيردي شمال مدينة أرفود وعلى بعد حوالي 30 كلم شمال سجلماسة.

18. أبو العباس أحمد خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدارالبيضاء، دار الكتاب، الجز الثالث 1954 (ص. 120).

من جهته، يذكر محقق كتاب الأنوار الحسنية أن السلطان أبا الحسن علي بن عثمان المريني الشهير بالسلطان الأكحل ودفين شالة بالرباط [المحرم 731 هـ/1331 م إلى 751 هـ/1351 م] حارب «سجلماسة حيث غور العين التي هي عماد أهل سجلماسة في حياتهم الزراعية وهي العين المعروفة اليوم بـ «عين تيمدرين» القريبة من أرفود والتي حفر حولها مائة بئر، ثم طمسها بالصوف والقطران والرمال»[19]. هذا فضلا عن فرض ضرائب ثقيلة وغير شرعية والتي قام ابن مرزوق بتفصيل أنواعها في كتابه المسند الصحيح[20]. وكان لهذه السياسة فعلها السلبي خاصة في وقت الأزمات المتتالية التي عرفها المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي بسبب تعاقب سنوات الجفاف والمجاعة.

ـ العامل الرابع يرتبط بالظروف المناخية القاسية من الجفاف والأوبئة. وقد ترك لنا ابن خلدون صورة سوداوية للطاعون الذي عم المغرب خلال منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حيث قال: «وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هدمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها»[21]. وذكر الناصري من جهته نقلا عن ابن قنفذ أن سنة 776 هـ/1375 م «كانت سنة مجاعة في المغرب، وعم على إثرها الخراب، حيث انتشر الخوف والجوع»[22]. وفي موضع أخر يصف نفس المؤرخ مخلفات الطاعون الأسود على المغرب بما فيه سجلماسة «حيث انتقص العمران على الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل''[23].

19. أحمد ابن عبد العزيز ابن الحس المدغري، **الأنوار الحسنية**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، 1966 (ص. 92 الهامش رقم 1).

20. محمد بن أحمد بن محمد التلمساني ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان مولانا أبي الحسن**. الجزائر 1981.

21. أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سبعة أجزاء 1981. الجزء 1 (ص. 188-187).

22. الناصري: **المصدر السابق**. الجزء الرابع 1956 (ص. 83).

23. **نفسه**: (ص. 85).

وبذلك عرفت سجلماسة فترة من عدم الاستقرار ووصلت بها الأوضاع الداخلية حدا لا يطاق «وهكذا ومع موت السلطان أبي العباس (أحمد المنتصر) سنة 1393م، ثار إقليم سجلماسة، فقتل السكان حاكم المدينة وحطموا سورها»[24]. ويعتقد أن المدينة عرفت مرحلتين من التخريب أولها: «أن يكون ذلك قد حدث في أواخر القرن 8 هـ/14 م بعد ثورة أهاليها سنة 795هـ/1393 م وتهديمهم للسور الخارجي لها ثم انتقالهم إلى السكن في القصور الكبرى المحصنة حسب رواية الوزان وثانيها: أن تكون ثورة الأهالي هاته بداية لأعمال تخريب متوالية أتت على إندراس المعالم المعمارية للمدينة بالتدريج طيلة النصف الأول من القرن 9 هـ/15 م»[25] وبذلك تكون مدينة سجلماسة قد وصلت إلى نهايتها المحتومة، حيث هدمت عن أخرها فالتجأ سكانها إلى الضواحي فبنوا لهم قصورا خاصة بهم.

من وجهة الرواية الشفوية، فهي تتذكر أسطورتين مختلفتين عن اندثار سجلماسة: تقول الأولى إن السلطان الأكحل «الأسود» ويقصد به ربما حاكم المدينة، ذهب يتجول في إحدى الليالي، فالتقى امرأة خرجت رفقة أبنائها قصد غسل بعض الملابس. فطلب منها السلطان أن تربط معه علاقة غير شرعية، فلما رفضت قام بتصفية ابنا لها، إذ قسمه بسيفه إلى شطرين وقدمه لكلابه. هذا الفعل الشنيع لم يستسغه السجلماسيون فنددوا به وقاموا بالثورة أدت إلى نشوب الحرب التي قتل على إثرها الحاكم، وكان من نتائجها تدمير المدينة.

الأسطورة الثانية تشير إلى أن سكان المدينة استيقظوا فجر ذات يوم على مؤذن المسجد الجامع وهو يصيح بعد أذان الصبح « أصبح ولله وخلت» بدلا من «أصبح ولله الحمد». ويمكن أن نستشف من وراء ذلك أن المدينة ربما تعرضت في ليلة هذا اليوم لكارثة طبيعية تتمثل على الأرجح في زلزال قوي، أو فيضان جارف. ذلك أن التوضعات

24 .Jacques-Meunié (Djinn) : *Architectures et Habitats du Dadès, Maroc Présaharien*. Paris, Librairie C. Klincksieck 1962 (p 296).

25. حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1997. (ص 412- 413).

النهرية بالمنطقة أدت إلى تزايد مستوى سطح الواحة بنسبة متر واحد تقريبا كل مائة سنة، ليتساوى بذلك تقريبا مع مستوى الربوة التي أسست فوقها مدينة سجلماسة أول الأمر. فلما تعرضت لفيضان كبير أتى ذلك على كل معالمها العمرانية، خاصة وأن معظم بناياتها شيدت من الطابية. وهذا ما يؤيده أحد الباحثين، إذ يقول «اندثرت مدينة سجلماسة في نهاية القرن 14 الميلادي [8 للهجرة]، ربما نتيجة تخريبها بواسطة فيضانات غير عادية لنهري زيز وغريس، فتفرق سكانها على الأماكن والقصور المحصنة بالواحة».[26]

ويبقى تأكيد أحد العوامل المؤدية إلى الاندثار السريع والمفاجئ لمدينة سجلماسة، مرهونا بنتائج الحفريات الأثرية في غياب أي مصدر مكتوب يمكن الاعتماد عليه.

4ـ محاولة التأريخ لعمارة القصور بتافيلالت:

رغم اندثار مدينة سجلماسة، فإن أنشطتها الاقتصادية ودورها التاريخي (السياسي) لم يتوقف، بل انتقل إلى أهم القصور الكبيرة، يمكن ذكر ثلاث رئيسية منها: «أولها يسمى تانجيوت وعدد سكانه نحو ألف كانون وبه بعض الصناع. والثاني يسمى تابوعصامت وهو أكبر منه وأكثر حضارة وفيه عدد كبير من التجار الأجانب، واليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة. ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من بقية الإقليم. والقصر الثالث يسمى المأمون وهو أيضا كبير حصين كثير السكان خصوصا منهم التجار اليهود والمسلمين» .[27]

فقصر تابوعصامت الذي لا زال صامدا من الممكن أنه شيد بين سنتي 795 هـ/1393 و802 هـ/1400 م في جنوب المدينة الأم والذي كان بمثابة المركز التجاري والحرفي ودارا لضرب العملة إلى غاية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي. بينما اندثر القصران الآخران، المأمون وتانجيوت ولم يبق لهما أثر، ويطلق اسم تانجيوت

26 .Jacques-Meunié (Djinn) : *Le Maroc Saharien des Origines à 1670*. Paris, édition C. Klincksieck 1982. (p 284).

27. **الوزان، مصدر سابق**، الجزء 2 (ص. 125- 126).

على مقاطعة أو مشيخة بكاملها والواقعة بشمال شرق تافيلالت ومن قصورها مزكيدة، أولاد يوسف والقصر الفوقاني. «كان لكل من تانيجيوت وتابوعصامت والمامون في القرن العاشر الهجري (16 الميلادي) أمير يدير شؤون القصر ويعمل على حمايته من غارات الأعراب. واستقر بهذه القصور الحرفيون والتجار المسلمون واليهود كما كان بكل منها دار سكة تضرب بها مثاقل خفيفة من الذهب الرديء ونقود من الفضة»[28].

من جهة أخرى وابتداء من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي بدأ اسم سجلماسة الذي يعني المدينة، ينمحي من النصوص التاريخية واستبدل في بعض المرات باسم إقليم سجلماسة قبل أن يعوض نهائيا باسم تافيلالت. وهنا يمكن طرح التساؤل التالي: هل اندثرت المدينة بكاملها أم أنها احتفظت ببعض معالمها ولو على شكل قصور كما هو الشأن بالنسبة لقصر الريصاني الذي يرجعه البعض اعتمادا على بعض البقايا الأثرية، إلى العصر المريني؟

كما يمكن القول إن موقع سجلماسة لم يظل يبابا منذ تاريخ هدم المدينة في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، بل بنيت فوق بعض أجزائه قصورا وأنشئت في أجزاء أخرى منه مراكز حرفية كما هو الحال بالنسبة للصنائع الخزفية التي تم العثور على الكثير من بقاياها. ويبقى مع ذلك أن أغلبية السكان ربما استقروا بقصور خاصة بهم بنوها بالضواحي.

إذا كان من المستعصي ترجيح كفة أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى الانهيار المفاجئ لمدينة سجلماسة، نظرا لاختلاف الأطروحات التي تطرقت للموضوع، فإن ما يهم في هذا المجال هو محاولة فهم عملية الانتقال من نمط معمار «مديني» تمثله حاضرة سجلماسة إلى نمط «قروي» يتجسد في القصور المندرسة والحالية. وهنا يمكن الاستدلال بقولة ابن خلدون المعبرة عن ما «نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة [القرن الرابع عشر الميلادي] من الطاعون الجارف الذي...ذهب بأهل

28. حسن حافظي علوي، «تانيجوت»، **معلمة المغرب**. المجلد السابع (ص. 2230-2231).

الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها...وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن».[29]

بصفة عامة، استقرت بسجلماسة ساكنة مختلفة ومتنوعة في الأصل والانتماء الجغرافي، نقلت معها بدون شك أسلوبها في العيش وأيضا في البناء من مناطق استقرارها الأول، فامتزج هذا الأسلوب الفني الذي رافق الهجرات مع نظيره المحلي فأكسبه لونا وطابعا خاصا. أمام هذا المعطى الاجتماعي فإن سجلماسة فضلا عن كونها شكلت مركزا حضريا، لا يستبعد أنها كانت أيضا تحتضن بعض التشكيلات المعمارية المنعزلة. وفي هذا الصدد يشير أبو حامد الأندلسي إلى «أن سجلماسة كانت محاطة بمساكن محصنة».[30]

وحول أصل هذا النمط المعماري، يذكر ابن خلدون «أن القبائل الزناتية تركت قصورها جنوب جبال درن لعرب المعقل بعد أن تكونت لها دول ببلاد المغرب، بني مرين بفاس وبني زيان بتلمسان».[31] لذلك يمكن إرجاع أصول ظاهرة القصور إلى القبائل الزناتية، خاصة وأن «المنزل الزناتي يتكون من عدة طوابق بينما المنزل الصنهاجي «القبايلي» يتكون من سكن أرضي فقط»[32]. كما يعود الفضل في انتشار هذا النمط السكني «بالمناطق الصحراوية إلى قبائل زناتة التي أنشأت أغلب واحات الصحراء كواحات سوف ووادي ريغ ووركَلة وتيدكلت وتوات».[33]

ويشير أحد الباحثين المتخصصين أن قصور تافيلالت تنتمي إلى الحضارة المتوسطية، فقد «عرف سكانها تأثيرات شرقية ومتوسطية قبل الإسلام، فالمنازل ذات الصحون

29. عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى 1978. (ص 33).

30. Eugène Fagnan: *Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire*. Alger 1924. (p28).

31. ابن خلدون، **العبر. مصدر سابق**. الجزء 7 (ص 77).

32. F.F Gautier : *le passé de l'Afrique du Nord*, Paris, édition Payot 1964 (pp. 228-229).

33. Tadensz Lewiki: «Sur le titre libyco-Berbère»: *Etude maghrébines et soudanaises. Studio nad maghrebem i sudanem*. Varsovie, édition Scientifique de Pologne, 1976; Publication de l'Académie Polonaise des Sciences, Comité des Etudes Orientales (p 44).

والأشكال المربعة وظهور الزوايا القائمة والتحصين والتنظيم البسيط ومتانة بناء الأسوار ووجود النخيل والجمال، كلها معطيات تنتمي إلى حوض بحر الأبيض المتوسط».[34]

وعلى كل حال، فمن المؤكد أن قبائل بني معقل حين بسطت سيطرتها على منطقة سجلماسة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، لم يكن المجال بيداء وإنما وجدت بعض القصور قائمة بدون شك. «فقبيلة مكناسة التي أسست مدينة سجلماسة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي تنتمي للجماعة الزناتية، وكانت لها دراية بالهندسة المعمارية للقصور وظفتها في بناء المدينة اعتمادا على النمط السكني السائد بمجالاتها وقد عرف بناء القصور اتساعا وتطورا ملحوظا مع دخول عرب المعقل إلى المنطقة، لأن هؤلاء أنفسهم نقلوا معهم مقومات هذا النمط السكني من مناطق استقرارهم الأولى التي كانت مجالا لسكنى قبائل زناتة فيما سبق».[35]

فلم تكن قبائل الرحل بالجنوب المغربي بدوا يتنقلون بحثا عن المراعي فقط، بل لعبوا أيضا دورا أساسيا في نشر ثقافات وعادات الحضارات المتوسطية التي كانوا على اتصال مباشر معها. وأدى ذلك «إلى ظهور التجمعات البشرية الأولى، فتطورت بذلك التشكيلات المعمارية الدائمة بالواحات الشبه الصحراوية تحت تأثيرات محتملة لهذه المبادلات خلال عهد الزناتيين الذين نظموا وقننوا التجارة الصحراوية وتحكموا أيضا في ساكنة الفلاحين المستقرين وشبه المستقرين».[36]

كما يمكن أن يكون هذا النمط المعماري قد نقله عرب المعقل أنفسهم من بلادهم الأصلية باليمن، ذلك أن هندسة القصور بتافيلالت تأثرت في نفس الوقت بمؤثرات أندلسية ومشرقية.[37] ويحاول باحث آخر أن يجد لهذا النمط جذورا أوربية وإن كان

34. (J) Hensens: «Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le qsar : problème de rénovation», *Bulletin Economique et Social du Maroc*. N° 114; Juillet–Septembre 1969 (p 83).

35. حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها. مرجع سابق (ص 116- 117).

36. (Idriss) Saidi: « étude architecturale des ksour du Tafilalet, dossier d'analyse et de diagnostic », *Oasis Tafilalet*, n° 1; 1999 (p 11).

37. عبد الرزاق محمود إسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1985 (ص. 300).

رأيه يتأرجح بين الوجهة المصرية والأصل الروماني- البيزنطي، إذ يقول «إن الهندسة المعمارية للواحات ترجع لتقليد قديم جدا تم إغناؤه في العصور الإسلامية الأولى وهي في كل الأحوال، ذات أصول مصرية... هندسة الواحات تشكلت إذن - على أقصى تقدير- في القرون الإسلامية الأولى، مع بداية العصر الوسيط وقد قلدت في الهندسة التقليدية الأولى، التصاميم والبرامج المعمارية الموروثة عن روما وبيزنطة».[38]

نفس التناقض يطغى على رأي باحث أوربي آخر، فمرة يرى أن معمار سجلماسة ومنذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي عرف «تأثيرات الكوفة وبغداد، هذا التأثير الذي ازداد فيما بعد بفعل العلاقات الثقافية والاقتصادية المتعددة التي ربطت متربول الصحراء الكبرى مع المشرق».[39] وفي المرة الثانية يذكر أن هذا النمط المعماري، «يتشابه مع مثيله الموجود بإقليم سيستان بإيران، ذلك أن الخوارج الصفرية الذين شيدوا سجلماسة يرجع أصلهم إلى بلاد فارس ومنها نقلوا تأثيرات ثقافية وحضارية إلى موطن استقرارهم بمنطقة سجلماسة».[40]

وعلى كل حال يصعب الحسم في تحديد تاريخ دقيق لبداية ظاهرة القصور بمنطقة سجلماسة، ويمكن القول بأنه بعد «تخريب مدينة سجلماسة عرفت واحة تافيلالت تحصينا بواسطة سور طويل بلغ 80 ميلا (128 كيلومترات)[41]، أو أن المنطقة كانت «عبارة عن قرى متعددة [قصور] كان بعضها ما يزال قائما عند ظهور زعامة الشرفاء العلويين بالصحراء. لا شك أن الأوصاف التي نعت بها القدماء مدينة سجلماسة، إما أن تكون مدينة كبيرة جدا واندثرت في وقت لم يحدد وإما أن تكون عبارة عن قصور متوالية في منطقة معينة».[42]

38. (Henri) Terrasse: *Kasbas berbères de l'Atlas et des oasis : les grandes architectures du sud marocain*. Paris, édition Horizons de France, sans date. (pp. 73-74).

39. (D) Jacques-Meunié: *op-cit* (p. 231).

40. (D) Jacques-Meunié: «Sur l'architecture du Tafilalet et Sijilmassa (Maroc Saharien)», *Comptes Rendues de l'Académie des Inscriptions des Belles Lettres avril- décembre 1962*. Paris, Librairie C. Klincksieck, décembre 1963. (pp 100-101).

41. Jacques-Meunié (Djinn): *Le Maroc Saharien des Origines à 1670. op-cit* (p 297).

42. محمد حجي، «المنافسة بين سجلماسة وإيليغ والدلاء»، أعمال **ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط، مطابع الميثاق، 1988. (ص 29).

فمن نماذج القصور التي يعتقد أنها كانت موجودة قبل اندثار مدينة سجلماسة، يذكر أحد الباحثين أن قصر الجبيل الواقع شمال غرب سجلماسة، يعتبر أقدم قصر بهذه المنطقة ويعود تاريخه إلى القرن 11 م ويقطنه حاليا عدة عناصر عربية وبعض الأسر من آيت إزدك[43]. ويشير باحث آخر إلى أن القصر المعروف حاليا تحت اسم «آبار المخزن يرجع إلى القرن 11 م، رغم أن موقعه المتميز يؤهله لأن يكون أقدم من ذلك»[44]. وجاء في كتاب ابن الزيات التادلي أن القصر الذي يدعى برابطة أنبدور يقع خارج أسوار مدينة سجلماسة[45]، وأنه شهد إشعاعا دينيا خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. ويقع هذا القصر بمشيخة بني امحمد إلى الشمال الغربي من موقع سجلماسة، يحده قصر «البطرني في الجنوب الشرقي والساقية المسماة المنصورية شرقا ومولاي محمد الشيخ غربا والجبيل وتاحسنونت شمالا. وتوجد إلى اليوم بتافيلالت ساقية تحمل اسم الساقية النبدورية تنطلق من قصر أولاد ليمان وتمر محاذية للحدود الشمالية لخراب مدينة سجلماسة لتنتهي بقصيبة الحدب».[46]

ومن غير المستبعد أن العصر المريني شهد «بناء العديد من القصور وخاصة لما استقل أبناء أبي علي عمر المريني بسجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فانعكس ذلك على تطور فن معمار القصور بهذه المناطق. فقد بنى عبد الحليم بن أبي علي الذي حكم سجلماسة ما بين 762 هـ-1362/763-1361م قصبة ما تزال تحمل اسمه إلى اليوم، وهي قصبة أولاد عبد الحليم».[47] هذه القصبة اشتراها «السلطان سيدي محمد بن عبد الله في منتصف القرن 18 م وفي بداية القرن 20م أصبحت مقر سكنى مولاي رشيد الخليفة السلطاني على مناطق تافيلالت».[48]

---

43. Roger Faure: *le Tafilalet, étude d'un secteur traditionel d'irrigation*. Paris 1969 (p. 167).

44. Djinn Jacques-Meunié et Jacques Meunié: «Abbar, cité royale du Tafilalet», *Hespéris*. Tome: XLVI, 1° et 2° trimestre 1959. (p. 63).

45. أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. تحقيق أحمد التوفيق. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة محمد الخامس «نصوص ووثائق 1» 1984. (ص. 412).

46. حسن حافظي علوي، **مرجع سابق** (ص. 121).

47. **نفس المرجع** (ص. 122).

48. Jacques-Meunié: *Le Maroc saharien, op-cit* (p 295).

كما يمكن إرجاع تأسيس قصور مشيخة الغرفة «إلى مرحلة مبكرة من التاريخ الوسيط، غير أن أول إشارة وصلتنا عنها ترجع إلى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي...».[49] وفي مشيخة واد إيفلي توجد كذلك قصور وقصبات يظهر من نمطها المعماري أنها تعود إلى ما قبل ظهور الدولة السعدية. «خربت مدينة سجلماسة قبيل عهد السعديين حتى لم يبق قائما منها غير الأسوار وانتقلت أهميتها التاريخية إلى القصور المجاورة وبخاصة قصر الشرفاء الحسنيين المعروف أيام السعديين بالقصبة السجلماسية».[50]

وبالاعتماد على رواية محمد بن الحسن الوزان فإن معظم القصور بتافيلالت برزت مباشرة بعد اندثار مدينة سجلماسة، لما خربها سكانها وهدموا سورها فألتجأوا بالضواحي وبنوا قصورا خاصة بهم كان عددها في بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، حوالي ثلاثمائة وخمسين قصرا بين كبير وصغير. « استولى بنو مرين على هذا الإقليم بعد اضمحلال مملكة الموحدين وعهدوا بحكمه إلى أقرب الناس إليهم وخاصة أبنائهم وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد (أبو العباس) ملك فاس فثار الإقليم وقتل أهل البلاد الوالي وهدموا سور المدينة فبقيت خالية حتى يومنا هذا (أي بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي) وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم».[51]

من أهم هذه القصور تجدر الإشارة إلى ثلاثة مهمة منها هي: «قصر تانجيوت ويعود تأسيسه إلى فترة خراب مدينة سجلماسة».[52] وهو قصر لم يعد له وجود وبقي فقط اسمه يطلق على مشيخة تقع بالجزء الشمالي للواحة ومن أهم قصورها مزكيدة والقصر الفوقاني. القصر الثاني يسمى المأمون وهو «كبير وحصين وكثير السكان خصوصا منهم التجار اليهود والمسلمين».[53] إلا أن هذا القصر خرب سنة 1830 م وكان موقعه

49. حافظي علوي، **المرجع السابق** (ص 125).

50. محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**. المحمدية، مطبعة فضالة، 1978. الجزء 2 (ص. 519).

51. الوزان، **المصدر السابق**. الجزء 2، (ص. 121).

52. **نفسه** (ص. 125).

53. **نفسه** (ص. 126).

على بعد كيلومتر واحد جنوب- غرب قصر تابوعصامت على الضفة اليسرى لوادي زيز[54].
أما القصر الثالث فيطلق عليه اسم تابوعصامت ويقع في جنوب سجلماسة وهو لا يزال صامدا، بل ويعتبر من أكبر قصور المنطقة حجما وسكانا.

صفوة القول لقد تحكمت السلطة المركزية في مدينة سجلماسة وجعلت منها عاصمة أهم إقليم من أقاليم الدولة المغربية، فأصبحت مواردها الاقتصادية وخاصة من تجارة القوافل، وسك العملة، والمعادن، والمنتجات الفلاحية والصنائع، بمثابة المداخيل الرئيسية لخزينة الدولة والتي لا تنضب وتستعمل كقوة مضافة لمواجهة الأزمات الاقتصادية والضائقات المالية. وهذا ما جعل من المدينة الهدف الأول لكل حركة أو قوة تريد بسط سيطرتها على المغرب عامة وعلى التجارة الصحراوية بالخصوص.

وكان «نتيجة ذلك أن فقدت سجلماسة وإقليمها الكثير من أهميتها السياسية والاقتصادية وكانت مركزا لتمرد الحكام المحليين المدعمين من لدن القبائل المعقلية المحلية»[55]. هذا فضلا عما عرفه المغرب ككل، بما فيه منطقة سجلماسة، خلال هذه الفترة من أزمات اقتصادية نتيجة توالي سنوات الجفاف والأوبئة ويشير ابن أبي زرع أنه في سنة 630 هـ/1233 م مثلا انتشرت مجاعة عظيمة ووباء كبير حتى خلت البلاد من العباد[56].

5ـ وحدة التصميم في عمارة القصور:

إن بناء القصر لا يعتمد بتاتا على تصميم تطبيقي ولا على تعليمات مهندس معماري، وإنما فقط على خبرة المعلم البناء الذي يحدد شكل القصر وحجمه ووضعه اعتمادا على الموقع والموضع وعدد السكان المحتملين ومواد البناء المتوفرة. ويتشكل القصر عادة من بنايات متراصة يحيط بها سور عريض ومرتفع، تتخلله عدة أبراج

54. **نفسه** (ص. 126، الهامش 22).

55. Larbi Mezzine : *Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII° et XVIII° siècles*. Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida 1987 (p 32).

56. أبو الحسن علي الفاسي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. الرباط، دار المنصور 1973. (ص. 276).

للحراسة. «إن كلمة القصر التي تقابلها كلمة الدوار والمدشر في باقي مناطق المغرب الأقصى، تستعمل للدلالة على السكن القروي في واحات وادي زيز ووادي غريس وكذلك وادي دادس ودرعة. كما تستعمل بعض الكلمات الأخرى كمرادف لها كالقصبة وكذلك كَصيبة وكَصيرة التي هي تصغير للقصبة والقصر»[57]، ويطلق عليها بالأمازيغية تغرمت وإغرم. إلا أن القصبة «تختلف بحوض وادي درعة عن تلك الموجودة بسجلماسة، لأنها في الأولى تكون محاطة بسورين يتراوح علو الداخلي منها ما بين 1،40 و 1،80 مترا، أما السور الخارجي فيكون أعلى من سابقه ويبنى بمواد صلبة كما توجد بزواياه الأربع أبراج عالية. بينما القصور بسجلماسة لا تتضمن إلا سورا واحدا وغالبا ما تلتصق به جدران المنازل»[58]. ويذهب أحد الباحثين إلى أن «الهندسة المعمارية للقصور بسجلماسة أقدم من مثيلاتها بدرعة»[59].

ومهما يكن الأمر «فالقصور قرى محصنة في السهول الصحراوية أو ما قبل الصحراوية تتسم ببنية منتظمة على وثيرة واحدة تندرج ضمن حصن له أبواب ضخمة واستحكامات ركنية أي قائمة في زوايا القصور»[60]. وربما كانت «الضرورات الأمنية هي التي أجبرت على بناء الأسوار حول جنبات القصور وهي أسوار غالبا ما تشيد فوق أساس من الحجارة درءا لفيضانات الأنهار. والقصور بسجلماسة تتخذ في غالبتها شكلا مستطيلا تتخللها أربعة أبراج في الأركان وتكون جدرانها سميكة يتراوح عرضها بين متر واحد ومترين وعلوها ما بين 5 و 10 أمتار ولا يوجد بالقصر إلا مدخل واحد غالبا ما يكون مزخرفا[61] .

وتتميز القصور بتافيلالت في معظمها بتنظيم داخلي جد منسق، ذلك أن القصر غالبا ما يتخذ شكلا مستطيلا يحيط به سور عال تتخلله أبراج في الأركان وما بينها

57. حافظي علوي، **المرجع السابق** (ص 114).

58. Abdelaziz Touri: «Problématiques d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans la région du Maroc présaharien», *Actes du IV° Colloque Euro-africain*1985 (p. 33).

59. D. Jacques-Meunié : « Abbar», *op-cit* (p 51).

60. عبد العزيز بنعبد الله، «القصبات والقلاع الإسماعيلية»، **دعوة الحق**. عدد خاص، مارس 1988، (ص. 112).

61. Roger Faure: *op-cit* (p 140).

وعلى جانبي المدخل الوحيد الذي ينفتح مباشرة في السور وسط أحد الواجهات. ويكون المدخل عبارة عن قوس يزين إطاره بنقوش جميلة، وهو يؤدي إلى رواق مغطى يفضي بدوره إلى ساحة داخلية. وقد يكون السور الخارجي للقصر منفردا أو مزدوجا، أما الساحة الداخلية فتتوزع عنها مرافق القصر من المسجد، والزقاق الرئيسي الذي تتفرع عنه بشكل منظم الأزقة الثانوية والدروب والدور. و«القصر بزقاقه الرئيسي وأزقته الثانوية يشبه دروب المدن الإسلامية، مما يؤكد أنه ليس حسب شكله تجمعا سكنيا قرويا. كما أن اتجاه هذه القصور لم يكن اعتباطيا: فالزقاق الكبير يتجه غالبا نحو قبلة المسجد» [62].

ويضم القصر عدة منازل متراصة ومنتظمة حول أزقة ضيقة مغطاة. وتلعب الأزقة عدة أدوار منها ما هو طبيعي مثل التهوية ومنع تسرب الرياح المحملة بالغبار والرمل، ومنها ما هو اجتماعي يتجلى في ضمان أواصر التآزر والتكافل ومنها ما هو اقتصادي حيث تستغل الأزقة من طرف النساء في إنجاز بعض الأعمال اليدوية. وبذلك يظهر القصر على شكل «خلية سكنية تضم العديد من المنازل والأسر التي يجمعها تقارب وتشابه أنماط العيش وأيضا بعض الترابطات الاجتماعية ذات الأصول القبلية المتعددة... السكن التقليدي المنغلق، إذ أنه يتوفر على مدخل رئيسي يعرف باسم فم القصر وفي بعض القصور نجد مدخلا أو بابا ثانويا يعرف باسم الخراجية، كما أن القصر محاط بأسوار عالية وبأبراج معدة للعملية الأمنية وللحراسة المستمرة»[63].

وتتشكل الترابطات السياسية والاجتماعية داخل القصر وفق عدة اتفاقيات تنظيمية عرفية يتم بموجبها ضبط سير الحياة العامة واليومية داخل القصر، والتي حاولت الكشف عنها وثيقة محلية تدعى مطالع الزهراء في ذرية بني الزهراء لمؤلفها مولاي الزكي بن هاشم العلوي. «هذه الوثيقة تتعلق بالمسألة العمرانية بمنطقة مدغرة وما إليها. وتبين كيف كان يتم بناء القصر وتوزيع النطاقات والحومات على فئاته وكانت

---

62. Henri Terrasse: *op-cit* (p 56).

63. لمراني علوي، **مرجع سابق،** (ص. 101).

تخضع هذه المسألة للوضعية المادية والمكانة الاجتماعية لكل فئة. وتبين الوثيقة المرافق التي يشارك في بنائها وبشكل لزومي كل فئات القصر، كبناء الأسوار الخارجية والأبراج والأزقة والمسجد وغيرها من المرافق العامة. وتكشف كذلك عن جملة من الشروط التي يقرها مجتمع القصر ويفرضها بصرامة على كل السكان»[64].

والقصر الفيلالي يتكون من عدة منازل تتألف بدورها من طابقين وأحيانا من ثلاثة ويفضي مدخل القصر إلى «ساحة تسمى «السكيفة» أي «السقيفة»، وبها الدرج الذي يؤدي إلى الطابق العلوي. ومن السكيفة يتم المرور إلى ساحة مغلقة تصل إليها أشعة الشمس عبر فتحة في السقف، وتضم حجرتين واحدة للمواشي وأخرى للأدوات الفلاحية. أما الطابق العلوي فيخصص غالبا لسكن الأسرة وتتوزع على جنباته الغرف، وعلى إحدى زواياه الأربعة يبنى الدرج الثاني الذي يؤدي إلى طابق يضم غرفة أو غرفتين ويسمى هذا الطابق بـ «العلالي»[65].

وتمثل القصور العلوية أو المخزنية نموذجا رائعا للمعمار الترابي بمنطقة تافيلالت. هذه القصور تتميز بتصميم عمراني شبه موحد يتوفر على مختلف المكونات المعمارية التي تعطيه شكل وحدة سكنية متكاملة.

يقطن بداخل هذه الوحدة عادة عائلة واحدة من الشرفاء فضلا عن الخدم وأحيانا بعض الأحلاف القبلية وتضم بالإضافة إلى الدور السكنية، على المسجد والحمام والرياض والساحة العمومية... إلى آخره. وتعبر هذه القصور المحصنة عن نمط من المعمار الترابي يعكس ربما الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت في مرحلة معينة من تاريخ المنطقة. ويتجلى ذلك من خلال معاينة مكونات تصميم القصور العلوية والتي يمكن تحديدها من الخارج إلى الداخل كما يلي:

---

64. أحمد عبد اللوي علوي، **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان 1996. الجزء 1 (ص. 27ـ28).

65. حافظي علوي، **مرجع سابق،** (ص. 117).

- **السور الخارجي:** يحيط بكل القصر ويتميز بعلوه الذي يتجاوز 11 مترا، تتخلله عدة أبراج مربعة يتراوح عددها ما بين 9 و13. وتكون هذه الأبراج غالبا مزينة بنقوش هندسية محززة من الطوبية.
- **الساحة الخارجية أو المشور:** وهي مخصصة لمراسيم الاحتفال والاستقبال وغالبا ما تشيد في أحد جوانبها مرابض الخيول.
- **المدخل الرئيسي:** وهو عبارة عن باب كبير ذي قوس منكسر ويحيط به برجان مربعان يمينا ويسارا فضلا عن بوابات صغيرة مغلقة. ينفتح هذا المدخل على رواق مغطى يسمى بالدكانة تخصص للحراسة وتشيد فوقها مسرية يسكنها الحارس.
- **المسجــد:** يتكون من صحن مكشوف ومن خمس بلاطات ومن ثلاثة أساكب ومن المحراب والمنبر. ويتميز المسجد بثرائه الزخرفي من حيث النقوش الجصية والأشكال المصبوغة والخشب المنحوت.
- **زقاق بوطويل:** وهو عبارة عن زقاق طويل يحيط بالسور الخارجي من الداخل وغالبا ما توجد بجوانبه دور الخدم، أو يمر في الوسط فيقسم القصر إلى شطرين.
- **الساحة الداخلية:** وتستعمل أيضا للاستقبالات والمراسيم المختلفة وتؤدي مباشرة إلى الدار الكبيرة.
- **الدار الكبيرة:** وهي مقر سكنى العائلة العلوية وتتوفر على مختلف المرافق الضرورية للحياة اليومية من الأروقة المغطاة، والصحن المفتوح، والرياض، والحمام، والحريم، وقاعات الضيافة، والمخازن، والبئر، والمطبخ... وغيرها.
- **العرصات والجنانات:** وتوجد خارج السور الرئيسي وهي مخصصة لتزويد القصر بما يحتاجه من المواد الغذائية.

وتمكن دراسة الأشكال الزخرفية بهذه القصور أيضا من فهم الظروف التاريخية المصاحبة لظهورها ومن تعميق المعرفة النسبية بما كانت تزخر به مدينة سجلماسة من نقوش فنية بديعة لم تسعف المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية على تقديم تفاصيل

دقيقة عنها. وتتخذ الزخارف بالقصور أصنافا متنوعة حسب طبيعتها وحسب نوعية المواد التي تتشكل منها وحسب توظيفها:

- فمن حيث المواد المستعملة تنقسم هذه الأشكال إلى ثلاثة هي: الزخرفة الطينية، والزخرفة الجصية والزخرفة الخشبية.

- من حيث تموضعها تحتل دائما الأماكن البارزة وتتخذ شكل إفريز، أو لوحة أو إطار.

- من حيث طبيعتها تصنف إلى عناصر زخرفية مصبوغة، وإلى عناصر زخرفية منقوشة وإلى عناصر مركبة أو مزدوجة. كما يمكن التمييز بين أشكال هندسية (معينات، وتشبيكات، ومربعات، ونجوم...) وأشكال نباتية (أغصان، وأزهار، ونخلات...) وأشكال مكتوبة (الملك لله/العز لله/العافية الباقية/آيات قرآنية/أبيات شعرية منتقاة من قصيدة البردة للبوصيري...).

من حيث التنظيم الداخلي للقصر، يمكن القول إن الشكل من المعمار بتافيلالت يمثل شكلا من أشكال التضامن الجماعي والاجتماعي، ذلك أن لكل قاطن بداخله سواء كان فردا أو عائلة مكانته وحقه في المشاركة الفعلية في تدبير شؤون الحياة اليومية للقصر والتي تضبطها قواعد التعاون والتعاضد بمختلف تجلياتها. ففي الجانب الاقتصادي، تكون مصادر المياه ووسائل الإنتاج مشتركة ويتم توزيعها بدقة، ويتجلى ذلك في تجاور الحقول «الجمامن». والأكثر من هذا غالبا ما يوزع الحقل الواحد بين مالك الأرض ومالك الشجر ومالك حق السقي. كما تتضح صور التآزر في مساهمة كل أسرة حسب طاقتها، في توزيع الزكاة والأعشار والصدقات وفي أداء الكلف الاجتماعية.

6ـ مستقبل عمارة القصور بتافيلالت:

تتسم العمارة الترابية بالهشاشة وبالحساسية نظرا لقدمها وعدم مواكبتها لحاجات الإنسان العصرية ورغبته في الاستقلال بأسرته النووية بعد أن كان في الماضي يعيش ضمن العائلة والجماعة، مما جعل هاته العمارة تفقد الكثير من جاذبيتها ورونقها، وبالتالي

أصبح ضروريا على أي تدخل في المستقبل أن يستفيد من التجارب السابقة وأن يأخذ بعين الاعتبار المتغيرات الجديدة ومنها:

إعطاء الأولوية لصيانة المباني الأثرية القديمة لأنها تشكل جزءا من التراث الإنساني عامة والمغربي خاصة، وبالتالي يساعد ذلك على توطين ما تبقى من الساكنة ويحافظ على الطابع العمراني الأصلي لها. وتعتبر العناية بالمواقع الأثرية والمعالم لتاريخية خاصة وبالتراث عامة من الدعامات الأساسية للتنمية البشرية المستدامة، حيث تعمل إلى جانب إعطاء قيمة مضافة للمخلفات الحضارية المادية واللامادية، توفير فرص عمل مختلفة من جهة وتهيئ المجال العمراني والأثري وحتى البيئي من جهة ثانية فضلا عن إعادة توظيف مآثرنا بما يتناسب وروح العصر دون المساس بالجوهر التاريخي. ويطرح موقع سجلماسة الأثري باعتبار ثقله الحضاري وعمقه التاريخي وأسراره الأثرية، أوراشا متعددة ذات جدوى اقتصادية كبيرة وذات انعكاسات اجتماعية وعلمية وبيئية ضخمة. هذه الأوراش إن وجدت من يعطيها الأهمية بعد دراساتها من مختلف الجوانب، سترجع بالنفع العميم على كل منطقة تافيلالت وستكون رافعة تنموية على المدى المتوسط، كما ستشجع على تكثيف الأبحاث المتعددة التخصصات حول سجلماسة ومحيطها. ويمكن تحديد هذه المشاريع أو الأوراش حسب الأولوية كما يلي:

ـ حماية موقع سجلماسة الأثري من خلال الحفاظ على ما تبقى من هذا الموقع بعد أن تعرض ولا يزال يتعرض لانتهاكات صارخة دون الأخذ بعين الاعتبار أهميته التاريخية والأثرية. وتهم الحماية عدة جوانب منها:

- الإسراع بترتيب الموقع ضمن التراث العالمي بعد أن تم تصنيفه في لائحة الآثار الوطنية بقرار وزاري رقم 2.17.691 بتاريخ 23 نونبر 2017 والصادر بالجريدة الرسمية عدد 6628 بتاريخ 7 دجنبر 2017.
- تسييج الموقع وخاصة في نطاقه الأوسط والممتد على حوالي 500 م طولا و500م عرضا (2500 متر مربع)،

- خلق محافظة خاصة بالموقع على غرار باقي المواقع المغربية كشالة ووليلي وبناصا... من أجل المراقبة والتتبع،
- التحسيس بأهمية الموقع السجلماسي بواسطة استعمال كل وسائل الدعاية على المستوى المحلي والوطني والعالمي.
- صيانة موقع سجلماسة الأثري من خلال العمليات المستعجلة التالية:
- ترميم البقايا المعمارية الظاهرة قبل أن تصبح في خبر كان ومن ذلك الباب الشمالي، والقصبة الإسماعيلية وخاصة سور القصبة الممتد في الشمال وفي الغرب وفي الجنوب والمسجد الجامع والمرافق التابعة له، وبقايا الحصن.
- تهيئة الحفريات الأثرية المنجزة بالموقع منذ 1971 وإلى اليوم عبر تنظيف مكتشفاتها والتعريف بها، وضع حد لاستغلال الموقع في أعمال لا تمت بصلة بوظائفه المحددة قانونيا، ومن ذلك: الاستمرار في دفن الموتى في أجزاء مهمة من الموقع، وجود ملعب لكرة القدم فوق منطقة حساسة من الموقع كانت تتركز بها المعامل الحرفية، وجود مجزرة بلدية في الجزء الشمال الغربي للموقع حيث توجد بقايا السور السجلماسي فضلا عن الروائح الكريهة التي تنبعث من هذه المجزرة، كما يستغل الموقع لرمي كل النفايات والأتربة النترتبة عن أشغال الهدم والبناء،...وما خفي أعظم،
- وضع علامات التشوير وبطائق التعريف بالمعالم المتبقية وبالحفريات المنجزة، خلق ممرات لتنظيم الزيارة للبقايا الأثرية والمعمارية وغلق كل المسالك التي تعبر الموقع في كل الاتجاهات، بالتالي المحافظة على حرمة مكونات الموقع المتسمة بالحساسية والهشاشة،
- خلق متحف للتراث المحلي بقصر الفيضة الذي تم ترميمه لهذه الغاية في منتصف التسعينات من القرن الماضي، وهو قصر علوي يعود إلى فترة السلطان مولاي إسماعيل ويزخر بمرافق جميلة من مدخل رئيس وسور عال ومتين والدار الكبيرة حيث الصحن الكبير وبيوت الضيافة والحمام والحديقة والحريم... كما

زين القصر بنقوش زخرفية بديعة ذات أشكال متنوعة. هذا القصر تم ربطه بشبكتي الماء والكهرباء وكان يضم سابقا متحف مركز طارق بن زياد قبل نقله إلى مدينة الرشيدية. المتحف المراد خلقه بهذا القصر سيضم جانبا مهما من القطع الأثرية التي تم العثور عليها بموقع سجلماسة خلال مواسم الحفريات المختلفة والتي يُحتفظ ببعضها محليا بمركز الدراسات والبحوث العلوية والبعض الأخر يوجد بمخازن المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط، كما تُعرض أهمها بالمحتف الأثري بالرباط. إلى جانب القطع الأثرية سيضم المتحف كذلك قطعا اثنوغرافيا تعكس أوجه الحياة المعيشية لسكان تافيلالت (اللباس، الحرف، التغذية، العادات والتقاليد)، فضلا عن لوحات فنية للعمارة المحلية والنقوش الصخرية والمناظر الطبيعية والفنون الشعبية ولأهم المخطوطات.

- إعادة الاعتبار لمركز الدراسات والبحوث العلوية لكي يقوم بمهامه على الوجه الأكمل كما هي مسطرة في مرسومه التنظيمي ومن ذلك توثيق تاريخ الدولة العلوية وتعميق البحث عن تراث منطقة تافيلالت.

يعتبر **التوظيف السياحي** أحد الاتجاهات التي تساعد على توظيف موقع سجلماسة وإعادة توظيف بعض القصور والقصبات المهجورة مع مراعاة الأسس المعمارية وضوابط عمليات إعادة التأهيل باحترام القيمة الفنية والتاريخية لتلك المباني، وبالتالي محاولة دمجها في التنمية المحلية من خلال تنظيم مسارات السياحة الثقافية والإيكولوجية وهي متنوعة ومنها على سبيل المثال:

ـ مسار المواقع الأثرية وينطلق من موقع سجلماسة ليشمل أهم المواقع الموجودة بالضواحي والتي تعود إلى فترة ما قبيل التاريخ (مثل موقع المدور، وموقع البوية، وموقع جبل أفيلال، وموقع بوتشرافين وغيرها)،

ـ مسار المعالم التاريخية ويتضمن القصور والقصبات التاريخية بالمنطقة (تابوعصامت، المنصورية، آبار المخزن، أولاد عبد الحليم، الفيضة، أبو عام...إلخ)،

- مسار الزهد والتصوف ويهم الزوايا والأضرحة الكثيرة التي تزخر بها المنطقة انطلاقا من ضريح مولاي الحسن الداخل فضريح مولاي علي الشريف وضريح مولاي الحسن القواس وأضرحة سبع عرسان حيث المولى امحمد بن الشريف، وضريح مولاي عبد الله الدقاق، وضريح عبد العزيز المغراوي، ثم زاوية الماطي لصاحبها سيدي أحمد الحبيب اللمطي، وزاوية سيدي الغازي، وزاوية عمار، وزاوية سيدي علي بن أبو زينة حيث يوجد ضريح العالم أحمد بن عبد العزيز الهلالي، وزاوية سيد أبو بكر، وزاوية من لا يخاف... إلخ،

- مسار الخزائن العلمية حيث يُحتفظ بمجموعة مهمة من المخطوطات والمطبوعات الحجرية فضلا عن المطبوعات السلكية والكتب الحديثة. ويتعلق الأمر بخزانة الزاوية الحفيانية بقصر كيغلان، وخزانة الزاوية الغازية بقصر تابوبكرت، وخزانة العدل الفضيلي بقصبة مولاي عبد الكريم، وخزانة سلامي بقصر أخنوس، وخزانة ضريح مولاي علي الشريف، وخزانة مركز الدراسات والبحوث العلوية... وغيرها من الخزانات الخاصة،

- مسار المنتوجات الحرفية وينطلق من سوق الريصاني حيث تنتظم هذه الحرف وفق نوعيتها وطبيعتها، ثم تتم زيارة معاملها التقليدية المتبقية ومنها معامل صناعة القلل والخوابي المائية بقصر كلاكلا بأولاد احسين، معامل صنع الأواني الفخارية المنزلية بقصر مولاي عبد الله الدقاق، معمل صناعة الأواني الخشبية بقصر شرفة باحاج، معامل دبغ الجلود بقصر منوكة، معامل صنع الجير والآجر البلدي بالمراكنة، معامل صنع الأواني من سعف النخيل بعدة قصور فيلالية، معامل صقل وتصنيع الأواني الرخامية بضواحي سوق الريصاني....

- مسار المنتزه الطبيعي ويتميز بالتنوع بين مناظر طبيعية خلابة تضم تضاريس شبهها علماء الجيولوجيا والفلك بتلك الموجودة على سطح كوكب المريخ (ضواحي مدينة أرفود قرب جبل البليكوس)، ثم واحة واحة تافيلالت حيث أشجار النخيل ذات الشكل والمنتوج المختلف، ثم الأودية والسواقي والسدود التلية ذات الأشكال المتباينة (واد زيز، واد غريس، وادي أمربوح، الساقية الغرفية، الساقية المدرارية،

سد الشموخ، سد وانكاكا، سد المحرزة، سد الرصيف...)، ثم الكثبان الرملية بمرزوكة وحاسي الأبيض وبجوارها بحيرات موسمية ومنابع مائية عذبة، ثم المقالع والمناجم بمنطقة الطاوس وأميفيس وبومعيز...إلخ،

- مسار الذاكرة التاريخية وتشمل موقع النقوش الصخرية بالطاوس، ومواقع المعارك البطولية التي خاضها سكان المنطقة ضد قوات الاحتلال الفرنسية (البطحاء، أولاد الزهراء، البروج، المعاضيض، الدار البيضاء، تيغمرت، بادو، تداوت....)، والأماكن ذات الرمزية الجماعية (قصبة أبو القاسم، بيرو عرب، الملاح، المحكمة القديمة، الساحة العمومية، سوق أبو عام، سوق مولاي رشيد قرب ضريح مولاي علي الشريف، مدرسة إحياتن، مكان اغتيال بورنازيل... وغيرها.

خلاصـــــة:

كانت سجلماسة من المدن الإسلامية الأولى التي عُمرت بالمغرب الأقصى، واتخذت شكل عاصمة لإمارة مستقلة عن الخلافة الإسلامية بالمشرق. فقد شيدت سجلماسة وسط واحة غنية وفوق ربوة مرتفعة، يحيط بها نهران وفي ملتقى مسالك تجارة القوافل. تأسست المدينة من طرف خوارج مكناسة الصفرية وكانت بمثابة العاصمة السياسية خلال أكثر من 300 سنة قبل أن تتحول إلى مقر أحد أهم الأقاليم المكونة للدولة المغربية مع المرابطين والموحدين ثم المرينيين. وتميزت الظروف السياسية التي مرت منها سجلماسة بعدم الاستقرار، وتأرجحت بين النزوع إلى الاستقلال وبين الرضوخ قسرا للتبعية، وأثر ذلك كثيرا في نمط معمارها سلبا وإيجابيا. وإبتداءاً من منتصف القرن 11 الميلادي وإلى نهاية القرن 14 الميلادي، دخلت سجلماسة تحت سيطرة الحكم المركزي بالمغرب، فأصبحت المدينـة الممول الرئيسي لخزينة الدولة المغربية. كما كانت المدينة دائما هدفا لكل حركة تطمح للسيطرة على المغرب الأقصى أو الغرب الإسلامي ككل أو على الأقل تهدف إلى التحكم في تجارة القوافل. فقد ارتبط إشعاع سجلماسة إلى حد كبير بمدى تحكمها في تجارة القوافل، وكانت نهايتها المأساوية مع فقدان سيطرتها على

هذا الشريان الاقتصادي. فقد كانت المدينة محط أطماع كثيرة ومتواصلة، مما جعل معالمها المعمارية تتعرض عدة مرات للهدم ولإعادة البناء قبل أن تمحى من الوجود نهائيا في أواخر القرن 14 الميلادي. بعد هذا التاريخ عرف موقع سجلماسة مرحلتين من الاستغلال، تتمثل الأولى في إقامة عدة مراكز حرفية ما بين القرن 15 والقرن 17 الميلادي. أما المرحلة الثانية فتهم بناء القصبة السجلماسية في أواخر القرن 17 الميلادي من طرف السلطان مولاي إسماعيل.

كانت سجلماسة بمثابة المدينة العاصمة، فضمت بالتالي كل المرافق المعمارية الأساسية، كما كانت المدينة محصنة بسور يتوفر على عدة أبواب وأبراج من أجل الدفاع وصيانة الأمن الداخلي للسكان. واستقطبت سجلماسة عبر تاريخها مجموعات إثنية مختلفة في الأصول واللغة والمعيشة والعادات. وإذا كان سكان سجلماسة متجمعين داخل أسوار المدينة كأسر وعائلات، فإنهم مع اندثار هذه المدينة، اضطروا أن يتفرقوا في الضواحي داخل قصور وقصبات خاصة. اتخذت هذه القصور شكل تجمع سكاني داخل بناية موحدة تحاط بسور ضخم وعال تتخلله عدة أبراج، وله مدخل رئيسي واحد. وبداخل القصر يوجد المسجد، والأزقة المغطاة، والساحة العمومية والدور السكنية.

تعرضت عمارة القصور بتافيلالت منذ القدم لعوامل طبيعية وبشرية ألحقت بها أضرارا متباينة في مكوناتها المعمارية، بل وأدت إلى إندراس بعضها. وتتجلى هذه العوامل خاصة في الفيضانات المتكررة والعنيفة للأودية إضافة إلى الصراعات القبلية. وشملت هذه الأضرار كل مكونات هذه العمارة الأصيلة وخاصة الأسوار الخارجية والمرافق الداخلية التي وُظف بعضها لأداء مهام جديدة. كما أن تدخلات الدولة اقتصرت على بعض القصور المسماة «السلطانية أو المخزنية»، وعند السكان المحليين فإن بناء قصر جديد يبقى الأمل وأهون من ترميم وصيانة ما تلاشى من قصر قديم. بل أصبحت الموضة في نهاية القرن العشرين هي بناء الدور الفردية خارج أسوار القصر وربما فوقه وبجانبه. هذه الظاهرة التي تطورت أكثر في بداية القرن الحالي بفعل هجرة أغلب قاطني القصور للسكن في المدن المجاورة أو البعيدة طلبا للعمل والعلم والرزق والرفاهية.

في الوقت الذي سار فيه هذا البنيان في عداد التراث المهدد بالإندثار، ظلت التدخلات جد محدودة ومحل خلاف بين الجهات المعنية. كما أن القصور التي شملها التدخل تبقى قليلة جدا بالمقارنة مع المعالم والمواقع التي تحتاج إلى الترميم والصيانة. وتجدر الإشارة إلى أن هذه التدخلات لا تتطلب وسائل وإمكانيات ضخمة أو دراسات جد متقدمة، فالمواد الأولية المتمثلة في التربة الطينية والحجارة والخشب وغيرها موجودة بكثرة في عين المكان، فضلا عن وفرة اليد العاملة الرخيصة والمتخصصة في البناء بالطابية. وعلى كل يمكن التأكيد على أن مسؤولية الحفاظ على التراث المعماري، هي مسؤولية جماعية ومشتركة تتحمل فيها الدولة ممثلة في القطاعات المعنية بهذا التراث فضلا عن الجماعات المحلية والسلطات المحلية قسطا أكبر، بينما يتحمل القسط المتبقي جمعيات المجتمع المدني وكل الفعاليات المهتمة بهذا التراث من أجل التحسيس بأهمية هذا الإرث التاريخي وبالتالي المساهمة في صيانته وترميمه وفي توظيفه لخدمة التنمية المستدامة.

المصــادر والمراجــع:

العربيـــة:

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.** الرباط، 1973 دار المنصور.

ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة.** بيروت، 1978 دار القلم، الطبعة الأولى.

ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.** بيروت، 1981، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء 1.

ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي.** تحقيق أحمد التوفيق. الدار البيضاء، 1984، مطبعة النجاح الجديدة.

ابن مرزوق، محمد بن أحمد التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن.** الجزائر، 1981.

بنعبد الله، عبد العزيز: «القصبات والقلاع الإسماعيلية»، **دعوة الحق.** عدد خاص، مارس (ص 108-113)، 1988.

تاوشيخت، لحسن، **عمران سجاماسة، دراسة تاريخية وأثرية.** الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2008، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان.

حافظي علوي، حسن، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع** عشر الميلادي. المحمدية،1997، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

حافظي علوي، حسن، «تانيجوت» **معلمة المغرب.** المجلد السابع (ص 2231-2230).

حجي، محمد، «المنافسة بين سجلماسة وإيليغ والدلاء»، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا.** الرباط، 1988، مطابع الميثاق (ص 29- 33).

حجي، محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين.** المحمدية، 1978، مطبعة فضالة. عبد اللوي علوي، أحمد: **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث.** المحمدية، 1996، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان.

لمراني علوي، محمد، «المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة»، **الندوة الدولية حول المعمار المبني بالتراب في حوض البحر الأبيض المتوسط.** (ص 114-99)، 1996.

محمود إسماعيل، عبد الرزاق، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء، 1985، مطبعة النجاح الجديدة.

المدغري، أحمد بن عبد العزيز بن الحسن: **الأنوار الحسنية**. تحقيق عبد الكريم الفيلالي. الرباط، 1966.

الناصري، أبو العباس أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954/1956، الجزء 3 والجزء 4.

الوزان، الحسن، **وصف إفريقيا**. تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط، 1982، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، جزءان. الجزء 2.

الأجنبيــة:

ABA, Sadki : *urbanisme et conservation du patrimoine culturel présaharien, cas des ksour du Tafilalet*. Rabat, Institut National d'Aménagement et d'Urbanisme. Mémoire de 3° cycle, 2003.

Bazzana, André: «L'Architecture de terre au moyen-âge, considérations générales et exemples andalous», *Colloque International sur l'architecture de terre en Méditerranée: Histoire et perspectives*. Rabat, Université Mohammed V/ Faculté des Lettres et Sciences Humaines (pp. 169–202), 1996.

Fagnan, Eugène: *Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire*. Alger, 1924.

Fathy, Hassan): *Construire avec le peuple*, Paris, Sindibad, collection Hommes et Sociétés, 2° édition, 1970.

Faure, Roger: *Le Tafilalet, étude d'un secteur traditionnel d'irrigation*. Paris, 1969.

Gautier, Émile-Félix: *le passé de l'Afrique du Nord*, Paris, édition Payot, 1964.

Hensens, Jean: «Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le qsar : problème de rénovation», *Bulletin Economique et Social du Maroc*. N° 114; Juillet – Septembre (pp. 83-107), 1969.

Jacques-Meunié, Djinn et Meunié, Jacques: «*Abbar, cité royale du Tafilalet*», Hespéris. Tome: XLVI, 1° et 2° trimestre. 12 figures ; VIII planches hors texte (pp. 7 – 72), 1959.

Jacques-Meunié, Djinn: «Sur l'architecture du Tafilalt et de Sijilmassa (Maroc Saharien)», *Comptes Rendues de l'Académie des Inscriptions des Belles Lettres*, décembre, vol. 106, n°2, (pp. 132-147), 1963.

Jacques-Meunié, Djinn: *Architectures et habitats du Dadès, Maroc présaharien*. Paris, édition C. Klincksieck, 1962.

Jacques-Meunié, Djinn: *Le Maroc Saharien des origines à 1670*. Paris, édition C. Klincksieck, 2 volumes, 1982.

Lewiki, Tadensz: «Sur le titre libyco-berbère», *Etude maghrébines et soudanaises. Studio nad maghrebem i sudanem*. Varsovie, édition Scientifique de Pologne, publication de l'Académie Polonaise des Sciences, Comité des Etudes Orientales, 1976.

Marçais, Georges: *L'architecture musulmane d'Occident: Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile*. Paris, édition Arts et Métiers Graphiques. 108 planches et 286 figures, 1954.

Mezzine, Larbi: *Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII° et XVIII° siècles*. Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida, 1987.

Mezzine, Larbi: Contribution à l'histoire du Tafilalet: aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain au XVIIème et XVIIIème siècles à travers l'analyse de quatre documents inédits. Université Paris I, Thèse de 3° cycle en Histoire. 3 volumes; tableaux, 2 photos et 3 cartes dépliées hors texte, 1977.

Saidi, Idriss: «étude architecturale des ksour du Tafilalet, dossier d'analyse et de diagnostic», *Oasis Tafilalet*, n° 1 (pp 3–34), 1999.

Terrasse, Henri: «Notes sur les ruines de Sljil*massa», in 2° Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes*, Tlemcen 14-17 avril 1936, Alger (pp. 581-589), 1936.

Terrasse, Henri: *Kasbas berbères de l'Atlas et des oasis: les grandes architectures du sud marocain*. Paris, édition Horizons de France, 1938.

Touri, Abdelaziz: «Problématiques d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans la région du Maroc présaharien», *Actes du IV° Colloque Euro-africain*. (pp. 32-35), 1985.

ملاحظات وتحريات مصدرية وأركيولوجية
حول قلعة حجر النسر

صباح علاش
باحثة بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ـ الرباط

كثيرا ما تعمد الدراسات والأبحاث الخاصة بالأدارسة إلى التوقف عند وفاة إدريس الثاني، وتعتبرها نهاية الدولة الإدريسية، وفي أحسن الأحوال تشير إلى تقسيم مناطق نفوذ الأدارسة بين أبناء إدريس الثاني: القاسم، عمر، داود، يحيى، حمزة، عيسى، عبد الله، أحمد وإدريس.

لكن هذا يجانب الحقيقة التاريخية، إذ تعتبر مرحلة ما بعد وفاة إدريس الثاني من أخصب مراحل حكم الأدارسة، حيث ساهم المتأخرون منهم في تمدين المنطقة الشمالية للمغرب، منتشرين في جميع بلاد الريف/غمارة، ومساهمين في جل محطاتها التاريخية. وفي هذا الإطار أسسوا عدة مراكز حضرية أهمها مدينة البصرة، وبنوا قلاعا منها قلعة حجر النسر وقاموا بتنشيط المدن القديمة، خاصة الساحلية التي كانت منتهى طرق ومسالك التجارة الصحراوية.

يحاول هذا الموضوع[1] التعريف بقلعة حجر النسر، اعتمادا على التحريات المصدرية، ونتائج الأبحاث الأركيولوجية التي أنجزت حول القلعة.

---

1. للتفصيل أكثر حول الوجود الإدريسي بشمال المغرب، والشبكة الحضرية التي ساهموا في تنشيطها، يمكن مراجعة رسالتنا الجامعية حول: «غمارة/الريف في مرحلة الصراع الفاطمي (العبيدي) – الأموي (الأندلسي) من 296هـ/909م إلى 476هـ/1083م»، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية، -2003 2004.(مرقونة).

1. التعريف بقلعة حجر النسر من خلال المصادر التاريخية المكتوبة، وأهميتها الدينية:

1-1 قلعة حجر النسر في المصادر التاريخية المكتوبة:

اختلفت المصادر التاريخية في تحديد اسم مؤسس حجر النسر، وفي تحديد سنة بنائها؛ كما اختلفت في تحديد طبيعتها، بين اعتبارها حجرا، قلعة، حصنا، أو مدينة. لكنها تجمع على أنها لم تظهر على مسرح الأحداث، إلا مع الحملة الاجتثاثية التي قام بها موسى بن أبي العافية ضد الأدارسة سنة 320 هـ. ويبقى البكري هو الأقرب من الأحداث زمنيا، والأصدق من حيث المعلومات حول ظروف تأسيس حجر النسر. ويقول في هذا الإطار:

> «استولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب وأجلى آل إدريس أجمعين عن مواضعهم وانحاشوا عن البلد، وسار جميعهم في حجر النسر مقهورين، وهو حصن بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس سنة سبع عشرة وثلاثمائة، واعتزم موسى على محاصرتهم واستئصالهم حتى عذله في ذلك أكابر أهل المغرب».[2]

يظهر من خلال النص، أن تأسيس حجر النسر كان أسبق من حملة موسى بن أبي العافية، والتي تمت سنة 320 هـ بعدما غير ولاءه من الفاطميين إلى الأمويين. وكاد خلال هذه الحملة أن يقضي على الأدارسة لولا تدخل أكابر المغرب الذين قالوا له: « قد أجليتهم وأفقرتهم، أتريد أن تقتل آل إدريس أجمعين وأنت رجل من البربر»،[3] فتراجع عن ذلك وترك عليهم أبا قمح كخليفة لمراقبتهم ومنعهم من التصرف والذي كان مقر إقامته هو تاوررت.[4] لكن حملة القائد الفاطمي ميسور سنة 322 هـ إلى المنطقة، والهزيمة التي تلقاها موسى عقب ذلك، أدت إلى فك الحصار على الأدارسة، الذين تظاهروا على أبي قمح وهزموه وغنموا أكثر عسكره. وقد بقي الأدارسة الموجودون بحجر النسر تحت

2. أبو عبيد الله البكري، **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفر وأندري فيري، تونس 1992، فقرة 1357، ص 811.

3. **نفسه**.

4. **نفسه**، ويذكر المحققان أنه في نسخة أخرى وردت تاونيت، وكلمة تاوررت في الأمازيغية تعني المكان المرتفع، كالكدية، والذي يسمح برؤية ومراقبة ما يحدث بمحيطه.

سلطة القاسم بن محمد الملقب بـگنون، والذي بقي متمسكا بالدعوة الفاطمية إلى أن أعلن دولة إدريسية بحجر النسر سنة 330 هـ. وبعد وفاته سنة 337 هـ، تولى ابنه أحمد بن القاسم بن إبراهيم، الملقب بأبي العيش بن گنون، والذي رد الطاعة للأمويين، واختار بعد ذلك الذهاب إلى الأندلس للجهاد، وخلفه في الحكم أخوه الحسن بن گنون، سنة 343 هـ، والذي أعلن ولاءه للفاطميين.

ومنذ سنة 361 هـ، أعلن الحكم المستنصر الحرب ضد الحسن بن گنون، الذي اضطر إلى التخلي عن البصرة، وأرسل بحرمه وخزائنه إلى حجر النسر، بعد مقتل القائد الأموي محمد بن قاسم بن طملس، بجبل مهران غرب حجر النسر سنة 362 هـ.[5] وأرسل الحكم قائده غالبا في جيش كبير، ثم أمده بقوة أخرى بقيادة يحيى بن محمد التجيبي،[6] وتمت محاصرة جبل الكرم.[7] وسعى القائد الأموي إلى استمالة بعض الأدارسة بسبب مناعة هذا الجبل، ولجأ الحسن بن گنون إلى منع وصول الماء المنحدر من جبل الكرم، وجبل مهران، إلى معسكر الجيش الأموي في السهل، وهو ما دفع بالقائد الأموي غالب إلى استدراج الحسن للقتال في السهل حيث يشير ابن حيان إلى أنه:

> «انبلج الصبح من يوم الاثنين لسبع بقين من ذي الحجة (363 هـ) منها تصايح شرذمته وسعى الجند في استجرار الفسقة إلى السهل كي يستوسع المصاع، فأفضوا إلى بعض ذلك ببسيط قرية تسمى أجين على نحو ميلين من المحلة فاستقر القتال من الصباح إلى الظهيرة وانتهت المواجهة بهزيمة الحسن بن گنون ومقتل عدد من رجاله».[8]

5. أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1980، الجزء الثاني، ص. 346.

6. **نفسه**، ص 347-346.

7. سمي بجبل الكرم منذ الهزيمة التي ألحقها الأدارسة بالقائد المكناسي أبي قمح سنة 322هـ تفاؤلا به وتيمنا بينهم، البكري، **ن.م.س**، فقرة 1357، ص. 811.

8. ابن حيان، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، تحقيق عبد الرحمان علي الحجي، دار الثقافة، بيروت 1965، ص. 140.

وفي سنة 364 هـ عاد القائد غالب إلى الأندلس ومعه الحسن بن گنون وحوالي سبعمائة من رجاله الذين أعطي لهم الأمان.[9]

وسيظهر حجر النسر مرة أخرى على مسرح الأحداث بعد عودة الحسن بن گنون إليه سنة 373 هـ، واستئنافه المقاومة ضد الأمويين، فتم توجيه حملة قوية بقيادة الحاجب المنصور بن أبي عامر سنة 375 هـ،[10] وتم تدبير عملية قتل الحسن بن گنون في الطريق، على يد القائد الأندلسي أبي الحكم عمر المعروف بعسكلاجة، أحد أقارب المنصور بن أبي عامر. وبذلك انتهت المقاومة الإدريسية بحجر النسر.

ومع ذلك فقد ظلت قلعة حجر النسر حية شاهدة على المقاومة الإدريسية، إذ لم يتم تخريبها، لأن الحكم فضل إبقاء حامية بها. ويذكر[11] أنه في سنة 386 هـ أخرج ابن أبي عامر كاتبه عيسى بن سعيد اليحصبي إلى العدوة، في جيش ضخم، ضمه إليه وقلده النظر في شأن زيري، فأقام عيسى في وجهته بقية سنة 386هـ، واستأمن إليه في الأخير محمد بن حمود المعروف بابن بقال، صاحب قلعة الحجر، ثم تسلمها[12] زيري بن عطية بإذن من الخليفة هشام المؤيد ضد المنصور بن أبي عامر. ومنذ ذلك التاريخ اختفت الإشارات المتعلقة بالقلعة الإدريسية، مما يجعلنا نعتقد أنها تعرضت للتخريب بعد ذلك.

لقد ساهم حجر النسر في ضمان استمرارية الوجود الإدريسي رغم قوة الحملات التي تعرض لها الأدارسة خلال مرحلة الصراع الأموي – الفاطمي، وهو الأمر الذي دفع الحكم المستنصر إلى إرسال 13 ابن سهير إلى المنطقة لتوزيع الهدايا على الجنود وعلى القبائل، وأمره بضبط مقاييس هذه القلعة.

9. **نفسه**، ص 195-194.

10. ابن عذاري، **ن.م.س**، الجزء الثاني، ص 281.

11. مجهول، **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث والدراسات العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1996، ص 188.

12. Tomas García Figueras, , *Marruecos*, Madrid, 1949, p. 230

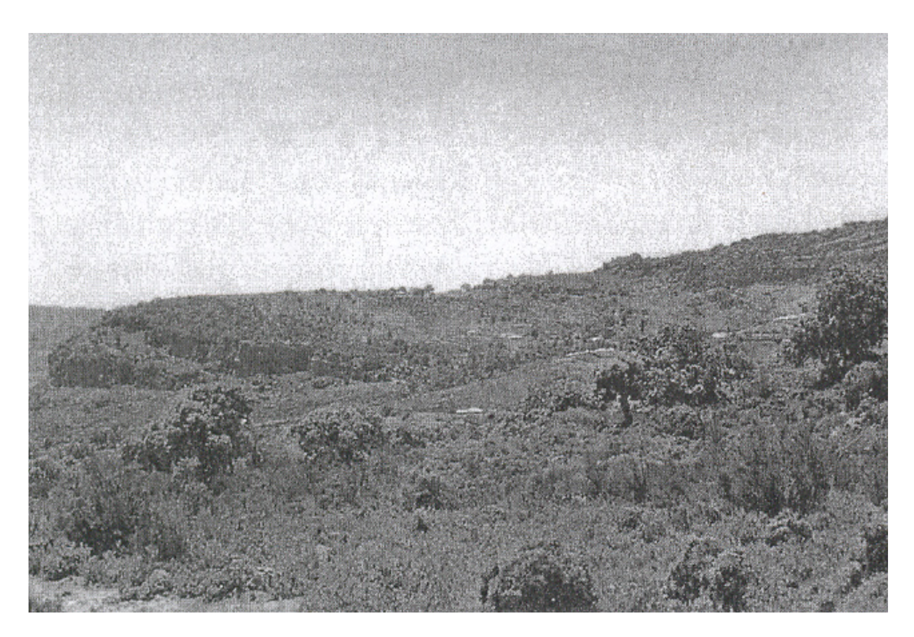
13. **Emilio García Gomez,** *Anales palatinos del Califa de Córdoba al-Hakam II por Ísà Ibn al – Ràzí*, Madrid, 1967, p169-184.

لقد تحدث المؤرخون عن حجر النسر منذ القرن الرابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري، واختلفوا في تحديد طبيعتها. وفيما يلي جدول يوضح أهم التعاريف لهذا الموقع حسب المؤرخين.

جدول تعريف المؤرخين لحجر النسر وتحديد موقعه

تعاريف حجر النسر	قلعة	حجر	حصن	مدينة	الموقـع المحـدد لهـا
المؤرخـــون					
ابن حوقل		X		X	على أحد المراحل ما بين طنجة والبصـرة (مـن إقليـم طنجـة)
المقديسـي	X			X	مــن مــدن الســوس الأدنــى
ابن حيـان		X	X		قريبا من جبـل الكـرم ببنـي كرفـط
البكـــري		X			في الغرب منه بلد رهونة وفي الشرق بنو فتركـان وهـو مفتـرق الطـرق
الإدريسـي				X	علــى مقربــة مــن البصــرة
ابن أبي زرع		X			بقبيلة سوماتة مـن إقليـم تطــوان
ابن خلـدون		X	X		قريبا من سبتة وممـا يلـي البصـرة

من خلال الجدول أعلاه، يتضح تعدد وتداخل المفاهيم المستعملة من طرف المؤرخين للتعريف بحجر النسر، وكلها مستمدة من وظائف هذا الموقع، وطبيعته؛ فأغلب المؤرخين اعتبر الموقع حجرا، وهذا مرتبط بالطبيعة الجيومورفولوجية للمنطقة، إذ تعتبر منطقة جبلية مكونة من حجارة صلبة. كما اعتبرت في المقام الثاني مدينة، وهذا منطقي لأنها شكلت ملجأ للأدارسة الذين استقروا بها، وبالتالي قاموا بإعمارها وبنائها، فأصبحت مدينة ولو بشكل مؤقت. كذلك اعتبرت من قبل المقديسي قلعة، كما جعلت حصنا، وهذا يقر بالعلاقة الجدلية التي تربط الموقع بالدوافع السياسية والعسكرية كالتحصن والدفاع والحرب.



الصورة 1: منظر عام لموقع حجر النسر

المصدر:

Patrice Cressier. *Genèse de la ville islamique*, *op. cit*. p319

بالنسبة للباحث الأركيولوجي[14] باتريس كريسيي يرى أن المصطلح الأكثر استعمالا ينحدر من الطبونيمية حجر Hagar، وهي نفسها الصخرة التي استعملها البكري وغيره.

ويعتبرها هذا الباحث معقلا أوليغارشيا، أو بالمعنى الواضح دولة، أسست من طرف حاكم إدريسي، وكانت تحت حكم القاسم بن محمد (الملقب بـ گنون) من 321هـ إلى 337 هـ حيث توفي بها. وكانت موقعا ملائما لاتخاذ القرارات السياسية، والتحكم في الطريق الفاصلة بين البصرة وقصر مصمودة.

14. Patrice Cressier, El Bonjday Abdelatif et autres, Hagar al-Nasr, «capitale» idrisside du Maroc Septentrional: Archeologieet histoire (IVe H/Xe ap. J-C) in *Genêse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental, Actes* recueillis et préparés par Patrice Cressier et Mercedes Garcia. Arenal, Colloboration de Mohamed Méouak, Casa de Velazquez, Madrid 1998, p 305-334.

وحسب ما يذكر ابن حوقل، فهي في مركز دقيق بالنسبة لشبكة المراكز الإدريسية. (انظر الخريطة في الملحق) لكن ما يلفت النظر هو أن القلعة لم تكن تحتوي على سوق، وطيلة مدة حكم الحسن بن گنون لمدينتي البصرة وحجر النسر، كانتا مكملتين لبعضهما البعض، بحيث شكلت حجر النسر معقلا للسكان الفارين من البصرة.

يظهر إذن مشكل التعريف بالشكل المعماري خلال الفترة الوسيطية، خاصة وأن المؤرخين المتأخرين يخلطون بين الحصن والقلعة،[15] وهذا يطرح مشكل تطور التعريفات من خلال وضعية حجر النسر خلال الفترة الوسيطية، علما أن الموقع كانت له مكانة دينية بارزة.

1- 2 ـ الأهمية الدينية لحجر النسر

إن الأهمية السياسية والعسكرية لقلعة حجر النسر لا تنفي عنها أهميتها الدينية فـي تاريـخ غمـارة بشكـل خـاص، وفـي تاريـخ المغـرب بشكـل عـام، إذ يشـيـر [16] ميشو بلير Michaux Bellaire نقلا عن روايات تاريخية مختلفة، إلى أنه:« لما تلقب علي بحيدرة وتولى إمارة مملكته، التجأ ابنه مزوار[17] إلى الجبل حيث كان يقيم شعائره، وإبان وفاة والده استدعي لتولية منصبه، لكنه رفض واستمر في مناجاة ربه في حجر النسر إلى أن توفي هناك».

وهكذا يظهر أن الوجود الإدريسي بحجر النسر بدأ خلال الربع الأول من القرن الثالث الهجري، ودليلنا في ذلك هو أن علي بن محمد بن إدريس الثاني بن إدريس الأول والذي لقب بعلي حيدرة توفي حوالي 234 هـ وابنه مزوار ذهب إلى حجر النسر بعد توليه الحكم حوالي 221 هـ. ويؤكد ذلك أحد الباحثين[18]من خلال إشارته إلى أن أول

---

15. **Bazana A. Cressier, P. Guichard,** *Les châteaux ruraux d'al–Andalus, Histoire et Archéologie des husùn de Sud-Est de l'Espagne*, Madrid 1998, p. 67-69.

16. **Michaux-Bellaire,** «Quelques tribus de Montagnes de la région du Habt», *Archives Marocaines*, E. Leroux 1911, volume 17, p500

17 ـ مزوار في الأمازيغية، تعني: الأول.

18 ـ حسن الفگيگي، مادة«حجر النسر»، **معلمة المغرب، ن. م. س**، 1998، العدد العاشر، ص 30-33.

اتصال للأدارسة بالمكان خص دوار الحجر المجاور لموضع القلعة قبل بنائها بنحو القرن. ويتجلى ذلك من خلال وجود قبة سيدي أحمد بن علي[19] بن محمد بن إدريس الثاني، الملتجئ الأول إلى المكان قبل وفاة والده علي حيدرة سنة 234 هـ، مفضلا التنسك بالجبل المسمى الآن بجبل الخلوة، وربما كانت وفاة المزوار سنة 250 هـ. وقد عزز ضريح سيدي مزوار وضريح سيدي عبد السلام بن مشيش الأهمية الدينية لحجر النسر. وقد أصبح مزارا دائما يتحدث فيه عن كرامات الشرفاء الأدارسة، بما فيه دورهم في معركة وادي المخازن سنة 1578م ضد الاحتلال البرتغالي.

وإذا كانت المصادر قد تحدثت عن سنة التأسيس والتطورات السياسية لحجر النسر ووظائفها العسكرية والدينية، فإن الموقع الدقيق للقلعة ستتكفل بتحديده الأبحاث الأركيولوجية.

2. موقع حجر النسر وخصائصه حسب الأبحاث الأركيولوجية:

2-1 – إشكالية تحديد موقع حجر النسر:

رغم أهمية دور قلعة حجر النسر طيلة القرن العاشر الميلادي، إلا أن موقعها الحقيقي لم يتم التوصل إلى تحديده إلا اعتمادا على الأبحاث الأركيولوجية التي تمت في الأربعينات من القرن العشرين. ولكن هذا التحديد بقي ناقصا إلى أن قامت مجموعة من الباحثين سنة 1993 بمجموعة من الاستبارات الأركيولوجية.

فبعد أن كان حجر النسر يتم خلطه مع حجر النكور،[20] ومع موقع آخر شمال غرب تازة،[21] عمل الباحثون في بداية القرن العشرين على طرح مشكل تحديد موقع حجر

19. أبو العباس أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق د. جعفر بن الحاج السُّلَمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي (مجموعة البحث في الأسطورة)، منشورات جمعية تيطاون أسمير (سلسلة تراث6)، تطوان 1998، الطبعة الأولى، الجزء الأول، ص 105.

20. أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1973، ص 112.

21 – **Auguste Moulieras,** *Le Maroc inconnu*, *Exploration des Djebalas* (Maroc Septentrional), deuxième partie, Paris 1899, p351.

22 ـ ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي، **صورة الأرض**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 81.

النسر، وذهبوا إلى تحديد الموقع بين البصرة من جهة، وسبتة وطنجة من جهة أخرى، معتمدين على ما قاله ابن حوقل[22]« على أحد المراحل بين طنجة والبصرة»، والبكري هو الذي حدد الموقع بدقة، في الغرب منه بلد رهونة وفي الشرق بنو فتركان، ويتم الوصول إليه بعد المرور عبر واد محراز، داخل منطقة البصرة، وليس بعيدا عن سبتة.

من خلال هذه الروايات إذن فقلعة حجر النسر تقع على أحد قمم جبل حبيب جنوب طنجة وشرق أصيلا.

سنة 1905 علق سالمان G Salman على ما كتبه ابن رحمون الذي يموقع ضريح سيدي مزوار في حجر النسر عند قبيلة سماتة. وتساءل هل لا يوجد موقعان لصخرة النسر، الأول هو الذي يطلق عليه اسم الصخرة الكُرْفْتِية cakhrat al gorfety، والثاني هو حجر النسر الذي يقع في قبيلة سماتة (ما بين وزان والقصر الكبير، في الجهة الشرقية لضريح مولاي عبد السلام بن مشيش على طريق وزان)، والذي يطلق عليه أيضا حجر الشرفاء أو حجر مزوار.[23]

وقد قبل ميشو بلير بهذا التحديد، وأكد أنه لا يمكن الخلط بين الصخرة الجرفتية وبين حجر النسر الذي يحتوي على موقعين مختلفين حسبما تؤكده أيضا أبحاث باتريس كريسيي Patrice Cressier الأركيولوجية.

وقام الباحث ريدمان Redman [24] من جامعة نيويورك، باستبارة أركيولوجية جنوب غرب طنجة، في جبيلات، وتوصل إلى نتائج متباينة مع ما توصل إليه باتريس كريسيي.

وقام الباحث ڤنييت كونز J. Vignet Kunz[25] بأبحاث إثنولوجية حول بني كرفت في الحدود النهائية لهذه القبيلة، وأيضا حول سماتة، أثبت بشكل نهائي موقع حجر

---

23. Gean Salman,«Ibn Rahmoûn et les généalogies chérifiennes», *Archives Marocaines* 1905, Tome III, p. 296.

24. Redman, Ch. «Survey and text excavation of six medieval Islamic sites in northern Morocco», *Bulletin d'Archéologie Marocaine*, 1986-1984, Tome XV, p311, 360, 343, 345.

25. *Cressier*, *op.cit*, p317.

النسر على بعد 30 كلم جنوب شرق جبل حبيب، وحدد الموقع كمنخفض صخري متدرج مغلق بكويستا مرتفعة محصورة بدوار الحجر عند قدم جبل مزوار، وفي الجنوب الغربي ترتبط المنحدرات بدار الراضي.[26]

وهكذا فالوصول إلى القلعة يتم[27]بعد قطع ثلاثين كيلومترا عبر طريق جد وعر، منحرف نحو قرية تولا السوماتية بعد الدخول في طريق مؤد إلى ضريح المولى عبد السلام بن مشيش جنوب جبل حبيب. وهذا التحديد الأخير تم بعد الحفريات الأركيولوجية التي تمت في الموقع وبرهنت أركيولوجيا على مصداقية تحديد حجر النسر، وذلك في شهر يونيو 1993، وكانت ثمرة عمل مشترك بين المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط و كازا دڤيلاسكيس Casa de Velázquez C.S.I.C بمدريد، والتي كان من جملة أهدافها تحديد موقع حجر النسر من حيث التحصينات، وهل هو مدينة أو قلعة، ومدى تأثيره على محيطه. فما هي خصائص هذا الموقع الأركيولوجي؟

2-2- خصائص الموقع الأركيولوجي لحجر النسر[28]

يمكن تقسيم الموقع الأركيولوجي إلى جزأين متباينين على جانبي ضريح سيدي مزوار، وهما:

- مقبرة شاسعة تمتد على طول القمة الصخرية في الجنوب والجنوب الشرقي للضريح.

- القلعة (castel) الفعلية التي تشغل مجموع الشمال.

2-2-1- المقبرة وضريح سيدي مزوار

في الوقت الراهن لا يمكن قول شيء كثير حول المقبرة، فهي تضم عددا كبيرا من قبور الذين جاؤوا للاحتماء بالولي، وكل هذه القبور مبنية بحجر محلي لا يحمل أية إشارات

26. دار الراضي أو الراظي حسب النطق الجبل، نسبة إلى شخص يدعى الراضي، ظهر بالمنطقة بعد القرن الرابع الهجري، الفكيكي، مادة «حجر النسر»، ضمن **معلمة المغرب**، 1998، العدد 10، ص 3331.

27. الفكيكي، ن. م. س، ص 3329.

28. جل المعطيات المتعلقة بخصائص الموقع الأركيولوجي لحجر النسر مستمدة من دراسة باتريس كريسيي المشار إليها أعلاه.

أو رسومات، وتتخذ شكل مقعر أو شكل مستطيل، بشواهد أو بدونها.

إن بساطة الأشكال المعتمدة تجعل كل محاولة للتأريخ عشوائية، وحده المسح الشامل يمكنه إبراز محاور نمو المقبرة، وبالتالي إعطاء تأريخ نسبي.

إن الضريح ذي التصميم شبه المربع (حوالي 10 متر X 10 متر) مسبوق بممر مكشوف في الشمال الغربي وهو مغطى بتسع[29] قباب غير متساوية، تأوي في مركزها نعشا من الخشب مغطى بنسيج.

لا يمكن اعتبار هذا التقسيم الهندسي الذي يتخذ هذا التصميم بهذا النوع من السقف خاصا بالمآثر الجنائزية، لكن فعاليته جعلت هذه الأخيرة غالبا ما تعتمده، وبالتالي فوجوده هنا ليس مفاجئا.

إن الأشكال البنائية المعتمدة داخل الضريح (أقواس، ترتيب الأقبية)، والخالية من كل زخرفة تقريبا، هي من خصائص الهندسة الإسلامية في المنطقة، وتنسب هذه البناية الموسومة بالبساطة والتي يرجع تأريخها إلى القرن التاسع عشر، إلى أحد حكام العرائش.

يوجد بجوار هذا الضريح قبر مؤسس حجر النسر (إبراهيم بن محمد بن القاسم) الذي يتكون فقط من بعض الأحجار المحاطة بسور وحاجز إسمنتي. وبالقرب منه إلى الشمال يوجد مسجد ذو صف وحيد، ومعبر خارجي مكشوف على طول هذا الأخير، لايمكن أن يكون قد أنشئ إلا تحت الحماية الإسبانية. وبعد أن كان مغطى بالقش سنة 1940، أصبح اليوم مغطى بصفائح من القصدير متبعا في ذلك التطور العام للعمران التقليدي بالمنطقة.

29. لقد أخطأ ميشو بلير حينما أشار إلى أن الضريح مغطى بسبع قباب كبيرة في المركز ومحاط بست قباب صغيرة تجتمع في بناية واحدة بابها من الجهة الشرقية.، *op.cit*, p.321 باتريس كريسيي.

2-2-2-القلعـة:

تتكون بناية الحصن القروسطي من مائدة صخرية مائلة في اتجاه الجنوب وتضيق في جزئها الأوسط. وعلى مستوى هذا الأخير الذي يقسم المائدة إلى جزأين متباينين، حفظت بقايا جد متآكلة لكوخ مركزي علوي.

يصل طول المائدة الجنوبية إلى حوالي 100 متر على حوالي 50 متر في العرض، ويتم الوصول إلى طرفها الجنوبي عبر مسلك بين كتل الحجر الرملي، ولا توجد في الجزء الداخلي أية بقايا لبنايات يمكن التعرف عليها، غير أن الصخرة التي تغطي كل المكان تحمل آثار أعمال مقلع، وآثار لأحواض صغيرة أو معالف، متطابقة مع الأشكال المتغيرة جدا لاستغلال المجال.

ويبدو أن السور لم يكن معززا بأبراج، وكان يمتد بمحاذاة حافة الجرف. وبفعل انجراف هذا الأخير وسقوطه في المنحدر، لم يحتفظ إلا بشكل متقطع على صورة أجزاء متآكلة، ويصل قياس أطول جزء في الشمال الغربي إلى 15 مترا، و 1.5 متر كسمك أصلي.

بني هذا الحزام بأحجار ضخمة محلية (حجر رملي، كلس)، ترتب بشكل عرضي في الحائط. وهي غير منتظمة بشكل كبير خصوصا من حيث قدها الذي لا يتجاوز سمك السور.

يتم الدخول إلى الملاذ المركزي انطلاقا من المصطبة الأولى عبر درج ضيق غير منتظم ومنحوت في الصخر، بعد قاعة أولى صغيرة مربعة الشكل ومجهزة بمنبل موجه نحو الغرب.

تبدو المنطقة المركزية أنها جمعت بين بناية كبيرة مستطيلة الشكل من الشرق إلى الغرب (عرضها أكثر من 8 أمتار)، لكنها لا تظهر اليوم إلا ككتلة ركام مغطاة بالنباتات.

وتوجد مجموعة من القاعات موجهة من الشمال إلى الجنوب، منتظمة على شكل حرف L مقارنة بسابقتها والتي سورها الغربي صخري كذلك. وكانت هذه المجموعة تشغل مساحة تقدر ب 7.50 مترx 19.50 متر. وكان قياس القاعة الجنوبية الوحيدة التي يمكن التعرف عليها يصل إلى 7.30 متر x 6.80 م/7.30 م، ويقدر سمك أسوارها من 1.10 متر إلى 1.20 متر.

وتتوفر المائدة الصخرية الشمالية الأكثر اتساعا بالمقارنة مع المائدة الجنوبية، وعلى مستوى أعلى شيئا ما، على نفس خصائص هذه الأخيرة، إنها مغلقة شمالا بسور.

ولا يمكِّن الانهيار الذي أصابه من تحديد سمكه الأصلي، ويشرف هذا السور على خندق مكون لمنحدرات طبيعية.

بصفة عامة، وعلى مستوى كل البناية، فإن المخلفات نادرة جدا، وتتكون أساسا من قطع خزفية متآكلة جدا، يضاف إليها حتاتة قرمدية في المنطقة المركزية. ولقد كان سطح القرمد النصف دائري على العموم، موضوع دهن وصقل. وبخصوص الخزف فإن الأجزاء الأكثر توافرا تنتمي إلى قطع مصنوعة خزفها غير مزدج،[30] وجعلت المعالجة السطحية الخاصة وطريقة طهيها ملمسها لزجا، وأجزاء القطع المشكلة أو المركبة في المصنع نسبا شبه متساوية. غير أنه يصعب تحديد الأشكال التي تنتمي إليها رغم أن قطع الطبخ تبدو لأول وهلة أكثر وفرة من قطع التخزين. ونجد في الأخير بعض الشقوف ذات دهان طيني لونه أسمر فاتح تذكر بإنتاجات الخلفاء المتأخرين في شبه الجزيرة الإيبيرية.

3-2-2- المحيط

خارج القلعة، المآثر الوحيدة الأخرى هي عبارة عن أسوار مساكن تعرضت للتآكل وكشفتها التعرية من الأسفل والجنوب الشرقي للمائدة الصخرية. وفي غياب تنقيبات فإنه لا يمكن استبعاد كون الأمر يتعلق فقط ببقايا منازل حديثة يرجع تاريخها إلى فترة توسع كبير لقرية دوار الحجر.

30. المزدج من الفخار: هو الذي يتم طلاء إحدى جهتيه أو هما معا بمادة قابلة للتزجج من أجل منع النفاذية التي تعيبه.

في الجنوب الغربي يتم الولوج لضريح سيدي مزوار من دار الراضي عبر طريق مرصوفة ذات أدراج طويلة ومتتالية، والتي قيل عنها بأنها تذكر بطريق رومانية،[31] ولكن يجب ربطها بالطبع بالمرحلة التي كانت فيها زيارة الولي في أوجها.

عند ملاحظة الصور الفتوغرافية الجوية يبدو أن انتظام الأجزاء المحيطة بقريتي دوار الحجر ودوار الراضي لا يتم انطلاقا من الحصن، ولا من منافذه، بل على العكس من ذلك فهو يرتبط بشكل دقيق بتوزيع المنازل نفسه.

2-3 – النتائج المستخلصة من الأبحاث الأركيولوجية

تعتبر مقارنة أطلال وبقايا حجر النسر مع نظيرتها البصرة من الأهمية بمكان. فالبصرة هي المركز الإدريسي الأقرب إلى حجر النسر، وتربطهما علاقات وثيقة.

ويظهر من خلال المقارنة[32] أن الموقعين مختلفين سواء على مستوى موقعهما الطبغرافي أو تنظيم المجال داخلهما وهندستهما المعمارية. فالبصرة كان لها سور مبني بحجارة أصيلة وتتخلله أبراج نصف دائرية، والسور يحيط بمنخفض صغير محصور بتلين (نقدر مساحته بحوالي 30 هكتارا) أقيم عليه سكن يضم مناطق حرفية (تدل عليها بقايا أفران الفخار وآثار إذابة المعادن الخامة)، ويضم خزانات للماء شغلت المكان لأمد طويل.

أما حجر النسر فيوجد به سور مقسم إلى جزأين، مبني بأحجار مربعة الشكل، ولا توجد به أبراج. وهو سور يمتد بمحاذاة مساحة صخرية منحدرة تقدر بحوالي خمسة هكتارات. ويبدو أنه لا يتوفر على آثار للسكن.

هذه إذن «مدينة» لا تكاد تشبه ما يقصد به على العموم بهذا اللفظ. فاعتماد الخصائص التي تميز عادة المدن، يدفع في اتجاه دعم فرضية القلعة من أجل الحماية والمراقبة.

31. Patrice,Cressier *op.cit*, p329.

32. Redman, *op.cit*, p360-362.

وبمقارنة حجر النسر مع بعض القلاع الأندلسية الكبرى،[33] يلاحظ أن هناك نفس درجة الكبر ونفس البنية المعمارية (محاطة بسور، فارغة أو شبه فارغة، نادرا ما يكون بها ملجأ مركزي أو أبراج). كما يتم اللجوء في البناء إلى العناصر الصخرية التي تكون في المتناول نتيجة لقربها من مكان البناء.

قد نستغرب أن حجر النسر كقلعة للاحتماء لا يحتفظ بأية بنية لتخزين الماء والمؤن. وقد نستغرب أيضا أنه لم يخلق تأثيرا واضحا على المجال المحيط به رغم توفره على جميع المواصفات الشكلية للحصن الأندلسي.

لكن يمكننا أن نفسر مثلا غياب الأبراج[34] بما كانت توفره الحافات والخوانق المميزة لمنطقة حجر النسر من حصانة وحماية، سيما الخانق الذي يجري فيه واد صاف الحمام، أحد روافد واد المخازن. وغياب بنية لتخزين الماء يمكن تفسيرها بكون مياه عين القرمود التي تجري عند الحافة الشمالية من القلعة هي مصدر تزويد القلعة بالمياه، إلى جانب عين الطلبة وعين دار الغشام المتدفقتين بالشمال الغربي من القلعة. كما أن هناك أربعة منابع أخرى موزعة على المنحدر المؤدي إلى دوار عين الراضي. ففي ظل غنى المنطقة بالمياه يتم استبعاد إقامة بنية لتخزينها.

أما غياب المطامير، فحجر النسر لم يكن مدينة آهلة تتوفر على ساكنة كبيرة العدد، ومقيمة بشكل مستمر، لتحتاج إلى بنية لتخزين المؤن. فحجر النسر[35]كان قلعة يتحصن بها الحاكم الإدريسي بأهله وكنوزه وقوته وقت الشدة. وكانت وظيفته الأساسية مزدوجة، وهي المراقبة والحماية. ودور المراقبة كان موجها للغرب من شبه الجزيرة الطنجية.

والخلاصة التي يمكن استنتاجها من خلال مقارنة حجر النسر بالحصون الأندلسية، هي أن حجر النسر لم يكن حصنا،[36] بل كان أكثر تواضعا وبساطة مما توحي به المصادر المكتوبة. أما سور حجر النسر، فطريقة بنائه تثير إمكانية انتقال لليد العاملة أو الخبرة

---

33. Bazzana, Cressier, Guichard, *op.cit*, p69.

34. حسن الفكيكي، «ن. م. س»، **معلمة المغرب**، ص. 33ـ33.

35. **نفسه**، ص. 33ـ31.

36. Cressier, *op.cit*, p332

المعمارية من الأندلس، وكذلك إمكانية الحفاظ على العادات القديمة التي تعود إلى ما قبل الإسلام في البناء.[37]

وفيما يتعلق بالمواد الفخارية، فإنها تؤكد قصر مدة حياة حجر النسر. إذ أن القطع المحصل عليها تندرج بشكل خاص في إطار ما هو معروف بإنتاجات القرن العاشر في الغرب المتوسطي. ووجود قطع فخارية غير مطلاة بالدهان تشير من خلال مواصفات طهيها إلى وجود ورشات خاصة بحجر النسر.[38]

استنتاجات أولية:

إن الرصد الأركيولوجي الرصين والمقرون بالقراءة النقدية للمصادر المكتوبة التي اهتمت بحجر النسر، لمن شأنها أن تجدد بشكل ملموس الصورة التي أعطتها هذه المصادر إلى يومنا هذا لآخر المنشآت الإدريسية.[39] فإلى جانب المهمة السلطوية لقلعة حجر النسر، كانت تعتبر ملاذا ومركزا لمراقبة الشبكة الكثيفة للمدن بشبه الجزيرة الطنجية، وكذلك المحاور الطرقية التي تخترقها من الشمال إلى الجنوب. لكنها تبقى في نظر معاصريها « مدينة » رغم أنها لا تتوفر على أية خاصية من المواصفات التي تميز عادة هذا المفهوم.[40]

إن الدور التاريخي الأساسي الذي لعبته حجر النسر طيلة القرن الرابع الهجري/ 10م يتناسب مع تواضع أبعاد المبنى وبساطة مواد البناء. غير أن البنية والتقسيم الهندسي تأثر بشكل واضح بالعلاقات الإدرسية الأندلسية.

اختلفت المصادر التاريخية المكتوبة في تحديد موقعها، وكان التحديد الذي وضعه البكري الأكثر دقة في تسهيل الوصول إليها. وتؤكد المصادر أن أول اتصال إدريسي بحجر النسر كان في عهد حيدرة علي بن محمد بن إدريس الثاني (221 هـ - 234 هـ/837م – 851م) إذ لجأ إليه ابنه أحمد مزوار واعتكف فيه للتعبد.

37. نفسه.

38. نفسه.

39. نفسه، ص. 333.

40. نفسه.

حددت تنقيبات برنامج «كازا دي فيلاسكيث» بإشراف باتريس كريسيي سنة 1993 الموقع الدقيق لحجر النسر، إذ يتم الوصول إلى قلعته بعد قطع 30 كلم عبر طريق وعر منحرف نحو قرية تولا السوماتية بعد الدخول في الطريق المؤدي إلى ضريح عبد السلام بن مشيش من جنوب جبل الحبيب.

كشفت نتائج البحث الأركيولوجي لسنة 1993 والذي كان رصدا أركيولوجيا قام بمسح سطحي لموقع حجر النسر، عن عدة نتائج أهمها: أن حجر النسر لم يكن مدينة مثلما تذكر المصادر، بل كان قلعة يتحصن بها الحكام الأدارسة بأهلهم وكنوزهم وقوتهم في الشدائد، كما أنها لم تكن حصنا كما هو متعارف عليه، بل كانت متواضعة وبسيطة في بنائها.

كشف الرصد الأركيولوجي تهافت المؤرخين في الحديث عن حجر النسر، إذ أن معلوماتهم كانت مبالغة كثيرا في ذكر مناعة وحصانة الموقع.



حجر النسر ضمن الحواضر الإدريسية بشبه الجزيرة الطنجية(من خلال ابن حوقل)

المصــدر:

- Cressier, Patrice, El Boujday Abdelatif et autres, « Hagar al- Nasr, « Capitale » idrisside du Maroc Septentrional : Archéologie et Histoire (IVè H/X ap.J-C), in «Genèse de la ville islamique en al- Andalus et au Maghreb occidental », actes recueillis et préparés par Patrice Cressier et Mercedes Garcia- Arenal, Casa de Velazquez, Madrid 1998, 308 »

ملحوظة: المدن الموجودة بين قوسين غير واردة عند ابن حوقل

البيبليوغرافيــا:

المصــادر:

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1973.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي، **صورة الأرض**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1965.

ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، تحقيق عبد الرحمان علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965.

ابن خلدون، عبد الرحمان، تاريخ ابن خلدون، **ضبط المتن الأستاذ خليل سعادة**، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، لبنان، 1981، الطبعة الأولى، الجزء السادس.

ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980، الجزء الثاني.

أبو عبد الله، المعروف بالشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشر دار الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، الجزء الأول.

البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز، **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفر وأندري فيري، تونس، 1992.

الرهوني أبو العباس أحمد، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق د.جعفر بن الحاج السلمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، جمعية تطاون أسمير، تطوان، 1998، الطبعة الأولى، الجزء الأول.

المقديسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبع ليدن، مطبعة بريل، 1906، الطبعة الثانية.

مجهول، **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث والدراسات العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد،1996.

المراجــع:

الفگيگي حسن، **معلمة المغرب**، مادة «حجر النسر»، 1998، العدد 10.

علاش صباح، **غمارة/ الريف في مرحلة الصراع الفاطمي(العبيدي)**- الأموي (الأندلسي) من 296هـ/ 909م إلى 476هـ/ 1083م، رسالة جامعية لنيل الدكتوراه، تخصص التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية2004-2003، (مرقونة).

Bazana, A. Cressier, P. Ghichard, P. *Les châteaux ruraux d'al Andaluses, Histoire et Archéologie des Husun de Sud –Est de l'Espagne*. Madrid, 1998.

Bellaire, Michaux, «Quelques tribus de Montagnes de la région du Habt», *Archives Marocaines*, Volume 17, E Leroux 1911.

Cressier, Patrice, El Boujday Abdelatif, El Figuigui Hassan et Zunz Jacques Vignet, Hagar al–Nasr, «Capitale» idrisside du Maroc Septentrional: Archéologie et Histoire, in *Genèse de la ville islamique en al Andalus et au Maghreb occidental*, Casa de Velázquez, CSIC. Madrid, 1998.

Figueras, Tomas, García. *Marruecos*. Edición F. E. Madrid, 1949

Moulieras, Auguste. *Le Maroc inconnu*, Maroc septentrional. Paris, 1895. Tome I.

Redman CH. «Survey and text excavation of six medieval islamic sites in northen Morroco». *Bulletin d'Archéologie marocaine*, 1984-1986. Tome XV.

Salman, Gean. «Ibn Rahmoun et les généalogies chérifiennes». *Archives Marocaines*, 1905. Tome III.

ترجمـــــــات

بحث وطني حول السكنى القروية بالمغرب
لجون هينسينس صيف 1970[1]

ترجمة عبد العالي المراني
أستاذ باحث في المعجميات والترجمة

قام مركز الدراسات والأبحاث والتكوين (CERF) ببحث حول السكنى القروية التي تُبنى ذاتيا، على الصعيد الوطني صيف 1970 - مديرية التعمير والسكنى، بمساعدة طلبة من كلية الآداب بالرباط (الجغرافيا والسوسيولوجيا) وطلبة مغاربة يدرسون بالخارج، وكذا بعض الطلبة في الهندسة المعمارية الفرنسيين الذين يقومون بتدريب بالمغرب. وقد قدم هذا البحث مجموعة من المعلومات لم يتم بعد استغلالها استغلالا كاملا. ونحن نقدم هنا جانبين يتعلقان بالسكنى: جانب يتعلق بالنمذجة تم وضعه وفق معيار دوام السكن، والآخر يتعلق بالهوية الثقافية-الاجتماعية لهذا السكن. وهذه المعلومات الموضَّحة للتصاميم والخرائط متوفرة في هذا المركز.

تَمَثَّل الهدف العام من هذا البحث في وضع مقاربة تصنيفية للسكنى القروية التقليدية الحية، القديمة والحديثة، التي تُبنى ذاتيا وبكيفية تلقائية، وقد تمت دراسة السكنى القروية على هذا النحو في مستوياتها المختلفة للمجموعات السوسيو- اقتصادية: على مستويات السكنى والقرية أو التجمع السكني والمنطقة القروية المحلية والإقليم المتجانس. واعتمدت منهجية البحث على الاختيار المُعَقْلن للعينات التي أُخِذت على

1. Jean Hensens «Enquête nationale sur l'habitat rural traditionnal au Maroc», été 1970. In *Bulletin Economique et Social au Maroc*, pp: 99-115.

مستويات مختلفة من التجمعات السكنية، وسعينا بكامل جهدنا إلى البحث بالملاحظة الموضوعية، حيث لم نكن نسأل الساكن إلا عن معلومات مكمَّمة. ويتضمن هذا التسجيل الموضوعي، الذي قامت به فِرق متعددة الاختصاصات تتكون من مختصين في الهندسة المعمارية والجغرافيا والسوسيولوجيا انطلقت في العمل ميدانيا لمدة شهر، على العناصر المفاهيمية والتكنولوجية، الاقتصادية والاجتماعية، التي من شأنها أن تكشف عن الهوية الثقافية لمجموعات السكن القروي التي تم إنشاؤها بحرية. ولا بد من شكر الطلبة الذين قاموا بالبحث وكذا أساتذة جامعة الرباط الذين اهتموا به وهما: الأستاذ الخطيبي والأستاذ الناصري.

المساكن القروية ـ مفهوم السكن

ما نقدمه في ما يلي هو محاولة لمقاربة مفهوم السكن في العالم القروي التقليدي. ويحمل هذا التحليل في طياته ثغرات ونقائص ملازمة لنمط مقاربة الموضوع. فهو يحاول، بوسائله الخاصة، الشروع في تقديم جواب، أو إثارته، عن أسئلة مُلحة تتعلق بالهوية الثقافية للمشهد المبني التي يطرحها اليوم اختصاصيون مسئولون عن السكنى. وهو يتأتّى من تجربة مهنية ويعتمد على عدد معين من العناصر، القابلة للتكميم وغير القابلة له، تم جمعها بواسطة بحث الملاحظة التي أنجزها في الوسط القروي طلبة ينتمون لتخصصات مختلفة بتوجيه من مركز الدراسات والأبحاث والتكوين، سنة 1970. ولا يتم هنا تناول هذا البحث إلا من زاوية السكنى على المستوى الصغير لمجموعة التساكن، بالنسبة للسكنى القروية التي تُبنى تلقائيا. وتم تفضيل اختيار الوسط القروي لأن التقاليد يتم الاحتفاظ بها مدة أطول مما يتم الاحتفاظ بها في الوسط الحضري.

احترسنا قدر الإمكان من عدم السقوط في بحث جامد أو بدون منفعة حالية. وعلى هذا النحو، تم التركيز في بحثنا على هوية السكنى، أي التركيز على ما يوحِّد، أكثر من التركيز على ما يفرّق مختلف الفئات التي وقفنا عليها. وهكذا ستظهر القليل من الأشياء التي يمكنها أن تساهم في إضفاء طابع اصطناعي شبه جهوي للسكنى.

ففي وقت السدود والوحدة الوطنية، ماذا يُمكن أن تصبح الدواوير والمداشير و«لگّصور»[2]وإغرم...الخ إذا لم تكن قد تجمدت؟ إنه السؤال الذي يشغل بالنا.

الفضاء المسكون

على العموم، في المسكن القروي التقليدي، القديم والحديث منه على حد سواء، يبرز شكلان أساسيان من الفضاء المكون للسكن: الغرفة المغطاة ومثيلتها، وهو امتداد مكشوف لتلك الغرفة التي تصبح فِناءً «مْراح» والغرفة هي العنصر الأساسي من الجزء المغطى، وهي عبارة عن مجرد مساحة مستطيلة الشكل مضبوطة تماما. يظهر أنّ هذا الشكل متعدد الاستعمال في الجزء الأكبر من المجال. فمعايير أبعاد هذا الفضاء منتظمة بشكل غريب، وقد بقيت على حالها حتى أيامنا هذه.

مع ذلك، هناك استثناء لهذا الشكل المستطيل للغرفة: إنه التصميم الدائري لـ «النوالة» أو السكن الفرعي القروي الحالي. حيث تظهر «النوالة» الدائرية في مجموع السكن التقليدي باعتبارها أضعف شيء أو ظاهرة ملحقة قد لا يمكن تغيير مكانها في السكن المضبوط المبْنِي بالخرسانة وقد لا يكون تفرعاً عن هذا الأخير. وقد يكون من الممكن مقارنتها بالخيمة العسكرية الدائرية المعروفة بـ «المخزن» التي ظهرت في وقت متأخر أكثر مما يمكن مقارنتها بـ «المبَّاليا» النُّوميدية القديمة التي نتج عنها من الناحية الشكلية الخِباء البربري المعروف بـ «الخيمة» وأكثر مما يمكن مقارنتها أيضا بالسكنى في إفريقيا السوداء. وربما يكون من اللازم مماثلتها بالملحقات الخفيفة التي تكون تابعة أحيانا لسكن مبني بالخرسانة، مثل المطمورات والحمامات، ...؟ ولا نعثر على «النوالة»، لا في الجنوب المغربي ولا في الأشكال القديمة للبيوت المبنية بالخرسانة.

تقابل أشكالَ الغرف المستطيلة بيضاوية الشكل أشكالُ الزرابي الأرضية المغربية التي لا يُجهَلُ أصلها الرعوي. فموضع الأثاث المتنقل للرعاة الرُّحل تغير كذلك في المسكن

2. القصور «لگّصور» فضاء عمومي مخصص للسكن المشترك في المناطق القروية والصحراوية.

القار. ذلك أن الغرفة المستطيلة تظهر باعتبارها متفرعة عن المسكن البدوي البدائي: مثلها، مستطيلة وتتشكل من فضاء وحيد مغطى عام لوقاية الممتلكات والأسْرة. ولا بد أنها كانت تشكل في بدايتها وحدة للإقامة.

كان الفضاء العائلي للسكن، المتكون من غرفة مغطاة ومما يحيط بها، عند الإقامة في مسكن قار، أكثر هشاشة من السكن المتحرك. وكان من الضروري نتيجة لذلك أن ينتظم من أجل تحقيق الدفاع المحصَّن، وأن يتجمع في تشكيلات متراصة من الغرف، في وحدات الزوجية المتعددة، أو جماعية مستقلة تشكل «مربعا» بالمعنى العسكري للكلمة. ويستقر «الدوار» المترحل، الذي هو عبارة عن عائلة بطريكية موزعة إلى وحدات سكن صغيرة في مجال الرعي، يستقر في فضاء ضيق للإقامة المستقرة من أجل ممارسة أنشطة جديدة مُستقرة. وبعد ذلك، تتجمع تلك الدور بدورها على شكل تجمعات سكنية متراصة يُطلَق عليها دائما اسم «دوار». ويتميّز الشكل الانطوائي من تصميم البيت ذي الصحن «لَمْراح» أو بالأحرى تصميم السور الحامي، يميز أي مجال مبني في أرض الإسلام. وهو شكل يجد تفسيره، بالنسبة لأي بناء ثابت بوجود بيئة عدائية، فتلك كانت بالتأكيد حالة السكن المستقر العتيق.

على هذا النحو انتظم الفضاء الجديد المبني، بالنسبة لأنشطته القارة الجديدة على مستويَيْ التجمع اللذين كان يضمهما: مستوى غرفة الزوجية ومستوى البيت الأبوي. وقد أثر توسيع وحدات التساكن بدون شك على المفهوم العائلي. ذلك أن الاستقلال الذاتي النسبي لوحدة الزوجية المطلوب في حياة الترحال تطور بشكل غير متكافئ بما فيه الكفاية في حياة الاستقرار. وقد اختفى ذلك الاستقلال الذاتي النسبي من الجنوب لكنه ظل قائما في بعض المناطق من الشمال. حيث تقوم فردانية غرفة السكن شاهدا على حالة الأشياء هذه.

بالجنوب، حيث استمرت إمكانية القيام بالوظائف المنزلية المتنقلة مدة طويلة في فضاء مكشوف، ظلت الغرفة بسيطة وعارية قابلة للتبادل حسب الرغبة وبدون تخصص.

وبدون شك، فإن النفوذ الأبوي كانت فيه السلطة الأبوية قوية للغاية. فالمخزونات جماعية وحراسة الماشية تتم بكيفية جماعية على مستوى البيت وعلى مستوى القرية. وفي الشمال، في بعض الأجزاء من الريف، تنطلق فردانية الممتلكات من الغرفة أو من أسرة الزوجية. فغرفة الزوجية مخصوصة للزوجين فقط، بل ونجد فوق فضاء صغير من المجال صيغتين مختلفتين لمثل هذا التخصيص: الأولى حيث تتعقد غرفة الزوجية من خلال تفككها إلى عدة وظائف خاصة، تنقسم بدورها في الطول وفي العلو (الريف الأوسط)، والثانية حيث تتفرع سُمْكا بضم غرفة انتظار.

وبدون شك، فإن هذه الاختلافات المهمة في تصميم غرفة الزوجية حدثت تحت تأثير الظروف المناخية للمكان، لكن يمكن أن تكون قد حدثت أيضا بفعل تأثيرات أو تطورات مواتية. وهذه الأصناف الخاصة من الغرف توجد في غالب الأحيان في المغرب الكبير بأكمله في مواقع مختلفة للغاية. ومن شأن تحديد مواقعها وتطور أصنافها أن يُمكِّن من إعادة تشكيل وحدات إثنية تاريخية، ومن وضع خرائط تاريخية للسكنى. غير أن هذا العمل لا يدخل في نطاق انشغالاتنا بالرغم من أننا قد نتوفر على مادة لتغذيته.

إذا ما نحن لاحظنا بعض الخصوصيات التفصيلية في مورفولوجيا الغرفة، فإننا نجد في مقابل ذلك تجانسا كبيرا لمفهوم المسكن القار على مستوى تجمع تلك الغرف. وتصميم الصحن يستعمل في المغرب القروي بأكمله، في السكن التقليدي القديم والحديث على حد سواء، حتى وإن كان ذلك لا يظهر لأول وهلة. وتحدث تغيرات في النموذج من حيث تقلصه وتمدده لأسباب تتعلق بالتنظيم الجماعي وبالمناخ. وهي تحدث أيضا في مراحل تطور البيت. وفي السكن الحديث، تعقِّد التغيرات المرتبطة بالجانب الاقتصادي والكلفة سيرورة التطور. وفي كل الحالات، يستغرق إنجاز النموذج بعض الوقت، فهو يتطور خلال مدة تطول أو تقصر، ونظامه قابل للتحول. وقد وصل هذا التطور إلى نهايته بسرعة بالنسبة للسكن القديم، وهو أطول بكثير بالنسبة للسكن الحديث بسبب تنظيم أقل مرونة. وفي الوقت الحالي، كثيرا ما يتعرض تطور البيت للتوقف منذ البداية، الشيء

الذي ينتج عنه سكن قروي ضعيف. كما نجد أن السكن العتيق، الذي بقي على حاله مدة طويلة، أصبح اليوم سكنا ضعيفا. وسيخضع هذا الجمود لتأثير نماذج أجنبية.

يفرض تقلص التصميم ذي الصحن البناءَ العلوي وتوزيع مهام مسكن في البعد الثالث. وفي غالب الأحيان إذن، يحل السطح محل الصحن. وقد يصل تقلص الصحن في بعض المناطق الثلجية بوسط الأطلس الكبير إلى حذف الصحن المركزي. وفي بعض الأماكن الأخرى، لن ينفتح هذا الصحن رأسيا وإنما أفقيا. وفي السكن الحديث، حيث تُنقل هذه الأصناف بكيفية صائبة إلى حد ما، تتم ملاءمة التقنيات ومواد البناء مع ما هو راهن.

ظلت الحاجة المتوارثة أبا عن جد إلى فضاء لا متناهي وامتداد السماء والأفق والحاجة إلى الهواء راسخة في السكن القار. ذلك أن استعمال السطوح واختيار النقط العالية أو المنحدرات الحادة هي أمور تستجيب لهذه الضرورة الفيزيولوجية التي تتدخل في مورفولوجيا السكنى، خصوصا عندما يكون مركّزا كما هو الحال في «گصَر» أو في مدينة عتيقة. فالمدينة العتيقة توفق ما بين أكبر اختلاط جماعي وحد أقصى من الانطواء الفردي.

يجب أن نسجل أنه إذا كان البيت العتيق متعدد الزوجات فإنه لم يكن أبدا، من الناحية العملية، متعدد الأُسَر. فعلى مستوى عدة عائلات أبوية مُجتمعة، كان المرور يتم إلى مجموعة بيوت يفضي بعضها إلى البعض الآخر في غالب الأحيان، بالدشر أو بـ «العضْم»، بالعائلة ذات القرابة العصبية. ذلك أن مفهوم الأسرة المتفرعة للبيوت هو فعل حديث وحضري، بالنسبة للسكنى المعتادة. وهو مفهوم لم يبلُغْ بعْدُ حقيقةً العالمَ القروي. فهو يرتبط بالمضاربة وبتأثير النماذج الأوروبية.

تُفْضي دراسة متأنية للسكنى إلى إرجاع الدور الذي يُعطَى عادة لتحديد الأشكال المسكونة إلى نِسَبه الحقيقية وإلى الجغرافيا: إلى الطبيعة والمناخ وإلى الموارد المادية. ولن تمَثِّل كل هذه المواد أبدا شيئا آخر سوى ما كان الناس قادرين على أن يعملوه بها. والأمور

الحاسمة في السكنى هي بالتالي في مستوى العلاقات التي تقيمها مجموعة بشرية خاصة مع محيطها الطبيعي للانتقاء. فالسكنى تَنتُج، هي وأي عمل بشري آخر، عن انتصارات على الدينامية الطبيعية للوسط يتم الحصول عليها بالوسائل البشرية للمجموعة، ويتم ذلك، منذ القديم، في إطار احترام الطبيعة التي تمت السيطرة عليها. ذلك أن السكنى رهينة بالحالة الثقافية للمجموعة أكثر من ارتباطها بمستوى نموها [المجموعة]. وهو أمر يتجلى بوضوح في استمرارية تصاميم وأنماط السكنى على امتداد فترات تاريخية طويلة، بالرغم من اختلافات أصناف المناخ والمواقع التي تكون بعيدة للغاية في بعض الأحيان، في نفس الفضاء الثقافي. ويتم ذلك في نفس الوقت الذي تتطور فيه تقنيات البناء والمواد وعناصر الراحة ووسائل الإنتاج أو تتغير كليّاً. فالرمزية الحاضرة في المسكن تمثل دوام الحضارات، وهي تختفي مع الشخصية الثقافية للسكان.

تشكل الأرض مستوى العمل والأنشطة المنزلية المعتادة، في السكن التقليدي. ويرتبط الأثاث والهندسة المعمارية ارتباطا وثيقا بسلوك الناس. حيث تكون الطاولات والمِدَكّات والمواعين منخفضة. والبُورِيات والزرابي والأرائك تغطي الأرض، ووحده السرير يكون أحيانا في وضع مرتفع لحماية النائم. وهناك بلدان مثل اليابان، انتقلت فيها هذه الوقائع الثقافية إلى الهندسة المعمارية الحديثة وهي دائما مُشخْصنة.

ليست الغرفة ومجموعة الغرف التي تشكل ما هو أساسي في الفضاء المُغطَّى للمسكن القروي، ليست هي الفضاء الوحيد المسكون البارز. فالفضاء غير المغطى المحيط، المغلق أو غير المغلق، يتدخل في مفهوم السكن، على الأقل بنفس الأهمية التي تكتسيها الغرفة المغطاة. حيث يُضاف إلى المرافق التي تشكل الامتداد الطبيعي للبيت والتي يمكن أن تظل موجودة في حالة التجمع السكني المتراص. ويُضاف كذلك إلى الفضاء الوسيط الذي يميز الانتقال من الملك الخاص إلى الملك العمومي.

تشكل المرافق المباشرة للخيمة جزءً من المسكن. وقد اندمج هذا الفضاء العائلي غير المغطى في المسكن القار. حيث يتم فيه القيام بالأشغال المنزلية والمهنية وتُدخل إليه البهائم والمواد والأدوات. وفيه تُشيَّد الملاحق المنفعية للبيت. ولحجرة الزوج والزوجة

الوحيدة سور خاص. ويتم تدريجيا إدراج بعض هذه الوظائف الخارجية المنزلية في الفضاء المغطى، حيث يؤدي ذلك إلى تخصص الغرف.

السور هو أول فعل لِتمَلُّك الفضاء العائلي. فيه نجد على الصعيد الفردي المفهوم القديم للـ «الحَرَم»، أي المجال المقدس الذي ينتقل من الفرد إلى الجماعة الأسرية: حق المواطنة. وتشكل «الزريبات» وأسوار السياج جزءً من المشهد القروي التقليدي. وكل بناء هو عبارة عن نطاق محدد، حتى ولو لم تكن الحدود ظاهرة أو مجسَّدة. فهناك سلسلة من المسافات التي يجب اختراقها داخل نفس المجال للانتقال من وضع إلى آخر. والأمر مماثل لذلك بالنسبة للبيت: مجال عمومي ومجال وسيط ومجال عائلي ومجال النساء. فقد كان لكل قرية في الماضي «حَرمُها» الخارجي الذي يتجاوز حدود التجمع السكني، وذلك بالقيام، على سبيل المبادرة إلى الخدمة، بإدخال الفضاءات الضرورية لعمليات التطوّر اللاحقة. ودائرة التجمع السكني ليست شيئا جديدا. وقد كان للقرية أيضا «حَرمُها» الداخلي الخاص على غرار «حريم» البيت. ذلك أن السور أو المِتْراس لا يشكلان سوى واحد من الحدود المحدِّدة لقلب بناء أو علته الكبرى كتجمع سكني.

حدد نمطُ التجمعِ، حَلَقِيِّ الشكل، للغرف المسوَّرة مجالا مكشوفا مركزيا خاصا، وساحة داخلية أو صحنا، ذوي وظائف جماعية مؤكدة. إنه فضاء لقاءات وعلاقات أهل البيت بامتياز، ما يعادل «القاعة المشتركة» أو «الصالون» في البيوت الأوروبية. فهو أكثر من ساحةِ ضيعةٍ بالرغم من أنه يؤدي أيضا هذه الوظيفة وكذا وظيفة المطبخ والحمامات. إنه قلب البيت حيث تتقارب كل العلاقات العائلية. وتظهر الغرفة المغطاة المواجِهة للساحة بمثابة مَعْزل، أو مَلاذٍ فردي.

في الساحة المشتركة، تُشيَّد أو تقام عموما التجهيزات المشتركة للبيت، مثل الحمام ومخزن الحبوب والفرّان والبئر والمرحاض،...الخ وبعض الملحقات البسيطة المعدة للكلإ والبهائم والوقود، الخ. وهذه الملاحق تقوم بدور الإسطبل وتخزين التبن والمزْرب والهُرْي أفضت إلى شَغْل غرف البيت التي أدى تعدد استعمالاتها إلى هذا التحول في الوظيفة.

وفي مناطق الريف، في البيوت ذات الغرف أحادية الزوجة، تم تخصيص عدد معين من هذه التجهيزات وتوزيعها على مختلف الغرف: حمام، مخزن الحبوب، مطحنة، إسطبل، كلأ. ومع ذلك ظل البعض من هذه التجهيزات مشتركا في الساحة. وغالبا ما تستعمل إضافاتُ البيوت ذات مخابئَ للغلال وأماكن للنشر والتجفيف وأهرية... وفي مناطق البيوت ذات السطوح، تعتبر الأرض الثانية المكشوفة للمخبأ امتدادا طبيعيا للساحة، وتستعمل مكانا للسكن بكثرة. وفي بيوت الجنوب الضيقة الطويلة، يُستخدم السطح الذي يرتفع عن الأرض الطبيعية بـ 8 إلى 10 أمتار ساحة داخلية تقام فيها الأفران ومخازن الحبوب، بل وحتى لإيواء الماشية وتغذيتها.

بعتبة البيت، انتظمت وتطورت الوظائف الوسيطة بين الحميمية العائلية المحمية بقوة والجوار الخارجي الذي يتم استقباله بكامل المودة والترحاب في الحدود المضبوطة للفضاء المخصص لذلك. وما زالت الزريبة وغرفة استقبال الضيف أو الرجال في البيت القروي ليومنا هذا توجد في غالب الأحيان في باحة الاتصال هذه بين العائلة والمجتمع. وقد أدى مدخل القرية المجمَّع العتيق نفس الدور إزاء الأجنبي. وفي أيامنا هذه، يمتد التطور الاجتماعي حتى يصل إلى الفرد في ما يخص هذه الحدود القديمة بين العمومي والخصوصي، ويُقصي نتيجة لذلك الهياكل القديمة للمجموعة والأشكال التي كانت تبررها دون تعويضها بأخرى مندمجة اجتماعيا.

تتطور الأسرة القروية العادية الحالية بسرعة نحو الشكل أحادي الزواج. فالهجرة بالوسط العتيق كما هو الشأن بالنسبة لعقد مقاولات التحديث القروي تسرِّع هذا التطور. ومنجزات السكن الاقتصادي الموجَّهة تُصمَّم عادة للأسر الصغيرة. فقد أصبحت مساحات البيت العتيق كبيرة أكثر من اللازم وغير ملائمة. وتفكيك بنية المجموعات الكبرى يُحدِث من جهة أخرى انتشارا للسكان لا يتلاءم مع الرفع الأمثل لمردودية الأراضي الفلاحية، وللتجهيزات الاقتصادية- الاجتماعية للسكن. وهكذا تجمعت اليوم عدة شروط لطفرة مفهوم السكن في غالبية وحدات السكن القروي. وقد تمت المحافظة هناك على مبدإ التصميم ذي الصحن مع أن أغلب الأسر في السكن الحديث هي أسر

صغيرة. بيد أن مقدمات الطفرة تظهر، مع ذلك، في بعض أماكن السكن المنفصل أو المشتت. ومسلسل طفرة التصميم هو التالي: الغُرف مفتوحة على الخارج، ويتقلص الصحن المغطى ليصبح ممرا. كما يصبح البيت موجها إلى الخارج ومحتاجا إلى مجالات خارجية تعوض فقدان الصحن. فيصبح المسكن القروي على هذا النحو معزولا ومحددا، إنها صورة لتحُّول العالم.

الفعل البارز في السكن القروي الحالي للعدد الأكبر هو تأكيد الميل إلى انقسام التجمعات القروية وإلى تقليص حجم الأسرة كوحدة عمل أولية. فالتفكيك يؤثر على كل المجموعات الاجتماعية المتشكلة. وما يزال تفكك السكن غير متساو، يتجلى على الخصوص في قطاعات متباعدة كمناطق استقرار المنتجعين وكذا ضواحي كبريات المراكز الحضرية وفي القطاعات القروية للاقتصاد «العصري». ولا يفسِّر النمو الديموغرافي المتسارع بمفرده هذه الظاهرة. ذلك أنها تترتب أيضا في جزء لا يستهان به عن فقدان تماسك المجموعات الاجتماعية ذات الوظائف المعتادة في العُرف، وهو فقدان ناجم عن معوقات حالت دون تحويلها إلى العالم الحديث عبر تطور مستمر. ولا يمكن تفسير التخلي عن قُرى قديمة بدلا من تحويلها إلا بهذه الكيفية.

في ما يتعلق بالأسرة أو المسكن، اللذيْن لا يمكن أن نلاحظهما بمعزل عن شكلهما المتمثل في تجمع أوسع، من دون أن يُفقد جزء مهم من دلالتهما، ودوام المفهوم الثقافي لفعل السكن، خلال التاريخ حتى أيامنا هذه هو أمر جدير بالملاحظة. فهذا المفهوم تلاءم دائما مع الوضعيات الجديدة. ذلك أن ملاحظة تصاميم البيوت القديمة تبين أن مجموع الفضاء القروي ينتمي إلى مجال واحد هو نفس المجال الثقافي الذي ساد دائما في ما مضى إلى جانب الروافد الثقافية الخارجية. وقد نتج عن ذلك أن السكن في أيامنا هذه صار مهددا وصار المجتمع مهزوزا. فما حدث في الخمسين سنة الأخيرة في المجال الحضري ومجال التعمير والهندسة المعمارية يُهيَّأ الآن في المجال القروي. إذ أن هناك عالماً آخر يدخل في المنافسة مع العالم التقليدي.

II. تصنيف المسكن – خفيف/صلب

1- خـفـيـف

يلاحَظ وجود ثلاثة أصناف من السكن الخفيف في الوسط القروي بالمغرب.

1.أ- سكن متنقل للرعاة المنتجعين أو الرحَّل؛

1.ب- سكن هش مؤقت ثابت: للانتجاع أو للحرث؛

1.ت- سكن هش دائم ثابت: سكن ضعيف قروي.

1.أ- السكن المتنقل

التمييز الأول الكبير الذي يظهر في السكن القروي هو تمييز يفرق بين السكن القار والسكن المتنقل، المُزارع والراعي أو المستقر والمتنقل. وفي السكن المتنقل، نفرق بين المتنقل المؤقت والمتنقل الدائم، أي المنتجِع والمترحل. وقد سبق ذكر تطور الترحال إلى الانتجاع. وما يزال السكن المتنقل في صيغته العتيقة التقليدية من الناحية الوظيفية معمولا به في المغرب، بالمغرب الشرقي والأطلس المتوسط والهضبة الوسطى، بالنسبة للانتجاع، في الصحراء، وخاصة في إقليم طرفاية بالنسبة للترحال. وفي الوقت الذي نجد فيه أن الانتجاع الموسمي يرتبط بالسكن القار والصلب، نجد على العكس من ذلك أن الترحال الكبير ليس كذلك. وتتجه السيرورة التاريخية لتطور السكن المتنقل نحو تقليص تدريجي لمجالات الرعي، مما يؤدي إلى استقرار السكان، الشيء الذي صار لا يبرر الطابع الخفيف للسكن. وفي حالة ما إذا لم يتم تحديث الأنشطة الرعوية، فإن هذه الأخيرة ستندثر، وتترك المجال لأنشطة أخرى تسمح بها الموارد المحلية في إطار حقل نشاط أضيق.

في المغرب الأوسط، يحدث هذا التحول الآن، ويتجلى من خلال توسيع الزراعة في البور. وبالصحراء، في مقابل ذلك، حيث تقل الموارد من أجل القيام بتحويل تلك الأنشطة، يمكن أن تسير الأمور نحو اندثارها ومغادرة السكان للمنطقة.

بالمغرب، ليست هناك صيغة حديثة للسكن المتنقل التقليدي. ويمكن أن نتخيل ذلك على شكل عربات مجرورة أو منازل عصرية قابلة للتفكيك. فهذا السكن ظل عتيقا في مظهره العام في الوقت الذي تتدهور فيه بنياته السوسيو- اقتصادية، والتقنية، وكذا بالنسبة لمواد بنائه.

1.ب- السكن القار المؤقت

هذه الصيغة من السكن الخفيف التقليدي عتيقة مثل الخيمة. فالسكن القار المؤقت يقوم بنفس الدور الذي تقوم به الخيمة في الأنشطة الرعوية، غير أنه أقل قابلية للترحيل.

في النشاط الرعوي، لا يوجد هذا النوع من السكن إلا من أجل الانتجاع. ونجده كذلك في النشاط الفلاحي بالقرب من الزراعات البعيدة عن القرى بمثابة مخبإ مؤقت خلال عمليات الحرث أو الحصاد. إنه سكن قار وموسمي ثانوي، يُبنى بكيفية بسيطة ويتم إصلاحه كل سنة: يتكون من مواد طبيعية خام، حجر وطين وأغصان وتبن، تُبنَى بدون تقنيات متطورة. بل ويكون المخبأ طبيعيا في بعض الأحيان. بيد أن «النوالة» أو الكوخ المبني بالقش في السهول الفلاحية يشكل مع ذلك صنفا أكثر إعدادا من السكن الموسمي العتيق، وهو إعداد تتطلبه بدون شك هشاشة مواد البناء النباتية. ونجد هذا السكن القار البسيط والمؤقت في أعالي الجبل وعلى مسارات الرعاة بالنسبة للأنشطة الرعوية. فالراعي بدون خيمة يلجأ، بدلا من نقل سكنه، إلى مخابئ بسيطة معدة من قبل. وبالأراضي المحروثة، في السهول على وجه الخصوص، لم يعد موجودا تقريبا بشكله المؤقت، حيث تحول في غالب الأحيان إلى سكن دائم ونهائي للعمال الفلاحيين.

لم تتم فهرسة هذا الشكل من السكن الثانوي في هذا البحث الذي تناول بالأساس السكن الدائم أو الرئيسي المعتاد المبني ذاتيا. ومع ذلك، لا يجب استبعاده تماما من تصنيف السكن القروي.

1.ت السكن القار الدائم

تُستعمل الخيمة، مثلها في ذلك مثل الكوخ والملجأ التقليدي القديم عموما، في أيامنا هذه كَسَكَن دائم قار في الأنشطة الفلاحية. وهي الحالة في هذا البحث بالنسبة للخيمة المضافة إلى المساكن، وهي الحالة أيضا بالنسبة للنوالة والكوخ والغالبية الكبرى من السكن الهش في الوسط القروي.

يُصنِّف الانتقال من الشكل المتحرك أو المؤقت إلى الشكل القار الدائم هذه الفئات العتيقة من السكن الخفيف في فئة السكن الهش الحديث من الدرجة الثانية. وهذه الطفرة هي طفرة دالة على تطور السكن القروي المبني ذاتيا بالمغرب، مع اتساع هذه الظاهرة في المناطق التي تشهد تنمية اقتصادية؛ إنها تبين درجة انخراط السكن القروي للعدد الكبير في مسلسل التفقير المادي. وتنضاف إلى هذه الأشكال التقليدية من السكن الخفيف المحرَّفة عن وظيفتها أشكالُ السكن الخفيف أو البسيط الحديثة المترتبة عن العلاقات الاقتصادية-الاجتماعية الجديدة ومواد البناء والتقنيات الجديدة: مدن الصفيح القروية. في هذه الأخيرة تتدخل مواد البناء المتبقية والنفايات الصناعية والمواد الصناعية ضعيفة الجودة الملائمة لإمكانيات ساكنة فقيرة.

توجد أيضا سوق واسعة لمواد بناء مدن الصفيح مصنعة: ورق مقوى مزفت، صفائح رقيقة،... ومصنوعة يدويا: صفائح مضغوطة، صُفيْحات خشبية من علب (صناديق) التلفيف،... السكن القروي الخفيف العصري، أشكال قديمة مؤقتة أصبحت دائمة، ومدن صفيح راجحة في الجزء الشمالي من المغرب على المجال الذي يتضمن خلفية المحور الساحلي الاقتصادي، من طنجة إلى آسفي ممتدا عبر ممر تازة حتى المغرب الشرقي، يمر بهضبة الفوسفاط وتادلة وما قبل الريف وسايس، شاملا الشاوية والغرب. وهذا الشكل من السكن مرتبط بأنماط استغلال «عصرية» فلاحية أو منجمية، على مقربة من مراكز حضرية «عصرية» لمتعهدين يهيئون أنشطة «عصرية» للسكان ويوفرون مواد بناء «عصرية» للمساكن. وهذه الوضعية المفارقة تستحق أن نؤكد عليها.

يبرُز على هذا النحو محور غرب- شرق لتفقير السكن القروي المقابل لمحور تنمية اقتصادية «عصرية» تَعبُر «المغرب النافع» السابق. ويُقابل المجال للسكن القروي الهش القار هذا منطقة استقرار حديثة لمنتجعين محليين ومهاجرين، منطقة تتحدد منذ نصف قرن ونيف في ظروف اتصالات مباشرة مع المقاولات الكبرى الأولى «للتحديث» الاقتصادي للبلد. ولأنه لم توجد مناطق تقليد قوي في مجال السكن القروي المستقر، على غرار الجنوب المغربي أو على غرار الريف، فإن ذلك ساهم بدون شك في تحقيق سريع لهذه الظاهرة.

أدى التغيير الوحيد للوجهة إلى عبور المسافة التي تفصل المسكن الخفيف المؤقت العتيق عن المسكن الخفيف الدائم الحالي أو السكن الحديث ذي الجودة الضعيفة. وبالإمكان أن يتم بسهولة عبور المسافة بين السكن الدائم القديم المبني بالصلب الذي هو قيد الانهيار والسكن الخفيف الدائم الحالي بسهولة أيضا لأن الانهيار ومدن الصفيح أو الكوخ توجد على نفس المستوى المعياري. وقد كان الشكل الهش الدائم غائبا من الناحية العملية عن السكن المستقر القديم؛ وهو يوجد اليوم في بداية السكن المبني بالصلب في المناطق المتقدمة اقتصاديا.

2- الصلب

توجد أربعة أصناف من السكن الصلب في الوسط القروي

2.أ ـ السكن القديم المبني ذاتيا

2.ب ـ السكن الحديث المبني ذاتيا

2.ت ـ السكن الموجَّه (المدار)

2.ث ـ سكن الاستعمار

لا يشكل الصنفان 2ت و2ث موضوع هذا البحث الذي لم يتناول سوى السكن القروي المنتج بكيفية تلقائية، ذي الطابع العام. وقد تمت الإشارة إليهما للذكرى، نظرا للأهمية التي يكتسيانها في مسلسل تطور السكن القروي.

2.أ- السكن القديم المبني ذاتيا

يتعلق الأمر بالسكن التاريخي لاستقرار قديم الذي انتشر انطلاقا من أنْوِيَة تشتت قديمة للغاية. ويحدِّد معيارُ أزيد من خمسين سنة من السن الذي وقع عليه الاختيار وجود هذا السكن في فترة ما قبل الحماية. ويظل التسلسل التاريخي سوسيو- ثقافي متميزا في التقنيات كما في الأشكال، حتى في السهول التي انتشر فيها هذا السكن عند نهاية توسعه المجالي وتطوره الكرونولوجي. وبكيفية عامة بما فيه الكفاية، تم تحديد أصول هذا السكن المبني بكيفية ذاتية، التي تعود إلى أزيد من خمسين سنة، في الجبل - الريف والأطلس المتوسط والكبير والصغير- أو في واحات الجنوب. والتأثيرات القديمة الحضرية المباشرة نادرة في السكن القروي، وهي تتجلى من خلال تفاصيل تقنية: تأثيرات المراكز الدينية أو العسكرية، تأثيرات المدن القديمة، وتأثيرات الساحات التجارية البرتغالية أو الإسبانية. ومع ذلك، بالنسبة لبعض مناطق السهول التي كان يوجد بها في ما مضى سكن مستقر خاص، تم القضاء عليه في ما بعد ـ مثلا في دكالة ـ ما زالت تبرز من هنا وهناك جوانب خاصة من السكن تصعب الإحاطة بها مجاليا وكرونولوجيا لعدم وجود نقط للمقارنة. من جهة أخرى، في الشمال بصفة خاصة، وفي السهول التي شهدت استقرارا حديثا للغاية، انتقل مفهوم سكن الترحال إلى السكن الثابت: مكان وحيد مغطى وبعض الملاحق، وهو يواصل تطوره انطلاقا من هناك نحو المفاهيم المعتادة العادية في السكن المستقر التقليدي للريف أو للأطلس.

أقدم البيوت التقليدية التي ما تزال قيد الاستعمال هي بيوت مبنية حول العائلة الأبوية، موسَّعة إلى حد ما حسب المناطق. وقد تكونت تجمعاتها حول تنظيمات اجتماعية تفوق العائلة الأولية: عشائر، عائلات كبرى أطلقت اسمها على المنطقة، «فَخْدَة». والبيت العتيق هو اليوم أكبر مما هو ضروري. حيث تم تصميمه علاوة على ذلك حسب مبادئ تاريخية للتنظيم، من بينها تلك التي لها علاقة بالدفاع، وقد كانت سائدة. هذه الدفاعات الفردية والجماعية في السكن العتيق المستقر هي أقل إثارة للملاحظة في الريف منها في الأطلس. وهي أيضا ذات أهمية غير متساوية في الأطلس

ذاته حسب درجات الأمن التي توفرها المواقع أو التي تشكلها التجمعات البشرية. وقد تفرع البيت المحصن أو القرية المعْقَل عن المخيم العسكري (الثكنة العسكرية)، في شكله الهجومي وفي شكله الدفاعي على حد سواء. ومع الأمن ودمقرطة الوسط القروي، تميل هذه البنايات الدفاعية إلى الزوال.

يبدو أن السكن القروي الدائم العتيق، الواقع على مستوى محدد من تطوره في سياقه التاريخي المحدد، أنه عبر دائما عن الفائدة الممكنة المستخلصة من الظروف المحلية للوسط الطبيعي ـ موارد طبيعية وظروف مناخية ـ والوسط البشري ـ العقليات والمفاهيم الثقافية، مستوى تنمية المعارف، التقنيات والتنظيمات من أجل الإنتاج والمبادلات. والتقابل الحميمي بين الموارد الطبيعية والوسائل البشرية في حقبة محددة هو ما يثير الاستغراب أكثر في السكن العتيق. ويمكن نقل هذا التقابل بالنسبة لمجموعة ثقافية إلى كل حِقَبِ أو درجات نموه. وهو معرض للخطر بقوة في أيامنا هذه.

ما يزال بالإمكان في أيامنا هذه كشف فضاءات انتشار مختلف أصناف المساكن من النموذج العتيق، لكن ذلك شكل سلفا موضوع بحث تاريخي. ونحن نقترح كذلك تقديم هذا التصنيف دون أن ننسى المآثر التاريخية المستعملة في السكن الذي لم يعد معياريا، يشكل نتيجة لذلك سكنا اعتباطيا، سكنا من المستوى الأسوأ. ومواد البناء المحلية هي عموما نفس المواد بالنسبة للسكن القار القديم، الحجر والطين والخشب والنباتات، لكن تفعيلها يتم حسب تكنولوجيات أكثر إعدادا.

2.ب- السكن الحديث المبني ذاتيا

مفهوما «الحديث» أو «القديم» تَعَسُّفان بالضرورة. ويتمثل الهدف من هذا التحديد التطوري في الكشف عن الشكل الذي اتخذه السكن القروي القديم بكيفية تلقائية تحت تأثير التغيرات التي حدثت في جميع المستويات بالوسط القروي في فترة زمنية مهمة حددناها في خمسين سنة. فالتغيرات المهمة التي حدثت خلال هذه الفترة لم تحدث بنفس الوتيرة ولا بنفس القوة في كل الأماكن. وإذا تطلب الأمر بعض السنوات

لكي تحدِّد معنى تنمية المغرب النافع في ما مضى، فإن الأمر يتطلب المزيد لتوجيه تنمية جديدة في الأطلس الكبير. وقد حدث انقسام القصور والقصبات وقرى عتيقة كان قيد الإعداد منذ زمن طويل.

توجد الأمور في أيامنا هذه في مرحلة صعبة من البحث عن توازن جديد، حيث توجد عمليات التجهيز الاقتصادي العصرية قيد الإنجاز. وفي أعالي الجبل، تم أيضا الشروع في هذا المسلسل المتعلق بتجزيء السكن القروي وتفتيته، لكن ذلك يحدث هنا ببطء أكبر، وأحيانا بدون قطيعة للاستمرارية، وهي ضمانة للحفاظ على التوازن الاجتماعي في عملية التطور. وفي مقابل ذلك، في السهول الأطلسية حيث يتم التحول بحدة أكبر، يتم بصفة خاصة استشعار حركة تجزيء السكن القروي وتفرده. فسحق السكن في المناطق الضاحوية الأطلسية، وتثبيت السكان من خلال تشتيت المنتجعين في أعالي أم الربيع أمور تكتسي دلالة كاشفة في هذا الميل العام إلى تدهور عناصر تماسك المجموعات المتكونة، على مستوى المسئوليات الجماعية القروية التي بدونها يكون من الصعوبة بمكان القيام بالتهيئة الجماعية. فملء هذا الفراغ الهيكلي الاقتصادي-الاجتماعي على مستوى المجموعة القروية يفرض نفسه بقوة في هذه المناطق. وهو أمر يتوجب على الدولة القيام به.

في المناطق القروية الأكثر تطورا، تتضافر تأثيرات حضرية مع تأثيرات قروية تقليدية بالنسبة للمسكن، لكن تظل هذه الأخيرة سائدة بالنسبة لتنظيم البيت، بيت المُزارع وبالنسبة للاستعمالات المنزلية، في حين تتدخل التأثيرات الحضرية الآن بكيفية معتادة في تقنيات البناء والأثاث ورغد العيش، وفي عناصر الراحة النفسية كذلك. كما تتدخل التأثيرات الحضرية أيضا في الجودة المادية وفي كلفة البناء.

يُشكل التفرد الواضح للمسكن القروي، أو انفصاله عن المجموعة الاجتماعية، عاملا فاعلا لعدم تجانس السكن القروي. ويُفْضي إضعاف الوحدة الاجتماعية الأساسية التي تشكلها الأسرة إلى مضاعفة عدد المساكن، وبنفس القدر يتفاقم المسلسل الذي يذيب وينخر الجسم الاجتماعي. ويساهم كذلك التزايد السكاني وعلاقات الإنتاج والوضع

القانوني للأراضي في تشتيت السكن القروي. من المناسب أن نضيف إلى هذا الميل نحو التشتت ميلا آخر عام إلى تشتت وظائف السكن في الأرض، وهي التي كانت توجد في ما مضى في غالب الأحيان فوق بعضها البعض، خاصة في الجنوب.

خصائص السكن القروي الحديث التلقائي هذه ظاهرة بارزة إلى حد ما، عندما نقترب أو نبتعد من الأقطاب النشيطة في الاقتصاد الذي يسمى «عصريا»، وحسب ما إذا كنا أمام استقرار أشخاص رُحّل، أو مستقرين حديثا، أو سكان تم القضاء على بنيتهم اجتماعيا، أو كنا أمام أشخاص مستقرين قدامى.

ما زالت التقنيات القديمة هي المفضلة دائما في السكن القروي الحالي، البعيد عن مراكز نشر المنتوجات والمفاهيم الجديدة، لكن تم إفقارها نتيجة التحولات الاقتصادية-الاجتماعية. والمنتوجات الجديدة تُوقف التقدم التكنولوجي للمنتوجات المحلية التي تنافسها وتنتهي بطردها. والتكنولوجيات التي تتبع نفس الطريق محكوم عليها بالزوال وليس بالتقدم. فالصفيحة الرقيقة لا تحمي بكيفية أفضل من بقايا التين، لكنها أصبحت أرخص من تلك الطرق القديمة التي أصبح إتقانها، ابتداء من هذا الوقت، محاصرا. وتقنية الطين الخام ما تزال أرخص من تقنية الخرسانة الإسمنتية في الجنوب، غير أن الأمور ليست كذلك في ضواحي بعض المدن.

عدد من التقنيات القديمة محكوم عليها على هذا النحو بالزوال نتيجة الاختناق، ذلك أن حظوظها في التحسن بذاتها ومن تلقاء ذاتها قليلة. وما يصدق على المفاهيم يصدق على المنتوجات. ففي التعمير الموجه كما في الهندسة المعمارية الموجهة، ننسى في غالب الأحيان أن التقنية هي واقعة ثقافية.

يبرز من البحث مع ذلك أن السكن القروي المبني ذاتيا بصفة عامة يحتفظ على مستوى المسكن أو المجموعة الاجتماعية الأضيق التي لم يلحقها تقريبا أي تغيير بمفهوم مُشخْصن ثقافيا لتنظيم الخلية- السكن. وفي مقابل ذلك، فإن هذا المفهوم على مستوى أصغر مجموعة من المساكن تم الشروع فيه على نطاق واسع وأصبح تقريبا مجرد بقايا.

فالتشتت والإفقار من حيث الجودة وتوحيد الأشكال، أمور تحدد الميل العام الذي تمت معاينته للسكن القروي التلقائي الحديث والصلب في المغرب.

2.ت- السكن الموجَّه

لم نقم في هذا البحث بتحليل السكن القروي الموجه. وقد يكون من اليسير تحديده وقد يستحق الدراسة. وإذا كان السكن التلقائي المبني ذاتيا يمثل التوافق السوسيو-اقتصادي الجماعي، أي الحالة الفعلية للمجتمع القروي، فإن السكن الموجه يمثل فقط تحريضا إراديا يمارس على هذا المجتمع بواسطة مجموعة من الأفراد يتوفرون على السلطة التقديرية لتوجيه تطور السكن. فتحليل السكن الموجه هو إذن بعيد عن أن يكون غير ذي أهمية. وفي المجالات التقنية للهندسة المعمارية والتعمير الموجهين تمت ممارسة هذه السلطة خلال مدة طويلة من بعيد من لدن تقنيين بعيدين في غالب الأحيان عن الوسط الفلاحي أو منفصلين عنه. وقد ترتب عن ذلك في غالب الأحيان تعمير وهندسة معمارية قرويين مجردين، تكنوقراطيين أو صوريين، نادرا ما يرتطبان بالواقع الاجتماعي وبديناميته الخاصة. ولمثل هذه العمليات تأثيرات على السكن القروي التلقائي.

يتميّز السكن القروي الموجه بمجموعة كبيرة من الإنجازات في التصميم، من بينها دخل البناء الذاتي أحيانا بحصة نادرا ما كانت أساسية. وقد ترددت الصيغ المطبقة في السكن القروي الموجه، أكثر مما كان عليه الشأن في الحضري، في التخلي مباشرة عن القواعد المعتادة لنماذج السكن التلقائية. بيد أنها لم تتردد في خرق تلك القواعد على مستوى التجمعات. والراجح أن سبب تلك الاحتياطات يكمن في أن الوسط القروي هو بطبعه أقرب بكثير من الوسط الحضري إلى تقاليده، وأنه قد يكون من الصعب أن يتم فيه تغيير العقليات والأعراف. وشكلانيات الهندسة المعمارية التي تدخلت في أغلب الأحيان في السكن الموجه تتميز فقط بمظهر احترام الهوية السوسيو- ثقافية للسكان في الوقت الذي كانت فيه تلك الشكلانية فارغة من المضمون الاجتماعي الذي قد يبررها، نتيجة عدم إدماج التقني في المجموعة الاجتماعية التي من أجلها يقوم بالبناء.

2.ث- سَكَنُ المُعمِّرين

يمثل هذا السكن القروي، من الناحية الكمية، جزءا يسيرا للغاية من العالم القروي. وقد بناه معمرو الحماية في أغلب الأحيان على نماذج الضيعات الأوروبية لتلك الحقبة بلباس فلكلوري محلي أحيانا. لا تشكل هذه البنايات بطبيعة الحال سكنا اجتماعيا. ذلك أن لها أهمية النموذج وستستمر كذلك، بالرغم من أنها أقرب إلى مركز الأنشطة القروية، كما هو الشأن بالنسبة للمصنع في المجال الحضري. وتشكل ضيعات المعمرين جزءً من عالم مَبْنِي، تجلى على نحو أكبر في المجال الحضري الذي أصبح فيه سائدا. والتأثير الذي كان لها في العالم القروي تمت ممارسته على عكس ذلك بتكوين سكن قروي دائم الهشاشة في ضواحيها، وهو سكن عرضنا له سابقا. ولا يمكنها أن تشكل جزءاً من تصنيف السكن القروي المغربي الحالي إلا بكيفية تبعية.

ملاحظات وخلاصات

يجب تكملة هذه الخطاطة التصنيفية للسكن القروي المغربي وفق المعيار الوحيد المتمثل في السكن «الخفيف أو الصلب» بتصنيف لمواد البناء والتقنيات المقابلة لها. وهو عمل قيد الإنجاز. ويمكن أن نلاحظ منذ الآن أن مواد البناء «الصلب» وتقنياته القديمة التي ما زال معمولا بها في السكن القروي الحالي تعتبر رسميا في أيامنا هذه بمثابة مواد وطرق للسكن ذي الجودة الضعيفة (شروط الحصول على قرض البناء، استمارات إحصاءات السكن،...). وذلك يعني أنه ينظر إليه رسميا بمثابة سكن غير ذي قيمة اعتبارا لدخول المواد الصلبة الجديدة المنافسة إلى الأسواق المحلية (مواد نادرا ما تكون مصاحبة بتقنياتها الخاصة وغالبا ما تكون منافسة فقط بالنسبة للكلفات، ونادرا ما تكون كذلك بالنسبة للجودة: أحجار رباط الإسمنت، الصفائح، منتوجات متواضعة أو يتم الحصول عليها مما تبقى من البناء، إلخ...). ويمكن أن نتوقع أن هذه التكنولوجيات والمواد التي كانت مستعملة في الماضي ستصبح مهددة بالاختفاء والزوال، كما هو الشأن بالنسبة للمفاهيم التي أنتجتها، إذا لم يعمل الناس على تحسينها. ولن نغالي إذا ما قلنا إن الأمر يتعلق بنهاية شخصية ثقافية، لا تنحصر في الهندسة المعمارية وفي التعمير.

فيما يخص معيار التوزيع التصنيفي «خفيف- صلب» لم نعتبر مواد البناء أو التقنية في ذاتها بمثابة عناصر حاسمة في التصنيف. وما بدا لنا أكثر حسماً كان هو الطابع المعياري، أو المعياري الفرعي، للسكن المرتبط بتلك الحقبة ــ بالنسبة للسكن الخفيف: هشاشة، فقر، نقص، ضِيق... وبالنسبة للسكن الصلب: يُسر، دوام، مطابقة مع الحاجيات،... (مرة أخرى يُطرح المشكل الأساسي للمعيار، للنموذج!). ذلك أنه من البديهي أن المعايير تتغير بتغير الحقبة، والعقليات تتغير بتغير الزمان والمكان. وفي مكان ووقت معينين، يكون المعيار المتداول وحيدا بالنسبة لطبقة من الأفراد، سواء أكان السكن حديثا أو قديما، صلبا أو خفيفا. فالمعيار الحالي للسكن الاجتماعي للمغرب يتطلب القيام بتوضيحه. وقد كان من الممكن أن يكون الطين في أيامنا هذه مادة بناء طبيعية للسكن لو تم تحسينه، ولأن مواد البناء سريعة التلف، من جهة أخرى، فإنها تضع السكن الذي يبنى بها في فئة السكن ضعيف الجودة.

بأخذنا، بعين الاعتبار في التصنيف، فقط السكن القروي الدائم والتلقائي الذي شكل وحده موضوعا لبحثنا، نكون قد أقصينا إذن السكن المؤقت والسكن الموجه. لذلك، يجب أن تُخرَج من هذا التصنيف الأمثلة التي درسناها من سكن المنتجعين المتحرك. ويتم التوزيع بعد ذلك حسب معايريْ «الخفيف أو الصلب» على النحو التالي:

الخفيف المتنقل: تخوم الصحراء مجال الترحال الكبير.

الخفيف القار: المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى المغرب الشرقي عبر ممر تازة، التي تمس ريف الشمال وأم الربيع بالجنوب.

الصلب: مجموع البلد باستثناء الفضاءات الصحراوية للجنوب وللجنوب-الشرقي. وفي هذه الفئة انتشرت النماذج القديمة انطلاقا من المراكز الحضرية التاريخية.

يمكن تكلمة هذا التصنيف المُوجز الذي أُنجز حسب معيار وحيد، وذلك بأن نضيف له مناطق انتجاع الهضبة الوسطى، والأطلس المتوسط والهضاب الشرقية العليا (الانتجاع بالسكن المتنقل المؤقت) ومناطق الأطلس الكبير والأطلس الصغير (الانتجاع حسب السكن القار المؤقت).

مقـــــالات

في الإصلاح وراهنيّته

عبد الإله بلقزيز
أستاذ باحث في الفلسفة والفكر العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك،
جامعة الحسن الثاني ـ الدار البيضاء

1ـ بين إصلاحين إسلاميَّين

ما كانت دعوةُ الإصلاح الإسلاميّة، التي أطلقت في القرن التاسع عشر، امتداداً لدعوات الإصلاح الإسلاميّ القديمة (في العهد الكلاسيكيّ)، كما لاحظ عليّ أومليل بحقّ[1]؛ فالإصلاح عند القدامى (الغزالي، ابن تيمية) فعلٌ ثقافيٌّ وسياسيٌّ واجتماعيّ، يجري بالتلقاء؛ أي **من داخل** المنظومة الإسلاميّة وباستخدام مواردها الذاتيّة، من دون حاجةٍ إلى الْتماس مبادئَ أخرى من خارجها. ومع أنّ اللحظات التي شهدت على دعواتٍ إصلاحيّة، في تاريخ الإسلام قديماً، هي لحْظاتُ تأزُّمٍ وكبوة، كان المجتمع العربيّ الإسلاميّ قد فَقَدَ فيها وحدتَه وقوّته، نتيجة زوال نظام الخلافة والدولة المركزيّة، وتغلُّب أقوامٍ غيرِ عربيّةٍ عليه، وسقوط بقاعٍ منه تحت قبضة الاحتلال الأجنبي، إلاّ أنّ حضارةَ الإسلام لم تكن قد ذَوَتْ، تماماً، في ذلك الحين ولا كان المتغلِّبون قد نجحوا في أن يفرضوا على المجتمع العربيّ نموذجاً اجتماعيّاً وسياسيّاً وفكريّاً متفوِّقاً على نموذجه، بحيث يُحْتاج إلى الاقتباس منه. كان معنى الإصلاح، في النطاق ذاك، **تقويم ما اعوجَّ وتصويبُ ما انحرف عن جادَّة السّنن** أو، بعبارة عليّ أومليل، ردّ الإسلام التاريخيّ (المنزاح عن الطريق

1. عليّ أومليل، **الإصلاحيّة العربيّة والدولة الوطنيّة**، ط 2، الدار البيضاء؛ بيروت، المركز الثقافيّ العربيّ، 2005.

القويم) إلى الإسلام المعياريّ[2] بوصفه الإسلام المرجعيّ، أو بوصفه وحده الإسلام كما تعارف عليه الصدرُ الأوّل وجيل التابعين ومن أعقبه من أجيال. وبهذا المعنى، كان يمكن لأيّ فكرة إصلاحيّة إسلاميّة، في العهد ذاك، أن تُخْتَصر في كلمةٍ واحدة: **السُّنَّة**[3]؛ أي العَوْد إلى السّنّة بردّ ما يَنْقُضُها من بدعة. هكذا كان على الإصلاح الإسلاميّ الكلاسيكيّ أن يأخذ شكلاً واحداً ووحيداً هو **الرجوع إلى أصلٍ** جسَّدَهُ السلف: الصّدر الأوّل والتابعون، فكان عليها أن تبدوَ، للسبب ذاك، دعوةً سلفيّة.

اختلف معنى الإصلاح الإسلاميّ حديثاً عمّا كانَهُ في الماضي. لا يُفْهَمُ من هذا أنّ دعوةَ الإصلاح توقفت، منذ القرن التاسع عشر، عن أن تكون دعوةً إلى العودةِ إلى الأصل والسّلف؛ إذ هي ما تخلّت عن ذلك في كلّ الظروف وإلاّ فقدت هويَّتها كدعوة إسلاميّة، وإنّما أتى اختلافُها عن الأولى من واقعِ أنّ الموارد الفكريّة التي جهَّزت بها نفسَها كدعوة لم تكن إسلاميّة في المعظم منها، بل إنّ ما بدا منها إسلاميّاً إنّما تولّد من عمليّاتِ تمثُّلٍ للماضي محكومٍ بأسئلة الحاضر وموارد الثقافات الجديدة الكونيّة. لم يستعنِ الغزالي وابن تيميّة بالإغريق والثقافة اليونانيّة في دعوتهما إلى الإصلاح؛ فَلَهُما في الإسلام غَنَاءٌ عن ذلك، أمّا جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، ثم بعدهم عبد الحميد بن باديس ومحمد الطاهر بن عاشور وعلاّل الفاسي، فما تردّدوا في أن يبحثوا عن مراجع من خارج الإسلام، وأن يقتبسوا من المدنيّة الأوروبيّة وأفكار مفكّريها موادّ يكوّنون بها منظومة الإصلاح عندهم. ولم يكن ذلك منهم بسبب «فقر» المرجع الإسلاميّ وغِنى المرجع الأوروبيّ، وإنّما لأن مطالب الإصلاح مختلفة عن ذي قبل، ولأنّ نوع التحدّيات الجديدة لا تَقْبَل أن يُجَاب عنها إلاّ بفكرٍ يطابقُها تاريخيّاً. وإلى ذلك يُضاف أنّ سؤال الإصلاح، في الوعي الإسلاميّ الحديث، لم يكن مأتاهُ من ملاحظة ما دبَّ في جسم الإسلام من وهْنٍ داخليّ، نَقَلَهُ من حال تقدُّم إلى حال نكوص، وإنّما مأتاهُ من تغلُّبِ مدنيّةٍ جديدة حديثة على مدنيَّته، ونجاحها في فرض نموذجها على مجتمعات الإسلام الحديثة؛ كما من أسئلةٍ طرحها الفكر الأوروبيّ فاستنبطها الوعي العربيّ الإسلاميّ في شكلٍ وجدَ نفسَه فيه يفكّر من داخلها أو يجيب عنها[4].

2. **المصدر نفسه**، ص 13.

3. انظر في هذا: عبد الله العروي، **السنّة والإصلاح**. الدار البيضاء؛ بيروت، المركز الثقافيّ العربيّ.

4. Abdallah Laroui ,*L'idéologie arabe contemporaine* .Paris: Maspero, 1967.

هل كانت دعوةُ الإصلاح الإسلاميّة، الحديثة والمعاصرة، تعبّر عن قطيعة مع سابقاتها الإسلاميّة إذن؟

لم تكن كذلك تماماً، غير أنّها - في الوقتِ عينِه - لم تكن محضَ امتدادٍ تاريخيٍّ للأولى. كانت مزيجاً من هذا وذاك أو، قُل، كانت وكأنّها تعيش **زمنيْن متناقضين** فيها: زمناً **ذاتياً**: ثقافيّاً ورمزيّاً؛ وزمناً **موضوعيّاً**: اجتماعيّاً وتاريخيّاً ماديّاً، وفي ذلك ما يفسّر كثيراً من مفارقاتها التي لازمتْها، منذ الميلاد، والتي لم تَنْتَهِ إلاّ بنهايتها كدعوةٍ إصلاحيّةٍ إسلاميّة، وانحلالها في دعوتيْن متجافيَّتَين تولَّدتا منها: الدعوة الليبراليّة والدعوة الإحيائيّة[5]. وما كان يمكن الدعوةَ الإصلاحيّةَ الإسلاميّةَ إلاّ أن تنقسم على نفسها إلى دعوتيْن متقابلتيْن بعد أن ناءت بحَمْل تناقُضها الداخليّ ذاك (بين زمنيْن مختلفيْن)، وبعد أنِ استنفدت «التسويّة» الفكريّة التي أرساها محمّد عبده[6] بين الإسلام والحداثة إمكان الاستمرار فيها...

ثقافيّاً (= فكريّاً) بدتِ الإصلاحيّةُ الإسلاميّةُ الحديثة، إلى حدٍّ بعيدٍ، وفيّةً لموروثها العربيّ الإسلاميّ الكلاسيكيّ؛ فهي لم تكفَّ عن التشديد على فرضيّة **الاستمراريّة التاريخيّة** بوصفها القانون الحاكم لتطور المجتمع والثقافة والقيَم، مصِرَّةً على أنّه لا انقطاع في مجرى تلك الاستمراريّة كما توحي بذلك متغيّرات الواقع الموضوعيّ، ومؤكِّـدةً على أنّ الإسلام: ديناً وثقافةً ومجتمعات، قادرٌ على استيعاب المتغيّرات تلك وكفّ تحدياتها. وزاد من الاعتقاد بالوفاء لذلك الموروث أنّ الكثير من مفردات هذه الإصلاحيّة لم يَحِد عن القاموس الإسلاميّ التقليديّ (لفظاً على الأقلّ)، وأنّ مصادر الفكر الإسلاميّ ظلت تتردّد في كتابات رموز الإصلاحيّة تلك. غير أنّ التدقيق في مضمون خطاب الإصلاحيّة، وتحليل نظام تفكيرها يُطْلِعنا على أنّ حظَّها من تلك الاستمراريّةِ شحيحُ الحصّةِ ورمزيٌّ، وأنّ كمّيةَ المحمولِ إليها من خارجها (من الأفكار) أثقلُ في ميزانها من كمّ المواريث.

5. تمثَّل تَوَلُّد الدعوتيْن تيْنك في ظهور الليبراليّة العربيّة (المصريّة) مع أحمد لطفي السيّد، والسلفيّة مع محمد رشيد رضا (وهُما معاً تتلمذا لمحمّد عبده)، وانفصالهما البائن عن بعضهما. انظر في تحليل ذلك: عبد الإله بلقزيز، **إشكالية المرجع في الفكر العربيّ المعاصر**. بيروت: دار المنتخب، 1993.

6. **المصدر نفسه**. وانظر أيضاً: عبد الإله بلقزيز، **الدولة في الفكر الإسلاميّ المعاصر**. ط4. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2014.

وإلى ذلك فإن الإشكاليّةَ الأصل المؤسِّسة لخطابها تنتمي إلى أفقٍ ذهنيّ وتاريخيّ جديد (= فكرة التقدّم والانتماء إلى العصر). وهي نفسُها أقامت على ذلك دليلاً من سيرتها الفكرية، من طريق استدخالها الكثير من مكتسبات الفكر الأوروبيّ الحديث لإعمار كيانها الثقافيّ، وتمييز نفسها من دعوات إسلاميّة محافظة ومنغلقة زامنَتْها وزاحمتْها على الدور باسم الإسلام.

لا مجال، إذن، لأيّ مماثلةٍ بين الإصلاحيّة الإسلاميّة الحديثة وأيّ نزعةٍ إصلاحيّةٍ أخرى في تاريخ الإسلام؛ لاختلاف الشروط واختلاف المشكلات...، وتبايُن الغايات.

2- الدولة كبيئةٍ حاضنة للفكرة الإصلاحيّة

بدأ الإصلاح، في الوعي العربيّ الحديث، فكرةً ثم ما فتئ أن تحوّل إلى **مشروعٍ فكريّ** (= إيديولوجيّ) كامل...

بدأ فكرةً تولّدت، في وعي النّخب الثقافيّة، من معاينةِ المقدار الهائل من وقائع التحوُّل الذي طرأ على العالم المحيط ـ ومنه عالمُ الإسلام ـ نتيجة الصعود الزاحف، والظافر، للمدنيّة الأوروبيّة الحديثة غِبّ اصطدام مجتمعات العرب والمسلمين بها، منذ بدايات التمدّد الاستعماريّ الإنكليزيّ في الهند وحملة نوباپارت على مصر في نهايات القرن الثامن عشر[7]. وكما كان على الوعي، المشدوه بفتوحات المدنيّة الأوروبيّة تلك، أن يستنفر انتباهَه إلى هذا العالم الجديد من طريق **الإدراك المقارِن** للفارق بين أَلَقِ المدنيّة الحديثة واتّضاع أحوال البلاد العربيّة والإسلاميّة، كان عليه أن ينتبه ـ في الوقتِ عينِه ـ إلى فجوةٍ رهيبةٍ، رديفٍ للفجوة (بين أوروبا وعالَم الإسلام)، هي الفجوةُ بين ماضٍ (عربيٍّ إسلاميٍّ) يبدو ذهبيّاً ومرجعيّاً وحاضرٍ هو من البؤس والانحطاط في غايةٍ! ولَكَم كان قاسياً وشقيّاً ذلك الشعورُ بالتخلّف **المزدوج** تجاه الماضي القوميّ والحاضر الكونيّ معاً.

7. تأخرت قليلاً (بعقود) في المغرب العربي بتأخّر الأثر الخارجيّ الأجنبيّ في داخله، حيث بدأ الاصطدام بالزحف الأوروبي في العام 1830 (احتلال الجزائر)، وفي العام 1844 (المواجهة العسكرية بين الجيشين المغربيّ والفرنسيّ في «إيسلي» وانكسار الجيش المغربيّ فيها)، ومن الحدثين انطلقت أولى الدعوات الإصلاحيّة. انظر في هذا: محمّد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، ط2،الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع- المدارس، [د.ت.] جزآن.

ولكن نتائجَه أتتْ متفاوتةَ الآثار، بل متضاربة؛ ففيما كانت استعادةُ النموذج التاريخيّ المرجعيّ تبعث في النفس، والوعي، شعوراً بالفخار أو تَحْمِل على إتيانِ ألوانٍ من الأمْثَلَة Idéalisation والأسطرة للماضي ذاك، أفضى الانتباه إلى الفارق الحضاريِّ الحاضر إلى الشعور بقدرٍ ما ــ ولو قليلٍ ــ من الدونيّة والضِّعَة لم تَقْوَ المكابرات المُغالِبَة على طمس علائمه في التفكير! وهكذا لم يكن لتوسُّلِ الماضي والتدثُّر بردائه الحريريّ الفاخر أن يسْتُرَ عورةَ حاضرٍ انكشفت على حين غرّة، ولم يُسْعِف بأكثر من مباهاةٍ هي إلى تعزيةِ النَّفس الكليمة أقربُ منها إلى أيّ شيء آخر!

يمكنُ دارسَ تراث الإصلاحيّة الإسلاميّة، الحديثة والمعاصرة، أن يَلْحظ علاماتٍ مؤكَّدةً لذلك النجاح الذي أحرزتْه في مجال استيعابِ صدمة الزحف الأوروبيّ والاصطدام بمدنيّته، وتحويلها من انكسارٍ إلى فرصةٍ قابلةٍ للاستثمار. لم تُلاقِ حدثَ الزحف ذاك، وما حَمَلَهُ في جوفه من قيمٍ وأفكار ومؤسسات جديدة، بردّةِ فعلٍ انكفائيّة دفاعيّة على الرغم من هول نتائجه التي منها إبطال مفعول الكثير من مؤسسات وقيم الماضي الموروثة؛ وإنما قابَلَتْهُ بإرادة التفاعل الإيجابيّ: تأخذ منه ما تراه مناسباً أو يوفّر للمجتمع المغلوب الأدوات والوسائل والموارد للتقدّم، وترفض منه ما تحسَبه مبْعثَ شرٍّ وإيذاء وتُنبِّه عليه. هكذا تحدَّدت وجهتها، منذ الميلاد، كدعوةٍ تتميّز الفارق بين أوروبا كغزوٍ واحتلالٍ واستعمار، وأوروبا كمدنيّةٍ حديثة تضوي في داخلها موارد هائلة لصناعة أسباب التقدّم، مثل العلم، والحرية، والإنتاج، والنظام السياسيّ الحديث، والعدل الاجتماعيّ والمساواة في الحقوق...الخ. على أن تمسُّك رموز الإصلاحيّة بانتماء دعوتهم إلى دائرتها الحضاريّة الإسلاميّة دفعهم، وبدرجات مختلفة، إلى محاولات شتّى لبيان عدم التجافي بين ما يدعون إليه من أفكار وقيم ومؤسّسات ــ محمولة إليهم من خارج ــ و(بين) الإسلام. لذلك انغمس كثيرون منهم ــ بدءاً برفاعة رافع الطهطاوي ــ في تجريبِ تأصيل الأفكار والقيم الحديثة تأصيلاً إسلاميّاً يرفع عنها الشبهة.

ولكنّ الفكرةَ تولَّدت، أيضاً، من ديناميّةٍ داخليّة إيجابيّة، لا من حالةِ انكسارٍ فحسب؛ وبيانُ ذلك أنّ سؤال الإصلاح وتدارُكِ الفَوات وُلِد في أحشاء الدولة ونُخبِها السياسيّة

الحاكمة قبل أن يَشبّ في وعي النخب الفكريّة. ونحن اليوم نعرف، على التحقيق، أنّ مشاريع الإصلاحات التي قادَتْها النخب الحاكمة في مصر محمد علي باشا[8]، وفي تونس أحمد الباي[9]، وفي مغرب السلطانيْن عبد الرحمن ومحمّد الرابع[10]، وفّرتِ البيئةَ السياسيّةَ الموضوعيّةَ لاستيلاد أفكار الإصلاح، والحضِّ عليها، بل ولانشباك وشائج الصلة بين النخبة الإصلاحيّة المثقَّفة والنخب الإصلاحيّة الحاكمة في غير بلدٍ من البلدان العربيّة التي انشدَّت إلى «التنظيمات العثمانيّة»[11] (برنامج الإصلاحات العثمانيّة). والحقّ أنّ المشروع الإصلاحيّ، الذي قادتْه النخب الحاكمة المومأ إليها، هو الذي أطلق الفكرةَ الإصلاحيّة في البيئات الفكريّة العربيّة، وكان من شأنه أن يولِّد - في الوقت عينِه - ظاهرةً جديدة هي (ظاهرة) **الطّلب المتزايد على النخبة الإصلاحيّة**[12]؛ الطلب الذي تغيّا تعبئة حاجةٍ موضوعيّة إلى الخبرة والكفاءة والتسويغ العقلي للإصلاح. وأيّاً يكُن تواضُع المَدَيَات التي بَلَغَها المشروع الإصلاحيّ السياسيّ، وتردُّدُه، وتناقضاتُهُ، ونكساتُه المتعاقبة...، فإنّ الذي لا مِرْيةَ فيه أنّ الفكرةَ الإصلاحيّةَ تَدين في وجودها، وفي استمرارها قرابة ثلاثة أرباع القرن، لذلك المشروع (السياسيّ).

ليس عسيراً على المرء أن يقف على المداميك المؤسِّسة للصّلة بين الفكرة الإصلاحيّة عند النخب الفكريّة والسياسات الإصلاحيّة لدى بعض النخب الحاكمة؛ فهي تمتح من

8. انظر في هذا:

Anouar Abdel-Malek, *L'Egypte moderne-Idéologie et renaissance nationale.* Paris: L'Harmattan 2004,.

9. هي عينُها الفترة التي بدأ خير الدين التونسي فيها في نشر دعوته الإصلاحيّة، انظر: خير الدين التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**. تحليل النصّ وتحقيقه مع جداول وملحقات وفهارس للمنصف الشنوفي، ط 2. تونس: الدار التونسيّة للنشر؛ الجزائر: المؤسّسة الوطنيّة للجزائر، 1986.

10. انظر: محمّد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث. م م س**، وانظر:

Laroui, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)*. Paris: Maspero, 1980.

11. انظر في الموضوع:

Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*. 2nd ed. London: New York: Oxford University Press, 1968.

12. عبد الإله بلقزيز، **الخطاب الإصلاحيّ في المغرب: التكوين والمصادر (1844-1918)**. بيروت: دار المنتخب، 1997.

(*) وهو أمرٌ مفهومٌ بالنظر إلى أن النخب الحاكمة محكومة بالممكنات الموضوعيّة المتاحة والمحدودة، فيما لدى النخب المثقفة ممكنات ذهنيّة لا حدود لها.

هاجسٍ واحدٍ جامع (= الخروج من حال التأخُّر التي كشف عنها انهيار مجتمعات الإسلام أمام الزّحف الأوروبيّ)، وتلتقي عند هدفٍ مشترك: توسُّل أسباب التقدّم؛ التي كانت هي عينُها الأسباب التي توسَّلتْها أوروبا وبها تقدَّمت. والنخبتان الإصلاحيّتان (الفكريّة والسياسيّة)، لذلك السبب، كانتا في حكم الحَليفتيْن وإنْ لم تَقْصِدا إلى المحالفة أو انحصر القصدُ لديهما في نطاقاتٍ ضيّقة. ومع أنّ مطالب المفكّرين الإصلاحيّين كانت، على التحقيق، أبعدَ غايةً وأعلى سقفاً ممّا ابتغتْه النخبُ السياسيّة، أو تغيَّتْهُ ترتيباً، أو استطاعتْهُ إمكاناً(*)؛ إلاّ أنّ تعبيرهَم عن هاتيك المطالب، ونشْرَ أفكارهم على أوْسع نطاقٍ ــ بما فيها تلك التي تنوء سياساتُ النخب الحاكمة بحمْلها ــ إنما حَصَلا [= التعبير والنشر] بسبب ما أُحيط به فعْلُ المفكّرين هؤلاء من **حمايةٍ سياسيّةٍ** رسميّة (من قِبَل النخب الإصلاحيّة الحاكمة). وليس يصِحُّ أو يجوز، تحت أيّ ظرفٍ، استصغارُ شأن الحمايةِ تلك وابتخاس أمرها، أو عدِّها في جملة المُقابِلِ الذي تقدِّمُه الدولة مقابل الخدمة التي أسدتْها النخب المثقفة لها دفاعاً عن الإصلاحات وتسويغاً لها؛ ذلك أنّ موقع النخبة الثقافيّة الإصلاحيّة، في المجتمع والثقافة، كان هزيلاً وقدرتَها على استمالة الجمهور والتأثير فيه محدودة، قياساً بموقع النخبة المحافظة ــ المعادية للإصلاح ــ وقدرتها على مخاطَبة الذهنيّة العامّة. لقد كان الخطابُ الإصلاحيّ نخبويّاً و، أحياناً، هامشيّاً ومعزولاً، ومع ذلك نجح في فكّ عزلته، نسبيّاً، وفي مزاحمة الخطابات المحافظة والمناهضة للإصلاح، لأنّ الدولة أحاطَتْهُ بالرعاية والحماية والتمكين. ولم يدبّ الوهْن فيه إلاّ حين تخلّت عنه الدولة وتبنَّتْ غيرَه.

هل من حاجةٍ بنا، اليوم، إلى القول إنّ درس الماضي ممّا يحْسُن بنا - دولةً ونخباً ثقافيّة - أن نتَّعِظ به لأنّ شأنه شأن القانون بالنسبة إلى أيِّ اجتماعٍ سياسيّ وطنيّ؟ لا غَناءَ للدولة عن العقل الذي به تستقيم سياساتُها وتستحوز الشرعيّة، ولا غَنَاء للعقل (= المفكّرين) عن الدولة التي هي الحامِل (الأداتيّ والفاعل) لأفكارها. وكما تعسَّر كَسْبُ معركةُ الإصلاح أمس للانفصال النّكد بين العقل والإرادة الفاعلة (بين النخبة الثقافيّة والنخبة السياسيّة)، قد يتعسّر اليوم وغداً للسببِ عينِه!

3- الإصلاح بوصفه مشروعاً

لم يكنِ القرن التاسع عشر قد تصرَّم حتى كانت الفكرةُ الإصلاحيّة، في الوعي العربيّ، تتحوّل من مجرَّد فكرةٍ شغلت مفكّرين، ودفعتْهم إلى الدعوة إليها، إلى **مشروع فكريّ** كبيرٍ متعدِّد التعبيرات والتجليّات، ولكن أيضاً ـ وأساساً ـ مترابط الحلقات. ساعد على التمكين لذلك التحوُّل أمران تضَافَر فعلُهما لتأمينهِ كتحوّل: **أوّلهما** أنّ إطلاق الفكرة الإصلاحيّة، في الفكر العربيّ، منتصفَ النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، ترافقَ مع حركةِ انفتاحٍ عربيّ نشطة على مصادر الفكر الحديث في أوروبا، نهضت فيها الترجمة والصِّحافة (= الثقافية) بأكبر الأدوار. ولم يكن أثرُ الفكر الأوروبيّ في النخب الثقافيّة العربيّة محصوراً في مجالٍ بعينِهِ، من دون آخر، وإنما هو شمل المجالات كافّة أو، قُل، شمِل ما بَدَا للإصلاحيّين العرب والمسلمين وكأنّها (= المجالات) الأدْعى إلى الإصلاح (= السياسيّ، الدينيّ، الاجتماعيّ، التربويّ...). وكان من شأن تأثيرات الفكر الأوروبيّ وشمولِها ميادينَ متعدّدةٍ أن أخصبتِ الوعي العربيّ، ودفعتْهُ إلى إدراك علاقات **الترابُط التلازميّ** بين لحْظات Instances الإصلاح المجتمعيّة ومستوياته. و**ثانيهما** أنّ بيئةَ سياسيّةَ جاذبة ساعدت على ذلك الانتقال بالإصلاح من الجزئيِّ إلى الكليّ (= من الفكرة إلى المشروع)؛ ونحن نعني بالبيئة تلك ما كان من سيرة الدولة، والنخب الحاكمة فيها، مع الإصلاحات التي أقدمت عليها وتوسّعت فيها. لقد فرضتِ الإصلاحات السياسيّة نفسَها بما هي تعبيرٌ عن إرادةٍ عامّة في التدارُك والتصويب. وهو ما حَفَزَ النخبة العلميّة الإصلاحيّة على رفع مستوى الإدراك (= إدراك الحاجة إلى الإصلاح) إلى حيث تضع نفسَها في موقع مَن يقدِّم لسياسات الإصلاح الرسميّة ذلك المشروع وذينك الرؤيةَ والبرنامج اللذين لا غنًى لتلك عنهما.

تحوّلتِ الفكرةُ الإصلاحيّة إلى مشروع مُذْ تحقّقت فيها أبعادٌ ثلاثة: الشمول، واتّساع قاعدةِ حَمَلَتها من المثقفين، ثم الامتداد في المكان والزمان. ولا يمكن إدراك ما كان لهذه المعطيات الثلاثة من أثر حاسم في نقل الفكرة تلك إلى سُدّة المشروع إلاّ إنْ تخيَّلنا، لحظةً، الحالةَ التي كانت ستكون عليها (الفكرةُ تلك) لو ظلّت فكرةً جزئيَّةً لا تبارح

مجالاً محدوداً، أو لو كان عددُ من حَمَلوها وفكّروا وكتبوا من داخل إشكاليّتها محدوداً، أو لو عُبِّر عنها في أضيق المساحات الجغرافيّة العربيّة وفي زمنٍ بُرْهَويّ سريع وعابر. كانت ستكون، في هذه الحال، مثل فِكْراتٍ أخرى شعَّت، برهةً، ثم خَمَد وميضُها فطواها النسيان؛ وما أكثرها في تاريخ الفكر العربيّ الحديث! لِنُلْقِ نظرةً سريعةً على هذه الأبعاد الثلاثة التي نقلتِ الفكرةَ إلى نصاب المشروع.

نعني ببُعد **الشمول** أنّ الفكرةَ الإصلاحيّة أفصحت عن نفسها في ميادين الاجتماع العربيّ (الإسلاميّ)، أو في أكثرها(*)، ولم تنحصر نطاقاً في ميدانٍ بعينه. صحيحٌ أنّ المسألة السياسيّة هي المسألةُ الأطْغى على تفكير الإصلاحيّين العرب وكتاباتهم؛ وصحيح ما ذهب إليه دارسون عرب[13] من قولٍ بمركزيّة المسألة السياسيّة في وعي الإصلاحيّة العربيّة، وخاصةً منها مسألة الاستبداد؛ ثم صحيح ما تعنيه المركزيّةُ تلك من اتصالٍ وثيقٍ بالهاجس الرئيسِ للإصلاحيّة تلك: بناء الدولة الوطنيّة الحديثة[14]، إلاّ أنّ التراث الإصلاحيّ الحديث والمعاصر يُطْلِعنا على أنّ رجالاته لم يمنعوا أنفسَهم من العناية بوجوهٍ أخرى من الإصلاح، وجبهات أخرى منه لا تقِل أهميّةً عن جبهة الإصلاح السياسيّ، وفي جملتها الإصلاح الدينيّ (جمال الدين الأفغاني و ـ خاصةً ـ محمّد عبده ومحمّد الطاهر بن عاشور وعلاّل الفاسي)، والإصلاح التربويّ (الطهطاوي، عبده، محمّد بلحسن الحجوي وعلاّل الفاسي)، والإصلاح الاجتماعيّ (حسين المرصفي، قاسم أمين، الطاهر الحدّاد). وأكثر ما ميَّزَ شمولَ الفكرةِ الإصلاحيّة ميادينَ متعدّدة أنه وَقَع استيعاءُ الصّلةِ بينها على نحوٍ من الترابط ملحوظٍ في كتابات الإصلاحيّين؛ فالذين عوّلوا منهم على الإصلاح السياسيّ أدركوا، على التحقيق، أنّ هذا وقْفٌ على إصلاح اجتماعيّ يحرِّر المجتمع من الجهل والتواكُل والسلبيّة، ويحرِّر المرأة من أصفاد الدونيّة والحيْف والتهميش، مثلما أدركوا أنّ الإصلاحيْن هذين مشروطان بإصلاح أوضاع التعليم وبناء منظومة تربويّة

13. (*) لم تشمل الفكرةُ الإصلاحيّة، مثلاً، ميدان الاقتصاد، لذلك لا نملك تراثاً في الإصلاح الاقتصاديّ، في القرن التاسع عشر، بل نحن لا نكاد أن نعثر على تفكيرٍ في الشأن الاقتصاديّ، حقيقٍ بصفة الفكر، قبل نهاية الحرب العالميّة الثانيّة!
عليّ أومليل، الإصلاحيّة العربيّة والدولة الوطنيّة. ص 25-23.

14. عبد الإله بلقزيز، **الدولة في الفكر الإسلاميّ المعاصر**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة. ط 4، 2014.

عصريّة. وبالمثل أدركوا ارتباط أيِّ مسعًى إلى الإصلاح الاجتماعيّ والدينيّ والتربويّ بمدى التقدّم في إحراز نجاحٍ في مضمار الإصلاح السياسيّ. وهكذا كانت ملامحُ مشروعٍ فكريٍّ إصلاحيٍّ تتكوّن من نسيج التداخل بين الأبعاد الإصلاحيّة الأربعة (السياسيّ والدينيّ والاجتماعيّ والتربويّ) المتحققة في صورةٍ من الشمول لا تَقْبَل الإنكار.

ونعني **باتساع قاعدة حَمَلَةِ الفكرة** تكوُّنَ تيّارٍ فكريٍّ عريض دار تفكيرُ رجاله على مسائل الإصلاح، في أبعادها الأربعة المشار إليها فوق، وأحرز ـ في المقابل ـ نجاحاً ملحوظاً في التمكين لمقالته (الإصلاحيّة) من أسباب الانتشار والفشوّ. ربّما كان تأْريخ حركة الإصلاحيّة مفيداً في إلقاء الضوء على تراثها الفكريّ والتعريف به، خاصَّةً بعد كبْوتها وانقلاب «الفكر» الإسلاميّ الحركيّ عليها، منذ فترة ما بين الحربيْن، لكنّ الذي لا يداخلنا شكٌّ فيه أنه تأْريخ انتقائيٌّ ومجحِف، لم يطل إلاّ لحظاتٍ وأسماء بعينها من الإصلاحيّة تلك، بينما تجاهَل أخرى أو غفل عنها لعدم المعرفة بها. وآيُ ذلك أنّ الإصلاحيّة الإسلاميّة في المغرب العربيّ لم تَلْق، من مؤرّخي الفكر، العنايةَ عينَها التي لقيَتْها نظيرتُها في المشرق العربيّ[15]. وإذا ما استثنينا الاهتمام الملحوظ بأعلامٍ إصلاحيّة تونسيّة، مثل خير الدين التونسي وأحمد بن أبي الضيّاف والطاهر الحدّاد، لا نجد شبيه ذلك أو قريبه مع رموز الإصلاحيّة في المغرب والجزائر، والذين انتُبِه إليهم، مثل عبد الحميد بن باديس وعلاّل الفاسي، إنما ينتمون إلى الأجيال المتأخّرة من الإصلاحيّة في هذين البلدين. ويعنينا من هذه الملاحظة التنبيه إلى أنّ ممثّلي الإصلاحيّة من المفكرين أكثر بكثير ممّا اعتادت كتبُ تاريخ الفكر أن تمثِّل بهم نماذجَ لها. وما الكثرةُ هذه إلاّ قرينة على أنّ ما خاضوا فيه لم يكن فكرةً جزئيّة بل مشروع.

وأخيرا نعني بالامتداد في المكان والزمان أنّ تيار الإصلاحيّة سرى في أوصال الثقافة العربيّة، برمّتها، عابراً الحدود الجغرافيّة بين المنتمين إليها؛ وامتدّ في الزمان، في موجته الأولى الكبرى، لما يزيد عن ثلاثة أرباع القرن (= ثلاثة أجيال)، ثم امتد، في موجةٍ ثانيةٍ

15. أهمّ من أنصفها فهمي جدعان في تأْريخه للفكر العربيّ. انظر: فهمي جدعان، **أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربيّ الحديث**. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر. ط 2، 1981.

جزئية، وإن بصورةٍ متقطعة بين عشرينيّات القرن العشرين وستينيّاته. والامتداد هذا يشهد له بأنه صاحب مشروع فكريّ تجندت لهم أقلام من بيئات عربيّة مختلفة، وفي أزمنةٍ حديثةٍ ومعاصرةٍ مختلفة.

4- لماذا أخفق مشروع الإصلاحيّة

لم يُقَيَّض للمشروع الفكريّ، الذي قدّمتْه الإصلاحيّةُ العربيّة الإسلاميّة في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، أن يتجاوز نطاقَه الفكريّ فيتحوَّل إلى واقع اجتماعيّ- سياسيّ لأسبابٍ عديدة سنشير إلى أهمّها لاحقاً. في هذا تختلف تجربة الإصلاح في بلادنا العربيّة عن سابقتها في أوروبا القرن السادس عشر ؛ التي وجدتْ تجسيداً ماديّاً لها على الرغم من أنّ الحركة الإصلاحيّة فيها كانت دينيّة، حصراً، ولم تتجاوز ذلك إلى ميادين السياسة والاجتماع والتربيّة كما (سيحصُل ذلك) في التجربة العربيّة. على أنّ التسليم بامتناع المشروع الإصلاحيّ في بلادنا عن التحقُّق الماديّ يحتاج إلى تدقيقٍ يرفع عنه إبهام التعميم. يمكن أن نأتيَ مثل هذا التدقيق من طريقيْن: من طريقٍ **تاريخيّ؛** حيث التذكيرُ واجبٌ بأن المشروع الفكريَّ الإصلاحيَّ ما كان له أن ينشأ ويستقيم لولا أنّ مشروعاً سياسيّاً إصلاحيّاً رديفاً ــ بل أسبق وجوداً ــ كان قد انطلق منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، مع محمّد عليّ باشا، واستمرّ مفعولُه يسري في سياسات إصلاحيّة أقدمت عليها تركيا («التنظيمات» العثمانية) وتونس (في عهد أحمد الباي) والمغرب (في عهد السلطانين محمّد الرابع والحسن الأوّل) ومصر (الخديوي إسماعيل)؛ وهو المشروع الذي وفَّر الحاضنة الماديّة للإصلاحيّة الإسلاميّة؛ ثم من طريقٍ **تحليليّ؛** حيث دراسة الفكر العربيّ، في حلقاته اللاحقة على اللحظة الإصلاحيّة (الليبراليّة والقوميّة والاشتراكيّة) تُطْلِعنا على ما كان لتلك اللحظة الفكريّة (= الإصلاحيّة) من كبيرِ أثرٍ في مجرى ذلك الفكر منذ نهايات الحرب العالميّة الأولى.

ولكنّ الاستدراك هذا إذْ يرفع الإبهام، فيُسلّم بأن المشروع الفكريَّ الإصلاحيّ لم يخرج من عدم وإنّما تغذّى من مشروعٍ سياسيّ إصلاحيّ؛ وبأنّه لم يتبخّر من الوجود

تماماً وإنما استمرّ يُلْهِم مشاريع فكريّة جديدة...، فإنّه لا يغيّر من حقيقة كونه لم يَصِر إلى مشروع اجتماعيّ- سياسيّ، أو لم يتولّد مثل هذا المشروع منه. أمّا اقترانُه بسياسات إصلاحيّة فلا يُعْتَدّ به كثيراً لسببٍ لا يُخطِئ إدراكَه لبيب؛ هو أنّ السياسات تلك ــ التي في حِضنها نشأ ــ لم تكن سياسات معبِّرةً عنه ولا ناجمةً منه، وإنّما هي تكوّنت قبله، وبمعزلٍ عنه، ولم تكن تبغي منه ــ ومن مفكّريه ــ سوى أن تتوسّله على سبيل تبرير نفسها، وخلْع الشرعيّة عليها خاصّةً في وجه قوًى محافظة وتقليديّة ناوءَتها وطَعَنَتْ عليها بتِعِلّة الوفاء لـ «الأصول» والمخافَةِ على الهويّة. أما استمرار تأثير الإصلاحيّة الفكريّ في ما بعدها من تيّارات الفكر فهو إذْ يشهد لها بعظيم الدور على صعيد الأفكار، لا يغيّر في شيءٍ من حقيقةِ إخفاقها في أن تنتقل من الحيِّز النظريّ والدعويّ إلى الحيّز الماديّ: الاجتماعيّ والسياسيّ. والإخفاقُ هذا، من غير مِراء، واحدٌ من مَواطن ضَعف الإصلاحيّة العربيّة الإسلاميّة... ومن أسباب انحسارها واضمحلالها، وهو ــ استطراداً ــ من مَواطن ضَعف غيرها من التيارات العربيّة المعاصرة التي لم يُقَيَّض لها أن تجد طريقها إلى التحقُّق الاجتماعي.

عوامل ذلك الإخفاق وأسبابُه كثيرة، لكنّا سنشير ــ في إسراعٍ ــ إلى **خمسةٍ** من بين أهمِّها تأثيراً:

أوّلها أنّ المشروع الفكريّ الإصلاحيّ اصطدم بكابحٍ كبيرٍ هو الاحتلال الأجنبيّ للبلاد العربيّة. صحيح أنّ جِيلاً من كبار الإصلاحيّين (الأفغاني، عبده، رشيد رضا) فكّر وألَّف ودَعَا في لحظةٍ كانت فيها بلادٌ عربيّة عدّة تحت حكم الاحتلال الاستعماريّ (الجزائر، مصر، تونس)، وأنّ بعض هؤلاء الإصلاحيّين رَبَطتْه صلات وثيقة بقادة الاحتلال الأجنبي (محمّد عبده في مصر ومحمّد بلحسن الحجوي في المغرب)، ومع ذلك لا يغرُب عن بال باحثٍ في ظاهرة الإصلاحيّة أنّ مبْنى مشروع هذه على بلادٍ عربيّة متحرّرة، مالكة لقرارها ومصيرها، قادرة على تطبيق سياسات إصلاحيّة حقيقيّة في الإدارة، والدولة، والتعليم، والمجتمع. وحين ندرك أنّ السّياسات الاستعماريّة لم تَسْعَ إلى أيّ نوعٍ من التحديث الاجتماعيّ والسياسيّ، وأنها ما اهتمت إلاّ بالتحديث الاقتصاديّ (= الرسملة)، بل

تعايشت مع التقليد وتوسَّلته ووظَّفَتْه، تبيَّن أن سقف الإصلاحيّة انْحَدَّ بتلك السّياسات الاستعماريّة التي جذّفت ضدّ منطق الإصلاح والإصلاحيّة. وحين تعرَّضتِ البلادُ العربيّة للتجزئة الكيانيّة، بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى، كانت آخر آمال الإصلاحيّين (= رشيد رضا مثلاً) قد انهارت أمام قدرٍ استعماريّ بغيضٍ هَبَط بفكرة الأمّة الناهضة ــ كما حلم بها الإصلاحيّون ــ إلى الحضيض.

و**ثانيها** تردُّد الدولة الوطنيّة في تبنّي مشروع الإصلاحيّة الفكريّ وترجمتِه سياسيّاً واجتماعيّاً، وتعامُلُها معه بشكلٍ جزئيٍّ وانتقائيّ بحيث فصلتْ بين أبعاده، وجزّأتْهُ، وتناولت منه ما أجاب حاجتَها الظرفيّة، فيما أعرضت عمّا تراءى لها منه مبْعثَ خطرٍ على نظام الحكم فيها. ويتعلّق الأمر في هذا بالدولة الواقعة تحت سلطة الاحتلال العسكريّ الاستعماريّ كما بالدولة الوطنيّة المستقلّة بعد جلاء الأجنبيّ؛ فهُما معاً اشتركتَا في إفقار المشروع ذاك من موارده التنفيذيّة. ولكن، بينما كان يمكن عذرُ الدولة الواقعةِ تحت الاحتلال لِفقدانها قرارها المستقل، لم يكن ممكناً عذرُ الدولة المستقلة، المتحرّرة ــ نسبيّاً ــ من قيود الوصاية الأجنبيّة، خاصّة وأنّ مهمّات بناء الدولة والمجتمع المستقلَّيْن تفترض منها إتيان أعلى أشكال الاستفادة ــ وأبعدها مدًى ــ من ذلك المشروع الإصلاحيّ. ولقد كانت مشكلةُ المشروع الفكريّ الإصلاحيّ أنّ الدولة تنكّرت له، منذ نهايات القرن التاسع، حين كانت هي نفسُها تتخلى عنه عمليّاً، بل وتنقلب ضدّه. لقد كانت حقبة ما بعد الخديوي إسماعيل والسلطان الحسن الأوّل حقبة الارتداد عن سياسة الإصلاحات. ومع أنّ الإصلاحيّين جرّبوا، بالوسائل كافة، تنبيه الحكام إلى خطورة التراجع عن سياسة الإصلاحات على مصير البلاد، وقدّموا مقترحات ومشاريع عدّة في إصلاح الدولة والإدارة والتعليم (الأفغاني، محمّد عبده، محمّد بلحسن الحجوي...)، إلاّ أن مساعيهم جوبِهت بالصدِّ وسوء الاستقبال، ليُسْدَل بذلك السّتار على علاقةٍ مضطربة لم تستقم بين العقل والدولة، بين الإصلاحيّين والنخب الحاكمة.

و**ثالثها** على علاقة بالسبب السابق؛ هو فِقدان المشروع الإصلاحيّ للحامل الاجتماعيّ والسياسيّ. ولسنا نقصد بالحاملِ هذا الدولةَ فقط، بل سائر مَن يمكنهم أن يكونوا في

حكم الحوامل الاجتماعيّة؛ كالأحزاب السياسيّة والمنظمات المدنيّة والجمهور الاجتماعيّ. وُجِدت حوامل اجتماعيّة وسياسيّة للفكرة الوطنيّة، مثلاً، وللفكرة الليبراليّة، ثم للفكرتيْن القوميّة والاشتراكيّة، وآخرها للفكرة الإسلاميّة. وكان للحوامل تلك أدوار في إشاعة الفكرة المحمولة وكسب فرصٍ لها للتحقُّق الماديّ، لكنّ شيئاً من ذلك لم يُكْتَب للفكرة الإصلاحيّة ومشروعها، على الرغم من أنها أتت شاملةً غيرَ جزئيّةٍ (كما هي جزئيّةٌ الأفكارُ السابقةُ المشارُ إليها). ونحن نعرف، على التحقيق، أنه ما من فكرةٍ أو مشروع كُتِبَ لهما البقاء في غياب القوّة الاجتماعيّة والسياسيّة الحاملة لهما، فالأفكار ـ يقول ماركس ـ لا تتحوّل إلى قوّةٍ ماديّة إلاّ حين تحملها قوّة اجتماعيّة وتجسِّدها. وكم من أفكارٍ اضمحلّت وزالت من التاريخ، على الرغم من عظيم قيمتها، لمجرّد أن موردها الاجتماعيّ والسياسيّ (الحامل لها) نضبَ وتوقَّف عن الوجود. هل يَسَعنا اليوم أن ندرِك أسباب انحسار الاعتزال، وتراثه العقلانيّ في تاريخ الإسلام، من دون ربط الانحسار ذاك بافتقار تراثه إلى القوّة التي تَحْمِله وتصونُ بقاءَهُ في التاريخ؟

ورابعها انقضاضُ الإحيائيّة الإسلاميّة على تراث الإصلاحيّة وعلى قضيّتها التي نذرت نفسَها لها، وتصفيتُها التراثَ ذاك ومحْوُها القضيّة تلك. لم يرثِ الإحيائيّون شيئاً من تراث الإصلاحيّة، منذ دشّن حسن البنّا مقالتهم في نهاية العشرينيّات من القرن الماضي، على الرغم من زعْم بعض رموزهم أنهم امتدادٌ لفكر الإصلاح الإسلاميّ. سؤال الإصلاحيّين الإشكاليّ، الذي دار تفكيرُهم وإنتاجُهم حوله[16]، هو: **كيف نتقدّم**؟ أمّا سؤال الإحيائيّين (= الصَّحَويّين) فكان: **كيف نحافظ على الهويّة**؟ وبيِّنٌ هو البوْنُ بين سؤالٍ يفتح الفكر على الآفاق والمستقبل، ويَحْمل على اقتحام التاريخ والانخراط فيه، وتوسُّل الأسباب المعرفيّة والاجتماعيّة لذلك، وسؤالٍ يُغلق الأنا على حاضرها، بل على ماضيها؛ على خيار الانكفاء والتشرنُق واللّواذ بـ «الأصول»، ورفض التثاقف والانتهال من الآخر بدعوى مقاومة «الغزو الثقافي» والتبعية... إلخ! والحقُّ أنّ بعض متأخّري الإصلاحيّة كان مسؤولاً عن الإتيان على تراثها بمعاول الهدم، وتهيئة الأجواء لميلاد خطابٍ إحيائيّ انكفائيّ؛ ويتعلّق

16. انظر رأينا بالتفصيل في: عبد الإله بلقزيز؛ رضوان السيّد، **أزمة الفكر السياسيّ العربيّ**. بيروت: دار الفكر، 2000.

الأمر في هذا، تحديداً، بالسيّد محمّد رشيد رضا، تلميذ محمّد عبده، الذي تخلّى عن تراث أستاذه والإصلاحيّين في كتابه: **الخلافة أو الإمامة العظمى**[17]؛ الكتاب الذي عاد فيه إلى السياسة الشرعيّة وتراثها الفقهيّ، وتراجع فيه عن فكرة الدولة الوطنية[18] التي كان الدفاعُ عنها والدعوة إليها جوهر أطروحة تيّار الإصلاح. هكذا تلقّتِ الفكرةُ الإصلاحيّةُ ضربةً ثقافيّةً قاصمة من تيّار قدَّم نفسَه بوصفه إسلاميّاً! فكانت النتيجة أن بَدَا الإسلام وكأنّه يناوئ فكرة التقدّم والنهضة بعد أن حاول الإصلاحيّون، بجَهد جهيد، تقديم سرديّةٍ منفتحة وعصريّة عنه!

أمّا **خامسها** فهو التحلُّل الفكريّ العربيّ الحديث، وخاصّةً من قِبَل التيارات الثقافيّة والإيديولوجيّة الجديدة ـ التي سُمِّيَتْ تقدُّميّة ـ، من الفكرة الإصلاحيّة وإعلانُها نهايَتها وتجاوُزَها. حصل ذلك منذ مبتدإ النصف الثاني من القرن العشرين، في جملةِ حكمٍ عدَميٍّ طائشٍ أطلقتْه تلك التيارات على أفكارٍ كبرى كالإصلاح والنهضة. ولأنّ الزمن الجديد، الذي وُلِد من رحم سنوات الخمسينيّات وامتدّت أحكامُه إلى منتصف السبعينيّات، هو زمن الثورة؛ زمن حركة التحرُّر الوطنيّ والحركة القوميّة وحركات اليسار، فقد خُيِّل لكثيرين أنّ أفق التفكير هو الثورة لا الإصلاح أو النهضة. لذلك ستنسحب مفاهيم الإصلاح والتمدُّن والنهضة من المجال التداوليّ العربيّ ليحُلّ محلَّها المفهوم السحريّ الجديد والجذَاب: الثورة، وسيُعْتَقَد ـ على نطاقٍ واسع ـ أنّ الثورة تُنْجز وستُنْجز ما عجزت عنه تيارات الإصلاح والنهضة. ولم تتعرّض طوبى الثورة للأزمة إلاّ متأخرة: في أعقاب هزيمة العام 1967، وتصدُّع معمار النظام السياسيّ القوميّ وردائفه السياسيّة اليسارية الخارجة من رحم الهزيمةِ عينِها!

اجتمعت الأسباب (والعوامل) الخمسة، المومأ إليها أعلاه، لتصنع ـ بدرجاتٍ من التأثير مختلفة ـ حالة الإخفاق التي منيَ بها المشروع الإصلاحيّ. ونحن، إنْ دقّقنا النظر قليلاً، سنلفي أنّ الإصلاحيّة الإسلاميّة لم تكن مسؤولةً عمّا لحِقَها من وهْنٍ واضمحلال

17. محمد رشيد رضا، **الخلافة أو الإمامة العظمى: مباحث شرعيّة سياسيّة اجتماعيّة إصلاحيّة**. القاهرة: مطبعة المنار، 1922.

18. انظر نقدنا لموقف محمّد رشيد رضا في: عبد الإله بلقزيز، **الدولة في الفكر الإسلاميّ المعاصر**. ط4، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2014، ص 81 ـ101.

إلاّ جزئيّاً، من خلال ازورار متأخِّري موجتها الأولى عنها (= العامل الرّابع) والتأسيس، من ثمة، لميلاد غريمها ونقيضها (= الإحيائيّة)، بينما كان المعظمُ من أسباب الإخفاق خارجيّاً أو خارجاً عن نطاقها. ومع ذلك، لم يمنع الإخفاق ذاك فكرةَ الإصلاح من أن تتجدّد، سواء من داخل التّيار الفكريّ الإسلاميّ أو من خارجه؛ ذلك أنّ فكرةً كبيرةً كالإصلاح لايمكن أن تُنهيها تجربةُ إخفاقٍ أو كبوٍ، لأنّها من الأفكار التاريخيّة التي تفرض نفسها على الثقافات والمجتمعات والأمم والدول في العالم كلّه، لا على العرب والمسلمين فحسب.

5- الإصلاح كفكرة عابرة للإيديولوجيات

درجَتِ الحركاتُ الثوريّةُ في العهد الحديث ـ منذ يعقوبيّي الثورة الفرنسيّة حتى يوم الناس هذا ـ على أن تنظر إلى فكرة الإصلاح نظرةَ استصغارٍ، بل نظرة استنكارٍ واحتقار بدعوى ترقيعيَّتِها ووقوفها من فكرة التغيير موقفَ إباية. وزاد معدَّل الحِدّةِ في النظرة التحقيريّةِ تلك مع جِيلٍ جديد من النزعة الثورية تولَّد من مخاضات ثورات العام 1948 في فرنسا وأوروبا، كان الماركسيّون ورابطتُهم الشيوعيّة (= أمميّتُهم الأولى) الأظهَر في الرموز المعبِّرة عنه. ولم تلبث النظرة التحقيريّة الماركسيّة للإصلاح أن أضحت عدائيّةً، في نهاية القرن التاسع عشر، مع لينين والبلاشفة الروس، ثم الأمميّة (الشيوعيّة) الثالثة تالياً، فبات التشهير بالإصلاحيّين والتحريضُ عليهم، واتّهامُهم بخدمة المصالح البرجوازيّة مألوفاً، بمن فيهم من كانوا رموزاً للحركات الثوريّة الشيوعيّة؛ على مثال تشنيع لينين على كاوتسكي و«فرسان الأمميّة الثانية». في المقابل بات المائز الفاصل، أو معيار التفرقة (بلغة أبي حامد الغزالي)، بين الثوريّ والإصلاحيّ هو الموقف من العمل السلميّ والعنف الثوريّ؛ من الإصلاحات والتغيير الجذريّ؛ من العمل في المؤسسات السياسيّة السائدة والعمل في أوساط الشعب والجماهير؛ من الإبقاء على النظام القائم وتطويره من الداخل ومن تقويضه وهدمه وبناء نظامٍ جديد. ولفترةٍ طويلة امتدت منذ الحرب العالمية الأولى حتى الثورة الساندينيّة في نيكاراغوا (أواخر السبعينيّات من القرن العشرين)، لم يكن للثورة من دالٍّ يدلّ عليها سوى العمل المسلّح، ولم يكن للإصلاح من اسمٍ رسميّ سوى العمل السياسيّ السلميّ. حتى النضال الديمقراطيّ نفسه لم يكن في وسعه أن يحظى بأكثر من وصفه بأنّه شكل من أشكال العمل الإصلاحيّ!

أصاب الوعيّ العربيّ الكثيرُ من عدوى تلك النظرة القدْحيّة إلى فكرة الإصلاح والإصلاحيّين والحركات الإصلاحيّة، وخاصّة في بيئات اليسار العربيّ: القوميّ والشيوعيّ والماركسيّ- اللينينيّ. وأقصى ما كان يسَعُ هذا اليسار أن يعترف به للإصلاحيّين أنهم كانوا، في القسم الأكبر منهم، وطنيّين معادين للاستعمار. وما دون ذلك، نُظِر إليهم بوصفهم خُدّاماً للوضع السياسيّ البرجوازيّ القائم، وفريقاً في جملةِ ألسنته الناطقة باسم مصالح الطبقات والنخب المُتنفّذة! ولكنّ المثير في القَدْح «الثوريّ» العربيّ في الإصلاح أنّ الذين أتوه لم يكونوا جميعاً، ودائماً، من تيارات اليسار فحسب بل كان في جملتهم نهضويّون ليبراليون، وليبراليّون غيرُ نهضويّين أو لا مشروع نهضة يقوم وراء ليبراليّتهم. إنّ هؤلاء الأخيرين (= الليبراليّين) لم يتحرروا من العداء الثقافيّ لكلّ ما هو موروث وإسلاميّ. ولمّا كانت فكرة الإصلاح اقترنت بمفكّري الإسلام، بات في حكم الضرورة (= الليبراليّة) الطعنُ عليها، وعدُّها فكرةً محافظةً تابعةً للتقدّم منظوراً إليه، طبعاً، بوصفه استعارةً للنموذج الغربيّ واقتداءً به. وقلّما أمكن لبعض الوعي العربيّ غيرِ الإصلاحيّ أن ينتبه إلى حاجة المجتمع العربيّ إلى الإصلاح، وإلى أنّ الواقع العربيّ لم يتجاوز هدف الإصلاح بعد، ولكنّ هذا الوعي ظلّ منحصراً ـ من أسفٍ شديد ـ في دوائر وبيئات فكريّة وسياسيّة ضيّقة، ولم يُقَيَّض له أن يفشوَ على نطاقٍ أرحب فيصير وعياً جمْعيّاً أو، على الأقلّ، وعياً سائداً في المجتمعيْن الثقافيّ والسياسيّ.

في مقابل هذه النظرة الإنكاريّة التحقيريّة إلى فكرة الإصلاح نذهب إلى الزعم بأن **الإصلاح فكرةٌ عابرةٌ للإيديولوجيّات** وليست محض إيديولوجيا (ترقيعيّة أو محافظة) كما يزعُم الثوريّون ـ أو قُل الثورويّون ـ والليبراليُّون. إنّه ليس إيديولوجيا لأنّ الإصلاح، كما أثبتت تجارب التاريخ الحديث والمعاصر، ظلّ يفرض نفسه ـ كخيارٍ تصحيحيّ ـ على كلّ إيديولوجيا سياسيّة، وظلّت الإيديولوجيات السياسيّة وتعبيراتُها السلطويّة مسكونةً به، وخاصّةً في اللحظات التي تُلِمُّ بتجاربها الأزمات، فتدعوها تجاربُ الأزمة إلى إجراء تصويبات وإصلاحات على سياساتها. الأمثلة على ذلك، من الإيديولوجيات السياسيّة الكبرى والسائدة في العالم المعاصر، كثيرة وخاصّة من تجارب نخب تلك الإيديولوجيّات

في إدارة السلطة والاقتصاد والإنتاج. وتكفينا الإشارة إلى اثنتين منها كُبْرَيَيْن كانت لهما السطوة والسيادة لردحٍ من الزمن معاصرٍ امتدّ منذ الحرب العالميّة الأولى حتى اليوم، هما: الإيديولوجيا الليبراليّة (البرجوازيّة) والإيديولوجيا الاشتراكيّة (الماركسيّة).

لم يتوقّف الليبراليّون، تحت وطأة الأزمات المتعاقبة التي كادت تعصف بنظامهم الاقتصاديّ الرأسماليّ في مناسبات تاريخيّة متعدّدة، عن اللجوء إلى تصحيح أوضاع نظامهم واقتصادهم من طريق مراجعة نموذجهم المطبّق وإصلاح ما يعتوره من خلل. ولم يكونوا يشعرون بأيّ ضيْر في أن يلتمسوا حلولاً لأزماتهم تلك من منظومات أخرى منها منظومة الخصم (= الاشتراكيّ). هكذا وجدوا أنفسهم يُقْدِمون، ثلاث مرّات على الأقل خلال ثمانين عاماً، على استعارة بعضٍ من سياسات ذلك الخصم لإصلاح الخلل الذي دبّ في منظومتهم. يقوم النظام الاقتصاديّ الرأسماليّ على حريّة المبادرة، والمنافسة، و«قوانين السوق» وعدم تدخُّل الدولة في الدورة الاقتصاديّة...؛ لكنّ هذه الأساسات تعرّضت لأعطاب أكثر من مرّة ممّا اقتضى العودة عن بعضها. في العام 1929 حدثت أزمة اقتصاديّة هائلة كادت أن تطيح بصرح النظام الرأسماليّ، مما أدّى إلى تصحيح الأوضاع بإطلاق «الخِطّة الجديدة» deal New، والتي لم تكن سوى تدخّل الدولة في الاقتصاد واعتماد سياسات التخطيط؛ السياسات عينها التي كان ينهجها الاتحاد السوفييتي في حينه. وبعد ثمانين عاماً من الأزمة والإنقاذ، وقعت أزمةٌ ماليّة نظير في الولايات المتحدة الأمريكيّة (في العام 2008) كاد أن ينهار معها النظام المصرفيّ ونظام التأمينات نتيجة تداعيات انهيار سوق العقارات وانفضاح الاقتصاد الافتراضيّ! ومرّةً أخرى لم يُنقِذ النظام الرأسماليّ المتداعي سوى تدخّل الدولة وتصحيح الأوضاع من طريق دعم البنوك وشركات التأمين؛ أي توسُّل سياسات دولتيّة (= اشتراكيّة) لإنقاذ الرأسماليّة. وبين الأزمتين، تداركتِ الرأسماليّةُ أزماتها الاجتماعيّة، فأقدمتِ الإيديولوجيا الليبراليّة على سياساتٍ إصلاحيّة عُرِفت ــ في طبعتها الكينزيّة ــ باسم السياسات الاجتماعيّة المكفولة في دولة «الرعاية الاجتماعيّة». وهو إصلاحٌ (= يستعير مبادئ اشتراكيّة مثل العدالة في توزيع الثروة) رام إحداث الموازنة بين مصالح الرأسمال ومصالح القوى المنتجة والكادحة. وقد نجحت

بلدان شمال أوروبا في أن تكرّسه نموذجاً للاقتصاد والتنمية، لتحقّق بذلك قدراً من الاستقرار الداخليّ ليس من نظيرٍ له في سائر الرأسماليات الغربيّة. لم تكن الإصلاحات اشتراكيّة تماماً، ولا هي غيّرت في طبيعة النظام الرأسماليّ ومرتكزاته، لكنّها - قطعاً- استعارت من النموذج الاشتراكيّ الدولتيّ ما تُصوِّب به مَوَاطن الخلل فيها.

في المقابل، لم يتوقف الاشتراكيّون والشيوعيّون ـ تحت وطأة أزمات نموذجهم في إدارة الدولة والاقتصاد ـ عن إصلاح أوضاعهم باستعارة مبادئ وآليات من المنظومة الليبراليّة. الأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بالإشارة إلى أربعةٍ منها في المائة عامٍ الأخيرة. أوّلها اضطرار لينين والبلاشفة إلى إصلاح النظام الاقتصاديّ السوفييتي من طريقٍ رسملته في ما عُرف باسم «السياسة الاقتصاديّة الجديدة» (NEP)، أي من طريق الانفتاح على المنظومة الخصم للاشتراكيّة من أجل تدارُك تأخُّر روسيا. في المثال الثاني تكرّر الإصلاح الرأسماليّ السوفييتيّ، بعد ستين عاماً من رحيل لينين، أي في إطار ما عُرِف في حينه باسم الپيريسترويكا (= إعادة البناء) التي أطلقها ميخائيل غورباتشوف، آخر رئيسٍ للاتحاد السوفييتي، لكن النتائج أتت عكسيّة؛ إذ ما لبث الاتحاد أنِ انفرط والنظام «الاشتراكيّ» أنِ انهار. أما في صين دينغ سياوپينغ، الذي خلف ماوتسي تونغ على قيادة الدولة، فقد أتى الإصلاح الاقتصاديّ رأسماليّاً ناجحاً تحوّلت به الصين، بعد ثلث قرنٍ من تطبيقه، إلى ثاني قوّةٍ اقتصادية في العالم. ورابعاً، وأخيراً، إصلاح المنظومة الإيديولوجيّة السياسيّة الماركسيّة- اللينينيّة من قِبل الأحزاب الشيوعيّة الأوروبيّة، بعد الحرب العالميّة الثانيّة، الذي انتهى إلى تخلّي الأحزاب تلك عن ركنيْن رئيسَيْن في العقيدة اللينينيّة- الستالينيّة: العنف الثوريّ (للوصول إلى السلطة) وديكتاتوريّة البروليتاريا، وإلى التمسّك بالطريق الديمقراطيّ السلميّ للتغيير، أي أيضاً إصلاحها (= المنظومة) باستعارة مبادئ من الفكر السياسيّ الليبراليّ.

في المثاليْن اللذيْن أشرنا إليهما (= الليبراليّ والاشتراكيّ) ما يقوم بهما دليلٌ على أنّ فكرةَ الإصلاح هي، فعلاً، عابرة للإيديولوجيّات، بل هي ملازمة لكلّ إيديولوجيا يَعْرِض لنظام اشتغالها أزمة. وعليه، لا مسوِّغ لتصنيف دعوة الإصلاح بأنها دعوة دينيّة، أو مقترنة بإيديولوجيا دينيّة، لمجرّد أنها صدرت من رجال الدين، في أوروبا القرن السادس

عشر، ومن تيّار فكريّ إسلاميّ في القرن التاسع عشر والبعض القليلِ المتفرِّق من القرن العشرين. إنّ الفكرة التي نحاول أن ندافع عنها، هنا: في معرض بيان أسباب «اقتران» الفكرة الإصلاحيّة بالتيارات الدينيّة، في أوروبا وفي ديارنا، هي أنّ «الاقتران» ذاك ليس أكثر من تجسيدٍ ماديّ لفكرة عبور الإصلاح حدود الإيديولوجيّات؛ فهو مسَّ، هنا، التيارات الدينيّة كما سيمسّ غيرها من التيارات. أمّا أن تكون الفكرة الإصلاحيّة أطلّت، أوّل ما أطلّت، من خلال حاملٍ دينيّ: في أوروبا العصر الحديث وفي العالميْن العربيّ والإسلاميّ، فَمَرَدُّ ذلك إلى أنّ النخب المتشبّعة بثقافةٍ دينيّة كانت أكثر نخب المجتمع انتباهاً إلى مشكلات مجتمعها من غيرها. وهذا معطىً تاريخيّ موضوعيّ في أوروبا وفي عالم الإسلام. وإلى ذلك، فإن مركزيّة الدين في الاجتماع، والأدوار التي ينهض بها في الإدارة الاجتماعيّة والسياسيّة، وفي التربيّة والتكوين، ووجود سوابق إصلاحيّة في تاريخ الأديان التوحيديّة، ثم تزايُد الشعور بالحاجة إلى تكييف النصوص والمنظومة الدينيّة مع أحكام التطور الماديّ...، (كلُّ ذلك) فرض أن يكون التفكير في الإصلاح والدعوة إليه على جدول أعمال رجال الدين ومفكّريه قبل غيرهم.

إذا كانتِ الفكرةُ الإصلاحيّةُ قد عَبَرتِ الحدود بين التيّارات والإيديولوجيّات والسّياسات، في أوروبا والغرب، فاستدخلتها هذه في نسيجها الفكريّ والسياسيّ وصحَّحت بها أوضاعها، فهل كذلك كان أمرُها في الثقافة والمجتمع العربيّين في عهديْهما الحديث والمعاصر، أم إنها عن الامتداد خارج نطاق منبتها الإسلاميّ ظلّت بمعزل؟

لم تبْق فكرة الإصلاح محصورةً بين أسوار الفكر الإسلاميّ كما قد يُظَن، وإنّما خرجت إلى الرحاب الأوسع فتمثَّلتها تيّارات أخرى: نهضويّة ليبراليّة، وقوميّة ويساريّة، واستدمجتها ــ على تفاوُتٍ بينها ــ في نظامها الفكريّ والإيديولوجيّ. وإذا كان هناك من مفارقة في المسألة، فهي في أنّ الفكرة الإصلاحيّة غادرت نطاقها الإسلاميّ، منذ عقودٍ تسعة، ولكن من دون أن تعود إليه إلاّ في لحظاتٍ متفرّقةٍ معدودات، بينما طاول تأثيرُها تيارات أخرى. إنّ كل من يتهجَّس، اليوم، بأسئلة الإصلاح الدينيّ، والإصلاح الاجتماعيّ والتربويّ، وإصلاح المنظومة التعليميّة، والإصلاح الاقتصاديّ، والإصلاح السياسيّ والدستوري ــ وأكثرُ

هؤلاء من التيارات الحداثيّة ــ هو شريكٌ، حكماً، في تراث الإصلاح وناهلٌ منه، وهو يقيم الدليل ــ بالتالي ــ على أنّ هذا الإصلاح ليس إيديولوجيا مغلقة، بل ديناميّة إيجابيّة دافعة ومُنْتجة؛ عابرة للإيديولوجيّات.

6 - الإصلاح أُفقاً

مَن يقْصُرون الفكرةَ الإصلاحيّة على تيّارٍ فكريٍّ بعينه هو، في الحالة العربيّة، التيّار الفكريّ الإسلاميّ (في القرن التاسع عشر)، يُخطئون معناهُ ــ وقد يبتذلونه ــ و بالتالي، يستصغرون شأنه حين يركنون إلى اعتقادٍ واهم بأنّه استنفد ممكناته وبات من الماضي. وهو اعتقادٌ قد يَحْملهم عليه الظنُّ بأن تيارات الفكر العربيّ اللاحقة، على التيّار الإصلاحيّ الإسلاميّ، تجاوزت إشكاليّات هذا الأخير وفتحتِ التفكير على موضوعات أخرى وآفاق أخرى أدعى إلى الاهتمام من قضيّة الإصلاح. وعندي أنّ هذا الحكم السلبيّ في راهنيّة الإصلاح (أمرٌ) في غاية السوء، بل في غاية الفساد؛ فمشروع الإصلاح، كما نزعُم، ليس من الماضي، بل هو على جدول أعمال حاضرنا؛ إنه ــ بعبارةٍ أدقّ ــ **ليس وراءنا بل أمامنا**.

نعلّل رأينا هذا الذي نراه بأمورٍ ثلاثة مترابطة؛ أنّ فكرة الإصلاح ــ كما لم نتوقّف عن القول ــ فكرة عابرةٌ للتيّارات والإيديولوجيّات ولا يجوز نِسبتُها إلى تيّار بعينه وإن هي نبتت، تاريخيّاً، في منابته؛ ولأنّ مشروع الإصلاحيّة الإسلاميّة، ثانياً، لم تتحقّق أهدافُه تماماً بحيث يجوز القول إنّه استنفد دوره؛ ثم لأنّ الإصلاح، ثالثاً، سيظل، في مطلق الظروف والأحوال، مطلباً اجتماعيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً في الواقع العربيّ: اليوم وغداً. لن نعيد كتابةَ ما كتبناهُ في المسألتين الأولى والثانية، بل نكتفي ببيان مركزيّة مطلب الإصلاح في الواقع العربيّ، أخذاً بعين الاعتبار أنّ التعبير عن المطالب الإصلاحيّة بلغةٍ مستعارة وغيرِ مطابِقة، من قبيل «التغيير الجذريّ» و«الثورة»، ممّا لا يتحمَّله واقعٌ موضوعيّ ينوء بثقل التأخُّر والتخلُّف، وممّا لا يناسب واقعاً ذاتيّاً متهالكاً للقوى الاجتماعيّة والسياسيّة التي تزعُم لنفسها حَمْل مشروع «التغيير الثوريّ» للأوضاع العربيّة!

أمامنا، على الأقلّ، **خمسة** عناوين للإصلاح في الواقع العربيّ: راهناً وفي الأمد المنظور، لا تَقْبَل الإرجاء:

أولها سياسيٌّ؛ ويتعلّق بما تفرضه الأوضاعُ العربيّة المأزومة، داخل كلّ بلدٍ عربيّ، من ضرورات تصحيحيّة للمجال السياسيّ فيها، للخروج من حال التأزّم والانسداد التي تهدِّد بأوخم العقابيل. لم يعد ممكناً لعرب اليوم التهرُّب من «استحقاق» الإصلاحات السياسيّة والدستورية لمعالجة حال الخلل في جهاز الدولة وإدارة السلطة. ولا ينبغي أن ترتبط الحاجة إلى الإصلاحات تلك في أذهاننا بالضغوط الدوليّة على مراكز القرار في دولنا ــ كما يشاء البعض أن يردّ على مطالب الإصلاح سلباً ــ بل ينبغي التسليم بأنها الإصلاحات الضروريّة لإعادة بناء الثقة بين المجتمع والدولة، الشعب والسلطة. إنّ الفصل بين السلطات، واحترام استقلالية القضاء، وبناء المؤسّسات التمثيليّة المنتَخَبَة، وإقرار الحقوق المدنيّة والسياسيّة للمواطنين كافّة، وإقرار التعدُّديّة السياسيّة وحريّة الرأي والصِّحافة والنشر... لهي من آكَدِ الإصلاحات التي يجب إجراؤها لاستيعاب التأزّم السياسيّ الحادّ الذي يكاد أن يعصف باستقرار الدولة والسِّلم المدنيّة، ثم لتمتيع المواطنين العرب بأنظمة سياسيّة ذات قدرٍ محدود من الشرعيّة.

و**ثانيها** اقتصاديّ؛ ويرتبط بالحاجة إلى وضع أسسِ اقتصادٍ إنتاجيّ قائم على الصناعة والزراعة وإجابة الحاجات الاجتماعيّة (التشغيل، توفير الغذاء، حماية الثروات والطاقة غير المتجدّدة من التبدُّد...)، للخروج من نفق الاقتصـاد الرَّيعيّ والاستهلاكيّ والطفيليّ (= العقاريّ، السياحيّ، التجاريّ...)، ومن شرانق الاستيراد الأعمى (بما في ذلك لمواد الاستهلاك الغذائيّ الشعبيّ)، ومن الفاقة والخَصاص اللذيْن يطحنان المعظم من المجتمعات العربيّة، ويقذفان بجحافل الناس إلى الفقر والحرمان والهامشيّة الاجتماعيّة. ويدخل في جملة الإصلاحات هذه محاربةُ الفساد وهدْر المال العامّ والثروات الوطنيّة، وإصلاح النظام الضريبيّ، واستيداء الدولة الأموالَ العامّة ممّن يمارسون التملّص الضريبيّ، من المستثمرين، ويتحايلون على القانون! ومن النافل القول إنّ مَبْنى أيِّ إصلاح اقتصاديّ إنّما يكون على المصالح والحقوق الاجتماعيّة التي هي معيارُهُ وهدفُه؛ فالعبرةُ في هذا الإصلاح بما يجيب عنه من الحاجات وما يوفّر به الأمن والاستقرار.

و**ثالثهما** اجتماعيٌّ؛ وإذْ تتعدَّد وجوهُه نكتفي بأن نشير إلى اثنين من أظهر وجوه الإصلاح المطلوبة فيه: إصلاح نُظُم الحماية الاجتماعيّة للمنتجين من عمّال وفلاحين

وفئات الموظفين الصّغار، وإنصاف حقوقهم الاجتماعيّة ورفع الحيْف عنهم من خلال إعمال مبدإ التوزيع العادل للثروة، والحدّ من الفوارق الطبقيّة الفاحشة؛ وإصلاح منظومة التشريعات الخاصّة بالأسرة، وبالمرأة تحديداً، وهي نصف المجتمع، من خلال إنفاذ أحكام المواطنة على أوضاعها، بما يفرضه ذلك من إقرار مبدأ المساواة الكاملة في الحقوق بين الجنسين، ورفع الحيْف والتهميش عن النساء وتمكينهن من الفرص الاجتماعيّة كافة: في التعليم والتكوين والعمل وتقلُّد المناصب الكبرى في الدولة، بما فيها السياديّة.

و**رابعُها** إصلاح منظومة التعليم، بتحديثها وعقلنتها في برامجها ومضمون تلك البرامج؛ وتعميمه على كلّ من بلغوا سنّ التمدرُس؛ وتخفيف عبء كلفته على الفئات والطبقات الفقيرة، من طريق تحمُّل الدولة أعباء الإنفاق عليه، وإقرار مجّانيته إلى حدود تحصيل التكوين الأساسي والتأهيلي، وكفّ يد استغلال القطاع الخاصّ هذا المجال الحيويّ والاستراتيجيّ الذي عليه مبْنى المستقبل. ويدخل ضمن إصلاح التعليم إعادة النظر في برامجه ومناهجه وطرق تلقينه، بما يسمح بتكييف المنظومة التعليميّة مع قواعد التكوين المعمول بها في الدول الحديثة.

أمّا **خامسُها** فإصلاح مؤسّسات المجال الدينيّ؛ من تشريعات خاصة بالشأن الدينيّ، ومن مؤسّسات (التعليم الدينيّ، القضاء الشرعيّ، مؤسّسات الإفتاء، نظام الوقف)؛ وسنّ تشريعات صارمة لمنع استغلال الدين لأغراض الثروة والسلطة أو في المنازعات الاجتماعيّة والسياسيّة؛ ونشر ثقافة الاجتهاد والتسامح، وتجريم أفعال التعصّب الطائفي والمذهبيّ والكراهيّة وكلّ ما من شأنه النّيل من وحدة الدولة والشعب والسّلم المدنيّة.

إنّ هذه العناوين الإصلاحيّة، وغيرها كثير، هي مما ينتظرنا إنجازُه اليوم وغداً؛ وهي ما يقوم به الدليل على أن زمن الإصلاح لم ينصرم بعد، وأنّ الإصلاح أفقٌ مفتوحٌ أمامنا وليس مطلباً من الماضي.

مابين اللّسانيات التطبيقية وديدكتيك اللغات:
تداخل التخصصات أم تشويش «براديكمي»
(في أفق إنشاء نموذج لساني/تدريسي تفاعلي)

محمد الدريج
أستاذ باحث في الفلسفة وعلوم التربية

تمهيد: أهداف الدراسة

نسعى من هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، من أهمها:

1) بسط جوانب من تخصصات شديدة التعقيد، مرتبطة بعلوم التدريس واللسانيات، وما تطرحه طبائعها وعلائقها من إشكالات تربوية ــ تعليمية، سواء على المستوى النظري أو على مستوى الممارسة داخل حجرات الدرس. تخصصات تعرف مفاهيمها الكثير من اللبس لدى المربين، بمن فيهم الأساتذة الباحثون أنفسهم؛ مما قد يعرقل مهامهم، فبدلا من أن يوظفوا نظرياتها سواء في أبحاثهم ونشاطهم العلمي أو أدائهم التربوي، فإنهم ينفرون منها ويشكون في فعاليتها وقد يذهب بهم الأمر إلى حد الاعتقاد في أنها هي السبب وراء ضعف الدرس اللغوي في منظومة التعليم.

2) التحذير من مخاطر ضعف النموذج والمنظور لدى الباحثين اللسانيين وعلماء التدريس على حد سواء، ومخاطر أن يصابوا بمس من «التشويش الباراديگمي»،[1] والذي

1. يشكل البارديگم (المنظور) paradigme، نظرة خاصة للواقع (الطبيعة والمجتمع) مثل المنظور الآلي للكون أو المنظور السلوكي للإنسان،إنه مجموعة من الحقائق التي تؤدي وظيفة المسلمات والمنطلقات والتي تمثل نظرة عامة حول مجال أو حقل من الحقول، تسهل التواصل و التطوير وتسهل موضعه دراسة ظواهر معينة. وتكون هذه الحقائق المثلة لمنظور، موجهة لوضع الفرضيات واستخلاص القوانين وإنشاء النماذج والنظريات وموحية بالتطبيقات الملائمة سواء في المجال التربوي أو غيره من المجالات.

لا نلاحظه لدى الباحثين الافراد فقط، بل نلاحظه كذلك على مستوى الإعداد النظري والعملي في الكليات، مثل كلية علوم التربية و كليات الآداب وكذا مؤسسات تكوين المدرسين وغيرها، والتي تفتقر في الغالب، إلي الأسس الفكرية والنماذج التربوية الملائمة وتعاني من غموض وتشويش في الخلفيات النظرية لبرامجها، يتجليان في كثرة النماذج واللجوء إلى التقليد الأعمى واستيراد النظريات والتبعية بالتالي لمنتجيها ومروجيها.

3) كما تهدف هذه الدراسة إلى محاولة فك خيوط العلاقة المتشابكة بين اللسانيات وعلم التدريس في المجال التربوي، ورسم الحدود بينهما، بما قد يفيدنا في وضع أسس مشروع **نموذج لساني- تدريسي تفاعلي**، ذي طابع عملي وظيفي ومبسط، يستغل مختلف الوسائط الإلكترونية ويوظف التعليم الرقمي، شرعنا مؤخرا في الاشتغال عليه ضمن مجموعة بحث متعددة التخصصات، لهدف بناء منظومة تساعد المدرسين القدامى منهم والجدد والمدرسين المتدربين بمراكز ومدارس التكوين المهني، في إعداد سيناريوهات الدروس و تنظيم وضعيات التعليم- تعلم وتعلم اللغة على وجه الخصوص، والعمل بها وتقويمها مع الاستفادة المثمرة من اللسانيات والديدكتيك (علم التدريس) وعلوم الحاسوب وغيرها من العلوم الإنسانية ذات الصلة مثل علم النفس، وتوظيفها بشكل عقلاني وهادف، كما قد تساعد المشرفين التربويين وواضعي المناهج و مؤلفي الكتب المدرسية على تحقيق مشاريعهم بشكل جيد.

غير أننا ننبه منذ البداية، إلى أن الهدف من هذا النموذج التفاعلي ليس وضع آلة أو جهاز معقد «لصنع» دروس ووضعيات جاهزة وصالحة للاستعمال أو «صور طبق الأصل»، تصبح بدورها مدعاة للملل وربما للنفور من الدرس اللغوي وغيره والتذمر من كل دعوة لتطويره وتحديثه، الأمر الذي قد يكون وراء ظهور فئات من المربين الرافضين للديدكتيك واللسانيات معا وربما للعلوم المساعدة الأخرى والكارهين للاستعانة بها في مهامهم، علوم تلقن في العادة بمؤسسات إعداد المدرسين، دون أن يكون لها أدنى تأثير يوم تخرجهم للعمل والتحاقهم بالأقسام، بسبب عدم تمكنهم منها (نظريا وعمليا) وعدم إدراكهم لأوجه تطبيقها وسبل توظيفها في مهامهم التربوية.

وسنحاول بلوغ هذه الأهداف من خلال عرض وصفي، تحليلي وانتقادي مبسط قدر الإمكان، للمواضيع/القضايا التالية:

أولا: بين اللسانيات واللسانيات التطبيقية؛

ثانيا: الديدكتيك و ديدكتيك اللغات؛

ثالثا: بين اللسانيات التطبيقية وديدكتيك اللغات؛

رابعا: مجالات اللسانيات التطبيقية في علاقتها باكتساب اللغة؛

خامسا: اللسانيات التطبيقية ومخاطر التشويش الباردیكمي؛

سادسا: الطريق الثالث أو من أجل تأسيس نموذج بديل (النموذج التفاعلي).

أولا: بين اللسانيات واللسانيات التطبيقية [2].

اللسانيات عموما هي العلم الذي يهتم بدراسة اللغات الإنسانية من حيث خصائصها وتراكيبها ودرجات التشابه والتباين فيما بينها؛ علم حديث نسبيا أرسى أسسه في مطلع القرن العشرين فردينان دو سوسور، الذي اتخذ موقفاً نقدياً من تصورات من سبقه من اللغويين، خاصة من نظر منهم إلى اللغة على أنها مجرد آلية تاريخية، من غير أن ينظروا إليها من حيث خصائصها البنيوية الثابتة ووظيفتها التواصلية داخل المجتمع الإنساني.

وكان للنظريات اللسانية الفضل في إمداد تعليم اللغات بما فيها العربية، بالعديد من المقاربات والنظريات (النماذج) اللسانية، لتكون بذلك المرجع بالنسبة للمشتغلين بالمجال؛ بعدما اكتشف اللغويون وخاصة فئة الممارسين التربويين منهم، أن تعليم وتعلم اللغة لا يمكن أن يكون ناجحا إلا إذا استند إلى مرتكزات علمية نظرية وعملية دقيقة،

2. اخترنا التركيز هنا على اللسانيات التطبيقية/التربوية، نظرا لأهميتها ولارتباطها بمجالات اهتمامنا وهي التربية والتدريس والديدكتيك، وإلا فإن اللسانيات بما فيها اللسانيات التطبيقية، تفرعت كما هو حال بقية العلوم الإنسانية، إلى العديد من التخصصات، من مثل اللسانيات النفسية و الاجتماعية و التقابلية والتاريخية والجغرافية والحاسوبية... وغيرها، وحصل نفس الأمر مع الديدكتيك والتي تخصصت وتعددت بتعدد محتويات التعليم والتكوين وأنشطتهما. مما يزيد من حدة مشكلات التداخل والتقاطع بينها جميعا وربما الخلط و ما نسميه بالتشويش الباردیكمي والذي يعني بالأساس التأرجح في البحث العلمي بين التخصصات وفروعها وعدم وضوح وثبات المنطلقات النظرية والمرجعيات المنظورية، فضلا عن الهرولة نحو النظريات الأجنبية التي نستند عليها في أبحاثنا، كما سنوضحه بقدر من التفصيل في عناوين لاحقة.

مما ساهم في ميلاد فرع تخصصي أو علم جديد هو اللسانيات التطبيقية (ل. ت.) والمطبقة منها في التربية والتعليم على وجه الخصوص وظهوره وانتشاره في الأوساط الجامعية المغربية.

وبالفعل فقد وجدت علوم اللغة عندنا، نفس الصدى والإقبال، حيث ظهر العديد من الباحثين الأكفاء ممن يجتهدون للنهوض بتدريس اللغات بالمدرسة المغربية، اعتمادا على حقل اللسانيات وغيرها من العلوم الإنسانية المرتبطة وما عرفته من تطورات سواء داخل المغرب أو خارجه.

وعلى سبيل المثال، يقدم رشيد طلبي نموذجا لهذا الإقبال، من خلال قراءته لبعض مؤلفات على آيت أوشان، في بحث له تحت عنوان (اللسانيات التربوية وتدريسية اللغة العربية)، بقوله: «يتأطر مشروعه ضمن مجال اللسانيات التربوية، التي تحاول أن تقارب الفعل التعليمي –التعلمي لتدريس اللغة. ولم يكن هذا الطرح وليد الصدفة، بل عمل الباحث على استقراء الواقع التعليمي -التعلمي بالمدرسة المغربية، في نطاق علاقة بين تدريس اللغة العربية وما عرفته اللسانيات الحديثة من تطور، رافقه في بناء وعي بهذا العلم في مجال التربية ...» [3].

وفي تقديرنا تعد اللسانيات المطبقة في التربية والتعليم والتي تسمى في العادة باللسانيات التربوية، ثمرة تقاطع بين اللسانيات وعلوم التربية. فموضوع اللسانيات التربوية هو الإفادة من حقائق اللسانيات العامة بمناهجها ونتائج دراساتها وتطبيق ذلك كله في مجال تعليم اللغات. أي أنها تستغل معطيات اللسانيات العامة وفروعها الخاصة، وما وصلت إليه بحوثها من نتائج لحل مشكلات تربوية/تعليمية ميدانية؛ ومن الطبيعي أن يوجد هذا النوع من التقاطع والذي نلاحظه بين مختلف العلوم وفي مختلف المجالات، ومن الضروري أن تتبادل التأثير والتأثر فيما بينها ومن الطبيعي كذلك، أن

3. رشيد طلبي: «اللسانيات التربوية وتدريسية اللغة العربية»، مداخلة في ندوة تآلفت حول أعمال علي آيت أوشان، نظمتها المديرية الإقليمية لوزارة التربية الوطنية بفاس، 2019، (غير منشورة).

كما نراجع: علي آيت أوشان: «اللسانيات والتربية: المقاربة بالكفايات والتدريس بالمفاهيم». دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014، ط1، ص.70

يهتم بعضها بنفس المجال ونفس الموضوع، على أن يعالجه كل منها، من زاوية تخصصه؛ كأن يعالج علم الاجتماع الظواهر التربوية فنكون أمام علم الاجتماع التربوي وأن يعالج علم النفس نفس الظواهر من جوانبها السيكولوجية، فنكون أمام علم النفس التربوي... إن تداخل العلوم الحديثة بما فيها العلوم الطبيعية وتكاملها، أضحى سمة معروفة لدى الباحثين المعاصرين. ولا تشذ اللسانيات عن ذلك، فبعد احتلالها مركز الصدارة في مجال الدراسات الإنسانية وباعتبارها كما اسلفنا في التعريف، أول علم اتّخذ اللغة موضوعا للدراسة وبما أن اللغة كما هو معلوم، ظاهرة (جسمية، نفسية، اجتماعية...) شديدة التعقيد، فلا غرو أن يستحوذ موضوعها هذا، على اهتمام علوم أخرى من مثل:

1) علم النفس، باعتبار اللغة مظهرا هاما من مظاهر السلوك الإنساني، فنشأ بالتالي علم النفس اللغوي *psycholinguistique* (أو علم اللغة النفسي) كفرع من فروع اللسانيات التطبيقية أو كفرع من فروع علم النفس وكمثال نموذجي على امكانية تداخل وتعدد الاختصاصات حول موضوع واحد وهو اللغة واكتسابها.

2) كما استنفرت اللغة اهتمام علماء الاجتماع باعتبارها ظاهرة اجتماعية، فنشأ علم الاجتماع اللغوي *sociolinguistique* (أو علم اللغة الاجتماعي)، والذي يعرفه بيتر ترادجل Peter Trudgill (1974) «بأنه الشعبة المتفرعة عن علم اللسانيات والتي تُعنى باللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية وحضارية. فهي تدرس التبادل الجدلي القائم بين اللغة والمجتمع، وتستند إلى علوم أخرى مساعدة، كعلم الاجتماع والأنثربلوجيا والجغرافيا البشرية وعلم النفس الاجتماعي وغيرها» . [4]

ولا بأس أن نتوقف سريعا، للإشارة إلى إشكالية تموقع هذا الفرع (علم الاجتماع اللغوي) ضمن اللسانيات التطبيقية، من خلال السؤال الذي يطرحه فليب بلانشي

4. بيتر ترادجل: «**السوسيولسانيات**»، **مدخل إلى دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع**»، ترجمة محمد كرم الدكالي، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2017.

لا بأس أن نذكر هنا بما يمكن أن ينتج عن هذا التقاطع بين التخصصات من تشويش، حيث يذهب جميل حمداوي في مقالة له تحت عنوان «اللسانيات الاجتماعية»، (شبكة الألوكة، 2/7/2015)، إلى ما يؤكد احتمال حدوث الانزلاق، بقوله: «ومهما تعمقنا في الفوارق الموجودة بين اللسانيات وعلم الاجتماع اللغوي، فلا نجد فرقا كبيرا بينهما؛ لأن هدفهما واحد يتمثل في التواصل والارتباط بالسياق الاجتماعي. وأكثر من هذا تصبح اللغة حدثا اجتماعيا بامتياز. لذا، فاللسانيات في الحقيقة، هي اللسانيات الاجتماعية».

Philippe Blanchet (2011) كعنوان لدراسته المتميزة «علم الاجتماع اللغوي، هل هو علم متداخل التخصصات؟

وكجواب عن هذا السؤال يطرح بلانشي على لسان لبوف Labov, W. ثلاثة آراء:

أ- علم الاجتماع اللغوي هو علم لساني = من علوم اللغة؛

ب- علم الاجتماع اللغوي هو علم اجتماعي = اثنولوجية اللغة؛

ج- علم الاجتماع اللغوي هو علم متداخل التخصصات (السالفة وغيرها).[5]

وكجواب مبدئي، يميل بلانشي إلى الطرح القائل بوجود مجالات بحثية تستدعي بالضرورة تعاضد أكثر من تخصص للبحث فيها. إذ من المعلوم أن بعض الاكتشافات المهمة التي شهدها العالم في السنوات الخمسين الأخيرة، لاسيما في مجال الرياضيات (الحاسوب) والفيزياء والكيمياء والأحياء الجزئية (الجينات) والأنثروبولوجيا، كانت وليدة تداخل عدد من التخصصات.

3) وسيكتسح علم التدريس Didactique بدوره موضوع اللغة، على اعتبار أن اللغة ظاهرة تربوية تنشط كثيرا في السياق المدرسي، فظهرت ديدكتيك اللغات واشتغلت إلى جانب اللسانيات التربوية والتي يحلو لعبد العزيز قريش تسميتها باللسانيات المدرسية التطبيقية[6]، فأصبحت من أهم مساقات اللسانيات التطبيقية ومن أهم مساقات الديدكتيك في نفس الآن، وهو مساق تعاوني تفاعلي ما انفكت أطرافه تترامى وتتشعب، كلما تعددت أبعاده ومجالاته، الأمر الذي قد يجعل منه مساقا متداخل التخصصات.

4) ويقدم علم المصطلح Terminologie وهو فرع من فروع اللّسانيات التطبيقية، نموذجا دالا عن مدى التفاعل والتكامل و«الشراكة» بين العلوم، حيث يعرف بكونه: «العلم الذي يبحث في العلاقة بين المفاهيم العلمية والألفاظ التي تعبر عنها، ويتطرّق إلى منهجية وضع المصطلحات وتوحيدها وفقا لمعايير محددة». وحسب علي القاسمي (2008) فعلم المصطلح «علم مشترك بين اللسانيّات وعلم المنطق وعلم الوجود

5. Labov, W.: «*Sociolinguistique*». Paris, 1976 (Minuit). Philippe Blanchet :«*La sociolinguistique est-elle une «inter- discipline»?* Travaux neuchâtelois de linguistique, 2011, 53, pages 13-26 P 14

6. عبد العزيز قريش (2018): «البحث التربوي الميداني أساس تأصيل اللسانيات المدرسية التطبيقية». (مقالة منشورة في : *Actualités*, 25 juillet 2018.

(الأنطولوجيا) وعلم المعرفة (الإبيستيمولوجيا) وعلم التوثيق وحقول التخصص العلمي . فكل هذه العلوم تتناول في جانب من جوانبها التنظيم الشكلي للعلاقة المُعقدة بين المفهوم والمصطلح، ولهذا ينعته الباحثون الروس بأنَّه علم العلوم».[7]

5) من النماذج المعبرة كذلك، عن مدى التكامل بين العلوم والتفاعل بين التخصصات، ما نجده فيما أصبح يعرف «بالدراسات البينية» والتي تسعى إلى تجسير الفجوة بين العلوم بعد تشعبها، وينتشر تحت مسميات كثيرة مثل «الدراسات العابرة للتخصصات interdisciplinarité»، والتي تتوخى الكشف عن مناطق التخوم (التجاور والتلاقي والتشابك...) فتجمع بين المنظور التخصصي والمنظور الموسوعي، الذي يركز على التكامل المعرفي بين كافة العلوم.

وتنطلق كل تلك النماذج من الإلحاح على ضرورة توسيع الأفق العلمي عند الاشتغال بقضية ما، خاصة وأن كل القضايا مركبة وتحتاج لتضافر الاختصاصات سواء قام بتناولها فريق علمي أو نهض بها «عالم موسوعي» واحد. ويعزو خالد فهمي ذلك الإلحاح إلى الرغبة في مواجهة «الفهم الخاطئ لطبيعة التخصص وسوء ترسيم الخرائط المعرفية لموضوعات وحقول المعرفة، وتعقد الظواهر العلمية في العلوم الإنسانية»...وكانتقاد منه لأولئك الذين يتحمسون لمقولة التخصص، يقول: «يردون منجزا علميا بدعوى صدوره عن غير متخصص، فهم ينطلقون بذلك من رؤية «ذرية» (معالجة بحثية غربية تفتت الظاهرة وتنغلق عليها عند الفحص)، حكمت مسيرة الاشتغال بالعلم في الغرب ردحا من الزمن».[8]

7. علي القاسمي: «**علم المصطلح: أسسه النظرية وتطبيقاته العملية**»،مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2008، ص.68.

8. تأثرت على ما يبدو الكثير من تلك النماذج، بما ذهب إليه المؤرخ المستقبلي آلفين توفلر Alvin Toffler عند حديثه عن متطلبات مناهج التعليم فيما يسميه بمجتمع الموجة الثالثة (مجتمع ما بعد الصناعة)، وكيف أن هذه المناهج يجب أن تُعلِّم الفرد كيفية تصنيف وإعادة تصنيف المعلومات وكيفية تقييم صحّتها وكيفية تغيير التصنيفات عند الضرورة وكيفية النظر إلى المشاكل من زاوية جديدة، وكيفية قيام الفرد بتعليم نفسه، أو بإلغاء ما تعلّمه سابقاً واستقاء تعليم جديد يتناسب مع التغييرات المتسارعة. مناهج تعليميّة تستهدف تدريب الناس على تناول مشكلات ليس لها وجود فحسب، بل أغلب الظن مشكلات تحتاج إلى أخصائيين في مجالات متنوعة من التخصصات.»

لقد عمل توفلر على توجيه التعليم والبحث والتطوير والابتكار نحو مجالات عابرة للتخصصات، وأوضح أهمية التفكير والاستقراء المعرفي الشامل، وردم الفجوة بين الإنسانيات والعلوم الطبيعية والهندسية، وجسر الهوة بين النظرية والتطبيق.

(بتصرف عن علي أسعد وطفة: «**من صدمة المستقبل إلى الموجة الثالثة: التربية في المجتمع ما بعد الصناعي في منظور آلفين توفلر**»، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، يونيو 2019، صفحة 17 وما بعدها.

ولفت محمد صالحين الانتباه إلى ما يؤكد هذا الرأي، حيث يذهب إلى أن «العلوم (الإنسانية والطبيعية...) مرت بأحقاب عديدة بدءا بالمرحلة الموسوعية إلى المرحلة التخصصية العامة ثم مرحلة التخصص الدقيق ثم مرحلة التشظي الأدق، والآن نعود إلى مرحلة الموسوعية المعرفية لكن من باب: الدراسات البينية.»[9] و يظهر ذلك التطور، القدرة التوليدية للنهج العابر للتخصصات، فكلما كانت الظاهرة أكثر تركيبا اقتضت دراستها تخصصات أكثر تتقاطع عندها وتستكشف مختلف جوانبها وتقدم نماذج أكثر قدرة على تفسيرها، بحيث يغدو، حسب صالحين،من المستحيل إلحاق الحصيلة المعرفية بأي تخصصٍ ذي هوية محددة.

* * *

على أن هذه النماذج، بقدر ما تقدمه من توضيحات ودلالات حول طبيعة التفاعل والتكامل بين مختلف ضروب المعرفة، فإنها قد تعمق في نفس الآن، من شكوكنا في احتمال حدوث الخلط والتشويش، خاصة إذا لم نستطع احترام الحدود المنهاجية والفواصل المنظورية، ما بين المساقات والتخصصات.

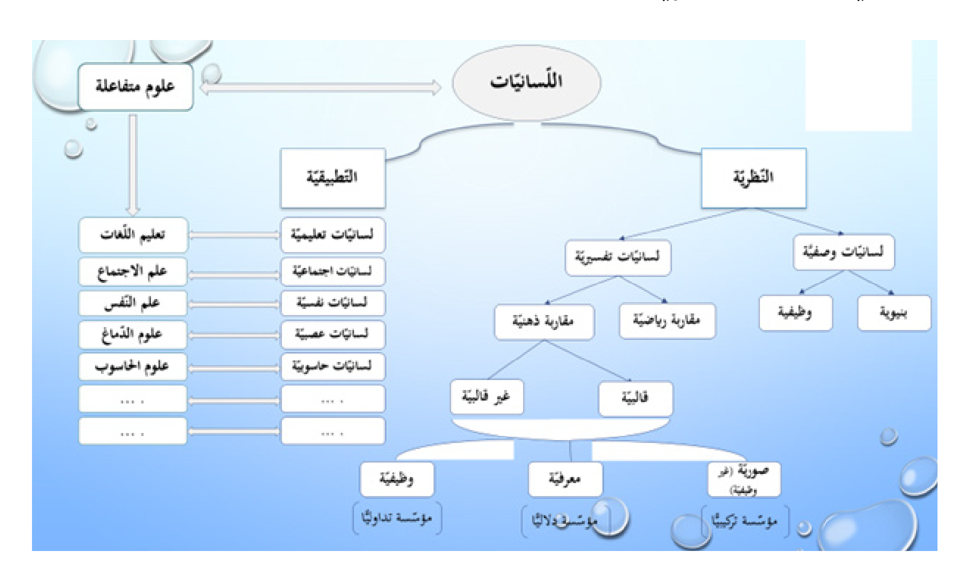
كما لم ينعدم من سيتصدى للنظرية القائلة «بعبور التخصصات» والتي قد تتطرف إلى حد المناداة بتجاوز التخصصات وفقدانها للاستقلالية والهوية من خلال حصيلة علمية لا تنتسب إلى حقل تخصصي محدد، الأمر الذي لا يستقيم في نظرنا،كما سنرى في فقرات لاحقة.

وبالفعل، فقد لاحظنا الكثير من الخلط في المواقف سواء في تعريف اللسانيات التطبيقية أو في ضبط علاقتها باللسانيات العامة وبغيرها. فحسب الجمعية الدولية للسانيات التطبيقية، فإن هذا المصطلح يغطي مجموع المجالات المتداخلة التخصصات، في البحث والممارسة معا، حول مشكلات اللغة والتواصل والتي يمكن ضبطها وتحليلها و وإيجاد الحلول لها، بتطبيق وتوظيف المعارف اللسانية. وقد تم اختصار وجهة النظر

9. عن مقالة مازن النجار: التخصص أم الموسوعية.. هل المنهج العابر للتخصصات هو مستقبل الإنتاج المعرفي؟ على الرابط https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2019/11/6/

هذه، في المقولة التالية «إن اللسانيات التطبيقية تساوي تطبيق اللسانيات». [10] (applied linguistics = linguistics applied).

إن اختيار هذه المقولة يشهد في نظرنا، على غياب الوعي بتطور اللسانيات التطبيقية في العشرين سنة الاخيرة، وكان الأساس في هذا التطور مبدأ التمييز والفصل ما بين اللسانيات التطبيقية (والتي تحولت إلى ديدكتيك اللغات في العالم الفرانكفوني) واللسانيات العامة -النظرية.



خطاطة من وضع عزّ الدين البوشيخي، (2018)

يميز فيها بوضوح بين اللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية وتفرعاتهما.

وقد وُثِّقَ هذا التمييز في العديد من الدراسات نذكر منها على سبيل التمثيل:

1) الدراسات التي نشرت سنة 2007 بمناسبة الذكرى الثلاثين لتأسيس الجمعية الأمريكية للسانيات التطبيقية (AAAL)، في وثيقة تؤكد انفصال اللسانيات التطبيقية عن اللسانيات النظرية واستقلالها. بل ذهبت بعض تلك الدراسات عند الحديث عن

10. سامي عياد حنا : **معجم اللسانيات الحديثة**، مطبعة المساحة بالقاهرة، 2007، ص. 184.

ميلاد اللسانيات التطبيقية، إلى حد القول إن اللسانيات التطبيقية ليست لسانيات أصلا.

وهكذا ومع إنشاء هذه الجمعية، فإن اللسانيات التطبيقية ستصبح مجالا مستقلا للبحث و منفصلا عن اللسانيات النظرية.[11]

2) ولكن ذلك الموقف لم يحل الإشكال كليا، فإذا تأملنا قليلا التعريف أسفله والذي توردە سامية جباري، سندرك مدى التردد واستمرار التأرجح حول موضوع استقلال لـ.تـ. من عدمه:

«اللسانيات التطبيقية مجال تتداخل فيه التخصصات البحثية والتي تتناول موضوع مشكلات اللغة والتواصل والتي يمكن ضبطها وتحليلها و إيجاد الحلول لها (في الممارسة أساسا)، وذلك بالرجوع الى النظريات والمناهج المستمدة من اللسانيات أو بإنشاء وتطوير نماذج وأطر مرجعية نظرية لتلك المشكلات».[12]

و يعتقد جيمس لانطولف James P. Lantolf (0092) [13] في تعليقه على هذا التعريف: «أنه وعلى الرغم من النجاحات التي حققتها اللسانيات التطبيقية، فإن الطريق نحو أن تصير علما مستقلا مثل بقية العلوم الانسانية والاجتماعية الأخرى، مازال طويلا». ما دام التعريف يقرر في شقه الأول بأن اللسانيات التطبيقية تستند إلى نظريات اللسانيات في بحثها عن حلول للمشكلات اللغوية، ويمنحها في نفس الآن في الشق الثاني، القدرة على انتاج النظريات.

3) كما أن المجلس الوطني للبحث والتابع للأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم (USNAS) وهو الجهاز الذي يحلل ويقوم كل 10 سنوات، برامج الدراسات العليا للجامعات الامريكية، ما زال يرفض إلى اليوم، اعتبار هذا التخصص خارج هيمنة اللسانيات النظرية.[14]

11 . عن موقع الجمعية (*American Association for Applied Linguistics*) Website, www.aaal.org

12 . عن سامية جباري: **اللسانيات التطبيقية وتعليمية اللغات**،جامعة الجزائر، 2014، 1، ص.93.

13. Lantolf, J. P., & Beckett, T. (2009). *Research timeline for sociocultural theory and second language acquisition*. Language Teaching, 42, 459-475.

14. United States National Academy of Sciences.

4) وفي العالم الفرنكفوني احتد نفس الجدال، لكن سينتصر في النهاية وعلى ما يبدو، مؤيدو انفصال شعبة اللسانيات التطبيقية وديدكتيك اللغات، عن شعب اللسانيات. مثلما حدث في كلية اللغات بجامعة ستراسبورغ بفرنسا، مع شعبة اللسانيات التطبيقية وديدكتيك اللغات (DLADL)، حيث استقلت كشعبة واحدة ومندمجة، بل و أصبحت تقترح دروسا مدخلية في ديدكتيك اللغات بالنسبة للطلبة الذين سيوجهون لممارسة التدريس.

5) أما في العالم العربي فلا تزال المحاولات خجولة للانطلاق بعيدا وعاليا في اللسانيات التطبيقية وتحديد هويتها ومدى تمايزها وانفصالها كعلم مستقل وبيان جدواها في التربية والتعليم، حيث يكاد ينعدم وجود جمعيات متخصصة تكوِّن وتبحث في هذا العلم، لكن توجد مقابل ذلك، جمعيات تهتم باللسانيات عموما، تمارس دورا للتعريف بل.ت. ومن أهمها «جمعية اللغويين والمترجمين المصرية» وأيضا «جمعية اللسانيات بالمغرب» والتي انفتحت بشكل لافت، على مواضيع تطبيقية في تدريس اللغات وخاصة اللغة العربية.كما سيتم منذ سنة 2017 تأسيس جمعية للسانيات التطبيقية بمعهد الدراسات و الأبحاث للتعريب بالرباط برئاسة محمد الراضي، والذي يعمل في نفس الآن، أستاذا لعلم المصطلح بكلية علوم التربية بالرباط.

هذا وستنشأ في بعض الدول العربية، مراكزعليا وشعب جامعية، قليلة نسبيا، تهتم بهذا التخصص (ل.ت.) ومن أهمها مركز الأمير سلمان للغويات التطبيقية بجامعة الإمام محمد بن سعود، وجامعات في كل من الأردن وفلسطين تقوم بتدريسه لمرحلة البكالوريوس. أما في المغرب فقد أصبحت مؤخرا، اللسانيات التطبيقية موضوع الساعة في بعض الجامعات، حيث أحدث على سبيل المثال، ماستر اللسانيات التطبيقية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (بمدينة مكناس)،كما أحدث في شعبة الدراسات العليا بكلية الآداب ابن مسيك (بالدار البيضاء)، مسلك علم اللغة الاجتماعي ضمن مسار اللسانيات التطبيقية.

كما نشطت التظاهرات والمؤتمرات العلمية على الصعيد العربي حول اللسانيات التطبيقية، نذكر منها المؤتمر العلمي الهام الذي نظمه معهد الدوحة للدراسات العليا في موضوع: «قضايا اللغة العربية واللسانيات التطبيقية»، يومي 5-4 يناير 2017، ومما جاء في ورقته التمهيدية والتي تلخص في الآن نفسه ما نحن بصدده من إشكال: «يَلُفّ مجال اللسانيات التطبيقية غموض كبير يُعزى في الغالب إلى أسباب موضوعية تتعلق أساسا بحداثة هذا النشاط واتساع مدى اهتماماته، فضلا عن التباس علاقته باللسانيات النظرية التي تنضوي تحت عنوانها خطابات متعددة الرؤى ومتباينة الأهداف. ومن أجل كل هذا ارتأى قسم اللسانيات والمعجمية العربية تنظيم مؤتمر دولي يصبو إلى توضيح انشغالات هذا المجال بحكم طابعها غير المتجانس، وإلى إبراز أهمية إدراج البعد التطبيقي في تناول قضايا اللغة العربية، في أبعادها العملية والواقعية، تناولا يستند إلى مُخرجات التفاعل بين تخصصات متعددة إذ تواجه إشكالات اللغة في علاقتها بالفرد وبالمجتمع والثقافة والتقنية والتطور المعرفي. وقد تمحورت أشغال المؤتمر حول سؤال محوري فاصل، يعبر بدقة عن حالة الحيرة التي نعانيها مع ل.ت.:

- «أيّ لسانيات تطبيقية تلائم وضع اللغة والثقافة العربيتين؟ وبتعبير آخر ما هي مقومات برنامجنا الخاص في مجال اللسانيات التطبيقية ؟ ووفق أي أسس نحدد أولويات هذا البرنامج ؟»[15]

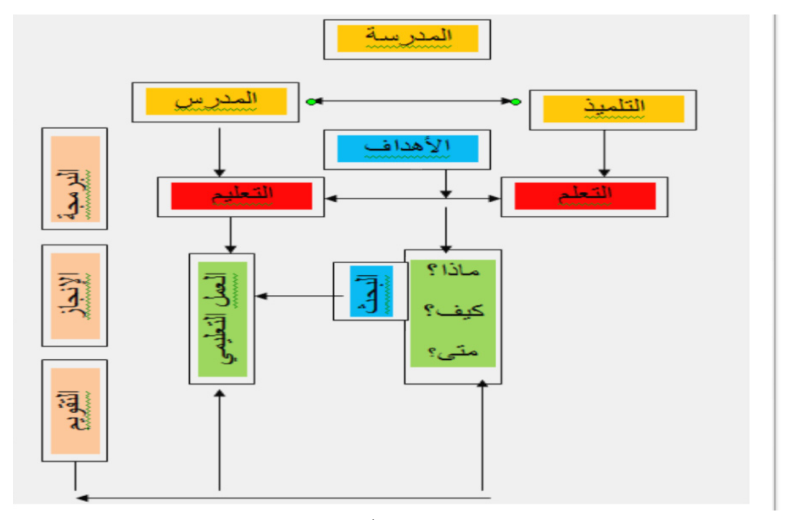
ثانيا: الديدكتيك و ديدكتيك اللغات:

الديدكتيك أو علم التدريس في نظرنا، هو الدراسة العلمية لطرق التدريس وتقنياته ولأشكال تنظيم مواقف التعلم التي يخضع لها التلميذ في المؤسسة التعليمية، قصد بلوغ الأهداف المسطرة مؤسسيا، سواء على المستوى العقلي أو الوجداني أو الحسي ـ حركي؛ وتحقيق لديه، المعارف و الملكات والقدرات والاتجاهات والقيم. إن علم التدريس، يجعل من تعريف التدريس موضوعا له، فينصب اهتمامه على نشاط كل من المدرس والتلاميذ وتفاعلهم داخل القسم، وعلى مختلف المواقف والوضعيات التي تساعد في

15. عن موقع «صوت العربية» في 05/01/2017 .

حصول التعلم. لذا يصير تحليل العملية التعليمية في طليعة انشغالاته ويستهدف في جانبه النظري صياغة نماذج ونظريات تطبيقية ـ معيارية، كما يعني في جانبه التطبيقي السعي للتوصل إلى حصيلة متنوعة من النتائج التي تساعد كلا من المدرس و المؤطر والمشرف التربوي وغيرهم، على إدراك طبيعة عملهم والتبصر بالمشاكل التي تعترضهم، مما ييسر سبل التغلب عليها ويسهل قيامهم بواجباتهم التربوية التعليمية على أحسن وجه.[16]

كما تنصب الديدكتيك على الوضعيات التعلمية، التي يقوم فيها المتعلم من حيث المبدأ، بدور مركزي، بحيث ينحصر دور الأستاذ في تسهيل عملية تعلّم التلميذ وذلك بتصنيف المادة التعليمية تصنيفا يناسب حاجات التلميذ ومستواه، وتحديد الطرق الملائمة لتعلمه، وتحضير التقنيات والوسائل الضرورية والمساعدة على هذا التعلّم واختيار أدوات التقويم .وتلخص الخطاطة أدناه أهم مكونات وعناصر علم التدريس في علاقتها وتفاعلها وفي تميزها عن بعض العلوم المساعدة:



خطاطة تركيبية بموضوع الديدكتيك أوعلم التدريس العام ومجالاته
حسب المنظور الذي يميز بينه وبين البيداغوجيا ويعتبره علما مستقلا من علوم التربية
(انظر: محمد الدريج - 2003، ص.34)

16. محمد الدريج: «**مدخل إلى علم التدريس: تحليل العملية التعليمية**»،دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات، 2003، ص.28 .

لابأس أن نذيل هذه الخطاطة التي تلخص مجالات الديدكتيك، ببعض الملاحظات والتي يمكن أن ترفع بعض اللبس عن التداخل بينها وبين بعض العلوم المساعدة الأخرى، وهي:

أن **التعلم**، رغم استئثاره بمكانة داخل الخطاطة، ليس موضوعا لعلم التدريس بل هو موضوع لعلم النفس التربوي و لسيكولوجية التعلم على وجه التحديد. ومع ذلك فإن النظريات التي تفسر ميكانيزمات حدوث التعلم وطبيعته لدى الكائن البشري، تشكل مدخلا بل عنصرا مهما لولوج النموذج التدريسي، إنها بمعنى أوضح، من العناصر الأساسية في تأسيس نظرية علمية حول التدريس ولكنها لا تشكل موضوعا لعلم التدريس.

ونفس الملاحظة تنطبق على **المدرسة**، فالدراسات التي تهتم بالمدرسة كمجال لحدوث التعلم، لا تندرج ضمن مجالات علم التدريس، بل تنتمي لما يعرف بعلم اجتماع التربية، لكنها تبقى مع ذلك ضرورية ومفيدة لكل نشاط تعليمي في مستوييه النظري والعملي.

* * *

وينبغي أن نميز داخل علم التدريس، بين فرعين مختلفين ومتكاملين في آن واحد، وهما:

علم التدريس العام (الديدكتيك العامة، المختصرة ب DG).

علم التدريس الخاص(الديدكتيك الخاصة، المختصرة ب DS).

نقصد بعلم التدريس العام، مجموع المعارف التعليمية القابلة للتطبيق في مختلف المواقف ولفائدة جميع التلاميذ في مختلف المواد والتخصصات، في حين يهتم علم التدريس الخاص بتخطيط التعليم وبرمجة الوضعيات التعليمية التعلمية في ارتباطها بمادة دراسية معينة أو مهارات وملكات تكوينية ووسائل وأنشطة معينة، مثل: ديدكتيك

اللغات، ديدكتيك الرياضيات، ديدكتيك الاجتماعيات، ديدكتيك التربية التشكيلية، ديدكتيك التربية البدنية والرياضية...

إن عناية الديدكتيك (علم التدريس العام) بالمحتوى التعليمي في مختلف العلوم والتخصصات، هو ما جعلها تتفرع إلى ديدكتيكات، وديدكتيك اللغات (اختصارا د.ل.) ليست سوى فرع من فروعها وليست فرعا من فروع اللسانيات كما سنرى؛

وإن كان علم تدريس اللغات كثيرا ما يستفيد من اللسانيات البنيوية والوظيفية والنحو التوليدي وغيرها.

وقد تكون ديدكتيك اللغات نشأت في بداياتها الأولى، مستندة على اللسانيات التطبيقية وبموازاة معها، لتهتم باكتساب اللغات و بطرائق تدريسها، ثم انفتحت على حقول علمية مرجعية مختلفة، فطورت مجالات البحث فيها، وأصبحت تهتم بمجالات عديدة في العملية التعليمية ـ التعلمية، لا غنى فيها للسانيين عن الاستعانة بالتربويين وبعلماء التدريس على وجه الخصوص، ومن أهمها:

1) **المتعلم** من حيث الاستراتيجية والوتيرة التي يكتسب بها اللغة، والأخطاء التي يرتكبها، وآليات استيعابها وفهمها وإنتاجها؛

2) **المدرس** من حيث تكوينه وملكاته وأسلوبه...؛

3) **المحيط الاجتماعي** وبالأخص في مجال د.ل.، علاقة اللغة بالجماعات وأساليب استعمالها في المجتمع، ووضعها ضمن لغات أخرى؛

4) **البيئة المدرسية** والزمن المدرسي؛

5) فعل **التدريس والمادة التعليمية** وما يرتبط بهما من مناهج ومقررات وطرائق واستعمال الوسائط والتكنولوجيات وأساليب التقويم ؛ وقد اتجه البحث في هذا الصدد

إلى النظريات والمقاربات اللسانية والسيكولوجية و السوسيولوجية وغيرها، ومحاولة استثمارها في بناء الوضعيات التعليمية .[17]

وبالنسبة لهذا المجال الأخير(فعل التدريس والمادة التعليمية)، نرى أنه من الطبيعي جدا، أن يقتنع ويتأثر المربون المنشغلون بتعليم اللغات، بالنظريات اللسانية وبأهميتها القصوى في ميدان اختصاصهم، الأمر الذي يساعد على ظهور العديد من المناهج في تعليم اللغات وهي مناهج مبنية على نظريات لسانية في جزء دال منها.

لكن ذلك الترابط والتكامل، لا ينبغي أن ينأى بنا عن رسم الحدود بينها جميعا وخاصة بين اللسانيات التطبيقية وديدكتيك اللغات وذلك ضدا عن التقاليد التربوية الفرانكفونية، وأن تبرز في نظرنا هذه الأخيرة (د.ل.) وتتميز باعتبارها مجموع الخطابات التي تنتج حول تعليم اللغات وتعلمها، سواء تعلق الأمر بلغات المنشأ أم اللغات الثانية.

ثالثا: بين اللسانيات التطبيقية وديدكتيك اللغات:

قدمنا لحد الآن، بعض الإشارات السريعة عن العلاقة الإشكالية بين ل.ت. ود.ل. (اتصال أم انفصال) وغيرها من التخصصات المرتبطة وسنبسط فيما يلي، بعض حيثيات هذه الإشكالية وأبعادها مع تقديم أمثلة و استشهادات توضيحية.

لقد لاحظنا مؤخرا، أن عدد من لا يفصل بين اللسانيات التطبيقية والديدكتيك في تزايد، ولنا مثال على ذلك في المناهج الجامعية الموجهة لإعداد المدرسين، فقد لوحظ

---

17. محمد الدريج: «عودة إلى تعريف الديدكتيك أو علم التدريس كعلم مستقل»، **مجلة علوم التربية**، العدد: 47 (مارس 2011) ص 18. وعلى سبيل التذكير فقد ارتأينا العودة لتعريف الديدكتيك (علم التدريس) بعدما كنا قد ساهمنا في تعريفه ونحت اسمه منذ سنة 1984، في مجلة **التدريس** (العدد السابع)، التي تصدرها كلية علوم التربية بجامعة محمد الخامس بالرباط، وذلك لعدة أسباب وفي مقدمتها ما أصبحنا نلاحظه من خلط في تحديد معناه ورسم حدوده وارتباطاته ومن التباس في استعمالاته . الأمر الذي يسبب في الكثير من الأضرار، ليس فقط لدى الممارسين، بل لدى بعض الأساتذة الباحثين أنفسهم ولدى بعض المؤلفين و "الاستعجاليين" منهم على وجه الخصوص.

أن العديد من الوحدات المقررة فيها، مثل الصوتيات والنحو[18] وخاصة وحدة اكتساب لغة ثانية وغيرها، لم تعد تسند للسانيين المنظرين، بل يسند تدريسها إلى متخصصين في ديدكتيك اللغات أو إلى تربويين مهتمين بالمجال اللغوي ولذلك سحبت مثل تلك المواضيع من شعب اللسانيات، خاصة وأن اللسانيين المنظرين كانوا يرفضون النظر إلى اللغة في سياق تربوي، لاعتقادهم ان اللغة وتدريسها أمران مختلفان، الأمرالذي يذكرنا بالفصل النهائي الذي يقوم به اللساني اللامع نعوم تشومسكي Noam Chomsky بين الكفاية compétence والأداء performance.[19]

إن وضع الحدود بين الأهداف الأكاديمية لكل من اللغة وتدريسها، سيمكن على الأرجح، من توزيع سلس للائحة الدروس وبرمجة وحدات المناهج الدراسية. لكن في حالة شعب اللسانيات وديدكتيك اللغات، فإن وضع الحدود ليس بالأمر الهين، ما دامت الوحدتان تهتمان بنفس الموضوع أي باللغة و باكتسابها. اللسانيات تهتم باللغة

18. يعاني الدرس النحوي من إشكال حقيقي، فالتلميذ قد يَحفظ من قواعد النحو قدرا لا بأس به، وقد يُتقن إعراب الجمل بشكل ممتاز، ولكن رغم ذلك يواجه ضعفا شديدا في التمكُّن من الإنشاء و التعبير العربي السليم نحويا، وهنا يظهر لنا الخَلل الأساسي في طُرق تدريس هذا المكون اللغوي الهام وأدوات ذلك. وقد اجتهد اللساني المغربي اللامع أحمد المتوكل في التصدي لمثل هذه المشاكل، بالإسهام في تطوير نظرية النحو الوظيفي وتطبيقاته،كما اجتهد زميله عبد القادر الفاسي الفهري في تطبيق اللسانيات التوليدية للخروج بالدرس اللغوي من الطرائق التقليدية، فقدما نماذج حية لكيف يمكن التحول من اللسانيات إلى الديداكتيك أو على الأقل بيان أوجه تبادل الأثر والتأثير بينهما بشكل علمي دقيق. لقد تفرغ المتوكل طيلة أزيد من ثلاثين عاما لخدمة مشروعه اللساني الذي يعد من أنضج المشاريع اللسانية العربية الحديثة لكونه واضح المعالم من حيث موضوعه وأهدافه وأداوته المفاهيمية والإجرائية، حتى اعتبر بعض اللسانيين المعاصرين مشروع _المتوكل بمثابة رد الاعتبار للفكر اللساني العربي القديم . كما تألق عبد القادر الفاسي الفهري عالم اللسانيات المغربي، عربيا ودوليا، بعمق بصيرته بأصول النظريات اللغوية المعاصرة، وبتكريسه لجهده لبناء النظرية اللغوية العربية على ضوء تلك النظريات، فحظي باعتراف واسع من قبل الأوساط العلمية اللسانية، مثل معهد «ماساشوستس للتكنولوجيا»، وقد أشاد بقيمة أبحاثه العالم اللغوي المعروف نعوم تشومسكي.

19. ميز تشومسكى فى دراسته لأهداف النظرية اللغوية The goals of Linguistic theory بين ما يسمى بـالكفاءة compétence وما يسمى بـالأداء performance، وبسط ذلك فى كتابه «جوانب من النظرية النحوية»، حيث اعتبر الكفاءة اللغوية هى «معرفة المتكلم – المستمع بلغته «، وأما الأداء اللغوى فهو «الاستخدام الفعلى للغة فى مواقف حقيقية» (عن ابراهيم طلبه سلكها: «الكفاءة والأداء اللغويان عند تشومسكى»، في **صحيفة المثقف**، بتاريخ 11 مارس 2017).

كموضوع للدراسة العلمية (واكتساب اللغة هو مكون أساسي في كل برنامج للسانيات) والديدكتيك تهتم بما يرتبط بالتدريس والذي ييسر في نهاية المطاف التعلم بما فيه اكتساب اللغة.

لكن السؤال الآن وأخذا بعين الاعتبار حيثيات ذلك التمييز، هو: كيف سيغدو توزيع الدروس والوحدات (المجالات) في المؤسسات الأكاديمية وشعبها بين هذين التخصصين (ل.ت. و د.ل)؟

نحن نعتقد أن معيار التوزيع يجب ان يكون نتيجة تمييز واضح للسانيات ومجالاتها (بما فيها مجال اكتساب اللغة) من جهة وبين تدريس اللغات (الكتابية و الشفاهية) من جهة أخرى. إن هذا المعيار المقترح والذي ينتج بالضرورة عن ذلك التمييز، يرتكز بالأساس على كون تعريف اللسانيات التطبيقية (بالمعنى العام بما فيه اكتساب اللغة الثانية)، لم يعد يشكل مرجعا دالا عن الممارسات التعليمية الراهنة؛ كما أن هذا التمييز سيفيدنا فيما نسميه بالطريق الثالث البديل (انظر العنوان السادس).

لكن التمييز لايعني سلخ اللسانيات التطبيقية وتجريدها كلية من مجالاتها التربوية، لأنها تهتم بالفعل بالاكتساب و بالتعليم في سياقات مختلفة وخاصة في السياق الذي يكون له تأثير كبير على شريحة واسعة من الأفراد ونقصد به سياق القسم والمدرسة، هذه حقيقة لا أحد يجادل فيها . وقد لاحظنا هذا التوجه في مناهج التعليم والتكوين الأساسي والمستمر للمدرسين وكذا في المؤلفات المنشورة في هذا الميدان والتي تقاسم نفس الرأي، سنورد أمثلة ونماذج منها في النقاط التالية:

1) فمثلا تَمَيَّزَ المؤتمر الذي نظمته الجمعية الأمريكية للسانيات التطبيقية سنة 2009 في دنفير Denver بالولايات المتحدة الأمريكية، بتناول عدد كبير من المداخلات مواضيع حول اكتساب اللغة من مثل قاعة الدرس و منهجية المدرس وتمرين المتعلمين، وغيرها من المواضيع ذات الطابع التربوي .[20]

---

20 . بدأت اللسانيات التطبيقية تظهر بهويتها المستقلة منذ أواسط السبعينات من القرن الماضي، وساهمت الجمعية الأمريكية لعلم اللغة التطبيقي (*American Association for Applied Linguistics*) بالكثير فيما ساعد على بناء هذه الهوية وترسيخها.

كما لوحظ نفس الأمر في العديد من المجلات المختصة في تدريس اللغة كلغة ثانية، حيث تعتني مقالاتها ودراساتها عناية خاصة بالإشكالات التربوية.

ولعل قراءة سريعة في مضامين الحقلين معا (ل.ت. و د.ل.) ومجالاتهما، تبين لنا مدى الصلة القوية القائمة بينهما،فكلاهما يحتاجان إلى بعضهما باستمرار، فاللساني التطبيقي يجد في حقل تعليم اللغات ميدانا عمليا لاختبار نظرياته العلمية، والمربي بالمقابل، يحتاج في ميدان تعليم اللغات أن يبني طرقه وأساليبه على معرفة القوانين العامة التي أثبتها علم اللسانيات الحديث. وهكذا تتحول ديدكتيك اللغات إلى مجال خصب لتطبيق النظريات اللسانية وتجريبها وفي هذه الحالة يمكن أن نتحدث عن اللسانيات التطبيقية/التربوية أو نتوقف بكل بساطة عن الحديث عنها، لتنصهر في الديداكتيك الخاصة باللغات، الامر الذي قد لا يقبله الجميع .[21]

2) والحقيقة أنه كما أسلفنا، ليس من السهل التمييز بين هذين التخصصين (ل.ت. ود.ل.)، علما أن هناك من يرفض الحديث أصلا عن ل.ت.، ففي عام 1972 تحديدا عارض ميشيل دابان رسميا اللسانيات التطبيقية، معلنا عن ضرورة تعويضها بفرع معرفي علمي جديد هو ديدكتيك اللغة الفرنسية.[22]

وعندما كانت ل.ت. تركز اهتمامها على تعليم اللغات الأجنبية إلى جانب عدد من القضايا، من قبيل لسانيات المصطلح والترجمة واللسانيات القانونية واللسانيات الحاسوبية... فإن هذا الاهتمام الخاص بتعليم اللغات قد يكون على حساب د.ل. وتطاولا على مجالاتها التي تهتم أصلا بالبحث بنوع من الاستقلالية، في قضايا تدريس واكتساب اللغات، سواء لغات المنشأ أو اللغات الأجنبية.

3) والحقيقة أننا لم نجد صعوبة في العثور على من يؤمن بأن ديدكتيك اللغات وفي أبسط تعريف لها، «فرع من فروع علم التدريس وليست فرعا من اللسانيات»،

---

21. مسعودة خلاف: «**دروس في اللسانيات التطبيقية**»، قسم اللغة والأدب العربي جامعة جيجل، 2013، الجزائر. ص 7. (مطبوع مستنسخ كوثيقة عمل موجهة للطلبة والباحثين تحت عدد: N° 03KHM, 2013).

22. مسعودة خلاف، **المرجع السابق**، ص، 9.

فرع خاص يهتم كما رأينا سالفا، بأهداف وطرق وأساليب تدريس اللغات والعمل على استخلاص بعض القوانين والنماذج الموجهة.الأمر الذي جعل البعض الآخر يذهب إلى وضع الديدكتيك في تضاد مع ل.ت. من مثل جورج مونان Georges Mounin.

4) يذهب مونان في قاموسه للسانيات، إلى أن الديدكتيك:

«مصطلح حديث، قد يبدو واضحا جدا أخذه من الألمانية Didaktik، وقد وضع بتضاد مع مفهوم اللسانيات التطبيقية في تعليم اللغات للدلالة على مقدار التداخل بين التخصصات (اللسانيات وعلوم النفس وعلوم الاجتماعية والبيداغوجيا) ويسجل في نفس الآن، طموحه نحو مزيد من التنظير والتعميم والتجريد وبالتالي الاستقلال».[23]

إن الديدكتيك حتى تكون مستقلة بنفسها، حسب مونان، لا ينبغي حصرها في الدرس اللساني؛ إذ هي في الاستعمال أقرب إلى مفهوم البيداغوجيا (وإن كنا نتحفظ نحن على مصطلح البيداغوجيا المثير للجدل والمسبب للكثير من الخلط ونفضل استعمال علوم التربية) منها إلى مفهوم ل.ت.، لكن وباقترانها باللغات تصبح على تقاطع كبير مع هذه اللسانيات.

وفي كل الأحوال، تختلف مجالات ديدكتيك اللغات عن مثيلاتها في اللسانيات التطبيقية. وانطلاقا من قابلية انفصال كل مجال من تلك المجالات عن غيره إجرائيا، فقد استقلت هذه المجالات المعرفية كما استقلت من قبل ديدكتيك تدريس اللغات عن علم التدريس العام، وأصبحت بدورها اختصاصات معرفية قائمة الذات إلى حد ما،تدرس في المعاهد والمؤسسات العلمية من مثل اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية واللسانيات الحاسوبية وأمراض الكلام واللسانيات الاثنية.

وتشير الكتب التي تؤرخ للديدكتيك عامة، إلى أن استعمال مصطلح ديدكتيك كعلم مستقل بنفسه، لم يكن وليد البحث اللساني؛ فالديدكتيك مجال حديث ودراسته ليست

23. انظر مادة didactique: جورج مونان: **معجم اللسانيات**، ترجمة وتحقيق: جمال الحضري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2011.

مقصورة على ديدكتيك اللغات وحسب، بل إنه في مفهومه العام، علم يهتم بالمتعلمين وبالأهداف و الكفايات والمواقف والوضعيات التعليمية والوسائل والطرق والاختبارات التي تيسر عليهم التعلم...، وهو ما جعلها تتقاطع مع علوم التربية الأخرى. وإلى غاية الثمانينات من القرن الماضي كانت تسمية «بيداغوجيا اللغة الفرنسية» ما تزال قائمة، وهي الفترة التي ظهرت فيها تسمية الديدكتيك بديلة عن تسمية بيداغوجيا ومقابلة في الآن نفسه لتسمية ل.ت.، إلى حين الانتصار النهائي ل د.ل.، على الأقل في المجال التعليمي.[24]

5) تبنى ميشال دابين Dabène Michel، موقفا رسميا قريبا إلى حد ما، من موقف جورج مونان، معاديا فيه لل.ت.، لصالح فرع معرفي جديد هو ديدكتيك اللغة الفرنسية (كلغة أجنبية). وفي الوقت نفسه تمت هيكلة مساهمة العلوم المشاركة من مثل علم النفس وعلم الاجتماع والبيداغوجيا، فتم منح د. ل. طابعا تعليميا مقابل الطابع اللغوي التطبيقي الذي ميز ل.ت. لقد أطلق دابين صرخة مؤداها «وجوب التوقف عن اعتبار تعليم اللغات تطبيقا، لأي مجال مهما كان، إنه تخصص كباقي التخصصات، والذي يجب أن يعرّف بما هو متصف به، وكما في استعاراته من العلوم الأخرى التي هو في حاجة إليها»، ويرى دابين «أن د.ل. يمتلك الأهلية لطرح إشكالاته الخاصة به، وليست اللسانيات هي من يعدُّ له النماذج، التي يتساءل الممارسون عن كيفية تطبيقها.»[25] وضمن هذا المنظور يمكن لنا أن نتكلم عن ديدكتيك اللغات بوصفها تخصصا ذا طبيعة مستقلة بالنظر إلى الغايات المنتظرة من تعليم اللغات.

6) ونستشهد بمثال آخر، يتمثل في نص يمكن وصفه بالمؤسس صادر عن دونيس جيرار Denis Girard، في كتابه «اللسانيات التطبيقية وديدكتيك اللغات»، ففي الفصل

24. سامية جباري، **مرجع سابق**، 2014، ص.95 .

25. Michel Dabène: (Questions et débats sur l’histoire de la didactique du français)1965-2007: Quelque 40 ans de déambulations dans les territoires de la didactique du français dans *Recherches en Didactiques,* 2013/1 (n° 15). Entretien avec Michel Dabène ،Association REDLCT | *Recherches en didactiques* 2013/1 n° 15 | pages 137 à 14.

الأول منه والوارد بعنوان في صيغة سؤال: «لسانيات تطبيقية أم ديدكتيك لغات؟» والذي يمكن وسمه بالمدخل الإشكالي، أبدى فيه موقفه الصريح من القضية، حيث يذهب إلى أن لعلم تدريس اللغات كامل الحق في الوجود مستقلا، ليس بوصفه فنا، بل علما غير متردد في الاقتباس من العلوم الإنسانية الأخرى ومن كل ما يمكنها إضافته.[26]

7) تكفَّل روبر غاليسون Robert Galisson بدوره، بمهمة الدفاع عن استقلالية ما أضحى يُعرف بديدكتيك اللغات، في أبحاثه الكثيرة التي نشرها، وكان في دفاعه هذا، يحصر المناداة إلى الاستقلالية في السياق الفرنسي، ففي مستهل مقال له بعنوان: «إشكالية استقلالية ديدكتيك اللغات»، الصادر سنة 1989، يصرح في مستهله، «أن ديدكتيك اللغات قد اختنقت بين الحدود المصطنعة المفروضة عليها من اللسانيات وعلم النفس»، ويستطرد في مقدمته هذه التي يبني عليها دعوته «الانفصالية»، بأنه «اكتشف أن التخصصات النظرية التي تمثل السند المرجعي لديدكتيك اللغات قد حدَّت من هامش مناورتها في التطبيق، مما حرمها من الحرية الضرورية التي تمكن من اكتشاف هويتها، نظرا لكون هذه التخصصات تستهدف أغراضا غير تلك التي هي من أهداف الديداكتيك». [27]

8) وكتعليق على تلك المواقف «الانفصالية» وتوخيا منا للطرح الموضوعي، نورد رأيا معاكسا يعتنقه محمد خاين، الذي يقول: «على الرغم من الجهود التي بذلها الباحثون الفرنسيون لأجل مأسسة حقل معرفي مستقل يُعنى بتعليم اللغات فقط، إلا أن دعوتهم لم تغادر حدود الحيز الفرنكفوني ومن سار في فلكه، وبقي هذا المجال ميدانا فرعيا من اللسانيات التطبيقية. وقد أثبتت الوقائع أن هذه الدعوة لم تجد لها أنصارا... فالتعليمية

26. محمد خاين، **محاضرات في اللسانيات التطبيقية**، من منشورات المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان، 2017، ص. 49، وأيضا: Denis Girard. *Linguistique appliquée et didactique des langues*. Ed Armand Colin-Longman. Paris, 1972. p.20.

27. Galisson Robert 1989. «Problématique de l'autonomie en didactique des langues». Contexte français. In: *Langue française*, n°82, 1989. p.96.

(الديدكتيك) بوصفها تخصصا إجرائيا وضروريا، يمتلك مسارا في البحث والتفكير لأغراض عملية بكل تأكيد، إلا أنه يبقى لسانيا صرفا».

كما تبقى تلك الدعوة، حسب خاين، «محاولة تركيبية توفيقية عملت على الجمع بين اللسانيات التطبيقية وديداكتيك اللغات في المشترك الذي لا خلاف فيه، وأقرت لكل طرف الوضع الذي ينبغي أن يقف عنده. ولكن ما تجدر الإشارة إليه، أنها نشأت في السياق الفرنكفوني السويسري والمتأثر في بعض مكوناته بالمشروع الانفصالي؛ النابع بدوره عن عقلية فرنسية تسعى دوما إلى التميّز وعدم التبعية العلمية للآخر المتفوق، أي للعالم الناطق بالإنجليزية».[28]

رابعا: مجالات اللسانيات التطبيقية في علاقتها باكتساب اللغة:

كما سنلاحظ نفس الاشكال المتعلق بطبيعة اللسانيات التطبيقية والتأرجح بين الاتصال والانفصال، لكن هذه المرة في علاقتها بالديدكتيك. إشكال يبرز مجددا عند محاولة حصر مجالاتها، فقد حصرها بعض الباحثين المختصين في القائمة التالية:

1) اكتساب اللغة؛
2) التعدد اللساني والازدواجية اللغوية؛
3) التخطيط اللغوي؛
4) اللسانيات الاجتماعية؛
5) اللسانيات النفسية؛
6) علاج أمراض الكلام؛
7) الترجمة؛
8) المعجم والمعجمية؛
9) علم اللغة التقابلي وتحليل الأخطاء؛
10) علم اللغة الحاسوبي (اللسانيات الحاسوبية)؛
11) أنظمة الكتابة (نظم كتابة اللغات) ...[29]

28. عن محمد خاين: «اللسانيات التطبيقية من ملابسات النشأة إلى تشعّبات التطور» (بتصرف)، **مجلة العمدة**، كلية الآداب واللغات، جامعة بوضياف، عدد فبراير 2019، ص. 30).

29. سامية جباري، **مرجع سابق**، 2014، ص. 97.

ومما يَلفِت النظر في هذا التصنيف، أن اكتساب اللغة وتعلمها يحتل مركز الصدارة في انشغالات ل. ت. والذي سيطغى في فترات لاحقة، على بقية المجالات الأخرى.

فحسب سمية جلايلي يعتبر هذا المجال (اكتساب اللغة) من أهم مجالات اللسانيات التطبيقية إن لم يكن أهمها على الإطلاق، مما حدا بكثير من علماء اللغة إلى استعمال اصطلاح علم اللغة التطبيقي مرادفا لتعليم اللغات (اللغات الأجنبية على وجه الخصوص) وهذا المجال يعنى بكل ما له صلة بتعليم اللغات من أمور نفسية واجتماعية وتربوية،بما في ذلك الاتجاهات والطرائق المختلفة والوسائل المعينة من إعداد للمدارس والمناهج والمواد التعليمية والإشراف عليها. ويقول كريستال Crystal DM عن علاقة علم اللغة بتعليم اللغات: «صلة علم اللغة بهذا الميدان أوضح من أن ندل عليها، إذ يجب أن يكون من البديهيات أن الإنسان لا يستطيع أن يعلم أي لغة دون أن يعرف أولا شيئا ما عن هذه اللغة».[30]

كما نلاحظ أن الجمعية الفرنسية للسانيات التطبيقية (*AFLA*)[31]، تقترّح قائمة من ثمانية عشر مجالا لهذه اللسانيات، وتضع اكتساب اللغة في أعلى القائمة بل تذهب إلى إضافة مجالات لا نعثر عليها في قوائم أخرى، وهي تعليم لغة الأم وتعليم لغة التخصص وتعليم اللغات الأجنبية...، مما نعتبره نحن مواضيع ديدكتيكية بالأساس، ووضعها ضمن مجالات ل.ت. يعني واحدا من أمرين إما اختفاء اللسانيات التطبيقية/التربوية واندماجها في ديداكتيك اللغات (كما حدث في العديد من الجامعات الفرنكفونية) أو العكس، أي الانتهاء من الحديث عن هذه الاخيرة (د.ل.) لنترك المجال للسانيات المطبقة في التعليم لتهتم وتستأثر بالموضوع. وإن كنا نفضل عدم التمسك بأحدهما على حساب الآخر والتريث للبحث بينهما، عن طريق ثالث بديل كما سنرى لاحقا.

30. Crystal DM: *Directions in applied linguistic*, Academic Press, 1988, p1-24 عن سمية جلايلي: «اللسانيات التطبيقية مفهومها و مجالاتها»، **مجلة الأثر**، منشورات المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة، الجزائر، العدد 29 ديسمبر 2017.

31. نراجع منشورات الجمعية على موقعها: *Association française de linguistique appliquée* . /afla-asso.org

خامسا: اللسانيات التطبيقية ومخاطر التشويش الباراديگمي [32]:

لابد أن نحذر مجددا مما نسميه بالتشويش الباراديگمي والذي يعني بالأساس التأرجح في البحث العلمي بين التخصصات وعدم وضوح وثبات المنطلقات النظرية والمرجعيات المنظورية وأن نحذر من الخلط الذي يمكن أن نقع فيه، بين هذا الحقل المعرفي أي اللسانيات التطبيقية وبين ديداكتيك اللغات وهما وعلى الرغم من كل التحفظات، حقلان متمايزان، الأمر الذي يفرض علينا ضرورة تأكيد الفرق بينهما.وحتى عندما نكون مضطرين للحديث عن التطبيقات اللسانية في ميدان الديدكتيك، يقتضي ذلك بالضرورة تبني منهجية حديثة ورؤية متطورة عن مصطلح ل.ت. وتحديد المبادئ الأساسية لهذا العلم ومجالاته، قبل الحديث عن علاقته بتعليم اللغات.

وعطفا على ما سبق أن قلناه في تعريف اللسانيات التربوية، ولغاية التأكيد على التمييز المبدئي بينها وبين ديدكتيك اللغات، نستأنس هنا بتعريف عبده الراجحي في كتابه «علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية»، قائلا: «إنه علم مستقل بذاته، له إطاره المعرفي الخاص، ومنهج ينبع من داخله يهدف إلى البحث عن حل لمشكلات لغوية، إنه استعمال لما توافر عن طبيعة اللغة من أجل تحسين كفاءة الأعمال التي تكون اللغة العنصر الأساسي فيها. إنه ميدان تلتقي فيه مختلف العلوم التي تهتم باللغة الإنسانية من

32. من **مظاهر** التشويش الباراديگمي كذلك «ضعف النظامية»، و نعني به عدم الأخذ بمنهج محدد وبنظام منسجم، في النظر إلى المادة المدروسة من جمع وترتيب وتفسير وتحليل. بطبيعة الحال للباحث أن يختار المنهج الذي يراه مناسبا لكن شريطة الالتزام به في العمل كله، وتحاشي العشوائية في تفسير المادة، واختيار المصطلحات والأدوات. وارتباطا بذلك يكمن التشويش أيضا في «انعدام التماسك»، والمتمثل في وجود التناقض في المنهجية المتبعة وبين الأجزاء المختلفة للدراسة وكثرة المصطلحات وتعددها للمفهوم الواحد والميل نحو الإبهام. وخاصية أخرى مهمة قد تسبب التشويش في كل بحث علمي، سواء في مجال اللغة أو غيرها من المجالات، تكمن في عدم مراعاة البيئة التي نشتغل فيها والمنقول إليها إشكاليات البحث، فالسياق الغربي مثلا، في تعاطيه مع اللغة مختلف عن سياق الثقافة العربية. (راجع: كمال بشر، **التفكير اللغوي بين القديم والجديد**، دار غريب، القاهرة. 2005).

ومن **عوامل** التشويش في نظرنا، عدم توفر منظومة التعليم والتكوين، على فلسفة تربوية واضحة المقاصد، فلسفة تمتلك تصورا عن الإنسان/المواطن الذي نستهدفه. وكذا عدم التوفر على استراتيجية مخططة لمشروعنا التربوي برمته؛ فضلا عن الضعف في التكوين الأساسي والمستمر للمخططين المسئولين عن اتخاذ القرار وللباحثين أنفسهم وعموم التربويين، وعدم الالتزام بشروط ومعايير البحث العلمي، والتهافت على استيراد النظريات الجاهزة.

مثل اللسانيات واللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية وعلمي الاجتماع والتربية، إنه واحد من الحقول المعرفية التي تقوم على أبحاث متعددة التخصصات». [33]

وإذا كان علم اللسانيات، علما نظريا يسعى إلى الكشف عن حقائق اللسان البشري والتعرف على أسراره، فإن علم تدريس اللغات (د.ل.) علم معياري تطبيقي، شبيه إلى حد ما باللسانيات التطبيقية، هذا إذا كان من الضروري أن نستمر في الحديث عنها في التربية والتعليم كعلم مستقل، علم يهدف إلى تيسير تعليم اللغات سواء كانت لغة المنشأ أو مما يكتسبه الفرد من لغات أجنبية.

و الأمثلة كثيرة عن التشويش البارادیگمي والذي قد نسقط فيه (الممارسين والباحثين منا على حد سواء) بسبب التردد بين العديد من المجالات والفروع وعدم وضوح التخصص الذي نشتغل فيه، واستمرارنا في الادعاء بأننا ننتج النماذج ونبدع النظريات، ادعاء يحول بيننا وبين الإبداع الحقيقي والملائم للسياق والمستجيب للأولويات، فنسكن إلى النقل والاستيراد، مما يزيد خلفياتنا النظرية وتوجهاتنا المنهجية اضطرابا وتفككا.

من هذه الأمثلة:

1) ما نعثر عليه في دراسات عبد العزيز قريش الذي يتبنى تعريفا للسانيات التطبيقية والتي يجعل منها كل شيء ولا شيء:

«اللسانيات المدرسية التطبيقية المغربية، هي تطبيق المعرفة اللغوية إجرائيا وواقعيا على المشاكل والقضايا والإشكالات والمستجدات اللغوية الحاصلة فعلا في الممارسة الصفية المدرسية طلبا لمقاربتها وحلها ومعالجتها، واستيفاء لأثرها على ناتج التعليم/تعلم فضلا عن ترصيد المعرفة اللغوية المتعلقة بهذه المشاكل وهيكلتها في أطر نظرية للاستفادة منها».

33. عبده الراجحي، **علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000؛ ص. 20-8.

ويزداد الأمر غموضا، عند محاولة قريش التمييز بين اللسانيات المدرسية التطبيقية وهي في نظره، «مجال متعلق بالمدرسة فقط، بمعنى ما يقع في المدرسة من مشاكل وقضايا تتعلق بتدريس اللغة، وهو ما يمنح هذه اللسانيات حدودا، مكانيا وزمنيا ووجوديا، معينة»، وبين ما يقع خارج المدرسة (في الأسرة مثلا) و«هو مجال تعليمي بصفة عامة يمكن أن تختص به (ما يسميه) اللسانيات التعليمية التطبيقية».[34]

2) مثال آخر عن التأرجح وربما التيهان بين أكثر من تخصص واحد، نجده عند سامية جباري والتي تصرح في معرض وصفها للعلاقة ما بين ل.ت. و د.ل. «بأن ما يثير الانتباه حقيقة هو أنّ الوعي بأهمية البحث في منهجية تعليمية (ديدكتيك) اللغات قد تطوّر بشكل كبير في السنوات الأخيرة، حيث انصرفت الأذهان لدى الدارسين على اختلاف توجهاتهم العلمية وتباين المدارس اللسانية التي ينتمون إليها، إلى تكثيف الجهود من أجل تطوير النظرة البيداغوجية الساعية إلى ترقية الأداءات الإجرائية في حقل التعليمية، ممّا جعلها تكتسب الشرعية العلمية لتصبح فرعا من مباحث اللسانيات من جهة، وعلم النفس من جهة أخرى، فاحتلت مكانتها بجدارة بين العلوم الإنسانية. فالحديث عن التطبيقات اللسانية في ميدان تعليمية اللغات يقتضي بالضرورة المنهجية الحديث عن مفهوم اللسانيات التطبيقية وتحديد المبادئ الأساسية لهذا العلم ثم علاقتها بتعليم اللغات». [35]

3) مثال ثالث عن التداخل والتشابك ومخاطر التشويش، نعثر عليه في الندوات التي تنظمها بعض كلياتنا وما ينتشر في شعبها اللغوية من مقررات ووحدات. فقد نظم مختبر الأدب واللسانيات والترجمة بكلية الآداب (بنمسيك بالدار البيضاء)، ندوةَ طلبة الدكتوراه في اللسانيات في دورتها الثانية، (ماي 2014)، بمشاركة جامعات مغربية وأجنبية، قدم فيها 32 بحثا. ومما ورد في الورقة التمهيدية للندوة:

34. عبد العزيز قريش: «البحث التربوي الميداني أساس تأصيل اللسانيات المدرسية التطبيقية».، (مقالة منشورة في: *Actualités* 25 juillet 2018).

35. سامية جباري، **اللسانيات التطبيقية وتعليمية اللغات**، طبعة مختصرة **مجلة الممارسات اللغوية**، جامعة مولود المعمري، المجلد الخامس،العدد 21، السنة 2014، ص. 108-93.

« ... ما يميز هذه الدورة، انفتاحها على بعض الموضوعات الجديدة ومن هذه الموضوعات ما يرتبط باللسانيات التطبيقية وتعليم اللغات والاتصال اللغوي والدرس اللغوي في الكتاب المدرسي والتداخل اللغوي في المدرسة ومقاربة الترجمة لغويا والسياسات اللغوية؛ ومنها ما يتصل بالخصائص التوزيعية لبعض الظواهر اللغوية وبالسياق والتواصل والبنيات التصورية وسيرورات توليد الألفاظ والنظريات الصرفية الملائمة لبنية الاشتقاق في العربية».[36]

لكن هذا الهاجس الانفتاحي والتوليفي، الذي لازم طبيعة اللسانيات التطبيقية وتطورها، والذي يروم الوصول إلى تعريف جامع مانع، وإلى التوليف ما بين المشترك من التخصصات، قصد إحداث حالة توافق، هو هاجس يؤدي في نهاية التحليل، إلى الاعتقاد في أنه وعلى الرّغم من المحاولات التركيبية والتي كثيرا ما لاحظناها حتى عند اللغويين، فإن اللسانيات التطبيقية ستفقد هويتها وتتسع مجالاتها إلى حد التشتت والانحلال. ويؤكد ألان ديفيز Alan Davies هذا الطرح، فبعد استعراضه لعدد كبير من التعريفات لل.ت. وآراء الباحثين عند محاولتهم ضبط إطارها المفاهيمي، يؤكد «أنها ظلت تعاني مشكلة تعريف ومشكلة هوية، فهي تدل على أشياء كثيرة لكثير من الناس، وإن طابعها البين تخصصي أدخلها دائرة التركيب والتوليف ما بين جملة من البحوث (دائرة أقرب إلى الدوامة في نظرنا)، مما نجم عنه أن أضحت خليطا من تخصصات عدة»، ضدا عن أبسط شروط التخصص المطلوبة علميا.

إن النظر في جهود تحديد الأهداف واختيار الكفايات وضبط المحتوى اللغوي الذي يقدم للمتعلم في العادة، من حيث الكم والكيف، وكذا النظر في نوع الطرق والوسائل التي تستعمل لتبليغ ذلك المحتوى وتحقيق بالتالي الأهداف، والنظر كذلك في أسلوب المدرس في التطبيق أي أسلوبه في أداء هذه الطريقة أو تلك، تبعدنا كلها شيئا فشيئا عن اللسانيات؛ ذلك أن هذه المواضيع والمهام هي في نهاية التحليل مواضيع من صميم اهتمامات الديدكتيك وديدكتيك اللغات، الأمر الذي قد يسقطنا في حالة من الشك

36. مختبر الأدب واللسانيات والترجمة بكلية الآداب (بنمسيك بالدار البيضاء)، ندوة: «طلبة الدكتوراه في اللسانيات»، نشر في أون مغاربية، يوم 21ـ 05 ـ 2014 .

والغموض، كلما تعدت اللسانيات التطبيقية/التربوية حدودها وتطاولت على انشغالات الديدكتيك مستعملة نفس عدتها (من مصطلحات ونماذج ووسائل وأدوات...)، مما يفقدها هويتها، خاصة على مستوى البحث النظري الأكاديمي.

والحقيقة أن ذلك التأرجح لم يحصل فقط بين ل.ت. و د.ل. بل حصل كذلك بين اللسانيات التطبيقية وعلوم أخرى مثل علم النفس . فبعد ظهور اللسانيات التطبيقية/النفسية، برزت إشكالية المجال والحدود، وبرز من يعتبره مجالا من مجالات علم النفس، في حين لم يجد آخرون، أمثال حسيب شحادة، أي حرج في تسميته سواء «بعلم اللغة النفسي، أو علم النفس اللساني/اللغوي psycholinguistique، والذي يدرس اللغة البشرية الطبيعية بوصفها ظاهرة نفسية ذات صلات بفضاءات أخرى في النفس البشرية. ويرمي هذا العلم حسب شحادة» إلى دراسة العلاقة القائمة بين اللغة والفكر وكيفية اكتساب اللغة، (كيفية فهم الكلمات والجمل وسرعة ذلك وصعوبات الفهم والمعجم الذهني). كما تندرج تحت علم اللغة النفسي مواضيع من مثل، الازدواج اللغوي وثنائية اللغة وعلاقتهما بالذكاء والشخصية، ونظرية الأسلوب والتطرّق لدراسة أمراض اللغة وعيوب الكلام المختلفة المسبّبة للحن صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا ودراسة اللغة الانفعالية وكيفية تعلّم اللغات الأجنبية.[37]

في حين يؤكد عبد العزيز العصيلي في تقديم كتابه «علم اللغة النفسي»، على أن هذا «الكتاب جديد في محتوياته التي تهم المتخصصين في اكتساب اللغة وتعلمها وتعليمها، سواء أكانت لغة أماً أم لغة ثانية أم أجنبية. ويتميز الكتاب بتناوله للقضايا اللغوية من منطلق لغوي نفسي «باعتبار أن علم اللغة النفسي فرع من فروع علم اللغة، وليس فرعاً من فروع علم النفس».[38]

علما أن علم النفس، وخاصة علم نفس النمو وكما هو معلوم، يدرس بدوره اكتساب اللغة والنمو اللغوي ومعيقاته واضطرابات وأمراض اللغة في اكتسابها ونموها في مختلف

37. بتصرف عن حسيب شحادة، «حول علم اللغة النفسي»، في موقع **الحوار المتمدن** 26/ 1/ 2014.

38. عبد العزيز العصيلي، في تقديم كتابه: **علم اللغة النفسي**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض، 2006.

مراحل الحياة. كما يهتم علم نفس التعلم بدوره باكتساب اللغة وبمختلف العمليات الإدراكيّة المتعلقة باللغة.

وهنا نلاحظ من جديد، مدى التجاذب بين العلوم حيث يندرج علم اللغة النفسي من منظور علماء اللغة، ضمن تخصصات علم اللغة التطبيقي، في حين يتجه علماء النفس إلى اعتباره فرعا من فروع علم النفس المعرفي[39] psychologie cognitive.

لكل ذلك، فإننا ننبه من جديد ودون كلل، من خطر السقوط فيما نسميه بالتشويش الباراديگمي والذي يعني بالأساس التأرجح بين العلوم والتخصصات وعدم وضوح وثبات المنطلقات النظرية والمرجعيات النموذجية والمنظورية، لدى العديد من الباحثين وفي كل المجالات، وما يسميه محمد المدلاوي المنبهي «بانقطاع السند والقطيعة الاصطلاحية والمفاهيمية».[40]

فضلا عما يمكن أن يُسقِط الباحثين والممارسين في ما يسميه مصطفى إستيتو «بالمنزلقات الديدكتيكية»، و يقصد بها المخاطر التي تزج بمفاهيم المعرفة العلمية في دوامة التشويه والخروج بها عن جوهرها ومقاصدها،خاصة عندما نسعى لتحويلها إلى معارف ميسَّرة و نقلها وتلقينها للمتعلمين في المدارس.[41]

تشويش يستفيد منه المدعون وهم كثر، لترويج خطابات تحسب على اللسانيات أو على الديدكتيك بحكم عناوينها، على الرغم من كونها ليست من هذا ولا ذاك، «إنها محض لغو لا مضمون له». إن اللسانيات و الديدكتيك باعتبارهما من العلوم الإنسانية، غير محصنتين ضد ما يسميه المدلاوي «بالشعوذة الأكاديمية»، الأمر الذي يجعل الكثير من الكتابات التي تحسب عليهما، سببا في نفور الناس منهما.

39. أسماء حزام: «بحث حول علم النفس اللغوى» جامعة الامير سلطان بن عبد العزيز؛ 2013، ص.18.

40. محمد المدلاوي المنبهي: «اللسانيات العربية المعاصرة ما بين البحث العلمي وتهافت التهافت». **دراسات أدبية ولسانية** ؛ فاس، المغرب، ع 3، 1986، ص. 57-110.

41. مصطفى إستيتو: «ديداكتيك اللغة العربية بالمدرسة الابتدائية بين التصوُّر والممارسة، مقاربة توليدية»، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط؛ 2012. ص. 26ـ29.

نراجع أيضا: خالد الأشهب ومحمد الراضي: «اللسانيات ووضع الدرس اللغوي بالمدرسة المغربية: مقاربة أولية»، **أبحاث لسانية**، المجلد: 11، العدد 2/1 ديسمبر، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، 2006. ص. 77.

سادسا: الطريق الثالث أو من أجل تأسيس نموذج بديل (النموذج التفاعلي):

لن نعمل هنا على عرض مفصل لهذا النموذج البديل الذي نقترحه كحل للإشكال، خاصة وأننا ما زلنا في الخطوات الأولى لإعداده وتجريبه، في إطار مجموعة بحث متعددة التخصصات كما أسلفنا. لكننا سنعمل الآن، على استعراض بعض الحيثيات والأفكار الموجهة التي قد تمهد وتبرر الدعوة لهذا النموذج.

لقد كان من الطبيعي إزاء ما لاحظناه من تضارب في الآراء و المواقف، أن تطرح من طرف الباحثين وعموم المربين، الكثير من التساؤلات الحائرة حول العلاقة الشائكة بين ل.ت.و د.ل.، من مثل: «لماذا لا نتحدث فقط عن ديدكتيك اللغات، بدلا مـن الحديث عن اللسـانيات التطبيقيـة؟». معتقدين أنهم بذلك سيزيلون الكثيـر من الغموض واللبس ويمنحون لتخصص د. ل. المكانة التي تستحقها وهم يطبقون في ذلك المقولة «كم من مشكلة حللناها بتركها».

ونتساءل نحن بدورنا، ألا يكون بإمكاننا إيجاد طريق ثالث مغاير أو نموذج بديل؟ دون السقوط في التشويش والخلط الذي رددناه في مجمله لغياب الوضوح البراديگمي.

نموذج قد يستدعي الجمعَ على مستوى الممارسة، بين النظريات اللسانية والتطبيقية منها على وجه الخصوص و ديدكتيك اللغات، لكن دون التضحية بأحدهما على حساب الآخر عندما يتعلق الأمر بالبحث وبأسسه النظرية ومنظوراته. وفي هذه الحالة، ستكمن الإضافات التي ستقدمها اللسانيات إلى الديدكتيك، في تعزيز جانب الممارسة الميدانية بتشخيص صعوبات المتعلمين اللغوية والتواصلية (بمختلف أنواعها ودرجات خطورتها) ورصد أخطائهم اللغوية وتيسير سبل إيجاد الحلول لها وللمشكلات التي تعوق اكتسابهم للغة. إضافات ستغدو من المجالات الأساسية للسانيات التطبيقية ــ التربوية، فتساهم بالتالي في مد ديدكتيك اللغات بما يساعدها على تطوير مناهج وطرق تدريس اللغات (الأولى أو الثانية) في مختلف الأسلاك التعليمية دونما الحاجة للتضحية بأي منهما.

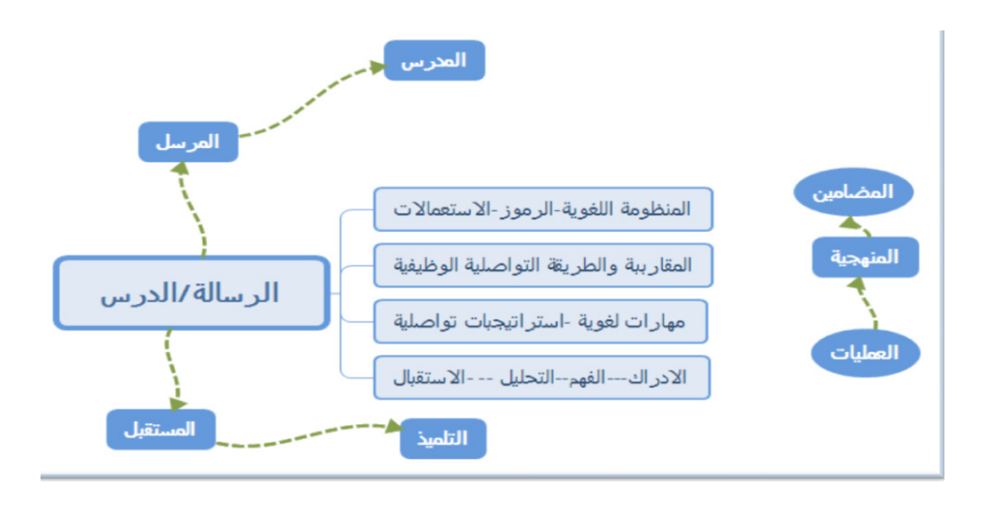
وضمن هذا السياق، يذهب أشرف سليم إلى ما يمكن أن يعزز رأينا، عندما يقول: «أدى الانفتاح على اللسانيات، خاصة اللسانيات التربوية، إلى ظهور فرع آخر من هذا العلم وهو اللسانيات التطبيقية الذي كان أكثر الطرائق إجرائية في تعليم اللغات، مما حذا بكثير من علمائنا اللغويين في الوطن العربي إلى تبني هذا العلم في المعاهد و الجامعات العربية، منذ أواسط القرن الماضي، ذلك لأن هذا العلم لا يقدم خدمة للناطقين بلغة ما وإنما يقدم أيضا خدمة لغير الناطقين بلغة التعلم الراغبين في تعلمها ويقوم هذا العلم بالتحديد، على إيجاد حلول للمشكلات التي تعوق تعلم اللغة والبحث عن تفسيرات موضوعية لها و تيسير تعليم اللغة للناطقين بها أو بغيرها» [42]

ويتضمن رأينا الهادف إلى شق طريق ثالث ما بين الاتصال والانفصال (بين ل.ت.ود.ل.)، رسما واضحا لما ينبغي أن تتوقف عنده اللسانيات من حدود كلما باشرت موضوع تعليم اللغة واكتسابها، مما قد يساعد في تأسيس النموذج البديل المنشود. لا أحد يشك أبدا، في الخدمات الجليلة التي تقدمها اللسانيات في مجال تعليم اللغات بشكل عام، والمتمثلة بالأساس في إقدار المتعلم على ما يسميه الباحثون بالتواصل اللغوي والذي لا يتأتى إلا بتمكين المتعلم من قدر من الاستقلالية في التعلم، ثم بالإلحاح على تقديم شواهد لغوية قريبة من واقعه، على خلاف ما يحصل في أغلب حجرات الدرس، حيث تقدم مواد اللغة كالنحو مثلا، بطرق وأمثلة لا تناسب أذهان التلاميذ وبعيدة عن واقعهم و لا تتلاءم مع ميولا تهم و أنماطهم في التفكير.

وهكذا حظي مجال تعليم اللغة وتعلمها باهتمام اللسانيين التطبيقيين أكثر من غيره، وكما لاحظ معدو الورقة التمهيدية للندوة الدولية الأولى للسانيات التطبيقية العربية، «فإن ذلك الاهتمام لا يقتصر على العربية، بل يصدق على أغلب اللغات المتعلمة». ويرجعون السبب في ذلك إلى «أن متعلمي اللغة العربية يشتكون من ضعف في المهارات الأربع (السمع، المحادثة، القراءة، الكتابة) ولو بعد سنوات من الدرس

42. أشرف سليم: «استثمار اللسانيات في تعليم اللغة العربية» مقالة نشـرت في **جريدة العلم**، عدد يـوم 19،01، 2014.

والتحصيل. إن هذا الأمر يستدعي مساءلة المناهج الدراسية والمقررات على ضوء نتائج التحليل اللساني للغة العربية، والبحث فيما إذا كانت موافقة لما هو متعارف عليه بين أهل الاختصاص. ولأجل ذلك، فإن الباحثين مدعوون إلى تقديم مناهج جديدة لتدريس مختلف المستويات اللسانية للغة العربية، من معجم وصرف وتركيب ودلالة وأصواتيات ... وما إلى ذلك».[43]



خطاطة أولية بجانب من النموذج اللساني-التدريسي تبين عناصر من التفاعل الممكن بين اللسانيات التطبيقية و ديداكتيك اللغات باعتماد المقاربة التواصلية، نقدمها كمثال فقط، على ما نحن بصدده في مشروع «النموذج البديل».

وفي هذا السياق قدم اللسانيون المغاربة نماذج مائزة، تأكد ضرورة الانخراط في دعوتنا للبحث فيما نسميه بالطريق الثالث والهادف إلى فك الارتباط بين العلمين (ل.ت.و د.ل.) وإحداث، قدر من التفاعل المتوازن بينهما في نفس الآن. مما يؤكد أهمية الاستفادة من أبحاث اللسانيات المغربية الحديثة كاللسانيات الوظيفية مع أحمد المتوكل واللسانيات التوليدية الحديثة مع عبد القادر الفاسي الفهري، بهدف الخروج

43. بتصرف عن الورقة التمهيدية للندوة الدولية الأولى «للسانيات التطبيقية العربية: الإشكالية، الأهداف، المحاور والضوابط»، جامعة محمد الخامس بالرباط، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، المغرب، 27 أكتوبر2017.

بمكون الدرس اللغوي من الطرائق التقليدية التي تتوخى الشحن، دون ربط التلميذ بالسياق التداولي الذي يمكن أن يستثمر فيه قاعدة نحوية اكتسبها وتبين في نفس الآن الطبيعة الجمالية للنحو العربي.[44]

لكن لابد من التذكير مجددا، بضرورة الانتباه لمسألتين هامتين:

- **أولاهما**، عدم الهرولة والافتتان بكل ما هو مستورد من نظريات، فقد انتبه موسى الشامي مبكرا لأهمية توظيف بعض النظريات اللسانية في تدريس اللغات واللغات الأجنبية على وجه الخصوص، لكنه يحذر في نفس الآن من التهافت بقوله «إن الوضعية اللغوية بالمغرب تحتم علينا أن نحتاط كثيرا من التطبيق العشوائي لما تأتينا به كتب اللسانيات التطبيقية من الغرب بخصوص تدريس اللغات الأجنبية ... وأعتقد أن طريقة كالطريقة التواصلية التي جاءت بها اللسانيات التطبيقية حديثا والتي تتسرب إلى أقسامنا دون تفكير مستقبلي في خلفياتها» الإيديولوجية «لن تسهل علينا عملية إثبات هويتنا الوطنية».[45]

- **وثانيهما**، الحذر من التخبط الأكاديمي، فرغم التداخل بين هذين التخصصين (ل.ت. و د.ل.) والتكامل بينهما وتبادل التأثير والتأثر، لابد من احترام الحدود النظرية والمنهجية التي يفرضها كل تخصص والمجالات التي يختص بها وإلا سنسقط في دوامة من الغموض والالتباس.

---

44. انظر كتاب أحمد المتوكل: **المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي: الأصول والامتداد**، دار الأمان الرباط، 2006، وكذلك كتابه: **آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي**، جداول للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2013. وكتب عبد القادر الفاسي الفهري ومنها على سبيل المثال: **اللسانيات واللغة العربية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1985. **وذرات اللغة العربية وهندستها، دراسة استكشافية أدنوية**،: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2010.

45. موسى الشامي: «اللسانيات التطبيقية إلى أين؟»، نص محاضرة ألقيت ضمن الأنشطة الثقافية لكلية علوم التربية بالرباط؛ 1987. ونشرت في **العلم الثقافي**، عدد 31 أكتوبر1987 .

خاتمـــــة

يعتبر مصطلح اللسانيات التطبيقية، كما أوضحنا، مصطلحا/تخصصا إشكاليا، حيث يصعب تعريفه، وتضاربت حوله الآراء والمواقف، من حيث نشأته وتطوره و من حيث مضمونه والمجالات التي يشملها في البحث و الممارسة. فقد عرف توجهات متعددة ومتناقضة في الكثير من الأحيان، حيث وجدنا من يرفض الاعتقاد السائد بأن علم اللغة التطبيقي مرتبط بعلم اللغة النظري أو هو تطبيق لنظرياته.

وفي المقابل وجدنا من يعرف ل.ت. بأنها تطبيق لما جاءت به اللسانيات النظرية من مقترحات لحل مشاكل عملية متصلة باللغة. وهناك من يختزل هذا العلم في علم آخر ربما ولد من رحمه أو على أقل تقدير نشأ في أحضانه وهو ديداكتيك اللغات، فيدعو إلى الكف عن الحديث عنه كعلم مستقل. كما أثيرت العديد من الاشكالات حول ل.ت. بما فيها اللسانيات التربوية التي صعب نظرا لكثرتها، تفصيل الحديث عنها في هذه الدراسة.

كما لم يسلم مصطلح/تخصص ديدكتيك (ما نسميه بعلم التدريس) بدوره، من الكثير من الجدل والتجاذب، سواء في تعريفه وضبط مجالاته وفروعه (بما فيها ديدكتيك اللغات)، أو في علاقاته وتفاعلاته مع العلوم الأخرى المرتبطة بموضوع التدريس. كما سيعرف الكثير من «المضايقات»، ليس فقط من بعض من يتحمس للسانيات التطبيقية/التربوية كما رأينا، بل ومن غيرهم من الباحثين الذين لم يتمكنوا من التخلص من العديد من المفاهيم الفرنكفونية الغامضة وفي مقدمتها مفهوم «البيداغوجيا».

يتعين إذن علينا كتربويين (باحثين وممارسين) أن نلم بكل هذه الاشكالات والتطورات وما واكبها من بحث وجدال، قبل ان نتحدث بنوع من التسرع عن العلاقة بين تلك التخصصات المرتبطة سواء باللسانيات أو بعلم التدريس وقبل الحديث الإنشائي عن تبادل التأثير والتأثر بينها. ويجب على القائمين بالشؤون التربوية والمخططين منهم للمناهج على وجه التحديد، عند قيامهم بإعداد المقررات الدراسية التي تهتم بتعليم اللغة العربية وغيرها من

اللغات، الانفتاح على الباحثين في اللسانيات بقدر انفتاحهم على الباحثين في الديدكتيك، مع الحرص على تجنب الخلط والحذر من جميع أسباب التشويش.

نحن ندعو إلى ضرورة الانفتاح، الانفتاح على اللسانيات عموما واللسانيين في بلادنا على وجه الخصوص، و التي تعد من خيرة البلدان التي أنجبت علماء لغويين كبار، أمثال إدريس السغروشني وأحمد العلوي وأحمد المتوكل وعبد القادرالفاسي الفهري وأحمد بوكوس و مبارك حنون ومحمد الحناش وعبد العلي الودغيري... وغيرهم كثير، برعوا في هذا العلم بمختلف مشاربه وتفرعاته ومجالاته ولغاته وتطبيقاته التربوية، ينهل من أعمالهم الكثير من الجامعات المغربية و العربية، كما ينهل من أفكارهم ونظرياتهم العديد من المربين ومن الاساتذة الباحثين في علوم التربية و التدريس و في علم تدريس اللغات على وجه الخصوص.

لكن لابد أن نحذر مجددا، مما قد يحدثه التهافت على الانفتاح والنقل، سواء من قبل علماء اللغة أو علماء التدريس، دون ضوابط ودون مراعاة لأبسط شروط البحث العلمي ومقتضيات السياق وربما بدعوى تداخل ألاختصاصات وتكامل العلوم، من خطر السقوط فيما نسميه بالتشويش الباراديكمي والذي يعني بالأساس التأرجح بين التخصصات وعدم وضوح وثبات المنطلقات النظرية والمرجعيات لدى العديد من الباحثين وفي كل الميادين.

إننا نلاحظ نوعا من عدم الاستقرار العلمي من القطيعة بين الباحثين، وقد لانغالي إن قلنا بأن القطيعة قد يعاني منها الباحث الواحد نفسه والذي يتيه بين العديد من الاختصاصات ويغازل الكثير من النماذج والمنظورات وقد يفتقر إلى الوعي بأهمية البارديگم الناظم للمفاهيم والتصورات وما يترتب عنها من حدود فاصلة وعلائق بين مجالات البحث في اللغة والمجتمع والإنسان، مما يزيد في تعميق إشكالية الخلفية النظرية للبحوث والأسس العلمية للمناهج وللممارسات التربوية.

المراجع

الأشهب خالد والراضي محمد، «اللسانيات ووضع الدرس اللغوي بالمدرسة المغربية: مقاربة أولية»، **أبحاث لسانية**، المجلد: 11، العدد 2/1 ديسمبر، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، 2006.

آيت أوشان علي، **اللسانيات والتربية: المقاربة بالكفايات والتدريس بالمفاهيم**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014.

إستيتو مصطفى، «ديداكتيك اللغة العربية بالمدرسة الابتدائية بين التصوُّر والممارسة، مقاربة توليدية»، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، **2012**.

البوشيخيي عزّ الدين، «خرائط المعرفة اللسانية وزوايا النظر»، عرض في سيمنار أسبوعي ينظمه المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة، 2018.

بشر كمال، **التفكير اللغوي بين القديم و الجديد**، دار غريب، القاهرة، 2005.

تشومسكى نعوم: «جوانب من النظرية النحوية»، عن ابراهيم طلبه سلكها: «الكفاءة والأداء اللغويان عند تشومسكى»، في **صحيفة المثقف**، **بتاريخ** 11مارس2017.

ترادجل بيتر، «**السوسيولسانيات»، مدخل إلى دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع**، ترجمة محمد كرم الدكالي، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2017 .

جباري سامية، **للسانيات التطبيقية وتعليمية اللغات**،جامعة الجزائر 1، 2014.

جباري سامية، «اللسانيات التطبيقية وتعليمية اللغات»، (نسخة مختصرة) **مجلة الممارسات اللغوية**، جامعة مولود المعمري، المجلد الخامس، العدد 21، السنة 2014، ص. 108-93.

جلايلي سمية، «اللسانيات التطبيقية مفهومها و مجالاتها»، **مجلة الأثر**، منشورات المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة، الجزائر، العدد 29 ديسمبر 2017.

حزام أسماء، **بحث حول علم النفس اللغوى**، جامعة الأمير سلطان بن عبد العزيز، 2013.

حسني خاليد، **مدخل إلى اللسانيات المعاصرة**، مكتبة الشيخ حسن، وجدة، 2014.

حمداوي جميل، مقالة «اللسانيات الاجتماعية» **شبكة الألوكة**، 2/7/2015.

خلاف مسعودة، **دروس في اللسانيات التطبيقية**، قسم اللغة والأدب العربي جامعة جيجل، الجزائر، 2013 ص. 7.(مطبوع مستنسخ كوثيقة عمل موجهة للطلبة والباحثين تحت عدد: N° 03KHM, 2013).

خاين محمد، **محاضرات في اللسانيات التطبيقية**، من منشورات المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان، 2017.

خاين محمد، «اللسانيات التطبيقية من ملابسات النشأة إلى تشعّبات التطور»، في **مجلة العمدة**، كلية الآداب واللغات، جامعة بوضياف، عدد فبراير 2019.

الدريج محمد، «ما هي الديدكتيك؟»، **مجلة التدريس** (العدد السابع)، التي تصدرها كلية علوم التربية بجامعة محمد الخامس بالرباط، 1984.

الدريج محمد، **مدخل إلى علم التدريس: تحليل العملية التعليمية**، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات، 2003.

الدريج محمد، «عودة إلى تعريف الديدكتيك أو علم التدريس كعلم مستقل»، **مجلة علوم التربية**، العدد 47، 2011.

سليم أشرف، «استثمار اللسانيات في تعليم اللغة العربية» مقالة نشرت في **جريدة العلم**، عدد يوم 19-01-2014.

شحادة حسيب، «حول علم اللغة النفسي»، في موقع **الحوار المتمدن**- 26/1/2014.

الشامي موسى، «اللسانيات التطبيقية إلى أين؟»، نص محاضرة ألقيت ضمن الأنشطة الثقافية لكلية علوم التربية بالرباط، ونشرت في **العلم الثقافي**، عدد 31 أكتوبر1987 .

الراجحي عبده، **علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000.

طلبي رشيد، «اللسانيات التربوية وتدريسية اللغة العربية»، مداخلة في ندوة تآلفت حول أعمال علي آيت أوشان، نظمتها المديرية الإقليمية لوزارة التربية الوطنية بفاس. 2019 (غيرمنشورة ورقيا).

العصيلي عبد العزيز، في تقديم كتابه: **علم اللغة النفسي**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 2006.

عياد حنا سامي، **معجم اللسانيات الحديثة**، مطبعة المساحة بالقاهرة، 2007.

الفاسي الفهري عبد القادر (1985)، **اللسانيات واللغة العربية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007.

الفاسي الفهري عبد القادر، **ذرات اللغة العربية وهندستها، دراسة استكشافية أدنوية**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010.

القاسمي علي، **علم المصطلح: أسسه النظرية وتطبيقاته العملية**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2008.

قريش عبد العزيز، «البحث التربوي الميداني أساس تأصيل اللسانيات المدرسية التطبيقية»، مقالة نشرت في مجلة *Actualités*، عدد 25، يوليوز 2018.

المتوكل أحمد، **المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي: الأصول والامتداد**، دار الأمان، 2006، الرباط.

المتوكل أحمد، **آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي**، جداول للطباعة والنشر والتوزيـع، بيروت، 2013.

مختبر الأدب واللسانيات والترجمة بكلية الآداب (بنمسيك بالدار البيضاء)، ندوة: «طلبة الدكتوراه في اللسانيات»، نشر في **أون مغاربية**، يوم 21-05- 2014.

المدلاوي المنبهي محمد، «اللسانيات العربية المعاصرة ما بين البحث العلمي وتهافت التهافت». **دراسات أدبية ولسانية**؛ فاس، المغرب، ع 3، 1986، ص. 110-57.

مونان جورج، **معجم اللسانيات**، ترجمة وتحقيق جمال الحضري. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2011.

معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، **الندوة الدولية الأولى حول «اللسانيات التطبيقية العربية: الإشكالية، الأهداف، المحاور والضوابط**»، جامعة محمـد الخامس بالـرباط، المغـرب، 2 أكتوبر2017، (بتصرف عن الورقة التمهيدية للندوة).

النجار مازن، «التخصص أم الموسوعية.. هل المنهج العابر للتخصصات هو مستقبل الإنتاج المعرفي؟، على الرابط https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2019/11/6/

النهيبي ماجدولين، «من المعرفة اللسانية إلى تدريس اللغة: ديداكتيك النطق وتأليف الأصوات العربية»، **مجلة التدريس**، منشورات كلية علوم التربية، الرباط، 2016.

وطفة علي أسعد، **من صدمة المستقبل إلى الموجة الثالثة: التربية في المجتمع ما بعد الصناعي في منظور آلفين توفلر**، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، يونيو 2019. صفحة 17 وما بعدها.

American Association for Applied Linguistics (Website, www.aaal.org)..

Association française de linguistique appliquée. (afla-asso.org)./

Blanchet Philippe: «*La sociolinguistique est-elle une «inter- discipline»?*
Travaux neuchâtelois de linguistique, 2011, 53, pages 13-26 P 14

Crystal DM : 1988 «*Directions in applied linguistic*», Academic Press, p1-24.

Denis Girard: «*Linguistique appliquée et didactique des langues*». Ed Armand Colin-Longman. Paris. 1972.

Galisson Robert: «Problématique de l'autonomie en didactique des langues.» Contexte français. In: *Langue française*, n°82, 1989.

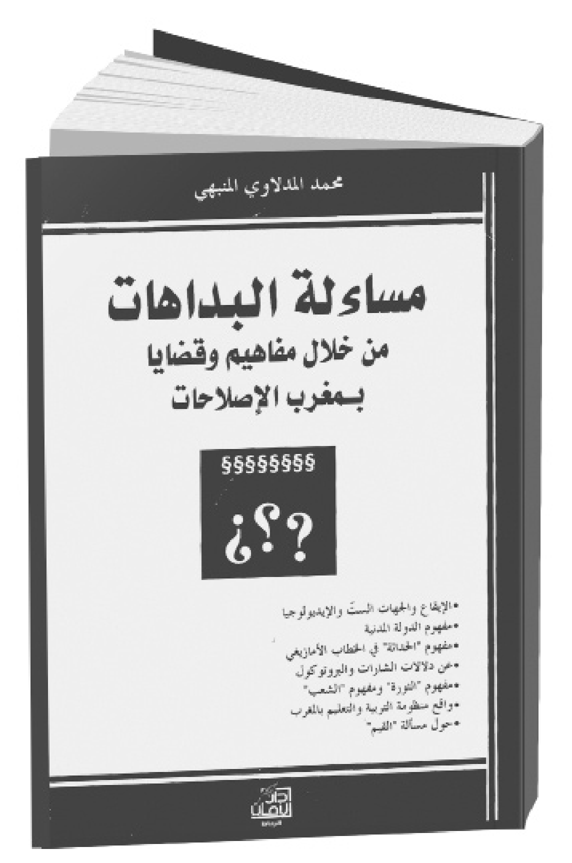
-Labov, W.: *Sociolinguistique*. Paris, (Minuit), 1976.

Lantolf, J. P., & Beckett, T. (2009). «Research timeline for sociocultural theory and second language acquisition» *Language Teaching*, 42, 459-475.

Michel Dabène :«Questions et débats sur l'histoire de la didactique du français 1965-2007 : Quelque 40 ans de déambulations dans les territoires de la didactique du français«، dans *Recherches en Didactiques,* 2013/1 (n° 15). Entretien avec Michel Dabène» ،*Association REDLCT | «Recherches en didactiques» 2013/1 n° 15 | pages 137 à148.*

United States National Academy of Sciences. (appling.ucla.edu/).

قـــــراءات



محمد المدلاوي المنبهي
مساءلة البداهات
من خلال مفاهيم وقضايا
بمغرب الإصلاحات
§§§§§§§§
؟؟¿
•الإيقاع والجهات الستّ والإيديولوجيا
•مفهوم الدولة المدنية
•مفهوم "الحداثة" في الخطاب الأمازيغي
•عن دلالات الشارات والبروتوكول
•مفهوم "الثورة" ومفهوم "الشعب"
•واقع منظومة التربية والتعليم بالمغرب
•حول مسألة "القيم"
دار الأمان

مساءلة البداهات: منهج ضروري لإنجاز عملية التّثوير المجتمعي

قراءة في كتاب محمد المدلاوي المنبهي: مساءلة البداهات من خلال مفاهيم وقضايا مغرب الإصلاحات
دار الأمان، الرباط، 2019

محمد مصطفى القَبّاج
أستاذ باحث في الفلسفة وعلوم التّربيّة

أودّ، بداية، أن أَمهِّد لهذه القراءة بملاحظة منهجيّة عامّة، وهي أنّه لاستيعاب مقاصد الكتاب لابدّ من التسلّح بالعديد من المداخل المعرفيّة التي تُسعِف في إدراك أغراض المؤلّف الذي هو بدوره مقتنع بأن رفع الالتباسات المفاهيمية رهينٌ بتكاثف أصناف المعارف، وبذلك يكون المسار نحو إدراك الحقائق مُؤمّنا من التّعثُّرات التي هي عِلَّةُ الشّرود عن الجادّة. وأفتح هنا قوسا لأقول بأن الفيلسوف الرّاحل محمّد عزيز الحبابي كان له السّبق في التّنبيه إلى أهميّة ومحوريّة «تكامل أصناف المعرفة» كمسعىً منهجيّ في كلّ بحث علميّ جادّ. من ثَمّة أرى أنّ الأكاديمي محمد المدلاوي وُفّق أيّما توفيق في إبراز مصداقيّة هذا النّهج التّكاملي في طرحه لمختلف المواضيع رغم صعوباتها وتشعّباتها. وقد راقني جدّاً أن يؤصِّل المدلاوي هذه المنهجية وهو يربطها بما أسماه «الطريقة الخلدونيّة الشّاملة»، فابن خلدون لم يكتف في معالجته لموضوعاته بصنف معرفي واحد، ولكن كان حسب المفهوم القديم «عالما مشاركا»، أو ما أصبح يعرف اليوم بالمفكر الموسوعي المؤهَّل للفهم الصّحيح للقضايا المتعلّقة بالإنسان ولسانه وإبداعاته

ومعارفه ومجتمعه. بالتّالي فإن الاقتصار على المقاربات الوحيدة البُعد (بعد سياسي محض – بعد سوسيولوجي محض – بعد أنثروبولوجي محض ... إلخ) في تناول شؤون المجتمع التي هي شؤونٌ مُعقّدة ومتعدِّدةُ مستويات التّمثيل والانعكاس، ومتعدّدةُ لغات وخطابات التّعبير – لهو اقتصار من شأنه ألاَّ يَتبيَّن، من خلال كل مقاربة معزولة خاصة، إلا الجزء المرئي من جبل الجليد من زوايا القضايا المبحوث فيها من وجهة نظر باحثنا.

أمر آخر أود أنْ أنبّه له قبل الدّخول في استعراض مواضيع الكتاب وهو أنّ المدلاوي لا يُخفي عن قُرّائه بأنه في مباحثه ينطلق من أمازيغيته التي تتجاوز البعد العِرقي والبُعد اللّغوي، إنّه يُجلّيها كمقاربة فكريّة وحضارية تَسْتَوْجب اتّساع مدارك الباحث لتشمل مُحصِّلات علوم الاجتماع والنّفس والثّقافة والتّاريخ ونظريّة المعرفة والاقتصاد والسّياسة، دون إهمال مُحصِّلات التّراكمات الأدبيّة والفنّية، وبخاصّة مجالي الإبداع الموسيقي والتّشكيلي. بذلك تنتفي عن هذا الباحث الأصيل نزوعات التعصّب والتّطرّف، وذلك ما يجعله مُتَفَتِّحاً يَتغيّا المساهمة الموضوعيّة والنّافذة في إغناء الفكر المغربي الذي ينبغي أن يتجاوز الحساسيّات والنّزوعات الذّاتيّة المُنْغلِقة على نفسها بِدعاوَى الانتماء العرقي أو اللّغوي. وهو يعتقد أن الجِدالات المطروحة في السّاحة المغربية خاصة في مجالي العِرق واللّغة لا تليق بدولةٍ تسعى إلى الانخراط في التوجّه الحداثي الدِّيمقراطي.

* * *

بعد هذه الملاحظات المنهجيّة التّمهيديّة أرى أنّ المدلاوي استشعر بأن من يتأهّب لقراءة كتابه يطرح استفسارا حول اختياره بعنوان «مساءلة البداهات من خلال مفاهيم وقضايا مغرب الإصلاحات». فكان عليه أن يوضِّحَ دواعي هذا الاختيار ممّا من شَأنِهِ أن يُسعِفَ ــ إلى حدّ كبير ــ في متابعة قراءة جزئي الكتاب وفصوله ونصوصه التي فاقتْ الخمسين نصّاً. طبعا لن يكون رفع التباسات عنوان الكتاب إلاَّ بمقدِّمات توضيحيّة لفكّ غوامض الموضوعات التي سيتناولها بالدَّرس والشَّرح والتّأويل. هكذا فمن وجهة نظر

المؤلِّف أنّ المناخ المفاهيمي العامّ في بلادنا تطغى عليه «بداهات العادة» الطّاغية في الوعي العامّ للمواطنين على اختلاف مستوياتهم الاجتماعيّة والتّعليميّة. إنّها بداهات ترسّخت واستسْلَمَتْ لها العقول.

مردُّ ترسّخ هذه البداهات إلى «سلوك مقاومة التّغيير مهما كانت دوافعه، كآليّة من آليّات تأسيس القناعات، غالبيّة النّاس في مغربنا ترفض التّغيير كَسَلاً أو تخوّفاً ممّا لا يمكن توقّعه. من هنا المشروعية التي يعتمدها الباحث لمساءلة البداهات، بقصد زعزعة الرّاكِد، والبحث عن السّبل التي عبرها يُمكن لأهل العلم تحريك السّواكن تطلّعاً لقبول التّغيير وتحرير الذّهنيّات من العادات الرّاسخة، مساءلة البداهات، إذن، من أهم عوامل ومؤشّرات الحيوية واليقظة والتّقدّم العام.

يَربِط الكتاب مساءلة البداهات بما تصدّى له الفكر الفلسفي عامّة والفكر المغربي بخاصّة في مجال خلق وضَبْطِ المفاهيم المحورية التي بواسطتها يكون بإمْكان أي مُفكِّر أن يُؤوِّل مُعطيات الواقع عبر المنتوجات النّصيّة. معلوم أنّ من المهام الرئيسية للفلسفة هو صناعة المفاهيم.

وعليه: ما هي الأدوات المفاهيمية النّصيّة التي اشتغل بها الدلاوي في كتابه لمواكبة ماجْريات الواقع المجتمعي المغربي ؟ للإجابة على هـذا التّسـاؤل يجيـب بـأن كتابـه ــ بالفعل ــ هو عبارة عن مُواكبةٍ للقضايا الكُبْرَى التي يدور حولها النّقاش في ميادين السياسة والثقافة على مدى سنتي 2010 و2011. هذه الفترة الانعطافية التي كانت واسطةُ عِقدها اعتماد دستور 2011، والتي تكتسِب كل دلالتها بما وازاها، أي الحراك الفُلاني أو الربيع الفُلاني. الصياغات الأولية للمواكبة كانت عبارة عن نصوص صحفية في ركن يحمل عنوان: «مساءلة البداهة» غطّى فترة زمنيّة من شهر يونيو 2010 إلى الشهور الأخيرة من سنة 2011 من يوميّة العلم كلّ جُمعة. وفي الكتاب تَمّتْ إعادة هيكلة تلك النّصوص تحريرا وعرضاً وتوثيقاً بالهوامش على نحو ما تقتضيه صيغة النّشر في كتاب.

في ضوء ما قيل فإن مساءلة البداهات للمواضيع التي سيتطرق لها الكتاب تتعلق بمفاهيم «الدولة المدنية» و«الحداثة» و»الثورة» و»الشعب» وكذا «دلالة الشارات والبروتوكول» وواقع منظومة التّربية والتّعليم». هذا التّبويب يتمّ بشكل تماسكي يجعل بعض هذه المفاهيم ينبني على سابقه ويُفضي إلى لاحقه. أما لُغة المعالجة فقد جعلها المدلاوي لغة عامّة يقتضي الحال معها استعمال مصطلحات خاصّة بفنّ أو علم معيّن، ويستتبع ذلك أن يكون الأسلوب يتراوح بين «الوصفيّة التّقريريّة» وما بين «التّصويرية» المعبّرة عن مواقف. علما بأن هناك اليوم قطائع معرفية بين الدراسات السياسيّة على كثرتها، وبين الدراسات السوسيواقتصاديّة على قِلّتها، وبين الدراسات الانثروبولوجية وهي أقلّ من ذلك. وكذا القطيعة المعرفيّة القائمة بين الدراسات الموسيقية على قِلّتها والدراسات السوسيو-موسيقية أو الاثنو-موسيقية المنعدمة تقريبا. كل هذه الفراغات المعرفية ترفع من درجة التّشبُّث بالعديد من البداهات، وتَرسُّخ كمٍّ هائل من العادات الحائلة دون التّغيير ممّا يستوجِبه تقدُّم الأمم.

إذن، سأكتفي في هذه القراءة وبدون تفصيل مُملّ باستعراض مضامين الكتاب. هكذا يتناول الكتاب في قسمه الأوّل مفاهيم محايدة لتجريب منهج مساءلة البداهة من خلال مفهومي «الإيقاع والإيديولوجيا» و»الجهة والايديولوجيا». يدخل تحت هذا القسم بفصليه خمسة عشر نصّاً، وخلاصة ما جاء فيه أنّ كلمة «إيقاع» فضفاضة، خصوصا في مجال الخطاب الأدبي ليكون مُبهما مُشوّشا وغامض الفحوى. فهل يمكن تحديد مفهوم مضبوط للفظ «إيقاع» ؟ قبل الإجابة على هذا السّؤال يتعيّن التمهيد بفقرة عن دور التّمثلات في الصّياغة العلميّة للمعرفة بالأشياء، ذهنيّة (رياضيّات – لغة – موسيقى ... إلخ) كانت أو فيزيائية. وبناء على التَّمثّلات يمكن تعريف الإيقاع بأنّه عَوْدُ وقوعِ الواقع المعيّن، أو عودة ورود الحدث بشكل دوري. قد يحصل عن ذلك الدّوران وعلى محور تعاقب لحظات الزّمن ما يجعل الذّهن يدرك في تحليله كمادّة مسموعة مقولة الفلسفة الفيثاغورية «الوجود عدٌّ وإيقاع». بالطبع ينخرط الفرد في الإيقاع الاجتماعي العام الذي تضبطه الرّزنامات الإداريّة والدّينية والمعرفيّة الثّقافيّة،

لكنّه يُدرِج داخل الإيقاع العام إيقاعَه الخاصّ، الذي يتمحور بالدّرجة الأولى حول دورةٍ طبيعيّة صغرى هي الدّورة اليوميّة.

الوجه الأسهلُ إدراكاً إلى الإيقاع بِشكل طبيعي لا يحتاج إلى تصور وبناء مفاهيم تجريدية هو «الإيقاع الموسيقي» كما يَصِلُ إلى الأذن، ويستوعبه الذّهن، فتستجيب له الأعصاب تلقائيّا وتُعِدّ العضلات لنبض الرّقص المتمثل في إيقاع «النّقر». لذلك فإن من أبرز ما يُصنَّف في خانة البداهات التي لا يتمّ الوقوف عندما للتساؤل عن قيامها في الذهن هو تمييز عقل الإنسان «فِطريّاً» بين جهتي «اليمين» و«الشِّمال»، بالتّالي يعتور عملية التّواصل الكثير من الاضطراب. لابدّ كذلك من العودة إلى المفاهيم المَقُوليّة التي تتفرّع عنها الإشكالات المعرفيّة لثنائيّة اليمين والشِّمال، مع الإشارة إلى أن مقولة المكان تُحدِّدها في الذهن إحداثيّات ثلاثة هي: المحور الأفقي بحدّيْهِ يمين/شمال، والمحور العمودي بحدّيه أعلى/أسفل، والمحور العُمقي بحدّيْه أمام/خلف. هذه التّقابلات تفرّعت عنها حُمولات سيميو-ثقافية معيارية، بحيث إنّ لغات وأدبيات كثيرة قرنَتْ عددا من القيم الإيجابيّة في منظومتها الأخلاقيّة والجماليّة بجهة اليمين، بينما ربطت القيم السلبيّة المقابلة بجهة الشّمال أو اليسار. هكذا أدرجت مقولة المكان كبعد من أبعاد التّصنيف الرّمزي الايديولوجي الذي أصبح يُميّز بين اليمينيّين واليساريين. وتسرّبت هذه الصّنافة إلى اتجاه الكتابة في علاقتها بقضايا الهُويّة والمرجعيات الدينيّة والانتماءات الجغرافية فالمغرب بكل هذه الاعتبارات يُنسب إلى المشرق رغم أنف منطق الأمكنة.

* * *

مضامين القسم الثاني من الكتاب وفصوله الخمسة ونصوصه متعلِّقة بمساءلة البداهة في الأخلاق والسّياسة تكتسي أهمية كبيرة من حيث ضبط عدد من المفاهيم بمرجعيات عربيّة وغربيّة، وعلى الخصوص منها مفهوم الدّولة المدنية (بتوظيف ذكي لفكر موسى مانديلسون الذي يجهله غالب الباحثين المغاربة)، ومفهوم الحداثة، ومفهوم الدولة الوطنية ومفاهيم الشّارات والبروتوكول. في هذا القسم تتجلّى الكفاءة العلميّة للرّجل

كحامل لفكر أمازيغي يَقِظ ومتفتّح، محاولا، بقدر ما يستطيع، استنهاض همم المغاربة للتّوفيق النّاجح بين الاختيار الحداثي والحفاظ على الخصوصيّة الحضاريّة ومختلف روافد الجهويّة الثقافيّة. أما القسم الأخير من الكتاب يساءل البداهات المتعلّقة بالثّورة والحراك والشّغب، وأخيراً إشكاليّة منظومة التّربيّة والتّعليم في المغرب متسائلاً عن مصير هذه المنظومة بتشخيص لا يعتبره نهائيّاً بل تشخيصا أوّليّا في ضوء ما تعرفه من انسدادات كمّيّة وكيفيّة، بيداغوجيّة وديداكتيكية. مؤكدا على ضرورة استبدال منهجيّة شحن الذاكرة بمنهجيّة تقوية الذّكاء.

وأُسجل هنا ما أتقاسمه مع باحثنا من الشجون بخصوص ما يعرفه المغرب من تردّيات قد تؤدى، لا قدّر الله، إلى تَفَسُّخ النّسيج الاجتماعي وتسرّب الفساد إلى عمق المؤسسات. من هنا مشروعية التساؤل الذي طرحه الكتاب: «هل المجتمع المغربي مجتمع فاسد شقيّ ؟». هذا الزخم المضموني بمرجعيّاته ومنهجيّاته هي التي تجعل من هذا الكتاب عُصارة فكرٍ سيتوجب انتباها كبيرا وربطاً بين مضامينه وواقع الحال في بلادنا. إنه كتاب شهادة على مغرب ولمرحلة لم يُوفّق أحدٌ في صياغة الحلول الكفيلة بتجاوز معضلاتهما، وبالتّالي حسم الاختيارات التي تتقوّى بها إرادة التّغيير وقبول وضع بداهات العادة تحت طائلة التّساؤل والمراجعة في مسعى عقلاني سواء في مستوى المواطنة أو مستوى الدّولة التي لا مفرّ لها من أن تكون مدنية، حداثية وديمقراطية، تقطع مع جوهر المحافظة والتّقليد. وبعبارة أوضح إن مساءلة البداهات دعوةٌ للانتقال من عقول محافِظة إلى عقول جريئة في سعيها إلى إنجاز التقدّم الحضاري. وأؤكد في النهاية أن موسوعية المدلاوي هي التي جعلته يوظف أحاديث صحفية مشروطة بزمان ومكان محدّدين فيضعها تحت طائلة التحليل والتأويل والتّوثيق.

نصّ تراثي مُحقّق

من أجل الكشف عن رسالتين في الموسيقى لأحمد بن خالد الناصري السلاوي

عبد العزيز ابن عبد الجليل
باحث في الموسيقى الأندلسية
وعضو المجمع الموسيقى الآندلسية

مدخــل

اشتهر العالم المغربي المعاصر أحمد بن خالد الناصري السلاوي بكتابه **الاستقصا في تاريخ دول المغرب الأقصى** الذي نال من الحظوة ما أربى على كثير من المؤلفات التي عنيت بتاريخ المغرب في العهود المتأخرة.

وقد نسبت له سائر المصادر العنية بترجمته مؤلفات متعددة تشهد ــ إلى جانب علمه بالتاريخ والأنساب ــ على ضلوعه في علوم وفنون اللغة والأدب، وتمكنه من أحكام الشريعة، وتصدره للفتوى، ودرايته بتفسير القرآن، ومشاركته في مناقشة قضايا الفكر والفلسفة، ومسائل الأنظمة المالية والجبائية بالمغرب.

وفيما يسجل الإجماع على ضلوع الناصري وتبرزه في هذه المجالات، يلاحظ تفرد بعض الذين ترجموه من المتأخرين بالإشارة إلى أن له مساهمة في مجال البحث الموسيقي. والقصد هنا إلى:

أ ـ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة الفاسي: فقد ذكر في (**دليل مؤرخي المغرب الأقصى**): أن «له رسالتين في الموسيقا ذكر فيهما النغمات العربية، والمقابلة بينها وبين الموسيقا العجمية».[1]

1. الجزء الثاني، رقم 2126، ص 457.

ب ـ ما جاء في المدخل الخاص بالتعريف بمؤلف كتاب **الاستقصا:** «له رسالتان في الموسيقا، إحداهما خاطب بها صديقه العلامة الفلكي إدريس بن مَحمد الجعيدي السلاوي، والأخرى قيدها في الموضوع نفسه، وبحث فيهما في النغمات العربية، والمقابلة بينها وبين الموسيقا العجميةّ».[2]

ج ـ عبد العزيز بن عبد الله: له «رسالتان في الموسيقا والتنظير بين النغمات العربية والعجمية»[3]

ولطالما اجتهدت في سبيل الوقوف على هاتين الرسالتين وأنا بصدد تأليف كتابي «الدليل الببليوغرفي للموسيقا في الغرب الإسلامي» باحثا عنهما في المكتبات والخزانات، فلم يجدني البحث نفعا، إلى أن قيض الله لي أن أهتدي إلى مخطوطة لكتاب «زهر الأفنان من حديقة ابن الونان» شرح فيه الناصري قصيدة الشمقمقية لأبي العباس أحمد بن الونـان، فإذا بي أمـام فصل طويـل أنشـأه فـي شرحـه للبيت الـذي يقـول فيه الناظم: (رجز).

أَوْ وَصَلَتْ للموصِلي فيمَا مَضَـى   عِنْد الغِنا بِغيرِها لَمْ يَنْطِـقِ

وما أن شرعت في تهجي السطور الأولى من هذا الفصل حتى تبادر إلى ذهني احتمال أن تكون مضامينه هي ذاتها ما حوته الرسالتان المنسوبتان للناصري حول الموسيقا. وسوف يزداد هذا الاحتمال قوة كلما أوغلت في ثنايا النص قراءة وتأملا.

ألف الناصري كتاب **زهر الأفنان من حديقة ابن الونان**، وكان ابتداء التأليف في 25 شعبان 1313هـ، وانتهى من تأليفه عام 1314هـ أي قبل سنة واحدة من وفاته. وقد أنجز طبعه التاجر الحاج إدريس ابن جلون في المطبعة الجديدة بفاس على عهد السلطان المولى عبد العزيز سنة 1315هـ. وتوجد منه نسخ خطية وقفت على ثلاث منها، أولاها مودعة بالخزانة الحسنية، تحت رقم 4337، قوامها 277 ورقة، كتبت بأكثر

2. الجزء الأول، ص 32.

3. **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية**، الجزء الثالث ص 98.

من خط، أولها جميل وملون، وآخرها بيد عبد الله ابن خضراء السلاوي، دون تاريخ. أما النسخة الثانية فهي ضمن مجموع مودع بالمكتبة الوطنية تحت رقم C.23992 ناسخها مجهول، وخطها رديء، وبها تشطيب كثير، واستدراكات كثيرة خطت على الطرر، إضافة إلى صنوف من التقديم والتأخير. وأما النسخة الثالثة فهي عبارة عن ميكروفيلم مودع بالمكتبة الوطنية تحت رقم 380 ك عدد أوراقه 384. وستكون نسخة الطبعة الحجرية معتمدنا في هذا التحقيق، مع الرجوع إلى النسخة الخطية الثانية كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

يحتوي كتاب الناصري على شرح قصيدة ابن الونان الشهيرة باسم «الشمقمقية»، وقد مهد له بمقدمة يقول فيها: «لا يخفى أن أجل ما ألف في هذا الفن الكثير الأفنان... أرجوزة الأديب... أبي العباس أحمد بن محمد ابن ألونان». وبعد أن ذكر ولعه بهذه المنظومة أيام شبيبته عاد ليكشف عما بذله من جهد في إخراجها فقال: «عولنا نحن على ما صححناه من هذه المنظومة، وسلكنا في ذلك والحمد لله طريقة لمن قبلنا معلومة، ففضضت ختامها، وسهلت مرامها، وشرحت معانيها، وشيدت مبانيها، فعادت والحمد لله الأرجوزة الونانية إلى شبابها، وظهرت محاسنها لطلابها بما أوريته من شهابها، وسهُل عليهم الولوج في غابها بما ذللته من صعابها، وخف مَهرُها على خُطّابها بما حَطَطتُه من نقابها وكشفته من جلبابها فجاء هذا الشرح والحمد لله شرحا حفيلا جامعا لفنونها وبأغراضها كفيلا، وسميته بزهر الأفنان من حديقة ابن الونان».

وبالرجوع إلى القصيدة التي نظمها الشاعر على رَوِيِّ حرف القاف في بحر الرجز، نجد أنها تقوم على 275 بيت موزعة بين الغزل والنسيب والمديح. أما أقسامها بحسب الأغراض الشعرية فثمانية هي:

- النسيب بذكر رحيل الأحبة، ووصف الإبل، ولوم الحادي.
- التغزل بصفات محبوبته، وما هي عليه من فنون المحاسن وضروب المفاتن.
- الحماسة والفخر؛
- مخاطبة الحسود؛

ـ الحكم والأمثال والوصايا؛

ـ مدح الشعر؛

ـ مدح السلطان محمد بن عبد الله؛

ـ مدح الأجوزة.[4]

ويهمنا من هذه الأقسام ما أنشأه المؤلف ضمن القسم الأخير، وهو بصدد شرح البيت الثامن والستين بعد المائتين من قصيدته: (رجز)

أَوْ وَصَلَتْ للمَوْصِلي فيما مَضَى   عنْدَ الغِنا بِغيرِها لَـمْ يَنْـطِقِ

وذلك ما يشكل نصا قائما بذاته اختار أن يسميه «نبذة»[5]. وهو الذي سيكون موضع هذه الدراسة.

يغطي هذا النص من النسخة الحجرية المعتمدة ما بين صفحة 356 وصفحة 379، ومن مخطوطة الخزانة الحسنية ما بين ظهر الصفحة 266 وأول الصفحة 274، ومن مخطوطة المكتبة الوطنية ما بين صفحة 713 وصفحة 734.

أما البيت موضوع الشرح فيأتي في سياق المدح الذي خص به الشاعر أرجوزته بعد أن خلص من مدح السلطان. وفي هذا يقول مخاطبا الحضرة الملكية: (رجز)

إلـيكَـها أرجـوزةً حُـسّـانـة   لِمثلِها ذُو أَدبٍ لـم يُـسبَـقِ

كـأنـهـا أسْـلاكُ دُرٍّ ويـَـوا   قيتٌ تُضي كالبارق المؤتلـق

أعـزُّ مـن بَـيْـض الأَنوق ومن الـعنْقا ومن فحل عقوقٍ أَبْلَـق

مـا روْضـة فَـيْنانـةٌ غـنـَّاءُ قـد   جادت له السُحْبُ بماء غـدق

فـابـتسمت أغصانها عن أبيـض   وأحـمـرٍ وأصـفـرِ وأزرقِ

يـومـاٌ بـأبْـهـى للعـيـون منـظـرا   منها ولا عن لفظها المرونـق

مـا لـجـريـر وجـمـيـل مـثـلُـهـا   في غزلٍ وفي نسيبٍ مونِـق

4. **شرح الشمقمقية** للأستاذ عبد الله كَنون، ص. 9 و 10.

5. انظر قوله في ص. 371، فلنرجع إلى غناء أهل المغرب... إذ هو المقصود بالذات من هذه النبذة.

ولا أديــبٍ فــي قــرى أنــدلُــسٍ	جرتْ بها أقلامُهُ في مُـهْـــرق
فـلـو رآهـا الأصـمـعـيُّ خـطـهـا	كي يستـفـيـد بـسـواد الحــدَق
أو فـتـح الـفـتـحُ عـليهـا عـيـنَــه	سـامَ قـلائـدهُ بـالـتـمــزق
أوْ وَصَلتْ للموصلي فيما مضــى	عند الغنا بـغيرهـا لـم ينطــق

في هذه الأبيات يهدي الشاعر للسلطان قصيدته العصماء قائلا: إنه يشِق على الأدباء أن يأتوا بمثلها، فهي كبيض الأنوق منعة وبعدا، ثم ينتقل إلى وصفها فيستعرض محاسنها ذاكرا أنه ما كان لروضة مهما بلغت من الحسن في أعين الناس، ومهما تفتحت براعمها وازدهت ألوان زهورها أن تدرك شأوها حسنا وبهاء؛ أما جرير الخطفى، وجميل بثينة، وسائر أدباء الأندلس فقد عز عليهم أن يأتوا بما يضاهيها غزلا ونسيبا؛ ولو أن الأصمعي اطلع عليها لكتبها بماء عينيه، ثم لو أن الفتح ابن خاقان رآها لمزق قلائده تمزيقا..

هاهنا ندرك بيت القصيد من هذه الدراسة، فيطالعنا الشارح بفقرة قصيرة عمد فيها إلى إعراب كلمات البيت ومنبها إلى أن قول الناظم «أَوْ وَصَلَت» تقديره أو لو وصلت، وقوله «لم ينطق» جواب لَوْ المقدرة. وبهذا يدخل البيت في سياق العطف على الأبيات السابقة، ويأتي ليرسم لوحة أخري في معرض تنويه الناظم بأرجوزته إذ يقول ما معناه: لو أن إسحاق الموصلي اطلع عليها لاتخذ من أبياتها - دون غيرها - مطية لألحان «الأصوات»[6] التي تغنى بها في العراق.

وقبل الشروع في دراسة النص وتحليل عناصره يراودنا السؤال حول طبيعة تركيبه التي توحي بأنه موضوع رسالة واحدة وليس رسالتين، الأمر الذي يطرح احتمال أن يكون هذا النص عملا قائما بذاته وغير ذي صلة بالرسالتين. غير أن هذا الاحتمال يبقى ضعيفا يعوزه السند القويم طالما أن محاور النص هي ذاتها ما تحويه الرسالتان الضائعتان من «ذكر للنغمات العربية، وبيان المقابلة بينها وبين الموسيقا العجمية».

6. الأصوات جمع «الصوت»، ويراد بها الأغاني، وفي هذا المعنى ألف الأصبهاني **كتاب الأغاني** الذي جمع فيه الأصوات المائة المختارة للخليفة هارون الرشيد.

على أن هناك عائقا يواجه الباحث ويحول دون البث في هذا الأمر دون إعمال التروي، وهو خلوه من أية إشارة من المؤلف إلى «صديقه العلامة الفلكي إدريس بن مَحمد الجعيدي السلاوي»، بله أن يكون قد وجه إليه «إحدى»رسالتيه.

غير أننا إذا انطلقنا من مفهوم «الخطاب» في فنون الإنشاء بالمغرب الذي يعني «التراسل»، فسندرك أن هذه الرسالة شكلت محورا من محاور التراسل بين الناصري وبين صديقه الجعيدي، لاسيما وهو يعلم عظيم اهتمامه بالعلوم العقلية، وتبرزه فيها؛ فقد درس كتاب شرح أصول أقليدس في الهندسة والعدد، وبرز في علم الرماية بالمدافع، وخبر علوم الفلك وأحكام النجوم والتوثيق والتعديل والحساب والفرائض، ومن ثم لم يكن من العجب في شيء أن يُطلع الناصري صديقَه على رسالته في علم الموسيقا الذي هو رابع علوم التعاليم بعد الرياضيات، والهيئة، والهندسة.[7] بقي أن نفترض أن يكون الناصري قد أنشا الرسالة ووجهها إلى العالم الفلكي قبل 1239هـ 1308م تاريخ وفاته، ثم عاد إلى بثها ضمن شرحه للشمقمقية الذي «كان ابتداء تأليفه في 25 شعبان 1313هـ».[8] فلعل هذا هو ما قد يفسر عدم الإشارة إلى «الخطاب» ضمن الكتاب.

دراسة النص:

مهد المؤلف للنص المحقق بفقرة عرف فيها بإسحاق الموصلي، ثم قسم مباحثه إلى خمسة أقسام رئيسة، فخاتمة.

التمهيد: التعريف بالموصلي.

ولد إسحاق الموصلي سنة خمسين ومائة ـ وهي السنة التي ولد فيها الإمام الشافعي ـ وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين.

7. جاء في مقدمة رحلة الجعيدي إلى أوروبا **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار** قوله: «... سيدي أحمد الناصري اقترح علي أن أجعل في سفري، واستغرق نهاري وسهري، في كتابة رحلة تكون جامعة لكل خبر غريب، ولما نراه في الأوطان من كل أمر عجيب، إلى غير ذلك مما لا يخطر بالضمير.... فكنت له مجيبا ... سأجعل بحول الله تقييدا... وأجبته بما يضمن ذلك تسلية لخاطره من باب الوعد الذي يجب الوفاء به..». وفي هذا ما يدل على أن الفضل يرجع إلى الناصري في حث الجعيدي وتحفيزه على تدوين تفاصيل رحلته المذكورة.

8. **زهر الأفنان** ـ المقدمة، ص. 12.

ويختلف موقع التعريف به من النص باختلاف النسخ، ففيما هو في المطبوع الحجري يتصدر النص (357ـ360)، نجده في نسخة المكتبة الوطنية واقعا في النهاية (730ـ734). وهو يستغرق من النسخة الأولى ثلاث صفحات ونَيِّفا، استهلها الشارح بذكر اسمه ونسبه فقال: «هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بَهْمَن بن نسك التميمي ولاء الأرجاني أصلا المعروف بابن النديم الموصلي. كان من ندماء الخلفاء من بني العباس، وله الظرف المشهور والخلاعة والغناء اللذان تفرد بهما. وإنما قيل له ولأبيه الموصلي لأن أباه إبراهيم كان قد سافر إلى الموصل وأقام بها مدة فنسب إليها»[9]

ويعتمد الشارح في صياغته لترجمة الموصلي على مصدرين:

أولهما **كتاب الأغاني** لأبي الفرج الأصبهاني الذي اقتبس منه فقرة طويلة جاء فيها التنويه بالموصلي ومكانته من الأدب، ومحله من الرواية وقرض الشعر، بَلْهَ تفوقه في الغناء وإمامته أهل صناعته جميعا، واستعراض إنجازاته الفنية، فنسب له تصحيح أجناس الغناء وطرائقه، وبَيَّن طريقته في ترتيبها، وكيف أنه صنفها في كتاب خاص؛ وهو إنجاز اهتدى إليه الموصلي بالسليقة وبوحي من طبعه وذهنه من غير أن يطلع على ما رسمه الأوائل في كتبهم العلمية ككتاب أوقليدس في الهندسة ومؤلفات نظرائه من العلماء الموضوعة في الموسيقا. ويواصل الشارح نقله من الأصبهاني فيشير إلى أنه كان ربما أمسك بالعود وقد شدت أوتاره على نحو مختل، فيغني عليه غناء صحيحا مستقيما لا عوج فيه ولا نشاز.[10]

وتأتي عبارة لمحمد بن عمر الجرجاني لتشكل وثيقة تشهد بفرادة الموصلي بين معاصريه بالعلم والفقه والأدب والوقار والوفاء وجودة الرأي وصحة المودة، مما كان يرفع من مقامه بين جلاسه، ويعجزهم عن مجاراته ومباراته.[11]

---

9. **زهر الأفنان في حديقة ابن الونان**، الطبعة الحجرية، ص. 357، انظر **كتاب الأغاني** ـ بواسطة ترجمة والده إبراهيم. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ج 5، ص. 154.

10. **كتاب الأغاني** ـ ج 5، ص. 268ـ270.

11. **المرجع نفسه** ص. 340.

أما المصدر الثاني في ترجمة الموصلي فهو كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان. وقد استمد الشارح منه خبرا طويلا للتدليل على سعة مدارك إسحاق الموصلي، رواه محمد بن عطية العَطَوي الشاعر، أحد متكلمي المعتزلة، (ت265 هـ)، فحواه أنه حضر مجلسا جمع بينه وبين إسحاق وقاضي البصرة يحيى بن أكتم (توفي عام 242 هـ) فأخذ إسحاق يجادلهما حول تنوع مجالات معارفه، فما كان من العطوي ـ وهو الخبير بفن الجدل ـ إلا أن يتوجه إليه قائلا: أنت كالفراء والأخفش في النحو، والأصمعي وأبي عبيدة في معرفة الشعر، وأبي العتاهية وأبي نواس في قوله، وابن الهذيل العلاف والنظام البلْخي في علم الكلام، والقاضي ابن أكتم في الفقه، وأشار بيده إلى ابن أكتم. وكأنما أدرك إسحاق بالبديهة ما في هذه النسب من إفراط ربما أخفى شيئا من السخرية، فكان يعقب على كل نسبة بالنفي قائلا: لا، متصنعا التواضع، حتى إذا انتهى الجمع ضحك وانصرف، فقال القاضي للعطوي: لقد وفيت الحجة حقها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، فإنه ممن يقل في الزمان نظيره.[12]

ويعود الشارح إلى الأصبهاني ليورد رأي محمد بن أحمد بن يحيى المكي في إسحاق جاء فيه أنه كان في حلقه نبو عن الوتر وميل إلى التخنيث في الغناء مما يجعل صوته دون أصوات المغنين من معاصريه حسنا وجمالا، غير أنه كان يحتال في إخفاء عيوب صوته باللطف والحذق في الأداء حتى يفضلهم.[13]

ويختم الشارح ترجمة إسحاق بذكر جملة من أشعاره في الفخر والجود والغزل، ثم بِسوق مرثية رثاه بها بعض أصحابه، مضيفا أنها ربما قيلت في أبيه إبراهيم الذي «كان من المبرزين في صناعة الغناء، إلا أنه لم يدرك شأو ابنه إسحاق»[14].

12. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، دار الكتب العلمية، ج 1، ص. 208.
13. **الأغاني المرجع السابق**، ج 5، ص. 326ـ327.
14. **زهر الأفنان**، ص. 360.

القسم الأول: صناعة الغناء وأقوال العلماء فيه:

يحتل هذا القسم من النص صفحتين، جاء فيهما أن صناعة الغناء قديمة في النوع البشري، حدثت في عصر آدم عليه السلام أو بعده بيسير. ويحتج المؤلف على ذلك بأمرين، أولهما أن الغناء أمر طبيعي في الإنسان لا ينفك عنه سواء في حالات الحزن أو السرور، وثانيهما أن جل الروايات التاريخية القديمة، إضافة إلى ما رآه في التوراة، تجمع على أن لامك بن قاين ــ وهو من ذرية آدم عليه السلام ــ أول من وضع آلة العود، واتخذ له أربعة أوتار بإزاء الطبائع الأربع، ومن ثم تبين أن ظهور العود لا يمكن إلا أن يدل على قدم صناعة الغناء التي ظهرت قبل نوح عليه السلام [15]. وقد كان من الطبيعي أن تتنوع صنوف الغناء وتتعدد آلاته بتعدد الأمم واختلاف لغاتها، فلما ظهرت أمتا اليونان والفرس احتلتا مركز السبق في ذلك. ويذهب الشارح إلى المقارنة بين الأمتين، فينسب لبطليوس الحكيم اليوناني وضعَ علم الموسيقا وضبطَ أنواع الغناء في «كتاب اللحون الثمانية»، ولكنه ينفي أن يكون العود من مخترعات اليونان؛ فيما يؤكد أنه من وضع الفرس، وأن هؤلاء ضبطوا صنوف الغناء ووضعوا فيه التآليف التي بلغت الغاية من الإتقان.

القسم الثاني: غناء الفرس

يرى المؤلف أن الغناء العربي تابع لغناء الفرس وناشئ عنه بالنظر إلى أن العرب كانوا ورثة الحضارة الفارسية، ومن هنا فسيكون الحديث عن الغناء الفارسي بمثابة توطئة يمهد بها لبيان غناء العرب وفهم موضوعه وأقسامه.

يستغرق الحديث عن هذا الموضوع زهاء خمس صفحات، عرف في بدايتها النغمة بأنها «الصوت الساذج الذي يترنم به الإنسان على طبقة مخصوصة»، وهو يستشهد بما أورده شمس الدين بن ساعد في رسالته إذ قال: «النغمة صوت لابث زمانا يجري من الألحان مجرى الحروف من الألفاظ. وقد قسم الفرس النغمات إلى سبعة أصول،

15. **المرجع نفسه**، ص. 360.

وجعلوها طبقات متدرجة نحو الحدة والارتفاع ورتبوها ترتيب العود، هي: اليكاه، والدوكاه، والسيكاه، والجهاركاه، والبنجكاه، والشِشكاه، والهفتكاه، ثم سموا كل طبقة مقاما، فكانت سبعة هي الأصول أو «البردات» التي تبنى عليها اللحون كبناء بحور الشعر»،[16] وهي تصور في الحس بدائرة كدائرة العروض، ثم تفكك اللحون منها كتفكيك بحور الشعر.

ثم جعلوا هذه الأصول السبعة في ثلاثة دواوين متصاعدة نحو الحدة، فيكون الديوان الثاني جوابا للأول، ويكون الديوان الثالث جوابا للثاني. وعلة ذلك تفاوت طبقات أصوات المغنين ما بين درجات الغلظة والحدة، فمن عجز عن الغناء في الديوان الأول أمكنه أن يغني في الديوان الأعلى، والعكس صحيح أيضا.

وأما فروع النغم فهي واحد وعشرون، وهو العدد الناتج عن قسمة الدرجة (البرْدة أو التون) إلى ثلاثة أبعاد صغرى هي: العربة (البردة أو نصف البعد)، ونِيم العربة (نصف العربة أو ربع البردة)، وتيك العربة (ثلاثة أرباع العربة)، فحاصل ضرب عدد الدرجات الأصول في ثلاثة هو 21 فرعا، ولكل واحد من هذه الأبعاد الصغرى اسم خاص.

فأسماء العربة الأولى هي:

- الزنكلاه، وموقعه بين اليكاه والدوكاه؛
- الكردي، وموقعه بين الدوكاه والسيكاه؛
- بوسليك، وموقعه بين السيكاه والجهاركاه؛
- الحجازي، وموقعه بين الجهاركاه والبنجكاه؛
- الحصار، وموقعه بين البنجكاه والشَشكاه؛
- النيروز، وموقعه بين الشَشكاه والهفتكاه؛
- النُّهفُت، وموقعه بين الهفتكاه واليكاه أول مراتب الديوان الثاني.

16. الأكفاني السنجاري شمس الدين ابن ساعد، **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، مخطوطة المكتبة الوطنية، رقم 148، ص. 146.

وعلى هذا المنوال يتوالى ترتيب النيمات والتيكات الحاملة لأسماء كالماية، والزرَفْكَند، والبُرْزُك، والرمْل، والأصبهان، والرُّهاوي، والنجدي، والصبا، والشورك، والعشيران وغيرها. وهكذا يبلغ عدد أدوار الغناء الفارسي 84 دورا هي حصيلة ضرب عدد الدواوين في مجموع النغمات الأصول والفروع، أي 3 × 28.[17]

وفي عبارة وجيزة يحاول المؤلف تقديم تعريف علم الموسيقا فيذكر أن الخوض في هذا العلم يتوقف على إتقان القواعد الحسابية والنسب الهندسية والإشراف على علوم الطبيعة، ثم ينتقل إلى تعريف الإيقاع فيقول: «الإيقاع نقرات على الطار أو غيره يُساوَق بها الغناء حال الترنم به تكون كالغالب له، فيُفرغُ فيه إفراغا، وتكون الأزمنة المتخلِّلة لتلك النقرات مقسومة قسمة هندسية ملذوذة في السمع، لا تتفاوت أجزاؤها بحال؛ وهذه الإيقاعات هي موازين اللحون التي تميز صحيحها من فاسدها». وينقل عن ابن ساعد قوله: أما الفرس فقد اقتصرت من الإيقاعات على أربعة أضرب: ضرب يعرف بضرب الأصل، وهو قريب من الثقيل الأول عند العرب، وضرب يعرف بالمخمس، وهو قريب من الماخوري عندهم، وضرب يعرف بالتركي، وضرب يعرف بالفاختي، وهو من الفروع. [18]

القسم الثالث: غناء العرب:

يعتبر المؤلف غناء العرب ناشئا عن غناء الفرس وتابعا له، ولذلك وجب التوسع فيه. وقد استعرض مراحل تطور الغناء العربي، معتمدا على ما جاء به أبو الفرج الأصبهاني، فذكر أنه لم يكن في الجاهلية بديع الصنعة ولا مطربا، ثم لما كان صدر الإسلام ظهر في المدينة طويس، وفي مكة سعيد بن مسجح، فلحنا أشعارهما على ألحان الفرس بنوع من المحاكاة.

ويرد الناصري على من يزعم أن الغناء العربي ليس له قانون يحصره، فيذكر أن قانونه في ذلك إيقاعاته ــ وهو ما سيأتي الحديث عنه وشيكا ــ وفي هذا يقول: إن غناء العرب

17. **المصدر نفسه**، ص. 361ـ364.

18. **المصدر نفسه**، ص. 146ـ147.

كان في صدر الإسلام طبيعيا كما كان ميزان شعرهم طبيعيا، وكانت ألحانهم متنوعة، يعمد صاحب الذوق منهم إلى البيت أو البيتين من الشعر، فيضع له لحنا مطربا حسنا، ثم يغني به فينسب إليه. وهكذا كان شأن معبد وابن سريج من المتقدمين، وإبراهيم وإسحاق الموصليين من المتأخرين، وغيرهم ممن ضم كتاب الأغاني أصواتهم[19].

وقد وضع العرب لضبط ألحانهم إيقاعات ثمانية كانوا يوقعونها عليها، وهي: الثقيل الأول، وخفيفه، والثقيل الثاني، وخفيفه، والرمل، وخفيفه، والهزج، وخفيفه؛ وربما زادوا تاسعا هو الماخوري. وقد اعتمد المؤلف كتاب ذيل التذكرة لداود الأنطاكي في ضبط نقرات الخفيف والثقيل في الجملة، فجاء بتعريف مغاير للتعريفات السائدة في كتب الموسيقا إذ قال:

ـ لا بد بين كل نقرتين من سكون؛

ـ إذا ساوى زمان السكون زمان النقرة الواقعة قبله وبعده فهو الخفيف المطلق؛

ـ إذا زاد زمان السكون على زمان النقرة بقدر نقرة أخرى فهو الخفيف الثاني، أو بقدر نقرتين فهو الثقيل الأول، أو بقدر ثلاث نقرات فهو الثقيل الثاني؛

ـ أما ما زاد على ذلك فهو غير مستلذ.[20]

وفي أواسط القرن السابع وبعد سقوط بغداد وانقراض الخلافة العباسية، تغلبت أمم الترك على بلاد المشرق، ومال الناس إلى غنائهم الذي اختلط بأغاني العرب، وحدث اصطلاح جديد هو مزيج من العربي والفارسي والتركي، فظهر تصنيف غير مسبوق للنغمات، بحيث جعلوا في البدء الأصول أربعة هي: الرصد، والعراقي، والزرفكند، والأصبهان، ثم فرّعوا كل أصل من هذه الأصول إلى أصلين آخرين، فنشأ عن الرصد الزنكلاه، والبرزُك، وعن العراقي الحسيني والرّهاوي، وعن الزرفكند بوسليك، والحجازي، وعن الأصبهان النوى، والعشاق. ثم تولد بين كل اثنين من هذه الأصول بنوعيها فرع واحد، فجاءت

19. **المصدر نفسه**، ص. 368.

20. الأنطاكي داود، **ذيل التذكرة لداود الأنطاكي**، ج 3، ص. 489.

ستة فروع حسبما ذكره صاحب **إرشاد القاصد**،[21] وهي: الشهناز، والنوروز، والماية، والكردانية، والسَّلمَك، والكُوشت؛ وبذلك أصبح مجموع طبوع الغناء عندهم 18 طبعا، يقابلها ثمانية عشر إيقاعا [22] عند الشهاب محمد بن إسماعيل في سفينة الملك ونفيسة الفلك: الخفيف، والثقيل، والمربع، والمخمس، والمحجر، والمدور، والمصمودي، والفاخت، والورشان، والشنبر، والأوفر، والرهَج، والنوَخت، والزرافات، والستة عشر، والأربعة والعشرون، والسماعي، والأفرنجي. وما يزال العمل بهذا التصنيف جاريا بالمشرق إلى الآن [23]. وقد جمع الشهاب هذه الإيقاعات في منظومة أولها: (طويل)

ضروب موازين الغناء نظمتهـا وهـا هيَ يا ابنَ الفن بعدُ ستُذكــرُ

خفيـفٌ، ثقيـلٌ، شنبـرٌ، ومربـعٌ كـذا وَرشـانٌ، فـاخـتٌ، ومحجـرُ[24]

ويذهب المؤلف بعيدا في مباحثه فيعقد مقارنة بين غناء الفرس العجمي وغناء العرب المستحدث، ذكر فيها أن ما استحدثه العرب من الغناء جاء ألذ وأطرب من غناء الفرس بكثير لأمور منها: أنهم حذفوا ما لم يوافق طبائعهم من رنات الفرس وأبدلوها بغيرها مما يلذ في السمع، وأن الفرس كانوا متقيدين في جل أغانيهم بالقواعد الحسابية يضبطون بها ألحانهم، فيغنون بحسب رأي غيرهم، وذلك على خلاف العربي الذي يغني على حسب قريحته وملكته، فيأتي غناؤه على أحسن الوجوه. وقد مَثَّلَ المؤلف للمغني العربي بالقارئ الذي يضبط أحكام القراءة ووجوه أدائها، فهو في هذه الحالة مِثْلُ المجتهد الذي ينصُّ الأحكام بحسب ما يعطيه علمه وفقاهة نفسه، ومَثَّلَ للمغني العجمي الذي يستند في غنائه لقوانين الموسيقا بالقارئ العامي الذي لا يتقن قواعد القراءة، ولا يتأتى له أن يأتي بوجوه الأداء لأنه تابع في قراءته للكتابة، وهي لا تتناول لطائف القراءة، وهو في هذه الحالة مثل المقلد في الأحكام لغيره، ينص أقوال غيره ولا خبر له عن نفسه.

21. نسب الشارح هذا القول لابن ساعد صاحب كتاب **إرشاد القاصد**، ولا وجود له في النسخة التي بين أيدينا.
22. الصواب سبعة عشر كما في السفينة، مطبعة الجامعة، بشارع عابدين، مصر، 1309 هـ 1891م، ص. 9.
23. **زهر الأفنان** ص. 369ـ371.
24. السفينة، **المصدر نفسه**، ص، 9.

وقد يعترض على الغناء الطبيعي بأنه معرض للفساد لانعدام قانون يضبطه، وجواب الشارح على ذلك أن هذا الاحتمال إنما يرد عند من عدِم الذوق وتمامَ الملكة. والسر في هذا أن موازين الغناء راسخة في فطرة الناس كرسوخ أَقْيِسَة المنطق في طباع الناس، فمن لطف طبعه تمثل تلك الموازين في بصيرته.[25]

القسم الرابع: غناء أهل المغرب (والأندلس) وأقسامه وحدوده:

يشكل هذا القسم والطي يليه جوهر ما يرمي إليه الناصري من وراء شرحه لبيت ابن الونان. وذلك ما يستشف من العبارة التي استهل بها كلامه عن غناء أهل المغرب إذ يقول: «وإذ فرغنا من غناء أهل المشرق فلنرجع إلى غناء أهل المغرب وبيان أقسامه وحدوده وما لا بد منه، إذ هو المقصود بالذات من هذه النبذة»

وفي هذه العبارة ما يضفي على هذا القسم وما يليه طابع الاستقلال عما سبق عرضه في الأقسام الثلاثة الأولى من قضايا تبدو مضامينها وكأنها جماع ما حوته إحدي الرسالتين المنسوبتين للناصري حول الموسيقا، مثلما تبدو وكأنما هي توطئة لما أسماه «المقصود بالذات»، وإعلان عن شروعه في إنشاء رسالته الأخرى .

يحتل هذا القسم من النص جزأه الأكبر (من ص 371 إلى ص 376). وهو يرتكز بالأساس على موضوع «موسيقا الآلة» بالمغرب والأندلس، أو ما اصطلح عليه الدارسون حديثا «الموسيقا الأندلسية». وفي وسعنا تصنيف محتواه في محورين، يتعلق أولهما بظروف نشأة هذه الموسيقا وأطوار تطورها، ويختص الثاني بالنظر في قضاياها النظرية.

المحور الأول:

النشأة: لما فتح العرب جزيرة الأندلس وتناسلوا بها كان لهم غناء بسيط كغناء سلفهم في المشرق. والقصد هنا إلى ما عرف عندهم بغناء النصْب والسناد والهزج. وربما

25. **زهر الأفنان**، ص. 366ـ367.

غنوا غناء يشبه غناء الفرنج من سكان الأندلس الأصليين بسبب ما حصل بينهم وبين هؤلاء من مجاورة وممازجة. ويلتقي الشارح هنا مع ما جاء في كتاب «متعة الأسماع في علم السماع» للتيفاشي المؤرخ التونسي من أعلام القرن السابع للهجرة إذ يقول: كان غناء أهل الأندلس في القديم على طريقة النصارى أو على طريقة حداة العرب.[26]

الطور الأول: ظهرت أولى سمات التطور مع قدوم زرياب البغدادي إلى قرطبة في صدر المائة الثالثة، وأميرها يومئذ عبد الرحمن الأوسط. وقد نسب الشارح لزرياب أنه «أحدث الغناء المتسلسل المتصل بعضه ببعض إلى تمام النوبة، وتبعه الناس على ذلك بالأندلس والمغرب». وهو هنا يبدو متأثرا بما ذهب إليه المقري في كتابه «نفح الطيب» إذ يقول: واستمر العمل بالأندلس أن كل من افتتح الغناء يبدأ ب «النشيد» أول شدوه بأي نقر كان، ويأتي إثره بـ «البسيط»، ويختم بـ «المحركات والأهزاج» تبعا لمراسيم زرياب.[27]

وتحمل عبارة «تبعا لمراسيم زرياب» التي أتى بها المقري ما قد يدل على أن النوبة بلغت على يد زرياب مستوى اكتمالها. وهذا قول يرفضه الواقع لعوامل عدة منها:

ـ أن النشيد والبسيط كانا من تقاليد الغناء القديم في الشرق حسب مذهب إسحاق الموصلي. أما النشيد فقد جاء في كتاب الأغاني أنه كان «لسيرين» قينةِ حسان بن ثابت لحن ابتداؤه نشيد، ولابن جامع غناء أوله نشيد كله، وأما البسيط ففي كلام ابن الطحان أن القدماء كانوا يراوحون في الصوت الواحد بين البسيط وبين النشيد، وإذن فالنشيد والبسيط كلاهما شرقي المحتد، وليس لزرياب فضل في ابتكارهما.

ـ أن «المحركات والأهزاج» تقوم على الموشحات والأزجال، وهذان نمطان من الشعر تأخر ابتكارُهما إلى مطالع القرن الهجري الرابع، أي إلى ما بعد وفاة زرياب بنحو خمسة عقود.

26. التيفاشي أحمد بن يوسف القفصي، **متعة الأسماع في علم السماع**، بيت الحكمة، قرطاج، 2019، ص. 132.
27. المقري أحمد بن محمد، **نفح الطيب**، ج 3، ص. 123.

ـ أن ما كان زرياب يغنيه في قرطبة لم يتجاوز «الأصوات» التي حفظها في بغداد على يد أستاذه إسحاق الموصلي، وهي ذاتها التي كان يلقنها لتلاميذه في «دار المدنيات»؛ أما «الغناء المتسلسل المتصل بعضه ببعض إلى تمام النوبة» فسوف يتأخر إلى حين اكتمال العناصر المشكلة للنوبة بميازينها، وهو ما لن يتأتى لها قبل حلول القرن السادس للهجرة مع ابن باجة الذي كانت له اليدٌ الطُولَى في وضع أولى مكونات «النوبة» بفضل ما أشاعه من «صنعات» غنائية لحنها بنفسه، أو لحنها بعض تلامذته وتمت صياغتها فيما عرف يومئذ بالنشيد والصوت والموشح والزجل.

الطور الثاني: يرى الشارح أن أهل الأندلس بعد زرياب تفننوا في الأغاني، ولاسيما منهم أهل إشبيلية وغرناطة، فذهبوا فيها إلى طريقة العجم من التأصيل والتفريع، وتخصيص كل صنف منه بطبيعة من الطبائع الأربع وتوزيع اللحون على ساعات النهار. ويضيف أن هذه الطريقة ذاتها انتقلت من غرناطة بعد استيلاء الإسبان عليها إلى فاس والمغرب حيث لا تزال قيد الاستعمال.

والواقع أن الربط بين الطبوع والطبائع جاء ليعكس أصداء نظرية قديمة ترجع أصولها الأولى إلى عهد فلاسفة اليونان، ثم انتقلت إلى العرب من خلال ما ترجموه عن أولئك. ومن ثم شاعت في كتب فلاسفة الإسلام الأُوَل كالكندي، ثم انتشرت بعد ذلك بانتشار المعارف والنظريات الموسيقية. ولقد غدت أرض المغرب والأندلس مرتعا خصبا لترويج نظرية العلاقة بين الطبوع والطباع.

المحور الثاني:

اهتم الشارح في هذا المحور بالقضايا النظرية في «موسيقى الآلة»، معتمدا بالدرجة الأولى على ما ذكره محمد بن الطيب العلمي في كتابه **الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب**، منسوبا لمُترْجِمه الأديب والموسيقي محمد البوعصامي. وتأتي الفقرات التي استمدها الشارح من كتاب العلمي متفرقة في أكثر من صفحة (من 372 إلى 375) تتخللها استطرادات متعددة سأعرض لذكرها في مواقعها. وبالرجوع إلى رسالة «إيقاد

الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع»،[28] لمحمد البوعصامي نقف على مجمل ما أتى به العلمي مما كان مترجَمه قد أملاه عليه.

1 ـ استهل الشارح نقولاته عن العلمي باستعراض أسماء الطبوع التي تقوم عليها ألحان موسيقا «الآلة»، فذكر أن كل ما يدور على ألسنة المغنين من أهل الأندلس والمغرب فهو راجع إلى أربعة وعشرين طبعا، خمسة منها أصول هي الذيل، والزيدان، والماية، والمزموم، والغريبة المحررة، والطبوع الباقية فروع لها.[29] وفيما يلي جدول ببيان ذلك:

الطبوع الأصول	**طبع الذيل**	**طبع الزيدان**	**طبع الماية**	**طبع المزموم**	**طبع الغريبة المحررة**
الفـــــروع	رصد الذيل	الأصبهان	رمل الماية	حمدان	لا فروع له
	رمل الذيل	الحصار	انقلاب الرمل	غريبة حسين	
	مجنب الذيل	الزوركند	الرصد	مشرقي صغ	
	استهلال ذيل	حجاز كبير	الحسين		
	عراق العرب	حجازمشرقي			
	عراق العجم	العشاق			

هنا يستطرد الشارح معقبا على كلام البوعصامي، فيشير إلى أن بعض أسماء الطبوع مأخوذ من ألحان الفرس وبعضها من ألحان العرب في صدر الإسلام، ليتبين أن غناء العرب في صدر الإسلام مأخوذ من غناء الفرس. ثم يذكر أنه وقف على كناش محمد بن الحسين الحايك، فرأى له في بيان من استنبط الطبوع ووجه تسمياتها كلاما لا يصدر إلا من الحاكة.

28. مخطوطة مودعة بالخزانة الحسنية ضمن مجموع (14)، تحت رقم 11333. وقد قمت بتحقيقها بعناية أكاديمية المملكة المغربية. سلسلة التراث، 1995.

29. إيقاد الشموع **المصدر نفسه**، ص. 67.

2ـ تتعلق ثانية منقولاته عن العلمي بما نقل عن القدماء من عناية بذكر العلاقة بين الطبوع والطبائع بحيث يغنى لكل واحد بما يوافق مزاجه. وفيما يلي جدول ببيان وجوه المناسبة:[30]

الطبـــوع	طبع الذيل	طبع الزيدان	طبع المابة	طبع المزموم
الطبائــــع	أهل السوداء	أهل البلغم	أهل الدم	أهل الصفراء

3 ـ وتأتي ثالثة منقولات الشارح عن العلمي للحديث عن النغمات الثمان التي عليها مدار الغناء والألحان كلها، وهي السبع المفروضة في الديوان الأول انطلاقا من قراره وحتى نغمة جوابه التي هي أولى درجات الديوان الثاني. وفي الجدول التالي ما يبين عن كيفية أخذها من أوتار العود الأربعة، وضبطها بحروف «أبجد».[31]

الترتيب	أسماء النغمات	أسماء الأوتار	ضرب مطلق الوتر	الدس بالسبابة	الدس بالبنصر	حروف أبجد
1	البم	الذيل	×	ـ		ا
2	المثلث	المابة	×	ـ		ب
3	المثلث	المابة	ـ	×		جـ
4	المثلث	المابة	ـ		×	د
5	المثنى	الرمل	×	ـ		هـ
6	الزير	الحسين	×	ـ		و
7	الزير	الحسين	ـ	×		ز
8	الزير	الحسين	ـ		×	حـ

ولم يفت الشارح أن يتحدث عن الإيقاعات المستعملة في ضبط أوزان موسيقا «الآلة»، وهي البسيط، والقائم ونصف، والبَطائحي، والدرج، والقدام.

30. **المصدر نفسه**، ص. 67ـ 68.

31. **المصدر نفسه**، ص. 65.

4 ـ رابع منقولات الشارح يتعلق بكيفية استخراج النغمات المذكورة من أوتار العود. والبوعصامي هنا يقترح طريقتين لتسوية الأوتار، تنطلق أولاهما من مطلق وتر الماية، والثانية من مطلق وتر الذيل. وبيانهما كالآتي:

الطريقة الأولى: [32]

1. قويم وتر الماية على طبقة معتدلة (مطلق الماية) نغمة ب = ري؛
2. وضع السبابة على موضع البنصر من وتر الماية نغمة د = فا؛
3. وضع البنصر في المرتبة الموالية = نغمة هـ = بعد الرمل (صول)= وتر الرمل
4. وضع السبابة على موضعها من وتر الرمل نغمة و= بعد الحسين(لا)= وتر الحسين؛
5. وضع السبابة على موضعها من وتر الحسين نغمة ز = سي؛
6. وضع البنصر بموضعه من وتر الحسين نغمة ح = بعد الذيل (دو) جواب الذيل.

الطريقة الثانية: [33]

1 ـ تقويم وتر الذيل على طبقة معتدلة (مطلق الذيل)نغمة أ = دو؛

2 ـ وضع السبابة في موضعها من وتر الذيل نغمة ب = بعد الماية = ري.

ـ البقية على نهج الطريقة الأولى[34]

ومن خلال هذا الوصف تتبين طبيعة الأبعاد الفاصلة بين نغمات الأوتار:

بين الذيل والماية بعد طني، ونفس البعد بين الرمل والحسين،

وبين الماية والرمل بعد بالأربع ونفس البعد بين الحسين والرمل[35]

32. **المصدر نفسه**، ص. 66.

33. **المصدر نفسه**، ص. 66.

34. **المصدر نفسه**، ص. 29.

35. أخطأ الناسخ فكتب (الذيل)، والصواب الرمل.

وقد رمزوا لترتيب الأوتار بأربعة أحرف تجمعها كلمة «ذحمر»، فجعلوا لوتر الذيل حرف الذال، ولوتر الحسين حرف الحاء، ولوتر الماية حرف الميم، و لوتر الرمل حرف الراء.[36]

القسم الخامس

11 ـ المقارنة بين العرب والفرنج (الأوروبيين) في تعليم الغناء:

عرض الشارح في هذا القسم لوضع مقارنة بين الموسيقا العربية والموسيقا الأوروبية، تناولها من جانبين اثنين، يتعلق أولهما ببيان طريقة التعليم عند الإفرنج، فيما يخص الثاني صنوف الغناء في موسيقاهم.

الجانب الأول: يرى الناصري أن الطريقة التي رسمها البوعصامي هي «بعينها طريقة الإفرنج في تعليم أولادهم صناعة الغناء، فإنهم قد وضعوا حروفا وأشكالا ونقطا كثيرة مختلفة، بعضها يُدل به على النغمات، وبعضها يُدل به على رناتها، وبعضها يُدل به على نبراتها، وهكذا. ثم رتبوها في أوراق على أوجه مخطوطة ترتيبا هندسيا جاريا على قوانين الغناء، وحملوا المتعلم على تَهَجّيها والترنم بها، فتراه يتنقل في تلك النغمات مترنما بها كما يتنقل المتهجي في حروف الكلمات...».

يشير الناصري في هذه الفقرة إلى ما يعرف في التعليم الموسيقي الأوروبي بـ «الكتابة الصولفائية» التي يُعْوَّد المتعلم عليها سواء في الغناء أو في العزف؛ ويبين كيف أن «المدونة» أو ما أسماه «الورقة أمامه» تشكل معتمد المتعلم، بحيث أنها إذا سحبت من تحت أنظاره «انقطع حالا كما ينقطع القارئ الذي لا حفظ معه بأخذ المصحف من يده بغتة. وهنا مكمن الفرق بين المتعلم الإفرنجي الذي يغني تبعا لتلك «النقوش»،وبين نظيره العربي الذي يغني عن قريحة وسجية».[37]

36. **المصدر نفسه**، ص. 67.

37. **زهر الأفنان**، ص 375.

الجانب الثاني: تحت عنوان «تتمة»[38] أورد الناصري فصلا كاملا نقله عن صاحب كتاب «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب» الأديب أبي العباس أحمد فارس القسطنطيني الشهير بالشدياق المتوفى عام 1304هـ/1887م، ذكر فيه أن ألحان الإفرنج لا يطرب لها منا إلا من ألفها، ثم عمد إلى بيان أنواعها، ووجوه الفرق بينها وبين الموسيقا العربية.

أما أنواعها فهي عندهم أربعة:[39]

ـ **النوع الأول:** ما يتغنى به في الملاهي مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعه، ويدخل فيه نبرات تدل على الحماسة والتحريض والتشجيع.

ـ **النوع الثاني:** ما يرتل في الكنائس، ولا يكاد يكون فيه ترجيع.

ـ **النوع الثالث:** ما يتغنى به في المآتم والمحزنات. وهو غناء أشبه بالنجوى يستعملون فيه غناء رقيقا رخيما.

ـ **النوع الرابع:** ما يتغنى به في المضحكات والمحاورات، وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر؛ ومصدر إطرابه غرابة الألفاظ المغناة ووصلها بالحركات المضحكة.

وأما وجوه الفرق بين موسيقا الإفرنج وبين الموسيقا العربية فبيانها كالتالي:

1) اعتماد الموسيقا الإفرنجية على التدوين الموسيقي؛ وبذلك يدخل ترجيع الصوت وإيقاعه تحت حس المشاهدة، وتصبح رسوم التدوين ونقوشه بمثابة الحروف الدالة على المعاني.

وقد طرح فارس الشدياق فرضية مؤداها أن يقترح على أحد الموسيقيين الإفرنج ــ مثلا ــ أن يغني بيتين كما يفعل عندنا ارتجالا في المواليات من دون نظر إلى العلامات الموسيقية فلا يقدر على شيء. ثم استغرب أن يكون الأمر هكذا مع براعتهم في هذا الفن.

ويعقب الناصري على ذلك بقوله: لا غرابة لأن براعتهم إنما هي في العلم لا في العمل، وفرق بين العلم الإدراكي والعلم الاتصافي.

38. **المصدر نفسه**، ص. 376.

39. **المصدر نفسه**، ص. 376، انظر **كنز الرغائب** للشدياق، فصل في الموسيقى، منشورات 1871.

ويعقب الناصري مرة أخرى على ما ذكره فارس الشدياق من أن أول من أحدث العلامات الموسيقية هو «غي داريتزو» الإيطالي فيقول: بل هو مسبوق بذلك لما علمت من أن مراتب النغم يُدَلّ عليها عندنا بحروف أبجد التي جاءت في كلام البوعصامي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن في تعريف ابن ساعد السابق للنغمة ما يدل على أن اختراع تلك النقوش قديم، وأنه قد يكون مأخوذا عن الفرس أو عن اليونان، ومن هنا فلا مجال لإيقاف فضيلة اختراعها على «غي داريتزو» الإيطالي، وإن يكن من المحتمل أنه زاد في مراتبها وتوسع فيها.

الفرق الثـــاني: استعمال التعدد الصوتي و الهارموني في التأليف الموسيقي.

الفرق الثالث: تنوع طبيعة الألحان ما بين الحماسة والتشويق.

الفرق الرابع: انحصار ألحان الموسيقا الإفرنجية في المقامات الكبيرة (الماجور)، مع الإغفال التام للمقامات ذات الأرباع وثلاثة الأرباع.

الفرق الخامس: أكثر أصحاب الآلات من الإفرنج لا يحسنون إخراج أنصاف النغم وأرباعها ما لم تكن مرسومة في الآلة... ومثل هذه الأنصاف والأرباع في النغم كمثل الرَّوْم والإشمام في الحركات.

ولا يفوت الناصري في الأخير أن يبدي استغرابه من غياب آلة العود في موسيقا الإفرنج، مع كثرة ما عندهم من الآلات.[40]

وجملة القول عند الشدياق أن للإفرنج حركات في هذا الفن خارجة عن ذوقنا وأخرى لا يمكن محاكاتهم بها، وإذا كان لديهم تنوع واكتمال في الصناعة وبراعة وهارموني، فهم عاجزون عن الارتجال وعن إصدار المسافات الصوتية الدقيقة كالأرباع التي قد تصدرها قصبة ناي.

40. **زهر الأفنان**، ص. 378.

الخاتمـــــة:

اكتفى الناصري بالإشارة إلى أهمية النظر في «حكم الشارع في الغناء واستعمال آلاته، وأن الخلاف في ذلك شهير». وقد أحال من يريد الوقوف على نصوص العلماء وفتاوي الأئمة في الغناء والسماع والرقص إلى كتابه الموسوم بـ «تعظيم المنة بنصرة السنة»[41]، ففيه ما يكفي ويشفي.

على أن المؤلف أبى إلا أن يتحف القارئ بما رآه مناسبا لختم بحثه، وهو جملة أبيات شعرية انتخبها من أرجوزة لشهاب الدين محمد بن إسماعيل جاءت ضَمن كتابه «سفينة الملك ونفيسة الفلك»، استعرض فيها مواقف الأئمة وبعض العلماء، وذكر أنه «كان قد نظمها في آلات الطرب واللهو، واشتملت على القول بحل سماعها على مذهب ابن حزم، وجمعت بين طرفي الجد والهزل...».[42]

41. دراسة وتحقيق الزبير دحان، دار الأمان، الرباط، المغرب، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1433 هـ/2012م .

42. **سفينة الملك ونفيسة الفلك، المصدر السابق**، ص. 472ـ474.

تحقيق المتن

نبذة من كتاب «زهر الأفنان في حديقة ابن الونان»

(356)[43] أَوْ وَصَلَتْ للمَوْصِلي فيمَا مَضَى عِنْدَ الغِنا بِغيـرِها لـمْ يَنْطِـقِ

الإعراب: قوله «أو وصلت» تقديره: أو لو وصلت. وقوله «لم ينطق» جواب لو المقدرة. و«عند الغنا» و«بغيرها» متعلقان به. وخفف ياء «الموصلي»، وقصر ألف «الغنا» ضرورة. وفي «وصلت» و «الموصلي» شبه الاشتقاق، والله أعلم.

التعريف بالموصلي وذكر الغناء وما قيل فيه:[44]

(357) أما الموصلي فهو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بَهْمَنْ بن نسك التميمي ولاء الأرجاني أصلا المعروف بابن النديم الموصلي. كان من ندماء الخلفاء من بني العباس، وله الظرف المشهور والخلاعة والغناء اللذان تفرد بهما. وإنما قيل له ولأبيه الموصلي لأن أباه إبراهيم[45] كان قد سافر إلى الموصل وأقام بها مدة فنسب إليها. قال أبو الفرج الأصبهاني:[46] «ومكان إسحاق الموصلي من الأدب ومحله من الرواية وتقدمه في الشعر ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف. وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به، وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه، فإنه كان له في سائر أدواته نظراء وأكفاء، ولم يكن له في هذا نظير فإنه لحق فيه بمن مضى وسبق من بقي ولحب للناس جميعا طريقه فأوضحها وسهل عليهم سبيله وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا ومعلمهم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد به الموافق والمفارق،

43. تشير الأرقام الموضوعة بين هاتين العلامتين (...) إلى أرقام الصفحات في النسخة المعتمدة.

44. تأخر التعريف بالموصلي في مخطوطة المكتبة الوطنية إلى ص 730 في نهاية المتن. وقد استهل بعبارة: ولنرجع إلى التعريف بالموصلي الذي أشار إليه رحمه الله فنقول: هو أبو محمد إسحاق...

45. هو إبراهيم بن ماهان بن بَهْمَنْ بن نسك التميمي ولاء الأرجاني أصلا المعروف بابن النديم الموصلي. أصله من الفرس، ولد بالكوفة سنة 125 هـ وأقام بالموصل فترة، فلقب بالموصلي. غنى للخليفة المهدي ولهارون الرشيد وغيرهما. وتوفي عام 188هـ.

46. هو الأصبهاني أبو الفرج علي بن الحسين. أموي النسب. ولد عام 284 هـ ونشأ في بغداد. له عدة مصنفات أهمها كتاب الأغاني في أكثر من عشرين جزءا، وتوفي عام 356 هـ. انظر: **وفيات الأعيان** 1/344، **تاريخ بغداد**، 11/398.

وعلى أنه كان أكره الناس للغناء وأشدهم بُغضا لأن يُدعى إليه أو يسمى به. وكان يقول: لَوَدِدْتُ أن أُضرَب ـ كلما أراد مريد مني أن أغني. وكلما قال قائل: إسحاق الموصلي المغني ـ عشرَ مقارع لا أطيق أكثر من ذلك وأُعْفى من الغناء ولا ينسُبني من يذكرني إليه. وكان المامون[47] يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشُهر به عندهم من الغناء لوليتُه القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة. وقد روى الحديث ولقي مثل مالك بن أنس[48] وسفيان بن عُيَينة[49] وهشيم بن بشير[50] وإبراهيم بن سعد[51] وأبي معاوية الضرير[52] ورَوْح بن عبادة[53]، وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز. وكان مع كراهته للغناء أضن خلق الله به وأشدهم بخلا به على كل أحد حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ منه منتسبا إليه ومتعصبا له فضلا عن غيرهم. وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه، وميزه تمييزا لم يقدر عليه حد قبله ولا تعلق به أحد بعده، فجعل الثقيل الأول أصنافا، فبدأ فيه بإطلاق الوتر في مجرى البنصر، ثم تلاه بما كان منه بالبنصر في مجراها، ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر، ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة؛ ثم جعل الثقيل الأول صنفين، الصنف الأول منهما هذا الذي ذكرناه، والصنف الثاني القدر الأوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري، وألحق جميع الطرائق (358) والأجناس بذلك وأجراها على هذا الترتيب، ثم لم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلا عن أن يصنفه في كتابه. هذا كله

47. هو الخليفة العباسي عبد الله المامون بن هارون الرشيد، تولى الخلافة بعد نزاع شب بينه وبين أخيه الأمين، وتوفي سنة 318 هـ.

48. الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر. ولد على الأشهر عام 93 هـ تصدر للتعليم وهو ابن سبعة عشر عاما، اشتهر بمجالسه في المدينة، من مؤلفاته: **الموطأ**، و**المدونة**. وتوفي عام 179 هـ.

49. سفيان بن عيينة بن أبي عمران.محدث شهير، ولد بالكوفة عام 107 هـ وبها توفي عام 198هـ. أخذ عن الزهري، وأخذ عنه كثير كابن جريج. وقد أجمع الناس على صحة روايته. انظر: **سير أعلام النبلاء** 8/455.

50. هشيم بن بشير بن أبي خازم. اشتهر بالحديث في بغداد. ولد عام 104هـ وتوفي ببغداد عام 183 هـ انظر **سير أعلام النبلاء** 8/288.

51. إبراهيم بن سعد المزني من مشهوري محدثي المدينة ولد عام 108 هـ وقدم على بغداد عام 184هـ وحدث بها كما حدث في حضرة الخليفة الرشيد. توفي عام 185هـ انظر **الوافي بالوفيات**، 2/220.

52. أبو معاوية محمد بن خازم التميمي الضرير ولد عام 113 هـ واشتهر بأنه أعظم رواة حديث «أنا مدينة العلم» توفي عام 195هـ، انظر **سير أعلام النبلاء** 9/ 74.

53. روح بن عبادة بن العلاء القيسي. ولد عام 143، وكان ثقة في الحديث. انظر **سير أعلام النبلاء** 9/ 403.

فعله إسحاق واستخرجه بتمييزه حتى أتى على كل ما رسمته الأوائل مثل أوقليدَس[54] ومن قبله من أهل العلم بالموسيقى ووافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتابا أو يعرفه».

قال أبو الفرج: وهذا من أعجب شيء يؤثر عنه وأنه استخرج بطبعه علما رسمته الأوائل لا يوصل إلى معرفته إلا بعد علم كتاب أوقليدس الأول في الهندسة، ثم ما بعده من الكتب الموضوعة في الموسيقا، فعَلِم ذلك وتوصل إليه واستنبطه بقريحته فوافق ما رسمه أولئك ولم يشِذ عنه شيء يُحتاج إليه منه وهو لم يقرأه ولا له مدخل إليه ولا عرفه. ومن عجيب أمره أنه كان يأخذ العود وهو مشوش الأوتار ليس فيه وتر يساوي الآخر ولا له به نسبة فيضرب به ويغني عليه غناء صحيحا مستقيما كأحسن شيء سمعتَه. وكان الواثق[55] يقول: ما غناني إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد لي في ملكي. وقال محمد بن عمر الجرجاني[56]:كان والله إسحاق غُرة في زمانه وواحدا في دهره علما وفقها وأدبا ووقارا ووفاء وجودة رأي وصحة مودة، وكان والله يُخرس الناطق إذا نطق ويحيِّر السامع إذا تحدث، لا يمل جليسه ولا تمج الآذان حديثه ولا تنبو النفوس عن مطاولته، إن حدثك ألهاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غناك أطربك؛ وما كانت تُرى خصلة من الأدب ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق فيقدمَ أحد على مجاراته ومباراته. وقال محمد بن عطية العطَوي الشاعر[57]: كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكتم[58] فوافى إسحاق بن إبراهيم الموصلي وأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم في الفقه فأحسن وقاس واحتج، وتكلم في الشعر واللغة ففاق من حضر، ثم أقبل على القاضي يحيى

54. أقليدس العالم الرياضي الشهير بكتابه «العناصر» الذي استخدم في تدريس الهندسة. (حوالي 300 و365 ق م) والغالب أنه عاش في الإسكندرية.

55. الواثق هو الخليفة العباسي التاسع. ولد عام 200 هـ ولي الخلافة بعد أبيه المعتصم، وتوفي عام 232 هـ.

56. من أهل بغداد. فقيه متشيع روى عنه أحمد بن خالد البرقي المتوفى عام 274 هـ وجاء ذكره في كتابه «النوادر». انظر معجم رجال الحديث 18/74.

57. محمد بن عطية العطوي. ولد بالبصرة، وكان أحد متكلمي المعتزلة في العصر العباسي ذهب في الاغتزال مذهب الحسين النجار. وكان شاعرا .توفي حوالي 250 هـ. انظر **لسان الميزان** رقم 7169.

58. يحيى بن أكتم التميمي. إمام وفقيه ومحدث. قاضي قضاة البصرة على عهد الخليفة المامون. اشتهر بمواجهته القوية للشيعة، ولاسيما الشيعة الإمامية. وقد توفي عام 242 هـ. **سير أعلام النبلاء** 12/5.

فقال له: أعز الله القاضي، أفِيَّ [59] شيء مما ناظرت فيه وحكيته نقص أو مطعن؟ قال: لا. قال: فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها وأنسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه (يعني الغناء)؟ قال العطَوي: فالتفت إلَيَّ القاضي يحيى وقال لي: الجواب في هذا عليك. وكان العطوي من أهل الجَدل، فقلت للقاضي: نعم، أعز الله القاضيَ، الجواب عليَّ، ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، أنت كالفرّاء[60] والأخفش[61] في النحو. فقال: لا. قال: فأنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعي[62] (359) وأبي عبيدة[63]. قال: لا. قال: فأنت في علم الكلام كأبي الهُذيل العلاف[64] والنظام البلخي[65]. قال:لا. قال: فأنت في الفقه كالقاضي، وأشار إلى القاضي يحيى. قال: لا. قال: فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية [66] وأبي نواس[67]. قال: لا. قال: فمن ها هنا نُسِبتَ إلى ما نسِبتَ إليه لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهله؟ فضحك وقام وانصرف، فقال القاضي يحيى للعطوي: لقد وفَّيت الحجة حقها. وفيها ظلم قليل لإسحاق، فإنه ممن يقل في الزمان نظيره. وقال أحمد المكي[68]: كان المعنون يجتمعون مع إسحاق وكلهم أحسن صوتا منه، ولم يكن فيه

59 . وهو أيضا من كبار الشعراء.

60. هو يحيى بن زياد الكوفي الشهير بالفراء. ولد بالكوفة عام 144 هـ وانتقل إلى بغداد. ألف في النحو، واستعمل في تصانيفه ألفاظ الفلاسفة مستفيدا من الصراع الذي كان بين أهل السنة والمعتزلة. من أهم كتبه **معاني القرآن**. انظر **إرشاد الأريب** 7/276 ـ **وفيات الأعيان** 2/228.

61. اشتهر بهذا الاسم أكثر من واحد، وكانّ أشهرهم أبو الحسن سعيد البلخي ثم البصري الشهير بالأوسط (ت.210 هـ/830م). له مصنفات في النحو لم يتمها. وكان يتقن تعليم كتاب سيبويه. انظر **سير أعلام النبلاء** 10/207.

62. عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي (121ـ216 هـ/740ـ83م) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. اشتهر بجمع الأشعار والأخبار، ومن أشهر قصائده قصيدة «صوت صفير البلبل». انظر **سير الأعلام** للذهبي 10/179.

63. من مشهوري علوم اللغة العربية، عاصر الأصمعي وكان رفيقه في أكثر مجالس الخليفة الرشيد ووزيره الفضل بن الربيع. وقد اشتهر بكتابه عن الخيل. انظر **سير الأعلام** للذهبي، 23/294.

64. أبو الهذيل العلاف ورأس المعتزلة محمد بن الهذيل البصري العلاف، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل تلميذ واصل بن عطاء الغزال. توفي عام 227 عن سن تجاوز التسعين.انظر **سير أعلام النبلاء** 10/543.

65. أحمد بن سهل، أبو زيد البَلْخي (322-235 هـ/849- 934 م) الملقب بـالجاحظ الثاني. هو أحد حكماء الإسلام وعلمائهم البارزين في الأدب والفقه والفلسفة. ألف نحو سبعين كتاباً جلها في عداد المفقود. انظر **معجم الأدباء** 1/374.

66. أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، أبو إسحاق (130ـ213 هـ/747ـ826 م) نظم الشعر ونبغ فيه، وأتصل بالخلفاء، فمدح الخليفة المهدي والهادي .وله شعر كثير في الزهديات. انظر **طبقات الشعراء** ص. 227.

67• أبو نواس أبو الحسن بن هانئ الحكمي شاعر عربي من أشهر شعراء عصر الدولة العباسية. (145ـ199هـ/762ـ 813م). انظر **تاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر 13/407.

68. الصواب هو: محمد بن أحمد بن يحيى المكي، وفق ما جاء في **كتاب الأغاني** للأصبهاني. انظر الإحالة رقم 13 كان يغني مرتجلاً، أي دون العزف على العود، ويحضر مجلس المعتمد مع المغنين فيوقع بقضيب على دواة.

عيب إلا صوته، فيطمعون فيه، فلا يزال بلطفه وحذقه ومعرفته حتى يغلبهم وينبذهم جميعا ويعضلهم[69] ويتقدمهم. قال: وهو أول من أحدث التخنيث في الغناء ليوافق صوته ويشاكله، فجاء معه عجبا من العجب. وكان في حلقه نُبُوٌّ عن الوتر.

وله شعر عالي الطبقة في كل فن، فمنه في الفخر: (طويل)

إذا كَانتِ الأحرارُ أصـلي ومَنبتــي ... وقام بِنَصْري خازمٌ وابنُ خـــازِمِ
عطستُ بأنفٍ شامِخ وتنـــاوَلَتْ ... يَداي الثُّرَيَّا قَاعـداً غيـرَ قـائِـمِ

ومنه في الجود»

وَآمِرَةٍ بالبُخلِ قلتُ لها اقصــري ... فليْـس َإلى ما تامُريــــنَ سَبيـــلُ
أرَى الناسَ خِلَّانَ الجَــوَادِ ولا أَرى ... بَخيلاً لهُ في العالَميــن خَليـــلُ
عَطائِي عَطاءُ المُكثِريــنَ تَكَرُّمــاً ... وَمَالِي كَمَا قدْ تَعْلَمينَ قليـــلُ
وَكيفَ أخافُ الفقرَ أوْ أُحرَمُ الغِنا ... ورَأيُ أميرِ المومنيـنَ جَـميـــلُ

ومنه في الغزل وقد انحدر من بغداد إلى البصرة في سفينة ثم عاد فيها: (بسيط)

ما كُنتُ أعرفُ ما في البَيْنِ منْ حزَنٍ ... حتَّى تَنَادَوْا بِأَنْ قدْ جِيءَ بالسُّفُنِ
قامَـتْ تُـوَدِّعُني والدَّمعُ يَـغْـلِبُـهـا ... فَجَمْجَمتْ بَعضَ ما قالتْ ولمْ تُبِنِ
مالَـتْ عليَّ تُـفَـدِّيـنِي وتَرْشفُـنــي ... كما يَميـلُ نسيمُ الرّيحِ بالغُصُـنِ
وَأَعْـرضتْ ثـمَّ قالت وَهْي بَاكِيـةٌ: ... يَـا لَيْـتَ مَعرِفـتي إيَّاكَ لَمْ تَكُـنِ
لَمّا افْتَرَقْنـا علـى كُـرهٍ لِفُـرْقَـتِهـا ... أيقنتُ أنِـي رَهِينُ الهَـمِّ والحَــزَنِ.

وأخبار إسحاق ومحاسنه كثيرة. انظر الأغاني. وكانت ولادته سنة خمسين ومائة، وهي السنة التي ولد فيها الإمام الشافعي[70] رضي الله عنه، وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين، ورثاه بعض صحابه بقوله: (خفيف)

---

69. بمعنى: يعيبهم أمره فلا يقدرون على منافسته.

70. أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ المطَّلِبيّ القرشيّ (150ـ 204هـ/767ـ820 م. وهو ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس علم أصول الفقه. انظر **سير أعلام النبلاء**، 8/236.

360 أصْبَحَ اللهْوُ تَحْتَ عَفْرِ التُّرابِ ثَاوِياً في مَحَلةِ الأَحْبابِ
إذْ مَضَى المَوْصليُّ وانْقرضَ الأُنْسُ ومُجَّتْ مَشاهدُ الإطْرابِ
بكَتِ المُلْهِياتُ حُزْناً عليهِ وبَكاهُ الهوَى وصَفْوُ الشرابِ
وَبكتْ آلَةُ المَجالِسِ حتَّى رَحِمَ العُودُ عَبْرَةَ المِضْرابِ

وقيل إن هذه المرثية في أبيه إبراهيم، وكان من المبرزين في صناعة الغناء، إلا أنه لم يدرك شأو ابنه إسحاق، والله أعلم.

وإذ قد ذكرنا بعض ما يتعلق بالموصلي فلنذكر ما يتعلق بالغناء، فنقول:

اعلم أن صناعة الغناء قديمة في نوع البشر، حدثت في عصر آدم عليه السلام أو بعده بيسير. وإنما قلنا هذا لأمرين، أحدهما أن الغناء أمر طبيعي في الإنسان، لا ينفك عنه؛ فكما أنه إذا أصابه حزن بكى وناح، كذلك إذا حصل له سرور اهتز وترنم، وربما صفق ورقص؛ فهذا أمر جِبِلّي في الإنسان منذ برأه الله، إلا أن غناء كل واحد بحسب طبعه وقريحته، فمنهم المجيد ومنهم المقصر. ثانيهما أنهم ذكروا أن أول من وضع العود للغناء به لَامِك بن قابيل بن آدم عليه السلام. فإذا كانت آلة الغناء قد حدثت في ذلك العصر فالغناء بدون آلة متى كان حدث؟ أليس يكون قد حدث في عصر آدم عليه السلام وعصر بنيه؟ لكن الذي رأيته في التوراة عند الكلام على يُوبال بن لَامِك ـ وهو من ذرية قابيل، بينه وبينه خمسة آباء ـ ما نصه: وهو أنه كان أبا للضاربين بالگيثارة والأرغن. هـ فالگيثارة آلة معروفة، والأُرْغُنْ كأُرْدُنْ الآلة المسماة بذات الشعب. ونحوه قول المسعودي[71] في «مروج الذهب»: إن كثيرا من الملاهي أحدثت في أيام يارد بن مهلاييل، أحدثها ولد قاين بن آدم. هـ. قلت: وقاين هذا هو قابيل قاتل هابيل المذكور في سورة المائدة.

واعلم أن ما ذكر من أن لامك أو بعض بنيه هو الذي وضع العود، ينبغي أن يحمل على أنه وضع آلة تشبه العود مثل الكَيثارة ونحوها. وأما العود المصطلح عليه اليوم

71. أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، وكنيته أبو الحسن، (283ـ346 هـ/896ـ957م) مؤرخ وجغرافي. له عدة مؤلفات أشهرها كتاب **مروج الذهب**، انظر **الفهرس** لابن النديم ص.171، انظر **معجم الأدباء**، 13/91.

فالتحقيق أن الذي وضعه حكيم من حكماء الفرس، وسماه «البَرْبَط»، بفتح الموحدتين بينهما راء وفي آخره طاء مهملة. وتفسيره «باب النجاة»، كأنه مأخوذ من صرير باب الجنة، وجعل أوتاره أربعة بإزاء الطبائع الأربع: فالزير بإزاء الصفراء، والمثنى بإزاء الدم، والمثلث بإزاء البلغم، والبَمّ بإزاء السوداء، فبان بهذا أن الغناء صناعة قديمة قبل زمان نوح عليه السلام (361) بكثير. وقول ابن خلدون: إن صناعة الغناء آخر ما يحدث في العمران لأنها كمالية، وأول ما يذهب منه عند اختلاله، لا ينافي ما ذكرناه لأن أهل ذلك الزمان كانوا قد تفرغوا للكماليات فأحدثوها، ثم لما نشر الله الخلق بعد نوح عليه السلام وتعددت الأمم واختلفت لغاتها وتنوعت أزياؤها ونحلها اخترعت كل أمة غناء يليق بها وأحدثت لذلك آلات تناسبها، فكان السابق لذلك والمبرز فيه أمتين عظيمتين، وهما اليونان والفرس؛ فأما اليونان فكان منهم «بطليموس»[72] الحكيم المشهور، وضع علم الموسيقا وضبط أنواع الغناء بقوانين الهندسة، وأفرد لذلك كتابه المسمى ب»كتاب اللحون الثمانية». وما قيل من أنه أول من أحدث العود غير ظاهر لما قدمناه من أن العود من مخترعات الفرس، ولأنه لو كان من مخترعات يونان لكان معدودا من آلات الإفرنج لأن الذي ورث ملك اليونان وحضارتهم هم الروم، والذي ورث ملك الروم وحضارتهم هم الإفرنج؛ فكيف يخفى عليهم أمر العود مع كثرة اعتنائهم بإحياء مراسم من قبلهم خصوصا الروم ويونان، فإنهم أئمة الإفرنج في جل ما يعانونه من الصنائع والغرائب؛ فلذا قلنا: إن العود ليس من مخترعات يونان، نعم، قد كانت لهم آلات أخر هي مذكورة في كتب الأخبار وغيرها.

وأما الفرس فإنهم تفننوا في الغناء أيضا وضبطوا أنواعه بالقواعد الحسابية والهندسية، ووضعوا فيه التآليف فأتوا في ذلك من وراء الغاية، وناهيك أنهم استنبطوا العود، وهو لم يوجد له مثيل في سائر آلات الغناء.

ولما كان غناء العرب تابعا لغناء الفرس وناشئا عنه لأنهم الذين ورثوا ملكهم وحضارتهم، وجب أن نتوسع فيه قليلا ونبين أصوله وفروعه وكيفية حصره على سبيل

72 . بطليموس Ptolemy، فيلسوف يوناني من مواليد صعيد مصر، (ت قرابة 167م) وهو من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافيا، له كتاب **المجسطي**، وكتاب **اللحون الثمانية**.

الإجمال ليكون كالتوطئة لبيان غناء العرب وفهم موضوعه وأقسامه في الجملة، فنقول:

اعلم أن الفرس لما أرادت ضبط أنواع الغناء عمدت إلى النغم فقسمتها إلى سبعة أصول. ومعنى النغمة الصوت الساذج الذي يترنم به الإنسان على طبقة مخصوصة. وقال العلامة شمس الدين ابن ساعد[73] في رسالته: النغمة صوت ثابت زمانا يجري من الألحان مجرى الحروف من الألفاظ هـ؛ فجعل الفرس النغمات الصوتية على طبقات بعضها أرفع من (362) بعض، ورتبوها ترتيب العدد المسرود، فأخفض النغمات نغمة «اليكاه»، وفوقها «الدوكاه»، وفوقها «السيكاه»، ثم»الجهاركاه»، ثم «البنجكاه»، ثم «الشيشكاه»، ثم «الهفتكاه»، وهي أعلى النغمات وأبعدها، وهي السابعة. وكل واحد من هذه الأسماء السبعة مركب من كلمتين فارسيتين، إحداهما وهي «كاه» بالكاف الفارسية القريب مخرجها من مخرج الجيم بمعنى «مقام»، والأخرى وهي «يك» في الأول بمعنى واحد و»دو» في الثاني بمعنى اثنين، و «سي» في الثالث بمعنى ثلاثة، و»جهار» في الرابع بمعنى أربعة، و«بنج» في الخامس بمعنى خمسة، و «شش» في السادس بمعنى ستة، و «هفت» في السابع بمعنى سبعة. وقد تقدمت هذه الألفاظ عند الكلام على النرد، فراجعها.[74]

وهذا التركيب إما إضافي بمعنى مقام الواحد، مقام الاثنين، مقام الثلاثة، إلى آخره، وإما وصفي بمعنى المقام الأول، المقام الثاني، المقام الثالث، وهكذا جريا على (ما هو)[75]عادتهم في تقديم المضاف إليه على المضاف والنعت على المنعوت.

ثم سموا المقام الأول ـ وهو اليكاه ـ «الراست» كلمة فارسية اجتمع فيها ساكنان: الألف والسين المهملة، ومعناه المستقيم، وهو الذي عربته العرب فقالوا «الرصد». إنما

73 . ابن ساعد السنجاري محمد بن إبراهيم الأنصاري، المعروف بابن الأكفاني، (ت 749هـ)، برع في العلوم الرياضية، له كتاب **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في معرفة الجواهر**، عرف فيه بعلم الموسيقا من بين علوم أخرى، مخ ـ خ ح، رقم 1408، انظر الزركلي 5/229.

74 . **المصدر نفسه**، فصل القول في علم الموسيقا، ص. 92ـ94.

75 . ما بين الهلالين، تفردت به نسخة المكتبة الوطنية، ص. 715.

زادوا هذا الاسم على اسم مقامه الذي هو اليكاه نظرا إلى تركيبه الجاري على الترتيب الطبيعي حيث بُدِئَ فيه بالأول بخلاف الباقيات إذ بُدِئَ في الدوكاه بالثاني، وفي السيكا بالثالث، وهكذا (إلى الهفتكاه) إذ هذه المقامات تصور في الحس بدائرة كدائرة العَروض، ثم تفكك اللحون منها كتفكيك بحور الشعر، فكان اللحن الأول ـ بسبب ما حازه من تلك المزية ـ جديرا بأن يزاد هذا الاسم الدال على الاستقامة دونها حيث لم يكن التركيب في شيء منها جاريا على الترتيب، فهو منزل من سائر اللحون منزلة بحر الطويل من سائر البحور، فتَأَمَّلْ.

ثم إن هذه الأصول السبعة توجد في ثلاثة دواوين، وذلك أنك إذا بدأت بنغمة «اليكاه» التي هي الدرجة الأولى وصعدت درجة درجة حتى وصلت إلى نغمة «الهفتكاه» التي هي الدرجة السابعة، ثم أخذت تترقى درجة درجة أيضا كانت الثامنة عين الأولى إذ حكمها حكمها في صناعة الغناء، وكانت التاسعة عين الثانية، حتى لو وصلت إلى الرابعة عشرة لكانت عين السابعة. ولو ترقيت إلى الخامسة عشرة لكانت عين الثامنة التي هي الأولى بعينها، وهلم جرا.

نعم، نغمات الديوان الأول تُنَزَّل من نغمات الثاني منزلة نغمة البم (363) من نغمة الزير، وهكذا الحكم بين الثاني والثالث، فافْهَم. ولذا جعلوا الديوان الثاني جواب الأول، والثالث جواب الثاني. وبيانه أنه إذا كان شخص له صوت حاد كالصبي والمرأة، وكان يغني في المرتبة الثامنة ولم يقدر غيره أن يغني معه فيها لكون صوته لا يساعده على ذلك كغالب أصوات الرجال، فإن طريق السير معه في ذلك الغناء والمساعدة له عليه هو أن يخفض صوته إلى المرتبة الأولى التي هي مرتبة اليكاه ويغني معه فيستقيم الغناء، بخلاف ما لو غنى في المرتبة الثالثة أو الخامسة أو السابعة فإن الغناء يفسد ويُمَج إذ لا نسبة بين هذه المراتب.

فإن قلتَ: أرأيت إذا غنى أحدهما في الثامنة وغنى الآخر في الثانية أو الرابعة مثلا، هل يستقيم الغناء لأن النسبة بين المرتبتين موجودة أو يفسد لأن إحدى المرتبتين وقعت

في أول ديوان والأخرى في أثناء آخر؟، قلت: لا يستقيم على وجه لأن صاحب الثامنة يكون مغنيا في أصل وصاحب الثانية مثلا يكون مغنيا في فرع كما سياتي بيانه قريبا.

فهذه هي المقامات السبعة التي اصطلح الفرس على جعلها أصولا لغنائهم، وتسمى «البَرْدات». وأما الفروع فهي أحد وعشرون، وهي تنقسم بالقسمة الثلاثية إلى «عَرَبات» و«نِيمات عربات» و «تيكات عربات»، نظرا إلى مقادير مسافة «البعد» فيما بين الدرجات. وبيان هذا أن مسافة البعد فيما بين كل أصلين من السبعة المتقدمة قد تكون كاملة، وتسمى «برْدة»، وقد تكون ناقصة، وتسمى «عَرْبَة» أو «نيمَ عربة» أو«تيك عربة». فإذا رفعت صوتك منتقلا من درجة من درجات الأصول السبع، فإما أن تقطع (جميع) [76]مسافة البعد بينها وبين الدرجة التي تليها، وإما أن تقطع نصف المسافة أو ربعها أو ثلاثة أرباعها فقط وتقف ثمة، فإن أنت قطعتها كلها وانتهيت إلى الدرجة الأخرى كنت واقفا على «البرْدة» وكانت مسافة البعد كاملة، وإن قطعت نصفها ثم وقفت كنت واقفا على «العَرْبة»، أو وضعت ربعها فقط كنت واقفا على «نيم» العربة، أي نصفها. و نصفُ النصف ربع، أو قطعت ثلاثة أرباعها كنت واقفا على «تيك العربة» وكانت المسافة في الجميع ناقصة. وبهذا يبين أن عدة العَرْبات سبع، وكذا عدة كل من النيمات والتيكات، وذلك واضح.

وينبني على هذا أن يكون ترتيبها كترتيب الأصول، وكل منها يسمى باسم خاص، فاسم العَرِبة الأولى «زَنْكُلاه»، وهو اسم فارسي مركب من كلمتين: (364)إحداهما «كُلاه» بمعنى تاج، والأخرى «زَنْ» بفتح الزاي المعجمة وسكون النون بمعنى بِنْت. والتركيب إضافي أي «تاج البيت». وهذه العربة هي الواقعة بين اليكاه والدوكاه، واسم الثانية «الكردي»، وهي الواقعة بين الدوكاه والسيكاه، واسم الثالثة «بوسليك» وهي الواقعة بين السيكاه والجهاركاه، واسم الرابعة «الحجازي» وهي الواقعة بين الجهاركاه والبنجكاه، واسم الخامسة «الحِصار» وهي الواقعة بين البنجكاه والشكاه، وهذه الأسماء الأربعة كلها عربية، ولم أدر من أين أتاها ذلك، واسم السادسة «النيرُوز» ويقال «النوروز» وهو

76. تتفرد نسخة الطبعة الحجرية بكلمة (جميع) دون غيرها من النسخ.

في الأصل اسم لأول يوم من السنة الفارسية، وهي الواقعة بين الشكاه والهفتكاه، واسم السابعة «النَّهْفُت» اسم فارسي كأنه مضاف ألى الهفتكاه، وهي الواقعة بينها وبين أول مرتبة من الديوان الثاني، وهكذا ترتيب النيمات والتيكات على هذا المنوال.

ومن أسمائها «المابة» و«الزَّرَفكَند» و«البُرْزُك»[77] و«الرمل» و«الأصبهان» و«الرُّهاوي» و«النجدي» و«الصَبا» و«الشورك» و«العشيران» وغير ذلك مما يطول. وهذه الأسماء بعضها فارسي وبعضها عربي كما ترى. والسبب في ذلك أنا قدمنا أن الغناء العربي متولد من الفارسي ناشئ عنه، فالتبس أحدهما بالآخر ونابت الأسماء بعضه عن بعض.

ثم لا يخفى عليك أن كلا من العربات والنيمات والتيكات لها دواوين ثلاثة كالبردات، فيكون مجموع أدوار الغناء الفارسي أربعة وثمانين دورا من ضرب ثلاثة عدة الدواوين في ثمانية وعشرين عدة المقامات الأصول والفروع. ومن هنا تهتدي إلى كيفية ترتيب نغم الآلة المسماة عند الفرنج اليوم بـ «البيان» فإن نغمها قد تزيد على هذا العدد بكثير، وفوق كل ذي علم عليم.

وأما كيفية تأليف اللحون وتركيبها من النغمات وتمييز اللذيذ منها من البشع والمستحسن من الممجوج وتنزيل الأشعار على ما يصلح منها وطرح ما لا يصلح حتى يتأتى الغناء بكل لحن منها على وجه مخصوص، فهو علم الموسيقى الذي يتوقف الخوض فيه على إتقان القواعد الحسابية والنسب الهندسية والإشراف على علوم الطبيعة، وغير ذلك. ثم لا تحصل الملكة فيه على ما ينبغي إلا بالمشافهة، وكلٌّ ميسر لما خلق له.

ثم اعلم أن الغناء بالصوت أو الآلة لا بد له من إيقاع ينضبط زمانه به وينحصر حتى لا تحصل فيه زيادة ولا نقصان. ومعنى الإيقاع (365) نقرات على الطار أو غيره يُساوَق بها الغناء حال الترنم به، تكون كالقالَب له، فيُفرغ فيه إفراغا، وتكون الأزمنة المتخللة لتلك النقرات مقسومة بقسمة هندسية ملذوذة في السمع، لا تتفاوت أجزاؤها بحال. وهذه الإيقاعات هي موازين اللحون التي تميز صحيحها من فاسدها. قال ابن

77 . المتداول في المعاجم والاستعمال «البُزُرك» وليس البرزك.

ساعد: وقد اقتصرت الفرس من الإيقاعات على أربعة أضرب: ضرب يعرف بضرب الأصل، وهو قريب من الثقيل الأول عند العرب، وضرب يعرف بالمخمس، وهو قريب من الماخوري عندهم، وضرب يعرف بالتركي، وضرب يعرف بالفاختي. هـ [78] وهو من الفروع. وهذا ما أردناه من الكلام على غناء الفرس.

وأما غناء العرب الناشئ عنه والتابع له، فاعلم أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يغنون غناء بديع الصنعة ولا مطربا جدا. قال أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني»: كان غناء العرب جاريا مجرى الإنشاد، إلا أنه يقع بتطريب وترجيع يسير، ورفع الصوت [79]. ونقل صاحب المستظرف عن هشام بن محمد الكلبي أن غناء العرب على ثلاثة أوجه: النصب، والسناد، والهَزَج؛ فأما النصب فغناء الفتيان والركبان، وأما السناد فالثقيل الترجيعِ الكثيرُ النغماتِ، وأما الهزج فالخفيف كله، وهو الذي يستفز الوقور ويهيج الحليم هـ.[80]

والظاهر أن هذا غناؤهم بعد الإسلام. وأما قبل الإسلام وعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فلم يكن في غنائهم كثرة نغمات ولا ما يستفز الوقور، بل كان جاريا مجرى الإنشاد كما قال أبو الفرج، وهو أدرى من غيره بهذا الشأن. وقال ابن خلدون: وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق في آخر كتاب العمدة، وغيرُه. وكانوا يسمونه السِناد هـ [81].

واعلم أن هذا القدر من الغناء الذي كان للعرب قبل الإسلام قد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده، وأقروه، فهو خارج عن خلاف الفقهاء في الغناء، هل هو ممنوع أو مباح.

ثم لما جاء الإسلام واتسع نطاقه ووقعت الفتوحات واستولى العرب على ملك فارس وسبوا أبناءهم وورثوا حضارتهم سمعوا غناء عبيدهم وإمائهم منهم بمكة والمدينة

78. **إرشاد القاصد، المصدر السابق.**
79. **الأغاني، دار الفكر**، ج 9، ص. 288.
80. الأبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، ص. 385.
81. ابن خلدون، **المقدمة**، فصل صناعة الغناء، ص. 465.

وغيرهما من الأمصار فعشقوه لأنه كان ألذ من غنائهم بكثير، فحذوا حذوه، ولحنوا عليه أشعارهم من غير أن يأتوا به على وجهه، بل بنوع من المحاكاة فقط، لأن العجم كانوا يغنون غناء (366) هندسيا، والعرب كانوا يغنون غناء طبيعيا، إلا أنه جاء ألذ وأطرب من غناء الفرس بكثير كما سنبينه.

قالوا: وأول من غنى هذا الغناء العربي المحدث، فأما بالمدينة ف»طُوَيس» المخنث ـ وكان قد أخذ طرائق الغناء عن سبي فارس، وذك أن عمر رضي الله عنه كان قد جعل لهم يومين في الشهر يستريحون فيهما من المهن، فكان طويس يغشاهم حتى فهم طرائقهم وغنى غناء يشاكل غناءهم. وقال أبو الفرج: كان أول من غنى بالمدينة غناء يدخل تحت الإيقاع طويس، وكان مولده يوم مات رسول الله صلى لله عليه وسلم، وفِطامه يوم توفي أبو بكر رضي الله عنه، وخِتانه يوم قتل عمر رضي الله عنه، وبناؤه بأهله يوم قتل عثمان رضي الله عنه، ووُلد له يوم قتل علي رضي الله عنه،[82] فلذا قيل فيه: أشأم من طويس.

وأما بمكة ف»سعيد بن مسجح» مولى بني جمح أو مخزوم، وذلك أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام في زمان ابن الزبير، فسمع غناءهم بالفارسية، فلحن عليه شعر العرب. قال أبو الفرج: ثم رحل إلى الشام، وأخذ ألحان الروم وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيرا وتعلم الضرب، ثم قدم الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم التي هي في غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب وغنى على هذا المذهب، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه، وتبعه الناس بعد ذلك.[83]

واعلم أن هذا الغناء الذي استحدثه العرب في صدر الإسلام جاء ألطف وأبدع من غناء الفرس بكثير لأمور، منها أنهم حذفوا ما لم يوافق طباعهم من رنات الفرس ونبراتهم

82. **الأغاني** الجزء الخامس.

83. **المصدر نفسه**، ج 3، ص. 273.

وأبدلوها بغيرها مما يوافق الطبع ويلذ في السمع، ومنها أن الفرس كانوا متقيدين في جل أغانيهم بالقواعد الحسابية التي ضبطوا بها ألحانهم معتبرين لها؛ ومن شأن من كان كذلك أن لا يكون غناؤه مطربا لأنه يغني بحسب رأي غيره، لا بحسب ملكته وذوقه، بخلاف العرب، فإن أحدهم إنما كان يغني على حسب ما عنده من القريحة المتمكنة والملكة الراسخة، فيتوسع في ذلك كيف ما ساعده الطبع ووافقه الذوق، فمهما ظهرت له نبرة مناسبة ــ ولو قلت ــ أو عرضت له رنة ملائمة ــ ولو دقت ــ إلا ويتناولها بلطف طبعه، ويتصرف فيها بحسن ملكته وجودة قريحته حتى يستوفي ما عليه منها فيغني غناءَ حالٍ لا غناءَ مقالٍ، فيأتي غناؤه على أحسن الوجوه وأكملها، وهذه (367) الرنات اللطيفة قد لا تدخل تحت ضوابط الموسيقى لخفائها ولطفها. ألا ترى أنهم إنما تكلموا على النغمات وأنصافها وأرباعها؟ ولو فرضنا أنهم تجاوزوا ذلك إلى الأثمان والأعشار مثلا لكان هناك ما هو أدق من الأدق، مما لا يؤديه إلا الطبع السليم. فمَثَل غناء العربي بطبعه وجودة قريحته مثَل القارئ الماهر الذي ضبط أحكام القراءة ووجوه أدائها من رَوم، وإشمام، وإمالة كبرى وصغرى، وتسهيل، وتحقيق، وتفخيم، وترقيق، وغير ذلك، لا يفوته من ذلك شيء وإن دَق وصعب لأنه لُقِّنه بالمشافهة حتى مهر فيه، ولله ولكتابه المثل الأعلى. ومَثَل غناء العجمي[84] المستند في غنائه إلى قوانين الموسيقى مَثَل العامي الذي يتناول جزءا من المصحف فيقرأ فيه قراءة متكلفة اتباعا للنقوش المرسومة فيه، فهذا لا يتأتى له أن يأتي بالرَّوم والإشمام وغيرهما من وجوه الأداء لأنه تابع في قراءته للكتابة، وهي لا تتناول هذه اللطائف، وإنما المفيد فيها المشافهة، فافهم.

وأيضا، مَثَل المستند في غنائه لطبعه مَثَل المجتهد الذي يَنُصُّ الأحكامَ[85] بحسب ما يعطيه علمه وفقاهة نفسه، ومَثَل المستند في غنائه لقوانين الموسيقى مَثَل المقلد في الأحكام لغيره، فهو ينص أقوال غيره، ولا خبر له عن نفسه.

84. العجم اسم يطلق على غير العرب، وكان يطلق على الفرس في جزيرة العرب، وهو المراد هنا.

85. جاء في المعاجم: نص الشيءَ بمعنى رفعه وأظهره، ونص الحديث بمعنى أسنده إلى المُحدث عنه؛ والفقاهة ملُكة يستطيع بها الإنسان إدراك مقاصد الشريعة واستنباط الأحكام.

وقد رأيت من تكلم من المتأخرين على غناء الفرنج وتوقف في علة كونه لا يُطرب إطراب غناء العرب مع أن الفرنج[86] أعرف منهم بهذا الفن وبسائر الفنون العقلية، والجواب ما قررتُه لك في هذه الفذلكة. وأيضا فقد ذكر ابن خلدون أن ملكات اللغات تقتضي ألا تطرب أمة من الأمم إلا على غنائها دون غناء غيرها، فانظره.

فإن قلت: الغناء الطبيعي لا يؤمن عليه من الفساد والخروج عن النظام إذ ليس هناك قانون يحصره، قلت: أما كونه لا يؤمن عليه من الفساد فإنما ذلك في حق من لا ذوق له أو لم تتم ملكته؛ أما ذو الذوق التام والملكة الراسخة فلا. والسر في هذا أن موازين الغناء مركوزة في طباع الناس، معجونة في فطرتهم يوم خلقها الله، فمن كثف طبعه وتكدرت إنسانيته غطى ذلك على مرآة بصيرته، فلا يهتدي إلى تلك الموازين، ومن لطف طبعه وتجوهرت إنسانيته رأى تلك الموازين ممثلة في مرآة بصيرته، فهو يتصرف كيف شاء؛ ونظير هذا ما ذكروه في ضوابط المنطق وأقيسته، وأنها مركوزة في طباع الناس، إلا أنه قد يعرض للقوة المفكرة بعض غلط، فاحتال العلماء لحراستها منه بتدوين مسائل من المنطق، (بل نترقى (368)عن هذا) [87] ونقول: اعلم أن النفوس البشرية ليست من هذا العالم الكثيف الكَدر المظلم، بل هي من عالم النور والصفاء والبهجة الذي رسمت فيه صور الموجودات بأسرها وأمثلتها على ما هي عليه في نفس الأمر، كما ترسم صور المرئيات في المرآة الصقيلة. فلو فرضنا أن نفس شخص تهذبت وزكت وزالت عنها ظلمات الطبيعة السفلية وكثافتها لظهر فيها كل شيء على ما هو عليه ظهورا روحانيا لا جسمانيا، وهو الكشف الذي يحصل للأولياء رضوان الله عليهم. ومن جملة الموجودات تلك النغم والألحان، فافهم. وهذه دقيقة أدى إليها البحث، وجر الحديث ـ والحديث كما قيل شجون ـ والعلم فنون، والله يختم لنا بالحسنى بمنه.

وأما أن الغناء العربي ليس له قانون يحصره فغير مسَلَّم، بل قانونه في ذلك إيقاعاته التي نذكرها بعد إن شاء الله.

86. الفرنج اسم أطلقه العرب على الأوروبيين بعد الحروب الصليبية، والمراد به هنا الفرنسيون.

87. العبارة التي بين هلالين غير واضحة الدلالة، إلا أن يكون معناها «لنتجاوز هذا الموضوع إلى غيره». وقد جاء في نسخة المكتبة الوطنية (ــ ا هذا) وليس في ذلك ما يفيد لرفع الغموض.

فقد بان لك بهذا أن غناء العرب كان في صدر الإسلام طبيعيا كما كان ميزان شعرهم طبيعيا وإعراب كلامهم كذلك. ولم تكن ألحانهم يومئذ محصورة في نوع أو عدد كما كانت ألحان الفرس، وإنما كان المهرة منهم أهل الذوق السليم والفكرة الوقادة يعمدون إلى البيتين والثلاثة من الشعر، فيخترعون فيه لحنا خاصا وغناء مطربا متساوي الأجزاء متناسب المقاطع والمبادي حسن الترجيعات عذب الرنات على أكمل وجوه الغناء وألطفها، ثم يغنون بها وتروى عنهم وتنسب إليهم؛ وهؤلاء مثل معبد وابن سريج من المتقدمين، وإبراهيم الموصلي وإسحاق ابنه من المتأخرين. وكان كل من اخترع صوتا بقي منسوبا إليه ومحفوظا عنه، فيقال هذا صوت معبد، وهذا صوت ابن سريج، وهذا صوت الموصلي، وهكذا. وهذه الطريقة هي التي ألف فيها أبو الفرج الأصبهاني كتابه وبناه على المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد رحمه الله؛ فكان المغنون إذا حضروا مجلس الخليفة أو غيره من مجالس الأنس يمكثون سكوتا، حتى إذا دارت أقداح النبيذ وأخذوا في الشرب أخذ المغني واحدا أو متعددا عوده وضرب به وغنى البيتين أو الثلاثة باللحن الذي يختاره من اللحون التي كانت متداولة عندهم، فيكون ذلك من ألذ ما يسمع ويجلب الأريحية والسرور؛ ثم إذا دارت الأقداح ثانية غنى مغنيهم صوتا آخر، وهكذا. ولم يكن غناؤهم كغنائنا (369) اليوم، متصل العمل مرتبطا بعضه ببعض، وينتقل فيه من شعر إلى توشيح إلى زجل إلى غير ذلك حتى يأتي على آخر النوبة، وإنما كان عملهم كما وصفنا لك.

واعلم أن ألحانهم وأغانيهم، وإن كانت غير محصورة كما قلنا، لكن إيقاعاتهم التي كانوا يوقعون عليها ألحانهم كانت محصورة، وهي ثمانية: الثقيل الأول، وخفيفه، والثقيل الثاني، وخفيفه، والرمل، وخفيفه، والهزَج، وخفيفه. وربما زادوا تاسعا يسمى «الماخوري» نسبة إلى الماخور، وهو بيت الريبة. زعم إبراهيم الموصلي أن إبليس نادمه ولقنه إياه.

وقد أشار في ذيل التذكرة إلى ضبط نقرات الخفيف والثقيل في الجملة فقال: إنه لا بد بين كل نقرتين من سكون، فإن ساوى زمانُه زمانَ النقرة الواقعة قبله وبعده فهو

الخفيف المطلق، وإن زاد زمانُ السكون على زمانهما فإن كان ما زاده قدر نقرة أخرى فهو الخفيف الثاني، وإن كان الزائد قدر ثِنْتَين فهو الثقيل الأول، أو قدر ثلاث فالثقيل الثاني، وما زاد على ذلك فغير مستلذ[88] هـ. واستمر الحال بالمشرق على هذا العمل إلى زمان انقراض الخلافة العباسية من بغداد.

وقد كان أبو نصر الفارابي[89] الحكيم المشهور في أواسط المائة الرابعة معاصرا لأبي الفرج الأصبهاني بالعراق، وقد أتقن فن الموسيقى وهذبه واخترع الآلة المسماة ب»القانون» فيما حكى ابن خلكان، ومع ذلك لم يأخذ الناس بقوانينه حتى درس أمر الخلافة كما قلنا، وذلك أواسط المائة السابعة، وتغلبت أمم الترك على بلاد المشرق، فمال الناس إلى غنائهم واختلطت أغانيهم بأغاني العرب، فحدث في الغناء اصطلاح جديد بين العربي والفارسي والتركي، وقسموه تقسيما غير ما تقدم، فجعلوا الأصول أولا أربعة، وهي الرصد الذي كان يسمى عند الفرس الراست، ثم العراقي وهو الذي كان يسمى عند الفرس الهفتكاه، ثم الزرَفْكند وهو الذي تسميه المغاربة الزوَركند، وأظنه تركي الأصل، ثم الإصبهاني نسبة إلى إصبهان بلد بعراق العجم، ثم قالوا إن كل واحد من هذه الأصول الأربعة قد نشأ عنه اثنان هما أصلان أيضا، فنشأ عن الرصد الزُّنكُلاه والبزرك، وقد تقدما، ونشأ عن العراقي الحسيني وهو الذي يسمى عند الفرس الشيشكاه، والرُّهاوي نسبة إلى الرُّها بالضم بلد بالجزيرة الفراتية، ونشا عن الزرفكند بوسليك والحجازي، وقد تقدما معا في العربات، ونشأ عن الإصبهاني (370) النوى، وهو الذي تسميه الفرس البنجكاه والعَشاق. وقد نظم بعضهم هذه الأصول وما نشأ عنها فقال: (رجز)

الـحـمـدُ لـلـهِ ولـيِّ الـنِّــعْـمَـة   مَـن خـصَّـنـا منها بِعِـلـم النَّغمَـه

الرَّصدُ أصلُ الأَصلِ يامَن أصــُلا   فـروعُـه الـبـرُزُك ثــمّ الَـزنـكُــلا

أما العـراقِـي خُـصَّ بالـفَـرعيـن   مِـنـهُ الـرُّهـاويُّ مَـعَ الـحُـسيـنـي

والزرِفَكَـنْـد مـا بــه تــشـكِـيـكُ   لــه الـحـجــازيُّ وبُــوسُــلَــيْــكُ

والإصـبـهـاني رابـعٌ ومـا حـــوى   فروعُه العَشاق حــقـا والــنّــوى

---

88. **ذيل التذكرة** لداود الأنطاكي، ج 3، ص. 489.

89. الفارابي أبو نصر محمد بن طرخان، من أصل تركي. ولد في فاراب ورحل إلى بغداد حيث درس الفلسفة. أتقن علوم الفلسفة وبرع في الموسيقا، وفي الضرب على العود. له كتاب **الموسيقا الكبير** وغيره . توفي حوالي 339 هـ/950م.

ثم قالوا إنه قد تولد من بين كل اثنين من هذه الأصول الاثني عشر فرع واحد، فجاءت الفروع ستة، وهي على ما في إرشاد القاصد الشهناز، والنوروز، والماية، والكردانية، والسَّلْمَك، والكوشت، وهي أسماء فارسية، فالشهناز مركب من كلمتين إحداهما «ناز»، بمعنى دلال، والأخرى «شاه» بمعنى ملك، وحذفت ألفه تخفيفا؛ والتركيب إضافي أي دلال الملك. والنوْروز اسم في الأصل لأول يوم من السنة العجمية،[90] وهكذا. وإنما خالفوا الفرس في ترتيب الأصول والفروع لمناسبات لاحظوها تُنظر في محلها. فجملة طبوع الغناء عند هؤلاء أصولا وفروعا ثمانية عشر.

وأما إيقاعاتها فثمانية عشر أيضا على ما ذكره الشهاب محمد بن إسماعيل[91] في سفينته، وهي الخفيف والثقيل والمربع والمخمس والمحجر والمدور والمصمودي والفاخت والورشان والشنبر والأوفر والرهج والنَّوَخْت والزرافات، والستة عشر والأربعة والعشرون والسماعي والأفرنجي. وقد يزاد على ذلك السربند والدارج وغيرهما. وقد نظمها فقال: (طويل)

ضروب موازين الأغاني نظمتهـــا — وهـا هي يا ابن الفن بعدُ ستُذكر
خـفيـفٌ، ثقيـلٌ، شـنبـرٌ، ومربعٌ — كـذا وَرَشانٌ، فـاخـتٌ ومحـجـــرُ
وزد رَهَجا، فيها يليـه مـخـمّـس — كـذلك مـصـموديُّـهـا، والـمـدوَّر
ومن بعد ضرب الستَّ عشرةَ أربعٌ — وعشرون أيضا والزرافات أوفـــر
ويـعـقـبـهـا طـرا نَوَخْتُ، وبـعـده — يجيء السماعي وهْو عنها يُوَقَّـر
وإذ جُمعت فيمـا ذكـرتُ بـأسرها — وعدتها في سبع عشـرة تـحصـــر
فدونـك إيـاها وقـد زيد واحـــد — عزَوه إلى الإفرنج فيما يـخبـرِّ(371)
ولكن هذا الـحـصر حـصر إضافـة — لـمـا أنـهـا مـمـا يـعُــدون أكـبـــر
ومـرجـعـهـا كلا إلى الـوحدة الـتـي — بهـا توزن الألحان حيـث تـحـــرر[92]

والعمل بالمشرق على هذا الاصطلاح إلى الآن.

---

90. **إرشاد القاصد** للأكفاني ص. 92ـ94.

91. شهاب الدين محمد بن إسماعيل بن عمر المكي الولادة المصري النشأة التعلم، **درس الأدب ونبغ في الموسيقا والحساب والهندسة**. له ديوان شعر، توفي في 1274 هـ.

92. الشهاب محمد بن إسماعيل، **سفينة الملك ونفيسة الفلك**، المطبعة الجامعة بشارع عابدين، مصر 1309 هـ ص. 9.

وإذ فرغنا من غناء أهل المشرق فلنرجع إلى غناء أهل المغرب وبيان أقسامه وحدوده وما لا بد منه إذ هو المقصود بالذات من هذه النبدة فنقول:

لما فتح العرب جزيرة الأندلس في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان وواطنوها وتناسلوا بها، كان لهم غناء بسيط كغناء سلفهم، وقد نبهنا عليه فيما مر، وربما غنوا غناء يشبه غناء الفرنج من وجه لمجاورتهم إياهم وممازجتهم لهم. ولم يكن بالجيد ولا المطرب، واستمر الحال على ذلك إلى صدر المائة الثالثة، فقدم الأندلس حينئذ علي بن نافع مولى المهدي العباسي المعروف بزرياب، [93] وكان من كبار المغنين والمبرزين في تلك الصناعة، ففر من العراق خوفا من الموصليين في خبر طويل، واستقر بالأندلس عند أميرها عبد الرحمن بن الحكم الأموي، فأقبل عليه وحباه؛ وغنى زرياب بالأندلس غناء أهل العراق، وبث بها طريقة الموصليين، وأربى عليهم فيها، فترك الناس ما كانوا عليه وأخذوا بمذهبه. ثم ترقى عن ذلك وأحدث في الغناء اصطلاحا جديدا، وذلك أنا قدمنا أن غناء العرب في صدر الإسلام وأيام الخلفاء إنما كان بإنشاد البيتين والثلاثة حال الشرب أولا على لحن مخصوص، وهكذا ثانيا وثالثا حتى ينقضي مجلس الأنس، فلما قدم زرياب الأندلس أحدث هذا الغناء المسلسل المتصل بعضه ببعض إلى تمام النوبة، وتبعه الناس على ذلك بالأندلس والمغرب. قال المقري[94] في نفح الطيب: استمر العمل بالأندلس أن كل من افتتح الغناء يبدأ أول شدوه بالنشيد بأي نقر كان، ويأتي بعده بالبسيط، ويختم بالمحركات والأهزاج تبعا لمراسيم زرياب هـ.[95] ثم تفنن أهل الأندلس بعد زرياب في الأغاني خصوصا أهل إشبيلية وغرناطة منهم، فذهبوا فيها إلى طريقة العجم من التأصيل والتفريع وتخصيص كل صنف منه بطبيعة من الطبائع الأربع وتوزيع اللحون على

---

93. زرياب، علي بن نافع المغني البغدادي الشهير، ولد حوالي 160هـ/777م تتلمذ على إسحاق الموصلي، ثم حدث بينهما ما حمله على الرحيل إلى الأندلس حيث استقبله الخليفة الأموي عبد الرحمن الأوسط. أسس في قرطبة «دار المدنيات»، فكانت أول معهد لتعليم الموسيقى بالأندلس. توفي عام 238هـ/852 م. انظر ترجمته في **نفح الطيب** للمقري (2/742) و**تاج العروس** (1/286).

94. أحمد بن محمد المقري التلمساني المولد.(984ـ1041 هـ/1578ـ1631م) من مؤلفاته: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، و نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. انظر ترجمته في درة الحجال 2/43ـالإعلام للمراكشي 4/382ـ **سلوة الأنفاس** 3/271

95. **نفح الطيب**. ج 3، ص. 387.

ساعات الليل والنهار، إلى غير ذلك. وهذه الطريقة هي التي انتقلت من غرناطة حين استيلاء العدو عليها إلى فاس والمغرب، ولا زالت بقية منها بأيدي الناس اليوم. فلنذكر ما لا بد منه من ذلك ليوقَف عليه فنقول:

ذكروا أن كل ما يدور على ألسنة المغنين من أهل الأندلس والمغرب (372) فهو راجع إلى خمسة أصول وتسعة عشر فرعا؛ فالمجموع أربعة وعشرون. أما الأصول فهي الذيل والزيدان والماية والغريبة المحررة. أما الذيل فيتفرع عنه ستة فروع، وهي رصد الذيل، ورمل الذيل، ومجنب الذيل، واستهلال الذيل، وعراق العرب، وعراق العجم. وأما الزيدان فيتفرع عنه ستة فروع أيضا، وهي الأصبهان، والحِصار، والزوركند، والحجاز الكبير، والحجازالمشرقي، والعشاق. وأما الماية فيتفرع عنها أربعة فروع: رمَل الماية، وانقلاب الرمل، والرصد، والحسين. وأما المزموم فيتفرع عنه ثلاثة فروع، وهي حمدان، وغريبة الحسين، والمشرقي الصغير. وأما الغريبة المحررة فلم يتفرع عنها شيء.[96] وأنت إذا تأملت أسماء هذه الطبوع ظهر لك أن بعضها مأخوذ من ألحان الفرس، وبعضها مأخوذ من ألحان العرب صدر الإسلام، وإنما وقعت المخالفة في التأصيل والتفريع لاعتبار اقتضاه الحال حسبما نبهنا عليه في اصطلاح المشارقة. وقد وقع ذكر المزموم والاستهلال وغيرهما في كتاب الأغاني لأبي الفرج، فبان بهذا أن غناء العرب صدر الإسلام مأخوذ من غناء الفرس، ثم انتقل إلى الأندلس على ضرب من التصرف، ثم انتقل إلى فاس والمغرب كذلك.

وقد وقفت على تأليف صغير منسوب إلى محمد بن الحسين الحايك[97] فرأيت له في بيان من استنبط هذه الطبوع ووجه تسميتها بهذه الأسماء كلاما لا يصدر إلا من الحاكة، وقلده في ذلك أناس ألفوا بزعمهم في هذا الفن،[98] وذلك هو الذي حملني على التوسع بعض الشيء في هذه المسودة مع غرابة الفن وانقراض أهله.

96. الفقرة بدءا بـ «كل ما يدور على ألسنة المغنين...» مستمدة من كتاب **الأنيس المطرب** لمحمد بن الطيب العلمي في ترجمته للموسيقي محمد البوعصامي.

97. محمد بن الحسين الحايك الأندلسي التطواني الفاسي، عاش في القرن الثالث عشر على عهد السلطان محمد الثالث، اشتهر بالكناش الذي يحمل اسمه والذي جمع فيه المستعملات الشعرية لموسيقا «الآلة». انتهى من جمعه عام 1214هـ.

98. لقد سبق الحايك إلى هذا أخرون من بينهم محمد البوعصامي.

واعلم أنهم ذكروا أن طبع الذيل وما تفرع عنه يوافق أهل السوداء، وطبع الزيدان وما تفرع عنه يوافق أهل البلغم، وطبع الماية وما تفرع عنه يوافق أهل الدم، وطبع المزموم وما تفرع عنه يوافق أهل الصفراء، فيغنى لكل واحد بما يوافقه إن تأتى ذلك، وإلا فيعتبر حال رئيس المجلس. وقد جرت عادتهم أن يرسموا هنا صورة شجرة أو صورة جدول يبين فيهما الأصول والفروع من هذه اللحون، ولم نر نحن أن نرسم شيئا من ذلك لعدم فائدته مع ما بيناه.

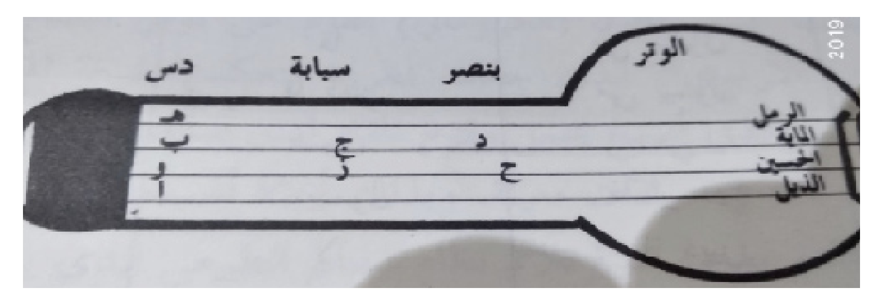
وأما إيقاعات هذه الطبوع فخمسة: البسيط، والقائم ونصف، والبَطائحي، والدرج، والقدام. والكلام في ضبط نقراتها وبيان ما تدخل فيه من الطبوع وما لا تدخل وفي النوب المستعملة والمهملة وغير ذلك يطول.

فائدة: ذكر الأديب أبو عبد الله العلمي[99] (373) في أنيسه أن الأديب الكاتب أبا عبد الله البوعصامي ثم المكناسي [100] كانت له قدم راسخة في صناعة الغناء، وأنه أملى عليه أن أول ما يجب الاعتناء به في هذه الصناعة معرفةُ النغمات الثمان التي عليها مدار الغناء والألحان كلها. قلت: وهي السبع المفروضة في الديوان الأول مع الأولى من الديوان الثاني حسبما مر. قال: «وكيفية أخذها على سبيل الترتيب من الأوتار الأربعة أن تعرف أنها متفاوتة في البعد، فأقربها نغمة البَم، وهو الوتر المسمى اليوم بالذيل، وتليها نغمة المَثْلث، وهو وتر الماية من غير دس عليه بالبنصر من يدك اليسرى ولا بالسبابة، وتليها نغمته أيضا مع الدس بالسبابة، ثم تليها نغمته مع الدس بالبنصر، ثم نغمة المثنى، وهو الرمل، ثم الزير، وهو الحسين من غير دس، ثم نغمته أيضا مع الدس بالسبابة، ثم نغمته مع الدس بالبنصر، وبذلك تتم النغمات الثمان، ولا يكاد يتخلل مراتب هذه النغمات نغمة أخرى أبعد ولا أقرب، بل كل نغمة استخرجت من سائر الأوتار والأصوات فهي راجعة إلى هذه النغمات المذكورة»، يعني أنها أصول لها. قال: «وضبطها بحروف (أبجد) أن تجعل الألف للنغمة الأولى التي هي أقرب النغمات وأخفضها، وهي نغمة الذيل، والباء التي تليها، وهي أرفع منها بيسير، وأخفض من التي

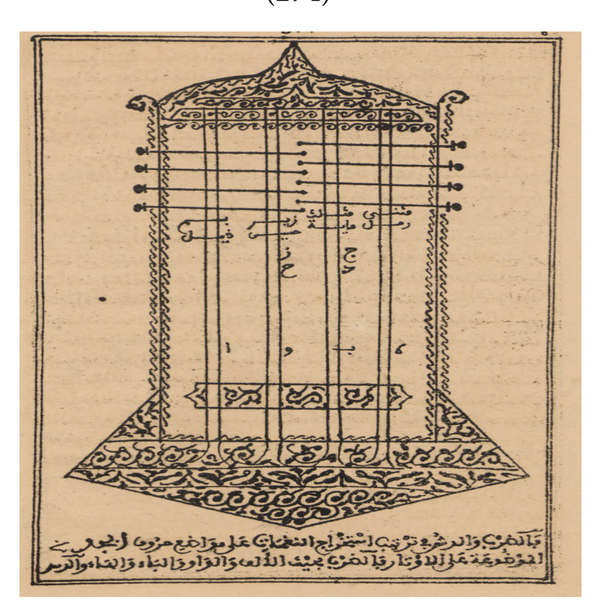
99. محمد بن الطيب العلمي. اشتهر بكتابه **الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب**، ترجم فيه لاثني عشر من أعلام العلم والأدب والفن من بينهم الموسيقي محمد البوعصامي. توفي في طريقه إلى مصر عام 1134هـ/1722م.

100. محمد بن محمد البوعصامي. عاش في فترة تتراوح بين أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، فعاصر كلا من المولى إسماعيل وابنه المولى عبد الله. له رسالة بعنوان: **إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع**.

فوقها بيسير، وهي نغمة الماية من غير دس، والجيم للتي تليها، وهي نغمة الماية أيضا مع الدس بالسبابة، والذال للتي تليها، وهي نغمة الماية أيضا مع الدس بالبنصر، والهاء للتي تليها، وهي نغمة الرمل، والواو للتي تليها، وهي نغمة الحسين من غير دس، والزاي للتي تليها، وهي نغمته أيضا مع الدس بالسبابة، والحاء للتي تليها، وهي نغمته أيضا مع الدس بالبنصر»[101]. وصورة العود وكيفية العمل فيه هكذا.



(274)



«فالضرب والدس في ترتيب استخراج النغمات على مواضع حروف (أبجد) الموضوعة على الأوتار، فالضرب بحيث الألف، والواو، والباء، والهاء؛ والدس (275) بالسبابة بحيث

101. الفقرتان الموضوعتان بين «...» كلتاهما اقتبسهما المؤلف من كتاب العلمي المذكور ص. 174-175 انظر كتاب **إيقاد لشموع** للبوعصامي. منشورات أكاديمية المملكة المغربية تحقيق عبد العزيز ابن عبد الجليل، ص. 64-65، **المصدر السابق**.

الزاي والجيم، وبالبنصر بحيث الحاء والذال. وترتيب النغمات على ترتيب الحروف يُنتقل معها حيث انتقلت: فالوتر الذي عليه حرف واحد فيه إشارة إلى أنه انفرد بالضرب عن الدس، وبذلك تعلم أن الذيل ليس فيه سوى نغمة واحدة هي أخفض النغمات؛ ومثله الرمل في انفراده بنغمة واحدة يضرب على كليهما ولا يدس. وفي كل من الماية والحسين ثلاث نغمات، واحدة في الضرب وحده، واثنتان فيه مع الدس بالسبابة وبالبنصر. فإذا علمت مراتب هذه النغمات وصار استحضارها عندك ضروريا وجرت يدك فيها على الأوتار من غير توقف، سهل عليك أخذ ما تريد من الوتر بأحرف (أبجد)الثمانية»، [102]

والعادة جارية بتقديم بحر الرمل في التعليم لقرب مأخذه وخفة مؤونته،[103] وهو البحر المركب من (فاعلاتن) ست مرات نحو (رمل)

يا سول الله يا بحر الوفا يا شفيع المهتدي والمعتدي

ولم نر أن نرسم حروف نغماته لما يدخلها غالبا من كثرة التصحيف والتخليط.

قلت: وهذه الطريقة بعينها هي طريقة الإفرنج[104] في تعليم أولادهم صناعة الغناء، فإنهم قد وضعوا حروفا وأشكالا ونقطا كثيرة مختلفة، بعضها يُدل به على النغمات، وبعضها يدل به على رناتها، وبعضها يدل به على نبراتها، وهكذا.

ثم رتبوها في أوراق على أوجه مخصوصة ترتيبا هندسيا جاريا على قوانين الغناء، وحملوا المتعلم على تهجيها والترنم بها، فتراه يتنقل في تلك النغمات مترنما بها كما يتنقل المتهجي في حروف الكلمات، فإذا مرن عليها نصب تلك الورقة أمامه، ثم أخذ الآلة من عود ونحوه، وغنى بها غناء مستويا، ينظر في تلك الأشكال ويضرب ويترنم بحسبها، فإذا أُخذت الورقة من أمامه وغابت عن عينيه انقطع حالا كما ينقطع القارئ الذي لا حفظ معه بأخذ المصحف من يده بغتة؛ فهم إنما يغنون تبعا لتلك النقوش، لا عن قريحة وسجية، فلذا يكون غناؤهم غير مطرب غالبا؛ وقد تقدم هذا.

102. الفقرة الموضوعة بين «...» مأخوذة من **الأنيس المطرب** (ص175) انظر **إيقاد الشموع** ص 65 و66.

103. توجد هذه العبارة في طرة ترجمة العلمي للبوعصامي، ص 175. وهي من وضع مصححه محمد الرايس عام 1303 هـ.

104. المراد بالإفرنج هنا الفرنسيون.

قال: «وبمعرفة استخراج النغمات المذكورة من الأوتار يصير الإنسان عارفا بتقويم العود وتسوية أوتاره من غير احتياج إلى ضابط في ذلك. ولا بأس بذكر قاعدة يستعان بها على تقويمه قبل معرفة مواضع النغمات ومواقعها، وذلك أن تقوم الماية أولا على طبقة معتدلة، ثم تضع سبابتك على موضع البنصر منها وتضع البنصر حيث تقتضيه (276) المرتبة بعد ذلك، فيكون بعد الرمل، فقوِّمه عليه حتى يماثله، ثم تضع سبابتك على موضعها من الرمل فيكون بعد الحسين فقومه عليه، ثم تضع سبابتك على الحسين بموضعها حال العمل وتضع بعدها البنصر بموضعه فيكون بعد الذيل، إلا أنه شيخ فقوِّمه عليه حتى يلتئم شاب الحسين مع شيخ الذيل. ولك أن تقدم أولا تقويم الذيل على طبقة معتدلة، وتضع سبابتك على موضعها منه فيكون بعد الماية فقوِّمه عليه، وسر على بقية العمل كما تقدم، فبين الذيل والماية بعد طني، وبين الماية والرمل وبين الحسين والذيل بعد بالأربع، وبين الرمل والحسين بعد طني، فنسبته من الرمل كنسبة الماية من الذيل.

وأما ترتيب الأوتار بحسب تركيبها في محالها وترتيبها في الوضع فقد رمزوا له بأربعة أحرف، وهي (ذحمر)، فالذال للذيل، وهو المقدم، والحاء للحسين، وهو الموالي له، والميم للماية، وهو الثالث، والراء للرمل، وهو الرابع. والنظر في هذه الأحرف إلى جهة ترتيبها في الوضع لا إلى جهة عددها، وكل حرف منها مأخوذ من أول الوتر المشار إليه به[105].

تتمـــــة: نذكر فيها بعض اصطلاح الإفرنج[106] في غنائهم، وهذا الفصل نقلناه عن صاحب الرغائب وهو الأديب أبو العباس أحمد فارس القسطنطيني[107] حياه الله، فإنه ذكر أن «غناء الإفرنج اليوم على أربعة أنواع: الأول وهو أحسنها، ما يتغنى به في الملاهي مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعه وخفضه ورفعه وترقيقه وتفخيمه، ويدخل فيه نبرات تدل على الحماسة والتحريض والتشجيع. والثاني، وهو قريب منه، ما يرتل به في الكنائس، ولا يكاد يكون فيه ترجيع. والثالث ما يتغنى به في المآتم والمحزنات، وفي هذا

105. إيقاد الشموع. **المصدر السابق**، ص. 67.

106. المراد بالإفرنج أو الفرنج هنا الفرنسيون كما سيظهر من خلال المصدر الذي ينقل الشارح عنه.

107. أبو العباس أحمد فارس القسطنطيني الشهير بالشدياق المتوفى عام 1304 هـ1887م.

النوع يستعملون غناء رقيقا رخيما أشبه بالنجوى، فمن سمعه فهم المراد منه وإن كان جاهلا باللغة، كما إذا رأيت شخصا مجهشا بالبكاء فأنت تعلم إجهاشه بالبديهة وإن لم تعرف سببه. والرابع ما يتغنى به في المضحكات والمحاورات، وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر وإطرابه؛ إنما هو من حيث أنهم يوقعون عليه ألفاظا غريبة ويصلونه بحركات مضحكة ومحاكيات مختلفة، فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون ويتثاءبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاجة وزقزقة العصفور وغير ذلك. وفي كل من هذه الأنواع يستعملون المساجلة في المناوبة، وهي مطربة جدا وأكثرها في النوع الأخير. (377) وكما أن لهم غناء مضحكا، كذلك لهم رقص مضحك ينسي الثكلى حزنها».[108]

ثم قال: «والفرق بين غناء العرب والفرنج من عدة وجوه، أحده أن الفرنج ليس لهم صوت مطلق للإنشاد دون تقيد بالنقوش، وذلك أنهم جعلوا ترجيع الصوت وإيقاعه داخلا تحت حس المشاهدة، فدلوا عليه بنقوش ورسوم معلومة، كما دلت الحروف على المعاني، فلم يكن تحصيله متوقفا على ذاكرة وذوق، وعظيم معاناة كما في غناء العرب، وكاد يستوي فيه الذكي والغبي، فمن عرف منهم مخارج النغم ورأى تلك العلامات أمكنه أن يُخرج عليها أي صوت كان، وإذا اجتمع منهم عشرون رجلا، وكانت أمامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة، فلو اقترحت على أحدهم ـ مثلا ـ أن يغني بيتين كما يُفعل عندنا في القصائد والمواليات من دون نظر إلى تلك العلامات لما جاء بشيء، وهو غريب بالنسبة إلى براعتهم في هذا الفن».[109]

قلت: لا غرابة، لأن براعتهم إنما هي في العلم لا في العمل، وفرق بين العلم الإدراكي والعمل الاتصافي، فافهم.

ثم ذكر صاحب كنز الرغائب أن أول من أحدث لهم تلك النقوش رجل طلياني حديث العهد»[110]. قلت: بل هو مسبوق بذلك، لما علمت من أن مراتب النغم يُدل

108. **كنز الرغائب في منتخبات الجوائب**، ج، 4 ط 1، الأستانة، 1295 هـ ص. 163.

109. **المصدر نفسه**، ص. 163ـ 164.

110. القصد هنا إلى الموسيقي الإيطالي كَي داريتزو 992 (Guy d'Arezzo ـ 1033)، الذي ينسب إليه وضع أسماء درجات السلم الموسيقي السبع (دو ـ ري ـ ري ...) التي هي أولى مقاطع أبيات نشيد سان جان بابتيست.

عليها عندنا بحروف (أبجد) كما مر قريبا في كلام البوعصامي. وقد مر صدر هذه المسودة في كلام ابن ساعدة أن النغمة صوت لابث زمانا ما يجري من الألحان مجرى الحروف من الألفاظ هـ . فهذا يدل على (أن) اختراع ذلك قديم، وأظن أنه مأخوذ عن الفرس أو يونان، فكيف ينسب اختراعه إلى هذا الطلياني وتوقف فضيلته عليه؟ **نعم،** قد يكون زاد في المراتب وتوسع فيها.

«الفرق الثاني بين غناء العرب والفرنج أنه إذا اجتمع من الفرنج عشرة مغنين ـ مثلا ـ وأرادوا إنشاد موشح أخذ بعضهم في بعض أركانه من مقام، وأخذ بعض في ركن أخر من مقام آخر، وهكذا؛ فإذا كانت الأغنية ــ مثلا ــ من الرصد غنى واحد جزءا من هذا المقام بصوت أجش، وآخر جزءا من النوى بصوت بين بين، وآخر جزءا من الجواب بصوت عال، فيسمعه السامع من عدة مقامات.

الثالث أن غناء الفرنج مثل قراءتهم في أنه لا يخلو من حماسة وتهييج، زيادة على التصبية والتشويق، فإذا سمعه الجبان، ولاسيما من الآلات العسكرية هانت عليه نفسه؛ أما غناء العرب فكله تصبية وتشويق، وأَجْدِرْ به أن يكون جامعا (378) لمعاني الطرب.[111]

الرابع أن الفرنج لا قرار لأصواتهم إلا على المقام الأول الذي هو الرصد، مع أن آلاتهم تشتمل على جميع المقامات، بل توجد فيها أيضا أنصافها وأرباعها، إلا أن أصواتهم لا تقر إلا على المقام الأول. قال: وقد سمعت منهم بعض الأغاني التي نقلوها عن أغانينا وأَوقعوها على آلتهم، فكانت كلها رصدا.

الخامس أن أصحاب الآلات من الفرنج لا يحسنون إخراج أنصاف النغم وأرباعها ما لم تكن مرسومة لهم في الآلة، إلا العارف بالرباب والكمنجة. قال: «وهذه الأنصاف والأرباع في النغم مثل الإشمام والرَّوْم في الحركات».[112]

وبالجملة، فإن للفرنج في هذا الفن حركات خارجة عن ذوقنا، وأخرى لا تمكن محاكاتهم فيها. قلت: وقد مر كشف النقاب عن هذا بما فيه كفاية.

111. **المصدر نفسه.**

112. **المصدر نفسه**، ص. 166.

قال: «ومن الغريب أنهم مع كثرة ما عندهم من الآلات لهذا الفن، فقد فاتهم العود على كثرة محاسنه»[113]. قف على بقية كلامه».

وقد بقي علينا أمر مهم، وهو حكم الشارع في هذا الغناء واستعمال آلاته؛ والخلاف في ذلك شهير، وإن أردت أن تقف على نصوص العلماء وفتاوي الأئمة في الغناء والسماع والرقص فعليك بكتابنا الموسوم بـ «نُصرة السنة»، [114] ففيه ما يكفي ويشفي. وأما المناسب هنا فالاقتصار على أبيات نظمها في ذلك شهاب الدين محمد بن إسماعيل وأثبتها في سفينته. ونص القدر المحتاج إليه منها (رجز): [115]

فقم بنا ياصاحِ نحو الحان ... واجلُ الطِّلى وغَنِّ بالألحان

اشرب وطبْ برنة المَلاهي ... ولَا تكنْ عن صوتها باللّاهي

هذا العراقيُّ هُمامُ الأمهْ ... ومَقتدَى أكابرِ الأئمَّهْ

وهْوَ على ما فيه مِن تَحَرِّي ... يُجَوّز النبيذَ لِلتمَري

ثم ابنُ حزم وهو حَبر عارفُ ... قد جُوِّزت في قولهِ المعازفُ

وعنده قد حَلتِ الأوتارُ ... والدُّفُّ والطنبور والمزمارُ

كذلك الأرغنُّ والربابهْ ... والنايُ والموصول والشبابهْ

ولا جُناح في الجَناح عندهُ ... فاسمع لها واطربْ وتابع جندهُ

إلى أن قال:

فهاتِ كاساتِ النبيذ هاتِ ... واشرب على ترنُّم الآلاتِ

وإن تكنْ مُتابِعَ الحِجازي ... وقلتَ بالتحريم لا الجَوازِ

---

113. **المصدر نفسه**، ص 166.

114. المراد كتاب **تعظيم المنة** بنصرة السنة من تأليف أحمد بن خالد الناصري، **دراسة وتحقيق الزبير دحان**، دار الأمان، الرباط، المغرب، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1433 هـ/2012 م.

115. منظومة لشهاب الدين مطلعها:

غنت على عود الربا القماري ... تروي شذا عود الكبا القماري

(379) وصرت بعدُ آخذا بالحَزمِ   ولـم تــكـن لـتَـتْـبـعَ ابــنَ حـزمِ
فاجزم به وشنِّفِ المسامعـــا   واشربْ وكن في العفو عنك طامعـا
ودَعْ سفينة الذنوب مَاخِـــرَهْ   في بـحـر فضـلِ الله حـتـى الآخِـرَهْ

ومراده بالعراقي الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه، ومذهبه في النبيذ معروف. ومراده بالحجازي الإمام مالك رضي الله عنه، وهو يقول: إن كل ما أسكر كثيره فقليله حرام، كان من عصير العنب أم من غيره. وعلى مذهب أبي حنيفة يحمل ما كان يحضر مجالس الخلفاء من بني العباس من الشراب، فإنهم عراقيون. والله يتغمد الجميع برحمته، آمين.

المصادر

الأبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف.**

الأصبهاني، **كتاب الأغاني**، ج 5 دار الفكر ج 9.

الأكفاني السنجاري شمس الدين بن ساعد، **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، مخطوطة، المكتبة الوطنية رقم 148.

الأنطاكي داود، **ذيل التذكرة**، ج 3.

البوعصامي محمد، **إيقاد الشموع للذة المسموع:** مخطوطة مودعة بالخزانة الحسنية ضمن مجموع (14) تحت رقم 11333، تحقيق عبد العزيز ابن عبد الجليل، منشورات أكاديمية المملكة المغربية. سلسلة التراث 1995.

التيفاشي أحمد بن يوسف القفصي: **متعة الأسماع في علم السماع** ـ بيـت الحكمـة ـ قرطاج 2019.

الجعايدي إدريس بن مَحمد السلاوي: **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار.**

ابن خلدون، المقدمة ـ **فصل صناعة الغناء.**

ابن خلكان، **وفيات الأعيان** ـ دار الكتب العلمية ج 1.

گنون عبد الله، **شرح الشمقمقية.**

المقري أحمد بن محمد، **نفح الطيب**، ج 3.

مقدمة كتاب **تاريخ المغرب الأقصى** لأحمد الناصري الجزء الأول.

الناصري أحمد بن خالد: تعظيم المنة بنصرة السنة دراسة وتحقيـق الزبيـر دحـان، دار الأمان، الرباط، المغرب، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 1433 هـ/2012 م.

عبد العزيز بن عبد الله، **الموسوعة المغربية للأعلام البشريـة والحضارية**، الجزء الثالث.

العلمي محمد بن الطيب، **الأنيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب.**

ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر الفاسي: **دليل مؤرخي المغرب الأقصى**، الجزء الثاني رقم 2126.

ـ الشدياق أبو العباس أحمد بن فارس القسطنطيني: **كنز الرغائب في منتخبات الجوائب.**

ـ الشهاب محمد بن إسماعيل: **سفينة الملك ونفيسة الفلك** المطبعة الجامعة بشارع عابدين، مصر 1309 هـ.

شروط النشر في المجلة

- مجلة **المناهل** مجلة علمية محكمة لنشر البحوث العلمية الأصلية والمجددة، سواء منها النظرية أو الميدانية في العلوم الإنسانية والإجتماعية، ويشترط في النصوص المقدمة للنشر:
- أن تكون حصريا لمجلة **المناهل**، وألا تكون قد نشرت فيما قبل ورقيا أو إلكترونيا.
- أن يشتمل النص المقدم للنشر على العناصرالتالية: عنوان العمل وملخص له في نحو 100ـ125 كلمة.
- الحد الأقصى لعدد كلمات النص المقدم للنشر، بما في ذلك المراجع والهوامش وكلمات الجداول في حال وجودها، هو 8000 كلمة (حوالي عشرون صفحة).
- ترحب المجلة بالمراجعات النقدية للكتب المنشورة في المغرب وخارجه، مع وجوب ذكر عنوان الكتاب، واسم المؤلف، ومكان النشر وتاريخه وعدد صفحاته.
- توجه النصوص المقدمة للنشر ببرنامج الوورد (word) على العنوان الكتروني للمجلة: r.manahil2019@gmail.com
- تخضع النصوص التي تتلقاها المجلة للتحكيم، علما بأن للمجلة هيئة تحرير لفحص المواد وتقييمها.
- النصوص التي تتلقاها المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- النصوص التي تتلقاها المجلة لا تعبر إلا عن آراء أصحابها.
- تدفع المجلة مكافأة مالية عن النصوص المنشورة وفق مقتضيات قوانين حقوق المؤلفين.

مواضيـع ملفات الأعداد القادمة

المنجز المغربي في الدراسات التاريخية

التراث المغربي المحرر بالأمازيغية

المنجز المغربي في مجال البحث العلمي حول الأدب المغربي

سؤال التراث في الإنتاج الفلسفي المغربي المعاصر

سؤال الهوية في الإنتاج الثقافي المغربي المعاصر

المنجز المغربي في علوم التربية

سؤال الحداثة في الإنتاج الفلسفي المغربي المعاصر

المنجز المغربي في الدراسات اللسانية